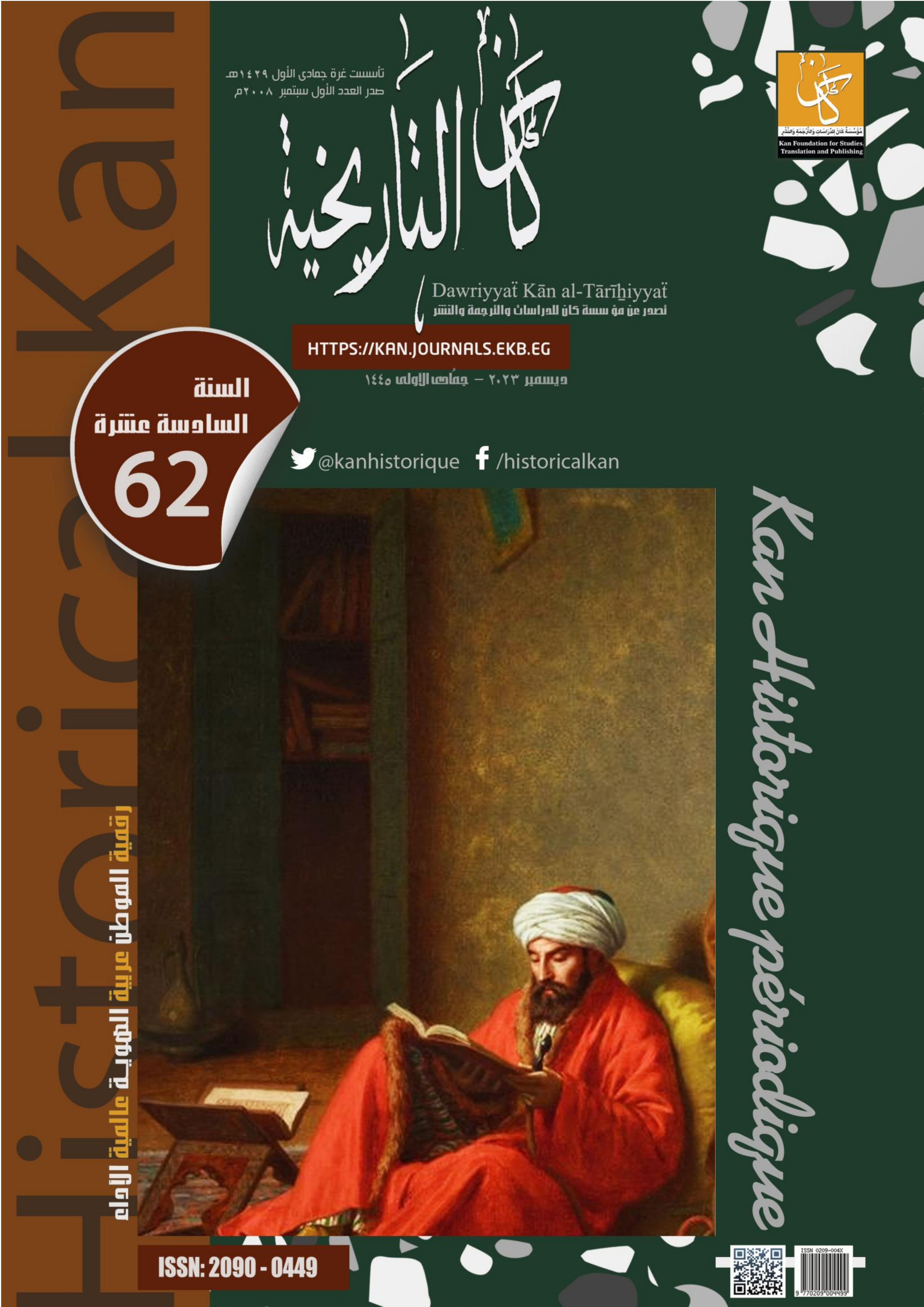


تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩هـ
صدر العدد الأول سبتمبر ٢٠٠٨م
كان التاريخية
Dawriyyat Kān al-Tārīhiyyat
تصدر عن مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر
HTTPS://KAN.JOURNALS.EKB.EG
ديسمبر ٢٠٢٣ – جمادى الأولى ١٤٤٥
السنة
السادسة عشرة
62
@kanhistorique
/historicalkan
Kan Foundation for Studies, Translation and Publishing
Kan Historique périodique
Historical Kan
رقمية الموطن عربية الهوية عالمية الأداء
ISSN: 2090 - 0449



دورية كان التاريخية.- س١٦، ع٦٢ (ديسمبر ٢٠٢٣/ جُمادى الأولى ١٤٤٥)

Dawriyyaẗ Kān al-Tārīḫiyyaẗ
Iliktrūniyyaẗ, muḥakkamaẗ , rub' sanawiyyaẗ
Vol. 16, no. 62 [Dec. 2023]
Cairo – Arab Republic of Egypt.
Egyptian Knowledge Bank.
Information on this issue: https://kan.journals.ekb.eg

دورية كان التاريخية

إصدار مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر.- س١، ع١ (سبتمبر ٢٠٠٨).- القاهرة: المؤسسة، ٢٠٠٨ – ٢٠٢٣.

دورية إلكترونية مُحَكَّمة ربع سنوية

متخصصة في البحوث والدراسات التاريخية

ردمد ٠٤٤٩ – ٢٠٩٠

١- تاريخ ٢- الآثار

٣- التراجم ٤ - التراث

ديوي ٩٠٥

Historical Kan Periodical
Published by Historical Kan Organization.- Vol.1, no.1 [September 2008].- Cairo: Organization, 2008 – 2023.
Peer-reviewed, open-access journal.
Indexed and abstracted in several international databases.
ISSN: 2090 – 0449 (Online)
Keywords: History, Heritage, Archaeology, Biographies.

أول دورية عربية إلكترونية محكمة ربع سنوية
متخصصة في الدراسات التاريخية
تأسست غرة جمادى الأول 1429هـ
صدر العدد الأول منها في سبتمبر 2008م



ISSN: 2090 – 0449 Online

مسجلة ومفهرسة في قواعد البيانات الببليوجرافية العالمية

- Academic Journals Database
- Access to Mideast and Islamic Resources, AMIR
- CORE: Open Access repositories
- Directory of Abstract Indexing for Journals, DAIJ
- Directory of Open Access Scholarly Resources, ROAD
- Directory of Research Journals Indexing, DRJI
- Eurasian Scientific Journal Index
- Google Scholar
- Host Online Research Databases, EBSCO
- Journal Database – Zurich Open Repository and Archive
- JOURNAL FACTOR – forum for promoting research work
- Journal Guide- Research Square
- ROOT INDEXING – Journal abstracting and indexing
- The researchBib Journal database
- Ulrichsweb
- WorldCat

مدرجة في الأدلة الرقمية لمكتبات الجامعات والمراكز البحثية العالمية

- Birmingham Public Library
- Max Planck Institute for the Physics of Complex Systems
- National Cheng Kung University Library
- National Taiwan Normal University Library
- NYPL (New York Public Library)
- OALib - Open Access Library
- OREGON Health & Science University
- San Francisco Public Library
- SAN JOSÉ STATE UNIVERSITY
- Stanford University Libraries & Academic Information Resources
- State Library of New South Wales
- State Library of Queensland (Australia)
- The J. Paul Getty Trust
- The University of Texas at El Paso Library
- Toronto Public Library
- UCDAVIS University Library
- University of California
- University of Michigan
- University of Rochester
- University of South Australia
- Villanova University

دراسات ومقالات الدورية مفهرسة وذات خلاصات

https://kan.journals.ekb.eg



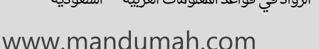
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
دار ناشري للنشر الإلكتروني
أول دار نشر إلكترونية عربية مجانية تأسست يوليو ٢٠٠٣ – الكويت
www.nashiri.net



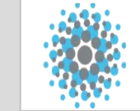
أعداد الدورية متوفرة للقراءة عبر:
أرشيف الإنترنت الرقمي العالمي
منظمة غير ربحية – سان فرانسيسكو – الولايات المتحدة
www.archive.org



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة معلومات اللغة والأدب والعلوم الإنسانية
دار المنظومة "الرواد في قواعد المعلومات العربية" – السعودية



www.mandumah.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة بيانات المنهل
أول قاعدة بيانات عربية تأسست ٢٠١٠ – الإمارات
www.almanhal.com



مقالات الدورية مفهرسة في:
قاعدة البيانات العربية الرقمية "معرفة"
شركة عالم المعرفة للمحتوى الرقمي تأسست ٢٠٠٤ - الأردن
www.e-marefa.net



دورية كان التاريخية مدرجة في:
دليل الدوريات العربية المجانية
الدوريات العلمية المُحكّمة الصادرة في الوطن العربي والمتاحة على شبكة الإنترنت مجاناً
www.dfaj.net



موقع دورية كان التاريخية مسجل لدى:
هيئة الإنترنت للأسماء والأرقام المخصصة
الآيكان منظمة غير ربحية تأسست ١٩٩٨ – كاليفورنيا
www.icann.org



معتمدة من مركز مؤشر - برلين:
المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية
عن الالتزام بشروط النشر العلمي المعتمدة عالميًا.
https://indexpolls.de

تعتبر الدوريات شريانًا رئيسًا من شرايين المعلومات في المكتبات ومراكز المعلومات وخاصةً المكتبات الأكاديمية التي تولي اهتمامًا خاصًا للدوريات العلمية في مختلف مجالات المعرفة. ولقد ظلت الدوريات المطبوعة هي السائدة في مقتنيات المكتبات الأكاديمية حتى قبيل نهايات القرن العشرين وقبل التحول الجذري في وسائل نقل المعلومات إلى الوسيط الرقمي الذي يزداد يومًا بعد يوم.

تحددت مهام أعضاء الهيئة الاستشارية وفق مذكرة تأسيس دورية كان التاريخية في غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، حيث تتكون الهيئة الاستشارية من خبراء ومتخصصين بهدف التعاون مع طاقم عمل الدورية لخدمة البحث العلمي، وتقديم الدعم الفني من خلال تبادل الآراء والمقترحات. والتواصل مع المؤسسات الأكاديمية العربية والأساتذة والباحثين بما يعزز مكانة الدورية في الأوساط العلمية. وتقديم المشورة والنصح في الموضوعات المطروحة من قبل هيئة التحرير. والتعريف بأهداف الدورية، وتشجيع الباحثين على النشر العلمي الرقمي. وتولي مهمة التوصية فيما يتعلق بتطوير الدورية من حيث الشكل والمضمون.

عملت هيئة التحرير ومنذ اليوم الأول على بناء الأرضية الثقافية الرقمية من أجل المساعدة في استحداث وعي ثقافي تاريخي عند الجيل العربي الشاب، وخصوصًا فيما يتعلق بأهمية التاريخ والتراث وارتباطهما المباشر بالهوية العربية والإنتاج الإبداعي الثقافي المستدام



"كان التاريخية" أول مبادرة عربية مستقلة متخصصة، تدعم مبدأ "المعبر المفتوح" في تداول المعرفة على شبكة الإنترنت بتشجيع النشر الرقمي للدراسات التاريخية. "كان التاريخية" غير هادفة للربح وتتيح نصوصها كاملة على شبكة الإنترنت، وتسعى إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي.

الإشعار القانوني

دورية كان التاريخية غير مدعومة من أية جهة داخلية أو خارجية أو حزب أو تيار سياسي، إنما هي منبر علمي ثقافي يعتمد على جهود المخلصين من أصحاب الفكر ومحبي الثقافة الذين يؤمنون بأهمية الدراسات التاريخية.

موضوعات الدورية

الدورية متخصصة في المقالات والدراسات العلمية والأكاديمية البحتة التي تخص أساتذة وطلاب الجامعات العربية، وأصحاب الدراسات العليا، والباحثين في الدراسات التاريخية، والمهتمين بالقراءات التاريخية، وتعبر الموضوعات المنشورة في الدورية عن وجهة نظر كاتبيها، ولا تعبر بالضرورة عن جهة نظر دورية كان التاريخية أو هيئة التحرير.

حقوق الملكية الفكرية

حقوق الطبع والنشر والترجمة

رخصة التشارك الإبداعي

إدارة المعرفة

كَان التَّارِيْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

علاقات تعاون

ترتبط دورية كان التاريخية بعلاقات تعاون مع عدة مؤسسات عربية ودولية بهدف تعزيز العمل العلمي في المجالات ذات الاختصاص المشترك، وتعظيم الفائدة من البحوث والدراسات التي تنشرها الدورية، وتوسيع حجم المشاركة لتشمل الفائدة كل أنحاء الوطن العربي.

الرجاء مراعاة البيئة قبل الطباعة، لا تطبع صفحات الدورية إلا إذا كنت في حاجة إليها بصورة ورقية.



حاصلة على "**معامل التأثير العالمي**" (UIF) للمجلات العالمية والعلمية.

حاصلة على "**معامل التأثير العربي**" (AIF) للدوريات العلمية العربية المًحَكّمة.

مسجلة في **دليل أولريخ الدولي للدوريات** (UlrichsWeb) تحت رقم ٦٨٨٨١٤.

مصنفة ضمن تخصص التاريخ الفئة الوسطى (Q3) في **معامل التأثير أرسيف**.

عضو في **الجمعية الدولية للمجلات العلمية** الناشرة باللغة العربية.

رئيس التحرير

أ.م.د. أشرف صالح محمد سيد

أستاذ مشارك تاريخ وتراث العصور الوسطى

كلية الآداب والعلوم الإنسانية – جامعة ابن رشد



THE READER
LOUIS-EMILE PINEL DE GRANDCHAMP
French 1831 – 1894

المراسلات

توجه المراسلات والموضوعات المطلوبة للنشر باسم رئيس تحرير دورية كان التاريخية على البريد الإلكتروني:

mr.ashraf.salih@gmail.com


historicalkan
groups/kanhistorique

kanhistorique
kanhistorique.blogspot.com

goodreads.com/kanhistorique

www.kan.nashiri.net



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

أخلاقيات النشر والنزاهة العلمية

يستند بيان أخلاقيات النشر وسوء الممارسة الخاص بدَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية على مدونة قواعد السلوك والمبادئ التوجيهية لأفضل الممارسات التي تهمّ محرري المجلاّت العلمية والتي أصدرتها (COPE) لجنة أخلاقيات النشر (Committee on Publication Ethics) وتتخذ هيئة التحرير جميع الإجراءات اللاّزمة ضد أي نوع من الممارسات الخاطئة في مجال النشر، وذلك بحفاظها على مراقبة جميع المراحل والإجراءات المتضمنة في عملية النشر العلمي. وبناءً على هذا يعتبر منع سوء الممارسة في النشر مثل الانتحال أو إعادة الطبع غير المصرّح به، أحد المسؤوليات الملزمة لفريق عمل الدورية، الذي لا يتسامح بدوره مع أي نوع من السلوك الذي لا يلتزم بأخلاقيات النشر، وهو مدرك تمامًا مسؤولياته والتزاماته الأخلاقية.

كان التَّاريْخية هي أول دورية عربية مُحكمة ربع سنوية متخصصة في الدراسات التاريخية تصدر في شكل إلكتروني، تأسست غرة جمادى الأول ١٤٢٩ هجرية، وصدر العدد الأول منها في أيلول ٢٠٠٨ . كان التَّاريْخية تعمل بنظام منظمات المعرفة، تدعم قيم التبادل المعرفي، يتعاون فيها الجميع بصفة تطوعية ولغايات غير ربحية، من أجل المحافظة على الهُويّة الثقافية العربية والإسلامية وخصوصًا اللغة العربية كونها الوسيط الرئيس للتواصل وتبادل الأبحاث التاريخية بين البلدان العربية.

مسؤولية رئيس التحرير

يتكون فريق عمل دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية من متخصّصين معترف بهم في مجال الدراسات التاريخية والأثرية والتراثية. ويتولّى رئيس تحرير الدورية نشر أسماء أعضاء الهيئة الاستشارية وهيئة التحرير وانتماءاتهم ومعلومات الاتصال بهم على موقع الدورية الرسمي عبر شبكة الإنترنت.

قرار النشر

يتحمل رئيس التحرير مسؤولية التصرف النهائي في جميع عمليات التقديم للنشر والمراجعات الرئيسة أو الجزئية أو القبول أو الرفض. ويستند قرار النشر أو عدم النشر إلى تقارير المحكّمين وملاحظاتهم والقيمة العلمية للبحث وأصالته ووضوحه وجدواه وصلته بمجال تخصص الدورية. وقد يحتاج رئيس التحرير إلى استشارة المحرّرين الآخرين أو المحكّمين المتخصصين في اتخاذ القرارات حول البحوث المقدمة. ويأخذ رئيس التحرير أيضًا بعين الاعتبار المسوّغات القانونية المتعلقة بالتشهير وانتهاك حقوق الطبع والنشر والسرقة الأدبية.

السرية

رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير ليسوا ملزمين بالكشف عن أي معلومات حول البحث المقدّم لأي شخص آخر غير المؤلف والمحكّمين والمراجعين المحتملين ومستشاري التحرير الآخرين والناشر حسب الاقتضاء. إن عملية المراجعة العلمية سرية للغاية، والدورية ملتزمة التزامًا تامًا بسياسة مراجعة الأقران المزدوجة التعمية.

عملية التحكيم

تتم مراجعة المقالات في البداية من طرف رئيس التحرير. وقد يرفض رئيس التحرير المقال المقدم قبل إخضاعه لعملية مراجعة الأقران، إما لأنه لا يتّصل بنطاق وموضوعات الدورية أو لأنه ذو جودة متدنّية تجعله لا يرتقي للتحكيم على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير تقييم المقالات بغض النظر عن انتماءات المؤلفين العرقية أو جنسهم أو معتقداتهم الدينية أو جنسيتهم أو مواقفهم الفكرية. وينبغي أن يستند قرار رئيس التحرير بقبول أو رفض المقال المقدم للنشر إلى أهمية العمل وأصالته ووضوحه وصلته بأهداف ومجال تخصص الدورية.
يتم إرسال المقالات التي اعتبرت مؤهلة للمراجعة إلى محكّمين اثنين على الأقل ممّنْ لديهم خبرة في مجال المادة المقدمة. ويجب أن يكون المحكّمون للمقال غير معروفين لبعضهم البعض. كما يطلب منهم أن يقرروا ما إذا كان المقال قابلاً للنشر كما هو، أم أنه قابل للنشر مع تغييرات طفيفة، أو تغييرات جذرية، أو لا يمكن نشره على الإطلاق. وينبغي على رئيس التحرير عدم النظر في إعطاء المؤلفين إمكانية ترشيح محكّمين أو طلبهم ألا يقوم محكّمون معينون بمراجعة أوراقهم.

النزاهة الأكاديمية وتضارب المصالح

يجب على رئيس التحرير وأعضاء هيئة التحرير عدم استخدام المواد غير المنشورة التي تم الكشف عنها في الورقة المقدمة لأغراضهم البحثية. ويجب الحفاظ على سرية الأفكار المبتكرة أو البيانات المكتسبة في عملية مراجعة الأقران بكل حزم ويجب عدم استخدامها للمصلحة الشخصية. ويجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين الكشف عن أي تضارب مصالح عند قبولهم تحكيم عمل ما وعند إرسال تقارير التحكيم. كما يجب على رئيس التحرير أن يطلب من المحكّمين رفض المشاركة في التحكيم إذا كانوا في وضع لا يسمح لهم بالقيام بمراجعة غير متحيزة.

مسؤولية المؤلف (الكاتب)

يلتزم المؤلفون بمبادئ ومعايير أخلاقيات البحث والنشر العلمي، وتخضع جميع الأوراق العلمية لكشف السرقة الأدبية، وتُرفض كل ورقة بحثية لا تلتزم بسياسات وقواعد النشر المحددة من قبل دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على المؤلف عند تقديم البحث تجنب الموضوعات غير الأخلاقية، والعرقية، والمذهبية، والمعلومات المزيفة، مع إدراج تفاصيل المصادر والمراجع ضمن الورقة البحثية.

C O P E

دَّورية كان التَّاريْخية هي دورية علمية عالمية مُحَكَمة تعتمد سياسة المراجعة المزدوجة وتصدرها مؤسسة كان للدراسات والترجمة والنشر. إن الهدف الرئيس من الدورية هو دعم الدراسات التاريخية المتخصصة وتوفير منصة فكرية للباحثين من كافة أنحاء العالم. تصدر الدورية أربعة أعداد في السنة وتقبل الأوراق البحثية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية. كما تنشر الدورية مقالات أصلية وعالية الجودة في مجالات العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة التَّاريْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. ويشمل ذلك مجموعة واسعة من مواضيع ومناهج ورؤى متخصصة تستجيب لطيف كبير من القراء ذوي التخصصات المتعددة.

الأصالة وسلوك التأليف المسؤول

يجب على المؤلفين الابتعاد عن جميع أنواع السلوك غير الأخلاقي مثل الانتحال والافتعال والتزوير. وتجنب السلوك غير الأخلاقي بتقديم البحث نفسه إلى أكثر من مجلة واحدة في الوقت نفسه. كما يجب على المؤلفين تقديم أعمال أصلية خالصة، ويجب ذكر مساهمة الآخرين فيها بشكل صحيح، مع الاستشهاد بالأبحاث التي كان لها أثر في تحديد طبيعة البحث المقدم. وإذا اكتشف المؤلف خطأً فادحًا في عمله المنشور يجب عليه إبلاغ رئيس التحرير أو الناشر بحذف الخطأ أو تصويبه.

حقوق النشر

يحتفظ المؤلفون بحقوق الطبع والنشر لعملهم، وبمجرد قبول الورقة للنشر فإن حقوق الطبع والنشر والترجمة لورقته العلمية تنقل إلى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية، وتُوزع بموجب ترخيص (CC BY-NC 4.0) والذي يسمح بالاستخدام غير المقيد والتوزيع والاستنساخ في أي وسيط بشرط ذكر كل ورقة علمية وتوثيقها توثيقًا صحيحًا وعزوها إلى مصدرها.

تضارب المصالح

إذا كان هناك أي تضارب مصالح محتمل أثناء أو بعد عملية مراجعة الأقران يجب على المؤلفين الإفصاح عنه لرئيس التحرير أو الناشر على الفور. ومن أجل تأمين عدم تضارب المصالح يتم اختيار مراجع ليس له علاقة أو مصلحة مع المؤلف، أو أحد المؤلفين، أو المؤسسات الجامعية أو الهيئة العلمية التي ينتمي إليها المؤلف، وفي كل الأحوال تُعتمد المراجعة المزدوجة للأبحاث المقدمة للنشر.

مسؤولية المحكم (المراجع)

تتبنى دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية أسلوب مراجعة الأقران المزدوجة التعمية. ويساعد المحكّمون رئيس التحرير على اتخاذ القرارات التحريرية، كما يمكن أن يساعدوا المؤلف على تحسين الورقة البحثية من خلال تقاريرهم العلمية.

سلوك التحكيم المسؤول

لا يفترض أن يقوم المحكّمون بفحص البحوث التي تقع خارج مجال تخصص دَّوريةُ كَان الْتَّارِيْخية. ويجب على أي محكّم خارجي غير مؤهل أو غير مستعد لمراجعة البحث المقدم أن يعلم رئيس التحرير وينسحب من عملية التحكيم. وعلى المُحكم المبادرة والسرعة في القيام بتقييم البحث الموجه إليه في الآجال المحددة، ويجب ألا يستخدم المحكّمون أي معلومات أو بيانات تم الحصول عليها من البحث التي تم تحكيمه لمصلحتهم الشخصية. ويجب ألا يقبل المحكّمون بتحكيم البحوث التي يكون لهم فيها تضارب مصالح نتيجة لعلاقات تنافسية أو تعاونية أو غيرها مع المؤلف (المؤلفين). كما يجب على المحكّمين أن يعلموا رئيس التحرير بأي تشابه أو تداخل كبير بين البحث الذي تم تحكيمه وأي أعمال أخرى منشورة يعرفونها.

السرية والموضوعية

يجب على جميع المحكّمين الذين يقومون بمراجعة الأوراق العلمية أن يفهموا ويتقيدوا بمعايير السريّة، ومعاملة البحوث التي تم استلامها للتحكيم كوثائق سرية. ويجب عليهم عدم الكشف عنها أو مناقشتها مع الآخرين باستثناء ما يأذن به رئيس التحرير. وينبغي على المحكّمين إجراء عملية التحكيم بشكل موضوعي ويجب ألا يوجّهوا أي نقد شخصي للمؤلف. ويجب على المحكّمين التعبير عن وجهات نظرهم بنزاهة ووضوح مع ذكر الأدلة والحجج الداعمة.

شرح العملية التحكيمية

- هيئة التحرير تدير عملية التحكيم السري للمقالات والدراسات المقدمة لتحديد صلاحيتها للنشر، ويلتزم الباحث بالأخذ بملاحظات المحكمين.
- يتم تقييم وفحص جميع الأوراق المقدمة للنشر مبدئيًا من قبل المحرر للتأكد من ملاءمتها للمجلة.
- يتم إرسال المقالات والدراسات التي تعتبر مناسبة عادةً إلى ما لا يقل عن اثنين من الخبراء المستقلين المراجعين لتقييم الجودة العلمية للورقة.
- مدة التحكيم ثلاثة أسابيع ويبلغ المحكم بذلك، وبعدها يجب أن يرد المحكم أما (قبولاً) وهو قبول البحث للنشر، أو (قبولاً بشرط التعديل)، وهو قبول البحث للنشر بشروط إجراء بعض التعديلات عليه، أو (رفضاً) وهو التوصية بالاعتذار عن نشر البحث.
- المحرر مسؤول عن القرار النهائي بشأن قبول المقالات أو رفضها.
- لا يشارك المحررون في القرارات المتعلقة بالأوراق التي كتبوها بأنفسهم أو التي كتبها الزملاء. ويخضع أي إرسال من هذا القبيل لجميع الإجراءات المعتادة للمجلة، مع التعامل مع التحكيم (مراجعة الأقران) بشكل مستقل عن المحرر المعني ومجموعات البحث الخاصة بهم.

دَّورية كان التَّاريْخية مفهرسة وتم اعتماد محتوياتها ضمن عدد وافر من قواعد البيانات العلمية العربية والعالمية التي تتيح مجال الاستفادة منها والرجوع إليها باستمرار. وهي ضمن المجلات العلمية المعتمدة من اتحاد الجامعات العربية منذ نوفمبر ٢٠١٩. وحاصلة على معامل التأثير العالمي منذ (٢٠١٥) ومعامل التأثير العربي منذ (٢٠١٦)، ومعتمدة من المؤشر العربي لقياس جودة المجلات العلمية (٢٠١٨)، ومسجلة في دليل أولريخ الدولي للدوريات تحت رقم (٦٨٨٨١٤). وحاصلة على الجائزة العربية للتميز العلمي والتكنولوجي (٢٠١٩).

التسليم

- ترسل الأوراق العلمية مع مرفقاتها بالبريد الإلكتروني إلى الدورية.
- يقدم المؤلف نسخة من البحث مكتوبة على برنامج Microsoft Word.
- يرفق الباحث سيرته العلمية وبيانات التواصل معه.
- يتلقى المؤلف إشعارًا بالاستلام من مديرة التحرير.

الفحص الأولي

- تقوم هيئة التحرير بفحص الورقة العلمية للنظر إذا ما كانت مطابقة لقواعد النشر الشكلية المعلن عنها ومؤهلة للتحكيم العلمي.
- يعتمد في الفحص الأولي على ملاءمة الموضوع للدورية، ونوع المادة العلمية (مقال/ دراسة/ ترجمة/ تقرير/ عرض كتاب/ عرض أطروحة)، وسلامة اللغة، ودقة التوثيق والإسناد بناءً على نظام التوثيق المعتمد في الدورية، بالإضافة إلى عدم خرق أخلاقيات النشر العلمي.
- يجري إبلاغ المؤلف باستلام الورقة البحثية وبنتيجة الفحص الأولي.
- في هذه المرحلة إذا وجدت هيئة التحرير أن الورقة البحثية بحاجة إلى تحسينات ما قبل التحكيم، فتقدم للمؤلف إرشادات أو توصيات ترشده إلى سبل التحسين مما يساعد على تأهيل الورقة البحثية لمرحلة التحكيم.

التحكيم

- تخضع كل دراسة للمراجعة المزدوجة من أعضاء لجنة المراجعة والتحكيم العلمي.
- يُبلغ المؤلف بتقرير من هيئة التحرير يبين قرار المراجعة العلمية، وخلاصة الملاحظات والتعديلات المطلوبة إن وجدت، ويرفق معه تقارير المراجعين أو خلاصات عنها.
- تبقى أسماء المراجعين مغفلة في التقرير الذي يُرسل إلى المؤلف.

إجراء التعديلات

- يقوم المؤلف بإجراء التعديلات اللازمة على الدراسة استنادًا إلى نتائج التحكيم.
- يعيد المؤلف إرسال المقال/ الدراسة إلى الدورية بعد استيفاء طلبات المراجعون.

القبول والرفض

- تحتفظ الدورية بحق القبول والرفض استنادًا إلى التزام المؤلف بقواعد النشر وبتوجيهات هيئة التحرير.
- يرسل إلى المؤلف خطاب قبول النشر، ويأخذ المقال دوره في جدول النشر حسب أسبقية الوصول، وترسل نسخة من الدورية إلى البريد الإلكتروني للمؤلف فور النشر.

أجور المحكمين

- لا تعتمد دورية كان التاريخية أية رسوم مقابل المراجعة العلمية والتحكيم والمراجعة اللغوية والتنسيق والنشر والأرشفة وفهرسة المقالات والدراسات.
- يتعاون مع دورية كان التاريخية بصفة تطوعية هيئة من المراجعين والمحكمين من ذوي الخبرة البحثية والمكانة العلمية المتميزة. ولا تدفع الدورية أية مكافآت مالية مقابل عملية المراجعة والتحكيم وتقييم المقالات والدراسات المقدمة للنشر.

أعضاء هيئة التحكيم

تتميز دَّوريةُ كَان التَّاريْخية بهيئة تحكيم متخصصة ذات كفاءة من أساتذة الجامعات العربية والخبراء ممَنْ عُرفِوا بطول الباع في مجال الدورية والمجالات ذات العلاقة، وممَنْ أصدروا كتبًا أو أبحاثًا علميَّةً متميزة في تخصُّص الدورية. وتعتمد هيئة التحكيم مبدأ الحياد والموضوعية في تحكيم المواد العلمية المرشحة للنشر مع الحرص على خلو الأعمال من التطرف الفكري أو مساسها بمبادئ الأشخاص أو الأنظمة.

- تاريخ الحروب الصليبية.
- تاريخ العصور الوسطى.
- تاريخ الأمراض والأوبئة.
- تاريخ الأدب العربي.
- تاريخ العالم القديم.
- التراجم والأنساب.
- التاريخ المقارن.
- التاريخ الحديث والمعاصر.
- تاريخ الأديان والتصوف.
- تاريخ الكتب والمكتبات.
- منهج البحث التاريخي.
- المستكشفون والرحالة.
- العمارة والعمران والمدن.
- الأساطير والفولكلور والمعتقدات الشعبية.
- التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية.
- الآثار والتراث المادي والشفهي.

المُقيمّون والمُحكّمون

أ.د.	إبراهيم القادري بوتشيش	جامعة مولاي إسماعيل	المغرب
أ.د.	إبراهيم خليل العلاف	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	أحمد السري	جامعة صنعاء	اليمن
أ.د.	أحمد عبد الله الحَسُّو	مركز الحسو للدراسات الكمية والتراثية	بريطانيا
أ.د.	أسامة عبد المجيد العاني	كلية الفارابي الجامعة	العراق
أ.د.	إمام الشافعي محمد حمودي	جامعة الأزهر	مصر
أ.د.	أمين محمد علي الجبر	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	أيمن وزيري	جامعة الفيوم	مصر
أ.د.	بديع العابد	جامعة الإسراء	الأردن
أ.د.	بشار محمد خليف	مركز حضارات المشرق العربي	سوريا
أ.د.	بوحسون العربي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	حبيب البدوي	الجامعة اللبنانية	لبنان
أ.د.	الحسن تاوشيخت	المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث	المغرب
أ.د.	حسين صالح حسين العنسي	جامعة ذمار	اليمن
أ.د.	حنيفي هلايلي	جامعة جيلالي ليابس	الجزائر
أ.د.	خالد حسين محمود	جامعة عين شمس	مصر
أ.د.	ذاكر محي الدين عبد الله العراقي	جامعة الموصل	العراق
أ.د.	رضوان شافو	جامعة الوادي	الجزائر
أ.د.	سعاد يمينة شبوط	جامعة أبي بكر بلقايد	الجزائر
أ.د.	سعيد بن محمد الهاشمي	جامعة السلطان قابوس	سلطنة عمان
أ.د.	شعيب مقنونيف	جامعة " أبوبكر بلقايد " تلمسان	الجزائر
أ.د.	صالح محمد زكي اللهيبي	جامعة الجزيرة	الإمارات
أ.د.	عادل بن يوسف	جامعة صفاقس	تونس
أ.د.	عبد الرحيم مراشدة	جامعة جدارا	الأردن
أ.د.	عبد العزيز رمضان	جامعة الملك خالد	السعودية
أ.د.	عبد القادر سلامي	جامعة تلمسان	الجزائر
أ.د.	العربي عقون	جامعة قسنطينة (٢)	الجزائر
أ.د.	عطاء الله أحمد فشار	جامعة زيان عاشور	الجزائر
أ.د.	عماد جاسم حسن الموسوي	جامعة ذي قار	العراق
أ.د.	كرفان محمد أحمد	جامعة دهوك	العراق
أ.د.	كمال السيد أبو مصطفى	جامعة الإسكندرية	مصر
أ.د.	لمياء بوقريوة	جامعة الحاج لخضر باتنة	الجزائر
أ.د.	مبارك لمين بن الحسن	جامعة ابن زهر	المغرب
أ.د.	محمد دوكوري	الجامعة الإسلامية	النيجر
أ.د.	مصطفى غطيس	جامعة عبد الملك السعدي	المغرب
أ.د.	وجدان فريق عناد	جامعة بغداد	العراق

" حسب الترتيب الأبجدي

يتم تحديث القائمة حسب مساهمات الأساتذة للمرة الأولى في نشر أبحاثهم على صفحات الدورية، وبعد الاطلاع على السيرة العلمية، ومراعاة الخبرات الأكاديمية والإنتاج الفكري والإشراف على الأطاريح الجامعية ومدى الاستعداد للانضمام إلى فريق عمل الدورية بصفة تطوعية.



دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية

علمية. عالمية. مُحَكَّمَة. ربع سنوية

السياسات والقواعد والإجراءات

ترحب دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية بنشر البحوث الجيدة والجديدة المبتكرة في أي من حقول الدراسات التاريخية، أو العلوم المساعدة ذات العلاقة، ويشمل ذلك كل العلوم نظرًا لطبيعة الْتَّارِيْخ كعلم يتناول النشاط الإنساني كافة. مع مراعاة عدم تعارض الأعمال العلمية المقدمة للنشر مع العقائد السماوية، وألا تتخذ أية صفة سياسية، وألا تتعارض مع الأعراف والأخلاق الحميدة، وأن تتسم بالجدّة والأصالة والموضوعية، وتكتب بلغة عربية سليمة، وأسلوب واضح.

سياسات النشر

تسعى دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخية إلى استيعاب روافد كل الأفكار والثقافات ذات البعد التاريخي، ويسعدها أن تستقبل مساهمات أصحاب القلم من الأساتذة الأكاديميين والباحثين والكُتَّاب المثقفين الأفاضل، ضمن أقسام الدورية: البحوث والدراسات، عروض الكتب، عروض الأطاريح الجامعية، تقارير اللقاءات العلمية.

رسوم النشر

تلتزم دورية كان التاريخية بمجّانية النشر، وتُعفي الباحثين والمؤلّفين من جميع رسوم النشر والمراجعة والتحكيم.

هيئة التحرير:

- تُعطى الأولوية في النشر للبحوث والعروض والتقارير حسب الأسبقية الزمنية للورود إلى هيئة تحرير الدورية، وذلك بعد إجازتها من هيئة التحكيم، ووفقًا للاعتبارات العلمية والفنية التي تراها هيئة التحرير.
- تقوم هيئة التحرير بالقراءة الأولية للبحوث العلمية المقدمة للنشر بالدورية للتأكد من توافر مقومات البحث العلمي، وتخضع البحوث والدراسات والمقالات بعد ذلك للتحكيم العلمي والمراجعة اللغوية.
- يكتفي بالإجازة من قبل اثنين من أعضاء هيئة التحرير لنشر مراجعات الكتب، والأطاريح الجامعية، وتقارير اللقاءات العلمية.
- يحق لهيئة التحرير إجراء التعديلات الشكلية على المادة المقدمة للنشر لتكن وفق المعيار (IEEE) تنسيق النص في عمودين، مع مراعاة توافق حجم ونوع الخط مع نسخة المقال المعياري.
- تقوم هيئة التحرير باختيار ما تراه مناسبًا للنشر من الجرائد والمجلات المطبوعة والإلكترونية مع عدم الإخلال بحقوق الدوريات والمواقع وذكر مصدر المادة المنشورة.

هيئة التحكيم:

- يعتمد قرار قبول البحوث المقدمة للنشر على توصية هيئة التحرير والمحكمين؛ حيث يتم تحكيم البحوث تحكيمًا سريًا بإرسال العمل العلمي إلى المحكمين بدون ذكر اسم الباحث أو ما يدل على شخصيته، ويرفق مع العمل العلمي المراد تحكيمه استمارة تقويم تضم قائمة بالمعايير التي على ضوئها يتم تقويم العمل العلمي.
- يستند المحكمون في قراراتهم في تحكيم البحث إلى مدى ارتباط البحث بحقل المعرفة، والقيمة العلمية لنتائجه، ومدى أصالة أفكار البحث وموضوعه، ودقة الأدبيات المرتبطة بموضوع البحث وشمولها، بالإضافة إلى سلامة المنهاج العلمي المستخدم في الدراسة، ومدى ملاءمة البيانات والنتائج النهائية لفرضيات البحث، وسلامة تنظيم أسلوب العرض من حيث صياغة الأفكار، ولغة البحث، وجودة الجداول والأشكال والصور ووضوحها.
- البحوث والدراسات التي يقترح المحكمون إجراء تعديلات جذرية عليها تعاد إلى أصحابها لإجرائها في موعد أقصاه أسبوعين من تاريخ إرسال التعديلات المقترحة إلى المؤلف، أما إذا كانت التعديلات طفيفة فتقوم هيئة التحرير بإجرائها.
- تبذل هيئة التحرير الجهد اللازم لإتمام عملية التحكيم، من متابعة إجراءات التعديل، والتحقق من استيفاء التصويبات والتعديلات المطلوبة، حتى التوصل إلى قرار بشأن كل بحث مقدم قبل النشر، بحيث يتم اختصار الوقت اللازم لذلك إلى أدنى حد ممكن.
- في حالة عدم مناسبة البحث للنشر، تقوم الدورية بإخطار الباحث بذلك. أما بالنسبة للبحوث المقبولة والتي اجتاز ت التحكيم وفق الضوابط العلمية المتعارف عليها، واستوفت قواعد وشروط النشر بالدورية، فيُمنح كل باحث إفادة بقبول بحثه للنشر.
- تقوم الدورية بالتدقيق اللغوي للأبحاث المقبولة للنشر، وتقوم هيئة التحرير بعد ذلك بمهمة تنسيق البحث ليخرج في الشكل النهائي المتعارف عليه لإصدارات الدورية.

قَوَاعِدُ النَشْرِ

البحوث والدراسات العلمية

تقبل الأعمال العلمية المكتوبة باللغتين العربية والإنجليزية التي لم يسبق نشرها أو تقديمها للنشر في مجلة إلكترونية أو مطبوعة أخرى.

تقبل البحوث والدراسات المنشورة من قبل في صورة ورقية، ولا تقبل الأعمال التي سبق نشرها في صورة رقمية: مدونات/ منتديات/ مواقع/ مجلات إلكترونية، ويستثنى من ذلك المواضيع القيمة حسب تقييم رئيس التحرير.

يجب أن يتسم البحث العلمي بالجَوْدة والأصالة في موضوعه ومنهجه وعرضه، متوافقًا مع عنوانه.

التزام الكاتب بالأمانة العلمية في نقل المعلومات واقتباس الأفكار وعزوها لأصحابها، وتوثيقها بالطرق العلمية المتعارف عليها.

اعتماد الأصول العلمية في إعداد وكتابة البحث من توثيق وهوامش ومصادر ومراجع، مع الالتزام بعلامات الترقيم المتنوعة.

إرشادات المؤلفين [الاشتراطات الشكلية والمنهجية]

ينبغي ألاّ يزيد حجم البحث على ثلاثين (٣٠) صفحة، مع الالتزام بالقواعد المتعارف عليها عالميًا بشكل البحوث، بحيث يكون المحتوى حسب التسلسل: ملخص، مقدمة، موضوع البحث، خاتمة، ملاحق: (الأشكال/ الجداول)، الهوامش، المراجع.

- **عنوان البحث:**
يجب ألا يتجاوز عنوان البحث عشرين (٢٠) كلمة، وأن يتناسب مع مضمون البحث، ويدل عليه، أو يتضمن الاستنتاج الرئيس.

- **نبذة عن المؤلف (المؤلفين):**
يقدم مع البحث نبذة عن كل مؤلف في حدود (٥٠) كلمة تبين آخر درجة علمية حصل عليها، واسم الجامعة (القسم/ الكلية) التي حصل منها على الدرجة العلمية والسنة. والوظيفية الحالية، والمؤسسة أو الجهة أو الجامعة التي يعمل لديها، والمجالات الرئيسة لاهتماماته البحثية. مع توضيح عنوان المراسلة (العنوان البريدي)، وأرقام (التليفون- الموبايل/ الجوال- الفاكس).

- **صورة شخصية:**
ترسل صورة واضحة لشخص الكاتب لنشرها مع البحث، كما تستخدم بغرض إنشاء صفحة للكاتب في موقع الدورية على شبكة الإنترنت.

- **ملخص البحث:**
يجب تقديم ملخص للبحوث والدراسات باللغة العربية في حدود (٢٥٠ - ٣٠٠) كلمة.
البحوث والدراسات باللغة الإنجليزية، يرفق معها ملخص باللغة العربية في حدود (١٥٠ - ٢٠٠) كلمة.

- **الكلمات المفتاحية:**
الكلمات التي تستخدم للفهرسة لا تتجاوز عشرة كلمات، يختارها الباحث بما يتواكب مع مضمون البحث، وفي حالة عدم ذكرها، تقوم هيئة التحرير باختيارها عند فهرسة المقال وإدراجه في قواعد البيانات بغرض ظهور البحث أثناء عملية البحث والاسترجاع على شبكة الإنترنت.

- **مجال البحث:**
الإشارة إلى مجال تخصص البحث المرسل "العام والدقيق".

- **المقدمة:**
تتضمن المقدمة بوضوح دواعي إجراء البحث (الهدف)، وتساؤلات وفرضيات البحث، مع ذكر الدراسات السابقة ذات العلاقة، وحدود البحث الزمانية والمكانية.

- **موضوع البحث:**
يراعي أن تتم كتابة البحث بلغة عربية سلمية واضحة مركزة وبأسلوب علمي حيادي. وينبغي أن تكون الطرق البحثية والمنهجية المستخدمة واضحة، وملائمة لتحقيق الهدف، وتتوفر فيها الدقة العلمية. مع مراعاة المناقشة والتحليل الموضوعي الهادف في ضوء المعلومات المتوفرة بعيدًا عن الحشو (تكرار السرد).

- **الجداول والأشكال:**
ينبغي ترقيم كل جدول (شكل) مع ذكر عنوان يدل على فحواه، والإشارة إليه في متن البحث على أن يدرج في الملاحق. ويمكن وضع الجداول والأشكال في متن البحث إذا دعت الضرورة إلى ذلك.

- **الصور التوضيحية:**
في حالة وجود صور تدعم البحث، يجب إرسال الصور على البريد الإلكتروني في <ملف منفصل> على هيئة (JPEG)، حيث أن وضع الصور في ملف الكتابة (Word) يقلل من درجة وضوحها (Resolution)

- **خاتمة (خلاصة):**
تحتوي على عرض موضوعي للنتائج والتوصيات الناتجة عن محتوى البحث، على أن تكون موجزة بشكل واضح، ولا تأتي مكررة لما سبق أن تناوله الباحث في أجزاء سابقة من موضوع البحث.

- **الهوامش:**
يجب إدراج الهوامش في شكل أرقام متسلسلة في نهاية البحث، مع مراعاة أن يذكر اسم المصدر أو المرجع كاملاً عند الإشارة إليه لأول مرة، فإذا تكرر يستخدم الاسم المختصر، وعلى ذلك فسوف يتم فقط إدراج المستخدم فعلاً من المصادر والمراجع في الهوامش. يمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق الحواشي (الهوامش) بشرط التوحيد في مجمل الدراسة، وبإمكان الباحث استخدام نمط American Psychological Association " APA" الشائع في توثيق الأبحاث العلمية والتطبيقية، حيث يُشار إلى المرجع في المتن بعد فقرة الاقتباس مباشرةً وفق الترتيب التالي: (اسم عائلة المؤلف، سنة النشر، رقم الصفحة)، على أن تدون الإحالات المرجعية كاملة في نهاية البحث.

- **المراجع:**
يجب أن تكون ذات علاقة فعلية بموضوع البحث، وتوضع في نهاية البحث، وتتضمن قائمة المراجع الأعمال التي تم الإشارة إليها فقط في الهوامش، أي يجب ألا تحتوي قائمة المراجع على أي مرجع لم تتم الإشارة إليه ضمن البحث. وترتب المراجع طبقًا للترتيب الهجائي، وتصنف في قائمة واحدة في نهاية البحث مهما كان نوعها: كتب، دوريات، مجلات، وثائق رسمية... إلخ، ويمكن للباحث إتباع أي أسلوب في توثيق المراجع والمصادر بشرط التوحيد في مجمل الدراسة.

قَوَاعِدُ النَشَر

قواعد عامة

تُرسل كافة الأعمال المطلوبة للنشـر بصيغة برنامج مايكروسوفت وورد Word ولا يلتفت إلى أي صيغ أخرى.

المساهمون للمرة الأولى من أعضاء هيئة التدريس بالجامعات يرسلون أعمالهم مصحوبة بسيرهم الذاتية العلمية "أحدث نموذج" مع صورة شخصية واضحة (High Resolution).

ترتب الأبحاث عند نشرها في الدورية وفق اعتبارات فنية لا علاقة لها بمكانة الباحث أو قيمة البحث.

مكافآت الباحثين

لا تدفع دورية كان التاريخية أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما يُنشر في الدورية إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي عامة ومجال الدراسات التاريخية بصفة خاصة.

حقوق المؤلف

- المؤلف مسئول مسئولية كاملة عما يقدمه للنشر بالدورية، وعن توافر الأمانة العلمية به، سواء لموضوعه أو لمحتواه ولكل ما يرد بنصه وفي الإشارة إلى المراجع ومصادر المعلومات.
- جميع الآراء والأفكار والمعلومات الواردة بالبحث تعبر عن رأى كاتبها وعلى مسئوليته هو وحده ولا تعبر عن رأى أحد غيره، وليس للدورية أو هيئة التحرير أية مسئولية في ذلك.
- ترسل الدورية لكل صاحب بحث أُجيز للنشر، نسخة من العدد المنشور به البحث، ومستلة من البحث على البريد الإلكتروني.
- يحق للكاتب إعادة نشر البحث بصورة ورقية، أو إلكترونية بعد نشره في الدورية دون الرجوع لهيئة التحرير، ويحق للدورية إعادة نشر المقالات والبحوث بصورة ورقية لغايات غير ربحية دون الرجوع للكاتب.
- يحق للدورية إعادة نشر البحث المقبول منفصلاً أو ضمن مجموعة من المساهمات العلمية الأخرى بلغتها الأصلية أو مترجمة إلى أية لغة أخرى، وذلك بصورة إلكترونية أو ورقية لغايات غير ربحية.
- لا تدفع المجلة أية مكافآت مالية عمّا تقبله للنشر فيها، ويعتبر ما ينشر فيها إسهامًا معنويًا من الكاتب في إثراء المحتوى الرقمي العربي.

عروض الكتب

- تنشر الدورية المراجعات التقييمية للكتب "العربية والأجنبية" حديثة النشر. أما مراجعات الكتب القديمة فتكون حسب قيمة الكتاب وأهميته.
- يجب أن يعالج الكتاب إحدى القضايا أو المجالات التاريخية المتعددة، ويشتمل على إضافة علمية جديدة.
- يعرض الكاتب ملخصًا وافيًا لمحتويات الكتاب، مع بيان أهم أوجه التميز وأوجه القصور، وإبراز بيانات الكتاب كاملة في أول العرض: (اسم المؤلف/ المحقق/ المترجم، الطبعة، الناشر، مكان النشر، سنة النشر، السلسلة، عدد الصفحات).
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٢) صفحة.

عروض الأطاريح الجامعية

- تنشر الدورية عروض الأطاريح الجامعية (رسائل الدكتوراه والماجستير) التي تم إجازتها بالفعل، ويُراعى في الأطاريح (الرسائل) موضوع العرض أن تكون حديثة، وتمثل إضافة علمية جديدة في أحد حقول الدراسات التاريخية والعلوم ذات العلاقة.
- إبراز بيانات الأطروحة كاملة في أول العرض (اسم الباحث، اسم المشرف، الكلية، الجامعة، الدولة، سنة الإجازة).
- أن يشتمل العرض على مقدمة لبيان أهمية موضوع البحث، مع ملخص لمشكلة (موضوع) البحث وكيفية تحديدها.
- ملخص لمنهج البحث وفروضه وعينته وأدواته، وخاتمة لأهم ما توصل إليه الباحث من نتائج.
- ألا تزيد عدد صفحات العرض عن (١٥) صفحة.

تقارير اللقاءات العلمية

- ترحب الدورية بنشر التقارير العلمية عن الندوات، والمؤتمرات، والحلقات النقاشية (سيمنار) الحديثة الانعقاد في دول الوطن العربي، والتي تتصل موضوعاتها بالدراسات التاريخية، بالإضافة إلى التقارير عن المدن والمواقع الأثرية، والمشروعات التراثية.
- يشترط أن يغطي التقرير فعاليات اللقاء (ندوة / مؤتمر/ ورشة عمل/ سيمنار) مركزًا على الأبحاث العلمية، وأوراق العمل المقدمة، ونتائجها، وأهم التوصيات التي يتوصل إليها اللقاء.
- ألا تزيد عدد صفحات التقرير عن (١٠) صفحات.

الإصدارات والتوزيع

- تصدر دَّورِيةُ كَان الْتَّارِيْخِية أربع مرات في السنة: (مارس– يونيو – سبتمبر – ديسمبر).
- الدورية متاحة للقراءة والتحميل عبر موقعها الإلكتروني على شبكة الإنترنت.
- ترسَل الأعداد الجديدة إلى كُتَّاب الدورية على بريدهم الإلكتروني الخاص.
- يتم الإعلان عن صدور الدورية عبر المواقع المتخصصة، والمجموعات البريدية، وشبكات التواصل الاجتماعي.

المراسلات

- تُرسَل الاستفسارات والاقتراحات إلى صفحة الدورية
https://www.facebook.com/historicalkan
- تُرسَل الأعمال المطلوبة للنشر إلى رئيس التحرير:
mr.ashraf.salih@gmail.com

مُحْتَوَياتُ العَدَدِ | كُتَّاب العَدَدِ

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

النظم والتشريعات
المتحكمة في تخطيط المدينة الإسلامية وتدبير عمارتها

د. مصطفى عرباوي
باحث في تاريخ التمدن
دكتوراه التاريخ من جامعة الحسن الثاني
الدار البيضاء - المملكة المغربية



مُلَخّص

يقول ابن خلدون "الملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ لوجودها" (1)، ولا يقتصر الحفظ هنا على الجانب المرتبط بسيادة الأمن ورد العدوان الخارجي، بل إن من تمام الحفظ توفير نظم وتشريعات تعمل على توجيه وضمان سير حركية العمران بما يحفظ المقاصد ويخلق التراكم والنماء، خاصةً إذا ما تعلق الأمر بالمدن التي تُعَدّ مجالاً عمرانيًا معقدًا يستلزم التخطيط والتهيئة والتدبير. ولما كانت كذلك، فقد تعدد المتدخلون في تخططيها وتدبيرها بدءًا من علماء السياسة الشرعية والأحكام السلطانية، العارفون بأحوال الزمان والمتمرسون بخصوصيات المكان، الذين كانوا يشيرون على السلاطين ببناء المدن، ويحددون مواقعها ومواضعها، ويرسمون المخطط العام لها، بناء على خلفية نظرية تتداخل فيها المرجعية الإسلامية والتجارب التاريخية والحضارية، ثم الفقهاء الذين شكلوا بفتاويهم بابًا فقهيًا يسمى بفقه العمارة الإسلامية، الذي تصدى لكل العوارض والنوازل التي تنشأ أثناء البناء أو عند استغلال المرافق، في إطار قاعدة فقهية عامة صاغت العمران الحضري الإسلامي تتمثل في قاعدة "رفع الضرر"، والضرر هنا كل ما يعترض السير العادي للحياة الحضرية سواء على مستوى البنيان أو على مستوى حركية العمران، وأخيرًا مؤسسة الحسبة التي تعد بمثابة قضاء القرب، وتستعين في تدخلاتها بالعرفاء والخبراء والأمناء في كل مجالات العمران الإنساني، وكانت تتدخل في مراقبة السير العادي للمدينة ورفع الضرر في المرافق العامة عند نشأته بما يوقف استفحاله وتعقده، خاصةً المشاكل الدورية والطارئة التي لا تتطلب تدخلاً مباشرًا لمؤسسة القضاء.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	٢٣	أكتوبر	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٦	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

المدينة الإسلامية؛ التخطيط الحضري؛ التدبير الحضري؛ العمارة الحضرية؛ العمران؛ النظم الحضرية؛ التشريعات؛ فقه العمارة الإسلامية؛ الحسبة؛ رفع الضرر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.244247

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

مصطفى عرباوي، **"النظم والتشريعات المتحكمة في تخطيط المدينة الإسلامية وتدبير عمارتها"**.- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٤ – ٣٣.

Corresponding author: mostafa.aarbaouihg@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تُعَدّ المدينة مجالاً عمرانيًا معقدًا يستمد تعقيده من متطلبات تخطيطه وتدبيره وسيرورته التراكمية، ولما كانت المدينة واجهة الحضارة والمعبر المادي عن مستواها العمراني، فإن كل شعوب العالم، عبر التاريخ، تفانت في بنائها وبالغت في الاهتمام بأشكال عمائرها، حتى ظهرت أنماطًا حضرية تاريخية متنوعة؛ نميز منها المدينة الميزوبوتاميا والمدينة المصرية والمدينة الإغريقية والمدينة الرومانية ثم البيزنطية والمدينة الإسلامية.

وارتباطًا بالمدينة الإسلامية فإن الدراسات التاريخية حولها تبقى ضعيفة فيما يخص التخطيط والتدبير، وأغلبها قام به المستشرقون والباحثون الغربيون، وهو ما جعل بعض المخرجات البحثية حول المدينة الإسلامية لا تعكس الحقيقة، نظرًا للخلفية الإيديولوجية والأسس النظرية والوثائقية التي بنيت عليها، فقد سادت في الدراسات الاستشراقية فكرة أن المدينة الإسلامية بنيت بدون أطر تشريعية ونظم مؤطرة لحركيتها العمرانية، كما أن أغلب الدراسات في الجامعات العربية تجاوزت مسألة الإجابة عن هذه المخرجات البحثية الموجهة، وركزت بشكل كبير على المقاربة المونوغرافية، ولم تتطرق بشكل عام إلى مسألة النظم والتشريعات التي كانت وراء الحركية العمرانية للمدينة الإسلامية إلا في القليل منها، وذلك راجع لعدم وجود تراكم نظري حول المسألة، وارتباط هذه النظم بمجال علمي آخر هو الفقه الإسلامي، ذلك أن سبر أغوار هذا الموضوع الشائك لا يتأتى للباحث إلا من خلال تشريح وتفكيك للتراث الفقهي والسياسي الإسلامي من أجل استخلاص ما يرتبط منه بالعمران الحضري، وتصنيف ذلك حسب مجال وحدود التدخل، إذ إنه من جملة المصادر التراثية المهمة التي اعتمدناها في معالجة هذه المسألة؛ كتب الأحكام السلطانية وكتب الحسبة وفقه العمارة الإسلامية وكتب النوازل الفقهية، إضافة إلى إعادة قراءة المصادر التاريخية قراءة بخلفية الباحث عن المرجعيات والنظم المتحكمة في حركية البنيان الحضري.

ومن بين الدراسات الحديثة في هذا الباب، والتي ينبغي الإشادة بها؛ كتاب " تخطيط وعمارة المدن الإسلامية" لخالد محمد عزب، وكتاب "المدينة الإسلامية" لعبد الستار عثمان، وكتاب "العمارة الإسلامية والبيئة" ليحيى وزيري، إضافة إلى بعض المقالات التي لها دور مهم في تسليط الضوء على بعض المباحث الخاصة بتخطيط المدينة الإسلامية وتدبيرها؛ مثل المقالة التي كتبها الدكتور عبد الهادي التازي بعنوان: «دور المحتسب في السوق»، ودراسة الدكتور محمد مزين حول تطور الكتابة الاستشراقية حول المدينة الإسلامية من خلال نموذج مدينة فاس، ودراسة الأستاذ إبراهيم القادري بودشيش حول دور المصادر الدفينة في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة، إضافة إلى دراسات أخرى تبقى في المجمل معدودة، وهذا ما يدفع إلى المزيد من البحث في الدراسات حول المدينة الإسلامية خاصة على مستوى إشكاليتي التخطيط والتدبير والبحث في الأطر التشريعية والنظم المؤسساتية التي كانت وراء حركيتها العمرانية، وتزداد أهمية البحث في هذا الموضوع؛ في كون بعض الباحثين الغربيين يعترفون بأهمية التخطيط الحضري الإسلامي، ويذهبون بعيداً في كونه أصبح من المصادر الملهمة في التخطيط الحضري المعاصر، لكن في الجانب الآخر نرى تواريا وتلاشيا للمدينة الإسلامية عبر كل دول العالم الإسلامي في إطار مسميات متعددة ؛منها المدينة القديمة والمدينة العتيقة، وعدم استلهامها في تطوير أنموذج حضري أصيل، وبجانبها ينتشر نمط حضري موروث من الحقبة الاستعمارية ولد عدة إشكالات حضرية بنيوية.

في هذا السياق تأتي هذه المقالة باعتبارها محاولة للإمساك بالخيوط الناظمة للمدينة الإسلامية، وذلك من خلال تسليط الضوء على النظم والتشريعات المتحكمة في تخطيط وتدبير العمران الحضري الإسلامي، وباعتبارها كذلك مقدمة مهمة لإعادة بناء تاريخ المدينة الإسلامية بشكل لا يقف عند البعد المونوغرافي، بل ينفذ إلى فهم الميكانزمات المتحكمة في صياغة وتدبير العمران الحضري في العالم الإسلامي.

أولاً: إشكالية نظم وقوانين التعمير

من المعلوم أن التعمير في المجال الحضري يختلف تماماً عن غيره في المجال البدوي، إذ إن تخطيط المدينة

وعمارتها يحتاج مؤسسات مشرفة ومراقبة ومتابعة، وتحتاج هذه المؤسسات إلى قوانين مرجعية تؤطر تدخلاتها المختلفة، نظرًا لدينامية العمران الحضري وإيقاعه السريع.

ويبدو من خلال الكتابات الغربية الأولى التي تناولت دراسة المدينة الإسلامية أن بعض الباحثين ينفون بشكل قطعي أو نسبي وجود نظم وقوانين مرجعية أطرت حركة البنيان في المجال الحضري على امتداد خريطة العالم الإسلامي، ما أدى إلى تشكل نظرية كلاسيكية نمطت المدينة الإسلامية[٢]، وجعلتها مدينة فوضوية ذات تخطيط تلقائي عشوائي بعيدة كل البعد عن الأعراف الحضرية كما عرفتها المدينة الرومانية.

ومن جملة الأبحاث التي اهتمت بالمدينة المغربية وانبنت على هذه النظرية الكلاسيكية، نجد كتاب "الإسلام والحياة الحضرية"[٣]، وكتاب جورج مارسيه (١٨٧٦-١٩٦٢)[٤] بعنوان "الهندسة المعمارية في الغرب الإسلامي". وقد أطرت هذه النظرية الكلاسيكية جل الكتابات الغربية التي تناولت الدراسة العمرانية للمدينة المغربية العريقة، ويظهر ذلك في الأعمال التاريخية التي قام بها "جاك كايي" حول تاريخ مدينة الرباط (١٩٤٩)، وكتاب "غاستون دوفردان" حول مدينة مراكش (١٩٥٩)، وكتاب "روجي لوتورنو" حول مدينة فاس قبل الحماية (١٩٤٩).

كما أثرت هذه المخرجات النظرية للمستشرقين الأوائل حول مدن العالم الإسلامي على العديد من الكتاب الغربيين الذين جاءوا بعدهم، فهذا المؤرخ الإسباني "ليوبولدو بالباس"، لم يجد أدنى شك في تصريحه بغياب قوانين وتنظيمات حضرية خاصة بتنظيم المدن في الغرب الإسلامي، ويعزو ذلك إلى الدين الذي "لم يعر أي اهتمام للتنظيم الحضري أو البلدي كما كان في المدن الرومانية"[٥]، وفي ثنايا صفحات كتابه نجده يناقض نفسه، حيث تحدث عن مؤسسات مهمة صاغت الحركة العمرانية للمدينة، منها ما وقف عليه بشيء من التفصيل منها: مؤسسة الحسبة وإطاراتها المرجعية[٦]. وهذه الازدواجية تبين إلى أي حد أثرت الكتابات الكولونيالية الأولى في الرصيد العلمي التاريخي للباحثين الغربيين الذين جاءوا بعدهم.

إن هذا الانطباع السلبي حول تخطيط المدينة الإسلامية وعمارتها من طرف مجموعة من الباحثين الغربيين المُقَعّدين لحقل الدراسات الاستشراقية في مدن العالم الإسلامي، قد ينم في جزء منه عن استعلاء وتبخيس الآخر البعيد عن الحضارة والتحضر، لكنه في جانب آخر يحيل إلى غياب العمق في الوصف والتحليل؛ ذلك أنهم حكموا على المدينة من خلال رؤية الركام المعماري وفوضى البناءات التي شاهدوها بأعينهم خلال الفترة الكولونيالية، وهو انطباع لحظي مشروع، مادامت هذه الفترة التاريخية دخل فيها العالم الإسلامي مرحلة التدهور الحضاري والتراجع العمراني. وشاهدنا في ذلك تلك الصور المتواترة التي أخذها الأوروبيون لمدن نخالها عروسة في ثنايا المصادر الوسيطة والحديثة، لكن حينما نشاهد صورها في القرن ١٩ وبداية القرن ٢٠ نرى أسوارا مثلومة ومنخورة البناء والأساسات، ومبانيَ مترهلة، بعضها ساقط على الأرض والآخر ينتظر[٧]، في غياب مؤسسات تعمل على ترميم المدينة وصيانتها من الدمار والمحافظة على إيقاع التراكم العمراني للحواضر عمومًا.

إن بناء أحكام حول خصوصيات التخطيط الحضري انطلاقًا من المقارنة بين المدينة الرومانية والمدينة الإسلامية، يعد عملا منقوصا بالنظر لاختلاف الثقافة والمجال اللذين أفرزا تعبيرات حضرية تتناسب وتطلعات الشعوب والجماعات البشرية، ومن صميم الدراسة الموضوعية المقاربة البنيوية التي تعالج الظاهرة في زمنها ومكانها، وخصوصيات وظروف نشأتها.

فالمدينة الإسلامية وإن كانت قد استفادت معماريًا من العمارة الرومانية وغيرها، فقد شكلت شخصية عمرانية خاصة بها. ومن جملة الاختلافات الجذرية بين المدينتين اختلاف الإطار القانوني بينهما؛ فإذا كانت المدينة الرومانية قد ارتكزت على قوانين عمرانية بلدية، فإن المدينة الإسلامية تمت صياغتها ومتابعة الحركة العمرانية بها انطلاقًا من ثلاث مؤسسات؛ هي: الفقهاء والقضاة والمحتسبون، وهو ما فطن إليه جاك بيرك حينما أكد أن "علماء فاس هم من كانوا يسيرون المدينة، أولاً بفتاواهم، ثانيًا بأحكام قضاتهم، ثالثًا بنصائحهم ورابعًا بالحسبة"[٨].

إن التحول الإيجابي الذي نلمسه في بعض الكتابات الغربية حول المدن المغربية، مردده بالأساس إلى إنشاء سلطات الحماية لمديرية التراث التي عملت على ترميم مواقع حضرية عدة، وبذلك وقع المؤرخون على معطيات جديدة، جعلتهم ينفذون إلى عمق الركام المعماري الذي اختزن في طياته تراكمًا معمارية ازدهر في العصر الوسيط، وشهد انحطاطًا خلال الفترة السابقة للحقبة الكولونيالية. وهكذا فحينما يحضر العمق في رؤية المؤرخ نرى وصفًا واستنتاجات موضوعية تخترق المشاهد اللحظية التي تخفي وراءها ازدهارًا ونموًا حضريًا شهد تراكمًا مضطردًا في مراحل سابقة.

ثانيًا: مؤسسات التعمير الحضري وتشريعاتها

١/٢–المدينة والسلطة: أية علاقة

اختطت المدن العواصم عبر التاريخ من طرف الحكام والأمراء نظرا للبعد الاستراتيجي الذي تضطلع به المدينة العاصمة باعتبارها وعاء ماديا للسلطة المركزية، ومنبعا لتخريج نخبها وأطرها الإدارية والسياسية والعسكرية، ومركزًا لصدور قراراتها إلى المجالات المجاورة.

ولم تحد الحواضر المغربية الكبرى عن هذه القاعدة، حيث تم اختطاطها وتنظيم عمارتها بإشراف مباشر من طرف السلاطين والأمراء، بل ظلت عملية البناء والتشييد والإصلاح خاضعة لقرار السلطان، إذ لم تجرؤ المؤسسات الإدارية المحلية بالمدن الكبرى على التدخل التلقائي في تخطيط المدينة أو بناء مرافقها المركزية وإصلاحها دون استشارة السلطة المركزية.

يمكننا تأكيد ذلك من خلال نموذج مدينة فاس؛ فمن خلال المصادر التاريخية يبدو أن كل الأعمال المعمارية الكبرى بها كانت بإذن السلطان، نجد ذلك ابتداء من العهد الإدريسي، ففي عهد يحيى بن إدريس الذي "في أيامه كثرت العمارة بفاس، وقصد إليها الناس من الأندلس وإفريقية، وجميع بلاد المغرب (...) بني جامع القرويين شرف الله بذكره"[٩]، ورغم أن هذا الجامع بني بشكل تطوعي، فإنه تم بإذن الأمير، إذ "أن فاطمة الفهرية حينما عزمت على بناء جامع القرويين، طالعت لهذا العمل يحيى بن إدريس"[١٠].

وقد كان لفئات الشعب أن تبني فقط الدور والحوانيت تحت مراقبة السلطات المحلية، التي مثلها المحتسب أو رجال السلطة، في إطار قاعدة دفع الضرر وجلب المصالح، لكن الأعمال الكبرى كانت تتم وجوبا بأمر أو بترخيص من الحكام، فحينما استفحلت عمارة المدينة وامتدت على شكل أرباض خارجها، أمر أمراء زناتة بتوسيع سور المدينة ليشمل جميع عمائرها[١١]، وقرار توحيد المدينة وثلم سورها الداخلي كان بأمر من يوسف بن تاشفين[١٢]، بل أكثر من ذلك أن المدينة ظلت في حالة معمارية هشة بعدما دمر عبد المومن بن علي الكومي الآلاف من دورها وخرب أسوارها لمدة نصف قرن، إلى أن أمر الناصر الموحدي بإعادة بناء أسوارها، وترميم وإصلاح عمارتها[١٣].

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن مشاريع توسعة المساجد الجامعة، ومدها بقنوات الماء والتطهير، كان يتم بترخيص من السلطان، وفي هذا السياق يحكي ابن أبي زرع: أن جامع القرويين حينما ضاق بمرتاديه بحيث لم تعد سعته قادرة على احتواء آلاف المصلين؛ إذ "تناهت القبضة، فضاق الجامع بكثرة الخلق، حتى كان الناس في أيام الجمعة يصلون في الأسواق والشوارع والطرق، فاجتمع الفقهاء والأشياخ وتكلموا في ذلك مع قاضي المدينة، وهو الفقيه أبو عبد الله محمد بن داوود وكان أحد القضاة الفضلاء من أهل العلم والعدل والورع، فأعلم القاضي إلى أمير المسلمين [علي بن يوسف] بما رفع إليه من أمر الجامع المكرم، واستأذنه في الزيادة فيه، فأذن له وقال له يكون الإنفاق في ذلك من بيت المال"[١٤]. وكذلك الأمر بالنسبة لمشروع مد سقاية الجامع وميضأته بالماء سنة (٥٧٦هـ/١١٨١م)، حيث "كتب الشيخ الفقيه أبو محمد يشكر إلى أمير المسلمين يعلمه بالأمر، ويستأذنه في جلب الماء، فأذن له بظهير، وأن يشق به حيث شاء من شوارع المدينة وطرقها، فأجمع العرفاء والبنائين وأهل الهندسة وأمرهم أن ينظروا في المواضع التي يمكن إتيان الماء منها"[١٥]، ولقد حدث في العهد الموحدي في فترة حكم أبي يعقوب يوسف أن والي مدينة فاس قام بإضافات معمارية متعددة لجامع الأندلس، فلم يقبل منه ذلك، ومن جملة ما قام به: إعادة بناء بابه الجوفي وتفخيمه، وجلب الماء إليه من إحدى

عيون المدينة، وبنى سقاية ونمقها... "كل ذلك بصناعات محكمة ظريفة العمل (...) وأنفق في ذلك من مستغلاته في سنة اثنتين وتسعين ومائة، وأراد أن يعلم بذلك مولانا أمير المسلمين أبا يعقوب -رحمه الله- وليجعل ذلك خدمة له، ثم إن من حسده بادر بالسعاية إليه فيه، ورفع لأمير المسلمين أنه أحدث بالجامع ما لا يحتاج إليه بغير إذن، فأمر أمير المسلمين بغلقه إلى أن ينظر في أمره، فغفل عن ذلك، ولم يزل الباب مغلقا إلى الآن[١٦]"[١٧].

يبقى السؤال هنا ماهي المرجعية النظرية التي وجهت عملية تخطيط المدن من طرف السلاطين؟

٢/٢-السياسة الشرعية أو الأحكام السلطانية

إن تشابه الأعمال السلطانية في العمارة الحضرية عموما، والمدن العواصم منها على الخصوص، يجعلنا أمام مرجعية موحدة وجهت الأشغال المعمارية الكبرى التي كان يقوم بها السلاطين في مدن العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط، فمن اختيار الموضع والموقع، وتصميم المدينة، ومتابعة الإنجازات المعمارية ومراكمتها بها، نجد السلطة المركزية حاضرة بقوة، تتبع كل صغيرة وكبيرة متعلقة بالبنيان العمومي، وتشرف بنفسها أو بإذن منها على إنجاز المشاريع المعمارية في المدن، وقد كان تدخلها حاسما في أربعة أمور هي:

١. اختيار موقع المدينة وموضعها أو الموافقة عليه.
٢. الموافقة على المخطط العام للمدينة، خصوصا ما يتعلق بمكان الإقامة السلطانية والمسجد الجامع.
٣. الأمر بصرف ميزانية البناء من بيت مال المسلمين، أو من الهبات السلطانية.
٤. الإشراف المباشر على أشغال المعالم المعمارية الرمزية، خاصة التي يراد منها أن تحمل البصمة السلطانية.

إن المرجعية النظرية التي نبحث عنها والتي شكلت إطارا موجها للسلوك العمراني لأمراء المسلمين؛ نجدها بارزة فيما يسمى بالأحكام السلطانية أو السياسة الشرعية، التي كان الملوك والوزراء ملزمين بالعلم بها، مقربين منهم علماءَها ليكونوا على اطلاع مستمر على مستجداتها، باعتبارها تضم توصيات استراتيجية لابد من اتباعها حفاظا على كرسي الحكم وضمانا لهيبة السلطة ورجالاتها.

لن نفصل هنا في تقييم طبيعة هذه التوجيهات وعلاقتها بالسياسة الرشيدة للحكام المسلمين من سوئها، باعتبار أن هذه الأحكام السلطانية كانت تكرس السلطة الفردية القابضة على مفاصل العمارة والعمران، إلى درجة أن بعض الباحثين يعتبر التخطيط الحضري في المدن الإسلامية عملا شخصيا تمليه ظروف الدولة والنزوات الفردية للسلاطين[١٨]، وهو أمر مردود في عموميته، ذلك أن تخطيط المدن الإسلامية وإن كان ينسب في المجمل للأمراء والسلاطين فقد أملته ظروف بنيوية منها ما هو ديني وسياسي واقتصادي ومجالي تفاعلي. إن العمارة تشكل أحد الأركان الأساسية للملك؛ إذ تعد الركن الخامس بعد إقامة الشريعة والوزارة وإعداد الجند وحفظ المال، وقد جاء في كلام ابن خلدون أن: "الملك للعمران بمنزلة الصورة للمادة، وهو الشكل الحافظ لوجودها"[١٩].

ومن أبرز الكتب التي تناولت تنظيرًا وجمعًا لأحكام السياسة الشرعية نجد: كتاب شهاب الدين أحمد بن محمد بن أبي الربيع (ت. ٢٧٢هـ/٨٨٦م)، الذي يحمل عنوان "سلوك المالك في تدبير الممالك على التمام والكمال"، وقد ألفه للسلطان العباسي المعتصم سنة (٢٢٧هـ/٨٤٢م)، ثم كتاب "الأحكام السلطانية والولايات الدينية" للماوردي (ت.٤٥٠هـ/١٠٥٩م)، وكتاب "المقدمة" لابن خلدون (ت. ٨٠٨هـ/١٤٠٦م)، وكتاب تلميذه ابن الأزرق الأندلسي، وعنوانه: "بداية السلك في طبائع الملك".

لم يقتصر الأمر على ما كان يكتبه العلماء والفقهاء، بل إن السياسة الشرعية حضرت على شكل وصايا كتبها الملوك لأولياء عهدهم، ومن أبرز أمثلتها: كتاب "واسطة السلوك في سياسة الملوك" الذي كتبه موسى بن يوسف بن زيان العبد الوادي لابنه، الذي خلفه على رأس دولة بني عبد الواد في المغرب الأوسط، ومن جملة وصاياه ذِكرُه للشروط والمعايير التي يجب على ابنه استحضارها في اتخاذ مدينة تكون مقرا لسلطته، وقد قال في ذلك: "اعلم يا بني أن من حزم الملك وسياسته ويقظته ورياسته أن يعتد لنفسه بأربعة أمور لا محيد عنها لكل ملك

مشهور، الأمر الأول: المعقل، اعلم يا بني أنه ينبغي لك أن تتخذ لنفسك معقلا يكون لك في المهمات موئلا تلجأ اليه عند الشدائد، وتتحصن به من العدو المعاند، وصفة المعقل أن يكون حصنا حصينا لا يرام، وركنا منيعا لا يضام، وذروة لا تفرع، ومروة لا تقرع، وعقيلة لا تقترع، وبكرا لا تخطب، وقلعة لا تطلب، قد اشتمل على الماء والاختزان، والعدد والإمكان، تجعل فيها ذخائرك وأموالك وأثاثك وأمتعتك وأثقالك، تسكن فيها أجرياء أجنادك وحماتك وقوادك، تشحنه بالرجال والرماة المترجلة والزعماء من الرجال المحصلة، الذين لا يروعهم الحمام ولا يخوفهم سل الحسام (...) وتسكن فيها أهل الصناعات وأرباب التجارات والبضاعات، حتى لا يحتاج الحصن إلى غيرهم على قلهم أو كثرهم، وليكن غرس هذا الحصن ما يكون به الانتفاع، مثل الزيتون والتين وما قارب هذه الأنواع، وأن تأتي أن يكون ذلك الحصن على ساحل البحر، فنعم الحصن والثغر، وان قدرت أن يكون بحره تحت حكمك، فهو أحسن لنظمك، وليكن حصنك ذلك أحسن من جميع الحصون، وأحصن وأمنع منها وأمكن"[٢٠].

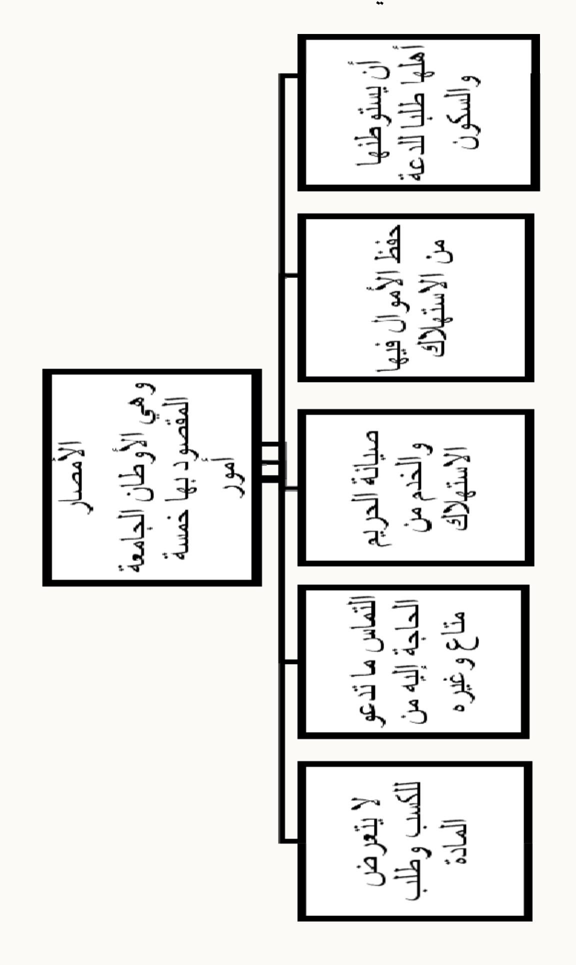
وهذه الوصايا المركزة في مضمونها حملت عصارة ما حفلت به كتب السياسة الشرعية، خاصةً وأن صاحبها أمير حكم في تاريخ متأخر من العصر الوسيط؛ أي خلال القرن ٧هـ/١٣م، وقد كانت هذه الكتب رائجة في العالم الإسلامي برمته، إذ تناقلها العلماء، وحفظها الطلبة، وكثيرًا ما نجد حضورا لنقول منها في كتب تاريخية متعددة، كما هو الحال في "روض القرطاس" لابن أبي زرع الفاسي الذي ذكر نقلا من هذه الكتب يقول فيه: "قالت الحكماء أحسن موضوعات المدن، أن تجمع المدينة خمسة أشياء، وهي: النهر الجاري، والمحرث الطيب، والمحطب القريب، والأسوار الحصينة، والسلطان؛ إذ به صلاح حالها وأمن سبلها وكف جبابرتها، وقد جمعت مدينة فاس هذه الخصال التي هي كمال المدن وشرفها وزادت عليها بمحاسن كثيرة"[٢١].

وما يميز كتب السياسة الشرعية عموما أنها لم تعتمد فقط على النصوص الدينية واجتهادات علماء السياسة الشرعية، وإنما انفتحت على الحكمة البشرية التي استقاها علماء المسلمين من التراث المكتوب والمادي لمختلف الجماعات البشرية التي احتكوا بها، أو التي قاموا بفتح دولها، وضمها إلى جغرافية العالم الإسلامي.

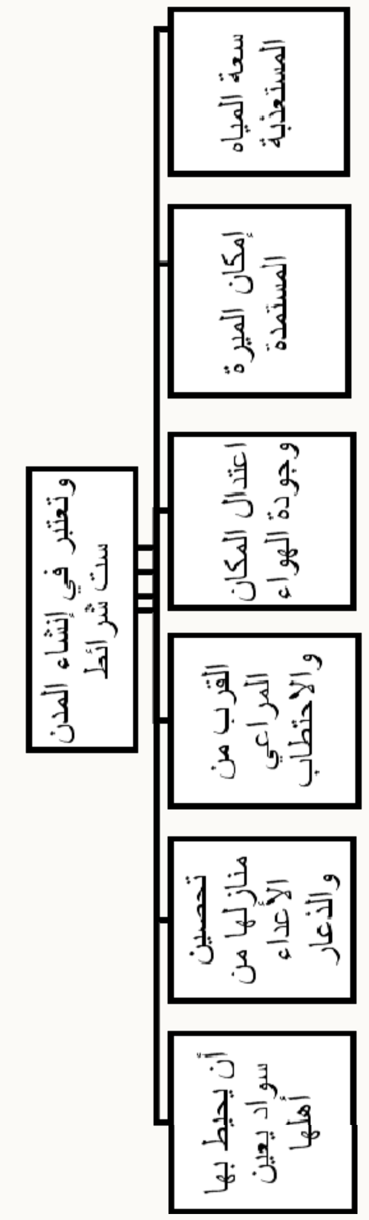
وعلى العموم فإن هذه الأحكام والوصايا ركزت فيما يخص العمارة على التوجيهات العامة المتعلقة باختيار مواضع المدن، وتوزيع المرافق المركزية داخل المجال الحضري، خاصة المرافق المركزية.

ومن أبرز الكتب التي يمكن أن نعرضها في هذا المجال، ونرصد مدى مطابقة تخطيط المدن المغربية الوسيطة لتوجيهاتها؛ كتاب ابن أبي الربيع "سلوك المالك في تدبير المماك"، الذي خصص فيه بابا، تحدث فيه عن فلسفة بناء الحاضرة، ومواصفات تخطيطها.

ومن الأمور الأساسية التي ذكرها ابن أبي الربيع، والتي يجب أن تحققها المدينة السلطانية؛ خمسة أمور "إذا عدم فيها هذه الأمور فليس من مواطن الاستقرار"[٢٢]، وهي:



كما وضع ابن أبي الربيع ستة شروط لاختيار مواضع المدن هي:



وفيما يخص تخطيط المدينة فقد جعل لذلك ثمانية شروط؛ إذ يقول: "ويجب على من أنشأ مدينة أو اتخذ مصرا ثمانية شروط"[٢٣] وهي:

- أن يسوق إليها الماء العذب ليشرب حتى يسهل تناوله من غير عسف.
- أن يقدر طرقها وشوارعها حتى تتناسب ولا تضيق.
- أن يبني فيها جامعا للصلاة في وسطها ليقرب على جميع أهلها.
- أن يقدر أسواقها بحسب كفايتها، لينال سكانها حوائجهم من قرب.
- أن يميز قبائل ساكنيها بأن لا يجمع أضدادا مختلفة متباينة.
- إذا أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه كفالة من سائر جهاته.
- أن يحوطها بسور خوف اغتيال الأعداء؛ لأنها بجملتها دار واحدة.
- أن ينقل إليها من أهل العلم والصنائع بقدر الحاجة لسكانها، حتى يكتفوا بهم ويستغنوا عن الخروج إلى غيرها.

والملاحظ أن هذه الشروط نجدها حاضرة كليًا أو جزئيًا في تخطيط المدينة المغربية الوسيطة، ما يدل على أن ما كتبه ابن أبي الربيع كان معمولاً به سابقًا؛ إذ إن مدينة سجلماسة بنيت سنة (١٤٠هـ/٧٥٨م)، ومدينة فاس بنيت سنة (١٩٢هـ/٨٠٨م)، وكتاب ابن أبي الربيع كتب لصالح المعتصم العباسي، الذي حكم الدولة ابتداء من سنة (٢١٨هـ/٨٣٣م)، وهو ما يعني أن هذه الشروط كانت متداولة في العالم الإسلامي وكتاب ابن أبي الربيع ما هو إلا جامع لها، ويعضد ما ذهبنا إليه التشابه الكبير في تخطيط مدن العالم الإسلامي خلال هذه الفترة.

والملاحظ أن الشرط السادس الذي يتعلق بدار الإمارة أو القصر السلطاني شهد تطورًا في تموضعه، حيث إنه في مدينة فاس بنى الأمير إدريس الثاني دار إمارته بالقرب من المسجد الجامع، عملاً بما قام به الرسول (ﷺ) حينما اختط داره لصقة للمسجد، لكن بعد عهد الأدارسة، وابتداء من عهد زناتة أصبحت دار الإمارة ومركز السلطة في أطراف المدينة، ففي عهد الأميرين المغراويين المتصارعين الفتوح وعجيسة، بنى كل منهما قصبة له في العدوة التي يحكمها، حيث "كان بينهما الحرب على الدوام، وبنى الفتوح بعدوة الأندلس قصبة منيعة بالموضع المعروف بالكذان، وبنى أخوه عجيسة قصبة مثلها برأس عقبة السعتر من عدوة القرويين"[٢٤]، وكلا الموضعين في أطراف العدوتين في أعلى نقطة ارتفاع، وهذا ما ينسجم مع ما ذكره ابن أبي الربيع، حينما تحدث عن الموضع المناسب لبناء دار الإمارة، حيث قال: وإذا "أراد سكناها فليسكن أفسح أطرافها، وأن يجعل خواصه كفالة من سائر جهاته"[٢٥]،

والأمر نفسه في مدينة مراكش التي بنى بها يوسف بن تاشفين دار الحجر لصقة لمسجده الجامع، لكن بعد ذلك استقلت السلطة المركزية بفضاء معماري يوجد في طرف المدينة تجسده القصبة السلطانية. وهي المسألة التي أصبحت عامة ابتداء من القرن (الثالث الهجري/ التاسع الميلادي)، ومرد ذلك إلى الصراعات السياسية الدائمة، والخوف من مباغتة العدو، الذي لم يعد خارجيًا فقط، بل أصبح حتى من الداخل، لذلك حصن الملوك قصورهم، وجعلوا بينها وبين العامة مساحة واسعة، وتطور الأمر في بلاد الغرب الإسلامي إلى بناء قصبات معزولة بسور، وأصبحت هذه القصبات لازمة من لوازم تخطيط المدن في الغرب الإسلامي؛ إذ لم تخل منها مدينة مغربية أو أندلسية.

٢/٣-الفقهاء والقضاة ونظم فقه العمارة الإسلامية

بداية لا بد من التأكيد على أهمية الدور الكبير الذي لعبه الفقهاء في صياغة الكتلة العمرانية للمدن الوسيطة، وأي تغييب لهذه المؤسسة أثناء مقاربة تخطيط المدينة وسيرورتها المعمارية التراكمية سيؤدي لا محالة إلى مخرجات خاطئة، كالتي ظل عليها عدد من الباحثين الغربيين نصف قرن من الزمن، إلى حدود ستينيات القرن الماضي؛ إذ "أعيد النظر فيما يسمى بسكوت الفقهاء عن مكونات المدينة، وتأكد أن الفقهاء يدركون بنيات المدينة، وتوزيع حوماتها، وأن دور العلماء كان أساسيًا في تسيير مدينة فاس"[٢٦].

لذلك فإن فقه العمارة الإسلامية يعد مادة مرجعية "تحكمت في تخطيط المدن المغربية، لا يمكن للدارس أن يستغني عنها"[٢٧]، فإذا كانت الأحكام السلطانية تضمنت توجيهات تخص شروط اختيار المواضع والمواقع، وكذلك المعايير العامة التي يجب استحضارها في تخطيط الهيكل العام للمدينة، وتوزيع مرافقها المركزية، فإن فقه العمارة يعد بمثابة مدونة التعمير في العصر الحالي، حيث تضمنت أحكاما تخص ملكية الأرض، واستعمالها، وكذلك "التركيب الداخلي للمدن، من تقسيم الشوارع، وتوزيع المنشآت عليها، والعلاقة بين هذه المنشآت بعضها بعضا، والشروط الواجب توافرها فيها"[٢٨]، كما اهتم الفقهاء "بأحكام الشوارع وسقائفها، وهيئتها العام منها والخاص، وحقوق الإنفاق فيها ونظافتها، وتوزيع الأسواق، كما بحثوا أحكام السور وضرورة إحكام بنائه ومواصلة الصيانة له وترميمه، وفي أمن المدينة، واحتلت قضية توفير مياه الشرب مكانها الهام من اهتماماتهم"[٢٩].

لقد كان هناك تمايز وظيفي في مهام كل من الفقهاء[٣٠] والقضاة داخل المدينة، فالفقهاء كانوا بمثابة سلطة تشريعية تعمل على تدعيم الترسانة الفقهية بأحكام جديدة، سواء من النص الديني أو القياس المنطقي، أو الاجتهاد العقلي، أو دعما لأحكام عرفية جرت بها العادة في السلوك المعماري الحضري، أما القاضي فقد كان "مكلفا بالأحكام الشرعية، أي بتطبيق القوانين المستخرجة من كتب الفقه الإسلامي"[٣١]، وأي تعارض بين التشريعات الفقهية والأحكام القضائية يرفع إلى المفتي[٣٢]، الذي يصدر فتواه في مختلف النوازل الفقهية، ومنها قضايا البنيان التي احتلت بابًا واسعًا في كتب النوازل.

وهكذا فإن الحياة الحضرية بعمارتها وعلاقاتها المتشعبة، كانت وراؤها نظم وقوانين تسوسها، وتضبط إيقاعاتها، كما تعاقب كل من ثبت خرقه لمنظومتها، فقد كان القاضي بالمرصاد لكل من تورط في انتهاك المنظومة المعمارية الجاري بها العمل، كما كان المفتون يتصدون بالإفتاء في كافة النوازل المعمارية، وكانت هناك مؤسسة أخرى شبه قضائية، لها دور فاعل في متابعة أحوال البنيان، وتوزيع المباني، ومتابعة الجودة المعمارية للمرافق الحضرية؛ هي مؤسسة الحسبة التي سنخصص لها محورًا خاصًا نظرًا لأهميتها في تخطيط المدن.

استند فقه العمارة الإسلامية على قاعدتين أساسيتين أولهما: العادة محكمة؛ أي الاعتماد على الأعراف التي درج الناس على احترامها واعتمادها في البنيان، شريطة عدم تعارضها مع الأحكام العامة للدين الإسلامي، وتأصيل هذه القاعدة في الآية الكريمة التي يقول فيها الله عز وجل ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ٩٩]؛ ومن أمثلة ذلك ما ذكره ابن الرامي في مسألة الجدار بين الرجلين يدعيه كل واحد منهما حيث قال: "يحكم في ذلك بما جرى من عادة المالك أن يفعله في ملكه، لأن العرف والعادة أصل

يرجع إليهما في التنازع إذا لم يكن ثم أصل يرجع إليه، لقول الله عز وجل ﴿ خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ﴾"(٣٣).

أما القاعدة الثانية فهي: قاعدة لا ضرر ولا ضرار، التي احتلت بابًا واسعًا في فقه العمارة الإسلامية، وتفرعت عنها جل الأحكام الخاصة بالعمارة(٣٤). والقاعدة الأولى تؤكد ما ذهبنا إليه في هذا البحث، بخصوص تعدد العناصر المؤثرة في تخطيط المدينة المغربية الوسيطة، التي منها الموروث التاريخي القديم والخبرة التراكمية، على اعتبار ذلك أصلاً لأعراف البناء السائدة.

تأثير قاعدة لا ضرر ولا ضرار في تخطيط المدينة الإسلامية

احتلت قاعدة لا ضرر ولا ضرار بابًا واسعًا في فقه العمارة الإسلامية؛ إذ عليها قامت جل التشريعات الموجهة للسلوك المعماري الحضري، ما جعل لها وقعا كبيرا على شكل البنيان وديناميته في المدن الإسلامية(٣٥)، ولم ينحصر وقعها في الجانب التشريعي فقط، وإنما أصبحت هذه القاعدة مرسخة في ذهنية المجتمعات الحضرية داخل مدن المسلمين، يحتكمون إليها في سلوكهم المعماري، إلا ما شكل نازلة تطلبت تدخل الفقهاء والقضاة لحلها. لقد اجتهد الفقهاء في إحصاء جل مصادر الضرر، ووضعوا تشريعات فقهية، وأصدروا فتاوى تفصيلية حول كل قضية تضر بالبيئة الحضرية، سواء كانت صغيرة أم كبيرة.

ويصنف فقهاء المذهب المالكي الضرر إلى صنفين: ضرر قديم، وضرر محدث:

الضرر المحدث: يتفقون على وجوب إزالة أي مصدر للضرر المحدث(٣٦).

الضرر القائم: "ينقسم إلى أضرار ناتجة عن أنشطة استقرت في المنطقة قبل غيرها من الإشغالات، ويجمع الفقهاء على إبقائها لأحقيتها على غيرها بما أنها 'ضرر دخل عليه' "(٣٧).

وأضرار أخرى ناتجة عن أنشطة بدأت بعد استقرار الجيرة المحيطة بها، ومضى عليها وقت طويل قبل أن يشكوَ منها سكان المنطقة، ويحكم هذه الحالة قاعدتان:

القاعدة الأولى: وقف الأنشطة في حالة الإتلاف والضرر الشديد، مثل دخان نار الحمامات، وغبار الطواحين، ورائحة الدباغة(٣٨).

القاعدة الثانية: تقضي بالإبقاء على النشاط إن كان ضرره ضئيلا، وممكن التكيف معه، مثل دخان المخابز، أو مطابخ البيوت(٣٩).

وعلى العموم فقد أحصى الفقهاء عدة مصادر للضرر منها: الدخان، الرائحة الكريهة، الضوضاء، الاهتزاز، ضرر الكشف، قطع الطريق.

ومن الحقوق الضامنة لدفع الضرر حسبما حددها فقه العمارة الإسلامية:

حيازة الضرر: وهو مبدأ صاغ مدن المسلمين صياغة شاملة(٤٠)، ويعني أن الذي سبق في البناء، لديه حقوق عدة يجب أن يلتزم جاره الذي بنى بعده بها، حيث لا يلحق به أي ضرر، سواء في الطريق، أو المبنى، أو التهوية، وهكذا تنشأ دينامية حضرية تأخذ بعين الاعتبار المصلحة المشتركة، وتذيب النزعة الفردية.

الخصوصية: معناها الحفاظ على حرمة المسلم، وخصوصياته، واستقلاله الذاتي، تتمثل –في أحكام البناء– في: أنه لا يجوز انتهاك حرمات البيوت بفتح نوافذ تطل على ما بداخلها، أو فتح باب مقابل باب بيت الجار إن كانت المسافة متقاربة بينهما.

حق الارتفاق(٤١): الارتفاق في اللغة الانتفاع بالشيء، وشرعا هو أحد أنواع الملك الناقص، وذلك لأنه "حق مقرر على عقار، لمنفعة عقار لشخص آخر"(٤٢)، كإجراء الماء من أرض الجار، أو تصريف الماء الملوث في مصرف معين، أو المرور في أرض الغير...

وتنشأ حقوق الارتفاق بأسباب متعددة(٤٣) منها:

- الاشتراك العام: كالمرافق العامة من طرقات، وأنهار، ومصارف عامة يثبت فيها الحق لكل عقار قريب منها بالمرور والسقي لأن هذه المنافع شركة بين الناس يباح لهم الانتفاع بها بشرط عدم الإضرار بالآخرين.
- الاشتراط في العقود: منها اشتراط البائع على المشتري أن يكون له حق المرور في العقار الذي تم بيعه.

- التقادم: أن يثبت حق الارتفاق لعقار من زمن قديم، لا يعلم الناس وقت ثبوته، لأن الظاهر أنه ثبت بسبب مشروع.

حق المرور: وهو حق يمكن الإنسان من الوصول إلى ملكه، دارًا أو أرضًا، بطريق يمر فيها سواء أكان من طريق عام أم من طريق خاص مملوك له أو لغيره، أولهما معا[٤٤]، وحكمه يختلف بحسب نوع الطريق؛ فإن كان الطريق عاما فلكل إنسان حق الانتفاع به، لأنه من المباحات سواء بالمرور، أو بفتح نافذة، أو طريق فرعي له، أو إنشاء شرفة ونحوها، بالشكل الذي لا يلحق الضرر، وأما إن كان الطريق خاصا، فحق الانتفاع به مقصور على صاحبه وأهله المشتركين فيه، ولكل الناس حق المرور فيه عند زحمة الطريق العام، وليس لهم فتح باب فيه أو نافذة إلا بإذن من صاحبه[٤٥].

دور قاعدة العادة محكمة في حل المشكلات المعمارية

العادة والعرف كلمتان مترادفتان، والعادة محكَّمة تعني أن ما جرت عليه أحوال الناس، وما تعارفوا عليه في سلوكاتهم وعلاقاتهم، فيما لا يتعارض مع أحكام الشريعة، يتم الاحتكام إليه في حل القضايا الخلافية، وتستنبط منه أحكام شرعية ملزمة.

وارتباطًا بأحكام البنيان، فقد لعبت هذه القاعدة الأصولية دورًا هامًا في تنظيم الدينامية المعمارية وحل مشاكل البناء الطارئة؛ "فعندما يتصرف الناس في البناء بطريقة متشابهة، نقول بأن هناك عرفا بنائيا أو نمطا بنائيا"[٤٦]، وغالبا ما يكون للأعراف المعمارية بعد تاريخي موروث، ألف الناس على تطبيقها بتلقائية واعتيادية، ما يجعلها قوانين تخترق سيرورة الزمن بشكل انتقالي، وتسجل خصوصية من خصوصيات المجتمع، وهذا ما يجعلنا نذهب إلى أن السلوك المعماري ممتد في الزمان، لكنه يشهد تطورات متلاحقة في إطار ثوابت تشكل خصوصيات أولية، ويكتسب تطوره انطلاقا من تغير الثقافات والذهنيات، والتحولات الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية.

لقد حضر الفقهاء أولاً في حسم حكم الأرض التي بنيت عليها المدن، ففي مدينة فاس مثلاً حينما وقع الاختلاف فيما إذا كانت فتحت عنوة أو صلحا أو مختلطة، ذهب البعض إلى أنها فتحت عنوة وبالتالي لا يجوز لأحد بيع شيء منها، كأرض مصر وطنجة، لأنها افتتحت بالسيف، ومنهم من قال صلحا؛ صالحوا عليها أهلها، وذلك ما يجيز بيع بعضهم من بعض، والثالث قيل إنها مختلطة هرب بعضهم عن بعض فتركوها، فمن بقي بيده شيء كان له[٤٧].

لكن الفقيه أبا جيدة ابن أحمد اليزغيتي[٤٨] ابن مدينة فاس حسم هذا الخلاف الفقهي حينما تغلب أحد عمال المنصور بن أبي عامر عليها، وطلب من أهلها الجواب عن سؤال ما إذا كانت فتحت صلحا أم عنوة، فأجابه الفقيه المذكور بجوابه المشهور: بأن أهلها "أسلموا عليها"، فقال لهم العامل لقد خلصكم الرجل[٤٩].

لم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن الفقهاء ظلوا شديدي الارتباط بحركة البنيان داخل المدينة وخارجها، فإضافة إلى النظم والقوانين التي ظلت إطارا موجها لدينامية التعمير، تدخلوا بفتاويهم المتعددة في النوازل الطارئة التي ثبت ضررها للبنيان، ومن حسن حظنا أن مكتبة الغرب الإسلامي احتفظت لنا بكتب قيمة تناولت موضوع نوازل البنيان حسب المذهب المالكي، أولها كتاب "الحيطان" للكاتب الأندلسي عيسى بن موسى التطيلي (٣٢٧-٣٨٦هـ/٩٣٩-٩٩٦م)، و"كتاب الاعلان بأحكام البنيان"لصاحبه ابن الرامي، الذي عاش بمدينة تونس خلال نهاية القرن السابع وبداية القرن الثامن الهجري، إضافة إلى كتاب الموسوعة النوازلية التي جمعها أبو العباس الونشريسي (ت ٩١٤هـ/١٥٠٩م)، بعنوان "المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل الأندلس والمغرب".

وقد تطورت هذه المباحث حتى ظهر عند الفقهاء علم قائم بذاته اسمه "علم عقود الأبنية" وعرفوه بأنه: "علم يتعرف منه أحوال أوضاع الأبنية، وكيفية إحكامها، وطرق حسنها، كبناء الحصون المحكمة، وتنضيد المنازل البهية، والقناطر المشيدة وأمثالها، وأحوال كيفية شق الأنهار، وتقنية القني[٥٠]، وسد البثوق[٥١]، وإنباط[٥٢] المياه، ونقلها من الأغوار إلى النجود وغير ذلك"[٥٣].

وبالعودة إلى كتاب الجدار، باعتباره أول الكتب التي جمعت لنا الفتاوى الفقهية المالكية في الغرب الإسلامي

المتعلقة بضرر البنيان، نجده عرض أكثر من خمسين حالة من مظاهر الضرر في البنيان، نذكر أهمها[٥٤]:

- القضاء بالمرفق في المباني ونفي الضرر.
- القضاء في الدار تكون بين الرجلين فتتهدم ويأبى أحدهما من بنيانها.
- القضاء في الدور يكون السفل منها لرجل والعلو لأخر فيهدم السفل أو يعتل.
- القضاء في رفوف الدور والارتفاق بساحاتها.
- القضاء بنيان الرفوف تخرج على أزقة المسلمين.
- القضاء فيمن كان له علو على رجل فأراد أن يبني عليه علو أرض.
- القضاء في بنيان سلاليم الدور القضاء في مهارق السقوف ومعارج الدور.
- القضاء في الرجل يهرق ماء سقفه في دار جاره فيريد أن يعلي بنيانه.
- القضاء في كنس الدور المشتركة وغلق أبوابها.
- القضاء في مراحيض الدور وكنسها.
- القضاء في الخربة تكون بين أظهر قوم فيكثر فيها الزبل على من كنسها.
- القضاء في فتح الأبواب والكوى(النوافذ) في الدار والرجل يعلي بنيانه فيمنع جاره الريح والشمس.
- القضاء في فتح الأبواب والحوانيت في الأزقة النافذة وغير النافذة.
- القضاء في مباني المساجد وصوامعها وقطع ما أطلع منها أو بني ضررا.
- القضاء في الأفران وحوانيت الحدادين والدباغين والحمامات المحدثة وقطع ما أضر منها.
- القضاء في الأنادر وقطع ما أضر بها أو أضر منها.
- القضاء فيمن أحدث عليه شيء يضر به ولم يقوم في ذلك إلا بعد طول الزمان.
- القضاء في الجدران وقسمتها والارتفاق بها.
- الدعوى في الجدار.
- القضاء في الجدار المائل المخوف سقوطه.
- القضاء في الرجل يبني جداره فيميله إلى هواء جاره.
- القضاء فيمن أذن لجاره في بنيان جداره بنيان على أن يحمل عليه خشبه.
- القضاء في الرجل يريد أن يظهر لجداره على جدار جاره.
- القضاء في الأفنية والطرق والتوسع فيها وما يجوز من ذلك وما لا يجوز.
- القضاء في قدر سعة الطريق.
- القضاء في الكنف والبلالع تتخذ في الطريق.
- القضاء في الرجل يهدم داره ويجعل نقضه في سكة المسلمين.
- الدعوى والإنكار في الطريق.
- القضاء في الرجل تكون له الأرض بين أملاكهم ويقطعون بذلك طريقه.
- القضاء في الرجل تكون له طريق بين أملاك قوم فيريد تحويلها إلى موضع آخر من أرضه.
- القضاء في الرجل يكون له البيت في الدار المشتركة فيريد أن يفتح في ذلك البيت بابا إلى دار أخرى.
- القضاء في طريق العامة والخاصة يقطعه النهر.
- القضاء في الشجر تكون للرجل في أرض غيره فتسقط هل يجعل في موضعها أخرى.
- القضاء في الشجر تكون في الدار ويطلع منها على الجيران عند جنائها.
- القضاء في الشجر يجاور طريق قوم فيضر بالمار فيه.
- القضاء في إحداث أبرجة الحمام والعصافير واتخاذ النحل والإوز وضمان ما أفسدت المواشي.

إن هذه النوازل المتعلقة بالبنيان التي ذكرها الإمام التطيلي نجدها تتكرر في الكتب السالفة الذكر، حيث إن كتاب التطيلي شكل أحد المراجع الأساسية لما جمعه ابن الرامي في كتابه "أحكام البنيان"، رغم أنه لم يذكره بالإسم، كما وقف على ذلك محقق الكتاب[٥٥]، جريا على عادته في التأليف، حيث "ينقل فقرات أو بابا كاملا، وطورا يعمد إلى تلخيصها، أو إثرائها بنوازل من تجربته الشخصية في البناء، وقلما يجهد نفسه في القيام بعمل تأليفي، فهو ينقل عادة بطريقة المقص والغراء"[٥٦]، لكن هذا لا يبخس الكتاب حقه، كونه يبين لنا بشكل واضح أن الفتاوى التي أصدرها فقهاء الغرب الإسلامي جميعهم سواء في الأندلس أو تونس أو المغرب الأقصى والأوسط، كانت حاضرة عند المحتسبين الذين كلفوا بمراقبة أحوال البنيان ومنهم المحتسب ابن الرامي، الأمر نفسه بالنسبة للونشريسي الذي خص نوازل ضرر البنيان بكتاب بشكل الجزء الثامن ضمن موسوعته "المعيار المعجب والجامع المغرب بفتاوى أهل الأندلس والمغرب"، وما يميز النوازل التي جمعها الونشريسي؛ أنها تؤكد سريان نفس قضايا البنيان واعتماد نفس أحكام وفتاوى الفقهاء فيها، حتى في فترة متأخرة من الفترة المدروسة أي العصر

الوسيط، يقول في هذا الصدد: "أنه جمع في كتابه أجوبة المتأخرين المعاصرين من علماء إفريقية والأندلس، ومن متقدميهم ما يعسُرُ الوقوف على أكثره في أماكنه، واستخراجه من مكامنه، لتبدده وتفريقه (...) ورتَّبتُه على الأبواب الفقهية ليسهُل الأمر فيه على الناظر، وصرحت بأسماء المفتين إلا في اليسير النادر"(٥٧)، وقد ذكر واحدا وخمسين نازلة متعلقة بالبنيان.

وعلى العموم، فمن خلال هذه الكتب، يمكن تلخيص مكامن ضرر البنيان في العناصر الرئيسة:

- أضرار متعلقة بالجدار.
- ضرر الكشف وفتح الكوى.
- الأضرار المرتبطة بالطرق، والأزقة، والأفنية، والخرب.
- ضرر التلوث (الرائحة والدخان).
- أضرار عيوب وتداعي البناءات.

الأضرار المتعلقة بالجدار

نسجل بداية أن بناء المنازل في مدن المسلمين كان يتخذ تخطيطا يسمى بالبناء المتضام؛ أي إن المنزل السابق يبنى عليه المنزل اللاحق، وغالبا ما كان صاحب المنزل الجديد لا يبني جدارا خاصا به من جهة الجار؛ أي إن الفاصل بين المنزل والآخر كان في أغلبه جدارا مشتركا، وهذا طبيعي إذا ما استحضرنا أن أهل الخطة الواحدة(الحارة)، كانوا من نفس القبيلة أو العائلة أثناء البناء الأول. وهنا نستحضر عرض الجدار الذي كان يقارب أو يفوق خمسين سنتمترا، كلها مبنية بالحجر.

وقد كانت هذه الظاهرة بمثابة حق عرفي للجار، يدخل في باب حسن الجوار وأدبه، حيث جاء في حديث نبوي شريف عن أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يمنع أحدكم جاره أن يغرز خشبه في جداره"، ثم يقول أبو هريرة: ما لي أراكم عنها معرضين، والله لأرمين بها بين أكتافكم(٥٨).

لقد حمل هذا الحديث الناس على ضرورة مساعدة الجيران في عملية البناء، وذلك بحثهم على السماح للجار بغرز الدعامات الخشبية في حيطانهم، ما دام عرض الجدار في المدن الإسلامية كان يفوق في الغالب ٥٠سنتمترا ، وقد رفع بعض الفقهاء هذا الحديث إلى مرتبة الواجب؛ "كالإمام الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق وأبو ثور، وحمله مالك وأصحابه على الندب"(٥٩)، حيث سئل مالك عن حديث النبي صلى الله عليه وسلم: "لا يمنعن أحدكم جاره أن يغرز خشبة في جداره"، فقال مالك: ما أرى أن يقضى به، وما أراه إلا من وجه المعروف من النبي عليه السلام، وقال ابن القاسم: سئل مالك عن رجل كان له حائط فأراد جاره أن يبني عليه سترة يستتر بها منه، قال: لا أرى ذلك له إلا أن يأذن صاحبه(٦٠).

ومع التطورات الديموغرافية التي شهدتها المدن خلال العصر الوسيط، وتغير الملكيات بالبيع والشراء، وتبدل أحوال بأحوال، ظهرت مشاكل مرتبطة بالجدار، حدد لها ابن الرامي ثلاثة أوجه هي:

الأول: الجدار يكون بين داري الرجلين يدعيه كل واحد منهما لنفسه.

الثاني: الجدار يكون للرجل فينهدم أو يريد هدمه. هل يجب عليه إعادته؟

الثالث: الجدار يكون بين داري الرجلين، هل يتصرف فيه أحدهما دون إذن شريكه؟ أو يقسم بينهما(٦١)؟

وقد عرض لعشرات الحالات في المشاكل المرتبطة بالجدار، ومنها حالات في غايات التعقيد، قاربها الفقهاء بعقلية تشريعية تنم عن ذكاء كبير، غير أن ما يهمنا هو علاقة الجدار بتخطيط المدينة، التي تبدوا واضحة في كون اتجاه المباني السكنية وتخطيطها العام، والأزقة الناشئة عنها، ترتبط بشكل كبير بالجدار، باعتباره اللبنة الأساسية لحركية البنيان داخل الخطط أو الحارات التي تقتطعها السلطة المركزية، فلا يمكن مثلا البناء على الجدار الذي به باب دخول الدار ما ينشأ عن ذلك الزقاق، واتجاه الجدار الأول يحدد توجه الكتلة المعمارية المبينة بعده، بل إن الجدار يشكل أحد الاستحكامات الأساسية في التخطيط؛ إذ لو فرضنا جدلاً أن تترك حرية البناء في الخطط المخصصة للأحياء السكنية، لوقعت عشوائية لا يمكن حلها بين المباني، لذلك جرى العرف على أن يبني الجار منزله لصقًا لمنزل جاره السابق، سواء بالاستناد على الجدار البيني، أو أن يبني الجار الجديد جدارًا خاصًا به، لصقا بجاره.

والمتأمل للكتلة العمرانية الموروثة في مدينة فاس وغيرها من المدن العتيقة، سيلاحظ هذه الظاهرة، فإننا إذا أمعنا النظر في الوحدات السكنية القديمة، سنرى أن الجدار السابق، واللاحق، والبحث عن الموضع المناسب؛ عوامل حاسمة في التواء حركية البنيان ومعها الأزقة والطرق التابعة لهما.

ضرر الكشف وفتح الكوى

من الأمور الأساسية التي وجهت حركية البنيان احترام مبدأ الخصوصية، بحيث لا يجب أن تتكشف خصوصيات المنزل لأي سبب كان، سواء بفتح الكوى، أو فتح الباب أمام باب الجار، بالشكل الذي يكشف ما بداخل الدار. فإذا كان فتح الكوات للتهوية ودخول ضوء الشمس مسألة جائزة في جميع المذاهب بما فيها المذهب المالكي، فإن الإجازة مرتبطة بعدم الضرر بخصوصية الجار، حيث سئل بعض أئمة المالكية "عن الرجل يفتح الكوة في جداره، مع كراهية جاره لذلك، والكوة عالية لا تنال إلا بسلم فأجاب: إذا لم يكن في ذلك ضرر على جاره فلا أرى بأسًا بفتحها، لأنها منفعة"[٦٢]، فمتى ثبت كشف الكوة أو الباب لما في دار الجار يتم منع الضرر بإغلاقهما[٦٣]، وهذا ما جعل تخطيط الدور في مدينة فاس يرتكز على فناء داخلي تفتح فيه النوافذ وأبواب الغرف.

الأضرار المرتبطة بالطرق والأزقة والأفنية

تعتبر الطريق مرفقًا عموميًا يملك الكل حق الارتفاق فيه، لذلك كان على أصحاب السلطة في المدينة العمل على كف ورفع الأضرار التي تلحق بطرق المسلمين وأزقتهم، وقد اشترط الفقهاء أن لا يقل عرض الطريق عن سبعة أذرع بالنسبة لطريق الأقدام "فإن كان أقل من ذلك زيد فيه من أرض الناس حتى يكون سبعة أذرع"[٦٤] أما الطريق التي تمر منها المواشي والبضائع، فإن عرضها يجب أن لا يقل عن عشرين ذراعا[٦٥]، وترك بعض الفقهاء مسألة القياس حسب استعمالات الطريق ونوع وحجم المارة من الطرق، حيث ذكر بعض فقهاء المالكية أنه "يترك للناس من سعة الأزقة والطريق بقدر ما يمر بها فيه أوسع وأعظم شيء يمر في أزقتهم، فلا يضر ذلك مثل البعير بأعظم ما يكون من المحامل، وبالعجلة ونحو ذلك مما ينتفع به وليس في ذلك عندنا إلا قدر الانتفاع"[٦٦].

وقد ظهرت أضرار عدة لحقت حق الارتفاق العام بالطريق، منها أن يبني الرجل عرصة بالشارع، أو يحفر كنيفا، أو يفتح بابا، أو يضع هدمه في طريق المارة، أو يقيم دكاكين تعيق حركة المرور، وقد أفتى الفقهاء "بأن ما أضر بالمارين فلا خلاف في هدمه وزواله حتى لا يبقى له رسم"[٦٧]، وقد اختلفت أحكام ضرر الطريق بين السكة النافذة والسكة غير النافذة، فإذا كانت الساباطات ممنوعة في السكك غير النافذة، فإنها جائزة في السكك النافذة[٦٨].

إذن فالأحكام الشرعية كانت تختلف باختلاف نوع الزقاق، حيث إن كلمة الزقاق جاءت في المصادر الوسيطة بإطلاقها؛ أي بمعنى الطريق سواء أكانت ضيقة أو متسعة أو كانت سكة نافذة أو غير نافذة.

وقد أسهمت الأحكام الفقهية في خلق نوعين من الأزقة؛ الأولى متعددة الوظائف المرورية، حيث يمر منها الأشخاص والسلع المحملة على الدواب، وبها حوانيت يزداد عددها وتركزها كلما اقتربنا من السوق أو القيسارية، تتخللها سكك نافذة وأخرى غير نافذة، وأزقة أخرى فصلت بين الكتلة المعمارية للمنازل، تميزت بضيقها وكثرة التوائها الذي يسير وفق التوجه العام لحركة بناء المنازل، في انسجام مع المعطيات الطبوغرافية، وقد تخللت هذه الأزقة ساباطات، سمح الفقهاء ببنائها مادامت تربط بين عقارين لمالك واحد، إضافة إلى وجود شرفات ورفوف تخرج من الطوابق العلوية، لتطل على الطرق والأزقة، أفتى كذلك الفقهاء بجوازها إذا انعدم ضررها، فقد سئل الإمام عبد السلام سحنون المالكي (ت ٢٤٠هـ/٨٥٥م) عن "الرفوف والعساكر تطل على الطريق هل يمنع من ذلك عاملها؟ قال: لا، لم تزل هذه حال العساكر والرفوف يتخذها الناس ويطلون بها على الطريق، فلا أرى أن يمنع أحد من ذلك ما لم يضر بأحد"[٦٩].

كما كان الفقهاء والقضاة صارمين في مسألة توسعة الدور على حساب الطرق والأفنية، فقد سئل أحد فقهاء المالكية عن الرجل يزيد في داره من الطريق، فقال له: "يهدم ما بنى (...) لا ينبغي لأحد من التزيد من طريق

المسلمين، وينبغي على القاضي أن يتقدم في ذلك إلى الناس، وينهاهم ألا يحدث أحد بنيانا في طريق المسلمين"[٧٠].

الأمر نفسه بالنسبة للأفنية التي غالبا ما كانت تنتهي إليها السكك غير النافذة، فرغم سعتها، فقد تشدد الفقهاء في مسألة التوسع على حسابها، ذكر ابن عبدوس عن ابن القاسم عن مالك: أنه لم يعجبه أن يتزيد أحد من الفناء وإن كان واسعًا"[٧١]، وذلك راجع لأهميتها المناخية والوظيفية، إذ إن أي سماح لرجل بالزيادة فيها، سيدفع الآخرين إلى القيام بنفس العمل، وبالتالي يضيع الفناء، ما ينعكس سلبًا على حركة التهوية ويعرقل وظائفها الحيوية.

وارتباطًا دائمًا بالطريق فقد منع بناء الأبراج أو ما شابهها أمام الدور[٧٢]، وسمح بحفر كنف المراحيض لصق جدار المنزل، بشرط إحكام تغطيتها وتسويتها بالطريق، وما أضر منها يمنع[٧٣]، وقد منع كذلك تصريف المياه العادمة في الطرق أو بشكل يضر بجدران الجيران[٧٤]، كما ميز فقهاء المالكية بين تصريف المياه المستعملة، التي لا يجب صبها في الطرق، وبين ماء المطر الذي يعد ضررًا لا بد منه وهو أمر غالب[٧٥] ولكنهم أكدوا على ضرورة إقامة الميازيب[٧٦] أمام السطوح، بشكل يجعلهم يتحكمون في حركة انسياب ماء المطر من السطوح.

ضرر التلوث (الرائحة والدخان والضوضاء)

تُعَدّ الروائح الكريهة، ودخان الحرف الملوثة، وضوضاء الصناعات، أضرارًا أوجب فقهاء العمارة الإسلامية رفعها وإزالتها، لما لها من تأثير على الحياة العادية للسكان، ولكونها تؤثر على وظيفة السكن التي من أجلها اختطت الدور والمدن.

وفيما يخص الدخان، فقد قسمه الفقهاء إلى قسمين: منه ما يمنع ومنه ما لا يمنع؛ فالذي يمنع دخان الحمامات والأفران وما قاربه، والذي لا يمنع دخان التنور والمطبخ وما قاربه، مما لا بد منه ولا يستغنى عنه من طبخ المعائش وغيرها مما لا يستمر أمره[٧٧]. غير أنه وجب التمييز هنا في النوازل، فما كان قديما من أفران وحمامات وبنيت بعده الدور واشتكى أهلها ضرر الدخان، فإنه ليس لهم منعه باعتباره دخانًا قديمًا، وما تم إحداثه يزال[٧٨].

وضرر الرائحة مثل ضرر الدخان، فقد سئل فقهاء المالكية "مطرف وابن الماجشون وأصبغ، عن الذي يتخذ مدبغة في داره لدبغ الجلود، فاشتكى جيرانه ضرر الرائحة التي تصل إليهم، فهل لهم منعه وإزالة الضرر عنهم؟ قالوا نعم يمنع من هذا، وهو كضرر الدخان والحمام والأفران"[٧٩]، وهنا يجب أن نستحضر قاعدة في المنع، تتعلق بالضرر المحدث، فما كان قديما يترك على حاله، ولا يقتصر الأمر على الرائحة الكريهة الصادرة من دور الدباغة بل كل مصدر للرائحة الكريهة لابد له أن يمنع؛ كرائحة المراحيض والأقنية المفتوحة التي أوجب الفقهاء إحكام تغطيتها، "لأن الرائحة المنتنة تخرق الخياشيم وتؤذي الانسان"[٨٠].

أضرار عيوب وتداعي البناءات

من الأمور التي تلحق ضررًا كبيرًا بالسكان؛ الضرر المرتبط بسقوط البنيان الذي يهدد أحد المقاصد الخمسة الكبرى للشريعة الإسلامية وهو حفظ النفس، لذلك أفتى الفقهاء في إصلاح الجدران المتهالكة، والمائلة، وترميم أو بناء السقوف المهددة بالانهيار، وحددوا المسؤولية على من تقع، كما ضبطوا مسألة تمويل هذه الأعمال.

ومن أمثلة ذلك نازلة سئل عنها الإمام ابن القاسم (ت. ١٩١هـ/٨٠٧م)، وهو من أكابر المالكية، حيث سئل عن "جدار بين دار رجل ودار جاره مال ميلا شديدا حتى خيف انهدامه، أترى للسلطان إذا شكا ذلك جاره وما يخاف من أذاه وضرره أن يأمر صاحبه بهدمه؟ قال: نعم، واجب عليه أن يأمره بهدمه"[٨١]، كما سئل عن صاحب الطابق العلوي، إذا أراد أن يبني فوقه وأراد صاحب الطابق السفلي منعه، فقال: "أما البنيان الخفيف الذي لا يضر به فذلك له، وأما ما خيف منه الضرر عليه فيمنع منه، ويخلى بينه وبين ما لم يخف منه"[٨٢].

ونتيجة لخطورة سقوط السقوف، والضرر الكبير الذي يحدثه ذلك، فقد كان فقهاء المالكية جميعهم صارمين في مسألة البناء في الطابق العلوي، حيث ذكر الإمام أشهب من المالكية إلى أنه حتى ولو "انكسرت

خشبة من العلو، أدخل مكانها مثلها، وليس له أن يدخل أثقل منها مما يضره"[٨٣].

أما الأسوار والقناطر والمرافق الكبرى للمدينة، فإن مسألة ترميمها وإصلاحها، كانت بيد السلطان، وبأمره مباشرة، أو بترخيص منه، بعدما ترفع له حالة المرفق من طرف المؤسسات المشرفة على تدبير المدينة.

٤/٢-مؤسسة الحسبة

تعتبر مؤسسة الحسبة من المؤسسات المركزية التي كان لها دورًا كبيرًا في تدبير الحياة الحضرية داخل المدينة الإسلامية، وقد نمت مؤسسة الحسبة مع نمو الدولة الإسلامية منذ نشأتها الأولى، وشهدت تراكما في اختصاصاتها وتطبيقاتها، حتى أصبحت لواليها سلطات تدبيرية وقضائية واسعة، وقد عرف ابن خلدون الحسبة بكونها "وظيفية دينية من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو فرض على القائم بأمور المسلمين، يعين لذلك من يراه أهلا له، فيتعين فرضه عليه ويتخذ الأعوان على ذلك، ويبحث عن المنكرات ويعزز ويؤدب على قدرها، ويحمل الناس على المصالح العامة في المدينة"[٨٤]، وقد ذكر بعض مجالات تدخلها "مثل المنع من المضايقة في الطرقات، ومنع الحمالين وأهل السفن من الإكثار في الحمل، والحكم على أهل المباني المتداعية للسقوط بهدمها، وإزالة ما يتوقع من ضررها على السابلة، والضرب على أيد المعلمين في المكاتب وغيرها في الإبلاغ في ضربهم للصبيان المتعلمين"[٨٥].

غير أنه ثمة سؤال مهم يتعلق بالعلاقة أو الفرق بين مؤسسة المحتسب ومؤسسة القاضي؟

الجواب يحيلنا إلى التمايز الوظيفي بين الخطتين، وكذلك مرتبة كل خطة في السلم الإداري داخل المدينة، فإذا كان منصب القاضي يُعَدّ منصبًا ساميًا له مكانة خاصة، مستمدة من المرجعية الدينية وشرعية التولية السلطانية وشروطها، فإن المحتسب أقل منه مرتبة، إذ يعتبر واسطة بين خطة القضاء وخطة الشرطة، وقد كانت "في كثير من الدول الإسلامية مثل العبيديين بمصر والمغرب، والأمويين في الأندلس، داخلة في عموم ولاية القاضي، يوليه باختياره، ثم لما انفردت وظيفة السلطان عن الخلافة، وصار نظره عامًا في أمور السياسة، اندرجت في وظائف الملك وأفردت بالولاية"[٨٦].

وفيما يخص مجالات التدخل، فالواضح أن القاضي مكلف بإصدار الأحكام في المشاكل المتعلقة بالمعاملات والسلوكيات العمرانية المتشعبة، أما المحتسب فإن وظائفه متعددة منها ما هو قضائي في حدود اختصاصه، ومنها ما هو تدبيري يدخل في إطار ضمان السير العادي للحياة الحضرية، بما يشيع المعروف ويرفع المنكرات في أسواقها وطرقها وبناءاتها، "وتتفق الحسبة مع القضاء في إنصاف المظلوم وإلزام المدعى عليه بالأداء، وتقل عنه بعدم سماع جميع الدعاوى الخارجة عن ظواهر المنكرات؛ كالعقود مثلا، أو المتعلقة بالحقوق المجحودة (...) بينما تزيد الحسبة عن القضاء في متابعة المحتسب لتنفيذ ما يأمر به، وفي إمكان استخدام القوة أثناء أداء مهامه"[٨٧].

وعلى هذا الأساس فإن المحتسب كان يمارس قضاء القرب، نظرًا لكونه كان حاضرًا هو وأعوانه في مختلف مجالات الحياة الحضرية، يتدخلون في الأسواق ومكاييلها، وتوزيع عناصرها، والصنائع وطرق اشتغالها، كما يتدخلون في رفع كل ضرر يلحق بالطرق والأبواب والمرافق العامة، وعمومًا يمكن أن نلخص مهمة المحتسب في ثلاثة مجالات هي:

- السهر على التنظيم العام والسير العادي للحياة الحضرية.
- مراقبة المكاييل والغش في الصنائع والحرف والبناءات...
- السهر على احترام الأحكام الشرعية في العبادات والمعاملات.

لذلك لم تكن مهمة المحتسب تناط لمن هب ودب، بل إن صاحبها كانت تشترط فيه مجموعة من الشروط حيث "يجب أن يكون من ولي النظر في الحسبة فقيها في الدين، قائمًا مع الحق نزيه النفس، عالي الهمة معلوم العدالة، ذا أناة وحلم وتيقظ وفهم، عارفا بجزئيات الأمور وسياسات الجمهور، لا يستنفره طمع، ولا تلحقه هوادة، ولا تأخذه في الله لومة لائم، مع مهابة تمنع من الإدلال عليه، وترهب الجاني لديه (...) ومن صفاته

أيضًا: أن يكون يستعمل اللين من غير ضعف، والشدة من غير عنف، حتى لا يرتجى لكثرة تيقظه غفلة، ولا تومن على ذي منكر سطوته في أدب الجاني، أول مرة بالتوبيخ والزجر، وفي الثانية بالسجن والوعيد، وفي الثالثة بالضرب والشهرة"[٨٨].

لقد كان للمحتسب تأثير مهم في تخطيط المدينة الوسيطة وتنظيمها، فهو لم يكن مكلفا فقط بإجبار ملاك المنازل الآيلة للسقوط على إصلاحها كما يظن البعض[٨٩]، بل كان "ناظرًا يسهر على الأشغال بما فيها البناءات وتسيير المنشآت ذات الطابع العمراني"[٩٠]، ونظرًا لأهمية هذه الخطة الإدارية فقد خصص للمحتسب مكان خاص في الحواضر الكبرى كما هو الحال بفاس إذ خصصت له "ساحة كانت بها منصة كان يجلس عليها"[٩١]، للنظر في المخالفات التي ترد عليه بواسطة أعوانه، كما أنه كان "كثيرًا ما يتجول في المدينة على ظهر جواده مخفورًا باثني عشرة راميًا"[٩٢].

وما يدل على قدم وظيفة المحتسب بمدينة فاس، ما ذكره ابن خلدون من كونها كانت داخلة في عموم ولاية القضاء، منذ أن كان المغرب خاضعا للعبيديين[٩٣]، وقد أكد قدم هذه الخطة الحسن الوزان، حينما تحدث عن كيفية إسناد منصب المحتسب في مدينة فاس حيث قال "ويسند الملك وظيفة المحتسب إلى الأعيان الذين يطلبونها منه، ولم تكن تسند في القديم إلا لذوي الكفاءات والسمعة الطيبة، أما الآن فأصبح الملوك يكلونها إلى أناس عاميين وجهال"[٩٤].

وصلتنا بعض الكتب التي ألفت حول الحسبة وآدابها وتطبيقاتها أولها كتاب "أحكام السوق" للفقيه أبي زكرياء يحيى بن عمر بن يوسف الكناني الأندلسي (ت. ٢٨٩هـ/٩٠٢م)، وكتاب "آداب الحسبة" لأبي عبد الله ابن محمد بن أبي محمد السقطي المالقي، وهو من أهل القرن الخامس الهجري/ الثاني عشر الميلادي، كما نشر المؤرخ الفرنسي ليفي بروفنسال ثلاث رسائل أندلسية في الحسبة لمؤلفين أندلسيين سنة ١٩٥٥م.

لقد كلف المحتسب مراقبة حركية البنيان بدقة ونباهة، وذلك لأن "البنيان هي الأكنان لمأوى الأنفس والمهج والأبدان، فيجب تحصينها وحفظها، لأنها مواضع رفع الأموال وحفظ المهج كما قلنا؛ فمن الواجب أن ينظر[المحتسب] في كل ما يحتاج إليه من العدد، ومن ذلك أن ينظر أولاً في تعويض الحيطان، وتقريب الخشب الوافر الغليظ القوي البنية، وهي التي تحمل الأثقال وتمسك البنيان، يجب أن تكون جهة ألواح البنيان في عرضها شبرين ونصف لا أقل من ذلك، ويحد ذلك القاضي والمحتسب للصناع والبنائين، ولا يصنع حائط يحمل ثقلاً أقل من هذا"[٩٥].

كما يجب على المحتسب أن يكون لديه قوالب متعددة، يعمل بها على مراقبة حجم وسعة وغلظ مواد البناء المختلفة، كي لا يقع غش في صناعتها، ومنها أن يكون له "قالب في غلظ الآجرة، وسعة القرمدة، وعرض الجائزة وغلظها، وغلظ الخشبة، وغلظ لوح الفرش: هذه القوالب مصنوعة من خشب صلب لا يستاس، معلقة في مسامير في أعلى حائط الجامع، يحافظ عليها كي يرجع إليها متى ما نقص منها أو زيد فيها، ويكون عند الصناع أخر لعملهم، وهذا من أحسن شيء ينظر فيه وأوكده"[٩٦].

وقد ذكر المؤرخ المغربي عبد الهادي التازي بعض القوالب التي شاهدها بعينه حيث قال: "وقد فتحنا أعيننا بمدينة فاس على "قالة" مغروسة على جدار السوق يلجأ إليها المشتكون، لقد كان هناك ثلاث "قالات": اثنتان ترجعان لتاريخ (٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م)، عهد السلطان أبي عنان من بني مرين، والثالثة ترجع لتاريخ ١٢٣٤ عهد السلطان المولى سليمان من ملوك العلويين، وقد نقش على هذه ما يلي: الحمد لله، هذا قياس قالة القيسارية بالحضرة الإدريسية، حققها محتسب أمير المؤمنين مولانا سليمان، نصره الله وأيده، وخلد في الأنام وجوده، وذلك عام أربعة وثلاثين ومائتين وألف"[٩٧].

كما أوجب علماء الحسبة على المحتسب أن يحدد مكان صناعة الآجر والقراميد خارج أبواب المدينة "وتكون مواضعها بالحفير الذي [بحذاء] المدينة، ولأن تلك المواضع أوسع"[٩٨]، كما يجب عليه أن يحدد أشكال الآجر حسب نوع الاستعمال، "مثل الذي يعرف 'ضرس وقفا' لطي الآبار، وآجر آخر للسطوح، وآخر من هواء الأفران، وقراميد عاصميّة للمنقالات [كتبت هكذا]، حتى إذا طلب شيء يحتاج إليه وجد، يحد ذلك لهم المحتسب وعرفاء البنائين"[٩٩] وهذا يدل على أن

المحتسب لم يكن يعمل من تلقاء نفسه، بل كان هناك خبراء يساعدونه في كل المجالات، ومنها مجال البناء، وقد كان يسمى هؤلاء بالعرفاء أو الأمناء.

كان المحتسب مكلفا بوظيفة حضرية أخرى تعكس الجانب الجمالي، وتدفع لصناعة سلوك راقٍ من طرف السكان، تتمثل في سهره على نظافة المدينة وطرقها من الأزبال، حيث كان يلزم الناس على عدم "طرح أي شيء من الزبل داخل المدينة، ولا تنقية الكنف إلا خارج الأبواب، في الفدادين وفي الجنات، أو في مواضع معلومة معدة لذلك، ويجب أن يؤكد على أهل الأرباض في تنقية ما اجتمع عندهم من ذلك من مزبلة تكون بين أظهرهم، ويجب أن يؤكد أيضا على الذين يبيعون الحشو، والدوم، والربيع، وكل ماله زبل، أن ينقوا مواضعهم، ويجبروا على ذلك، وإن لا، يمنعوا الجلوس فيها وبيع ذلك فيها"[١٠٠]، وحتى بالنسبة للذين يعملون على إفراغ الكنف حينما تمتلئ، وقد كان يطلق عليهم الكنافون، فإنهم "يؤمرون أن لا يؤذوا الناس في الطرق، ولا تكون القفف ترشح، ولو اتخذوا أكوابا لكان أحسن"[١٠١].

وأن يجعل لبائعي الحطب موقفا "ولا يترك أحد منهم يمشي في الأسواق، فإنهم يؤذون الناس ويمزقون الثياب، وإن عثر على من يمشي بالحطب في الأسواق أدب"[١٠٢]، نفس الأمر بالنسبة لبائعي الجير "يتخذ لهم مواضع يعترفون فيها، فتقصدهم الناس"[١٠٣].

وفيما يخص الطرق دائمًا، فكما هو معروف أنها تتعرض بشكل دوري للتدهور نتيجة العوامل المناخية، لذلك كان المحتسب يأمر الناس "بإصلاح المواضع التي تمسك الماء والطين، ويصلح كل أحد فناء داره، ويحميه، فإن كان موضع كثير القنوات يجبر على عمل سرب فيه وإصلاحه، كما يجب عليه أن يمنع من له قناة أن يجريها في زمن الصيف في المحائج[١٠٤]، ويقطع الضرر حيث كان، قديمًا أو حديثًا"[١٠٥].

لقد كان للمحتسب دور كبير في تخطيط المدينة المغربية وتدبيرها، حيث كان يسهر على المحافظة على نظام البنيان وفق ما رسمه فقه العمارة الإسلامية وأحكام القضاء، كما كان له دور كبير في تخطيط الأسواق وتوزيع حوانيتها، بشكل يضمن التخصص في التجارات، وتجاور أصحاب السلع المتشابهة، أو المتكاملة، بشكل "لا يشعر المستهلك بأي تعب وهو يقضي حاجاته، حيث إن الجزارين على مقربة من الخضارين، وعلى خطوة ما، بائعي التوابل والزيوت، والذي يهمه أمر الخيول سيجد نفسه على مقربة من السراجين، والحدادين، ومعالجي أمر الخيول...، والذي يهمه أمر الثياب سيجد: أن الأقمشة على اختلافها توجد في المكان الذي يحمل اسم القيصرية؛ فهناك سوق الكتان، وسوق الملف، وهناك الخياطون، وبائعوا الحرير والأزرار"[١٠٦].

وكذلك كان المحتسب يسهر على تنظيم الطرق والساحات الواسعة؛ نظافة واستغلالا، كما كان مكلفا بتوزيع الصناعات والحرف المتنوعة، ومراقبة طرق عملها، كي لا يقع الغش والتدليس، وبشكل عام فقد كان هو وأعوانه ومستشاريه من العرفاء والأمناء العين الرقيبة والسلطة التنظيمية والزجرية، التي تضمن سيرورة حضرية سلسة ومتوازنة تعكس مستوى التحضر داخل المدينة.

خاتِمةٌ

هكذا إذن نخلص إلا أن المدينة الإسلامية لم تأت من عدم، وإنما كانت وراءها خلفية نظرية وترسانة قانونية وجهت عملية تحديد المواقع والمواضع الحضرية، وتتبعت كل صغيرة وكبيرة فيما يخص حركية البنيان وحل وتدبير نوازل العمران، إذ كان للأحكام السلطانية دور كبير في توجيه التخطيط العام للمدينة؛ سواء من حيث اختيار موضعها وموقعها أو من حيث التوزيع المجالي للمكونات المعمارية للمدينة، وكان مستشارو الملوك والأمراء على علم بالتراكم العمراني الحضري الذي عرفته الحضارات السابقة، وشكل ذلك خلفية نظرية انضافت إلى التجربة المحلية والخبرة الموروثة لتكون أحكاما وتوجيهات أخذها الحكام على محمل الجد في تشييدهم وتخطيطهم للمدينة وعمائرها المركزية، أما فقه العمارة الإسلامية فقد نظم حركية البنيان بما يرفع الضرر ويحقق المنفعة العامة، وظلت أحكامه وقواعده لصيقة بالبنيان، وشكلت إطارا تشريعيا وجه عملية تشييد العمائر والمرافق العامة

وتدبيرهما بشكل سلس، اللهم ما استجد من النوازل التي كانت لها فتاوى الفقهاء بالمرصاد، ويجمع هذا الفقه في مجمله ما يسمى حاليا بمدونة التعمير أو القانون العقاري. وأخيرا الحسبة التي تعد عينا رقيبة على تدبير المجال الحضري، والمتدخل المباشر في مراقبة حركية العمران داخل المدينة، ذلك أن المحتسب ومعاونيه من العرفاء والأمناء وغيرهم شكلوا شبكة منسوجة بإحكام تتدخل بسلاسة وبسرعة لضمان السير العادي للحياة الحضرية، بناء واستغلالاً وارتفاقًا وإنتاجًا واستهلاكًا... فيما يمكن أن نسميه حاليا بقضاء القرب.

وإذا كانت هذه الدراسة حاولت أن تزيل الشك وراء وجود ترسانة تشريعية ونظم مؤسساتية كانت وراء حركية العمران الحضري، وتبين أن المدينة الإسلامية طراز حضري وازن له أسسه وخلفياته النظرية والتطبيقية، فإن المسألة لا يجب أن ينظر إليها باعتبارها دراسة تاريخية ومخرجات علمية فقط، بقدر ما يجب أن تحضر الدراسات التاريخية التي تتناول المدينة الإسلامية من مختلف جوانبها التشريعية والهندسية والمعمارية في معاهد التخطيط والتدبير الحضري باعتبارها مادة نظرية وتطبيقية ملهمة يمكن الاستعانة بها في حل الإشكالات الحضرية الحالية، والتأسيس لنظرية عمرانية أصيلة تقطع مع التشويه العمراني الذي طال المدن في العالم الإسلامي بسبب الموروث الحضري الكولونيالي، الذي لازالت أغلب الدول الإسلامية تعتبره قاعدة للتعمير الحضري، بل مستمرة في نسخه وإعادة تهيئته في إطار سيرورة مغلقة سمتها إنتاج دائم لمنتوج حضري خداج، ذلك أن المنتوج الحضري في جميع الحضارات هو ابن لبيئته أولا، واحتكاك مع غيره ثانيًا، ومتى ما تم الاعتماد على نمط عمراني آخر والسماح فيما تراكم محليًا؛ فإنه الاستيلاب الحضاري الموقف للإبداع والقاضي على الخصوصية، وهذا لا يعني رفضًا مطلقًا للأنماط الحضرية الأخرى، بقدر ما هو دعوة لعدم الانغماس الكلي فيما عند الآخر بشكل يقضي على الموروث المتراكم لقرون من الزمن.

الإحالات المرجعية:

(١) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، ص٨٦.

(٢) محمد مزين، «**مدينة فاس في الكتابات الفرنسية من الاغتراب إلى الاعتراف**»، ضمن أعمال **ندوة فاس في تاريخ المغرب** التي نظمتها لجنة التراث والقيم الروحية والفكرية التابعة لأكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ٢٠٠٩، القسم الثاني، ص١٩٨.

(3) Marcais (wiliam) «*L'islamisme et la vie urbaine*», Compte rendus de l'acadimie des Inscriptions et belles lettre, 1928.

(4) Marcais (Georges), *L'art musulman*, Presses universitaire de France, 2° edition, Paris, 1982.

-*L'architecture musulmane d'occident, Arts et Métiers Graphiques*, Paris 1954.

(٥) طريس بالباس، **الحواضر الأندلسية**، ترجمة د محمد يعلى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧ م، الجزء الأول، ص ص١٣١-١٣٧.

(٦) نفسه، ص ١٣٥-١٣٦.

(٧) انظر الصور ص١٠٧.

(٨) محمد مزين، مرجع سابق، ص٢٠٧.

(٩) ابن أبي زرع، **الأنيس المطرب بروض القرطاس وأخبار مدينة فاس**، اعتنى به وطبعه كارل يوحنى نورنبرغ، دار الطباعة المدرسية، مدينة أوبسالة، ١٨٣٣، ص٢٩.

(١٠) الجزنائي، **جنى زهرة الاس في بناء مدينة فاس**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثانية، ١٩٩١، ص٤٦.

(١١) ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٣٠.

(١٢) القلقشندي، **صبح الأعشى**، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٢٢، ج ٥، ص١٩٠.

(١٣) ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص١٢٣.

(١٤) نفسه، ص٣٣.

(١٥) نفسه، ص٤٠.

(١٦) أي إلى زمن الجزنائي

(١٧) الجزنائي، مصدر سابق، ص٧٤.

(١٨) طريس بالباس، مرجع سابق، ج ١، ص١٣١.

(١٩) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق درويش جويدي، المكتبة العصرية، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠، ص٨٦.

(٢٠) موسى الزياني العبد الوادي، **كتاب واسطة السلوك في سياسة الملوك**، مطبعة الدولة التونسية، تونس، ١٢٧٢ه، ص ص ٨٨-٩٩.

(٢١) ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص١٦.

(٢٢) ابن أبي الربيع، **سلوك المالك في تدبير الممالك**، دار العاذرية للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤٣١هـ / ٢٠١٠م، ص١٤٥.

(٢٣) نفسه، ص١٥٤.

(٢٤) ابن أبي زرع، مصدر سابق، ص٧٠.

(٢٥) ابن أبي الربيع، مصدر سابق، ص١٥٤

(٢٦) محمد مزين، مرجع سابق، ص٢٠٧

(٢٧) إبراهيم القادري بودشيش، «**دور المصادر الدفينة في كشف الجوانب الحضارية المنسية للمدينة المغربية**»، ضمن أشغال ندوة المدينة في تاريخ المغرب العربي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بن مسيك، نونبر، ١٩٨٨، ص ص. ٣-٣١.

(٢٨) خالد محمد عزب، **تخطيط وعمارة المدن الإسلامية**، سلسلة كتاب الأمة، عدد ٥٨، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الدوحة، ١٩٩٧، ص٩٧.

(٢٩) مصطفى شاكر، **المدن في الإسلام حتى العصر العثماني**، دار السلاسل، الكويت، الطبعة ١، ١٩٨٨، ج ١، ص٣٣.

(٣٠) المقصود هنا الفقهاء التابعون للسلطة المركزية.

(٣١) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣، ص٢٤٩.

(٣٢) نفسه، ص٢٤٩.

(٣٣) ابن الرامي، **الاعلان بأحكام البنيان**، تحقيق ودراسة فريد سليمان، مركز النشر الجامعي، تونس، ١٩٩٩، ص٣٤.

(٣٤) يحيى وزيري، **العمارة الإسلامية والبيئة**، مجلة عالم المعرفة، عدد ٣٠٤، الكويت، ٢٠٠٤، ص٤٧.

(٣٥) خالد محمد عزب، مرجع سابق، ص ٨٣.

(٣٦) صالح بن علي الهذلول، **المدينة العربية الإسلامية: أثر التشريع في تكوين البيئة العمرانية**، دار السهن، الرياض، ١٩٩٤، ص٦٦.

(٣٧) نفسه، ص٦٦.

(٣٨) يحيى وزيري، مرجع سابق، ص٤٨.

(٣٩) نفسه، ص٤٨.

(٤٠) خالد محمد عزب، مرجع سابق، ص٨٦.

(٤١) نفسه، ص ٨٨.

(٤٢) محمد قدري باشا، **مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان**، المطبعة الأميرية ببولاق، مصر، ١٨٩١م، ص٩.

(٤٣) انظر: خالد محمد عزب، مرجع سابق، ص٨٨

(٤٤) هبة الزحيلي، **الفقه الإسلامي وأدلته**، دار الفكر، دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٥، ج ٥، ص٦٠٧.

(٤٥) نفسه.

(٤٦) محمد قدري باشا، مصدر سابق، ص٨٣.

(٤٧) الجزنائي، **مصدر سابق**، ص٧.

(٤٨) انظر ترجمته في سلوة الأنفاس.

(٤٩) الجزنائي، مصدر سابق، ص٧.

(٥٠) القُنِيّ: جمع قناة وهي الآبار التي تحفر في الأرض متتابعة ليستخرج ماؤها ويَسيح على وجه الأَرض، انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، دار صادر، بيروت، الطبعة الأولى، دون تاريخ، ج ١٥، ص ٢٠٤.

(٥١) البثوق جمع بثق، والبثق هو منبعث الماء، انظر ابن منظور، المصدر السابق، ج ١٠، ص١٢.

(٥٢) أي الوصول إليها واستخراجها، نفسه، ج ٧، ص ٤١٠.

(٥٣) صديق بن حسن القنوجي، **أبجد العلوم**، تحقيق عبد الجبار زكار، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٧٨، ج ٢، ص٣٨٤.

(٥٤) انظر: أبو الأصبغ بن موسى التطيلي الأندلسي، **كتاب الجدار**، دراسة وتحقيق ابراهيم بن محمد الفايز، دار روائع الكتب للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى، ١٩٩٦.

(٥٥) ابن الرامي، مصدر سابق، ص٢٣.

(٥٦) نفسه.

(٥٧) الونشريسي، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، طبع دار الغرب الإسلامي، بيروت، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للملكة المغربية، ١٩٨١، ج ١، ص١.

(٥٨) أبو عمر ابن عبد البر (ت ٤٦٣هـ)، **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**، تحقيق جماعي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المغربية، الرباط، ١٩٦٧، ج ١٠، ص٢١٥.

(٥٩) ابن الرامي، مصدر سابق، ص٥٢

(٦٠) ابن عبد البر، مصدر سابق، ج ١٠، ص٢٢٤.

(٦١) ابن الرامي، مصدر سابق، ص٣٤.

(٦٢) عيسى التطيلي، مصدر سابق، ١٧٣

(٦٣) نفسه، ص ١٧.

(٦٤) نفسه، ص٢٧٨، ابن الرامي، مصدر سابق، ص١٩٣.

(٦٥) نفسه، ص١٩٣، والتطيلي، مصدر سابق، ص٢٧٨.

(٦٦) عيسى التطيلي، مصدر سابق، ص٢٧٩، وابن الرامي، مصدر سابق، ص١٩٣.

(٦٧) الونشريسي، مصدر سابق، ص٤٥٤.

(٦٨) نفسه، ص٤٤٧.

(٦٩) التطيلي، مصدر سابق، ص١٤٨.

(٧٠) نفسه، ص٢٦٥.

(٧١) نفسه، ص٢٦٦.

(٧٢) نفسه، ص٢٦٨.

(٧٣) نفسه، ص ٢٨.

(٧٤) نفسه، ص ٢٨.

(٧٥) نفسه، ص١٥٣.

(٧٦) نفسه، ص١٥٥.

(٧٧) ابن الرامي، مصدر سابق، ص٥٩.

(٧٨) نفسه، ص٦١.

(٧٩) نفسه، ص٦١.

(٨٠) نفسه، ص٦١.

(٨١) التطيلي، مصدر سابق، ص ٢٣.

(٨٢) نفسه، ص ١٥.

(٨٣) نفسه ص ص ١٥-١٥١.

(٨٤) ابن خلدون، **المقدمة**، ص ص ٢٨-٢٨١.

(٨٥) نفسه، ص٢٨١.

(٨٦) نفسه.

(٨٧) خالد عزب، مرجع سابق، ص٩٤.

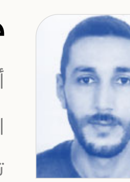
(٨٨) أبو عبد الله المالقي، **في آداب الحسبة**، نشره وعلق عليه كولان وليفي بروفنسال، مكتبة إرنست لورو، باريس، دون تاريخ، ص ص٥-٩.

(٨٩) انظر: طريس بالباس، مرجع سابق، ص، ١٣٤، لكنه عاد لينفي ذلك في ص١٣٥، حيث ذكر عدة مهام كانت للمحتسب في تنظيم المجال الحضري، وهذا تناقض يؤكد ما ذهب إليه الأستاذ محمد مزين، حول مدى تأثير فكرة نمطية المدينة الإسلامية، التي صاغها الجيل الأول من الباحثين المستشرقين، انظر: محمد مزين، مرجع سابق، ص١٩٨.

(٩٠) هنري طيراس، تقديم لكتاب **الحواضر الأندلسية** للكاتب ليوبولدو طريس، مرجع سابق، ص٣٥.
(٩١) الحسن الوزان، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، بيروت، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٣، ص٢٥١.
(٩٢) نفسه، ص٢٥١.
(٩٣) ابن خلدون، **المقدمة**، مصدر سابق، ص٢٨١.
(٩٤) الحسن الوزان، مصدر سابق، ص٢٥١.
(٩٥) ابن عبدون **«رسالة في الحسبة»**، ضمن كتاب ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥، ص٣٤.
(٩٦) نفسه، ص٣٤.
(٩٧) عبد الهادي التازي، **«دور المحتسب في السوق»**، مجلة رسالة التقريب، نشر المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية، العدد ٥، السنة ١٤١٥، ص١٣٤.
(٩٨) ابن عبدون، مصدر سابق، ص٣٤.
(٩٩) نفسه، ص٣٥.
(١٠٠) نفسه، ص٣٧.
(١٠١) نفسه، ص٣٨
(١٠٢) نفسه، ص٣٨.
(١٠٣) نفسه ص٣٨.
(١٠٤) جمع محجة أي طريق
(١٠٥) ابن عبدون، مصدر سابق، ص٣٧.
(١٠٦) عبد الهادي التازي، مرجع سابق، ص١٣٦.


مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

إضاءات حول تأريخ معاصر صناعة الزيت
الموطنة بالحي الشمالي – الشرقي لمدينة وليلي (المغرب)



د. نبيل الزايري
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين جهة طنجة
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

احتلت صناعة الزيت مكانة متميزة في الحياة الاقتصادية لمدينة وليلي بفعل توفر مجالها الفلاحي على مؤهلات طبيعية مواتية، ساعدت على انتشار وتطور غراسة الزيتون. وتشهد على أهمية هذه الصناعة بالمدينة بقايا أثرية تعود لمعاصر الزيت التي استقطبت اهتمام بعض الباحثين بشكل مباشر، ونخص بالذكر دراسة الباحثين عمر أكراز (A. Akerraz) وموريس لونوار (M. Lenoir) التي أحاطت بمختلف الجوانب المرتبطة بهذه الصناعة وكذا دراسة الباحث علي الواحدي التي جاءت منتقدة لسابقيه بخصوص عملية تأريخ. وإذا كانت هاتين الدراستين قد تطرقتا لجل المعاصر المنتشرة بالمجال الحضري، فإن هذا المقال سيقتصر على معالجة إشكالية تأريخ معاصر الزيت الموطنة بالحي الشمالي-الشرقي فقط من خلال تقديم حصيلة لنتائج الأبحاث الأثرية التي انصب اهتمامها على دراسة معاصر الحي، معتمدين في ذلك بالأساس على إخضاع نتائج الأبحاث السابقة للنقد والتحليل من جهة، ومقارنتها بالنتائج اللاحقة التي اهتمت بتطور النسيج العمراني للحي من جهة ثانية، على اعتبار أن تهيئة المعاصر تعد مرحلة أساسية من مراحل التطور العمراني للحي ككل.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٢٠ يوليو ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ١٤ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
مدينة وليلي؛ معاصر الزيت؛ صناعة الزيت؛ الفترة الرومانية؛ المغرب القديم؛ الآثار والتراث المادي والشفهي.

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.248587 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
نبيل الزايري. "إضاءات حول تأريخ معاصر صناعة الزيت الموطنة بالحي الشمالي – الشرقي لمدينة وليلي (المغرب)".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٣٤ – ٤٢.

Corresponding author: nabilzairi26@gmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقَدِّمَةٌ

احتلت صناعة الزيت مكانة متميزة في الحياة الاقتصادية لمدينة وليلي بفعل توفر مجالها الفلاحي على مؤهلات طبيعية مواتية، ساعدت على انتشار وتطور غراسة الزيتون. وتشهد على أهمية هذه الصناعة بالمدينة بقايا أثرية تعود لمعاصر الزيت التي استقطبت اهتمام بعض الباحثين بشكل مباشر. ونخص بالذكر دراسة الباحثين عمر أكراز (A. Akerraz) وموريس لونوار (M. Lenoir) التي أحاطت بمختلف الجوانب المرتبطة بهذه الصناعة[١]، وكذا دراسة الباحث علي الواحدي (A. Ouahidi)[٢] التي جاءت منتقدة لسابقيه بخصوص عملية تأريخ.

وإذا كانت هاتين الدراستين قد تطرقتا لجل المعاصر المنتشرة بالمجال الحضري، فإن هذا المقال سيقتصر على معالجة إشكالية تأريخ معاصر الزيت الموطنة بالحي الشمالي-الشرقي فقط من خلال تقديم حصيلة لنتائج الأبحاث الأثرية التي انصب اهتمامها على دراسة معاصر الحي، معتمدين في ذلك بالأساس على إخضاع نتائج الأبحاث السابقة للنقد والتحليل من جهة، ومقارنتها بالنتائج اللاحقة التي اهتمت بتطور النسيج العمراني للحي من جهة ثانية، على اعتبار أن تهيئة المعاصر تعد مرحلة أساسية من مراحل التطور العمراني للحي ككل. لكن قبل التطرق لإشكالية التأريخ، سنستعرض الأبحاث الأثرية التي تناولت معاصر الزيت بالحي الشمالي-الشرقي للمدينة.

أولاً: تاريخ الأبحاث الأثرية

بعد توقيع معاهدة الحماية سنة ١٩١٢، انطلقت الحفريات بمدينة وليلي مع الباحث الفرنسي لويس شطلان (L. Chatelain) خلال منتصف سنة ١٩١٥، وهمت الأشغال في البداية إماطة التراب عن بنايات الحي الشمالي-الشرقي. في هذا السياق، أزيح التراب عن معاصر الحي[٣]، لكنها لم تعرف دراسة شاملة لمكوناتها إلا مع الباحث روبير إتيان (R. Etienne) في إطار دراسته لبنايات الحي الشمالي-الشرقي. إذ أرجع الباحث بموجب هذه الدراسة معصرتي منزل حمام الحوريات (رقم ٤) ومنزل الحيوانات (رقم ٣) نسبيًا إلى مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزلين[٤]، وأرخ معاصر الحي حسب التأريخ المطلق خلال الفترة الممتدة ما بين سنتي ٢١٥-٢٤٩ ميلادية[٥].

ومع مطلع ثمانينيات القرن الماضي، نشر الباحثان عمر أكراز (A. Akerraz) وموريس لونوار (M. Lenoir) دراسة دقيقة لمعاصر الزيت بمدينة وليلي (الوثيقة رقم ١)، تناولت مكوناتها وطريقة اشتغالها، ورصدت خصوصيتها والتطور الذي طالها، فخلص الباحثان من خلال الدراسة المنجزة إلى تأريخ معاصر الحي كالآتي:

أرخت الدراسة خمس معاصر (معصرة منزل المقبرة الإسلامية والمعصرة المزدوجة ومعصرة منزل النقد الذهبي ومعصرة منزل الحيوانات ومعصرة منزل الخاتم الذهبي) في مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنازل المرتبطة بها؛ وأعادت معصرة قصر غورديان إلى التوسعة التي شهدتها البناية ما بين سنتي ٢٣٨-٢٤٤ ميلادية؛ وأرجعت معصرة منزل التعلم إلى مرحلة متزامنة مع المعصرة الأخيرة أو لاحقة عليها، لكونها جاءت في الجهة التي امتدت فوق الشارع الطولي الشمالي رقم 1[٦].

علاوة على ذلك، انتهى صاحبي الدراسة إلى اقتراح تواريخ مهمة، ارتبطت بمعاصر المدينة، نلخص أهمها في ثلاث نقط رئيسية: الأولى، تمثلت في تأريخ معاصر الحي الشمالي-الشرقي التي تبرز ثقالات أسطوانية في مرحلة لاحقة على سنة ١٧٠ ميلادية، متأثرين في ذلك بما خلص إليه الباحث ريني روبيفا (R. Rebuffat)[٧] حول التطور العمراني للحي؛ والثانية، أرجعت المعصرة الكائنة جنوب المعبد C (رقم ٢٢) التي ضمت ثقالة متوازية السطوح في مكانها إلى منتصف القرن الثاني ميلادي، استنادا إلى العثور على قطعة خزفية تعود للخزف السيجيلي الفاتح هاييس 8B أو 14A ضمن الملاط الهيدروليكي المكون لفضاء العصر[٨]، بمعنى خلال هذا التاريخ لا زالت المعصرة تقوم بوظيفتها[٩]؛ والثالثة، تلخصت في إرجاع الانتقال التقني الذي طال المعاصر من الثقالة المتوازية السطوح إلى الثقالة الأسطوانية إلى المرحلة الممتدة ما بين سنتي ١٥٠-١٨٠ ميلادية[١٠].

وخلال نهاية الثمانينيات ومنتصف التسعينيات، أنجز الباحث علي واحدي (A. Ouahidi) عملا أكاديميا في إطار الإعداد لمشروع نيل شهادة دكتوراه الدولة حول الزيت والزيتون بوليلي، فانتقد التواريخ المقترحة من قبل سابقيه، لكونها لم تستند في شقها العلمي على نتائج حفريات منهجية، وإنما اقتصرت -في اعتقاده-على الملاحظات العينية المباشرة وعلى النتائج المستقاة من التأريخ النسبي.

في هذا الإطار، حاول الباحث من جهته تأريخ معاصر المدينة استراتيغرافيا من خلال إقامة عدة استبارات، تجاوز عددها الثلاثين، خلص من خلالها إلى اقتراح تأريخا متقدما عن سابقيه، قضى بتأريخ المعصرة رقم ٢٢ التي ضمت ثقالة متوازية السطوح في القرن الأول ميلادي، قبل وصول الخزف السيجيلي الفاتح إلى أسواق موريطانيا الطنجية (أي قبل سنة ٨٠ ميلادية)؛ وأرجع معاصر الحي التي تبرز الثقالات الأسطوانية إلى نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني ميلادي، وخص بالذكر على سبيل المثال لا الحصر: معصرة منزل حمام الحوريات (رقم ٤) ومعصرة منزل النقد الذهبي (رقم ٥) ومعصرة منزل الكهف (رقم ١٢)[١١].

ثانيًا: معاصر الحي الشمالي-الشرقي

ضم الحي الشمالي-الشرقي اثنتا عشرة معصرة، وزعت كالآتي: أربع معاصر تطورت بمنازل الضفة الشمالية للشارع الطولي الرئيس (المعصرة رقم ١ و٢ و٣ و٤)؛ وخمس أخرى بمنازل الضفة الجنوبية لنفس الشارع (المعصرة رقم ٥ و٦ و٧ و٨ و٩)؛ ومعصرتين بكل من منزل التمثال النصفي (رقم ١٠) ومنزل الخاتم الذهبي (رقم ١١) الواقعين بالضفة الجنوبية للشارع الطولي الجنوبي رقم ١ (شارع القناة)؛ ومعصرة وحيدة أقيمت بمنزل الكهف (رقم ١٢) الممتد على الضفة الجنوبية للشارع الطولي الجنوبي رقم ٢.

وتجدر الإشارة إلى أن جل هذه المعاصر قد أبانت عن مختلف مكونات المعصرة التقليدية التي تشكلت من الرحى ومنضدات العصر والثقالات والأحواض. لكن ما يجب التأكيد عليه هو اقتصار معاصر الحي على ضم ثقالات أسطوانية بدل المتوازية السطوح، باستثناء معصرة منزل حمام الحوريات التي كشفت عن ثقالة متوازية السطوح تم العثور عليها ضمن مواد بناء أحد الجدران المكونة للمعصرة[١٢].

وقبل تقديم خلاصة تركيبية لتأريخ معاصر الحي، ارتأينا التطرق لكل معصرة على حدة كالآتي:

٢/١-معاصر الضفة الشمالية للشارع الطولي الرئيس

تضم منازل الضفة الشمالية للشارع الطولي الرئيس أربع معاصر لصناعة الزيت: أولى هذه المعاصر هي معصرة منزل حمام الحوريات التي حملت رقم ٤، أرجعها الباحث روبير إتيان (R. Etienne) نسبيا إلى مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزل[١٣]، وأرخها الباحث علي الواحدي (A. Ouahidi) استراتيغرافيا في نهاية القرن الأول أو بداية القرن الثاني ميلادي[١٤]. لكن نتائج دراسة الباحث محمد مقدون (M. Makdoun) لمنزل ديونيسوس والفصول الأربعة ومنزل حمام الحوريات[١٥]، جعلتنا نشكك في التأريخ الذي اقترحه الباحث للمعصرة.

إذ أرخ النواة الأولى لمنزل حمام الحوريات استراتيغرافيا في النصف الثاني من القرن الثاني ميلادي، وأرجع المعصرة لمرحلة لاحقة، حددها في القرن الثالث ميلادي[١٦]، دون إجراء أي استبار عليها. لكن إذا سلمنا بصحة انتماء المعصرة إلى المرحلة الثانية من تطور المنزل، فإن أحدث اللقى الخزفية التي تؤرخ لهذا المستوى حسب ما نشره الباحث، تعود للخزف السيجيلي الفاتح صنف C شكل هاييس ٥٠[١٧]. وهذا الصنف يؤرخ لمستويات لاحقة على سنة ٢٣٠ ميلادية.

في نفس الصدد، خلص الباحث روبير إتيان (R. Etienne) إلى استبعاد عودة معصرة منزل الحيوانات للنواة الأولى للمنزل، لأن دراسته للمنزل أقرت بتكون البناية من إقامتين: إحداهما جنوبية تشرف على الشارع الطولي الرئيس؛ والأخرى شمالية مفتوحة على الشارع الطولي الشمالي رقم ١. ورأى أن الإقامة الأولى لعبت دورا أساسيا في تزويد الإقامة الثانية بالماء، مما جعله يؤرخ الإقامة الأولى في مرحلة سابقة على الثانية[١٨]. أما المعصرة فأرجعها لمرحلة لاحقة على بناء الإقامة الشمالية، نظرا لتطور بعض مكوناتها بقلب باحتها

المعمدة[١٩]، الشيء الذي يدل على أن المعصرة لا تعود للنواة الأولى للمنزل[٢٠]، وإنما تعود لمرحلة ثالثة من تطور البناية.

أما فيما يخص معصرة قصر غورديان (رقم ٢)، فقد حددتها نتائج الأبحاث الأثرية في مرحلة متأخرة، وأرجعتها إلى التوسعة التي شكلت قصر غورديان نتيجة امتداد منزل بومبي شمالاً وشرقًا، وحددتها ما بين سنتي ٢٣٨-٢٤٤ ميلادية، استنادًا إلى نقيشة رسمية عثر عليها بالرواق الغربي للقصر الذي أشرف على الشارع الطولي الرئيس[٢١].

ونفس الأمر يسحب على معصرة منزل التعلم (رقم ١) التي تقع في الجزء الممتد فوق الشارع الطولي الشمالي على غرار التوسعة التي عرفها قصر غورديان شمالاً، وهو الأمر الذي سمح بإرجاع المعصرة إلى مرحلة متزامنة أو لاحقة على توسعة القصر التي حددت ما بين سنتي ٢٣٨-٢٤٤ ميلادية[٢٢].

٢/٢-معاصر الضفة الجنوبية للشارع الطولي الرئيس

تضم منازل الضفة الجنوبية للشارع الطولي الرئيس خمس معاصر: أولى هذه المعاصر حملت رقم ٩ تطورت بالجزء الغربي المضاف لمنزل المقبرة الإسلامية ما بين المنزل وفرع قناة المياه المنتهي إلى السقاية العمومية الكائنة في أقصى غرب الضفة اليمنى للشارع الطولي الرئيس. حددتها نتائج الأبحاث الأثرية في مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزل، زامنتها مع تنقيل المدخل الرئيس الذي أصبح مشتركا بين المنزل والمعصرة التي شغلت فضاء مهما من الجزء المضاف[٢٣].

وغير بعيد عن معصرة منزل المقبرة الإسلامية، امتدت المعصرة رقم ٨ بمنزل أنصاف الأعمدة. سجلها الباحث ريمون توفنو (R. Thouvenot) ضمن مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزل، زامنها مع تهيئة القاعتين المتتابعتين رقم ٥ و٦[٢٤]، الشيء الذي جعلنا نعتقد أن القاعتين معا، شكلتا إبان مرحلة أولى دكانا واحدا مفتوحا على الشارع الطولي الرئيس على غرار الدكان رقم ٤، لأن الجدار الذي فصل القاعتين السابقتين اتكأ على الدعامة الجنوبية لمدخل القاعة رقم ٥. ونفس الأمر قد يسري على القاعتين رقم ١٧ و١٨ اللتين تطورت فيهما معصرة منزل الناريدات التي حملت رقم ٧، إذ يرجح أن شكلتا خلال مرحلة أولى دكانين، انفتحا على الشارع العرضي الجنوبي رقم ٣.

وشرق المعصرة الأخيرة، امتدت المعصرة المزدوجة التي حملت رقم ٦ (الوثيقة رقم ٢)، حددت نتائج الأبحاث الأثرية تاريخ بنائها في مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزل الذي أخذ اسمها، لأن بناءها تزامن مع إغلاق مدخلا للمنزل على الشارع العرضي الذي تحولت وظيفته من عمومية إلى خصوصية مشتركة ما بين منزل الناريدات ومنزل المعصرة المزدوجة بعد إقامة قناة المياه[٢٥].

أما فيما يتعلق بالمعصرة رقم ٥ التي توطن بالمركب الصناعي لمنزل النقد الذهبي، فتشير نتائج الأبحاث الأثرية أن المركب الصناعي يعود لمرحلة لاحقة على بناء القناة والنواة الأولى للمنزل، على اعتبار أن بناء هذين الأخرين، خلف مساحة بينهما أخذت شكل شبه منحرف، شغلت المركب الصناعي خلال مرحلة لاحقة، مما جعل جدرانه تتكئ على الحائط الجنوبي للنواة الأولى للمنزل[٢٦]. وإذا سلمنا أن المنزل والقناة يعودان على الأقل للمرحلة الممتدة ما بين سنتي ٤٤-٨٠/٨١ ميلادية[٢٧]، فإن المركب الصناعي يعود لمرحلة لاحقة، أرخت على ضوء نتائج الأبحاث الأثرية ما بين سنتي ٨٠/٨١-١٦٨/١٦٩ ميلادية[٢٨]، دون أي أساس علمي متين.

على هذا الأساس، حاول الباحث علي واحدي (A. Ouahidi) تأريخ المعصرة استراتيغرافيا، فأنجز أربع استبارات على البناية: نشر نتائج واحد منها، باشره بالشارع العرضي الجنوبي رقم ١ على الجدار الشرقي لفضاء العصر، قاده إلى تحديد المعصرة في نهاية القرن الأول ميلادي[٢٩]. غير أن تأريخ المعصرة استنادا إلى استبار منجز بالشارع العرضي، غير سليم على المستوى المنهجي[٣٠]، الشيء الذي دفعنا إلى التشكيك في التأريخ المقترح، في انتظار عما ستسفر عنه استبارات جديدة.

٣/٢-معاصر الضفة الجنوبية للشارع الطولي الجنوبي رقم ١ (شارع القناة)

ضمت منازل هذه الضفة معصرتين: أولى حملت رقم ١١، تطورت بالجزء الغربي لمنزل الخاتم الذهبي الذي تم

تأريخه من قبل الباحثين عمر أكراز (A. Akerraz) وموريس لونوار (M. Lenoir) في مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزل، لأن جدرانه التي اتخذت اتجاهًا شرقيًا-غربيًا قد اتكأت على جدران الواجهة الغربية للمنزل[٣١]. أما الباحث محمد مقدون (M. Makdoun)، فقد أرجع المنزل للمرحلة الأولى من تطور الحي والقناة، وحددها ما بين سنتي ٤٤-٨٠/٨١ ميلادية[٣٢]، وسجل إضافة الجزء الغربي الذي تطورت به المعصرة ضمن مرحلة ثانية، حددها ما بين سنتي ٨٠/٨١-١٦٨/١٦٩ ميلادية[٣٣]، دون إجراء أي استبار على البناية.

وعلى عكس المعصرة السابقة التي أقيمت في الجزء المضاف للتصميم الأولي للمنزل، تطورت المعصرة الثانية التي حملت رقم ١٠ داخل حدود التصميم الأولي لمنزل التمثال البرونزي الذي حدد بناءه هو الأخر ما بين سنتي ٤٤-٨٠/٨١ ميلادية، الشيء الذي يجعلنا نرجح عودة المعصرة إلى مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزل[٣٤]، لأنها حافظت على مكوناتها وفق طريقة اشتغالها، وضمت ثقالة أسطوانية تؤرخ على أقل تقدير في مرحلة لاحقة على سنة ١٥٠ ميلادية التي تشير إلى استمرار وظيفة الثقالات المتوازية السطوح.

٤/٢-معصرة منزل الكهف (رقم ١٢) الواقعة بالضفة الجنوبية لشارع الطولي الجنوبي رقم ٢

تطرق الباحث علي الواحدي (A. Ouahidi) لمعصرة منزل الكهف في أطروحته، وخصها باستبار وحيد أنجزه على فضاء العصر، قاده إلى تأريخ المعصرة في نهاية القرن الأول أو بداية القرن الثاني ميلادي، استنادا إلى مواد خزفية، توزعت ما بين الخزف السيجيلي الفاتح صنف A والخزف السيجيلي المصنوع جنوب بلاد الغال والخزف السيجيلي الإسباني، والأمفورات صنف دريسيل ١٣/٧ ودريسيل ٢٠ وBIIB[٣٥]. غير أن العديد من المؤشرات تخبرنا بانتماء المعصرة إلى تاريخ متأخر، فالباحث محمد مقدون (M. Makdoun) الذي أعاد دراسة المنزل في أطروحته لنيل شهادة دكتوراه الدولة، احتمل بعودة النواة الأولى للمنزل إلى نفس مرحلة منزل الدعامات، وحددها ما بين نهاية القرن الثاني ومنتصف القرن الثالث ميلادي[٣٦]، بمعنى أن تاريخ إحداث المعصرة متزامن على الأقل مع النواة الأولى للمنزل أو لاحق عليها.

أما الباحثة هاجر فدول (H. Feddoul) التي أنجزت دراسة معمارية وكرونولوجية للمنزل، فقد أرجعت تهيئة المعصرة نسبيًا إلى مرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزل (الوثيقة رقم ٣)، حددتها استراتيغرافيا في مرحلة لاحقة على سنة ٢٣٠ ميلادية، وهي السنة التي تشير إلى وصول الخزف السيجيلي الفاتح صنف C إلى أسواق موريطانيا الطنجية[٣٧].

ثالثًا: تأريخ معاصر الحي الشمالي-الشرقي

بناءً على ما سبق، تشير معطيات التأريخ النسبي إلى أن معاصر الحي الشمالي-الشرقي لا تعود للنواة الأولى للمنازل المرتبطة بها، وإنما ترجع إلى مرحلة لاحقة عليها. كما تبين أيضًا أن تسع معاصر (رقم ١ و٢ و٣ و٤ و٥ و٦ و٩ و١١ و١٢) من أصل الاثنتا عشرة الموجودة بالحي ترجع للمرحلة الأخيرة من تطور البنايات العائدة لها، سبع منها (١ و٢ و٥ و٦ و٧ و٩ و١١) ارتبطت تهيئتها بتحول عمراني منظم تجلى في توسع المنازل خارج تصاميمها الأولية، ممتدة فوق شوارع عمومية التي تحولت وظيفتها من عمومية إلى خصوصية، مدشنة بذلك لأخر تطور حضري منظم قبل الجلاء الروماني عن المدينة حوالي سنة ٢٨٥ ميلادية. هذا الأمر يتوافق إلى حد ما مع إشارة الباحثين عمر أكراز (A. Akerraz) وموريس لونوار (M. Lenoir) التي تفيد أن معاصر المدينة تعود للمرحلة الرومانية الأخيرة[٣٨]، نظرًا لحفاظها على مكوناتها وفق طريقة اشتغالها.

من جانب أخر، إن الرجوع لتأريخ الانتقال التقني الذي طال معاصر المدينة من الثقالة المتوازية السطوح إلى الثقالة الأسطوانية خلال المرحلة الممتدة ما بين سنتي ١٥٠-١٨٠ ميلادية[٣٩]، يجعل تأريخ معاصر الحي الشمالي-الشرقي في مرحلة لاحقة على منتصف القرن الثاني ميلادي أمرًا مشروعًا، استنادًا إلى ضم معاصر الحي لثقالات أسطوانية. لكن اعتماد تأريخها في مرحلة لاحقة على سنة ١٧٠ ميلادية[٤٠]، مشكوك في أمره، لأن صياغته تمت بالاستناد إلى فكرة الباحث ريني روبيفا (R. Rebuffat) الذي ربط بين الاتجاه العام للحي

واتجاه السور[٤١] المؤرخ عادة ما بين سنتي ١٦٨/١٦٩ ميلادية اعتمادًا على نقيشة وجدت في الجزء الثاني من السور[٤٢]، الذي يعود حسب التأريخ النسبي لمرحلة لاحقة على الجزء الأول الذي أحاط بالحي الشمالي-الشرقي[٤٣].

بل إن دراستنا للسور الروماني في مجمله، قادتنا إلى تحديد الجزء الأول الذي أحاط بالحي الشمالي-الشرقي استراتيغرافيا في مرحلة سابقة على قناة المياه التي ترجع للمرحلة الفلافية[٤٤]، مما جعل المحدد الأدنى المعتمد يفقد مشروعيته. لذلك يبدو الأصح -في حدود ما توصل إليه البحث الأثري- تأريخ معاصر الحي التي أبانت عن ثقالات أسطوانية في مرحلة لاحقة على منتصف القرن الثاني ميلادي، وهي السنة التي تشير إلى استمرارية اشتغال المعصرة ذات الثقالة المتوازية السطوح[٤٥]. كما أن هذا الانتقاد لا يعني بتاتا، أنها تعود إلى مرحلة سابقة على سنة ١٧٠ ميلادية، وإنما على العكس من ذلك، تشير الشواهد المادية المتوفرة إلى انتماء المعاصر للمرحلة الأخيرة من الوجود الروماني بالمدينة قبل الجلاء عنها حوالي سنة ٢٨٥ ميلادية.

وتبعًا لذلك، فإذا سلمنا بربط معاصر الحي بالمرحلة الرومانية الأخيرة، لكونها لخصت ملامح آخر تطور حضري روماني منظم ومخطط له قبل الجلاء عن المدينة، فإن هذا المعطى يجعلنا نقترح تحديدها على نطاق واسع —في حدود ما توصل إليه البحث الأثري- في القرن الثالث ميلادي على غرار المعاصر المؤرخة بنوع من الدقة، ونخص بالذكر معصرة قصر غورديان المؤرخة ما بين سنتي ٢٣٨-٢٤٤ ميلادية، ومعصرة منزل التعلم المتزامنة معها أو لاحقة شيئًا ما[٤٦]؛ وكذا معصرتي منزل حمام الحوريات ومنزل الكهف المحددتين خلال مرحلة لاحقة على وصول الخزف السيجيلي الفاتح صنف C[٤٧] إلى أسواق مقاطعة موريطانية الطنجية، بمعنى خلال مرحلة لاحقة على سنة ٢٣٠ ميلادية، في انتظار عما ستسفر عنه نتائج استبارات مستقبلية.

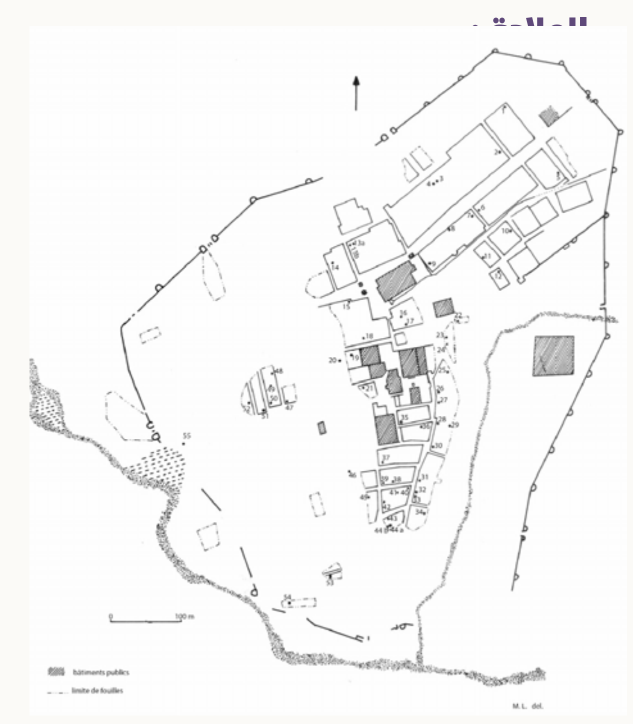
وبما أننا نعلم، أن المرحلة السيفيرية تركت بصماتها بارزة على المشهد العمراني للمدينة. فيصح إذن، إرجاع المعاصر إلى هذه المرحلة على الأقل، ومن تم تفسير تعددها وانتشارها بالمدينة عامة والحي خاصة، بتشجيع الإمبراطور سيبتيموس سيفروس (Septimius Severus) لزراعة الزيتون والقمح بإفريقيا[٤٨] من أجل تأمين حاجيات روما من هاتين المادتين على غرار ما ذهب إليه الباحثين عمر أكراز (A. Akerraz) وموريس لونوار (M. Lenoir)[٤٩]. وبالتالي فهذا المعطى، يجعلنا نسجل الانتشار الواسع للمعاصر بالمدينة خلال مرحلة متزامنة على الأقل أو لاحقة على حكم الإمبراطور الأخير.

خاتمةٌ

تجدر الإشارة في هذه الخاتمة إلى اكتشافين اثنين، يكتسيان أهمية بالغة: الأول، بموضع سيدي بولنوار (Sidi Boulanouar) بجماعة الأربعاء عياشة، بإقليم العرائش، ويتعلق الأمر بالعثور على أجزاء معصرة ارتبطت بصناعة الخمر، ضمت حوضا اكتشف بداخله أثناء عملية إفراغه على بقايا لعظام العنب متجمعة هنا وهناك، وبعد دراسة المواد المستخرجة وإخضاعها للمعاينة الدقيقة، تم تسجيل سنة ٢٠١٤ العثور على أول معصرة لصناعة الخمر بالمغرب تعود للمرحلة الرومانية[٥٠]؛ والثاني، بموضع ريغا (Rirha) بإقليم سيدي سليمان، ويتعلق الأمر باكتشاف بقايا عظام العنب أيضًا مجتمعة بثقالة تعود لمعصرة لها نفس خصائص معاصر الزيت سنة ٢٠١٦، ومما زاد من تأكيد الأطروحة هو العثور على نفس البقايا بحاويات كبرى تعرف بالدوليا (Dolium)[٥١].

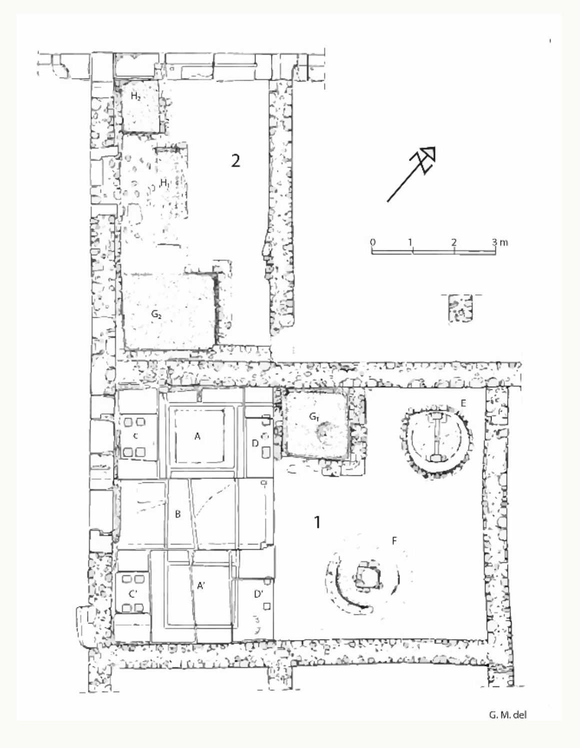
من هذا المطلق، تجدر الإشارة إلى أن عدد المعاصر التي تم العثور عليها داخل مدينة وليلي بلغت حولي ٧٠ معصرة، ارتبطت منذ البداية في عرف الباحثين بصناعة الزيت. وبعد هذين الاكتشافين، ألا يحق لنا التساؤل حول الوظيفة الحقيقية لهذه المعاصر، مع العلم أن مكونات معاصر الزيت لا تختلف عن نظيرتها المعدة لصناعة الخمر. إذن، فهل جل المعاصر المكتشفة لحد الآن بالمدينة ارتبطت بصناعة الزيت؟ أم هناك البعض منها استعمل لصناعة الخمر؟ لا إجابة لحدود الساعة على هذه الإشكالية التي يبقى البث فيها رهين دراسة منهجية دقيقة لجل معاصر المدينة، تستند في شقها التقني على تنقية الحاويات والثقالات ومختلف أجزاء المعاصر، وتحليل بقاياها إن وجدت للإجابة على هذه التساؤلات.

الملاحق:



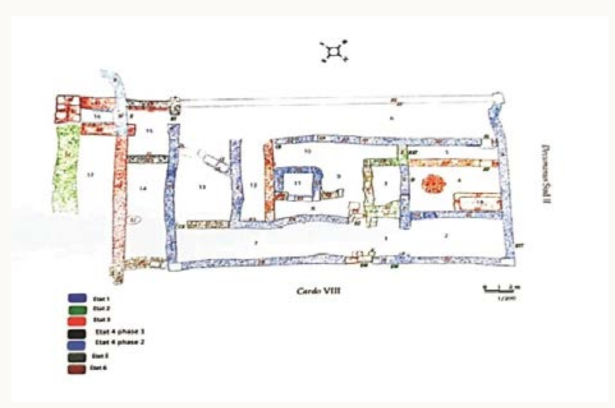
الوثيقة رقم ١: معاصر صناعة الزيت بمدينة وليلي

Akerraz et Lenoir, "Les huileries," Pl. I.



الوثيقة رقم ٢: المعصر المزدوجة

Akerraz et Lenoir, "Les huileries," Pl. II



الوثيقة رقم ٣: مراحل تطور منزل الكهف

Feddoul, "*La maison*,".

الإحالات المرجعية:

(1) Aomar Akerraz et Maurice Lenoir, "Les huileries de Volubilis," *Bulletin d'archéologie marocaine* XIV, (1981-1982): 69-101

(٢) علي واحدي، **"الزيت والزيتون بالمغرب القديم نموذج المعاصر بوليلي،"** (دكتوراه الدولة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ظهر المهراز فاس، ١٩٩٥)، رسالة مرقونة.

(3) Louis Chatelain, "Rapport [sur les recherches conduites à Volubilis]," *Bulletin archéologique du Comité des Travaux Historiques,* (1916): CXXXIX ; Louis Chatelain, "Note sur les fouilles de Volubilis (Maroc)," *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles lettres,* (1916): 362.

(4) Robert Etienne, *Le quartier nord-est de Volubilis*, (Paris : E. de Boccard, 1960), 162.

(5) *Ibid.*, 145-155.

(6) Akerraz et Lenoir, "Les huileries," 69-101 ; Aomar Akerraz et Maurice Lenoir, "Appendice : Note sur les huileries du quartier nord-est de Volubilis," dans *L'Africa romana* IV, Sassari 1986, (Sassari, 1987), 459-460.

(٧) تأثر الباحثين عمر أكراز (A. Akerraz) وموريس لونوار (M. Lenoir) بأطروحة الباحث ريني روبيفا (R. Rebuffat) حول التطور العمراني للحي، إذ ربط بنايات الحي التي أخذت الاتجاه العام للحي بسور المدينة المؤرخ عادة ما بين سنتي ١٦٨/١٦٩ ميلادية (René Rebuffat, "Le développement urbain de Volubilis au second siècle de notre ère," *Bulletin archéologique du Comité des Travaux Historiques*, n. s. 1-2, (1965-1966): 231-240)، الشيء الذي جعل الباحثين يؤرخان معاصر الحي التي تطورت وفق نفس الاتجاه في مرحلة لاحقة على بناء سور المدينة (Akerraz et Lenoir, "Les huileries," 97).

(8) Akerraz et Lenoir, "Les huileries," 69-101

(9) Aomar Akerraz, "Y a-t-il des huileries préromaines à Volubilis ?," *Nouvelles Archéologiques et Patrimoniales* 2, (mars 1998): 7.

(10) Akerraz et Lenoir, “Les huileries,” 97 ; Akerraz et Lenoir, “Appendice,” 459-460.

(11) Ali Ouahidi, “Nouvelles recherches archéologiques sur les huileries de Volubilis,” dans *L'Africa Romana* X, Oristano 1992, (Sassari: Editrice Archivio fotografico sardo, 1994), 289-99.

أغفل الباحث علي الواحدي (A. Ouahidi) معطيات التأريخ النسبي، التي تشير بوضوح إلى التاريخ المتأخر لإقامة المعاصر مقارنة بالنواة الأولى للبنايات التي تنتمي إليها، مما جعل التأريخ المطلق الذي طرحه يتصف بالضبابية. في هذا السياق، أنجز الباحث أكثر من ثلاثين استبارا، نشرت نتائج تسع استبارات : أربعة باشرها بمعصرة منزل النقد الذهبي ؛ واثنين أنجزهما بكل من المعصرة رقم ٢٢ الواقعة جنوب المعبد C، ومعصرة منزل الحوريات ؛ واستبار وحيد أقامه بمعصرة منزل الكهف. سنعود في هذا الهامش للاستبارين المتعلقين بالمعصرة رقم ٢٢ : الأول باشره الباحث بالجزء الشرقي للجدار الشرقي لفضاء العصر، كشف مستواه الأول المعاصر للمعصرة -حسب الباحث- على مواد خزفية، توزعت ما بين الخزف السيجيلي الأحمر والخزف ذو البطن الرصين والأمفورات صنف دريسيل ١٣/٧ ودريسيل ١٨ وBIIB، مما جعل الباحث يؤرخ المعصرة في القرن الأول ميلادي، محددا إياها قبل سنة ٨٠ ميلادية، نظرا لغياب الخزف السيجيلي الفاتح ؛ أما الاستبار الثاني، فقد أكد نتائج الاستبار الأول حسب ما أورده الباحث (Ouahidi., “Nouvelles,” 299). غير أن معطيات التأريخ النسبي أقرت بوجود مرحلتين من تطور الفضاء: الأولى مثلها ممر مبلط، والثانية مثلتها المعصرة التي عملت على إغلاق باب يعود للمرحلة الأولى. وبما أن الاستبار أقيم بالجزء المبلط، فهو يؤرخ للمرحلة الأولى وليس للمعصرة التي ترجع إلى مرحلة لاحقة (Akerraz, “Y a-t-il des huileries,” 7).

(12) Akerraz et Lenoir, “Les huileries,” 83, n. 41 ; 97.

(13) Etienne, Le quartier, 162.

(14) Ouahidi, “Nouvelles,” 2٩٦.

(15) Mohammed Makdoun, “La maison de Dionysos et des quatre saisons et la maison au Bain des nymphes à Volubilis : problèmes de mitoyenneté et de chronologie,” dans *L’Africa romana* XIII, Djerba 1998, (Roma: Carocci editore, 2000), 1703-1723.

(16) *Ibid.*

أشار الباحثين عمر أكراز (A. Akerraz) وموريس لونوار (M. Lenoir) إلى إعادة استعمال ثقالة متوازية السطوح في إقامة أحد جدران معصرة منزل حمام الحوريات (Akerraz et Lenoir, “Les huileries,” 83, n. 41 ; 97)، لكن هذه الإشارة لا تعني أن هذه الثقالة تعود لمعصرة سابقة بنفس المنزل، وإنما تعود لمعصرة أخرى، تم الاستغناء عن ثقالتها التي أعيد استعمالها في أحد جدران معصرة منزل الحوريات، لأن تهيئة المعصرة الأخيرة تعود لمرحلة لاحقة على النواة الأولى للمنزل، حددت على ضوء نتائج الأبحاث الأثرية في القرن الثالث ميلادي.

(17) Makdoun, “La maison,” 1709-1723.

(18) Etienne, Le quartier, 46.

(19) *Ibid.*, 162.

(20) Akerraz et Lenoir, “Appendice,” 459, n. 2.

(21) Aomar Akerraz, “Nouvelles observations sur l'urbanisme du quartier nord-est de Volubilis,” dans *L’Africa romana* IV, Sassari 1986, (Sassari, 1987), 445-450 ; Akerraz et Lenoir, “Appendice,” 459-460.

(22) Akerraz et Lenoir, “Appendice,” 459-460.

(23) *Ibid.*, 460 ; Aomar Akerraz et Eliane Lenoir, “Volubilis et son territoire au Ier s. de n. è.,” dans *L'Afrique dans l'Occident romain, Ier s. av. J.-C., IVe s. ap.*, Rome 1987, (Rome: Collection de l'Ecole Française de Rome, n° 134, 1990), 216.

(24) Raymond Thouvenot, “Le quartier Nord-Est. La rive droite du Decumanus Maximus,” *Publications du Service des Antiquité du Maroc* 8, (1948): 118.

(25) Akerraz, “Nouvelles,” 453-454.

(26) *Ibid.*, 452-53.

(27) Mohammed Makdoun, “Encore sur la chronologie du quartier nord-est de Volubilis,” *L'Africa Romana* X, Oristano 1992, (Sassari: Editrice Archivio fotografico sardo, 1994), 276-280, fig. 9 ; Mohammed Makdoun, “Nouvelles recherches sur l’aqueduc de Volubilis,” *l’Africa Romana* XI, Carthage 1994, (Ozieri: Editrice Il Torchietto, 1996), *763-770* ; Mohammed Makdoun, “Nouvelles recherches sur le quartier nord-est de Volubilis,” *Bulletin archéologique du Comité des Travaux Historiques et Scientifiques*, nouv. Sér., Afrique du Nord, fasc. 25, Paris (1999): 45-48, fig. 4.

(28) Makdoun, “Nouvelles recherches sur le quartier,” 48, fig. 7.

(29) Ouahidi, “Nouvelles,” 297.

(30) Akerraz, “Y a-t-il des huileries,” 7.

(31) Akerraz et Lenoir, “Les huileries,” 96, n. 81.

(32) Makdoun, “Encore,” 276-280, fig. 9; Makdoun, “Nouvelles recherches sur l’aqueduc,” 763-770 ; Makdoun, “Nouvelles recherches sur le quartier,” 45-48, fig. 4.

(33) Makdoun, “Nouvelles recherches sur le quartier,” 45-48, fig. 7.

(34) Layla Es-Sadra, “Transformation du paysage urbain volubilitain à l’époque préislamique,” *L’Africa romana* XIX, Sassari 2010, (Roma: Carocci editore, 2012), 642, Pl. II, VI.

(35) Ouahidi, “Nouvelles,” 298.

(36) Makdoun, “Nouvelles recherches sur le quartier,” 48, fig. 9.

(37) Hajar Feddoul, *“La maison à la crypte à Volubilis,”* (mémoire de fin d’études du IIème cycle des sciences de l’archéologie et du patrimoine, Institut National des Sciences de l’Archéologie et du Patrimoine, Rabat, 2014), 34, 45-49, 53, 66.

(38) Akerraz et Lenoir, “Les huileries,” 70.

(39) Akerraz et Lenoir, “Les huileries,” 97 ; Akerraz et Lenoir, “Appendice,” 459-460.

(40) Akerraz et Lenoir, “Les huileries,” 96-97.

(41) Rebuffat, “Le développement,” 231-40.

خلص الباحث عمر أكراز (A. Akerraz) من خلال دراسته لبنايات الحي الشمالي-الشرقي إلى تحديد العمل بالاتجاه العام للحي إبان النصف الثاني من القرن الأول ميلادي، بمعنى خلال مرحلة سابقة على بناء السور الروماني الذي يؤرخ عادة ما بين ١٦٨-١٦٩ ميلادية (Akerraz, "Nouvelles," 457 ; Akerraz et Lenoir, "Volubilis," 213-219).

(42) *IAM* lat., 383 ; Edmond Frezouls, "Nouvelles inscriptions de Volubilis," *Comptes rendus de l'Académie des Inscriptions et Belles lettres,* (1952): 400-401 ; Edmond Frezouls, "Inscriptions nouvelles de Volubilis (II)," *Mélanges de l'Ecole Française de Rome* LXVI, (1956): 121-124 ; Edmond Frezouls, "Les Baquates et la province romaine de Tingitane," *Bulletin d'archéologie marocaine* II, (1957): 105 ; Edmond Frezouls, "Rome et la Maurétanie tingitane : un constat d'échec?," *Antiquités Africaines* 16, (1980): 76-77.

(43) Louis Chatelain, *Le Maroc des Romains. Etude sur les centres antiques de la Maurétanie occidentale*, (Paris: E. de Boccard, 1944), 163 ; Gilbert Hallier, "La fortification des villes de Tingitane au second siècle," *Studien zu dem Militärgrenzen Roms, III Vorträge des 13 Internationalen limeskongressen, Aalen, 1983*, (Stuttgart: Konrad Theiss, 1985), 605 ; Maurice Euzennat, *Le Limes de Tingitane. La frontière méridionale*, (Paris: Centre National de la Recherche Scientifique, 1989), 211.

(44) Nabil Zairi, "L'enceinte urbaine de Volubilis, une nouvelle chronologie," *colloque international de Volubilis à Mogador, nouvelles données archéologiques et patrimoniales au Maroc, Hommage à feu de Abdelfattah Ichkhakh*, Essaouira 17-19 mars 2022.

أرخ الباحث إيدمون فريزول (Ed. Frézouls) السور الذي أحاط بالمدينة الرومانية ما بين سنتي ١٦٨-١٦٩ ميلادية، استنادا إلى نقيشة وجدت بالباب F (*IAM lat.*, 383 ; Frézouls, "Nouvelles," 400-401 ; Frezouls, "Inscriptions," 121-124 ; Frezouls, "Les Baquates," 105; Frezouls, "Rome," 76-77) الذي ينتمي إلى الجزء الثاني من السور (الجزء الشمالي-الغربي)، لكن معطيات التأريخ النسبي أشارت إلى أسبقية الجزء الأول الذي أحاط بالحي الشمالي-الشرقي على الجزء الثاني الذي اتكأ على البرج الغربي للباب D وكذا على الجزء الثالث (الجزء الشرقي) الذي اتكأ هو الآخر على الجدار الجنوبي للجزء الأول المتخلى عنه (Zairi, "L'enceinte," fig. 1). علاوة على ذلك، يبرز الجزأين الأول والثاني استمرارية على مستوى نوعية أبراجهما التي ضمت أبوابا مركزية، عكس أبراج الجزء الثالث التي تبرز قطيعة نوعية بفعل ضمها لأبواب جانبية (*Ibid.*, fig. 4-5, 7)، الأمر الذي ساعدنا على تأريخ الجزء الثالث إبان مرحلة لاحقة على الجزأين الأول والثاني، على اعتبار أن الجزء الثالث اتكأ على الجزء الأول من السور. أما على مستوى الأبواب، فتخبرنا الدراسة النوعية بتزامن البابين A (تعود للجزء الثالث) وCg (تنتمي للجزء الأول)، لأن الباب C بني وفق نفس تصميم A، فضلا عن أن برجيهما يضمان مداخل جانبية شبيهة بمداخل الأبراج التي تعود للجزء الثالث (*Ibid.*, fig. 2). في نفس الاتجاه، يظهر أن الأبواب الثلاث E وFg وGg التي انتظمت على طول مسار الجزء الثاني، تعود لمرحلة متزامنة لأنها أقيمت وفق نفس التصميم (*Ibid.*, fig. 3)، كما ترجع إلى مرحلة لاحقة على الباب D الأقدم بالمدينة، لأن الباب الأخير ينتمي إلى الجزء الأول من السور المؤرخ نسبيا في مرحلة سابقة على الجزء الثاني. من جهة أخرى، كشفت نتائج الاستبار الذي أنجزه الباحث رشيد البوزيدي (R. Bouzidi) بحي التل (رقم ١٢) ما بين قناة المياه وأساس الجدار AB عن مستوى أثري روماني، يعود لمرحلة سابقة على بناء قناة المياه، تكون من عتبة تعود لباب بلغ عرضه ١,٧٠ مترا، تكونت من بلاطتين، أقيمت على جدار بلغ طوله حوالي ٣,٢٠ مترا وعرضه ١,٥٥ مترا، بني بأحجار مختلفة الحجم مرتبطة فيما بينها برابط جيري ورملي، (Rachid Bouzidi, *"Recherches archéologique sur le quartier du tumulus (volubilis),"* (Thèse de troisième cycle, Institut National des Sciences de l'Archéologie et du Patrimoine, (Rabat, 2001), 87-88 ; 177-179, fig. 65-66). وقد مكنتنا إعادة قراءة البقايا التي أبان عنها الاستبار المنجز بحي التل من ربط الجدار وعتبته بالجزء الأول من السور، استنادا إلى سمك السور وتشابه تقنية ومواد البناء المستعملة بالجدار وكذا عدم انتمائه إلى أية بناية. وما دام الجدار والعتبة X يرجعان إلى مرحلة سابقة على قناة المياه المؤرخة في المرحلة الفلافية (٦٠-٨٠ ميلادية)، فإن الجزء الأول من السور يعود هو الآخر إلى مرحلة سابقة على بناء قناة المياه، نرجح تحديدها ما بين سنتي ٤٤-٦٠ ميلادية. أما الجزء الثاني فيرجع لمرحلة ثانية من تطور المدينة، تؤرخ ما بين ١٦٨-١٦٩ ميلادية استنادا إلى النقيشة التي تم العثور عليها بالباب F.

(45) Akerraz et Lenoir, "Les huileries," 97; Akerraz, "Y a-t-il des huileries," 7.

(46) Akerraz et Lenoir, "Appendice," 459-460.

(47) Makdoun, "La maison," 1703-23 ; Feddoul, "*La maison*," 34, 45-49, 53, 66.

(48) Marcel Benabou, *La résistance africaine à la romanisation*, (Paris : F. Maspero, 1976), 180-182 ; René Rebuffat, "Une zone militaire et sa vie économique: le limes de Tripolitaine," dans *Armée et fiscalité dans le monde antique*, Colloques nationaux du CNRS n° 936, Paris, 14-16 octobre 1976, (Paris: Centre national de la recherche scientifique, 1977), 404-408.

(49) Akerraz et Lenoir, "Les huileries," 95.

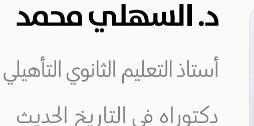
(50) Habibi M., "Découverte d'une installation vinicole antique à Sidi Boulanouar (Région de Tanger)," dans *Actes du colloque La Maurétanie, le monde méditerranéen*, Tétouan 24-26 novembre 2016, (Tétouan: Publications de la Faculté des Lettres et sciences Humaines, Université Abdelmalek Es-Saadi, 2018). (à paraître)

(51) Rocca I., Carrato Ch., Kbiri Alaoui M. et Ichkhakh A. (dir.), "Recherches archéologiques à Rirha, Sidi Slimane (Maroc)," Campagnes de du 10 juin au 4 juillet 2019, Rapport d'activité (2019): 14, 97-105.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الطبونيميا المائية الطبيعية في المغرب
من خلال المصادر التاريخية الدفينة
حالة واد "بوفكران" بمجال مكناسة الزيتون



د. السهلي محمد

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

دكتوراه في التاريخ الحديث

مكناس - المملكة المغربية

مُلَخّص

تكتنف البحث في طبونيمية المائية صعوبات كثيرة، فالدراسات والأبحاث التي اهتمت بالدلالة اللغوية والطوبونيمية للمجال المغربي اقتصرت على أسماء القبائل والمدن وتتبع دلالتها الجغرافية والبشرية، ولم يكن البحث في الطوبونيميا المائية يحظى باهتمام كبير من لدن الباحثين. ويأتي عزوفهم عن البحث في الأعلام الجغرافية ذات الصلة بالماء إلى النقص الحاصل في المادة التوثيقية الكفيلة بكشف ملابسات التسمية ودلالاتها البشرية والجغرافية واللغوية، وإلى تحوير أصل بعض الأسماء ذات الارتباط بالمجاري المائية وتغيير نسقها اللغوي، بالإضافة إلى الصعوبات المنهجية التي تعتري التتبع التاريخي لها نتيجة غياب البحث الأثري. إن السعي إلى الكشف عن المضمون اللغوي والجغرافي للأسماء المرتبطة بالمجاري المائية يستدعي التوفر على تسلسل زمني للنصوص والوثائق، وهو ما يصعب القيام به في الوقت الراهن نتيجة تباين الإشارات المصدرية وتعارضها في بعض الأحيان، وفقدان بعضها للأسس التاريخية وهيمنة الجانب الأسطوري على بعضها، كما أن محاولة التتبع التاريخي لتلك التسميات يفرض تحديد منهج للبحث لتجنب التيه في الحقب التاريخية باعتبار أن تاريخ ظهورها يظل مجهولاً .

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٦ أكتوبر ٢٠٢٣

تاريخ قبـول النشـر: ٠٩ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الماء؛ الطوبونيميا؛ المصادر الدفينة؛ مكناس؛ بوفكران

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.251216 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

السهلي محمد. "الطبونيميا المائية الطبيعية في المغرب من خلال المصادر التاريخية الدفينة: حالة واد "بوفكران" بمجال مكناسة الزيتون".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٤٣ – ٥٣.

Corresponding author: mohamedsh20689@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةٌ

تستمد الطوبونيميا قوتها من الدراسات اللسانية والبحث الأركيولوجي والتحري التاريخي، باعتبارها أداة لسانية تنير بعض الجوانب المعتمة من النصوص المصدرية، في تحديد مضامين أسماء الأماكن، ورسم التطور الذي لحق اللسان المتحدث به. ولتحقيق البعد العلمي في الدراسات الطبونيمية وجب احترام القواعد العلمية والمنهجية، ومراعاة وضعية الأماكن المعنية بالبحث وخصوصياتها التاريخية والجغرافية وحتى الثقافية، بغية إيجاد الاسم الأصلي وتتبع تطوره. وبناءً على ذلك تأتي أهمية المصادر الدفينة في توفير معلومات ذات بعد طوبونيمي وفيلولوجي تطوري ودلالي للمواقع وأسماءها، خاصة الطبيعية منها، وهو ما تروم هذه الورقة البحثية الوقوف عنده من خلال تتبع التطور التاريخي لطبونيمية "واد بوفكران" بمجال مكناسة الزيتون، من خلال تتبع الإشارات الواردة في مجمل المصادر المؤرخة له، في محاولة لتحليلها وتأويلها وفق ما تسمح به المادة التاريخية المتوفرة، ومستعينين بذلك بالمنهج الاستقرائي الوصفي، والمنهج التحليلي، وذلك من خلال محورين رئيسيين: أولاً طبونيمية واد بوفكران من خلال المصادر التاريخية وأوصاف الجغرافيين، ثانيًا تطور طبونيمية الواد خلال المراحل التاريخية الوسيطية.

أولاً: طبونيمية "واد بوفكران" من خلال المصادر التاريخية وأوصاف الجغرافيين

١/١-مصادر الماء بمجال مكناس وأهمية "واد بوفكران"

تفيد الروايات الجغرافية[١] والتاريخية[٢] التي اهتمت بمجال مكناس بوجود ثلاثة مصادر أساسية للماء تتمثل في العيون والآبار والأنهار، ولعل الموقع الطبوغرافي الذي قامت عليه المدينة هو ما مكّن من تنوع هذه المصادر، إذ أن انتشار المدينة فوق الهضبة الكلسية جعلها تستفيد من التقاء شبكة من الأنهار الدائمة الجريان ومن انبجاس أهم العيون[٣]، على أن ما يطبع تلك الروايات هو اقتضابها وغموضها أحيانا، فهي لا تذكر شيئًا عن مصادر المياه وصبيبها، باستثناء رواية ابن غازي[٤] وابن زيدان[٥] اللذان حاولا تحقيق منابع بعض العيون والأنهار بالمجال المكناسي.

وعلى الرغم من قلة المعطيات المفيدة في هذا المضمار، إلا أنه يمكن إعطاء تصور ولو تقريبي عن الوضعية المائية لمجال مكناس باستنطاق مضمون تلك الروايات؛ فصاحب الاستبصار يصف أرض مكناسة بأنها "طيبة المزارع كثيرة المياه (...) تشقها الأنهار والمياه السائحة والعيون الكثيرة"[٦]، وبالمثل يشير الإدريسي إلى جريان مياه نهر صغير في شرق المدينة، وأن المياه تخترق أزقة "بني زياد"، كما يؤكد في سياق وصفه لحوائر[٧] مكناسة أن "تاورا" يأتيها ماؤها من الجنوب من نهر كبير فينقسم في أعلاه ليخترق أزقتها وأكثر دورها وشوارعها[٨]، ويقول عنها ابن غازي أنها "بلدة خصيبة ذات عيون وأنهار"[٩]، ويكتفي ابن الخطيب[١٠] وابن السباهي[١١] بالتغنّي بمياهها الثرّة وبخيرات مجالها الطبيعي، بينما لا يسجل كل من البكري[١٢] والزهري[١٣] شيئا عن مصادر مياه مكناس. وفي كل الأحوال، فهذه المعلومات تفيد بشكل عام في توضيح النقط التالية:

أولاً: إن مصادر المياه بمكناس تتفاوت أهميتها حسب قوة صبيبها وغزارة مياهها وقربها من التجمعات الحضرية والبشرية، وأن استغلالها كان على أتمه، سواء في سقي الأراضي المتملكة أو في تحريك المنشآت المائية كالأرحاء أو تزويد المساجد والحمامات.

ثانيًا: إن العيون المائية كانت تستغل أغلبها في السقي بشكل خاص، قياسًا على إشارتين أوردهما ابن غازي في سياق حديثه عن حوائر مكناسة، حيث أشار إلى أن العيون المتواجدة بحارة "بني زياد" مخصصة لسقي أملاكهم، وكذلك الشأن بالنسبة لعين "أبي الخيار" التي كانت "تسقى بها طائفة كثيرة من أملاك تاورا ومن أملاك من تحتها"[١٤].

والذي يتبيّن من خلال كلامه كذلك أن العيون المتفجرة بأرض بني زياد كانت ضعيفة التصريف، ولعل ذلك ما دفعهم إلى جر ساقية من واد "فلفل" (بوفكران) لسقي باقي أملاكهم، بينما استعملت باقي المصادر المائية الأخرى للتزود بمياه الشرب وتزويد الحمامات والمساجد، على أن أهم العيون المائية بالمنطقة هي عين "تاجما"، فهي "طيبة الماء عجيبة القدر"[١٥]، تتميز

"بالخفة والصفاء والعذوبة"[16]، لذلك عمل الموحدون على جر مياهها إلى المدينة "فوق أقواس واصلة إلى حين أسوارها الجنوبية"[17] لتزويد جامعها الأكبر وميضأته[18]، كما عمل السلطان مولاي إسماعيل على إصلاح مجراها بعدما أصابه الخراب زمن الفتنة[19] وجدّد تحبيسها على المسجد الأعظم[20].

ثالثًا: إجماع تلك الروايات على أهمية واد "فلفل" في تعمير المنطقة بشريا، والإقرار بدوره المحوري في اقتصاد العناصر المكناسية، وبما له من دور هام في تحديد خصائص الامتداد العمراني للحوائر أولا، والحصن ثانيا، والمدينة العتيقة ثالثا. ولعل انتظام المجموعة البشرية على مستوى الواد المذكور ونمط عيشها[21] يؤيد ما ذهبنا إليه، وهو ما يبرزه صاحب "الروض الهتون" حينما حدد مواقع المستقرات المكناسية القديمة انطلاقا من مركزها على الواد، فحدد موقع حوائر "بنو عطوش" و"بنو برنوس" و"بنو شلوش" وبنو موسى" على الضفة الغربية من واد فلفل إلا "تاورا" فإنها على ضفتي الواد الغربية والشرقية، أما "ورزيغة" فإنها تقع شرق الواد[22]، كما أن إشارة صاحب الاستبصار إلى "عمائر متصلة تشقها الأنهار والمياه سائحة"[23] تؤكد ارتباط عمران المدينة بالماء، وعلى محورية مياه الواد في نشأة المدينة وتطورها العمراني في كل المراحل والعصور التاريخية.

إن أهمية واد بوفكران لا تقف عند إسهامه في التطور العمراني للمدينة، بل أدى دورًا أساسيًا في اقتصاد المنطقة، إذ بفضله أكسبت المنطقة "اخضرارا واعتدال المناخ"[24]، وفي ازدهار المجال الفلاحي المحاذي للمجال الحضري الذي خصّص أغلبه للعراصي الخاصة بالإنتاج الفلاحي المكثف[25]، حتى غدت "المجاشر محدقة بها من كل جهة، كل مجشر بمزارعه وغراساته ومراعيه (...) وكان زيتونها الذي تنسب إليه متصلا بها وبحاراتها من كل جهة"[26]، وأضحت مكناس " بلد دارت به المجاشر المغلّة"[27]، ولا تعوز الشهادات الدالة على صواب هذا الرأي، فتواتر الروايات في المصادر تبرز العلاقة بين واد بوفكران والمجال الزراعي المنتشر على ضفافه، وهي علاقة أنتجت أنواعا شتى من المنتوجات ذات القيمة النادرة، "تجبى منها مقادير لا حد لها ولا نهاية"[28].

كما تكمن قيمة مياه الواد أيضًا فيما أفرزته من علاقات اجتماعية حول استغلالها، إذ من الطبيعي أن تخضع تلك المياه للتقسيم بين السكان منذ أول استقرار لهم بالمجال، وهو ما يسجله الإدريسي في معرض حديثه عن مكناس بقوله: "والماء يأتيها من جنوبها من نهر كبير فينقسم في أعلاه ويمر ما انقسم هناك من المياه فيخترق جميع أزقتها وشوارعها وأكثر دورها"[29]، وقد واكب تقسيم المياه بين سكان مكناسة نظام ري مدعم بتجهيزات تقنية[30] ساعد على خلق فضاء اجتماعي بين المكونات البشرية المحاذية للواد.

ومن أوجه أهمية مياه واد بوفكران تنافس الدول المتعاقبة على حكم المغرب على جر مياهه للسقي؛ فالموحدون جلبوا ماء الواد لسقي البحائر التي أحدثوها بمجال مكناس[31]، كما أن السلطان مولاي إسماعيل عمل على تحويل مجراه قصد إدخاله للمدينة، وتزويد مرافقها العمرانية والاجتماعية والدينية بعد التوسع الذي شهدته خلال عهده[32]، كما أن التنافس على مياهه احتد بين أغنياء مكناس في النصف الثاني من القرن ١٩م حول ملكيته واستغلاله بالدور والرياضات، حتى غدا الحصول عليه معيارا للتمايز الاجتماعي بالوسط المكناسي[33]، بالإضافة إلى أن السلطات الاستعمارية حاولت الاستحواذ عليها بغرض سقي مستغلات المعمرين الذين استقروا بالمدينة وضواحيها بعد سنة ١٩١٢م[34].

٢/١-تحديد روافد واد بوفكران من خلال المصادر

تطرح أوصاف الجغرافيين والرحالة عدة مشاكل بخصوص تحديد منبع واد بوفكران ومصادر تغذيته، إذ إن رواياتهم متضاربة ويطبعها الغموض وعدم اليقين والاضطراب في التوطين، وذلك راجع إلى استنساخهم للمعلومات والأوصاف التي تهم الواد، وعدم اهتمام العديد منهم بتحقيق منبعه. أما ما يتعلق بالحوليات الإخبارية فإنها تضرب صمتا ولا تذكر ما يفيد في الموضوع، باستثناء رواية ابن غازي المقتضبة ورواية ابن زيدان الذي اعتمد هو الآخر على بعض الدراسات الأجنبية في تحقيق منبع مياهه، وعلى هذا الأساس فإن

الأمر يستدعي الاستعانة بالمعلومات الحديثة والأجنبية قصد فهم النصوص المصدرية وتحقيق مصادر تغذية الواد.

نشير في البداية إلى أن المقصود بالواد في أوصاف الجغرافيين هو واد "فلفل" فهو المقصود في جل المصادر الجغرافية الوسيطية والحديثة متى ذكرت مكناسة الزيتون مقرونة بوادها، كما أن أغلب الأوصاف والروايات المتوفرة بين أيدينا لم تتعد الوصف المجالي الخارجي له، فالإدريسي يقول عنه: "ومدينة مكناسة هي المسماة تاقرارت (...) يجري في شرقيها نهر صغير عليه أرحاء"[٣٥]، كما كتب عنه ابن سعيد المغربي بأنه ينزل من "جبال غمارة التي في شرقيها نهر فلفل ويمر بجنوبيها وينصب في نهر سبو"[٣٦].

وبالمثل يشير الوزان أن مكناس تقع "في سهل بديع جدا ويمر بالقرب منها نهر صغير"[٣٧]، أما رواية مارمول كربخال فقد انفرد بذكر المسافة بين المنبع وموضع المدينة، حيث أشار إلى أن مكناس توجد فوق "سهل جميل على ضفة نهر لطيف لا يبعد عن منبعه سوى بنصف فرسخ"[٣٨]، بينما اكتفى الأسير مويط بتحديد موقعه بالنسبة للمدينة بالقول إنه "يمر شمال شرق المدينة على بعد مرمى بندقية"[٣٩]، لكن بدون أن يفصح عن موقعه ولا وجهة مياهه، الأمر الذي يعقد من عملية التحقق من روايته.

تؤكد هذه الأوصاف الجغرافية حقيقة تاريخية مفادها أن واد بوفكران لم يكن معروفا لدى الجغرافيين القدامى بالقدر الذي يمكنهم من تقديم أوصاف مستفيضة وضافية عنه، وهو ما عكسته بحق جل أوصافهم التي قصرت القول عنه بأنه "نهر صغير". والواقع أن ندرة المعلومات الجغرافية عن الواد سبّبت التباسا عند بعضهم في تحديد منبعه، نتيجة الاعتماد في تدوين معلوماتهم على المنقول والمتواتر لا على المشاهدة والتجربة، كما هو الحال عند ابن سعيد المغربي، الذي اعتمد على الرواية الشفوية في تدوين أوصافه عن الواد، دون إعمال منهج النقد والتمحيص، مما سبّب اضطرابًا في معلوماته بخصوص التحديد الجغرافي له.

والظاهر أن قلة اهتمام المصادر الجغرافية بالواد يرجع لطبيعته الجغرافية، فهو يندرج ضمن الأودية الصغيرة التي تتشكل بفعل التقاء مجموعة من المصادر المائية التي تعمل على تغذيته، كواد الرحى وعين معروف وغيرهما، وأيضا لمحدودية أهميته ومنفعته على مستوى المدينة، خلافا لباقي الأنهار والأودية التي تكون منفعتها عامة، حيث إن استغلال مياه بوفكران انحصرت في سقي الأملاك والجنات والبساتين المحاذية له، وفي تزويد مرافق المدينة في عهد السلطان مولاي إسماعيل، بعد تقويته لصبيبه بمصادر مائية جديدة كما سنقف عند ذلك.

من جانب آخر إذا تصفحنا رواية ابن غازي تظهر معرفة نسبية حول أصل مياهه، رغم اتسامها بضيق الأفق، فهو يشير في معرض حديثه عنه إلى مروره قرب سور المدينة من "قبلة إلى جوف" وأن أصله من "جبل بني فازاز"[٤٠]، إلا أن الوصف الذي قدمه ابن غازي نقل أكثره من تقييد "أبي الخطاب سهل بن القاسم بن زغبوش" الذي اعتمد بدوره "في جمع أخباره على المأثور من الروايات الشفوية في عصره"[٤١]، مما يطرح إشكالية التوطين الجغرافي للواد وضبط حدوده، لما يعتريه من الالتباس والتنوع.

فمنطقة "فازاز" التي ذكرها ابن غازي مجال لمنبعه "تقع بين الأطلس الكبير وأقصى شمال الأطلس المتوسط وتعانق بلاد تادلة وبلاد ملوية العليا"[٤٢]، وهذا الالتباس في تحديد مجال فازاز نجده حاضرًا أيضًا في المصادر التقليدية، فتارة يستعمل لفظ "بلاد فازاز"[٤٣] والذي يدل على اتساع المجال، وتارة أخرى يستعمل صيغة "جبل فازاز"[٤٤] والذي يوحي بانحصار المجال، بل إن اسم "فازاز" لا نجد له حضورا في العديد من النصوص الإخبارية لانقراض الاسم وتغيّره، ولعل إشكالية تحديد مجال "فازاز" نجد تفسيرها فيما خضعت له المجموعات البشرية التي استوطنت المجال وارتبط اسمها بتلك المنطقة من امتداد وتقلص نتيجة للظروف السياسية والطبيعية[٤٥]، الأمر الذي يجعل من مهمة تحقيق رواية ابن غازي أمرا لا يخلو من صعوبات ومشاكل.

أما عن المدلول اللغوي للمصطلحين "قبلة وجوف" اللذين استعملهما ابن غازي للتعبير عن اتجاه المياه، فقد كان قصده إبراز أن ماء واد بوفكران يأتي من منطقة جبلية مرتفعة وهي الواقعة جنوب المدينة في اتجاه المنطقة المنخفضة وهي التي توافق شمال منطقة مكناس المتميزة بسيادة الانبساط والتسطح[٤٦]، وعلى هذا الأساس، فإن رواية ابن غازي عن منبع واد بوفكران يمكن أن نعتبرها نظريًا صحيحة، رغم ما يكتنفها من غياب التدقيق المجالي.

بالموازاة مع ذلك، فقد أورد ابن زيدان في مؤلفه معلومات حول منبع الواد ومصادر تغذيته، اعتمادًا على ما أنجزه بعض الفرنسيين من أبحاث حوله إبان الحماية الفرنسية بالمغرب، ولأهمية هذا النص فقد أثبتناه على طول فقراته. يقول صاحب الإتحاف في سياق تعقيبه على رواية صاحب "الروض الهتون" عن الواد:

"وقد تحقق لدينا أن أصل منبعه من الكهف الكائن بقبة جبل بُوْزَكُّو [...] الكائن أي الجبل بأقماشن من آيت بورزون فخذة قبيلة بني مطير ويعرف الكهف المشار إليه بكهف الريح سمي لذلك لشدة الريح الصاعدة من جوفه [...] وبسفح هذا الجبل المعروف بمزَّعْتوالْ عيون أصل معظمها وأكثرها ماء الكهف المذكور بدون أدنى ريب يلحق في ذلك سكان ذلك المحل قالوا لأنه مهما سقط بذلك الخرق شيء خرج في بعض تلك العيون وذلك أقوى دليل وأصدق برهان على أن أصلها منه [...] ومن أصول منبع بوفكران العظيمة عين معروف ويمتد خمسين كيلو مترا يبلغ منبعه في اليوم أربعين ألف متر مكعبا على ما حققه بعض الفرنسيين"[٤٧].

إن رواية ابن زيدان تظهر معرفة بأصل الواد، فمن خلال الأوصاف التي قدمها المؤلف يتبين بأن منبعه يوجد بالجبل المتواجد عند حافة الأطلس المتوسط بأقماشن بآيت بورزون، إحدى عظام بني مطير من كهف يسمى "بكهف الريح"، لكن الذي يستشف من روايته أن الكهف الذي يتحدث عنه هو أحد منابعه، بينما تشكل عين معروف أهم مصادره الرئيسة[٤٨]، والتي توجد جنوب مكناس.

وباستقراء الوثائق التي تتحدث عن روافده فإن الأمر لا يتعلق بمصدر وحيد للتغذية، بل بمصادر متعددة، منها العيون المائية كعين معروف وعين بوجاي وعين بوفكران وعين تاكمة وعين عماير وعين معزة وعين عتروس، ومنها الأودية التي تشكل روافد له كواد الرحى الذي ينبع من "أكوراي"[٤٩].

والراجح أن عيون الحاجب كانت هي الأخرى تشكل أحد روافد الواد، إذ تفيد إحدى الوثائق[٥٠] إلى كون عيون الحاجب كانت تصبُ في واد عين معروف "بواسطة الساقية الأثرية التي لازالت أطلالها قائمة بين الحاجب وعين معروف"، أما واد الرحى فهو الآخر كان يصب في واد عين معروف، وهذه المصادر المائية كانت "تسمى عند اجتماعها بأبي فكران"، كما تذكر وثيقة أخرى تعود لأحباس مكناس أن مبدأ الواد من "عين معروف مع وادي الأراحي إلى أن اشترك الجميع بتاكمة ثم صاروا واديًا واحدًا مختلطًا مما ذكر أمام ضريح سيدي بوزكري"[٥١].

وبالعودة لرواية ابن زيدان فقد ذكر بأن صبيب الواد في اليوم يصل إلى أربعين ألف متر مكعب، أي ما يعادل ٤٠٠٠٠ متر مكعب x ١٠٠٠ لتر = ٤٠٠٠٠٠٠٠ لتر في اليوم، فإذا قسمنا هذا العدد على ٢٤ ساعة فإننا نحصل على ما يعادل ١٦٦٦٦٦٦ لتر في الساعة و١٦٦٦٦٦٦÷ ٦٠ دقيقة = ٢٧٧٧٧ لتر في الدقيقة و٢٧٧٧٧÷ ٦٠ ثانية = ٤٦٢ لترفي الثانية.

وبمقارنة هذه الأرقام مع ما هو وارد في بعض الأبحاث الحديثة[٥٢] التي اهتمت بصبيب الواد يلاحظ أن هناك تطابقا في الأرقام، بل نعتقد بأن الصبيب الذي تحدث عنه ابن زيدان هو الأدنى، إذ أن أعلى صبيب للواد وصل مثلا في سنة ١٩٣٨م إلى ٥٦٦ لتر في الثانية[٥٣].

ثانيًا: تطور طبونيمية الواد خلال المراحل التاريخية الوسيطية

تكتنف البحث في هذا الباب صعوبات كثيرة، فالدراسات والأبحاث التي اهتمت بالدلالة اللغوية والطوبونيمية للمجال المغربي اقتصرت على أسماء القبائل والمدن وتتبع دلالتها الجغرافية والبشرية[٥٤]، ولم يكن البحث في الطوبونيميا المائية يحظى باهتمام كبير من لدن الباحثين. ويأتي عزوفهم عن البحث في الأعلام الجغرافية ذات الصلة بالماء إلى النقص الحاصل في

المادة التوثيقية الكفيلة بكشف ملابسات التسمية ودلالاتها البشرية والجغرافية واللغوية، وإلى تحوير أصل بعض الأسماء ذات الارتباط بالمجاري المائية وتغيير نسقها اللغوي[٥٥]، بالإضافة إلى الصعوبات المنهجية التي تعتري التتبع التاريخي لها نتيجة غياب البحث الأثري[٥٦].

إن السعي إلى الكشف عن المضمون اللغوي والجغرافي للأسماء المرتبطة بالمجاري المائية يستدعي التوفر على تسلسل زمني للنصوص والوثائق، وهو ما يصعب القيام به في الوقت الراهن نتيجة تباين الإشارات المصدرية وتعارضها في بعض الأحيان، وفقدان بعضها للأسس التاريخية وهيمنة الجانب الأسطوري على بعضها، كما أن محاولة التتبع التاريخي لتلك التسميات يفرض تحديد منهج للبحث لتجنب التيه في الحقب التاريخية باعتبار أن تاريخ ظهورها يظل مجهولاً.[٥٧] وتبعًا لما سبق، يمكن القول بأن المدلول اللغوي لتسمية واد بوفكران ما يزال في كثير من تاريخه غامضا، فجل الدراسات[٥٨] التي اهتمت بتسمياته لم تشر إلى الجانب الطوبونيمي إلا بشكل عرضي، كما أن المصادر لم تحتفظ لنا سوى باسمه ولم تذكر ما يفيد في الوقوف على معناه اللغوي ودلالاته المجالية وعمقه التاريخي والبشري.

٢/١-تسمية واد "فلفل"

يشير ابن غازي في سياق حديثه عن دلالة إضافة كلمة "الزيتون" لمكناسة إلى أن الاسم القديم للواد هو "فلفل" أما في عصره فيعرف "بأبي العمائر"[٥٩]، ويضيف ابن زيدان أسماء أخرى متعددة منها "بوفكران" و "عين معروف" و "ددورة"[٦٠]، لكن ما يهما من هذه الأسماء تلك التي كانت تطلق على الواد على المستوى المجالي للمدينة وهي "فلفل" و"أبي العمائر" و"بوفكران".

يوجد بشأن تسمية "فلفل" رأيان أو تصوران كاحتمال لسبب إطلاقها على الواد، الرأي الأول هو الذي تبناه جمال حيمر[٦١] ومحمد اللحية[٦٢]، اللذان ذهبا إلى احتمال وجود صلة بين تسمية "فلفل" واسم الأمير الزناتي "خزرون بن فلفول" الذي أسس إمارة بسجلماسة بعد تحالفه مع الأمويين بالأندلس[٦٣]. والرأي الثاني هو الذي يضيفه الباحث محمد اللحية كاحتمال ثان لوجه تسمية فلفل والقائم على ربط هذا الاسم بمادة "الفلفل" معتبرا بأن "منخفض النهر بظروفه الطبيعية الخصبة والرطبة [يشكل] مجالاً خصبًا لقيام مثل هذه الزراعة"[٦٤]، وهو ما ذهب إليه كذلك هنري طيراس في سياق حديثه عن الواد[٦٥].

ولئن كنا نشك في الاحتمال الأول نظرا للغموض الذي يلف الإشارات المصدرية الواردة في هذا المضمار حول علاقة الأمير الزناتي بمجال مكناسة، والتي يتصل جلها بمجال سجلماسة والمغرب الأوسط والأدنى[٦٦]، فإننا نرجح فرضية ارتباط اسم الواد بمجاله الطبيعي، قناعة منا بأن "الشيء يتميز عن غيره بخاصته التي اختص بها إما اعتبار الوجود وإما اعتبار الكثرة"[٦٧]، لذلك فإننا نعتقد بأن لفظ "فلفل" كمادة أطلق على الواد باعتبار الوجود، لتوفر الظروف الطبيعية ومنها الماء الذي يعدّ شرطًا أساسيًا لزراعة هذا النوع من المزروعات[٦٨].

ويزكي هذا الاحتمال تواتر الإشارات الدالة على تلازم اسم المدينة وبعض حوائرها بمجالها الطبيعي، فلفظ "الزيتون" الذي اختصت به مكناس إنما أطلق عليها لكثرته بها[٦٩]، كما أن اسم "تاورا" وهي إحدى حوائر مكناسة القديمة يحيل معناه الأمازيغي من جهة على نبات شوكي معروف[٧٠]، ومن جهة أخرى "بخصوصية طبيعية بارزة" والدالة على القرب من مصادر الماء[٧١]، فضلاً عن ذلك، فإن تعدد الإفادات المصدرية التي تصف المجال الزراعي للمدينة والتي أجمعت على تنوع أصناف الثمار والأشجار المنتشرة بجناتها وبساتينها يرجح احتمال وجود مادة "الفلفل" في هذا المجال.

وإذا كان الإلمام الدقيق بهذه التسمية يصطدم بشح المعلومات التي تقدمها لنا المصادر المتاحة، فالذي يستشف من شوارد بعض النصوص الوسيطية أن مادة الفلفل كان إنتاجها وفيرا ببلاد المغرب عموما، وأن "سَلَفَهُ" كان يخضع لأحكام فقهية محددة تأخذ بعين الاعتبار لونه وكميته ونقائه وطيبته[٧٢].

وفي ظل غياب الأبحاث والدراسات التاريخية الخاصة بالطوبونيمية المائية التي تمكن الباحث من القطع في مثل هذه القضايا، فإن احتمال ارتباط اسم

الواد بمادة "الفلفل" يبقى قائما، لكن حري بنا أن نتساءل في هذا السياق عن تاريخ إطلاق هذا الاسم على الواد.

لا نعلم على وجه التدقيق بداية إطلاق المجموعات البشرية تسمية "فلفل" على الواد باعتبار الحالة الراهنة للتوثيق، فأقدم نص نتوفر عليه يعود لأبي عبيد الله البكري(٧٣)، لكن مضمن وصفه يقتصر على مدينتي "عوسجة" و"ورزيغة"، بالإضافة إلى بعض المعلومات السياسية والطبيعية عنهما دون الإشارة لمجال مكناس، وهو ما يؤشر على غياب هذا الاسم على مستوى الواد خلال الفترة التي دوّن فيها البكري نصه والذي يرجع إلى القرن ١٠م/٤هـ.

وإذا أخذنا بما توصلت إليه مجموعة من الدراسات والأبحاث التاريخية عن أصول مكناس، والتي تحدثت عن أن أول استقرار محتمل للمكناسيين بمنطقة الواد "فلفل" ونشأة المدينة كان في النصف الأول من القرن ١٠م/ ٤هـ(٧٤)، فإننا نقول على وجه الاحتمال بأن لفظ الواد لم يحمل اسمه إلا بعد هذا التاريخ، أي بعدما شهدت المنطقة نموا عمرانيا وزراعيا هاما، لكننا نعتقد في نفس الوقت بأن هذا اللفظ لم يكن شائع الاستعمال بدليل غيابه في جملة من المصادر التي اهتمت بوصف مكناسة(٧٥)، وأن أول إشارة لتسمية "فلفل" تعود إلى القرن ١٣م/ ٧هـ، وهي التي احتفظ بها ابن سعيد في كتابه "الجغرافيا"(٧٦)، ليأتي ابن غازي ويؤكد على شيوع استعمال هذا الاسم قبل زمانه وبتغيره في الفترة التي تواجد فيها بمكناس(٧٧)، وفي هذه الحالة لا نجد من تفسير لغياب اسم "فلفل" في بعض المصادر قبل القرن ١٣م/ ٧هـ سوى أنه تعبير عن التجاهل أو الرفض لاستعماله لسبب أو لآخر، على أن لفظ "فلفل" ظل مستعملا في الوثائق حتى القرن ١٥م/ ٩هـ(٧٨)، ليختفي بعد ذلك لصالح اسم أبي العمائر.

٢/٢-تسمية واد "بوعماير"

خلافا للالتباس الذي يحوم حول اسم "فلفل" على المستويين التاريخي واللغوي، فإن الاسم الثاني للواد الذي أشار ابن غازي إلى تداول استعماله في زمانه(٧٩)، له ارتباط بالواقع التاريخي للمنطقة، فلفظ "أبي العمائر" يحيل على "العمارة" وما "يُعمر به المكان"(٨٠)، وهذا التعريف اللغوي يتطابق مع ما شهدته المدينة في عهد الموحدين والمرينيين من تحول عمراني واقتصادي أثر على المستقرات المكناسية الأولى، بل وأسهم في اندثارها وخراب مرافقها، وهو ما يفيدنا به ابن غازي في سياق حديثه عن آثار معركة العقاب وقيام المرينيين على النمو العمراني والاقتصادي للمدينة بقوله: "ونمت هذه البلاد وعمرت [...] وأخذت في النقص من سنة كائنة العقاب [...] ثم تفاقم الأمر عند قيام بني مرين على الموحدين وأتت الفتنة على الحوائر المذكورة كلها واندثرت ولم يبق منها إلا الصوامع والجدارات العتيقة وآخر ما خرب منها ودثر ورزيغة بعدما كانت هذه الحوائر شاركت المدينة المذكورة بعد بنائها في كثرة العمارة والبقاء لله وحده"(٨١).

وإذا كنا لا نخالف الرأي القائل بأن هذا التغير في اسم الواد إنما هو "تعبير عن الخرابات التي بقيت من المراكز السكنية القديمة للحوائر بطريقة عكسية أي بإطلاق الأسماء والصفات للتعبير على خلافها"(٨٢)، فإننا نعتقد، إضافة إلى ذلك، أن يكون لفظ "أبي العمائر" إنما أطلق على الواد للدلالة على أنه النواة الأصلية الأولى لنشأة المدينة، وعلى أن الحوائر التي انتظمت حوله تجسيد لذلك باعتبارها اللبنة الأولى للتطور العمراني الذي ستشهده المدينة وأحوازها فيما بعد، ثم إن إضافة كلمة "أبي" للفظ العمائر له دلالة لغوية خاصة تحيل على "كلّ من كان سببا في إيجاد شيء أو إصلاحه أو ظهوره"(٨٣)، ولعل الاستقرار البشري على ضفاف الواد وتكوين تجمعات سكانية كان سببا في إيجاد وظهور مدينة مكناس، التي تحددت معالمها العمرانية والاقتصادية والاجتماعية عبر التاريخ، وذلك ما تفطّن إليه ابن غازي حين ربط بين الحوائر المنتشرة على ضفاف الواد و بين عمارة المدينة، مشيرا إلى مشاركة تلك الحوائر في "كثرة العمارة" بالمدينة(٨٤).

وبخصوص بداية استعمال تسمية "أبي العمائر" فيحتمل أن يكون بعد بسط الموحدين سيطرتهم على مدينة مكناس سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م لسببين هما:

أولاً: الدلالة اللغوية للفظ "العمائر" والذي يحيل كما أشرنا سابقا إلى "العمارة والعمران" وهو ينطبق على الفترة الموحدية وسياستهم القائمة على تشجيع الاستيطان بالمدن وعمارتها(٨٥)، ومن جملتها مدينة

مكناس التي اتسعت بها حركة العمران والبناء بعد استيلائهم عليها، ولعل أبلغ تعبير عن التحول الذي شهدته المدينة قول ابن غازي عنها "وكانت في المدينة بداوة ثم تمدنت واكتسبت حضارة"[٨٦]، ما يحيل على اكتسابها للمظاهر الحضارية التي جعلتها تنتقل من هيئة "المستقرات الحضرية العادية" إلى هيئة "المدينة أو المصر الجامع"[٨٧]، خاصة بعد جلب ماء عين "تاكما" إليها واستفادة مرافقها منه[٨٨].

ثانيًا: تحول المشهد الزراعي واتساعه وانقسامه إلى مجالين "مجال الأودية ذي المغارس الشجرية القديمة المتسمة بضيق مساحتها وتكاثف وتشابك أشجارها بين مجال البحائر المنبسط المعد للزراعات الشجرية والنباتات المرتبطة بالتسويق"[٨٩]، حتى غدت مكناسة "العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها"[٩٠] بفضل استغلال مياه الواد وجلبها إلى البحائر المستحدثة بها[٩١].

٢/٣–تسمية "واد بوفكران"

استمر استعمال تسمية أبي العمائر إلى حدود إدخال مياه الواد إلى المدينة وانتفاع سكانها منه سنة ١٦٩٤م/ ١١٠٦هـ[٩٢] حيث سيتلاشى هذا الاسم لصالح التسمية الجديدة "بوفكران"، التي نملك بشأنها تفسيرين، الأول ذهب إلى كون اللفظ أمازيغي الأصل نسبة إلى "إفكر" و"إفشر" وجمعه "افكران" أو "افشران" وتصغيره "أفكرون" ومعناها "السلاحف"[٩٣].

أما التفسير الثاني فرجَّح صاحبه بأن لفظ "بوفكران" أطلق في إطار "المقارنة التفاضلية بين مياهه ومياه عين تاكما، وأن التسمية تحيل على مادة تافكرا" مدعما فرضيته بأن تسمية الواد لم تظهر "إلا بعد دخول مياهه في الحياة اليومية للسكان وأنها بدا غير مرغوب فيها في الخطاب الرسمي" ولم تكن شائعة الاستعمال إلا ما بعد سنة ١٧١٥م[٩٤]. والحاصل، إذا كنا لا نملك سوى هذين الاحتمالين لنرجح إحداهما، فإننا نغلب الاحتمال الثاني بالنظر إلى المعنى الأمازيغي للفظ "تافكرا" والذي يحيل على "الدُّرْدُ الكلسي" أي الجير الكلسي أو الحجر الجيري الذي يوجد بالواد ويشبه من حيث مظهره وشكله مظهر "دَرَقَة السلحفاة"[٩٥]، ويدعم هذه الفرضية أيضا أن الرواسب التي كان يحملها ماء الواد والتي كانت تلتصق وتتراكم بالقنوات المائية كلما طالها الإهمال، كان يطلق عليها بـ "تفكرة"، لذلك كان موضوع ضرر وجبت إزالته.

خَاتِمَةٌ

إن هذه الدراسة في بنائها العام لا تعدو أن تكون محاولة متواضعة لتقديم إجابة عن سؤال طبونيمية واد بوفكران، وهو السؤال الذي لازال في حاجة إلى مزيد من التمحيص والتدقيق والتهذيب، لا لتقصير في التنقيب عن المادة المصدرية والتوثيقية الكافية، وإنما لندرة المعلومات التي تمدنا بها، إذ تبين بعد فحص مكوناتها وفرز اتجاهاتها أن تسمية الواد فيها اختلف باختلاف المراحل التاريخية، وهو ما طرح إشكالية الربط في ما رود في المصادر التاريخية بالمجال الجغرافي للواد، مما لا يسعف في تقديم صورة أدق لبعض جوانب موضوع الدراسة، وفرض اتباع منهج يقوم على لمّ شتاتها ومقارنة بعضها ببعض قصد الحصول على الحدث التاريخي الذي يمكن إسقاطه على الواقع التاريخي وعلى طبونيمية واد بوفكران.

ولا شك أن الكشف عن موارد تاريخية إما في الخزائن الخاصة، أو في الأرشيفات الأجنبية التي لم تسعفنا ظرفية المرحلة في الوقوف على جملة منها واستغلال معلوماتها، كفيل بسد بعض ثغرات هذا العمل. وإذا كان من المجازفة إصدار أحكام وخلاصات نهائية في الموضوع فإن تفاعلنا معه طيلة المدة التي استغرقها إنجازه أتاح لنا الوقوف عند بعض الأفكار والتصورات الأولية التي تبدو لنا جوهرية في تشريح موضوع الدراسة منها على سبيل المثال قدرة تناهج العلوم والمعارف على توسيع آفاق البحث العلمي والتاريخي على وجه خاص، وما حاولنا إثباته هنا فيما يتعلق "بواد بوفكران" هو مجرد محاولة متواضعة على فعالية ما يمكن أن تقدمه المصادر التاريخية الدفينة المكتوبة منها والشفوية من معلومات أصيلة تفيد الباحث في الطوبونيميا المائية في تعزيز مادته المصدرية.

الإحالات المرجعية:

(١) مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار، نشر وتعليق سعد زغلول عبد المجيد، دار الشون الثقافية العامة، بغداد- العراق، بدون تاريخ**، ص١٨٧-١٨٨؛ الإدريسي أبو عبد الله، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢م، ص٢٤٤-٢٤٥؛ ابن الخطيب لسان الدين، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، نشر وتعليق أحمد مختار العبادي، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨١م، ج٢، ص 372-371.

(٢) ابن غازي محمد العثماني، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، الطبعة الثالثة، ١٩٩٩م، ص٩-١٤؛ **إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس**، تحقيق علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد-القاهرة، ط١، ٢٠٠٨م، ج١، ص٧٨-٨٠.

(٣) إدريس الفاسي، "مكناس في بيئتها الطبيعية"، ضمن أعمال ندوة **الحاضرة الإسماعيلية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مكناس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٨، ص٢٧.

(٤) **الروض الهتون**، م.س، ص ٩.

(٥) **الإتحاف**، م.س، ج١، ص ٨.

(٦) مجهول، **الاستبصار**، م,س، ص ١٨٨.

(٧) استخدم هذا اللفظ للدلالة على التجمعات السكنية الصغرى لمكناسة القديمة وعلى واقعها الأصلي الذي ظهرت به، والذي رجح أحد الباحثين أن يكون بفعل قرار سياسي من السلطة المركزية. محمد اللحية، **محددات نشأة المدينة المغربية**، م.س، ص ٦٥-٦٩.

(٨) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م.س، ص ٢٤٤.

(٩) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٩.

(١٠) ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، م.س، ج٢، ص٣٧١.

(١١) محمد البروسوي، **أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك**، تحقيق المهدي عبد الرواضية، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ٢٠٠٦، ص ٦٠٠.

(١٢) أبو عبيد الله البكري، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر دوسلان، مطبعة الحكومة، الجزائر، ١٨٥٧، ص ١٥٥.

(١٣) أبو عبيد الله الزهري، **كتاب الجغرافيا**، اعتنى بتحقيقه محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية، بور السعيد الظاهر، بدون تاريخ، ص ١٢٥.

(١٤) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ١٤- ١٦؛ ابن زيدان، **إتحاف**، م.س، ج١، ص ٧٩.

(١٥) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٢٨.

(١٦) ابن زيدان، **إتحاف**، م.س، ج١، ص ٧٩. يراجع كذلك حول مياه هذه العين التقرير الطبي الذي أعدته سلطات إدارة الحماية بمكناس سنة ١٩١٤ والموجود ضمن وثائق بلدية مكناس، حيث خلص هذا التقرير إلى جودة ونقاء مياه عين تاجما وتميزها عن باقي العيون الاخرى بالمنطقة، وهو ما دفع الحماية الفرنسية بالمدينة إلى الاقتصار على مياه تلك العين في الشرب والسقي بدل العيون الأخرى.

(١٧) محمد اللحية، **محددات نشأة المدينة المغربية الوسيطية وتمدنها مدينة مكناس (٤٥٢ – ٦٤٥ هـ/ ١٠٦٠ – ١٢٤٧م)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية سايس-فاس، جامعة سيدي محمد بن عبد الله، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٦، مطبعة سايس كرافيك، فاس، ٢٠١١، ص ٣٤٤.

(١٨) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٢٨.

(١٩) **حوالة كبرى مكناس رقم ٥**، ص١٤٩.

(٢٠) **نفس المصدر**، ص ٢٩٧.

(٢١) اللحية، **محددات نشأة المدينة**، م.س، صص ٥٤-٦٠.

(٢٢) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ١٣-١٤؛ محمد المنوني، "مدائن مكناس القديمة من العصر الإدريسي إلى أواخر عصر الموحدين"، ضمن أعمال ندوة **الحاضرة الإسماعيلية**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- مكناس، جامعة سيدي محمد ابن عبد الله، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٨، ص ١٨٧.

(٢٣) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، م.س، ص ١٨٨.

(٢٤) شارل أندري جوليان، **تاريخ إفريقيا الشمالية**، تعريب محمد مزالي والبشير بن سلامة، الدار التونسية للنشر، تونس، ١٩٧٨، ج٢، ص ٣٠٣.

(٢٥) محمد بريان وحسن بنحليمة وعبد الله العوينة، **قراءة وتحليل الخريطة الطبوغرافية**، منشورات اللجنة الوطنية المغربية للجغرافية، الرباط، ١٩٨٢، ص ٢٥٣.

(٢٦) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٤٠.

(٢٧) ابن الخطيب، **نفاضة الجراب**، م.س، ج٢، ص ٣٧١.

(٢٨) الوزان الحسن الفاسي، **وصف إفريقيا**، ترجمه عن الفرنسية محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، ط٢، ١٩٨٣م، ج١، ص ٢١٤.

(٢٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م.س، ص ٢٤٤-٢٤٥.

(٣٠) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ١٤؛ الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م.س، ص ٢٤٥؛ الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج١، ص٢١٦.

(٣١) مؤلف مجهول، **الاستبصار**، م.س، ص ١٨٧.

(٣٢) اللحية محمد، **الحياة الاقتصادية بمدينة مكناس في القرن التاسع عشر ١٨٥٠-١٩١٢م**، دبلوم الدراسات العليا، كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، السنة الجامعية ١٩٨٣-١٩٨٤، ص ٢٦.

(٣٣) "الوضع القانوني لمياه واد بوفكران على عهد المولى إسماعيل"، ضمن أعمال ندوة **واد بوفكران: البيئة والتاريخ وأفاق التهيئة**، منشورات عمادة جامعة المولى إسماعيل مكناس، مطبعة فضالة، المحمدية، ١٩٩٦، ص ٩١.

(٣٤) بوشتى بوعسرية، **أحداث بوفكران بمكناس فاتح وثاني شتنبر ١٩٣٧**، دار المناهل، ١٩٩٠، ص ١٥٠- ١٨٩.

(٣٥) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م.س، ص ٢٤٤.

(٣٦) ابن سعيد المغربي، **كتاب الجغرافيا**، حققه ووضع مقدمته وعلق عليه إسماعيل العربي، منشورات المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، الطبعة ١، ١٩٧٠م، ص ١٤١.

(٣٧) الوزان، **وصف إفريقيا**، م.س، ج١، ص ٢١٤.

(٣٨) مارمول كربخال، **إفريقيا**، ترجمة محمد حجي ومحمد زنيبر ومحمد الاخضر وأحمد توفيق واحمد بنجلون، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٤، ج٢، ص ١٤٠.

(٣٩) الأسير مويط، **رحلة الأسير مويط**، ترجمه إلى العربية محمد حجي ومحمد الأخضر، مركز الدراسات والبحوث العلوية-الريصاني، دار المناهل، ١٩٩٠م، ص ٧٤.

(٤٠) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص٩.

(٤١) اللحية، **محددات نشأة المدينة**، م.س، ص ١٤.

(٤٢) القبلي (إشراف وتقديم)، **تاريخ المغرب**، م.س، ص ١٥.

(٤٣) الناصري أحمد بن خالد، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، ١٩٩٧م، ج٢، ص ٣٠؛ عبد الكريم الريفي، **زهر الأكم**، م.س، ص ٢٣٦.

(٤٤) الريفي، **زهر الأكم**، م.س، ص ٢٤٣.

(٤٥) محمد القبلي (**إشراف وتقديم**)، **تاريخ المغرب تحيين وتركيب، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، عكاظ الجديدة، الرباط، الطبعة الأولى**، ٢٠١١، ص ١٥.

(٤٦) محمد بريان وحسن بنحليمة وعبد الله العوينة، **قراءة وتحليل الخريطة الطبوغرافية**، م.س، ص ٢٤٥.

- Dresch (J), Gigout (M), Joly (F), Le Coz (J), Raynal (R), *Aspects de la géomorphologie du Maroc,* Note et Mémoire n° 96, Imprimerie Edita, Casablanca, 1952, pp 23-32.

(٤٧) ابن زيدان، **إتحاف**، م.س، ج١، صص ٨٠-٨١.

(48) Taghbaloute (A), *Le fellah Marocain L'Exemple d'une tribu berbère : Les beni m'tir du XIXe siècle jusqu'à nos jours*, Université de Saint-Etienne, Mai 1994, p 22.

(٤٩) **تقرير عن ماء واد بوفكران**، أرشيف نظارة اوقاف مكناس (بدون ترقيم)؛ بوعسرية، **أحداث بوفكران**، م.س، ص ٣٤.

- *« Le document sur les émeutes du 2 septembre 1937 à Meknès »*, C. A. D. N, n° 14MA / 250, p 2.

(٥٠) بوعسرية، **أحداث بوفكران**، م.س، ص ٤٥٥.

(٥١) وثيقة تحمل عنوان **"أصل الماء"** أرشيف نظارة اوقاف مكناس (بدون تصنيف أو ترقيم).

(٥٢) جدول تفصيلي حول صبيب واد بوفكران ما بين سنتي ١٩٤١-١٩٤٧م، أرشيف بلدية مكناس؛ إدريس الناصري، **ماء بوفكران الذي دفعت ثمنه الجماهير بمكناس بالدم أصبح ملوثا**، جريدة العلم، ١٥ أبريل ١٩٨٤م. مديرية الوثائق الملكية بالرباط، المحفظة رقم٧ تحت اسم "منوغرافية مكناس" سنة ١٣٣١-١٤٢٠هـ؛ بوعسرية، **أحداث بوفكران**، م.س، ص ٣٩.

(٥٣) **نفس المرجع** الأخير ونفس الصفحة.

(٥٤) أنظر على سبيل المثال:

- أحمد التوفيق، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (اينولتان ١٨٥٠-١٩١٢)**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسة رسائل وأطروحات رقم ٦٣، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، الطبعة الثالثة، ٢٠١١، ص ٩٥؛ ولنفس الباحث مقاله: "حول معنى اسم مراكش"، ضمن **مراكش التأسيس والتسمية: دراسات ونصوص تاريخية**، جمع وتنسيق عبد القادر عرابي، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ٢٠١٤م، ص ٢٥-٢٩.
- علي المحمدي، **السلطة والمجتمع في المغرب نموذج أيت باعمران**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة أبي رقراق، الرباط، ط ١، ٢٠١٤م، ص ١١-١٧.
- محمد حنداين، **المخزن وسوس (١٦٧٢-١٨٢٢م): مساهمة في دراسة تاريخ علاقة الدولة بالجهة**، دار أبي رقراق، الرباط، ط٢، ٢٠١٩م، ص ٤٩-٥١.
- عبد الرحمن المودن، **البوادي المغربية قبل الاستعمار: قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ١٩٩٥، ص١٤٦-١٥٢.
- جاك بيرك، "في مدلول "القبيلة" بشمال إفريقيا"، ضمن كتاب **الانتروبولوجيا والتاريخ حالة المغرب العربي**، ترجمة عبد الأحد السبتي وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، ط٢، ٢٠٠٧م، ص ١١٣-١٢٥.

- BERQUE (J), *Structures sociales du haut-atlas*, Imprimerie des Presses Universitaires de France, 1(re) Edition, 1955 , pp 3-11.

(٥٥) محمد البركة، "الطوبونيميا بالغرب الإسلامي مقدمات في الفهم"، ضمن **الطوبونيمبا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية مقدمات في الفهم والمنهج والعلائق**، أفريقيا الشرق، الدر البيضاء، ٢٠١٢م، ص١٧-١٩.

(٥٦) أيت أومغار، **الماء في المغرب القديم**، م.س، ص ٤١-٤٥.

(٥٧) المحمدي، **السلطة والمجتمع**، م.س، ص ١٢.

(٥٨) اللحية، **الوضع القانوني لمياه بوفكران**، م.س، هامش صفحة ٨٣ ومتن الصفحة ٩٠؛ بوعسرية، **أحداث بوفكران**، م.س، ص٣٤.

- TERRASSE (H , Ville impériales du Maroc, Dar al aman, Rabat, 2016, p131.

(٥٩) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٨.

(٦٠) ابن زيدان، **إتحاف**، م.س، ج١، ص ٨٠.

(٦١) حيمر جمال، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث: دراسة في التاريخ السياسي والعمراني**، دار أبي رقراق، ط١، ٢٠٠٦، هامش الصفحة ٥٢.

(٦٢) محمد اللحية، "الوضع القانوني"، م.س، هامش صفحة ٨٣.

(٦٣) عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة ومراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠م، ج٧، ص٥٠-٥٣.

(٦٤) اللحية، **الوضع القانوني**، م.س، هامش صفحة ٨٣.

(65) - TERRASSE (H), *Ville impériales du Maroc*, Op. cité, p131.

(٦٦) أحمد بن محمد ابن عذاري، **البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف ومحمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط١، ٢٠١٣م، المجلد ١، ص ٢٧٢-٢٧٣ وص ٢٧٩ وص ٢٨١؛ عبد الرحمن بن خلدون، **العبر وديوان المبتدأ والخبر**، م.س، ص٥٠-٥٣.

(٦٧) ابن زيدان، **إتحاف**، م.س، ج١، ص ٤٦.

(٦٨) أبو الخير الإشبيلي، **عمدة الطبيب في معرفة النبات**، قدّم له وحققه محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط١، ١٩٩٥م، ص ٤٧٦.

(٦٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م.س، ص245 .

(٧٠) اللحية، **محددات نشأة المدينة**، م.س، ص ٥٢.

(٧١) محمد اللحية، "تاورا"، ضمن **معلمة المغرب**، مطابع سلا، ١٩٩٥م، ج٧، ص ١٩٩٥.

(٧٢) عبد الواحد المراكشي، **وثائق المرابطين والموحدين**، تحقيق حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد- الظاهر، ط١، ١٩٩٧م، ص ٢٩٥.

(٧٣) البكري أبو عبيد الله، **المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب**، جزء من كتاب المسالك والممالك، نشر دوسلان، مطبعة الحكومة، الجزائر، ص ١٣٢ وص١٥٥.

(٧٤) حيمر، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م.س، ص ٦٢؛ اللحية، **محددات نشأة المدينة**، م.س، ص ٣٣.

- TERRASSE (H), *Ville impériales du Maroc*, Op. cité, p 129.

(٧٥) لم يستعمل الإدريسي لفظ "فلفل" في سياق وصفه للمستقرات المكناسية القديمة وإنما اكتفى بالقول بأنه نهر كبير يأتي من جنوب حارة "تاورا". الإدريسي، **نزهة المشتاق**، م.س، ص ٢٤٤. كما أن صاحب الاستبصار لم يذكر اسم الواد واكتفى هو أيضا بالإشارة إليه في سياق حديثه عن البحائر الموحدية بالمدينة حيث قال "وجلب ماء نهرها". مؤلف مجهول، **الاستبصار**، م.س، ص ١٨٧.

(٧٦) ابن سعيد، **كتاب الجغرافيا**، م.س، ص ١٤١.

(٧٧) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٨.

(٧٨) محمد المنوني، **وثائق ونصوص عن أبي الحسن علي بن منون وذريته**، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٧٦م، ص ٦٦.

(٧٩) **نفس المرجع**، ص ٨.

(٨٠) الفيروز آبادي مجد الدين، **القاموس المحيط**، تحقيق مكتب التراث، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، ط٨، ٢٠٠٥، صص ٤٤٤-٤٤٥.

(٨١) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٣٢.

(٨٢) اللحية، **الوضع القانوني لمياه بوفكران**، م.س، هامش الصفحة ٨٣.

(٨٣) الراغب الأصفهاني، **المفردات في غريب القرآن**، دار القلم، بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ص ٥٧.

(٨٤) ابن غازي، **الروض الهتون**، ص ٣٢.

(٨٥) حيمر، **مكناس من التأسيس إلى مطلع العصر الحديث**، م.س، ص ٢٢٢؛ اللحية، **الحياة الاقتصادية**، م.س، ص ١٩.

(٨٦) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٢٨.

(٨٧) اللحية، **محددات نشأة المدينة**، م.س، ص ٣٥٣.

(٨٨) ابن غازي، **الروض الهتون**، م.س، ص ٢٨.

(٨٩) اللحية، **محددات نشأة المدينة**، ص ٢٤٩.

(٩٠) أبو عبد الله محمد اللواتي (ابن بطوطة)، **تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار**، تقديم وتحقيق محمد عبد المنعم العريان، دار إحياء العلوم، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٧م، ج٢، ص ٦٨٦.

(٩١) مجهول، **الاستبصار**، م.س، ص١٨٧.

(٩٢) **حوالة أحباس كبرى مكناس رقم ٥**، ص ٢٩٧.

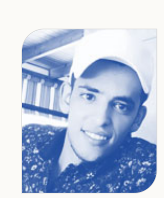
(٩٣) بوعسرية، **أحداث بوفكران**، م.س، ص ٣٤.

(٩٤) اللحية، **الوضع القانوني**، م.س، صص ٩٠-٩١.

(٩٥) محمد شفيق، **الدارجة المغربية مجال توارد بين الأمازيغية والعربية**، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٩١م، ص ٧٩.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

أسيف المال
الموقع وأصل التسمية



شرف أزناك
أستاذ التعليم الثانوي بأكاديمية جهة مراكش
باحث دكتوراه بكلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة القاضي عياض -المملكة المغربية

مُلَخّصْ
يندرج موضوع أسيف المال: الموقع وأصل التسمية، ضمن الدراسات الثقافية والاجتماعية في معناها الجامع والشامل، والتي لقيت في الفترة الأخيرة عناية كبيرة من الباحثين وأعطت للبحث التاريخي صبغة الشمولية وفتحت أفقًا إضافية للتأويل والتفسير، وأزالت القيود والرؤى وبعض رواسب الكتابة التاريخية التقليدية التي كانت مهيمنة عليه. إن محور هذه الدراسة وركيزتها الأساس هو محاولة تتبع وإيجاد معنى لبعض أسماء الأعلام المكانية والوقوف عند حجم التبدل والدينامية الذي طال الثقافة والإنسان في هذه الرقعة الجغرافية، فالانفتاح الجغرافي والسياسي والمزج الفكري والتجاري أدت إلى حدوث تبادل ثقافي ارتسمت معالمها على أسماء أعلامه فجسدت بذلك دور المرآة العاكسة لثقافة المجموعة البشرية التي تستقر هذا المجال. وقد توصلت الدراسة إلى أن الأعلام المكانية والبشرية جزء من التاريخ العام للمغرب وشاهد من شواهد الأمة وأصلها وهوية أرضها، مما يفرض علينا الإسراع والجد في توثيقها والتكثيف من هذه العملية، لأن ذلك كله معرض للضياع، والحفاظ عليها واجب وأداء لأمانة الأجيال الماضية إلى الأجيال الصاعدة، فحجم التحول الذي طال الثقافة والمجتمع تحت ضغوط العولمة والتخلف ومتطلبات التنمية، في هذه المنطقة وغيرها من المناطق المغربية على حد سواء بفعل الانفتاح الجغرافي والسياسي وعمليات التواصل الفكري والتجاري مع بقية المناطق والأجناس، أدت إلى وقوع تبادل حضاري ثقافي بين المنطقة والمناطق الأخرى.

بيانات الدراسة:
تاريخ استلام البحث: ٠٣ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٠٤ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
أسيف المال؛ الأطلس الكبير الغربي؛ الطوبونيميا؛ الجبال المغربية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.253204 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:
شرف أزناك. "أسيف المال: الموقع وأصل التسمية" بمجال مكناسة الزيتون".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٥٤ – ٧٠.

Corresponding author: aznague77gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تشكل الجبال المغربية- لا سيما جبال الأطلس- خطا لتقسيم المياه[١]، وخزانا لمياه الأمطار والثلوج التي تضمن وتحقق الجريان المائي خلال فصل الصيف والسنوا ت الجافة، بفضل بنيتها المتميزة والمغذية لأودية طويلة، وموزعة على مختلف الجهات، كما تلعب دورًا حيويًا في تحريك وديمومة الأنشطة الزراعية للسكان، بفضل تزويدها السهول المجاورة بمواد فيضية غنية، وبتوفيرها إمكانيات للسقي، ولا سيما في الجنوب، حيث الاعتماد شبه كلي على الأودية، فأهل ماسة مثلا حسب شهادة الوزان، لا يحرثون أرضهم إلا "عندما يفيض النهر خلال شتنبر وآخر أبريل...، وإذا لم يحدث فيضان في أي أحد هذين الشهرين انعدمت الغلة تلك السنة"[٢]، إنها خصائص ومميزات الوسط الطبيعي، والتي تعتبر من أهم عناصر المقاربة الطبيعية التي لا يمكن الاستغناء عنها، في فهم الدينامية التي يعرفها مجال ما، ومنها مجال أسيف المال.

أولاً: مجال أسيف المال: الموقع وإشكالية الحدود

١/١-أسيف المال: الموقع

ينتمي مجال أسيف المال جغرافيا وفلكيا، إلى الناحية والجزء الشمالي الغربي لأطلس مراكش[٣]، بين خطي طول ''8°28'00 و''8°33'00 غرب خط غرينتش، وبين دائرتي عرض ''31°4'30 و''31°5'30 شمال خط الاستواء، يحده من الناحية الشمالية مخرج واد أسيف المال، ومن الجنوب والشرق حوض نفيس، وحوض سكساوة غربًا[٤]، يحتل وادي أسيف المال موقعا هاما ضمن أودية الأطلس الكبير الغربي لإقليم شيشاوة[٥]، وهو واد أخذت منابعه من أعلى الأطلس وصنع لنفسه أحواضا واسعة داخلية ومضايق قبل أن يتوسع مجراه عند بلوغه منطقة الدير على مشارف قرية سيدي بوعثمان[٦].

٢/١-أسيف المال: إشكالية الحدود:[٧]

امتاز المجال الجغرافي عبر التاريخ بالتغيير الشديد، بل إننا في الكثير من المراحل التاريخية نجد أنفسنا أمام وحدة جغرافية جديدة لمجال أسيف المال ومحيطه القبلي، ينضاف إلى ذلك التركيبة القبيلة المشكلة للمجال والتي تميزت بتغير واسع حسب كل ظرفية تاريخية ومتغيراتها [٨]، لهذا يجب قبل الخوض في مناقشة مسألة الحدود والمجال الجغرافي التنويه إلى أمرين يجب أخذهما بعين الاعتبار، أثناء رسم هذه الحدود:

الأمر الأول: ذو بعد ثقافي حضاري له ارتباط بالشروط الاجتماعية والثقافية، وهو ما عملت السلطة المركزية قدر الإمكان وحسب قوتها إخفاء الانتماء الجغرافي في إطار الوحدة الأم.

الأمر الثاني: له ارتباط بالناحية السياسية، حيث حاولت السلطة المركزية تجاوز التنظيمات السياسية المحلية، والمنتخبة محليا، إلى تعيين ولاة ذات علاقة مباشرة بالمركز وبمرجعيته.

لذلك يجب الأخذ بهذين المعطيين في أدق التفاصيل السياسية والجغرافية وحتى الثقافية للوصول إلى استنتاج، يمكن أن نتحدث من خلالها عن إطار جغرافي مُركز لمجال أسيف المال ومحيطه القبلي، إذن كيف يمكن أن نرسم حدود المجال في ظل وحدة سياسية محت الحدود التقليدية وحتى الجغرافية المتعارف عليها تاريخيا؟ هل يمكن أن نعتمد الحدود التي وصفها الجغرافيون قبل وبعد وصول المرابطين وتأسيس مراكش التي شكلت منعطفا تاريخيا بالمنطقة؟ أم نعتمد على الحدود التي كانت مع الدولة الموحدية؟ أم نحاول المزج بين الحدود المتعارف عليها قديما وحديثا باعتبار وجود وحدة حقيقية – المصامدة- وتقسيم افتراضي فقط؟

إنها إشكالات منهجية يطرحها مسألة تحديد المجال الجغرافي، والذي خضع طيلة الحقب التاريخية الممتدة القديمة والمعاصرة لتحولات عميقة، أدت إلى خلخلة الحدود السياسية، والتي أصبحت تتوسع وتتكمش تبعا وطبقًا للمتغيرات السياسية[٩].

٣/١-أسيف المال: المجال بين الامتداد والتقلص

يميز الباحثون في التاريخ القديم للمغرب عامة في الغالب بين لحظتين أساسيتين أثناء حديثهم عن قضية الحدود هما: المرحلة المورية والمرحلة الرومانية[١٠]، فهم يتفقون على أن نهر مولوشا (نهر ملوية) كان الحد الشرقي الطبيعي للملكة المورية، أما الحد الشمالي فتمثل في الحاجز البحري المسمى أعمدة هرقل (مضيق

جبل طارق)، وتجلت الحدود الغربية يقينا في المحيط الأطلتني[١١]، أما بخصوص الحدود الجنوبية فلم تحظ بالإجماع والاتفاق نفسه بين الباحثين، لعدم وضوحها وتضارب الإشارات المصدرية المستند عليها في تحديد المملكة المورية، فهناك من اكتفى بجبال الأطلس كحد جنوبي[١٢]، وهناك من اقترح توسيع الحدود لتشمل الأطلس الصغير[١٣]، إنها إشكالات عويصة جدًا يظهر أثرها في تحديد المؤثرات الثقافية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية بين أطراف المجال في كيفية استغلاله وتدبيره، ومنها الموارد المائية والتقنيات المعتمدة بغرض التأصيل لها، وإبراز حدود التداخل والتصادم والتثاقف بين الشعوب والحضارات.

وهو المعطى نفسه نجتره بخصوص الفترات والحقب والعصور الأخرى، فالجغرافيين المسلمين القدامى [١٤] أثناء دراستهم للمغرب الإسلامي كانوا يصفون المجال على امتداده من طنجة إلى برقة، فهذا ابن حوقل[١٥] يقول عند حديثه عن جملة المدن والمراسي والقرى المعروفة على نحو البحر المحيط مما انتهى إليه وأدركه بالعيان "أن الغالب على ما واجه هذا البحر من أرض مصر إلى نواحي عمل افريقية البراري والمفاوز التي بين بلاد السودان وأرض المغرب، وفي أطرافها سكان من البربر، وفي قلب البر أيضًا مياه عليها قوم منهم، وأما ما حاذى أرض أفريقية إلى أخر أعمال طنجة من مرحلة إلى عشر مراحل فزائد أو ناقص فبلاد مسكونة ومدن متصلة الرساتيق والمزارع والضياع والمياه والولاة والسلاطين والملوك والحكام والفقهاء، وكل ذلك في جملة صاحب بلاد المغرب وحوزته...، وما عداه منه وأوغل في براري سجلماسة، واودغشت ونواحي لمطة وتادمكة إلى جنوب نواحي فزان ففيه مياه عليها قبائل من البربر المهملين، الذين لا يعرفون الطعام ولا رأوا الحنطة ولا الشعير ولا شيئا من الحبوب"[١٦] .

والمغزى من إيراد هذا النص هو أن تتبع المجالات الجغرافية مع عدم توفر حدود لا يسمح بوضع صورة عن امتداد المجال وتقلصه، عن القبائل الأصلية والطارئة، وعن تاريخ التعمير وإشكالية الأصل، عن القبائل الرعوية والزراعية وعن أساليب الهيمنة والتخلي، عن البناء والدمار، عن التساكن والتصادم وعن...، وما لذلك من أثر في تسمية الأعلام المكانية باعتبارها ذاكرة ناطقة بكل أوجه الثنائيات السابقة.

ويبدو للمتتبع للمجال خلال الفترة التي حكمت فيها الدول الثلاثة المرابطين والموحدين والمرينيين من (القرن ٥هـ، إلى بداية القرن ٩ هـ) أن ثمة تغيرات وتحولات كثيرة عرفها المجال[١٧]، سواء على مستوى الحركات البشرية التي قامت بها العصبيات القبلية التي حكمت المجال وعمرت مجالات عديدة، وعملت على تهجير السكان، سواء أثناء نزوح القبائل الصنهاجية من الجنوب نحو الشمال والاستقرار فيه وكذا التحركات القبلية المصمودية التي عملت على استئصال العنصر الصنهاجي من الحواضر التي عمرتها وطرد العناصر البورغواطية من أماكنهم الأصلية وتعويضهم بقبائل عربية[١٨]. وهذا ما جعل الباحث محمد القبلي: يخلص إلى أن " التطور الدقيق الذي طرأ على وضع المجال من حيث، أنه لم يعد كله رهن تصرف المجموعات الساكنة الأصلية، كما كان الشأن حتى أيام المرابطين، وإنما أصبح للحكم المركزي المتصاعد أيام الموحدين الأوائل على الخصوص أثر حاسم في توظيفه مع كل ما يتضمنه التوظيف من توزيع وتعمير وترحيل واحتواء مؤقت أو تملك نهائي مشروع"[١٩].

ومن النتائج التي ترتب عن هذا الوضع "أن خريطة الساكنة بالمجال قد تأثرت كثيرا من جراء حركات الهجرة وعمليات التهجير التي أعقبت مباشرة قيام كل من الدولتين الموحدية والمرينية، ولعل من أبرز ما احتفظت به الخريطة ذاتها أنها سجلت ظهور القبائل الرعوية الزناتية بالسهول"[٢٠]. فما سجلته المصادر خلال الفترة المرابطية، لا يسمح بالمطلق تحديد الحيز الجغرافي الذي تشغله القبائل، فابن أبي زرع يقول عن التقسيم الذي شرع فيه يوسف بن تاشفين خلال استقراره بمدينة مراكش ما يلي:" وفيها فرق عماله على المغرب، فولى سير بن أبي بكر مدائن مكناسة وبلاد مكلاتة، وبلاد فزاز، وولى عمر بن سليمان فاس وأحوازها، وولى داوود بن عائشة سجلماسة ودرعة، وولى ولده تميما مدينتي أغمات ومراكش وبلاد السوس وسائر بلاد المصامدة وبلاد تادلة وبلاد تامسنا"[٢١].

والملاحظ من خلال هذا النص أن المجال المصمودي عامة، وهو مجال شاسع، انفرد به عامل واحد، هو تميم ابن الأمير يوسف بن تاشفين. فهل يكون لاستقرار عناصر من العصبية الحاكمة أثر في التخفيف من حدة شوكة هذه القبائل التي انفرد بها شخص واحد؟

إننا لا نعدم إشارات في كون الهاجس الأمني حاضر في هذا الاختيار، منها قول عبد الواحد المراكشي: "ولم يتخذ لمتونة مدينة مراكش وطنا، ولا جعلوها درا مملكة، لأنها خير من مدينة فاس في شيء من الأشياء، ولكن لقرب مراكش من جبال المصامدة وصحراء لمتونة، فلهذا السبب كانت مراكش كرسي المملكة، وإلا فمدينة فاس أحق بذلك"[٢٢]، وتظهر رغبة المرابطين في إحكام الطوق على مصمودة بوضوح من خلال رواية صاحب "الاستبصار" التي جاء فيها، "وإنما بناها واضعها ليملك منها جبل درن لكثرة من يعمره"[٢٣]، والمعطى نفسه يؤكده ابن خلدون بقوله: "وجعل يوسف مدينة مراكش لنزله، ولعسكره، وللتمرس بقبائل المصامدة المضيفة بمواطنهم بها في جبل درن، فلم يكن في قبائل المغرب أشد منهم ولا أكثر جمعًا". [٢٤]

يظهر من خلال هذه النصوص المقدمة أعلاه، أن التقسيم المرابطي للمجال كان مبنيًا على هاجس أمني واضح، وعلى الرغبة في البقاء على اتصال مباشر بموطنهم الأصلي.

وبخصوص العهد الموحدي، نقرأ عند صاحب كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب"، مايلي " صودة الجبل وهم فخذان ونغاسة أو نغاسة معا، بنو تطيت معا، ماغوسة ابن ماغوس معا ولصيفة اين تلصفين معا، بنو ماوس ايت اوماوس معا، بنو يكم ايت يكم معا، بنو عيسى ايت عيسى معا، ورصيفه ايند ورصيف معا"[٢٥]. أما ابن الزيات التادلي فبدوره نحا نحو البيدق، حين رجع لأحد صوفية المنطقة، فلم يحدث تغييرا في مستوى رسم الموطن فكتب " ومنهم أبو عبد الله مالك بن مروان اللجوسي الضرير مات بتصرداخت من بلد صودة "[٢٦]. فإذا تمعنا جيدًا في هذا كله ندرك أن حدود صودة " مزوضة" يدخل ضمنها " ونغاسة"، من صودة الجبل، علما أن "ونغاسة" هي بقبيلة كدميوة حاليا، أما ابن الزيات فقد أدرج بدوره " تازرداخت" التي هي اليوم بتراب كماسة (فروكة)، بقبيلة مزوضة، مما يفيد امتداد المجال الجغرافي لقبيلة مزوضة خلال هذه المرحلة، وبه نتساءل.

هل كان لهذا الامتداد أثر في رسم بعض الأعلام المكانية بالمنطقة ومنها "أسيف المال"؟ ولهذا الطرح ما يبرره من حيث طبوغرافية " أسيف المال"، وبالتالي ألا يمكن القول إن أهل "صودة" (مزوضة) هم من أطلقوا هذا الاسم على الواد؟

والملاحظ أن الحسن الوزان، قسم المغرب إلى مملكتين، مملكة فاس ومملكة مراكش، وبالنسبة للأخيرة فهي تتكون من سبعة أقاليم؛ هي: "حاحا، والسوس، ومراكش، وجزولة، ودكالة، وهسكورة، وتادلة"[٢٧]، وقد اقتفى أثره في ذلك مارمول كربخال[٢٨]، رغم تغير الظرفية الزمنية بين كل مؤلف، وتبتدئ هذه الناحية "غربًا من جبل نفيفة، وتمتد شرقًا إلى جبل أنماي، ثم تنحدر نحو الشمال إلى قرب وادي تانسيفت لتنتهي في ملتقى هذا مع وادي أسيف أنوال، حيث تبتدئ بلاد حاحة شرقًا وتشكل هذه الناحية شبه مثلث" [٢٩].

إن أبرز ملاحظة يمكن تسجيلها عن معظم الأقاليم المكونة لمملكة مراكش بأسماء القبائل المستوطنة بها، بخلاف إقليم مراكش الذي سمي باسم المدينة التي تتوسطه، ولا شك أن هذا يدل على الدور المحوري الذي لعبته مراكش، داخل إقليمها، ولا يدل بحال من الأحوال على الانصهار التام للقبائل المستوطنة بالمجال في النسيج البشري المشكل للمدينة الطارئة عليه. لعل هذا الاستنتاج الذي توقفنا عنده له ما يبرره، فالمجهول البرتغالي ذكر أن "فروكة ليس بها إلا أهل البلد"[٣٠].

وبروز "فروكة" كقوة سياسية في المنطقة، يعود إلى هذه المرحلة وما بعدها بقليل، وبالتحديد خلال حقبة المولى إسماعيل، وهذا ما يستشف من خلال الكنز الموسوم "برحلة الوافد"، "لأن الشيخ عبد الواسع الفروكي، مع قبيلته لا تجري عليهم أحكام الباشا عبد الكريم لكونهم، أصهار الملك من جارية يقال لها زبيدة"[٣١]، والدور الذي لعبته في التضييق على قبائل المنطقة، حيث " رمى على القبائل، رجالا صحاحا دون الأشيب، و أما من فيه الشيب فلا، كأنه أراد الغزو في بر

الكفر أو قطع فيافي الصحراء، أو ملاقاة جيش الأبور، ومثل هذا الاستعداد لا يغزو به أحد في المسلمين"[٣٢].

ويبدو من خلال الوصف الذي تركته البعثة الإسبانية إلى مراكش، أن رسم الحدود بين مجلات القبائل المشكلة لمجال الدراسة، بدأ يتجه نحو الشكل المتعارف عليه الآن، وهذا نصه " في الساعة التاسعة ثم عبور وادي بولخرس، وعلى مقربة من الوادي جاء زهاء خمسة الآلف رجل من مشاة وخيالة من القبائل، المجاورة، ونزلوا من الجبال التي يسكنونها للترحيب بمبعوث جلالة ملكة إسبانيا"[٣٣]، ويتعلق الأمر " بقبائل أربع، قبيلة مطياطة وكركورة، ومزميزة ومزوضة، وعلى كل رأس منهما حاكمها أو باشا وهم على التوالي، القائد عثمان المطياني، والحاج بران الكركوري، والقائد عمر المزميزي، والقائد المزوضي "[٣٤].

لذلك أمكن القول بأن اسم وحدود مجال الدراسة يشكل قضية مركزية تحتاج إلى مجهود علمي استثنائي[٣٥]، كما أن التراكم المحدث حاليًا يكاد يكون قد رسم رواية تنظر إلى المجال باعتباره وحدة حضارية لا تمايز داخلها، ي فكان أن أفرز هذا الأمر نزوعا نحو التعميم والإسقاط لقضايا تهم مناطق على باقي المجال، فالاستناد على سيادة مقومات وخصائص ثقافية متشابهة، يتضمن اختزالا قد يرهن مستقبل البحث العلمي بالمجال، ويحسم مقدما في نتائجه، بالنظر للحسم الموجود في المنطلقات، فبالرغم من وحدة المقومات الحضارية للمنطقة، فقد استبطن هذا المجال تمايزات كبيرة بين مناطقه، إذ يعكس البحث في مظاهر هذه الاختلافات القائمة هذه المناطق أهمية العوامل التاريخية والطبيعية في وسم كل مجال بخصوصية معينة، شكلت الإطار الذي ستنتظم داخله البنيات المختلفة.

وعلى العموم تبقى المسألة كلها نسبية باعتبار مختلف الشروط المحيطة من سياسة واقتصاد وتاريخ، وكلها تتداخل في تحديد ورسم معالم منطقة أسيف المال ومحيطه القبلي الجغرافية، كما يمكن الوصول إلى نتيجة، وهي أن خضوع المنطقة لسلطة سياسية قوية سمح بالاستقرار وكسب قدر ممكن من المساحة تستجيب للحاجيات وتضمن المسالمة مع الجيران، نظرا لطبيعة السلطة عسكريًا والحدود المفتوحة اقتصاديًا.

ثانيًا: أسيف المال: الاسم ومحاولة التأصيل

تُعَدّ الأعلام المكانية[٣٦] عنصرًا أساسيًا من عنصر الثقافة المجتمعية[٣٧]، فهي تضم بين ثناياها أبعادًا عديدة، خاصة وأنها أطلقت من قبل مجتمع ما في زمن محدد، وعلى مكان معين، فالحديث عن هذه الأعلام هو حديث عن تركيبة كلية لكل من الزمان والمكان والحدث، الذي يتبلور لينشأ لنا اسما، إذا ما وضعناه مع أنساقه، يمكن أن يسهم في فك عدة ألغاز معرفية، كما تعد الأعلام الجغرافية مصدرا هاما للبحث في تاريخ الأمم وثقافاتها وتفاعلاتها مع غيرها من الحضارات، إذ أن من طبيعة أسماء الأماكن أن تتحجر وتقاوم عوادي الزمان، فتظل شاهدة على المحيط البيئي والثقافي الذي أفرزها، ولا تكاد تتغير أو تندثر إلا نادرًا [٣٨].

كما تشكل أسماء الأعلام جزءا مهما في القاموس اللغوي التواصلي بين البشر، فلا تنقطع حاجة الإنسان إليها لطبعه الاجتماعي وكونه كائنا يعيش في أسر وجماعات متفاوتة الأفراد والأعداد، يحتاج أن يدل عليها وأن يتعرف ويمايز بينها[٣٩]، فعملية إكساب المكان اسما معينا هو نوع من الاعتراف بوجوده وإيذانا بمقبوليته في الجماعة، تمهيدا لإدماجه كعنصر معبر عن هوية هذه الجماعة، وهذا يجعل من التسمية تتجاوز مسألة اعتبارها مجرد ترف فكري أو دعة عقلية، بقدر ما هي ضرورة تدعوا إليها مقتضيات الاجتماع البشري، إذ يبدوا أن غيابها سيدخل المجتمع في حرج حقيقي من شأنه أن يعصف بالفعل التواصلي من أساسه[٤٠].

ودراسة الأعلام المكانية، والبحث في دلالاتها يعتبر وسيلة أساسية من وسائل البحث في ثقافة مجتمع معين [٤١]، ومصدر آخر من مصادر التأريخ، فالأعلام المكانية تختزن مجموعة من المعطيات التي تفيد مختلف مراحل البحث التاريخ، فإذا اقتنعنا بأن اسما أطلق في فترة زمنية معينة على مجال محدد، من قبل مجتمع ما، فإن هذا يدفعنا إلى اعتبار تشكل العلم المكاني من ثلاثة أبعاد رئيسية: الزمان والمجال والمجتمع، وهي الأبعاد

نفسها التي يعتمد عليها المؤرخ، وبذلك فإن هناك نقط التقاء بين الباحث في الطوبونيميا والمؤرخ [٤٢]، وقد أحسن جاك بيرك التعبير عن أهمية الأسماء عندما قال: "في حياة الكلمات يكمن قسط من تاريخ ومورفولوجية المجموعات"[٤٣].

إن أهمية الدراسة الطوبونيمية تتجلى في، كون الأعلام المكانية تحمل في طياتها دلالات متنوعة، فهي تشير في بعض الأحيان إلى طبيعة المكان من حيث وضعه الطبوغرافي أو الهيدرولوجي أو الجيولوجي [٤٤]، وتشير في أحيان أخرى إلى فترة من الفترات التاريخية التي مر بها الموقع، وإلى بعض الظروف التي الاجتماعية وحتى بعض القضايا التي تتصل بالعقيدة[٤٥].

والبحث في الأسماء القديمة للأمكنة أمر صعب من عدة أوجه[٤٦]:

- أولها غياب عملية التدوين المحلي، المواكب لخطوة اختيار الاسم وتداوله، عملية نرى أنه بمكانها إن وجدت أن تحيل أسماء الأماكن إلى أصولها وأسباب اختيارها، لذا يكون البحث عن الأعلام الجغرافية في الوثائق والمصادر خطوة أولى لتحديد ظرفية ظهور الأسماء، والتذكير بمعانيها وأسباب تسميتها في سياقها الأصلي أو التقرب منه[٤٧].
- أن عملية التدوين البعدية لأسماء الأماكن ضمن نصوص مختلفة، جعلها تخضع لسياق زمان تدوينها [٤٨].
- أن وجود اسم المكان مع تداوله أو ضعف تداوله يرجع إلى قربه أو بعده من اللسان المحلي للساكنة المكان خلال أزمنة مختلفة.

وهذا يوضح أن اسم المكان قد تختلف أصوله اللغوية مرات عديدة عبر العصور والحقب التاريخية[٤٩]، مما يعطي للاسم صعوبة في الضبط وتعددا في الاحتمالات الواردة لمعناه وهو أمر لا يكون منضبطا إلا عند الإلمام باللغات المتعاقبة على المكان، مادام أن اسم المكان له مرجعية لغوية في المبتدأ والمنتهى، ومثل هذه الارتباطات الإيحائية والدلالية لأسماء الأعلام تجعل من مهمة دراسة الاسم والعمل على الحفر في مخزوناته الثقافية والهوياتية أمر فيه الكثير من الصعوبة، فليس من السهل قراءة الاسم والوقوف على جميع خباياه، فقد ينفتح على نفسه فيصبح مادة حية تفصح عن قضايا اجتماعية وثقافية معلومة، وقد ينغلق على نفسه فتجمد وتعسر معه كل طرق الاستقراء والمسائلة، فيصبح تفكيكه مغامرة صعبة ومعقدة، فنخطئ أحيانا في التحليل ونحمل الاسم ما لا يحتمل من دلالات وتأويلات وقيم، وقد يحدث أحيانا أخرى أن يكون التأويل متعسفا لمنطق الأسماء يصعب ربطها بأي أصل لغوي[٥٠].

وقبل محاولة تأصيل لاسم " أسيف ن مال"، هناك تساؤلات ترقى أحيانًا لمستوى الإشكاليات، تفرض نفسها كلما أثير الحديث عن الأعلام الجغرافية، خاصة وأن موقع المنطقة البيني كممر بين مجالات متباينة، يجعل من أمر ضبط الاسم تاريخيا من أعوص المهام.

فهل كانت هناك أسماء للمكان قبل قدوم أول وافد على المنطقة منذ غابر العصور؟

وما الروافد اللغوية التي استقى منه هذا الاسم معناه؟

وهل ارتبطت هذه الروافد بثقافات معينة مؤثرة أو غير مؤثرة؟

يعتقد أن مثل هذه الأسماء، عرفت في غالب الفترات نوعا من التحريف عند تعريبها[٥١]، أو عند استنساخها[٥٢]، وهذه الأسباب حتمت على المهتمين البحث والتنقيب عن المعلومات إما ميدانيًا، أو إعادة قراءة الكتابات التاريخية كما فعل لفي بروفنصال حين وضع خريطة لقبائل جنوب مراكش خلال القرن الثاني عشر حين قام بإخراج كتاب أخبار المهدي ابن تومرت[٥٣]، وكتاب الأنساب في معرفة الأصحاب [٥٤] لمؤلفهما البيدق[٥٥]، إذ ورد فيه اسم قبيلة مزوضة بـ "صودة" فالشيء نفسه سلكه أحمد التوفيق حين وضع خريطة خصصها لأماكن دفن رجالات التصوف في كتاب التشوف ولمواقع البلدان وموطن القبائل المذكورة فيه[٥٦].

نقرأ عند صاحب كتاب "المقتبس من كتاب الأنساب"، مايلي "صودة الجبل وهم فخذان ونغاسة أو نغاسة معا، بنو تطيت معا، ماغوسة ابن ماغوس معا ولصيفة ابن تلصفين معا، بنو ماوس ايت اوماوس معا، بنو يكم ايت يكم معا، بنو عيسى ايت عيسى معا، ورصيفه ايند ورصيف معا"[٥٧].

وبخصوص صاحب «العبر" ابن خلدون، فقد رسم لاسم "مزوضة" رسما آخر عند حديثه عن المصامدة بالقول:" وقبائل هؤلاء بهذه المواطن كثيرة فمنهم: هرغة وتينملل وكدميوية وكنفيسة ووريكة وركراكة وهزميرة ودكالة وحاحة وأصادن...، ومن بطون أصادن مصفاوة وماغوس"[٥٨]، ويبدو والظاهر على وصف ابن خلدون أن ماغوس هي "مغوسة"[٥٩] الآن المتواجدة ضمن مجال نفود جماعة أداسيل[٦٠] بعالية أسيف المال عند ملتقى وادي نوسكتان وواد أيت غاير[٦١]، لكن هذا الأخير أدرج كذلك اسم مصفاوة وهي تسمية لقبيلة مسفيوة حسب أحد الباحثين[٦٢] ضمن قبيلة مزوضة وكإحدى بطونها، مما يثير العديد من الأسئلة يستعصي معها الحسم في الجواب، فهل اختلط الأمر على ابن خلدون حول موطن القبائل وتركيبتها من البطون والأفخاذ والرسم والتسمية وهو الذي لم تطأ قدمه يوما مجال مراكش؟ أم أن المجال كان تابعا لمزوضة؟ أم أن الأمر له صلة بتواجد عناصر بشرية ذات أصل مغاير لموطنها؟ أم أن اسم أصادن لا صلة تربطها بقبيلة مزوضة وقد قصد بها ابن خلدون قرية ووادي أزاضن[٦٣] (رافد من روافد وادي نفيس[٦٤]) بالقرب من تيزي وسم جماعة ويركان[٦٥] قبيلة كنفيسة (كندافة)[٦٦]؟

أما ابن الزيات التادلي فبدوره نحا نحو البيدق، حين رجع لأحد صوفية المنطقة، فلم يحدث تغييرا في مستوى رسم الموطن فكتب " ومنهم أبو عبد الله مالك بن مروان اللجوسي الضرير مات بتصرداخت من بلد صودة "[٦٧]. فإذا تمعنا جيدا في هذا كله ندرك أن حدود صودة " مزوضة" يدخل ضمنها " ونغاسة"، من صودة الجبل، علما أن "ونغاسة" هي بقبيلة كدميوة حاليًا. أما ابن الزيات فقد أدرج بدوره " تازرداخت" التي هي اليوم بتراب كماسة (فروكة)، بقبيلة مزوضة، مما يفيد امتداد المجال الجغرافي لقبيلة مزوضة خلال هذه المرحلة، وبها نتساءل. هل كان لهذا الامتداد أثره في رسم بعض الإعلام المكانية بالمنطقة ومنها " أسيف المال "؟ ولهذا الطرح ما يبرره من حيث طبوغرافية " أسيف المال". وبالتالي ألا يمكن القول إن أهل "صودة "(مزوضة) هم من أطلقوا هذا الاسم على الواد؟

والملاحظ أن استعمال هذا الاسم بهذا المعنى "واد المال"، ظهر لأول مرة مع الجغرافي الحسن الوزان[٦٨]؛ الذي يعتبر عمله في تحديد مجالات النفوذ ورسم خريطة جغرافية للمناطق والقبائل والمدن التي عرفها "دير الأطلس الكبير الغربي"، لا يعكس بالضرورة ما كان يعرفه المجال خلال الفترة المرابطية والموحدية، والمرينينة، إذ كثيرًا من المناطق والمجالات أخليت من سكانها وكثيرًا من المدن خربت وكثير من القبائل غيرت مجال استقرارها ولكن في ظل غياب المصادر التي تزود الباحث بالخريطة السكانية، والتي تمكنه من عقد مقارنة ومعرفة التطور الذي حصل على مستوى التحركات السكانية، والتي طرأت على المناطق والمدن، يظل مصدر الحسن الوزان مفيد للغاية إذ حاول أن يقدم لنا خلاصة ما افتقدناه في المصادر الأخرى[٦٩].

كما أن أولى الروايات التي تصادفنا عند تأصيل هذا الاسم، تلك التي أوردها مارمول كربخـــال عند حديثه عن مدينـــة "الجمعة الجديدة"، حيث يقول: "ينبع نهر أسيف المال في سفح المدينة، متخذا هكذا اسما إفريقيا معناه الضجيج، لأنه يرتمي من أعلى الجبل بصخب عظيم فيكون غديرا واسعا عميقا يسيل منه بهدوء في السهل."[٧٠] فاختلط عليه الأمر بـين "أسيف ن مال" و"أسيف أنوال" (واد امي ن تانوت)، الذي جعله الوزان نفسه كحد فاصل بين إقليم مراكش وإقليم حاحا[٧١].

أما الرواية الثانية، فتربط الاسم "بالمال" أي النقود، إما بوجود أماكن لاستخراج المعادن توظف في سك النقود[٧٢]، أو لها علاقة بأموال مكنوزة تحت الأرض، وهذه الرواية هي التي تتكرر باستمرار في المونوغرافيات الجماعية الخاصة بالجماعة[٧٣]، دون ذكر المصادر التي استقى منها واضعو هذه المونوغرافيات معلوماتهم، فهي مستبعدة إلى حد بعيد، نظرا لطبيعة اللسان المصمودي، كما أنها تتنافى مع المعطى التاريخي، ويرجح فرضية وجود اسم آخر يعرف به الوادي قبل حلول هذا الاسم مع توافد بعض العناصر العربية، لتعليم السكان القرآن وبعض المسائل التعبدية، كما جاء في الأدبيات التقليدية[٧٤]، أو بعدها مع انتشار الأعراب في البلاد طولا وعرضا في ظروف سياسية معروفة[٧٥]، إذ من غير المنطقي أن تكون هذه التجمعات التي سبقت مجيء

هؤلاء، وهي صاحبة الأرض[٧٦]، ظلت تعيش دون تسمية مجالها، وظلت في انتظار من يأتي ليسميها عوضا عنها، خاصة وأن أولى الخطوات في اتجاه السيطرة على المجال تتمثل في تسميته ووشم معالمه في الذاكرة ثم رسم حدوده، وتمييزه عن غيره من المجالات اعتمادا على شكله، وتضاريسه[٧٧] .

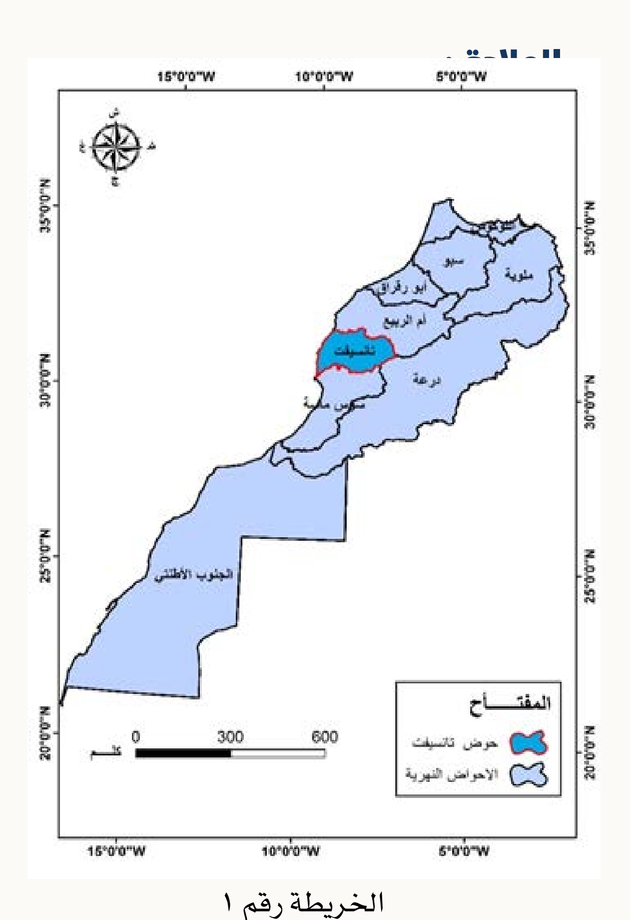
والراجح عندنا الرواية القائلة بأن الكلمة ترتبط بالمعطى التضاريسي للمنطقة، وعلى الرغم من عدم حصولنا على مصدر مباشر ودقيق يرفع اللبس، يمكننا من خلال الملاحظة الدقيقة المباشرة لطبيعة المجال وللتوزيع المجالي لأماكن الاستقرار، وكذا من خلال استقراء المدلولات الطبونيمية لأسماء هذه الأماكن القريبة من المجال في إطار وحدة العنصر البشري، أن نرجح الآتي:

- أن "أسيف ن مال" تنطوي على معنى "المدارج"، أي أنه مشتق من ايميلال، مفرده أماليل، وهذا المعنى قريب من الصواب، لأن إيمل تعني المنحدر الطبيعي أو الحاجز الذي يبنيه الإنسان لإقامة المدرجات التي تستغل في الأودية الجبلية في الأطلس الكبير (امليل، تنمل...)[٧٨].
- أن أهل مزوضة هم من أطلق هذا الاسم على "أسيف ن مال"، بحكم الامتداد الجغرافي للقبيلة في العهدين المرابطي والموحدي كما تدل على ذلك النصوص التاريخية، وكذا طبيعة الوادي طبوغرافيًا.

خاتِمَةٌ

حاولنا من خلال هذه الورقة البحثية تفكيك اسم من أسماء الأعلام المكانية والبحث في دلالاته من خلال مجموعة من المحاور المتكاملة، كان مستهلها الحديث عن الاسم من حيث الموقع ثم الحديث عن معناه ودلالاته، توقفنا خلال عند عدد من الإشكاليات، كما توقفنا عند بعض الأقوال والآراء الرائجة حول أصل تسمية أسيف المال، وكتنويه متأخر نقول: أن الأعلام المكانية والبشرية جزء من التاريخ العام للمغرب وشاهد من شواهد الأمة وأصلها وهوية أرضها، مما يفرض علينا الإسراع والجد في توثيقها والتكثيف من هذه العملية، لأن ذلك كله معرض للضياع، والحفاظ عليها واجب وأداء لأمانة الأجيال الماضية إلى الأجيال الصاعدة، فحجم التحول الذي طال الثقافة والمجتمع تحت ضغوط العولمة والتخلف ومتطلبات التنمية، في هذه المنطقة وغيرها من المناطق المغربية على حد سواء بفعل الانفتاح الجغرافي والسياسي وعمليات التواصل الفكري والتجاري مع بقية المناطق والأجناس، أدت إلى وقوع تبادل حضاري ثقافي بين المنطقة والمناطق الأخرى، إحداث خصوصية ثقافية جديدة للمجال، ارتسمت معالمها على أسماء أعلامه التي لعبت معانيها دور مرآة عاكسة للشخصية الثقافية للمجموعة البشرية التي تقطن هذا المجال الجغرافي[٧٩].

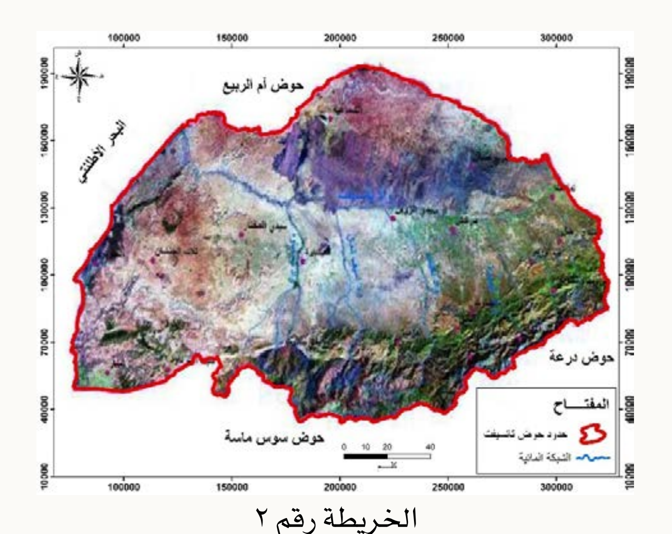
الملاحق



الخريطة رقم ١

توطين مجال الدراسة بالنسبة للأحواض النهرية وطنيًا

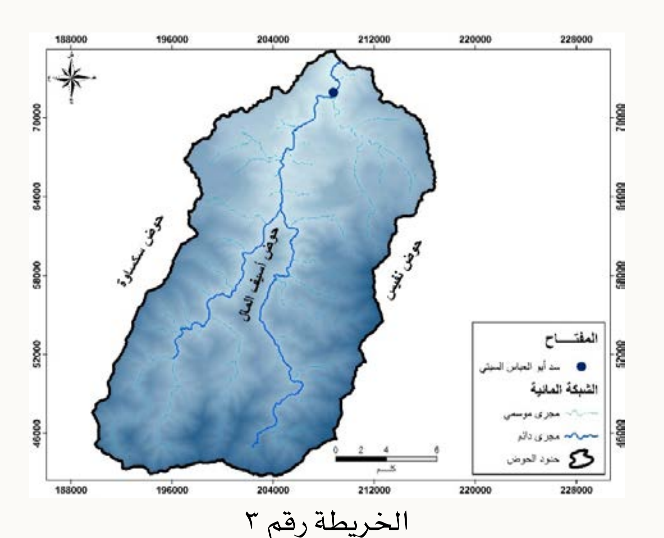
المصدر: عمل شخصي بالاعتماد على برنامج المعلومات Arc Gis



الخريطة رقم ٢

توطين مجال الدراسة داخل حوض تانسيفت

المصدر: عمل شخصي بالاعتماد على برنامج المعلومات Arc Gis



الخريطة رقم ٣

توطين حدود حوض أسيف المال

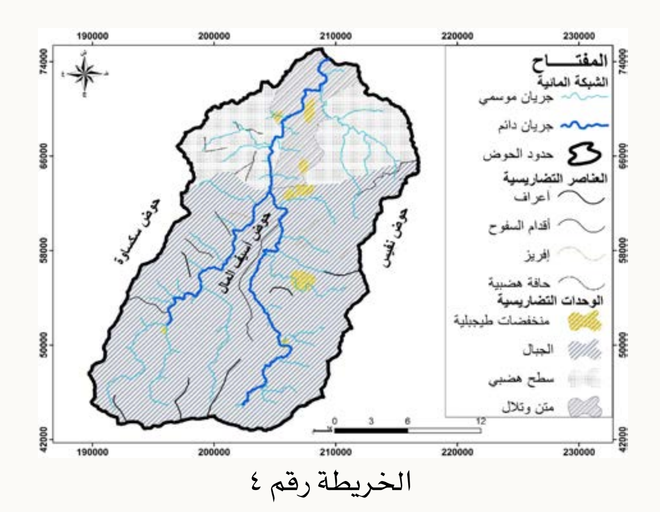
المصدر: عمل شخصي بالاعتماد على برنامج المعلومات Arc Gis



أسيف نايت ثاير

أسيف إيؤنْسْكْتِن

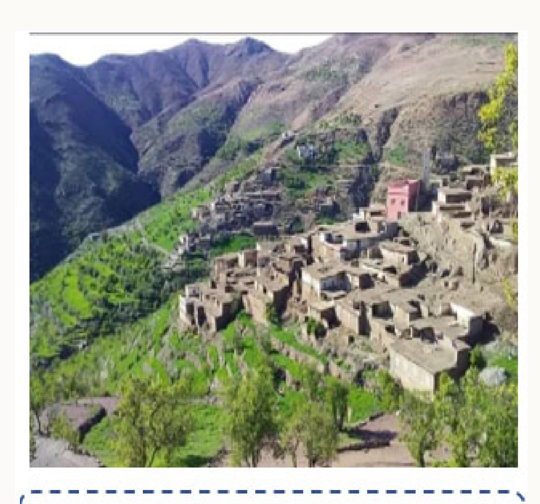
ملتقى الروافد الرئيسية لمجرى أسيف المال



الخريطة رقم ٤

الوحدات التضاريسية لحوض أسيف المال ومحيطه

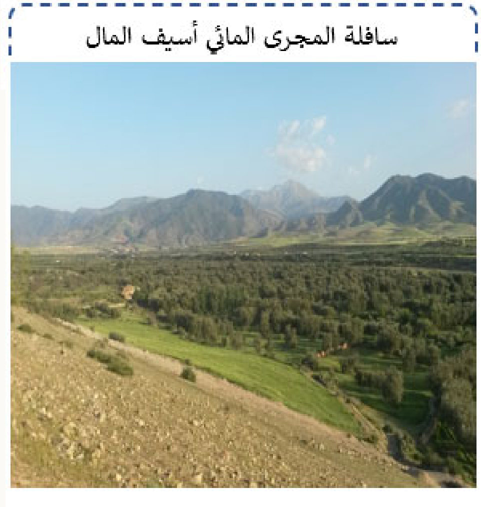
المصدر: عمل شخصي بالاعتماد على برنامج المعلومات Arc Gis



جانب من المدرجات الزراعية بالأطلس الكبير



سافلة المجرى المائي أسيف المال



جانب من النشاط الزراعي بأسيف المال

الإحالات المرجعية:

(١) وصف التاسفتي جبال تشكا بكونها" **منبع رأس مياه واد نفيس، ومياه بلاد زداغة وسكساوة، فهي ميزان مياه جبال كنفيسة كلها، كالقلد الذي به يقسم الماء، ومن طلع إلى فحصها وفدانها يتضح له ما قلناه**". التاسفتي عبد الله بن إبراهيم: **رحلة الوافد**، تحقيق علي صدقي أزايكو، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة ابن طفيل القنيطرة، سلسلة نصوص ووثائق رقم: ١٠، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ١٩٩٣، ص ١٢٥. زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان في أعوام الستينات من القرن التاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة الحسن الثاني عين الشق- الدار البيضاء، سلسلة الأطروحات والرسائل رقم ٥٠، مطبعة فضالة - المحمدية، ط/ الأولى ١٩٩٨، ص ٣٤.

(٢) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا**، ج/ ١، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والنشر والترجمة، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ط/ الثانية ١٩٨٣، ص ٩٠.

(٣) **عديدة هي الدراسات التي اهتمت بجغرافية الأطلس الكبير وخصائصه ومميزاته الطبيعية ومنها الآتي:**

- لكديم الصوصي مولاي إبراهيم: **الأطلس الكبير دراسة جغرافية جهوية**، منشورات جمعية الأطلس الكبير، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/ الأولى ٢٠٠٢.
- مجموعة من المؤلفين: **المغرب مقاربة جديدة في الجغرافية الجهوية**، دار طارق للنشر - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠٦.
- محمد الناصري، **الجبال المغربية، مركزيتها هامشيتها - تنميتها**، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل - الرباط، ط/ الثانية ٢٠٠٣.
- جمال عبد اللطيف، الغازي العثماني: **الجبل المغربي في البحث الجغرافي**، ضمن اعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٩٧-١١٢.

- الإدريسي الفقيه: **مساهمة البحث الجامعي في دراسة تاريخ الأطلس المركزي، حصيلة وآفاق**، ضمن اعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٥٣-٨٠.
- أوعسو خالد: **مغرب الجبال في الحاجة إلى المصالحة**، ضمن اعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٣٣١-٣٤٦.
- بوبكراوي الحسن، المباركي حسن: **تطور الخطاب العلمي عن أطلس مراكش**، ضمن أعمال ندوة، **المجالات الجبلية والتنمية المستدامة، نموذج أطلس مراكش**، مجموعة البحث حول التدبير الجهوي والتنمية السياحية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- مراكش، سلسلة دراسات مجالية، عدد ٣ دجنبر ٢٠٠٨، ص ١٤-٢١.
- Dresch Jean : **Recherches sur l'évolution dans le Massif central du Grand Atlas, le Houz et le Sous**, éd Arrault et Cie - Paris, 1(er) éd 1941.
- Renou émilien : **Description géographique de l'empire de Maroc**, éd : Hachette - Paris, 1(er) éd 1846.
- Weisrock André : **Géomorphologie et paléoenvironnements de l'Atlas Atlantique**, éd, Service Géologique - Rabat, 1(er) éd 1993.

(٤) أسيط سكينة: **المشاريع التنموية بجماعة أسيف المال، سياسة الإعداد الهيدروفلاحي أنموذجا**، بحث لنيل شهادة الاجازة في شعبة الجغرافيا، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الموسم الجامعي ٢٠١٩/٢٠٢٠، ص ٦٠. منصوري معاد: **الوسط الطبيعي ومشاكل الإعداد بحوض أسيف المال بجزئه الجبلي**، بحث لنيل شهادة الاجازة في شعبة الجغرافيا، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الموسم الجامعي ٢٠١٧/٢٠١٨، ص ٢..

(٥) بوحامد احمد: **إشكالية تدبير المياه واستعمالها بالمناطق الجافة، إقليم شيشاوة نموذجا**، أطروحة لنيل شهادة الدكتورة في شعبة الجغرافيا، جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - المحمدية، الموسم الجامعي ٢٠١٧-٢٠١٨، ص ١٢٤. بلمودن خالد: **منخفض مجاط وهوامشه الجبلية في الأطلس الكبير الغربي، بين الدينامية الطبيعية وتدخلات التهيئة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتورة في شعبة الجغرافيا، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، الموسم الجامعي ٢٠٠٣-٢٠٠٤، ص ٢٣.

(٦) **سيدي بوعثمان**: نسبة إلى مدرسة سيدي أبي عثمان، وهي مدرسة علمية عتيقة بكدميوة، بفرقة " أسيف المال"، مؤسسها الفقيه العلامة سيدي الحسين الوريكي، من تلامذة الشيخ سيدي محمد الهلالي النحلي بمزوضة، وذلك في العقد السابع من القرن الثالث عشر الهجري، وسيدي بوعثمان، هو أبي عثمان سعيد الهلالي السوسي، مؤسس الزاوية، أنظر بخصوص هذه المدرسة والزاوية معا، ومؤسسها وأهم أدوارها،

- السوسي محمد المختار: **المعسول**، ج/ ١٨، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ ١٩٦٢، ص ٢٥٧.
- أرسموك الحبيب: **إزاحة الغشاوة عن تاريخ الحركة العلمية بإقليم شيشاوة**، من خلال الزوايا الصوفية والمدارس العلمية، المطبعة والوراقة الوطنية - مراكش، ط/الأولى ٢٠٠١، ص ٦٨-٢٤٥-٢٤٦.
- جايت الطيب: **زاد القراء " إعزان" في أخبار أسفي و امزوضة ومراكش الحمراء**، مطبعة تبوك -مراكش، ط/ الأولى ٢٠١١، ص ١٤٧.

(٧) **تعذر علينا الحصول على مؤلفات تونسية مهمة في هذا الجانب، غنية من حيث القيمة العلمية والمعرفية والتي تناولت في صفحاتها كما يبدو من العنوان موضوع المجال وإشكاليته وهي:**

- مرابط عبد اللطيف: **الحدود، المجال والحركية ببلاد المغرب في العصور القديمة والوسيطة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بسوسة - تونس، ط/الأولى ٢٠٢١.
- الغربي محمد الأزهر: **المجال في المغارب بين التاريخ والذاكرة**، منشورات المعهد العالي لتاريخ تونس المعاصر، جامعة منوبة - تونس، ط/ الأولى ٢٠٢٢.
- مجموعة من المؤلفين: **السكان والمجال والسلطة في العالم الإسلامي**، أعمال مهداة للأستاذ إبراهيم جدلة، مطبعة الأطرش - تونس، ط/الأولى ٢٠٢١.
- حسن محمد: **الجذور التاريخية لبلاد المغرب، جدلية السلطة والمجتمع والمجال**، مطبعة الأطرش - تونس، ط/ الأولى ٢٠٢١.

(٨) بيجين هوبرت: **تنظيم المجال عبر التاريخ**، المجلة المغربية لعلم الاجتماع السياسي، عدد مزدوج ٧ - ٨، السنة الثانية، صيف/ خريف ١٩٨٨، ص ٤٤.

(٩) أيت أومغار سمير: **الماء في المغرب القديم**، منشورات ومطبعة باب الحكمة - تطوان، ط/ الأولى ٢٠٢٠، ص ١١.

- حلاق حسنية، بوشامة خولة: **الحياة الاجتماعية للقبائل المغاربية الشرقية(الليبية) قديما من خلال الكتاب الرابع لهيرودوت**، ضمن أعمال ندوة، **النظم القبلية في تاريخ بلاد المغارب، تاريخها، أدوارها، وتأثيراتها السياسية والثقافية**، منشورات مختبر الدراسات التاريخية المتوسطية عبر العصور، جامعة يحي فارس المدية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية - الجزائر، ط/ الأولى ٢٠٢١، ص ٦-٤١.
- حنداين محمد: **الجهات التاريخية الكبرى بالمغرب، جهة سوس الكبير القرنين ١٧/١٨، وثائق غير منشورة**، مطبعة دار أبي رقراق للنشر والتوزيع - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٣، ص ٢٥.
- حبيدة محمد: **تاريخ المجال ومجال التاريخ، قراءة في كتاب " بين الزطاط وقاطع الطريق، آمن الطرق في مغرب ما قبل الاستعمار"** لعبد الأحد السبتي، مجلة المناهل، العدد ٨٩-٩٠، يونيو ٢٠١١، ص ٣٧١-٣٨٥.
- الحلايسي أحمد: **حول التراب (territoire) مقاربة مفاهيمية**، ضمن كتاب، **دينامية المجالات المحلية والتنمية الترابية بالمغرب**، تكريما لفضيلة الدكتور عبد الله العوينة، منشورات جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الانسانية - مراكش، ط/ الأولى ٢٠٢٢، ص ٢٣-٣٠.
- مالكي أحمد: **الجهة وإعداد التراب بالمغرب، الإكراهات وسبل التجاوز**، ضمن كتاب، **دينامية المجالات المحلية والتنمية الترابية بالمغرب**، تكريما لفضيلة الدكتور عبد الله العوينة، منشورات جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الانسانية - مراكش، ط/ الأولى ٢٠٢٢، ص ٣١-٤٠.
- زرهوني محمد: **العلاقات بين السلطة والسكان في أعوام الستينات من القرن التاسع عشر**، مر/ س، ص ٣٢.

(١٠) أيت أومغار سمير: **الماء في المغرب القديم**، مر/ س، ص ١١.

(١١) مجدوب محمد: **المملكة المورية وحدودها في المغرب القديم، ضمن المجالات الحدودية في تاريخ المغرب**، سلسلة الندوات والمناظرات رقم٦٠، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- المحمدية، ط/ الأولى ١٩٩٩، ص ٠٧-١٤.

(١٢) مجموعة من الباحثين: **تاريخ المغرب تحيين وتركيب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، مطبعة عكاظ الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١١، ص ١٠٠.

(١٣) مجدوب محمد: **المملكة المورية وحدودها في المغرب القديم**، م.ر/ س، ص ٨.

- أعشي مصطفى: **حدود موريتانيا الطنجية في عهد الاحتلال الروماني**، مجلة تاريخ المغرب، العدد ٣٠، السنة ١٩٨٣، ص ٦٩.

- ليمان حسن: **المراقبة العسكرية ومواقع الاستقرار جنوب وليلي، معطيات جديدة حول البحث الأثري بالمنطقة الجنوبية لوليلي**، مجلة بحوث، العدد ٦٠، السنة ١٩٩٥، ص ٢١٩.

(١٤) على سبيل المثال نذكر: الزهري أبو عبد الله: **كتاب الجغرافية**، تحقيق محمد حاج صادق، مكتبة الثقافة الدينية - بور سعيد، دون تاريخ الطبع، ص ١١٥-١١٦.

(١٥) ابن حوقل أبي القاسم: **صورة الأرض**، ق/ ١، دار صادر - بيروت، د/ ت، ص ٦٥.

(١٦) ابن حوقل أبي القاسم: **صورة الأرض**، مص/ س، ص ٨٣.

(١٧) رابطة الدين محمد: **استقرار قبائل صنهاجة بتانسيفت وبعض أبعاده المجالية**، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، عدد مزدوج، ١٨-١٩، السنة ٢٠١٢، ص ٢٤.

(١٨) الطويل حجاج محمد: **مصامدة الجبال ومصامدة السهل**، ضمن أعمال ندوة، **الجبل في تاريخ المغرب**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، سايس - فاس، سلسلة ندوات ومناظرات عدد٣٠، ط/ الأولى ١٩٩٤، ص 40.

(١٩) القبلي محمد: **جوانب من تاريخ المجال والسكان بالمغرب**، منشورات مؤسسة الملك عبد العزيز آل سعود للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية - الدار البيضاء، ط/ الأولى ١٩٩٨، ص ٨٥

(٢٠) القبلي محمد: **جوانب من تاريخ المجال والسكان بالمغرب**، م.ر/ س، ص ٨٥.

- بولقطيب الحسين: **المجال والسلطة في المغرب الوسيط ملاحظات أولية**، مجلة علم الاجتماع السياسي، عدد مزدوج ١١-١٢، السنة ١٩٩٠، ص ١٠٧.

(٢١) ابن أبي زرع الفاسي: **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، ط/ الأولى ١٩٧٩، ص ١٤٢.

(٢٢) المراكشي عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية صيدا- بيروت، ط/ الأولى ٢٠٠٦، ص ٢٥٧.

(٢٣) مجهول: **الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق سعد زغلول عبد المجيد، طباعة ونشر دار الشؤون الثقافية العامة - العراق، ط/ الأولى ١٩٥٨، ص ٢٠٩.

(٢٤) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر وديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ج/ ٦، تحقيق خليل شحادة، وسهيل زكار، دار الفكر - بيروت، ط/ الأولى ٢٠٠٠، ص ٢٤٥

(٢٥) البيدق الصنهاجي أبي بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة - الرباط، ط/ الأولى ١٩٧١، ص ٤٦.

(٢٦) ابن الزيات التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**: تحقيق أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم ٢٢، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الثانية ١٩٩٧، ص ٢٦٦.

(٢٧) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا**، ج/ ١، مص/ س، ص ١٢٢.

(٢٨) كربخال مارمول: **إفريقيا**، ج/ ٢، ترجمة، محمد زنيبر، محمد حجي، محمد الأخضر، أحمد التوفيق، أحمد بنجلون، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مكتبة المعارف الجديدة للنشر والتوزيع - الرباط، ط/ الأولى ١٩٨٩، ص ٥٠٠.

(٢٩) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا**، ج/١، مص/ س، ص ١٢٢.

(٣٠) مجهول برتغالي: **وصف المغرب أيام مولاي احمد المنصور**، ترجمة محمد مزين، عبد الرحيم بنحادة، مطبعة تنمل للطباعة والنشر - مراكش، ط/ الأولى ١٩٩٥، ص ٤١.

(٣١) التاسفتي عبد الله بن إبراهيم: **رحلة الوافد**، مص/ س، ص ٥٦.

(٣٢) **نفسه**: ص ٢٠٩.

(٣٣) صابر أحمد: **سفارتان اسبانيتان إلى مراكش، في القرن ١٨، القرن ١٩**، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٣، ص ١٠١.

(٣٤) **نفسه**: ص ١٠٢.

(٣٥) **ظلت الجبال المغربية، موضوع اهتمام علماء الأرض والجغرافيين وقلما لفتت أنظار المؤرخين، ويستشف هذا من حجم الأعمال والأبحاث المنجزة حوله ومنها:**

- ايت احمو أحمد: **دينامية الوسط الطبيعي وآليات التنمية الترابية بدير الأطلس الكبير: حالة الجماعات الترابية: أمزميز، أمغراس، تكركوست، سيدي بدهاج، وزكيطة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.

- ايت ايشو عبد الله: **الهشاشة الاجتماعية وتأثيرها على المجال الغابوي بعالية حوض نفيس، حالة الجماعات الترابية أغبار، تلات نيعقوب، اجوكاك**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢١-٢٠٢٢.

- مجموعة من المؤلفين: **تنظيم وتهيئة المجال الريفي بالمغرب، أبحاث وتدخلات**، منشورات جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ١٨٦، ومعهد الدراسات الإفريقية، والمعهد الوطني للتهيئة الحضرية، ط/ الأولى ٢٠١٦.

- حالي كمال: **تدبير الموارد المائية بدير أطلس مراكش بين وادي اغدات ووادي لأمزميز الواقع والتحديات**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.

- رزقي محمد: **الدينامية الحالية للمجال الغابوي والسفوح بالأطلس الكبير الأوسط، حالة حوض تاكلفت، دراسة بتوظيف نظم المعلومات الجغرافية والاستشعار عن بعد**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٧-٢٠١٨.

- زوبياكا دانييل: **أسير بجبل الشلوح**، تعريب وتعليق صالح شكاك، منشورات مجلة أمل، مطبعة الرباط نت - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٦.

- سعدي عبد الله: **دينامية القبيلة بالأطلس الصغير الغربي خلال القرن العشرين، حالة قبائل إسافن**، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة ابن زهر، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - أكادير، ٢٠٢١-٢٠٢٢.

- عمراوي محمد: **الطرق والمسالك الجبلية بالأطلس الكبير الشرقي قبل الاستعمار إسهام في دراسة المجال والإنسان**، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.
- عودي علي: **المنتزه الوطني لتوبقال من قطاع للحماية البيئية إلى مجال للتنمية الترابية، مقاربة بالموارد الترابية والفاعلين**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٧-٢٠١٨.
- الفارسي مولاي لحسن: **الدينامية المجالية لأطلس مراكش حالة حوضي غيغاية وأوريكة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٥-٢٠١٦.
- فنيك عبد الواحد: **إشكالية تدبير الموارد المائية والتنمية المحلية بدير أطلس بني ملال**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٦-٢٠١٧.
- القبطان كنون سعيد: **الجبل الأمازيغي آيت أومالو وبلاد زايان، المجال والانسان والتاريخ**، تعريب محمد بوكبوط، منشورات الزمن، سلسة ضفاف، العدد ١٨، نونبر ٢٠١٤، مطبعة بني ايزناسن - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٤.
- الكريفة عبد الجليل: **تدبير الأخطار ذات المصدر الطبيعي بالمناطق الجبلية، حوض غيغاية نموذجا**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٧-٢٠١٨.
- مجموعة من الباحثين: **التراث في جبال الريف، واقع وآفاق**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، سلسلة دراسات وأبحاث، رقم ٤٠، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٣.
- مجموعة من الباحثين: **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الدراسات التاريخية والبيئية، مطبعة دار أبي رقراق للطباعة والنشر - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٢٢.
- مجموعة من الباحثين: **الجبل الأمازيغي، التاريخ، الثقافة ورهانات التنمية**، منشورات جمعية أجذير خنيفرة إيزوران للثقافة الأمازيغية، ط/ الأولى ٢٠٢٠.
- مجموعة من الباحثين: **المدن الجبلية ورهانات التدبير الترابي**، منشورات الملتقى العلمي الثقافي لمدينة القصيبة، ط/ الأولى ٢٠١٧.
- مجموعة من الباحثين: **جبالة مجال وممارسات**، منشورات جامعة ابن طفيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية - القنيطرة، مجموعة متعددة الاختصاصات للبحث حول جبالة، ط/ الأولى ٢٠١٦.
- مجموعة من الباحثين: **قضايا محلية من التاريخ المغربي**، أعمال مهداة إلى الأستاذ محمد بن لحسن، مطبعة ووراقة بلال – فاس، ط/ الأولى ٢٠٢٢.
- مجموعة من المؤلفين: **الريف، التاريخ والمجال والانسان**، مطبعة دار القلم - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٢١.
- مراوي الشرقاوي: **الموارد الغابوية وآفاق التنمية المحلية حالة غابة آيت ويرة بأطلس القصيبة**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٧-٢٠١٨.
- المساوي سفيان: **المنتجات المحلية بالمجالات الجبلية بين تحديات التثمين ورهان المساهمة في التنمية الترابية، حالة حوضي نفيس وغيغاية بالأطلس الكبير الغربي**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠١٨-٢٠١٩.
- معتكف هشام: **هنتاتة زمن الموحدين، القبيلة والجبل والدولة**، بحث لنيل شهادة الماستر في التاريخ والحضارة، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.
- مؤلف مجهول: **الموروث الثقافي القانوني المكتوب بالأطلس الصغير، اللوح المنسوب إلى تامالوكت**، تحقيق عبد العزيز ياسين، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٥.
- ميشو بيلير إدوارد: **صورة جبالة في الوعي الكولونيالي الفرنسي، نصوص مختارة من الوثائق المغربية**، ترجمة حنان المدراعي، منشورات باب الحكمة - تطوان، ط/ الأولى ٢٠١٨.
- هارت دافيد مونتجمري: **القانون العرفي الريفي**، ترجمة محمد الولي، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مركز الترجمة والتوثيق والنشر والاتصال، سلسلة الترجمة، رقم ٣٠، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٤.
- وشالة ميلود: **الدينامية المجالية وتدبير الأخطار ذات المصدر الطبيعي بالمناطق الجبلية، حالة حوضي أوريكا وغيغاية (الأطلس الكبير الغربي)**، أطروحة لنيل شهادة الدكتوراة في الجغرافيا، جامعة القاضي عياض، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - مراكش، ٢٠٢٠-٢٠٢١.
- Lecompte Michel : **Biogéographie de la Montagne Marocaine, Le Moyen-Atlas central**, éd, Centre National de la Recherche Scientifique - Paris 1986.
- Timlilt Soufiane : **Capacities de création des petites entreprises touristiques autour de la valorisation des ressources territoriales spécifiques dans les vallées de Ghyghaya, L'Ourika et Ait Bouguemmez**, Mémoire pour l'obtention d'une maîtrise en géographie, Université Cadi Ayad, Faculté des Lettres et Sciences Humaines, Saison ٢٠١٨٩-٢٠١٠.

وعن هذا الموضوع ومدى استئثار الجبل في أبحاث الجغرافيين أنظر:
- الإدريسي الفقيه: **مساهمة البحث الجامعي في دراسة تاريخ الأطلس المركزي، حصيلة وآفاق**، ضمن اعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٥٣-٨٠.
- أوعسو خالد: **مغرب الجبال في الحاجة إلى المصالحة**، ضمن اعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٣٣١-٣٤٦.
- بوبكراوي الحسن، المباركي حسن: **تطور الخطاب العلمي عن أطلس مراكش**، ضمن أعمال ندوة، **المجالات الجبلية والتنمية المستدامة، نموذج أطلس مراكش**، مجموعة البحث حول التدبير الجهوي والتنمية السياحية، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- مراكش، سلسلة دراسات مجالية، عدد ٣ دجنبر ٢٠٠٨، ص ١٤-٢١.
- جمال عبد اللطيف، الغازي العثماني: **الجبل المغربي في البحث الجغرافي**، ضمن اعمال ندوة، **الجبال المغربية، التاريخ، التراث ورهانات التنمية**، مر/ س، ص ٩٧-١١٢.

- جنان لحسن: **الجغرافيا القروية من المقاربة الكلاسيكية إلى النظرة المعاصرة**، منشورات مؤسسة مقاربات - فاس، ط/ الثانية ٢٠٢١.
- Chouiki Mustapha : **La Recherche Géographique au Maroc, entre la recherche de l'identité à la recherche de l'unité,** Revue Cahiers géographiques, N° 07, Année 2010, pp : 02-17.

(٣٦) **يسعى ويهتم علم الأماكن بعملية الحفر في الأسماء عن طريق استقرائها والبحث فيما تحمله في طبقاتها من معطيات حضارية، أو مرجعيات فكرية أو عقدية، وما يمكن أن تدل عليه من أنظمة وأنماط سلوكية وفق أنماط ومناهج وتقسيمات وضعت أساسا للحفر في الأسماء، بغية الوصول بها إلى أعلى درجات المعلومة واستغلالها،** وللاستفاضة في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى:

- إخربان محند: **أسماء الأماكن بمنطقة قالمة في العهد القديم**، مجلة المعالم، العدد ٢٠، السنة ٢٠١٧، ص ١٥-٣١.
- البركة محمد: **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي، أو ضبط الأعلام الجغرافية**، إفريقيا الشرق- الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٢.
- بوتشيش عبد القادر: **اللسان البربري بالمغرب الأقصى خلال العصر الوسيط**، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، العدد ٩٨، السنة ٢٠٠٥، ص ١١-٣٠.
- بوبيدي حسين: **أسماء الأعلام والقبائل والأماكن في المجالات الكتامية، دراسة في جذور التعريب من خلال النصوص المصدرية**، مجلة المعالم، العدد ٢٠، السنة ٢٠١٧، ص ١١٠-١٢٩.
- الكوخي محمد: **سؤال الهوية في شمال إفريقيا التعدد والانصهار في واقع الانسان واللغة والثقافة والتاريخ**، إفريقيا الشرق - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٤.
- الزقوطي إبراهيم: **أسس الأسماء الجغرافية**، منشورات المركز الجغرافي الملكي الأردني – الأردن، ط/ الأولى ١٩٩٧.
- خالدي مسعود: **الألقاب وأسماء الأماكن في منطقة وادي الزناتي**، مجلة المعالم، العدد ٢٠، السنة ٢٠١٧، ص ٦١-٦٨.
- ساعد خديجة: **الطبونيميا الأمازيغية، أسماء وأماكن من الأوراس**، دار النشر أنزار - بسكرة، ط/ الأولى ٢٠١٧.
- مجموعة من المؤلفين: **المصطلحات الأمازيغية في تاريخ المغرب وحضارته**، منشورات المعهد الملكي للثقافة الأمازيغية، مطبعة المعارف الجديدة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٦.
- مجموعة من المؤلفين: **أسماء الأعلام المغاربية للإنسان، السكن، التضاريس والماء**، منشورات مركز البحث في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية، وهران، ط/ الأولى ٢٠٠٥.
- حسن محمد: **الجغرافيا التاريخية لأفريقية من القرن الأول إلى القرن التاسع الهجري، فصول في تاريخ المواقع والمسالك والمجالات**، دار الكتاب الجديد المتحدة - ليبيا، ط/ الأولى ٢٠٠٣.
- Longnon Auguste : **Les Noms de lieu de la France, leur origine, leur signification, leurs transformations,** éd, Libraire ancienne honoré champion - Paris 1920.
- Dauzat Albert : **Les Noms de lieux, origine et évolution, villes et villages, pays, cours d'eau, montagnes, lieux-dits,** éd, librairie Delagrave - Paris 1926.
- Dauzat Albert : **Dictionnaire étymologique des noms de famille et prénom de France,** éd, Larousse - Paris 1951.
- Lacherfa Mostefa : **des noms et des lieux mémoire d'une Algérie oubliée,** éd, csbah - Alger 1998.
- Ladouceur Jean – Paul : **à la recherché des deux montagne,** revue d'histoire de l'Amérique française, V52, année 1999, pp :383- 460.
- Laoust Emil : **contribution a une étude de la toponymie du haut atlas adrar n deren d'après les cartes de jean dresch,** éd, librairie orientaliste Paul Gunther - Paris 1942.

(٣٧) الهاشمي أحمد: **أعلام جغرافية بمنطقة سوس والصحراء وجهة نظر لغوية**، ضمن أعمال ندوة، **الصحراء وسوس من خلال المخطوطات والوثائق، التواصل والآفاق**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٩٦، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠١، ٥٣.

(38) EL Fassi Mohammed : **La toponymie et L'ethnonymie, sciences auxilaires de l'histoire**, in Ethnonymes et toponymes africains, Documents de travail et compte rendu, éd, de l'UNESCO,1984, p :19.

(٣٩) **عديدة هي الأعمال التي اهتمت بالمعنى والاصل الأونوماستيكي للأعلام الجغرافية والبشرية بالمغرب ومنها:**

- الركيك محند، الحياني مريم: **بادية تازة من خلال الطوبونوميا، أسماء أمكنة قبيلة غياثة نموذجا**، ضمن أعمال ندوة، **تازة وباديتها من خلال الأرشيفات الأجنبية والتراث الوثائقي المحلي**، تنسيق لحسن أوري، مطبعة أنفو برانت - فاس، ط/ الأولى ٢٠١٤، ص ١٥٩-١٧٠.
- الخراشي بابي: **طوبونيميا الساقية الحمراء ووادي الذهب، دراسة تاريخية لأسماء المواقع التاريخية**، ج/١، ط/ الأولى ٢٠٢١.
- بازغ لحسن: **جوانب من تاريخ المدن والقبائل والأماكن**، مطبعة ووراقة بلال - فاس، ط/ الأولى ٢٠٢٠.
- عبيدي سعيد: **طوبونيميا أرفود، محاولة في التفسير**، ضمن أعمال ندوة، **أرفود المجال، التاريخ، المجتمع، ١٩١٨-٢٠١٨**، مطبعة وراقة بلال - فاس، ط/ الأولى ٢٠٢٠، ص ١٣٣-١٤٤.
- عبيدي سعيد: **قراءة أولية في طوبونيمية أبواب حاضرة مكناس**، ضمن كتاب جماعي، **مغرب التنوع مباحث في التاريخ والتراث**، ج/ الأول، منشورات مركز رؤى للدراسات والأبحاث، مطبعة ووراق بلال -فاس، ط/ الأولى ٢٠٢١، ص ١٦٥-١٨٦.
- التباعي جواد: **إضاءات حول طوبونيميا بلاد زيان**، ضمن كتاب جماعي، **مغرب التنوع مباحث في التاريخ والتراث**، م/س، ص ١٨٧-٢١٢.
- يشي طارق: **إسهام المقاربة الطبونيمية التاريخية في فهم ذهنية المجتمع المغربي، فاس خلال العصر الوسيط نموذجا**، ضمن أعمال ندوة، **التاريخ الاقتصادي والاجتماعي وتاريخ الذهنيات بالمغرب والأندلس، قضايا وإشكاليات**، ج/٣٠، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، مطبعة شمس برانت - سلا، ط/ الأولى ٢٠٢٠، ص ١٥١-١٧٨.
- Monteil Vincent : **Note sur la toponymie, l'astronomie et l'orientation chez les maures,** in Hes -T, Vol : 36, Année 1949, pp : 189-219.

(٤٠) أزايكو صدقي علي: **تاريخ المغرب أو التأويلات الممكنة**، مركز طارق بن زياد - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٢، ص ١١.

(٤١) البركة محمد: **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي، أو ضبط الأعلام الجغرافية**، مر/س، ص ٥٠.

(٤٢) التوفيق أحمد: **حول الطوبونيميا والتاريخ في المغرب الشرقي**، ضمن كتاب في تاريخ المغرب، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٩، ص ١١١ - ١١٨.

- يشي طارق: **العلوم المساعدة للتاريخ، المقاربة الطبونيمية التاريخية أنموذجا**، مؤسسة مقاربات للنشر والصناعات الثقافية واستراتيجيات التواصل - فاس ط/ الأولى ٢٠١٩، ص ١٧.

(٤٣) بيرك جاك: **في مدلول القبيلة بشمال افريقيا**، ضمن كتاب، الأنثربولوجيا والتاريخ، ترجمة عبد الأحد السبتي، وعبد اللطيف الفلق، دار توبقال للنشر والتوزيع - الدار البيضاء، ط/ الأولى ١٩٨٨، ص ١٢١.

(٤٤) الحسين رشيد: **الأعلام الجغرافية والهوية، الأعلام الأمازيغية بالصحراء وموريطانيا**، منشورات جمعية أوس للتنمية والعمل الثقافي والاجتماعي، مطبعة دار المناهل - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٨، ص ١٤.

(٤٥) التازي عبد الهادي: **الفكر الجغرافي عند المغاربة**، ضمن أعمال ندوة، **الاسم الجغرافي تراث وتواصل**، منشورات المعهد الجامعي للبحث العلمي، ومديرية المحافظة العقارية والأشغال الطبوغرافية، مطبعة فضالة - المحمدية، ط/ الأولى ١٩٩٤، ص ٢٧.

(٤٦) البركة محمد: **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي، مقدمات في الفهم**، ضمن كتاب، **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية**، مر/س، ص ٢٦ - ٢٧.

(٤٧) **كان لفقهاء الحواضر موقف من مختلف العقود والرسوم وأشكال التدوين الأخرى التي يتم إبرامها بالبوادي، من قِبل " طلبة البوادي"، وهو ما كشفته دراسة عمر بنميرة.**

راجع: بنميرة عمر: **النوازل والمجتمع، مساهمة في دراسة تاريخ البادية بالمغرب الوسيط**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية- الرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم ٦٧، مطبعة الأمينة - الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٢، ص ٧٣-٧٤.

ويندرج هذا الموضوع ضمن تاريخ العقليات، وهو الحقل العلمي الذي يلتقي بشكل كبير مع علم النفس الاجتماعي في اهتمامهما بمفهومي السلوكيات أو المواقف الفردية والجماعية، ومن الدراسات التي أنجزت في ذات الموضوع نذكر:

- أرياس فيليب: **تاريخ الذهنيات**، ضمن مؤلف، **التاريخ الجديد**، تحت إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، المطبعة العربية للترجمة - بيروت، ط/ الأولى ٢٠٠٧، ص ٢٧٧ - ٣٠٦.
- رابحي رضوان: **البحث التاريخي في موضوع الموت بالمغرب الأقصى الوسيط، حصيلة وآفاق**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد مزدوج ١٣/١٤، السنة ٢٠١٧، ص ١٣٩-١٥٢.
- فوفل ميشيل: **تاريخ العقليات، هل ثمة شعور جماعي؟**، ضمن كتاب، محمد حبيدة: **من أجل تاريخ إشكالي، ترجمات مختارة**، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠٥، ص١٤٨-١٥٩.
- الهلالي محمد ياسر: **كيف كان ينظر الحضريون للبدو**، مجلة زمان، المغرب كما كان، العدد ٥٨-٥٩، غشت- شتنبر، ص ٥٨-٦٣.
- الهلالي محمد ياسر: **نظرة الحضريين للبدويين في مغرب أواخر العصر الوسيط، صور وتجليات**، ضمن كتاب **تقاطعات التاريخ والأنثربولوجيا والدراسات الأدبية**، أعمال مهداة إلى عبد الأحد السبتي، تنسيق عبد الرحمان المودن، أحمد بوحسن، لطفي بوشنتوف، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، دار أبي رقراق للطباعة والنشر- الرباط، ط/ الأولى ٢٠١٨، ص ٣٥-٥٩.

(٤٨) يواجه البحث في العلوم الإنسانية بشكل عام عدة إشكاليات، منهجية وابستمولوجية جعلت الكثير من الفلاسفة ومنظري المعرفة الإنسانية يبحثون عن حلول لهذه الإشكاليات، ويعد موضوع الذاتية والموضوعية في العلوم الإنسانية من بين أهم المواضيع التي شغلت الوسط المعرفي، ذلك أن أول إشكال يواجه الباحث وهو ينجز بحثه يكمن في مدى قدرته على التجرد من ذاته وعواطفه ليكون محايدا في القضايا التي يمكن أن يكون جزءا منها، وقد فطن ابن خلدون لهذا الإشكال منذ قرون واصفا جموع المؤرخين وكيف تعاملوا مع الأخبار في عصره: " **فالتحقيق قليل، وطرف التنقيح في الغالب كليل، والغلط والوهم نسيب للأخبار وخليل، والتقليد عريق في الآدميين وسليل، والتطفل على الفنون عريض طويل، ومرعى الجهل بين الأنام وخيم وبيل، والحق لا يقاوم سلطانه، والباطل يقذ بشهاب النظر شيطانه**"، ابن خلدون عبد الرحمان: **المقدمة**، مص/س، ص ٦٠-٧٠.

وعن هذا الموضوع وإمكانية الاستفاضة فيه، يمكن الرجوع إلى الأعمال الآتية:

- أبجي محمد: **التأويل التاريخي، المفهوم، الأهداف، الضوابط، الحدود**، دورية كان التاريخية، العدد ٣٠، مارس ٢٠١٤، ص ١٢٤-١٢٨.
- أبجي محمد: **النقد التاريخي، خطواته المنهجية والقضايا التاريخية المهيكلة له**، مجلة عالم الفكر، العدد ١٦٩، شتنبر ٢٠١٦، ص ٠٧-٥٦.
- أوعسو خالد: **التاريخ بين الإيديولوجيا والذاتية نموذج بول ريكور**، مجلة ليكسوس العدد ٠٥، شتنبر ٢٠١٦، ص ١٠١-١١٠.
- أوعسو خالد: **التاريخ قضايا وإشكالات**، مجلة ليكسوس، العدد ٠٣، يونيو ٢٠١٦، ص ١٠٥-١١٥.
- أيمن عبد اللطيف: **تأويل التاريخ دراسة في هرمنيوطيقا بول ريكور**، مجلة أوراق فلسفية، العدد ٥٨، السنة ٢٠١٨، ص ١٣٩-١٦٨.
- البخشوش عادل: **المؤرخ والدبلوماسي، إضاءات تفاعلية حول المفهوم والممارسة مغرب القرن التاسع عشر**، المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد ١٥، مارس ٢٠٢١، ص ١٢٧-١٣٤.
- بن خيرة نجيب: **صناعة المؤرخ في أفق التكامل المعرفي مقاربة فكرية**، المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد ١٤، فبراير ٢٠٢١، ص ٨٣-١٠٢.
- بن يوسف الحاج: **المعرفة التاريخية، طبيعتها وإشكالاتها**، المجلة الدولية للدراسات التاريخية والاجتماعية، العدد ١٤، فبراير ٢٠٢١، ص ١٠٣-١٢٥.
- بنعجيبة عبد الواحد: **من النص التاريخي إلى نص المؤرخ**، مجلة البيداغوجي، العدد ٢٠، ماي ٢٠١٥، ص ٧٩-٨٤.
- بهاوي محمد: **المعرفة التاريخية**، افريقيا للنشر- الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٣، ص ٢٦-٢٧.
- بوتشيش إبراهيم القادري: **النص التاريخي بين الدلالة التقريرية والهرمنيطيقا**، مجلة علامات، العدد ١٦، السنة ٢٠٠١، ص ٣٠-٤٣.
- بياض الطيب: **التاريخ بين الجدوى والموضوع وآليات الاشتغال**، ضمن كتاب، **أي دور للمؤرخ في فهم أزمة كورونا؟**، منشورات مركز تكامل للدراسات والأبحاث، مطبعة قرطبة - أكادير، ط/ الأولى ٢٠٢٠، ١٥ ص.
- تابتي حياة: **النقد التاريخي ودوره في إبراز الحقائق التاريخية**، دورية كان التاريخية، العدد ٤٥، السنة ١٢، شتنبر ٢٠١٩، ص ١٠-١٧.

- توليه غي، تولار جان: **صناعة المؤرخ**، ترجمة عادل العوا، دار الكلمة للنشر والتوزيع والطباعة – دمشق، ط/ الأولى ١٩٩٩.
- التيمومي الهادي: **المدارس التاريخية الحديثة**، دار التنوير للطباعة والنشر- بيروت، ط/ الأولى ٢٠١٣، ص١٧.
- الحسناوي منير: **كيف يصنع المؤرخ الحدث التاريخي**، مجلة ليكسوس، العدد ٣٩، يوليوز ٢٠٢١، ص ٩٢-١٠٤.
- الديوري محمد: **منهجية الكتابة الأكاديمية والكتابة المهنية**، ترجمة عبد الجليل ناظم، دار توبقال للنشر - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠٨.
- زايدي عز الدين: **مهنة المؤرخ من منظور مارك بلوخ**، مجلة القرطاس، العدد ١١، يناير ٢٠١٩، ص ٩٥-١٠٦.
- زينون ياسين: **التاريخ كممارسة لدى جول ميشله**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد مزدوج ١٣-١٤، دجنبر ٢٠١٧، ص ٣٣-٥٦.
- زينون ياسين: **الكتابة التاريخية عند جول ميشليه**، مجلة أسطور، العدد ٨، يوليوز ٢٠١٨، ص ٧-٣٠.
- الطاهري عادل: **الكتابة التاريخية، المنعطفات الإبستيمولوجية**، مجلة أسطور، العدد ١٣، يناير ٢٠٢١، ص ٧-٣٠.
- طحطح خالد: **أفول صرح التاريخانية**، مجلة يتفكرون، العدد ٧، السنة ٢٠١٥، ص ٢٤٠-٢٤٧.
- عبدو بدر الدين، بن بوزيان عبد الرحمان: **التاريخ بين الموضوعية ودعوى الحياد الموهوم**، مجلة قرطاس الدراسات الفكرية والحضارية، المجلد ٩، العدد ١٠، فبراير ٢٠٢٢، ص ٧٠-٨٠.
- عثمان حسن: **منهج البحث التاريخي**، دار المعارف - القاهرة، ط/ السابعة ١٩٩٦، ص ١٨.
- عرايشي حميد: **توظيف التاريخ القديم في الخطاب المعاصر وأثر التاريخ المعاصر في مقاربة التاريخ القديم، المغرب القديم في الكتابات المعاصرة نموذجا**، مجلة الجمعية المغربية للبحث التاريخي، عدد مزدوج ١٣-١٤، مر/ س، ص ٥٧-٨٢.
- العروي عبد الله: **المؤرخ والقاضي**، ضمن أعمال ندوة، **الذاكرة والهوية**، أعمال مهداة إلى الأستاذ عبد المجيد القدوري، منشورات جامعة الحسن الثاني، كلية الآداب والعلوم الإنسانية بنمسيك - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٣، ص ١٧-٢٨.
- العروي عبد الله: **مفهوم التاريخ الألفاظ والمفاهيم والأصول**، المركز الثقافي العربي - الدار البيضاء، ط/ الرابعة ٢٠٠٥، ص ٤٨.
- عيسى لطفي: **صناعة المعرفة التاريخية العربية، سياقات بناء الدلالة وأشكال تأويل المتمثل**، مجلة أسطور، العدد ١٣، يوليو ٢٠٢٠، ص ١٦٩-١٨١.
- الغرافي مصطفى: **الفكر التاريخي والتحديث في مشروع عبد الله العروي**، مجلة الأزمنة الحديثة، العدد ١٠، السنة ٢٠١٥، ص ١٢٠-١٣٠.
- قدور منصورية: **النقد التاريخي وأهميته في إبراز الحقيقة التاريخية**، مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية، المجلد ٧، العدد ١٠، السنة ٢٠٢١، ص ٥١٧-٥٣٣.
- قنصوة صالح: **الموضوعية في العلوم الإنسانية**، دار التنوير للطباعة والنشر- القاهرة، ط/ الأولى ٢٠٠٧.
- مداني واضح: **أهمية المصادر التاريخية عند المؤرخ**، مجلة القرطاس، العدد ١٠، نونبر ٢٠١٨، ص ١٤٩-١٥٩.
- مزاتي خالدي: **في الحاجة إلى توسيع أرضية المؤرخ، مقاربة ابستيمولوجية**، مجلة مقاربات، العدد ٢، السنة ٢٠٢٠، ص ٥١-٦٣.
- المسري علي حسين: **بين المؤرخ والمصدر**، مجلة المواقف للبحوث والدراسات في المجتمع والتاريخ، العدد ٣، دجنبر ٢٠٠٨، ص ١٢٣-١٣٤.
- معروف محمد: **من التاريخ إلى هندسة التاريخ**، مجلة أمل، عدد مزدوج ١٩-٢٠، السنة ٢٠٠٠، ص ١٦٨-١٧٧.
- المنصور الطاهر محمد: **التاريخ العربي وأزمة المناهج من خلال كتاب محمد حبيدة بؤس التاريخ**، مجلة أسطور، العدد ٤، يوليوز ٢٠٠٦، ص ١٦١-١٦٥.
- هادي نهر: **البحوث التاريخية بين الوعي بالتاريخ، والإسهام في نهضة المجتمع**، مجلة كلية المأمون الجامعة، العدد ٢٧، السنة ٢٠١٢، ص ١-١٢.
- يزيك قاسم: **التاريخ ومنهج البحث التاريخي**، دار الفكر اللبناني - بيروت، ط/ الأولى ١٩٩٠، ص ٤٥-٤٦.
- Kaddouri Abdelmahid : **Histoire et Citoyenneté**, in : **Histoire et Politique**, Publication des laboratoires Maroc/ Mondes Occidentaux, éd : Forces Equipement - Casablanca, 1(ère) éd 2013, pp :05-11.

(٤٩) **توصل أحد الباحثين بعد دراسته لأزيد من ثلاثة آلاف لفظة حسانية إلى أن الأمازيغية تشكل فيها نحو الثلث في معجم الغطاء النباتي، والربع في معجم الثروة الحيوانية، ونسبا متفاوتة في غيرها، وهذا التفاعل جرى بين اللغتين على أرض الصحراء**، أنظر مقال:

- Monteil Vincent : **Note sur la toponymie, l'astronomie et l'orientation chez les maures**, in Hes -T, Vol : 36, Année 1949, p :205-206.

(٥٠) تويراس رحمة: **تعريب الدولة والمجتمع بالمغرب الأقصى خلال العصر الموحدي**، مؤسسة الإدريسي الفكرية للأبحاث والدراسات - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٥، ص ٢٧٧-٢٧٨.

(٥١) البركة محمد: **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي، مقدمات في الفهم**، ضمن كتاب، **الطوبونيميا بالغرب الإسلامي أو ضبط الأعلام الجغرافية**، مر/س، ص ٢٥.

(٥٢) بلاوي أحمد: **الحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التأسيس**، ضمن أعمال ندوة، **مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي**، الملتقى الأول ١٩٨٨، ط/ الأولى- الدار البيضاء ١٩٨٩، ص ٤١.

- بلاوي أحمد: **الإطار البشري والحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التأسيس**، مجلة أطلس مراكش عدد ١، السنة الأولى، شتنبر ١٩٩٣، ص ٢٢.

(٥٣) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **في أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، تحقيق عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، ط/ الثانية ٢٠٠٤، ص ٣٢.

(٥٤) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/ س، ص ٥٠.

(٥٥) **عن أهمية مؤلفات البيدق راجع:**

- زمامة عبد القادر: **البيدق والمهدي بن تومرت**، مجلة المناهل، عدد ١٦، السنة السادسة، محرم ١٤٠٠هـ/ دجنبر ١٩٧٩م، ص ٢٠٤- ٢١٤.
- المنور عواد، بن معمر محمد: **الكتابة التاريخية عند البيذق من خلال كتابه أخبار المهدي بن تومرت**، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد ١١، العدد ١٠، مارس ٢٠٢٠، ص ٦٧-٨٥.

- أزايكوا صدقي علي: **البيدق**، معلمة المغرب، ج/ ٦، انتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط/ الأولى ١٩٩٢، ص ١٩٢٥- ١٩٢٦.

(٥٦) ابن الزيات التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف**، مص/ س، الخريطة المرفقة بالكتاب.

(٥٧) البيدق الصنهاجي أبو بكر: **المقتبس من كتاب الأنساب**، مص/ س، ص ٤٦.

(٥٨) ابن خلدون عبد الرحمان: **العبر**، ج/ ٦، مص/ س، ص ٤٥٦.

(٥٩) النطق الصحيح: إين ماغوس، وتقع في بلاد إيكدميون (كدميوة) شمال أيت كاير، وجنوب تيكيدار، وجنوب غرب تيزكين، التاسافتي عبد الله بن إبراهيم: **رحلة الوافد**، مص/س، ص ٥١، الهامش ٨١.

ويعد مدشر ماغوسة من المداشر التاريخية والمركزية بجماعة أداسيل، وقد يكون الموطن الأصلي للأديب والفقيه والرحالة **المعروف بأبي جمعة سعيد بن مسعود الماغوسي المراكشي** على خلاف المترجمين له، وهو المعاصر لزمن حكم السلطان أحمد المنصور الذهبي السعدي وأحد حاشيته والمؤلف لكتاب **"إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب"**، أنظر:

- ظافر الأزهر محمد: **اليواقيت الثمينة في أعيان مذهب عالم المدينة**، مطبعة الملاجئ العباسية - القاهرة، ط/الأولى ١٩٠٦، ص ١٦٩.
- الزركلي خير الدين: **الاعلام**، ج/٣، دار العلم للملايين – بيروت، ط/ ١٥، ماي ٢٠٠٢، ص ١٠٢.
- ابن القاضي أبي العباس: **درة الحجال في أسماء الرجال**، ج/٣، تحقيق محمد الأحمدي، مكتبة دار التراث - القاهرة، ط/ص ٣٠٤.
- التعارجي بن إبراهيم العباس: **الاعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام**، ج/ ١٠، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية - الرباط، ط/ الثنية ١٩٩٣، ص ١٤٧-١٤٨.
- المقري أحمد بن محمد: **روض الآس العاطرة الأنفاس في ذكر من لقيته من أعلام الحضرتين مراكش وفاس**، المطبعة الملكية – الرباط، ط/ الثانية ١٩٨٣، ص ٢٢٦-٢٣٩.
- حجي محمد: **الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين**، ج/ ٢، منشورات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، سلسلة التاريخ رقم ٢، مطبعة فضالة - المحمدية، ط/ الأولى ١٩٧٨، ص ٣٩٨.
- الترغي عبد الله: **فهارس علماء المغرب منذ النشأة إلى نهاية القرن الثاني عشر للهجرة، منهجيتها – تطورها - قيمتها العلمية**، منشورات جامعة عبد المالك السعدي، كلية الآداب والعلوم الإنسانية - تطوان، سلسلة الأطروحات رقم ٢، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ١٩٩٩، ص ٦٣٨.
- الهواري حميد: **قضايا اللغة في إتحاف ذوي الأرب بمقاصد لامية العرب لأبي جمعة سعيد بن مسعود الماغوسي المراكشي**، بحث لنيل شهادة الماستر في شعبة اللغة العربية، جامعة القاضي عياض كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الموسم الجامعي ٢٠١٠/ ٢٠١١.

(٦٠) بلاوي أحمد: **أداسيل**، معلمة المغرب، ج/ ١، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط/ الأولى ١٩٨٩، ص ٢٢.

- بلاوي أحمد: **أسيف المال**، معلمة المغرب، ج/ ٢، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط/ الأولى ١٩٨٩، ص ٤٥٦ - ٤٥٧

(٦١) منصوري معاد: **الوسط الطبيعي ومشاكل الإعداد بحوض أسيف المال بجزئه الجبلي**، مر/س، ص ٥٢.

(٦٢) هوزالي أحمد: **مسفيوة**، معلمة المغرب، ج/ ٢١، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٥، ص٧١٣٥.

(٦٣) عمالك أحمد: **أزاضن**، معلمة المغرب، ج/١، مر/ س، ص ٣٤٣.

- بلاوي أحمد: **أزاضن**، معلمة المغرب، ج/١، مر/س، ص ٣٤٤.
- التوفيق أحمد: **أصادة**، معلمة المغرب، ج/٢، مر/س، ص ٤٧٣.

(٦٤) رزوال أحمد: **واد نفيس**، معلمة المغرب، ج/ ٢٢، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط/ الأولى ٢٠٠٥، ص ٧٤٥١- ٧٤٥٤.

(٦٥) هوزالي احمد: **ويركان**، معلمة المغرب، ج/ ٢٢، مر/س، ص ٧٦٣٥.

(٦٦) أزايكو صدقي علي: **تاكنتافت**، معلمة المغرب، ج/ ٧، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا - الرباط، ط/ الأولى ١٩٩٥، ص ٢١٥٧.

(٦٧) ابن الزيات التادلي: **التشوف إلى رجال التصوف**، مص/ س، ص ٢٦٦.

(٦٨) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا**، ج/ ١، مص/ س، ص ١٢٦- ج/ ٢، مص/ س، ص ٢٤٥.

(٦٩) الناصري محمد: **مستويات المجال والبحث التاريخي في البادية**، ضمن أعمال ندوة، **البادية المغربية عبر التاريخ**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية - الرباط، سلسلة ندوات ومناظرات، رقم ٧٧، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط/ الأولى ١٩٩٩، ص ١٦١.

(٧٠) كربخال مارمول: **إفريقيا**، ج/ ١، مص/ س، ص٤٤.

(٧١) الوزان الحسن: **وصف إفريقيا**، ج/ ٢، مص/ س، ص ١٢٢.

(٧٢) بلاوي أحمد: **أسيف المال**، معلمة المغرب، ج/ ٢، مر/س، ص ٤٥٦ - ٤٥٧.

- دوتي ادموند: **مهام في المغرب من خلال القبائل**، ترجمة عبد الرحيم حزل، مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠١٥، ص ٣٠٧.
- Effory : **Les Possibilités économique de la région d'Amizmiz**, C.H.E.A.M, Mars 1929cote. E 3195, N° 1537, p 35.

(٧٣) مونوغرافية جماعة أسيف المال.

- برنامج عمل جماعة أسيف المال ٢٠٢١-٢٠١٦، ص ١١.

(٧٤) ابن عذاري المراكشي: **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، ج/٤، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة - بيروت، ط/ الثالثة ١٩٨٣، ص٢٣.

(٧٥) القبلي محمد: **حول بعض جذور الوضع اللغوي الحالي بالمغرب**، ضمن كتاب، **جذور وامتدادات الهوية واللغة والإصلاح**، مطبعة النجاح الجديدة- الدار البيضاء، ط/ الأولى ٢٠٠٦، ص ٤٦-٤٧.

(٧٦) بلاوي أحمد: **الحياة الحضرية بناحية مراكش قبيل التأسيس**، ضمن أعمال ندوة، **مراكش من التأسيس إلى آخر العصر الموحدي**، مر/ س، ص ٤٠.

(٧٧) الحسين رشيد: **الأعلام الجغرافية والهوية**، مر/ س، ص ١٤.

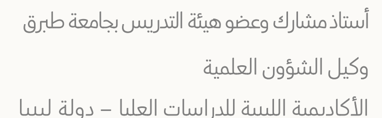
(٧٨) عمالك أحمد: **تينمل**، مجلة أطلس مراكش، عدد ٢، السنة ١٩٩٤، ص٥٠.

(٧٩) ما يلاحظ اليوم هو بروز قاموس كثيف من الكلمات عديمة المعنى بين شباب اليوم يتم إسقاطها على مناطق تاريخية لها أسماء ذات دلالة، كنوع من تأثير الإعلام والثقافة الرائجة، ولهذا جاءت دعوتنا لتكثيف من عملية توثيق أسماء الأعلام المكانية والبشرية بغية الحفاظ عليها، حتى لا نصبح أمم بذاكرة وتاريخ مبثور.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

حدود إقليم برقة الشرقية في العصر الإسلامي
تبعية أم استقلالية




د. سليم مفتاح عبد العزيز لا ميلس

أستاذ مشارك وعضو هيئة التدريس بجامعة طبرق

وكيل الشؤون العلمية

الأكاديمية الليبية للدراسات العليا – دولة ليبيا

مُلَخَّص

تلقي هذه الدراسة الضوء على الحدود التاريخية لإقليم برقة ولاسيما الشرقية منها في العصر الإسلامي من خلال ما عاينته مصادر تلك الحقبة في حديثها عن فتح بلاد المغرب الكبير، كون برقة صاحبة الصدارة في هذا الأمر، مع إيضاح التقلبات السياسية والتغيرات الإدارية التي جعلت من برقة تابعة إلى مصر حينًا وإلى إفريقية حينًا أخرى، كما أن الدراسة تضعنا أمام مدلولات جغرافية مهمة -موضع، كورة، واحة-متأصلة في التاريخ السياسي والحضاري لإقليم برقة، قبل أن تصبح لاحقًا جزءًا من الأراضي المصرية. اعتمدت الدراسة على المنهج التاريخي وبعض آلياته من سرد، ونقد، وتحليل، ووصف، واستنتاج، بهدف معالجة إشكاليات الموضوع بعد جمع كل الإفادات التي أدلت بها المصادر التاريخية. توصلت الدراسة إلى أن مشكل الحدود الشرقية لإقليم برقة ناتج عن الوضع السياسي للإقليم في العصور المختلفة لا للاعتبار الجغرافي، فهي تتسع وتضيق بالتفويض الإداري للقائم عليها. توصي الدراسة بضرورة الاهتمام بجمع المخطوطات والوثائق التاريخية التي تعنى بمسألة إقليم برقة وتحقيقها ونشرها إسهامًا في إظهار التاريخ البرقاوي الذي يحتاج الى المزيد من التحري والبحث.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٦	نوفمبر	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	٣٠	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

تاريخ إسلامي؛ الحدود الليبية؛ الحدود المصرية؛ برقة؛ المصادر الجغرافية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/kan.2023.245978 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سليم مفتاح عبد العزيز لا ميلس. **"حدود إقليم برقة الشرقية في العصر الإسلامي: تبعية أم استقلالية"**.- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٧١ – ٧٩.

Corresponding author: dr.salim.m.lamels@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com

Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقَدِّمَةُ

تُعَدّ معرفة الأقاليم وحدودها من أهم محددات الانتماء الوطني، ولذلك تدرّس للأطفال من بداية مراحل التعليم فيتعرّفون على خريطة بلادهم ويحفظون على ظهر قلب اسم الجيران شمالاً وجنوبًا وشرقًا وغربًا، ويقع التذكير بشكل الحدود في كل المناسبات الوطنية للإبقاء على ذكراها حية في الأذهان، لقد فرض مصطلح الإقليم في الآونة الأخيرة نفسه مقارنة بمصطلحي الفضاء والمكان، مما جعل مسالة التحديد الابستيمولوجي ضرورة ملحة، حيث يصبح الفرد القاطن بهذا الإقليم هو الفاعل الأساسي في أطار الشبكة التفاعلية بين الفرد والإقليم مما ينتج عنه هوية خاصة به، والإقليم قد يشكل لوحده دولة مستقلة أو مع ما يجاوره من أقاليم كما هو الحال في الدولة الليبية.

إن فكرة الحد لم تتبلور تاريخيًا إلا بعد معرفة الزراعة، وما صاحبها عادة من صناعات منزلية وتجارية محلية، فالزراعة تقتضي الإقامة الطويلة في مكان ثابت لا يتغير، ثم تزايد ذلك بازدياد السكان حتى تاخمت الأمم في أقاليمها، وأصبح من الضروري تحديد ممتلكات كل إقليم وتمييزها، ثم صار الغرض الذي تحققه الحدود هو تأمين الناس من الغزوات المفاجئة ولما كانت القبائل القوية أقدر على صد القبائل الأخرى ومطاردتها كانت مساحة الحدود تتناسب تناسبًا طرديًا مع حظ القبيلة من السطوة والبأس، ثم اتجه الإنسان للإفادة من الحدود في أغراض أخرى بجانب مدافعة الغزاة مثل الوقاية الصحية وصد المتسللين غير المرغوب في دخولهم واقتضاء الرسوم الجمركية والحيلولة دون تهريب البضائع التي يحضر تداولها، وكثيرًا ما كانت الجماعات القديمة تلجا إلى إقامة الأسوار وحفر الخنادق، إلا أن الفواصل الطبيعية كانت هي الأكثر ثباتًا والأوفر حماية، وكان يعول عليها في هذا الشأن، كونها تمثل مناطق انفصال وليس مناطق أتصال.

وإذا كان مفهوم الإقليم عند أغلب الجغرافيين والمؤرخين يستند إلى الأرض والسكان، فإن الحدود الشرقية لإقليم برقة يمكن رسمها من أول كورة في غرب الإسكندرية تسكنها القبائل الليبية القديمة ولاسيما البربرية، والحق أن هذا الحد كان أكثر من غيره من حدود برقة ذا فاعلية طيلة العصر الإسلامي بما يمثله من حلقة اتصال بين أقاليم المشرق والمغرب، حتى تكاد تكون تأثيراته تشمل جميع الجوانب السياسية والحضارية لأي دراسة تعنى بمنطقة المغرب الكبير، وعلى الرغم من الخصوصية الحضارية التي تميز بها الإقليم إلا أن هناك صعوبة في ضبط حدوده، ولا نبالغ اذا قلنا إن هذا الحد تعرض الى التهميش والظلم من قبل كثير من المؤرخين ابتداءٍ من القرن (٥هـ/ ١١م) عندما اسقط من دائرة المغرب الأدنى كونه مصريًا تارة، وأفريقيا تارة أخرى، وللأسف حملت كثير من الدراسات التاريخية والجيو سياسية بين ثناياها مغالطات لا يمكن السكوت عليها، ومن ثم أصبح من الضروري الوقوف عند هذه المسألة التي تتمحور حولها أهمية الموضوع أمام القارئ للتاريخ والمهتم، آخذين في الاعتبار أن مفهوم السيادة والحدود لم يكن في العصر الإسلامي ــــ موضوع الدراسة ــــ محددًا بوضوح كما هو الحال في أيامنا هذه، إنما كانت البلاد تسمى غالبًا باسم الشعب الذي يسكنها.

تكمن إشكالية البحث في طرح التساؤلات الأتية: إلى أي فترة تاريخية يرجع الرسم الحدودي لإقليم برقة في العصر الإسلامي؟ وعلى ماذا يستند هذا الرسم إن وجد؟ وهل للتبعية الإدارية التي رافقت برقة طوال هذه الفترة التاريخية علاقة بهذا الرسم الحدودي أم لا؟ وهل هناك خلط جغرافي في تحديد هذا المفهوم الحدودي؟ وإلى أي مدى كان للدويلات المستقلة التي ظهرت في العصر العباسي بالأقاليم المجاورة أثر في تقليص هذه الحدود أو زيادتها؟

وبغية الإجابة على كل ما يتعلق بهذا الموضوع وما يحيط به من ملابسات، كان معتمدنا على المنهج التاريخي وبعض آلياته من سرد، ونقد، وتحليل، ووصف، واستنتاج، بهدف معالجة إشكاليات الموضوع بعد جمع كل الإفادات التي أدلت بها المصادر التاريخية.

تسعى هذه الدراسة إلى تحقيق عدد من الأهداف:

- تقديم وصف وتحليل معمق لمسألة الحدود الليبية (البرقاوية) المصرية واقتراح بعض التوصيات لحل هذه المسألة.

- التعريف بأهمية المناطق الحدودية والعمل على أحياء تاريخها، وجعلها حدود استراتيجية وليست جغرافية فقط.
- التأكيد على وحدة العنصر السكاني بين كور هذا الإقليم البرقاوي التي فصلها هذا الخط الوهمي بعد أن كانت امتدادًا واحدًا حتى زمن الإمبراطورية العثمانية والتي كانت الحدود فيها عبارة عن حدود إدارية بين الولايات والأقاليم التابعة للحكم العثماني آنذاك، قبل أن تطالها أيادي الاستعمار الأوربي في الربع الأول من القرن العشرين في غمرة التناحر على المستعمرات.
- الرد على بعض الدراسات والحملات الإعلامية المغلوطة التي نراها بين الحين والأخر والتي هدف أصحابها إلى إثارة أطماع بلادهم في خيرات هذا الإقليم.

تتمثل الحدود المكانية للموضوع في ذكر أسماء كور ومواضع تاريخية ترسيم الحدود الشرقية من برقة والغربية من مصر؛ ومن أجل الإلمام بهذه الحدود التي تضاربت حولها الآراء، كان من الطبيعي أن تتسع فترة الدراسة الزمنية أذ بدأت: من عام (٢٢هـ/ ٦٤٣م) وهو العام الذي فتح فيه عمرو بن العاص ولاية برقة، وحتى عام (٩٢٣هـ/ ١٥١٧م) الذي اجتاحت فيه الجيوش العثمانية بلاد الشام ومصر وفتحت مدنها قلاعها، وأجبرت آخر خلفاء بني العباس بالتنازل عن لقبة لسلطان آل عثمان: سليم الأول، فأصبح العثمانيون خلفاء المسلمين، ونقلوا مركز العاصمة من القاهرة إلى القسطنطينية " إسطنبول".

أولاً: المفاهيم

يعرف الحد في اللغة بأنه: الفصل بين الشيئين خشية اختلاطهما، وجمعه حدود[١]، ويقال حدد الدار أي جعل لها حدًا، ويقال فلان حديد فلان، إذا كانت أرضه إلى جانب أرض الأخر[٢]، فالحد هو المنع، ومنه سمي البواب والسجان حدادًا، الأول: لمنعه الناس عن الدخول في الدار[٣]، والثاني: لأنه يمنع من في السجن من الخروج[٤]، وفكرة الحد في الاصطلاح: تعني الخط الذي يرسم حدود الإقليم ومعالمه في اليابسة والمياه سواء كانت بحرية أو نهرية مع الأقاليم المجاورة، حتى يسهل على أهلة ممارسة السيادة داخله[٥]، وفي الشريعة الإسلامية: الحدود هي موانع وزواجر لئلا يتعدى العبد عليها بالزيادة والنقصان، مثل حدود الزنا والسرقة وشرب الخمر... إلخ[٦]، واذا قلنا إن للحد مفهوم واسع تعنى به كل التخصصات فهو قبل كل شيء وريث شرعي للتخم الذي كان يفصل بين الكيانات السياسية القديمة (الإمبراطوريات)[٧].

يستلزم الحديث عند تحديد الحدود الشرقية لإقليم برقة التعريج ولو بشكل مختصر على مفهوم بلاد المغرب الكبير، حيث تتعدد الأسماء التي عرفت بها طوال تاريخها القديم، تبعًا لزيادة أراضيها أو نقصانها، ويكاد يكون لكل عصر تاريخي مسماه على هذه البلاد كنوميديا وليبيا وشمال أفريقية وقرطاجنة وأفريقية وموريتانية وبلاد البربر[٨] وآخرها بلاد المغرب التي اطلقها المصريون حسب قول أبي الريحان البيروني وبقيت كذلك الى اليوم، فهم يسمون ما كان على يمينهم اذا استقبلوا الجنوب مغربًا، ويسمون ما كان على شمائلهم مشرقًا، ولذلك سميت بلاد أفريقية وما وراءها (بلاد المغرب)[٩] وقد ظهرت تسمية المشرق والمغرب ظهورا واضحا عهد خلافة هارون الرشيد حين قسم الدولة الإسلامية تقسيما فنيا الى مشرق ومغرب بين ولده الأمين والمأمون عام ١٨٢هـ/٧٩٨م عندما عهد لولي العهد الأول الأمين مغرب الدولة وهو يشمل العراق والشام الى آخر بلاد المغرب، وصار لولي العهد الثاني المأمون مشرقها، وكانت (الدجلة) حينها الحد الفاصل بينهما، وهكذا صار مفهوم المغرب في العصر العباسي الأول يعني النصف الغربي للدولة الإسلامية، أو بالأحرى كل ما يقع غربي إقليم العاصمة بغداد آنذاك[١٠].

أما في مؤلفات المكتبة الجغرافية الإسلامية فأن الجغرافيين الأوائل لم يحددوا المغرب انطلاقًا من الحدود التي رسمها العباسيون أي من الدجلة بل من الحدود البرقاوية المصرية، على أن تسمية المغرب لتعريف البلاد الواقعة غرب مصر تعريف لم يخل من الغموض والإبهام، فالاصطخري (ت. ٣٠٠هـ/٩١٢م)[١١] يحدد مغربين: مغرب شرقي يشمل برقة وأفريقية

وتاهرت وطنجة والسوس، ومغرب ثان غربي وهو الأندلس، أما المقدسي (ت. ٣٨٠هـ/٩٩٠م)[١٢] فإنه يدمج هذا المفهوم من خلال تحديده له في عدة جزائر مثل الأندلس وصقلية ومدن المغرب، أما القلقشندي (ت.٨٢٧هـ١٤٢٤م)[١٣] فإنه قد قصد ببلاد المغرب جزيرة الأندلس وما والاها من الشمال، واطلق تسمية الغرب على مدن المغرب كفاس وتونس وتلمسان.

وانطلاقًا من هذا التعريف للبلاد المتفق على تسميتها أخيرًا بالمغرب، نهج فريق من المؤرخين والجغرافيين على تقسيمها إلى أربعة أقسام: يشمل الأول برقة وطرابلس وهما أول كور المغرب من جهة الشرق، وبعض المؤرخين يدمج هذه الكورة إلى أفريقية، وبعضهم يفصلها عن المغرب، ويشمل الثاني أفريقية، وهي الولاية الشرقية من مجموع بلاد أطلس، وهي البلاد التي تمتد من خليج سرت الكبير شرقًا إلى المحيط الأطلسي غربًا، وقد أطلق عليها العرب المغرب الأدنى، لأنها أقرب إلى بلاد العرب، ودار الخلافة بالحجاز وبلاد الشام والعراق، وتمتد من طرابلس شرقًا حتى بجاية أو تاهرت غربًا، وقاعدة أفريقية مدينة القيروان، فقد أورد المقدسي ما نصه: "وأما أفريقية فقصبتها القيروان"، ويشمل الثالث المغرب الأوسط ويمتد من تاهرت حتى وادي ملوية وجبال تازه غربًا وقاعدته تلمسان وجزائر بني مزغنه، أما القسم الرابع فهو المغرب الأقصى وقد عرف بذلك لأنه أبعد أقسام المغرب عن بلاد العرب ودار الخلافة، ويمتد من وادي ملوية شرقًا حتى مدينة اسفى على المحيط الأطلسي غربًا وجبال درن جنوبًا[١٤] وهي تسميات واضحة آنذاك لتحديد الأقاليم وكلها تعني أقاليم شمال القارة الإفريقية دون مصر والأندلس.

ثانيًا: برقة الإقليم وبرقة المدينة

ذكر ابن خلدون أن حد بلاد المغرب من جهة الشرق يختلف باختلاف الاصطلاحات والأعراف، فعرف أهل الجغرافيا أن حد المغرب من جهة الشرق هو بحر القلزم وبذلك يدخل فيه مصر، أما العرف الجاري في القرن الثامن الهجري بين سكان بلاد المغرب فيبدأ من طرابلس وما ورائها الى جهة المغرب فلا يدخل فيه مصر ولا برقة، والعرف الجاري الذي يعنيه ابن خلدون لا يبعد أن يكون حدود الدولة الحفصية السياسية، وبذلك يكون للسياسة أثر كبير في الحدود السياسية بين الدول، ويصبح مفهوم المغرب مفهوم سياسي يختلف من عصر إلى أخر[١٥].

ومن خلال ما سبق، يمكن القول إن تحديد الأقاليم والمدن التي يتشكل منها المغرب العربي الكبير من المسائل التي فصلتها كتب الجغرافيين والرحالة المسلمين ولاسيما المتأخرة منها بالقول الأغلبي أن برقة هي بداية الأقاليم الشرقية التي يتكون منها هذا المغرب الكبير، الذي يمتد من غرب مصر حتى المحيط الأطلسي غربًا[١٦]، وهي ما يعرف اليوم ببلدان شمال أفريقيا الخمسة "ليبيا بأقاليمها الثلاث (برقة وطرابلس وفزان)، تونس، الجزائر، المغرب، موريتانيا " إلى النيجر والسنغال جنوبًا[١٧]، وبحر الروم أي ما يعرف اليوم بالبحر المتوسط شمالاً[١٨]، على أن المسألة التي لاتزال تحتاج الى البحث والتحري هي معرفة بداية الحدود الفاصلة بين برقة والأراضي المصرية، كونها تخضع لآراء متفاوتة بين المؤرخين في العصر الإسلامي، فالحدود بين برقة ومصر غير واضحة، وهذا أمر طبيعي، فأرض برقة امتداد طبيعي لأرض مصر نحو الغرب، دونما حدود ولا فواصل طبيعية[١٩]، اللهم تلك العقاب الصغيرة الموجودة على الطريق الساحلي أحدهما عند مرسى مطروح وتعرف بالعقبة الصغرى، والأخرى عند السلوم وتعرف بالعقبة الكبرى، أما في الداخل فلا عقاب ولا فواصل، فليست هناك حدود طبيعية بين إقليم برقة ومصر في الإقليم الساحلي ولا في الإقليم الصحراوي، إذ تتداخل صحراء مصر الغربية وصحراء برقة على طول امتدادهما، فيما يمكن أن تسمى مناطق تخوم وليست حدودًا فاصلة، مما يجعل ارتباطهما وثيقًا من خلال الواحات المنتشرة في كليهما[٢٠] ولذلك نجد المقدسي[٢١] يصف هذه المنطقة (الواحات) عندما اخذ يعدد كور مصر ومدنها "بأنها قد توحشت متصلة بارض السودان تمس طرف إقليم المغرب (برقة) وبعض يجعلونها منه".

ولابد هنا من الإشارة الى التسمية اليونانية القديمة للإقليم والتي عرفت باسم إقليم المدن الخمس، أو بنطابلس وهو لفظ مشتق من الكلمة (penta)، وتعني:

خمسة، و(polis)، وتعني: مدينة أو المدينة الدولة، وهي مدن أسسها الإغريق بداية من القرن السابع قبل الميلاد[٢٢]، وقد أشار البكري[٢٣] الى ذلك عند حديثة عن برقة بقوله: اسمها بالرومية الإغريقية بنطابلس، تفسيره خمسة مدن وهي: سوسة(Apolonia)، شحات (Cyren)، توكرة (Teuchelra)، بنغازي (Hesperldes)، برقة (المرج Barca)، ويتميز بموقعه الجغرافي الغني بالتربة الخصبة الصالحة للزراعة.

ومن هنا وقع كثير من الرحالة والمؤرخين والكتاب في الخلط بين برقة الإقليم وبرقة المدينة[٢٤] وكثيرًا ما يتطابق اسم قصبة الإقليم مع اسم الإقليم، فقد كان المسلمون طيلة العصور الإسلامية يسمون الأقاليم وقصباتها بنفس الاسم، كما هو حاصل اليوم مع الجزائر مثلاً التي اختارت أن تكون قصبتها الجزائر وكذلك تونس.

ويبدو أن ياقوت الحموي (ت. ٦٢٦هـ/ ١٢٢٩م)[٢٥] قد وضح الفرق بين برقة الإقليم وبرقة المدينة؛ وذلك بقوله: " برقة بفتح أوله والقاف: اسم صقع كبير يشتمل على مدن وقرى بين الإسكندرية وإفريقية، واسم مدينتها أنطابلس، وتفسيره: الخمس مدن"، لكن الحموي استعمل الاسم الإغريقي القديم لمدينة برقة: (أنطابلس) ولم يحدد موقعها.

إلا أن ابن سعيد المغربي (ت.٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م)[٢٦]، كان أكثر وضوحًا في ذلك من ياقوت فقال: "... مدينة برقة، التي كانت قاعدة البلاد البرقية....، ويقال لها اليوم مدينة المرج"، وفي موضع آخر قال: "...وفي الشرق مدينة برقة، التي كانت قاعدة البلاد البرقية، فخربها العرب، ويقال لها اليوم: مدينة المرج"[٢٧]، والحق أن ابن سعيد المغربي لم يكن الجغرافي الأول في حسم هذا الأمر، فهناك المقدسي (ت. ٣٨٠هـ/ ٩٩٠م) الذي قال: "فأما برقة فاسم القصبة أيضًا "[٢٨].

كان من الطبيعي أن ينعكس هذا الخلط الجغرافي الذي أوردته المصادر الإسلامية الأولى بين برقة الإقليم وبرقة المدينة على تبيان مساحة برقة وحجمها الطبيعي، ففي الوقت الذي أشار فيه اليعقوبي (ت.٢٨٤هـ/ ٨٩٧م)[٢٩] وابن عبد الظاهر(ت. ٦٩٢هـ/١٢٩٣ م)[٣٠] وصاحب كتاب الاستبصار(عاش في القرن السادس الهجري)[٣١]: إلى أزلية هذا الإقليم وكبر مساحته وكثرة أقاليمه، يذهب ابن حوقل (ت. بعد سنة ٣٦٧هـ/ ٩٧٧م)[٣٢] إلى القول أن "مدينة برقة مدينة وسط، ليست بالكبيرة الفخمة ولا بالصغيرة ".

ثالثًا: حدود إقليم برقة الشرقية

والحق أن معالم الحدود بين برقة ومصر لم تتضح في المصادر الإسلامية المبكرة التي أكتفت بالقول أن برقة كانت على جادة مصر[٣٣]، من ناحية ضفة النيل بالإسكندرية[٣٤] باستثناء بعض الروايات الخجولة مثل رواية اليعقوبي[٣٥] ذات السبق الزمني التي تذهب الى تحديد موضع يعرف باسم الرمادة[٣٦] وهو أول منازل البربر والتي يسلك منها الطريق الى العقبة، والتي يتضح من وصفه أنها العقبة الكبرى(السلوم)، "على ساحل البحر المالح صعبة المسلك حزنة خشنة مخوفة"، ورواية أخرى للمقدسي تذهب الى تحديد مدينة ذات الحمام[٣٧] كحد فاصل بين الإقليمين[٣٨] بعد أن عدت هذه المدينة تابعة الى مصر حينًا[٣٩] ، والى برقة حينًا أخرى[٤٠]، واذا أخذنا بهذه الرواية الأخيرة فمن الراجح أن يكون هذا الحد قد ظهر في العصر الفاطمي كون الفاطميين هم من أهتم بهذه المدينة خلال هذه المرحلة[٤١].

إن رواية اليعقوبي هذه استند عليها كثير من الجغرافيين والمؤرخين الذين جاءوا بعده، ولاسيما بعد أن ذكر أن لوبية ومراقية كورتان من كور الإسكندرية على ساحل البحر المالح [٤٢]، كآبن عبد الحكم مثلاً الذي يروي: "كان البربر بفلسطين، وكان ملكهم جالوت، فلما قتلة داؤود خرج البربر متوجهين الى المغرب حتى انتهوا الى لوبية ومراقية، وهما كورتان من كور مصر الغربية... مما يشرب من السماء ولا ينالها النيل".[٤٣]عند تحليل هذه الرواية نجد أن اليعقوبي وابن عبد الحكم قد وقعا في الخلط التاريخي الذي سبق وأن اشرنا إليه، وهو عدم التفرقة بين برقة المدينة وبرقة الإقليم، ثم إنه ليس من المعقول أن يسمح قدماء المصريين للبربر بنزول أرضهم وهم من خرجوا من فلسطين مهزومين، مع تسليمنا بحادثة قتل داؤود لجالوت ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّه وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا

يَشَاءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾[٤٤]، والحق إذا أغفلنا النظر عن قول الاصطخري[٤٥]: "أرض مصر لا تمطر ولا تثلج" نعذر اليعقوبي ومَنْ أخذ عنه في هذه المسألة كون برقة خلال هذه المرحلة خلت من أي مدينة جليلة ممصرة تحفظ هوية الإقليم وحدوده الجغرافية، على أننا نرجح هنا الأخذ برأي المالكي[٤٦] القائل إن لوبية ومراقية هما "كور من ولاية برقة الشرقية"، أن سقف المطالبة بضم كورتي لوبية ومراقية للأراضي المصرية أخذ يتلاشى أمام هذه الروايات التاريخية حتى صار ينحصر في الحديث عن لوبية كونها الأقرب جغرافيًا إلى مصر، ونترك الرد على أصحاب هذه الحجة من خلال تتبع ما فعله عمرو بن العاص من وسائل دفاعية بعد تحرير الإسكندرية وكورها، وأخذ المشورة من الخليفة عمر بن الخطاب، فقد أورد ابن عذاري ما نصه: "ووجه منها عقبة بن نافع الفهري إلى لوبية وأفريقية"،[٤٧] ومعنى ذلك أن لوبية هي أولى الفتوحات المغاربية التي أعلنت الخلافة انطلاقها بعد تحرير مصر بالكامل، ومصداقًا لهذا النص ألقينا نظرة على سكان هذه الكورة فوجدناها فروع من قبائل بربرية مثل: لواتة ومزاتة وماصلة ومراوة وفطيطة ومفرطة وزكوتة[٤٨].

إن إيضاح الحد بين بين برقة ومصر تأخر حتى القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، إذ نجد ابن سعيد[٤٩] يذكر أن العقبة الكبيرة هي أول حد الديار المصرية من جهة المغرب، ويزداد الأمر وضوحًا في القرن الثامن الهجري إذ يذكر القلقشندي[٥٠]: والتحقيق أن برقة قسمان: قسم محسوب من الديار المصرية، وهو ما دون العقبة الكبرى الى الشرق، وقسم محسوب من أفريقية وهو ما فوق العقبة المذكورة الى الغرب، وذكر أن طبرق وانطابلس (برقة) وطلميثة من القسم المحسوب على بلاد المغرب، ويكاد يكون ذلك الوصف هو الحد الموجود اليوم بالرغم من تجاوز القسم الأول الى ما فوق العقبة.

وقد أزاحت رواية القلقشندي الكثير من الغموض الذي ينتاب الرواية التاريخية التي تجعل برقة تابعة لمصر حينًا[٥١] ولإفريقية حينًا أخر[٥٢]، وتجعلهما معًا مسيطرتان عليها في بعض الأحيان[٥٣]، وتفسر لنا كيف كانت برقة تشمل في أقاليمها الشرقية على وحدة إدارية أو كورة تعرف بلوبية ومراقية وهما كورتان من كور مصر الغربية وهذه الكورة التي كانت وثيقة الصلة بالإسكندرية احتوت على إقليمين: الشرقي منهما هو لوبية اسم عاصمة الإقليم ويقولون انه بين الإسكندرية وبرقة، والغربي منهما مراقية، وكانت حدود مراقية الغربية تنتهي عند ارض برقة. ويحدد ابن سعيد المغربي أخر حدود مصر من جهة المغرب بالعقبة الكبرى يقول: "وهي أول الديار المصرية، وأول بلاد المغرب من جهة مصر هي قصور لك وقمار.

تزداد أهمية العامل السكاني في رسم الحدود ويبدو ذلك أكثر وضوحًا كلما اتجهنا في الجنوب الشرقي من برقة حيث تدخل واحة سيوة ضمن حدود هذا الإقليم، أن ليبية هذه الواحة وسكانها أمر جزمت به كثير من روايات التاريخ القديم، ولايزال أهل هذه الواحة حتى اليوم يخاطبون بعضهم البعض بالبربرية لغة أهل المغرب القديمة وهي فرع من المجموعة اللغوية الحامية[٥٤]، ليس من التجني أو المبالغة القول أن لنظام التبعية الإدارية المعتمد من قبل الخلافة الإسلامية في إقليمي طرابلس وبرقة سبب في كل هذا الإشكال الحدودي، حيث أصبحت مدينة القيروان مركز القوة الإسلامية في ولاية أفريقية، بينما أصبحت الفسطاط ومن بعدها القاهرة مركز القوة الإسلامية في مصر، واستمر التنازع بين هذين المركزين الإسلاميين، فوالي الفسطاط أو القاهرة يحاول دائمًا أن يبسط نفوذه على برقة، ويتولى تعيين ولاتها، بينما يحاول والي القيروان أبدًا أن يبسط نفوذه على ولاية طرابلس، ويتولى تعيين ولاتها، وقد ينجح أحد المركزين في أن يبسط نفوذه على الإقليمين معًا إلا أن الغالب هو أن تكون برقة تابعة لوالي مصر، بينما تكون طرابلس تابعة لوالي أفريقية، وتبقى الدواخل مستقلة فعليًا بشؤونها وان كانت تتبع رسميًا للسلطة المركزية وهي الخلافة[٥٥].

والغريب في الموضوع أن نجد في الخلافة نفسها من يخترق هذه التبعية الإدارية الموكلة إلى مدينتي القيروان والفسطاط، ولاسيما إذا تعلق الأمر بالجزية والخراج، كما فعل هارون الرشيد عندما أرسل من بغداد مولى له

يقال إن اسمه بشار الذي قدر على أهل برقة قيمة الخراج المفروض على الأرض والأعشار(٥٦)، وبالمجمل قدر على برقة أن يخرج إليها عامل من مصر إلى أن ظهر المهدي عبيد الله المستوفي على المغرب فاستولى عليها، وأزال عمال مصر(٥٧).

لم تكن فكرة الحدود السياسية متبلورة لدى البرقيين أو مفهومة، لارتباط هذه الفكرة بقيام نظام الدويلات المستقلة ذات الكيان السياسي، وهذا مالم يتوفر على أرض برقة طيلة هذه الفترة التاريخية(٥٨)، ومن اللافت للانتباه أن نجد بعض هذه الدويلات المستقلة التي فرضت سلطانها على الخلافة في العصر العباسي تحركت وفق نظام التبعية الإدارية، فالدولة الطولونية التي قامت في مصر اعتبرت أن برقة جزء من دولتها وأن حدودها الغربية تنتهي بنهاية حدود هذه الولاية، والحق أن هذه الحدود ظلت اسمية أكثر من كونها واقعية ولم يكن للطولونيين أو الإخشيديين من بعدهم أي وجود في برقة.

خَاتِمَةٌ

من كل ذلك يمكن القول إن المصادر الجغرافية الإسلامية أعطت في تحديد معالم الحدود بين برقة والأراضي المصرية مفهومان: أحدهما عام ويكاد يكون فيه إجماع هؤلاء الجغرافيين والرحالة الأوائل أن الحد يبدأ من غرب الإسكندرية، والأخر خاص أكثر دقة من خلال تحديد منطقة رمادة أو ذات الحمام.

أن مشكل الحدود الشرقية لإقليم برقة ناتج عن الوضع السياسي للإقليم في العصور المختلفة لا للاعتبار الجغرافي، فهي تتسع وتضيق بالتفويض الإداري للقائم عليها.

ومن واقع هذه الدراسة والدراسات السابقة للباحث في هذا المجال (دراسة الأقاليم الإسلامية) أقول: أن معرفة الأجناس البشرية كثيرًا ما كانت عامل مهم من عوامل تحديد الحدود، والفصل بين الأقاليم، فمصر هي التي يسكنها المصريون، وبرقة هي التي يسكنها البرقيون، ووفق هذه القاعدة الانثروبولوجية حددت كتب الرحالة الحدود ووفقها أيضًا كانت تسير حركة الفتوحات الإسلامية في فتح الأقاليم، أي بمعنى أن لكل إقليم خصائصه التي تستوجب من الخلافة مراعاتها عند فتحه، وهذا ما يتضح جليًا في اختلاف وصف عمرو بن العاص لأهل برقة ومصر، وإن كنا لا نغفل أن الأقاليم تحدد سياسيًا بآخر المناطق التي تخضع لسلطان الدولة المالكة كما جاء في وصف ابن خلدون سابقًا.

رغم الفتح المبكر لمدن المغرب الإسلامي وأقاليمه إلا أن الجغرافيين والرحالة المسلمين لم يستكشفوا برقة ولم يتحدثوا عنها إلا في أواخر القرن الثالث الهجري، وحديثهم عنها كان من باب الوصف لمسالك المدن والمخارج والعمران والمسافات والسكان دون تحديد إطار جغرافي لها واضح المعالم طولاً وعرضًا، فلم تعرف برقة حدودًا ثابتة وواضحة في تلك الفترة التي وصفها الجغرافيون، لأن فكرة الحدود بالمفهوم الحالي لم تكن كذلك في تلك العصور، لذا فإن محاولة حديثهم عن رقعتها جغرافيًا في تلك الفترة إنما كان من باب التقريب.

التوصيات

- إجراء مزيد من الدراسات حول قضية ترسيم الحدود البرقاوية المصرية، من أجل التوصل إلى الحلول الكفيلة بإنهاء هذه الأطماع والنزاعات أو الحد منها.
- الاهتمام بجمع المخطوطات والوثائق التاريخية التي تعنى بهذه المسألة وتحقيقها ونشرها إسهامًا في إظهار التاريخ البرقاوي الذي يحتاج الى المزيد من التحري والبحث.
- عند القراءة أو الكتابة في الحدود الشرقية لإقليم برقة أوصي بالتأني والتمحص قبل إصدار الأحكام، فليس كل ما نجده أمامنا هنا صحيحًا أو دقيقًا فالمسألة يكثر فيها الخلط التاريخي سواء بقصد أو بغير قصد، ولنأخذ في الاعتبار أن الحدود الإدارية التي رسمتها الخلافة الإسلامية في عصورها المختلفة شيئا والحدود الجغرافية شيئًا آخر.

الإحالات المرجعية:

(١) ابن منظور، **لسان العرب**، ط١، دار صادر، بيروت، ١٣٠٠هـ، مج٣، ص ١٤٠.
(٢) طاهر احمد النزاوي، **ترتيب القاموس المحيط**، ط١، ١٩٥٩م، ج١، ص١٧١.
(٣) زكريا بن محمد الأنصاري، **الحدود الأنيقة والتعاريف الدقيقة**، تحقيق: مازن المبارك، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١١هـ، ج١، ص ٨٠.
(٤) الأزهري، **معجم تهذيب اللغة**، تحقيق: رياض زكي قاسم، ط١، دار المعرفة، بيروت، ٢٠٠١م، ج١، ص٧٥٩.
(٥) خالد عبد الرحمن العصيمي، **ترسيم الحدود الكويتية العراقية وأثره على السياسة الخارجية الكويتية**، رسالة ماجستير في العلوم السياسية، جامعة الشرق الأوسط، ٢٠١٢م، ص١٨.
(٦) مصنفك، **الحدود والأحكام الفقهية**، تحقيق: عادل احمد عبد الموجود/ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩١م، ص٤٦، ٤٧.
(٧) إبراهيم أحمد سعيد، **الحدود والقضايا الجيو استراتيجية في إقليم المشرق العربي (تاريخيًا وحضاريًا)**، مجلة جامعة دمشق، مج ٣٠، ع١+٢، ٢٠١٤م، ص٦٧٣.
(٨) أوكيل مصطفى باديس، **انتشار الإسلام في بلاد المغرب وآثاره على المجتمع خلال القرن الأول الهجري**، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الجزائر، ٢٠٠٦م، ص١٧، ١٨.
(٩) **معجم البلدان**، ط٨، دار صادر، بيروت، ٢٠١٠م، ج٥٤/١؛ عقيلة لعشبي، **المدرسة النحوية المغاربية من القرن الخامس إلى القرن الثامن الهجري**، رسالة دكتوراه في اللغة العربية وآدابها، جامعة مولود معمري، الجزائر، ٢٠١٨م، ص١٢.
(١٠) لعشبي، **المدرسة النحوية**، ص١٢، ١٣.
(١١) الاصطخري، **مسالك الممالك**، مطبعة ليدن، ١٩٢٧م، ص٣٦.
(١٢) **أحسن التقاسيم** في معرفة الأقاليم، ط٣، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩١م، ص٢١٥.
(١٣) **صبح الأعشى**، دار الكتب السلطانية، القاهرة، ١٩١٥م، ج٣٣/٨، ٧٨_٨٧؛ لعشبي، المدرسة النحوية، ص١٣.
(١٤) عبد الله كامل موسى عبده، **مدينة برقة وآثارها الإسلامية عبق التاريخ وطرز العمارة**، ط١، دار الآفاق العربية، القاهرة، ٢٠٠١م، ص ١٧.
(١٥) وليد علي الطنطاوي، **موقع وحدود برقة وطرابلس**، ص١.
(١٦) الاصطخري، **مسالك الممالك**، ص٣٦، ٣٧؛ الفاتح الزين الشيخ إدريس، **الفتوحات الإسلامية في المغرب وأثرها في انتشار الدعوة الإسلامية**، "بحث منشور في المؤتمر الدولي الإسلام في إفريقيا"، جمعية الدعوة الإسلامية العالمية، ليبيا، ٢٠٠٦م، ص ٢٠؛ لعشبي، المدرسة النحوية، ص١٣
(١٧) لعشبي، المدرسة النحوية، ص١٢، ١٥.
(١٨) الاصطخري، **مسالك الممالك**، ص٣٦، ٣٧؛ ابن سباهي، **أوضح المسالك إلى معرفة البلدان والممالك**، تحقيق المهدي عبد الرواضية، ط١، دار الغرب الإسلامي، ٢٠٠٦م، ص٤٩؛ لعشبي، المدرسة النحوية، ص١٣.
(١٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، مج٣١٧/١.
(٢٠) الاصطخري، **مسالك الممالك**، ص٤٨؛ الإدريسي، **نزهة المشتاق**، ص٣٢٢؛ ابن سباهي، **أوضح المسالك**، ص٥٩٥؛ الطنطاوي، **موقع وحدود برقة وطرابلس**، ص٢.
(٢١) **أحسن التقاسيم**، ص١٠٣.
(٢٢) اليعقوبي، **البلدان**، مطبعة بريل، ليدن، ١٨٦٠م، ص١٣٥؛ ابن خرداذبه، **المسالك والممالك**، طبعة ليدن، ١٨٨٩م، ص٩١؛ ابن سباهي، **أوضح المسالك**، ص٢٠٧؛ إدريس مفتاح حمودة، **برقة في كتب الرحالة والبلدانيين: رحلة المقدسي، والبلدان والممالك لابن سباهي أنموذجاً**، مجلة أصول الدين، ع٤، ص٢١٩.
(٢٣) **المسالك والممالك**، الدار العربية للكتاب، تونس، ١٩٩٢م، ج٦٤٩/٢.
(٢٤) ابن خرداذبه، **المسالك والممالك**، ص٨٤، ٨٥؛ الإدريسي، **نزهة المشتاق**، مج١/ ٣١٠، ٣١٧.
(٢٥) **معجم البلدان**، ج٣٨٨/١.
(٢٦) **كتاب بسط الأرض في الطول والعرض**، معهد مولاي الحسن، تطوان، ١٩٥٨، ص ٨٠.
(٢٧) **كتاب الجغرافيا**، ط١، المكتب التجاري للنشر والتوزيع، بيروت، ١٩٧٠، ص١٤٦.
(٢٨) **أحسن التقاسيم**، ص٣١٦.
(٢٩) **كتاب البلدان**، ص١٣١_١٣٢.
(٣٠) **الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر**، الرياض، ١٩٧٦م، ص٤١٥.
(٣١) مؤلف مجهول، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، دار الشؤون الثقافية، بغداد، (د.ت)، ص١٤٣.
(٣٢) **صورة الأرض**، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢م، ص٦٩.
(٣٣) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص٢٣٤؛ الإدريسي، نزهة المشتاق، ص ٣١؛ ابن سباهي، أوضح المسالك، ص٢٠٧.
(٣٤) اليعقوبي، **البلدان**، ص١٣٠، ١٣١؛ الاصطخري، **مسالك الممالك**، ص٣٦، ٣٧.
(٣٥) اليعقوبي، **البلدان**، ص١٣٠، ١٣١.
(٣٦) بلدة صغيرة ذات شهرة في العصر الإسلامي بسوقها وميناها التجاري، لها سور ومسجد جامع وبساتين فيها أنواع الثمار، ذهبت كثير من الروايات إلى القول إنها من مواضع إقليم برقة، وعلى الرغم من اختفاء معالمها في الوقت الحالي، ألا أنه يمكن القول بقرب وجودها من غرب دير بومينا (برج العرب)، والتي لا يفصلها عنها سوى موضع رأس الطرفاوي. يُنظر: البكري، **المغرب في ذكر بلاد أفريقية والمغرب**، تحرير وتقديم وتعليق: حماه الله ولد السالم، دار الكتب العلمية، بيروت، (د، ت)، ص١٢؛ ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٦٦/٣؛ عبد السلام الجعماطي، **دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار بالغرب الإسلامي**، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١م، ص٧٦؛ علي محمد سميو، **التجارة والأسواق في إقليمي برقة وطرابلس من كتابات الجغرافيين والرحالة المسلمين مع المقارنة بما جاء في المصادر التاريخية " من ٥ إلى ٧هـ "**، مجلة كلية الآداب، ع١، جامعة مصراته، ص١٨٦.
(٣٧) مدينة ضاربة في التاريخ لها ذكر في الفتوح، بها جامع بناه زيادة الله بن الأغلب حين رجع من المشرق إلى المغرب، اشتهرت خلال هذه الفترة بأسواقها الجامعة. ينظر: ياقوت الحموي، **معجم البلدان**، ج٢٩٩/٢؛ البكري، **المسالك والممالك**، ج١٧٤/٢؛ عبدا لحميد حسين حمودة، **تاريخ المغرب في العصر الإسلامي منذ الفتح الإسلامي**

وحتى قيام الدولة الفاطمية، ط١، الدار الثقافية للنشر، القاهرة، ٢٠٠٦م، ص٢٤٨.

(٣٨) اليعقوبي، **البلدان**، ص١٣١؛ المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص١٩٤، ٢١٥، ٢١٦

(٣٩) اليعقوبي، **البلدان**، ص١٣١؛ المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ص١٩٤؛ باديس، **انتشار الإسلام في بلاد المغرب**، ص٢٠.

(٤٠) المقدسي، **أحسن التقاسيم**، ٢١٦، ٢٣٤؛ معجم البلدان، ج٢/٢٩٩.

(٤١) المقدسي. **أحسن التقاسيم**، ص ٢٣٤.

(٤٢) **كتاب البلدان**، ص١٢٧، ١٢٨.

(٤٣) **فتوح مصر وأخبارها**، تقديم وتحقيق محمد صبيح، ص١١٦

(٤٤) **سورة البقرة**: الآية (٢٥١).

(٤٥) **مسالك الممالك**، ص٤٩، ٥٠.

(٤٦) ياسر طالب راجي الخزاعلة، **موقف الخلافة العباسية من الدول المستقلة في المغرب/ بين القرنين الثاني والرابع الهجريين ١٢٣_٣٦٢هـ/ ٧٤٠_٩٧٢م)**، رسالة دكتوراه في التاريخ، الجامعة الأردنية، ٢٠٠٨م، ص٤.

(٤٧) ابن عذاري، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، تحقيق: ج. س. كولان وإ. ليفي بروفنسال، ط٣، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ١٩٨٣م، ج١/ ٨.

(٤٨) أدم محمد حسن أبكر/ طارق أبو الوفا محمد، **مظاهر العلاقات السياسية بين مصر وليبيا منذ الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الولاة (٢١_٢٥٤هـ/ ٦٤١_٨٦٩م)**، ع٢٣، ٢٠١٧م، ص ٣٠.

(٤٩) **بسط الأرض**، ص٨١.

(٥٠) **صبح الأعشى**، ج٣/ ٣٩٠_٣٩٦؛ الطنطاوي، **موقع وحدود برقة وطرابلس**، ص٢.

(٥١) ابن خرداذبة، **المسالك والممالك**، ص لعشبي، المدرسة النحوية، ص١٢.

(٥٢) عبد الحكيم الكعبي، **الدولة العربية في صدر الإسلام "١٢ قبل الهجرة _٤٠هـ/ ٦١٠_٦٦٠م"**، دار صفحات للدراسات والنشر، دمشق، ٢٠١٢م، ص١٨٠؛ محمد محمد زيتون، المسلمون في المغرب والأندلس، ١٩٩٠م، ص٥؛ الطنطاوي، **موقع وحدود برقة وطرابلس**، ص٢.

(٥٣) الطنطاوي، **موقع وحدود برقة وطرابلس**، ص٢.

(٥٤) عبد اللطيف محمود البرغوثي، **التاريخ الليبي القديم من أقدم العصور حتى الفتح الإسلامي**، تامغناست، ج١/ ١٠١، ١٣٨.

(٥٥) البرغوثي، التاريخ الليبي القديم، ج١/ ١٥٤.

(٥٦) اليعقوبي، **كتاب البلدان**، ص١٣٣، ١٣٤؛ سميو، **التجارة والأسواق في إقليمي برقة وطرابلس**، ص٢٠٤.

(٥٧) الاصطخري، **مسالك الممالك**، ص٣٨.

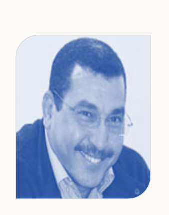
(٥٨) الطنطاوي، **موقع وحدود برقة وطرابلس**، ص٢.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

العلوم الخفية مصدرًا للبحث في التاريخ الثقافي
محاولة في التأصيل


عمر الحريتي
أستاذ الثانوي التأهيلي وباحث دكتوراه تاريخ
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية


أ.د. عبد الرزاق ازريكم
أستاذ التعليم العالي شعبة التاريخ والحضارة
كلية الآداب والعلوم الإنسانية بمراكش
جامعة القاضي عياض – المملكة المغربية

مُلَخّص
يوحي مفهوم "العلوم الخفية" أن موضوعه يقتصر على ظاهرة السحر والشعوذة وما إليها من الممارسات والمعتقدات والمعارف المحظورة دينيًا وعلميًا. وقد عرفت العلوم الخفية مصيرا مشابها في الثقافة الإسلامية باعتبارها علوما شابها الغموض مما حمل الفقهاء على نبذها وتحريمها، فيما تنضوي تحته جذور مختلف العلوم الحقة والتجريدية. إن العلوم الخفية مفهوم فضفاض، هُلامي، لكنه يحفظ في ثناياه أنموذجًا ثقافيًا (Paradigme culturel) ينبني صرحه في التاريخ الإسلامي على ثنائية التضاد (الشرعي والغير شرعي) التي تحجب وراءها ما يفيد في ردم الهوات ومحو البياضات المتناثرة في المتون القديمة. ويحضر مفهوم "العلوم الخفية" بقوة في تاريخ المغرب الوسيط وتراثه؛ إذ تشغل حيزًا مهمًا يمتد على مساحة أنساق المقدس الإسلامي. استطاعت العلوم الإنسانية والاجتماعية اختراق الحواجز القائمة بينها وبين حقول الجوار لاستثمار التداخل التخصصي (Interdisciplinarité)، وبينها وبين "الطبيعيات" للاستفادة من التعدد التخصصي (Pluridisciplinarité) بغية تحقيق التعاون المعرفي المأمول. إلا أن تحقيق هذا الأمل ظل مرتهنا بتجاوز التنميط، خاصة تجاه المادة المصدرية الغميسة والوثائق "المُطَلْسَمَة" التي تعتبرها جلّ حقول الإنسانيات من الشواهد غير القابلة للاستثمار العلمي. يعرض هذا المقال محاولة لفتح منفذ بحثي ينضوي في حقل التاريخ الثقافي والذهني يقوم على رصد الخطاب التاريخي الذي تقدّمه "العلوم الخفية".

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٠٧	أكتوبر	٢٠٢٣
تـاريخ قبـول النشـر:	٢٩	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
العلوم الخفية؛ المصادر الغميسة والدفينة؛ البحث التاريخي؛ التاريخ الثقافي والذهني؛ التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.247173 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
عبد الرزاق ازريكم، عمر الحريتي. **"**العلوم الخفية مصدرًا للبحث في التاريخ الثقافي: محاولة في التأصيل**"**.- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٨٠ – ٩٠.

Corresponding author: elharitiomar.oh@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تشعبت دروب المعرفة التاريخية، وباتت أقلام المؤرخين تعنى بدراسات تتقصى وراء "الحقيقة التاريخية" بتوسل مختلف المناظير الممكنة بغية مراجعة سيرة الإنسان الشمولية بين الماضي والحاضر والمستقبل. ولمحاولة بلوغ هذه الغاية العلمية انخرطت عدة علوم وتخصصات في إطار ما بات يعرف بـ "التناهج المعرفي" أو "التجسير المعرفي"، الذي أتاح إمكانية الحوار العلمي والنقاش "الإبيستمولوجي"؛ مما أسهم بشكل ملحوظ في الاستفادة من حصيلات أبحاث الحقول المعرفية المتجاورة. في هذا السياق، أطلق المهتمون بالعلوم الإنسانية والاجتماعية دعوات إلى الانفتاح، وكان المؤرخون على رأس الدعاة إلى السعي وراء تخطي الحواجز بين الإنسانيات والاجتماعيات بمختلف فروعها من جهة، وبين هذه وباقي الحقول العلمية الحقّة من جهة أخرى، بغية توسيع آفاق البحث وتنويع روافد النهل. أخّرت الغاية المنشودة من التناهج عدة عراقيل؛ لعل أبرزها ما هو ذاتي مرتبط بأصحاب التخصصات المشاركة، وأخرى موضوعية تجسدت في استعصاء عملية نسف الحدود بين التخصصات، خاصةً تلك التي لم تكن معرفياتها بارزة القوائم ومستقلة ورصينة، وذلك مخافة الوقوع تحت الهيمنة والتّفتّت.

استطاعت العلوم الإنسانية والاجتماعية اختراق الحواجز القائمة بينها وبين حقول الجوار لاستثمار "التداخل التخصصي (Interdisciplinarité)، وبينها وبين "الطبيعيات" للاستفادة من التعدد التخصصي "Pluridisciplinarité" بغية تحقيق التعاون المعرفي المأمول. تهدف هذه المقالة إلى التمهيد لأطروحة تتغيّا تجاوز الكتابة "النمطية"، مستندة إلى استثمار التراكم المعرفي التاريخي حول الأدب الديني والغرائبي بالمغرب الأقصى. بعيدًا عن التنميط تجاه الوثائق "المُطَلّسَمَة" باعتبارها من الشواهد غير القابلة للاستثمار العلمي، وإنما باعتبار جمعها ودراستها يقدمان متنا له خصوصيات تفرض تنويع المقاربات والانفتاح على مختلف أدوات وآليات العلوم الإنسانية وغيرها، سيما على المستوى المنهجي والنظري لتحقيق غاية هي فتح منفذ إلى التأليف التاريخي الحديث.

فما موقع علم التاريخ الإسلامي عمومًا في خريطة التجديد؟ وهل لـ"المدرسة التاريخية" المغربية والإسلامية من خصوصيات على مائدة التاريخ فكرا ومعرفة وكتابة؟

لمحاولة بسط هذه القضايا الاستفهامية ونقاشها نقترح ما يأتي:

- قراءة تعريفية للتاريخ من المنظور الإسلامي (نموذج السخاوي)، وربطه بمسار الكتابة التاريخية المعاصرة، بهدف البحث عن موقع لـ"التاريخ الثقافي والذهني".
- محاولة التأصيل لفتح منفذ بحثي في التاريخ الثقافي والذهني يقوم على رصد الخطاب التاريخي الذي تقدّمه "العلوم الخفية" لقراءة المتن التاريخي على ضوئها من جهة، والاجتهاد في تقديم مقاربة ملائمة من جهة ثانية.

أولاً: آفاق البحث بين المفاهيم والمصادر والمقاربة

١/١- مفهوم التاريخ

مسار علم التاريخ بين نزعة التجديد وواقع التقدم

هل التاريخ ليس سوى إنتاج للإرادة الإلهية أم أنه يسير بفضل القدرات -الجسدية والذهنية والتأملية- التي يملكها الإنسان؟ هل كُتب التاريخ وانتهى الأمر؟ سؤال يفرض استحضار معاني دينامية التاريخ المتحركة باستمرار.

تكاد تُنسب نزعة التجديد في علم التاريخ للمؤرخ الأوربي، خاصة بعد الثورات المنهجية التي عرفتها الكتابات التاريخية في أوروبا. ومن أبرز محطات هذا التجديد تلك التي انتهت إلى توجيه المنظار التاريخي إلى الزوايا المهمشة من الكتابة التاريخية؛ ولعل أبرز مجالات الجدة فيها: مباحث الذهنيات والثقافة بمعناها الشمولي، باعتباره مجالاً واسعًا يحتضن الجدليات الكبرى التي تمتد جذورها إلى البدايات الأولى للإنسان ويستمر حضورها حتى الزمن الراهن، طالما ظل عجز الإنسان عن فهم المجاهيل في حياته قائما "تاريخيا-بنيويا"، رغم مواجهتها بقدرات استثنائية. ارتبطت

مسألة التجديد ونحث مفهوم "تاريخ الذهنيات" (Histoire des mentalités) الذي يوازيه نسبيًا مفهوم "التاريخ الثقافي" في تقليد المؤرخين المعاصرين بالمدرسة التاريخية الفرنسية خلال فترة الستينيات من القرن العشرين، ويشار إلى أن كلاًّ من المؤرخين "مارك بلوك" (Marc BLOCH) و"لوسيان فيفر" (Lucien FEBVRE) كانا صاحبا السبق في الانعطاف بالبحث التاريخي المعاصر نحو العالم الذهني والثقافي، باستنادهما إلى مشارب معرفية مجاورة للتاريخ في طليعتها السوسيولوجيا وعلم النفس. وتعد مباحث الذهنيات من المناطق البحثية المعتمة التي لم تطرق بعمق في الدراسات التاريخية المعاصرة، وذلك نتيجة لاعتبارها مباحث تنتمي للمستوى الثالث من التاريخ[١]. فكيف قارب الإخباري المسلم هذه الإشكالية وهو يسرد التاريخ؟

من بين أبرز ملامح التقدم التي طبعت التاريخ الإسلامي ما ارتبط بمفهوم التاريخ نفسه؛ حيث: «اكتمل وأصبح أقرب إلى التعريف الحديث لعلم التاريخ المعتمد على النظرة العلمية في تقصيه وملاحظته للأحداث عند كل من البيهقي وابن خلدون. فالأول تميز بنظرته النقدية إلى الأحداث، والثاني انفرد بتعريف شامل ودقيق يحدد أبعاد علم التاريخ، وآفاق البحث فيه».[٢] من المعلوم أن ثقافة المؤرخ الإسلامي ظلت وثيقة الصلة بالمناخ المعرفي الذي أنتجها. فكان من الطبيعي استجابة المتأدب الناشئ آنئذ لنمط التأديب والتعلم السائد، الذي كان يؤطره من كل الجوانب سمت التراث الديني، خاصة تأثير ظوابط الفقه وقواعد مصطلح الحديث.

وقد انعكس ذلك في مؤلفات خريجي المدرسة الإسلامية ذات المنحى الموسوعي - الذي يرجح أنه يعبر عمّا يترجَم اليوم في القاموس العلمي بـ"التناهجية"-، فلا يخفى على قارئ مؤلفاتهم حضور "التجسير" في مختلف المتون، مهما تنوعت التخصصات التي تنضوي تحتها. فما حدود آثار الموسوعية في مصنفات التاريخ الإسلامي؟ وهل تحتضن مصادره ما يفيد في سد بعض البياضات ويسهم في ردم الثغرات وفق المتطلبات البحثية الحديثة؟

لا يكاد يختلف المهتمون بأدبيات الصنعة التاريخية، أن حجية المؤرخ تقوم على منطق الاحتمال والتخمين أكثر مما تقوم على الضرورة المنطقية.[٣] قد تقوم كذلك على دراسة الحدث كواقع دون الجزم بصورة وقوعه، ولعل هذه الخاصية الملازمة للحذر والأمانة العلمية تُترجَم في عبارة "والله أعلم" التي وظفها الإخباريون القدامى، وتوازي ما يستعيض به المؤرخ المحدّث حين يستحضر التجريد خلال مقاربته التاريخية تعبيرا عن الحذر والتريث وتبرئة للذمة العلمية. ليس الغرض في هذا المقام الوقوف عند جدلية الذاتية والموضوعية في علم التاريخ الإسلامي، وإنما نسعى إلى استعراض أحد نماذج هذا التاريخ "الوسيطي" باقتضاب، وقد وقع اختياره اقتناعا منا أنه توفّق في الجمع بين البعدين المنهجي والمعرفي للتأليف التاريخي الإسلامي بنَفَس شمولي، وهو ما يستقى من التعريف التوليفي الذي قدّمه لعلم التاريخ، بالإضافة إلى حضور سمة التجرّد التي تهيمن على صياغته. وهو – كما لاحظ فرانز روزنتال- كتاب: «للدفاع عن دراسة التأريخ كموضوع ثقافي مساعد في مناهج الدراسة الدينية..كتبه رجل مفعم بالحماس لجمع التفاصيل، والذي يمثل نهاية حقبة عظيمة من البحث في معضلات كتابة التاريخ ».[٤] كما انتبه المحقق المذكور إلى سياق تأليف هذا الكتاب الذي انعكست مؤثراته على المؤلِّف وأثمرت في مقومات المؤَلَّف:« يقف (السخاوي) في نهاية تطور طويل جدا، ويجمع المؤثرات الثقافية واللغوية لعدة حقب مختلفة..ثم إن لغة المؤلَّف فنية جدا، والتعابير الفنية التي يستعملها هي لعلوم خاصة بالإسلام» .[٥]

التاريخ من منظور مؤلَّف" الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التوريخ" [٦]

نحث شمس الدين السخاوي تعريفا مركّبا للتاريخ يشمل البعدين اللغوي والاصطلاحي، حيث كتب: « فالتاريخ في اللغة: الإعلام بالوقت...قال الجوهري[٧] التاريخ تعريف الوقت، والتوريخ مثله..وقيل اشتقاقه من الإرَخ..وهو صغار الأنثى من بقر الوحش. لأنه شيء حدث كما يحدث الولد. وقد فرق الأصمعي[٨] بين اللغتين فقال: بنو تميم يقولون ورَّختُ الكتاب توريخا وقيسٌ تقول أرَّخته تأريخا، وهذا يؤيد كونه عربيا. وقيل

إنه ليس بعربي محض، بل هو معرب مأخوذ من (مَاهْ رُوزْ) بالفارسية (ماه): القمر، و(روز): اليوم. وكان الليل والنهار طرَفَهُ».[٩]

يتضح من هذا التعريف الموجز أن لفظ "التاريخ" أو "التوريخ" حاضر في القواميس العربية،[١٠] رغم الاختلاف حول مصدر اشتقاقه من لسان العرب أو تعريبه عن اللسان الفارسي. وما يدعو للملاحظة بعد تعدد الألسن هو الائتلاف حول علاقة التاريخ الإسلامي بالقمر والنجوم على وجه العموم، وما يؤكد الملاحظة استمرار العرب والمسلمين في اعتماد التقويم القمري. أما تعريفه اصطلاحا فكتب السخاوي أنه:« التعريف بالوقت الذي تضبط به الأحوال؛ من مولد الرواة والأئمة، ووفاة وصحة، وعقل، وبدن، ورحلة، وحجّ، وحفظ، وضبط، وتوثيق، وتجريح وما أشبه هذا مما مرجعه الفحص عن أحوالهم في ابتدائهم وحالهم واستقبالهم. ويلتحق به ما يتفق من الحوادث والوقائع الجليلة، من ظهور ملة، وتجديد فرض، وخليفة، ووزير، وغزوة، وملحمة، وحرب، وفتح بلد، وانتزاعه من متغلب عليه، وانتقال دولة ».[١١] افتتح المؤلِّف ما أسماه تعريفا اصطلاحيا باعتبار التأريخ علما مختصا بضبط الأحوال بناء على التقويم؛ وهذه الأحوال لخّصها في: مجمل سير الرواة والأئمة من ولاداتهم إلى وفياتهم؛ وهذا الضرب من التأريخ يوافق ما انتظم من التأليف تحت مسمى "الطبقات" و"التراجم" و"علِم الرّجال"، ويبدو أن هذا التصنيف يوائم الاهتمام بالأفراد ونخب المجتمع العليا، إضافة إلى الوقائع والأحداث الجليلة التي تدور في فلك المؤسسات الكبرى السياسية والدينية والاقتصادية.

ثم أورد مباحث (الصحة والعقل والبدن) وهي تندرج ضمن علوم الطب وتدبير العقل والبدن، قبل أن ينتقل إلى ذكر الرحلة والحج، وما يتصل بهما ضمنيا من نمط التحصيل العلمي الذي يشمل الحفظ والضبط والتوثيق، إضافة إلى غاية هذا التحصيل وهو "الجرح والتعديل" المتصل بعلم الرجال من الرواة وما إليه من تحرّي ودقة الضوابط النقدية التي تقبل الرواية أو تنكرها بناء على قاعدة دراسة الحامل والمحمول. يُفهم من هذا التعريف أن علم التاريخ يقوم على النظر في الرواية بعد ضبط سند الرواة، وقبل الانتقال إلى تفحص ما ينقل من أخبار نعتها المؤلف بـ"ما يتفق" من الأحداث والوقائع التي يرتبط معظمها بالأبعاد الدينية والسياسية والعسكرية، وقيام الدول وسقوطها. ولم تنته مباحث علم التاريخ حسب السخاوي عند هذا الحد: «وربما يتوسع فيه لبدء الخلق، وقصص الأنبياء، وغير ذلك من أمور الأمم الماضية... أو دونها... أو نحوها مما يعم الانتفاع به، مما هو شائع مشاهد، أو خفي سماوي،

كجراد وكسوف وخسوف، أو أرضي، كزلزلة، وحريق، وسيل، وطوفان، وقحط، وطاعون، ومُوتان. وغيرها من الآيات العظام والعجائب الجسام ».[١٢] لا شك أن عبارة "بدء الخلق" تصرح بامتداد أبعاد علم التاريخ إلى الحقب القديمة؛ حيث "أساطير" الأمم الماضية وأخبار بداية الخلق وقصص الأنبياء، ولعله ما يصنف اليوم بـ" حقبة ما قبل التاريخ" أو التاريخ القديم. غير أنه يميز بين قسمين من التأريخ توحدهما غاية الانتفاع والعبرة: قسم يضم الشائع المشاهد كالأحداث والوقائع المألوفة، وقسم آخر يشمل الخفي السماوي، كالظواهر المجهولة المرتبطة بالقضاء والقدر وضمنها آفة الجراد باعتباره من "جند الله"، وقسم أرضي كالكوارث الطبيعية والآفات البارزة من جوائح وغيرها.

في ختام تعريفه للتوريخ قدّم السخاوي استنتاجا يستحضر التصور الخلدوني حول جدلية العلمية والفنية في التاريخ: «والحاصل أنه فنّ يبحث فيه عن وقائع الزمان من حيثية التعيين والتوقيت، بل عما كان في العالم. وأما موضوعه فالإنسان والزمان. ومسائله: أحوالهما المفَصِّلة للجزئيات، تحت دائرة الأحوال العارضة الموجودة للإنسان وفي الزمان».[١٣] يبطن هذا الرأي ارتهان التاريخ بالتعيين والتوقيت، نافيا علاقته بالتقدير والتنبؤ، فهو فنّ يبحث في جزئيات الإنسان والزمان العارضة بعد حصولها، ولعل هذا الاستنتاج يوضح الإطار المنهجي لصاحبه؛ فهو يتشبث بخضوع العقل الإنساني لثنائية الجبر والاختيار التي أطرت مجمل حدود الفكر الإسلامي خلال العصر الوسيط.

يستخلص مما ساقه شمس الدين السخاوي باعتباره نموذجا للمؤرخ الإسلامي الشمولي؛ أن تعاريف التاريخ التي تستلزم بالضرورة تركيب معطيي اللغة والاصطلاح، تجعل التاريخ معرفة تحتضن الأبعاد الزمنية الثلاثة،

لتغطي حياة البشر بكل جوانبها مركزة على رصد أنشطة الفكر الإنساني وتسجيل مدونة الأفعال البشرية على امتداد الأزمنة والمجالات. ألا نستنبط من عرضه حول تعريف التاريخ ما يتقاطع مع أصداء صيحات المجددين المعاصرين، خاصةً ما أبدعته رؤية المدرسة التاريخية الفرنسية "الحوليات" خلال أجيال[١٤]: تاريخًا جديدًا؟ تاريخًا شموليًا تركيبيًا؛ يؤرخ للنخب والرموز الدينية والسياسية والعسكرية، ويؤرخ للأحداث والوقائع الاجتماعية المتنوعة خاصة تلك التي تشيع بين أفراد المجتمع، كما لا يغفل المؤسسات الجامعة لكل هذه العناصر؟ يبدو أنه تعريف يُبوِّءُ التاريخ مكانة القاسم المشترك بين العلوم باعتباره الأقدر على تحقيق الشمولية العلمية والفكرية. ويؤكد إمكانية استلهام المؤرخ من مختلف العلوم والفنون، وهذا ليس حكرا على حضارة أو ثقافة، إنما هو مشاع معرفي.

٢/١-النسق الثقافي ملتقى العلوم والذهنيات

لا يختلف معظم الباحثين رغم تباين تخصصاتهم وتوجهاتهم حول كون المجتمع عبارة "مجموعة بشرية" يجمعها مجال معين، وتربط بينها علاقات متنوعة تتراوح بين الاجتماعية، والدينية، والاقتصادية، والسياسية، وتشترك –هذه المجموعة- في الهمّ الدّاعي باستمرار إلى تطوير "الوعي المشترك" الذي يميز خصوصية المجتمع وشخصيته. لعل هذا الهمّ الذي يمكن اعتباره أهم المميزات المشتركة واللّصيقة بالمجموعات البشرية هو المحرك القوي لتطور المنظومة المعقدة التي تهيكل المجتمع، والتي يمكن نعتها اختزالا بـ "منظومة الثقافة والحضارة"، دون إغفال أنها تضم المشترك كما تضم الفريد في كل مجموعة، وأنها تضطلع بدور "المؤشر-المعيار" الذي يدعم ترشّح المجموعة لبلوغ الحق في التسمي بـ "مجتمع". والمجتمع حسب السوسيولوجي واقع قائم بذاته ينشأ بالتفاعل بين الأفراد حيث كل الأنشطة البشرية تدخل ضمن الحياة الاجتماعية؛ وبذلك تقلص النزعة السوسيولوجية دور الفرد وأهميته إزاء هيمنة المجتمع في تحديد الوجهات والوقائع باعتبارها مجرد انعكاس للضمير الجمعي. ويبدو من وجهة النظر التوليفية أن هذا التفاعل يتم على مستويات متعددة تنطلق مما هو مادي لتغوص في اللامادي مُخلِّفا تناسل أسئلة وقضايا متعددة؛ حول تصنيف الإنسان بين العزلة والاجتماعية، وحول القوى والقوانين التي تتحكم في مسار تاريخه، وحول طبيعة جسور هذا التفاعل بين دفتي المجتمع المتقابلتين باستمرار: (القمة والقاعدة/ النخبة والعامة)، فهل يصح اعتبار المجتمع مجرد واقع موضوعي مستقل عن إدراك الناس كما تصور السوسيولوجي؟

لا شك أن لكل مجتمع أنظمة وأنماطا معينة هي المسؤولة عن إفراز ثقافة وحضارة خاصة، تَنتُج عن تفاعل عام يحصل على مستوى بعدين خاضعين لحتمية الازدواجية المميزة للكيان البشري وهما؛ الجسد بما يعنيه من تجسيد للبعد المادي، والروح التي تجسد البعد اللامادي المطلق. وبمقتضى هذا التفاعل يتشكّل صرح الثقافة المجتمعية وتبرز مظاهرها وخصوصياتها أفقيًا وعموديًا على فترات متباينة المدى، وهذا ما نرمي إليه من خلال توظيف مفهوم "النسق الثقافي" باعتباره وعاء جماعا لمجمل عناصر الحضارة المجتمعية بما فيها من مولدات ذهنية وسلوكيات (مجردة) وما يوازيها من إبداعات إنسانية محسوسة على مرذ التاريخ، وبالتالي يجدر اعتماد النسق الثقافي منطلقا موضوعيا يستثير عدة إشكاليات يتمحور معظمها حول جدلية الوجود التي يتلخص كنهها في تقاطع تاريخ الإنسان وتاريخ الطبيعة. فما آليات التفكير في المقاربات والمناهج العلمية الناجعة للتعامل مع شمولية النسق الثقافي، وأي حقل معرفي يستجيب لآفاق موضوع متشعب من هذا القبيل، إن لم يكن التاريخ؟

انبرت آراء مختلف الباحثين في الحقول الإنسانية والاجتماعية للخوض فيما تولّده هذه الإشكالات من قضايا، فتعددت الفرضيات وتنوعت المرجعيات. انطلاقا من اتفاق ضمني بين المهتمين بحقل التاريخ مفاده أن بنية التاريخ العميقة تكمن تحت معطى "النسق الثقافي". وبناء عليه، فالبحث في هذه القضايا يُلزم الباحث؛ تحليل الآليات الذهنية/الرمزية المعقدة بما يستدعي الكشف عن السلوكات المولَّدة من تفاعل المجتمع بين الواقعي والمتخيل في تاريخه الممتد. ولسلوك هذا المنحى البحثي يبدو أنه لا مندوحة من الاستعانة بمختلف الحقول المجاورة للتاريخ "تقليديا" ويتعلق الأمر بتاريخ

الأديان والميثولوجيا، وتاريخ الأدب، وتاريخ الفن...، كما يجب الانفتاح على حقول الجوار المعاصرة خاصة الإثنولوجيا، والأنثروبولوجيا، والسوسيولوجيا، والسيمياء، والفيلولوجيا، وعلم النفس وغيره.

فيما يتعلق بالمدرسة التاريخية المغربية يلاحظ أن هذا التوجه عموما–التاريخ الثقافي والذهني– لا زال في حاجة للمزيد من الاعتناء بغية تحقيق تراكم معرفي، يسمح بتشريح أعمق للنسق الثقافي؛ قصد تعرّف مظاهر تطور البنيات الذهنية الاجتماعية، ورصد عوامله المختلفة، والكشف عن صلتها بالبنى السياسية والاقتصادية وغيرها. ويبرز دافع الاهتمام به كمطلب ملازم لتوسيع دائرة البحث والتطلع إلى استشفاف ما قد لا تسمح به المقاربة الموثقة المشدودة إلى المادي الملموس وإلى المصادر المعتادة والمألوفة. لطالما أبدى أغلب المؤرخين تشددا كبيرا فيما يخص النبش في البنى الذهنية بمختلف الآليات الممكنة التي تفرض استعارة أقلام كل من السيميائي والإثنولوجي والسوسيولوجي وغيرها، وهو تشدد يُسوِّغه السعي الحثيث إلى احترام حدود الموضوعية وخصوصية الحقل التاريخي. ولتحقيق هذه الغاية نقترح بسط تصور يجمع بين عدة مصدرية غميسة ومقاربة منهجية مركبة لتحليلها دون التخلي عن خصوصية القلم التاريخي.

٣/١–المقاربة: محاولة فك شيفرة "الوثيقة–الطِّلَّسم"

ليس المقصود من استعمال مصطلح "الطلسم" الإيحاء والإيهام، وإنما يتوافق هذا النعت تماما مع المنعوت؛ ذلك أن الوثائق التي تقدمها الإسطغرافيا "الخيميائية" لا يمكن أن تنعت بمصطلح أكثر دقة وتعبيرا منه، لما تمثله من غموض كبير تتفاوت درجات التعقيد والامتناع فيه شكلا ومضمونا. ونصنف الوثيقة– الطلسم إلى قسمين؛ أولهما واضح الملامح يمكن تعداد أنواعه بشكل عام فيما يأتي:

الحروز والتمائم، وتحتوي على نصوص متنوعة، تكون أحيانا عبارة عن قطع نثرية.

التمائم المركبة، وتحتوي على جزء نثري مصحوب برموز أو جداول أو طلاسم بحروف غير مألوفة.

التمائم التي تحتوي فقط على جداول، أو على طلاسم، أو ترسيمات، أو رسومات.

وثانيهما، قسم تتناثر أجزاؤه بين سطور المصادر المعتادة، تصريحا أو إيحاء يستوجب النبش لرسم عناوينها؛ ونضرب مثلا لذلك إشارة مهمة –سنعود إليها لاحقًا– ساقها ابن خلدون في معرض حديثه عن العلوم الخفية: «وقع لي بهذه الأسماء مرائي عجيبة واطلعت بها على أمور كنت أتشوف إليها من أحوالي».[١٥] يبدو أن لفظ الأسماء يشي بأسرار أو وصفات مرتبطة بأحد أضرب العلوم الخفية وهو "الكشف"، ونعتبر هذه الإشارة وثيقة تفتح منفذا لتتبع جزء من ألغاز هذه العلوم وتتيح على حد سواء استقصاء الخصائص العقلية والأفعال العلمية، وتحليلاً يكشف عن المعاني الكامنة خلف هذه النشاطات، بغية تسجيلها وجعلها مرئية ومنطقية وصالحة للأغراض العلمية. وبناء عليه، يظهر أن تتبع وقراءة مضامين العلوم الخفية من خلال جهاز مفاهيمي يستند بالأساس إلى التراث الخلدوني، يفتح آفاقا واعدة في كتابة جزء منسي من تاريخ المغرب الوسيط وغيره.

إن الغاية هي توظيف مقاربة تهدف إلى تقديم صورة للذهنية المجتمعية (نخبا وعامة)، وتعكس نظرة المجتمع للكون على كل المستويات، بما فيها مستوى اللَّاتاريخية أي الجانب المضمر والمغيب وراء الصمت. وهذا يقتضي إيجاد أرضية منهجية تستجيب لمأمول "المؤرخ" من النقاش والحوار المستمر بينه وبين نفسه، وبينه وبين متخصصي الجوار تستوي على نظم خيط منهجي متين يستطيع الصمود إزاء المسبقات النظرية. ومن باب استثمار التجارب والنتائج البحثية نستدعي ترسيمة منهجية توافق عناصرها تطلعات الغاية، وتناسب لمعالجة ما أسميناه الوثيقة – الطلسم، إذا سلمنا بوجود قواسم مشتركة واضحة بين هذا النمط من الوثائق وبين النص الديني المنقبي.

الترسيمة[١٦] المنهجية:

تنطلق الترسيمة من التأكيد على ضرورة انتباه المؤرخ إلى خصوصيات المتن الديني؛ التي أوجزها لطفي بوشنتوف في المستويات الآتية:

مستوى بنية النص الشكلية عبر الاهتمام بمساحتها، وكثافتها، وتماسكها، ومنطق بنائها وهو ترتيب مادتها.

مستوى المضمون الذي يستوجب الحفر عن بقايا الثقافة الشفهية، وأبعاد المتن الكونية والإسلامية

والمحلية، وحمولته اللغوية والاصطلاحية والرمزية كما يتطلب البحث في المسكوت عنه كالمغيب والمضمر وراء الصمت.

مستوى التقاطعات مع نصوص ووثائق، وفهم الإشارات الكبرى التي تعكس النمط العقلي والذهني والأحوال الروحية التي ترصد في الزمن الطويل.

مستوى الخطاب الذي يستلزم البحث في أسباب نزول المتن وكيفيات توظيفه، والمقاييس المعتمدة لانتقائه.

مستوى التأويل وهو غاية المستويات السابقة أعلاه، وفي نفس الآن يشكل الجانب الذي يخشى المؤرخ مزالقه ومثالبه أكثر من غيره، بناء على عدم اطمئنانه للمواد المنقبية مثل خرق العادة والحلم والمتخيل.

لا شك أن هذه المقاربة التناهجية المقترحة بين جوقة علوم متعددة تفتح باب الاصطدام بتنوع المرجعيات، مما سيحتم بدوره تعدد الفرضيات وتنوع الاستنتاجات. تدعو الضرورة أمام خطورة هذا الزخم المنهجي، إلى سلوك توجه في البحث التاريخي قمين بتوفير أرضية أو وعاء بحثي يستوعب تعددية التقاطعات والمزالق. فهل يستجيب التوجه الذهني الثقافي لكتابة التاريخ عبر رصد الذهنيات والسلوكيات المجتمعية وتتبع علاقاتها بالتحولات الاجتماعية والسياسية والدينية؟ إنها مهمة محفوفة بالمخاطر والمزالق والمشاق كما يستشف من تعبير "جاك لوغوف [LEGOFF Jaques]": «الجاذبية الأولى لتاريخ العقليات تكمن بالضبط في عدم دقته، في توجهه للإشارة إلى بقايا التحليل التاريخي».[١٧] ولعل من بين الدعوات الموضوعية المحفّزة لإيلاء العناية بما ظل مهمشّا منفوضا، الدعوى إلى اهتمام: «تاريخ الحضارات بالدرجة نفسها بالحلم وبالجمال وبالخيال الرومانسي، كما يُهتم بعدد السكان وحجم الضرائب».[١٨] شريطة أن تتوفر هذه العناية على: « بعض العناصر الصلبة لدراسة المتخيل الاجتماعي».[١٩]

يبدو أن طبيعة هذه المغامرة البحثية التي تتغيا نظم سلسلة مصدرية مستشفة ومنتقاة من مختلف المتون التاريخية، تفرض تقعيد مقاربة قائمة على تنويع زوايا التحليل كأساس منهجي ومحاولة التأويل باستثمار مداخل اللغة والسيمياء في قراءة مضمرات الذهنية المغربية الممتدة، ولتحقيق هذه الغاية نعول على تجريب منحى تأويلي يقابل "علم التعمية" (Cryptographie)، عماده؛ وضع مجموعات خاصة (Collections) لحصر المعلومات والمعطيات الأساسية، ثم وضع مدوّنات متخصصة (Corpus) لفك الرموز وتحويلها من طلاسم إلى وثائق قابلة للاستثمار والاستقراء.

ثانيًا: "العلوم الخفية" مبحث للتاريخ الثقافي والمعرفي

٢/١- مفهوم العلم في الحضارة اللاتينية والإسلامية

كلمة "علم" في المعاجم من الأصل اللاتيني تُرسم ﴿Science﴾ مشتقة من اللاتينية ﴿Scientia﴾، ومعناها: أسلوب منهجي يقوم ببناء وتنظيم المعرفة في شكل تغيرات حول الكون، ومعرفة حقة وإلمام دقيق بمسألة، أو بمجمل الأنظمة العرفانية المنطقية أو التجريبية لمضمون محدد، أو تراكم المعرفة والدراية المكتسبة حول موضوع معين.[٢٠] ويميز بين العلوم الحقة المضبوطة، وبين أخرى خلافية مثل "العلوم الخفية"، "وعلوم اللدن" التي زعم ﴿Scolastiques﴾[٢١] "السكولاستيكيون" نسبتها إلى النبي آدم عليه السلام. في القرن الثمن عشر الميلادي أطلق على الفلسفة الطبيعية نعت "العلم" في مقابل الفلسفة، لتنتفي العلاقة بين العلمية ومباحث الفلسفة في "ما وراء الطبيعة"، قبل أن يحتم تطور الفيزياء والكيمياء رفض "ما وراء الطبيعة" نهائيًا.

نحث الأنطاكي تعريفًا شموليًا وتفصيليًا أورد فيه مستويات العلم، حيث قسّمه إلى: « علم مقصود لذاته وهو تكميل النفس في قوتها العلمية أي النظرية الاعتقادية والعملية وهو غاية الأول، أو لغيره وهذا هو علم الحكمة، ثم هذه إما أن يكون موضوعها ليس ذا مادة أو كهني وهذا هو الإلهي، أو ذا مادة وهو الطبيعي، أو ما من شأنه أن يكون ذا مادة وإن لم يكن وهو الرياضي...يقال؛ العلم إما استدلال بعلوي على علوي فقط وهو كغالب الطبيعي، أو بعلوي على سافل كالأحكام النجومية، أو بسفلي على مثله كالشعبذة والسيميا والسحر أو استعانة ببعض الأجسام على بعض بشرط

مخصوص نحو زمان ومكان كعلم الطلسمات ».(٢٢)

وجمع أصناف العلوم في أربع مدارات رئيسة هي الأذهان واللسان والأبدان والأديان، وعدّد أصولها كما يأتي:

الأذهان، وأصول علومها خمسة عشر علما؛ المنطق والحساب والهيئة والهندسة والفلسفة الأولى والفلسفة الثانية والإلهيات والطبيعيات والفلكيات والسماء والعالم والأحكام والمرايا والموسيقى و"الإرِّتماطِيقَى" (علم خواص الأعداد) والصناعات الخمس (وسائل البرهنة والقياس: البرهان، الجدل، الخطابة، الشعر، المغالطة).

اللسان، وأصول علومه كذلك؛ اللغة والمعاني والبيان والبديع والعروض والقافية والاشتقاق والنحو والصرف والقراءة والصوت والمخارج والحروف وتقسيم الحروف وتوزيع اصطلاحات الأدب.

الأبدان، وأصول علومها؛ الطب والتشريح والصياغات والسباحة وتركيب الآلات والكحل والجراحة والجبر والفراسة والنبض والبحارين والأقاليم، والتأثيرات الهوائية، والملاعب والسياسة.

الأديان، وأصول علومها؛ التفسير للكتاب والسنة والرواية والدراية والفقه والجدل والمناظرة والافتراق واستنباط الحجج وأصول الفقه والعقائد وأحوال النفس بعد المفارقة والسمعيات والسحر للوقاية وضبط السياسات من حيث إقامة الحكم والعلم بالصناعات الجالبة للأقوات.(٢٣)

تعددت تعاريف العلم وتنوعت فروعه، لكن ما عرفه من تطور لم يمحو فضل من وضعوا أحجار الأساس لمختلف العلوم والمعارف من العلماء المسلمين، كابن سينا واضع لبنات علوم الحياة التي أفرزت الطب والصيدلة والبيطرة والزراعة في حلة حديثة، وجابر ابن حيان رائد علم الكيمياء مع أبي بكر الرازي وغيرهم.

٢/٢-"العلوم الخفية": محاولة التعريف

تنبئ أرصدة الأبحاث الأركيولوجية التحليلية للُّقى الأثرية التي تنسب لحقبة "ما قبل التاريخ/ الكتابة" و"العصور الحجرية"، خاصة النقوش والرسومات وما إليها من "الفنون" عن نشأة الحداثة السلوكية في بقاع العالم أجمع، مجمل هذه الحداثة السلوكية "المشتركة" تعبر عن استمرارية ثقافة مماثلة سائدة؛ ترتكز على فلسفة الخلود، ووجود عالم للأرواح موازي ومعاصر لعالم الحاضر اليومي. وتتلخص في تواصل العالمين من خلال قنوات غامضة تستشف من الطقوسيات والمراسيم...والأحلام.(٢٤) ولا يمكن الجزم حاليًا بنجاح العقل التجريبي والفلسفة الوضعانية في مسح آثار "ما وراء العقلانية".

يوحي مفهوم "العلوم الخفية" إذا تم الاقتصار على ربطه بالمفهوم اللاتيني (Occultisme) أن موضوعه يقتصر على ظاهرة السحر والشعوذة وما إليها من الممارسات والمعارف المحظورة دينيا وعلميا. فيما تنضوي تحته جذور مختلف العلوم من قبيل الرياضيات، والطب، وعلم الفلك، وعلم النجوم، ولعل ما يُتداول في بعض المعاجم اللاتينية (كالفرنسية والإسبانية والإنجليزية) حول تعريف وتاريخ المفهوم يعلل ذلك؛ حيث إنها تجمع على تعريف العلوم الخفية (Sciences Occultes) أو (Occultisme) بأنها مجمل المعتقدات والممارسات التي ظلّت تؤمن بوجود علوم وفنون تتصل بالطبيعة، وتنتمي إلى بُعد ثالث خارج بعدي العلم والدين، فُرض عليها أن تكون خفية وسرية بسبب التحولات الكبرى التي شهدتها المجتمعات الأوربية؛ فالكنيسة الكاثوليكية نجحت في تعطيل ظهورها، قبل أن تُقصيها "الأكاديميات العلمية" التي ولدت في مهد الحداثة. وعرفت مصيرًا مشابها في الثقافة الإسلامية باعتبارها علوما شابها الغموض مما حمل الفقهاء على نبذها وتحريمها.

في الحقبة المعاصرة، وتحديدًا مطلع القرن التاسع عشر انبعث الاهتمام بـ"العلوم الخفية" في أروبا باعتبارها منظومة معقدة تختزن حلقة وصل بين ماضي أوربا الثقافي وحاضرها التقني. فاستجدت دراسات وأبحاث تعنى بمظانّ ومباحث تاريخية تتمحور حول السحر، والعلاجات الطبية، وصناعة الكرامة، ولعله من الجدير إيراد شهادة في حق العلوم الخفية وممارسيها للوسيان فيفر: «كثر النقاش في السنوات الأخيرة حول مغزى هذه "العلوم الخفية" التي ازدهرت على هامش التيار العلمي "الإنساني" [Humanisme]، برعاية أرباب الفلك ومنجمين، وأطباء، وخيميائيين. تبين... أن جهود هؤلاء الرجال في مختلف المجالات ربما أسدت خدمة

للعلم الحديث بالإسهام في ولادته ونشأته، أكثر مما قدمت له المعارف الكلاسيكية التي أنتجها دكاترة الجامعات». [٢٥]

يمكن ربط مفهوم "العلوم الخفية" على المستوى المعجمي بمجموعة من المفاهيم والمصطلحات التي استعملت كمرادفات له؛ مثل: علم الروحانيات، العلوم اللّدنية، وعلوم الباطن، علم الحروف، علم الحدثان، وعلم الجفر، وعلوم الكشف، علم الزايرجة وغيرها. على أن مسمى "العلم الخفي" ليس دارج الاستعمال في القواميس العربية كما هو الشأن في المعاجم اللاتينية التي اعتمدت المفهوم «occultisme» بالموازاة مع تنامي الاهتمامات البحثية بالظواهر المرتبطة به. فنجد معناه يتقاطع في الألسن؛ الفرنسي والاسباني والإنجليزي. فهل "العلوم الخفية" تستحق أن تسمى علوما أم هي من العلوم الزائفة؟ وما موقعها في تاريخ وحضارة المغرب الوسيط؟ وما علاقتها بالتراث الخلدوني؟

وقف ابن خلدون في مقدمته مطولا عند العديد من القضايا المتعلقة بشتى ضروب "العلوم الخفية"، بالدراسة وأحيانا تجاوز ذلك إلى اختبار أحد وصفات "الرؤيا" الواردة في كتاب "غاية الحكيم في أحكام التنجيم" لمسلمة المجريطي: «وقد وقع في كتاب الغاية وغيره من كتب أهل الرياضيات، ذكر أسماء تُذكر عند النوم فتكون عنها الرؤيا فيما يُتشوف إليه ويسمونها الحالوميّة، وذكر منها مسلمة في كتاب الغاية حالومةً سماها حالومةَ الطَّبَّاعُ التَّام». [٢٦] وقد جربها ابن خلدون وعاين النتيجة: «وقع لي بهذه الأسماء مرائي عجيبة واطلعت بها على أمور كنت أتشوف إليها من حالي» [٢٧]، ويقصد بـ "الأسماء" في عموم اللفظ كل الكلمات أو العزائم سواء كانت عربية أم أعجمية، المستخدمة في عملية "الكشف المنامي"، أو ما يصطلح عليه بـ "الخبير الليلي"؛ ويرجح أن ممارسة هذا الطقس لا تتم فقط ليلا أثناء النوم، ولا تعتمد فقط على المرائي، وإنما توجد طقوس متعددة يتم بعضها نهارًا. رأى صاحب المقدمة أن مسلك الكشف هذا، هو المتغلب في العمران البدوي، كما أشار إلى أن له صلة قوية بأطوار الدولة وأمور السياسة، ولعل هذا من أبرز المؤشرات الدالة على الحضور القوي للعلوم الخفية في ذهنية زعماء الدول الوسيطية ببلاد المغرب.

يحضر مضمون "العلوم الخفية" بقوة في تاريخ المغرب الوسيط وتراثه؛ ذلك أنها تشغل حيزًا مهما يمتد على مساحة أنساق المقدس الإسلامي انطلاقا من النسق الديني الشرعي وهو الضابط للعلاقة بين الحلال والحرام، وصولا إلى النسق الصوفي الراعي للعلاقة المباشرة مع الإلهي ثم النسق الطرقي حيث تتمثل الوساطة بين البشري والإلهي. قال ابن خلدون في هذا الصدد: «إنا نجد في النوع الإنساني أشخاصًا يخبرون بالكائنات قبل وقوعها بطبيعة فيهم يتميز بها صنفهم عن سائر الناس ولا يرجعون في ذلك إلى صناعة، ولا يستدلون عليه بأثر من النجوم ولا من غيرها. إنما نجد مداركهم في ذلك بمقتضى فطرتهم التي فطروا عليها، وذلك مثل العرافين والناظرين في الأجسام الشفافة كالمرايا وطِساس الماء والناظرين في قلوب الحيوانات وأكبادها وعظامها وأهل الزجر في الطير والسباع وأهل الطرق بالحصى والحبوب من الحنطة والنوى وهذه كلها موجودة في عالم الإنسان لا يسع أحدا جحدها ولا إنكارها». [٢٨]

ومما أثار اهتمام صاحب المقدمة بالمغرب وجود أهل الأسرار الخفية الممارسين لعلوم الحروف: «وقد شهدت جماعة بأرض المغرب، ممن اتصل بذلك، فأظهر الغرائب وخرق العوائد وتصرف في الوجود بتأييد الله». [٢٩] إن من أهم المسوغات التي يجب اعتبارها لشيوع الإيمان بالعلوم الخفية بالمغرب خاصة في العصر الوسيط، هي الصلة المباشرة بالطبيعي التي هذبت إمكانية حضور الخرق والتفاعل مع عالم مليء بالأرواح والقوى والجن والخوارق، لكن ما دلالة العبارة الأخيرة: بتأييد الله؟

استخلص عبد الله العروي من معالجة بن خلدون لمباحث "العلوم الخفية" أن: «التنجيم وكل ما يتعلق به هو إرث حضارة سابقة راسب في عمران بدوي، فيبقى حاضرًا عندما يزدهر العمران... ويكتسي عندما تشرف الدولة على الانهيار كل مظاهر "العلم" الدقيق المجرب ليخبر عما يكون في كل النهايات: نهاية الملك ونهاية الدولة ونهاية المجتمع والإنسان والكون». [٣٠] فهل ما دفع صاحب المقدمة للانخراط في صراع مرير ضد

ظاهرة الخرق وتياره الجارف لمحاصرة منطق "الكشف" كان مجرد هم سياسي كما تصور عبد الله العروي؟[٣١]

خَاتِمَةٌ

ابتغت هذه المحاولة التمهيد لفتح منفذ بحثي يتتبع مضمرات الذهنية المغربية لإثراء النقاش الدائر حول علاقة الدين والعلم والعقل، وعلاقة وعي المغاربة بالوسط التاريخي عموما. ولمحاولة القبض على التِّيمات الصامتة في أحشاء التاريخ "الوضعاني"، البعيدة عن التاريخ الرسمي والقريبة من الإثنولوجيا "الكولونيالية"[٣٢]، إيمانًا بأن قلة الاكتراث بما هو عادي وصامت يُفوِّتُ الكشف عن أصالته المتوارية. إن المغرب بلد الروحانيات والخوارق والسحر منذ القديم، ولا تزال هذه التمثلات حاضرة عند المغاربة أنفسهم كما عند الآخر. وتظل آثار العلوم الخفية حاضرة في الذهنية المغربية وشاهدة على احتكاك المغاربة الطويل بالطبيعة وأسرارها قبل احتكاكهم بالتقانة العصرية التي أنتجتها "الحداثة" لتزاحم الأفكار قبل الأوطان في أذهانهم وتصوراتهم وفي حياتهم اليومية. تأكّد علميا أن المغرب القديم كان مأهولاً منذ ما يزيد على ثلاثمائة ألف سنة.[٣٣] مما يجعل البحث في تاريخه وتراثه أمرًا مثمرًا، خاصة بعد أن أسقطت القراءات الإثنوغرافية الأفكار المسبقة حول الحضارات "المنعوتة بالبدائية" وخلخلت بذلك مركزية الحضارة الأوربية ذات الجذور الإغريقية الرومانية والمسيحية.

إن العلوم الخفية مفهوم فضفاض، هُلامي، لكنه يحفظ في ثناياه أنموذجًا ثقافيًا (Paradigme culturel) يسمه الغموض المحرّم أحيانًا والمحترم أحيانًا أخرى. ينبني صرحه في التاريخ الإسلامي على ثنائية التضاد (الشرعي وغير الشرعي) التي تحجب وراءها ما يفيد في ردم الهوات ومحو البياضات المتناثرة في المتون القديمة. فهل العلوم الخفية بالمغرب تاريخ تعرض للحظر والطمس، أم أنها واقع ثقافي صامد باستمرار؟

الإحالات المرجعية:

(١) ميشيل فوفيل، **التاريخ والأمد الطويل**، ضمن **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة وتقديم محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧، ص ١٤٥.

(٢) ناصر سعيدوني، **أساسيات منهجية التاريخ**، دار القصبة للنشر، الجزائر، ٢٠٠٠، ص٨.

(٣) محمد حبيدة، **الكتابة التاريخية، التاريخ والعلوم الاجتماعية** (ترجمة)، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٥، ص٢١٥.

(٤) محمد بن عبد الرحمان بن محمد شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، تحقيق فرانز روزنثال، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٦، ص٥. فرانز روزنثال، **علم التاريخ عند المسلمين**، ترجمة صالح أحمد العلي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ص ٣٧١-٣٧٢.

(٥) شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، ص٩.

(٦) صاحب المؤلف هو شمس الدين أبو الخير محمد بن عبد الرحمان، اشتهر بالسخاوي نسبة لـ "سَخَا" شمال **مصر**، ولد حوالي سنة ٨٣١هـ/١٤٢٧-١٤٢٨م بالقاهرة، مؤرخ وعالم حديث وتفسير وأدب اشتهر عصر المماليك، توفي **بالمدينة المنورة** حوالي سنة ٩٠٢هـ/١٤٩٧م. اقترحُ مؤلفه لسببين؛ أولا، لاعتبار تجربته لاحقة للتجربة الخلدونية التي ننوي استثمارها من زاوية مختلفة، وثانيا لتماهي عنوانه مع عنوانين سطّرهما عَلَمان من أعلام المدرسة التاريخية الأوربية وهما: "**مارك بلوك**[Marc BLOCH] ومؤلفه حمل عنوان: "**مهنة المؤرخ أو دفاعا عن مهنة التاريخ " Apologie Pour l'Histoire Ou Métier d'Historien**.

و"لوسيان فيفر [Lucien Febvre] وعنوان مؤلفه: " **معارك من أجل التاريخ" Combats pour l'Histoire** ".

(٧) إسماعيل بن حماد الجوهري، توفي في نهاية القرن الرابع الهجري الموافق لأوائل القرن الحادي عشر الميلادي، عالم من أئمة اللغة العربية، صاحب كتاب "**الصِّحَاح**".

(٨) عبد الملك بن قريب بن عبد الملك بن علي بن أصمع الباهلي البصري ولد بالبصرة حوالي سنة ١٢٣هـ/٧٤١م (زمن الأمويين)، وتوفي بالبصرة حوالي سنة ٢١٣هـ/٨٢٩م (زمن العباسيين)، اشتهر بكونه عالما لغويا فذا، وتوارت خلف شهرته النحوية مؤلفات عديدة في علوم وفنون مختلفة كالعلوم الطبيعية وعلم الحيوان. ابن النديم، الفهرست، تحقيق أيمن فؤاد سيد، دار المعرفة للطباعة والنشر، بيروت، (غياب الطبعة) ٢٠٠٩، صص ٨٢-٨٣

(٩) شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، ص١٦ – ١٧.

(١٠) ابن منظور، **لسان العرب**، مادة أرخ، باب الهمزة، المجلد الأول، تحقيق عبد الله علي الكبير وآخرون، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص ٥٨. مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروزآبادي، **القاموس المحيط**، فصل الهمزة، باب الخاء، تحقيق محمد نعيم العرقسوسي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثامنة، ٢٠٠٥، ص٢٤٨.

(١١) شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، ص١٨.

(١٢) نفسه، ص ١٨-١٩.

(١٣) شمس الدين السخاوي، **الإعلان بالتوبيخ لمن ذم أهل التأريخ**، ص١٩.

(١٤) تتمظهر هذه الرؤية فيما بلوره جيل المؤرخ الفرنسي "جاك لوغوف J. LE GOFF " وهو كون «**جدّة التاريخ ترصد من خلال ثلاث سيرورات: إشكالات جديدة تعيد النظر في التاريخ نفسه، مقاربات جديدة تطوِّر وتغني مجالات التاريخ التقليدية، مواضيع جديدة تثري الحقل الإبستيمولوجي للتاريخ**» .

J. LE GOFF, P. NORA, Faire de l'histoire, Nouveaux problèmes, nrf, éditions Gallimard, 1974, P X.

نقلاً عن: لطفي بوشنتوف، «**الأدب الديني مصدرا لتاريخ المغرب الحديث**»، مجلة البحث التاريخي، عدد ٧/٨ ، دار المنظومة، ٢٠١٠، ص ٩٣-١٠٠.

(١٥) عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠١، ص ١٣٢.

(١٦) لطفي بوشنتوف، «**الأدب الديني مصدرا لتاريخ المغرب الحديث**» ، مجلة البحث التاريخي، عدد ٧-٦، دار المنظومة، ٢٠١٠، صص ٩٣-١٠٠. تجدر الإشارة إلى أن عنوان المقالة "**العلوم الخفية موضوعا للبحث في التاريخ الثقافي**" وخطوطها العريضة نبعا قبل الاطلاع على مقالة الأستاذ **لطفي بوشنتوف**، ولمّا تقاطع الانشغال المنهجي تمت الاستفادة من حصيلة هذه الأخيرة من باب استثمار التراكم المعرفي لإنشاء **ترسيمة منهجية**.

(١٧) جاك روفيل، «**تاريخ العقليات**»، ترجمة محمد حبيدة، مجلة أمل، عدد ٧، الدار البيضاء، ١٩٩٦، ص ٦٣-٧٠.

(١٨) التعبير لـ "**جوهان هويزنغا**" في كتابه "**انحطاط العصر الوسيط**"، نقلا عن فيليب أرياس، «**تاريخ الذهنيات**»، ضمن **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٨١.

(١٩) وهي صيحة ردّد صداها "**جاك لوغوف**" في مقولة له ضمن كتابه "**من أجل عصر وسيط آخر**"، نقلا عن فيليب أرياس، «**تاريخ الذهنيات**»، ضمن **التاريخ الجديد**، إشراف جاك لوغوف، ترجمة محمد الطاهر المنصوري، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ط١، ٢٠٠٧، ص٢٨١.

(20) DICTIONNAIRE LE ROBERT.COM

(٢١) نسبة إلى "السكولاستيك" وهي معرفة تمتاح من التراث الأرسطي المؤول من لدن الثيولوجيين الأوروبيين، وتجمع بين الفلسفة والثيولوجيا المدرّسة في جامعات أوربا الوسيطية، تقابل علم الكلام في التراث المعرفي الإسلام DICTIONNAIRE LE ROBERT.COM .

(٢٢) داود الضرير الأنطاكي، **تذكرة أولي الألباب والجامع للعجب العجاب**، الجزء الأول، المطبعة العامرة الشرقية، مصر، الطبعة الثانية (حجرية)، ١٣١٧هـ، ص ٦-٨.

(٢٣) نفسه، نفس الصفحتين.

(٢٤) علّق فرويد عن الأحلام قائلا: «**كان للأحلام في العصور القديمة أهمية كبيرة في التنبؤ بالمستقبل؛ ولكن العلم الحديث أعرض عنها، إذ أسلمها للخرافة معلنا أنها مجرد عمليات "جسمية" أو نوع من التشنج يطرأ على ذهن هو في حالة النوم**» . سيغموند فرويد، **حياتي والتحليل النفسي**، ترجمة مصطفى زيور وعبد المنعم المليجي، دار المعارف، الطبعة الرابعة، ١٩٩٤، ص٦٦-٦٧.

(٢٥) نورد النص الأصلي المقتطف من كتاب لوسيان فيفر، "**مشكلة الإلحاد في القرن السادس عشر: ديانة رابليه**":

« On a beaucoup discuté, ces années dernières, sur le rôle, la valeur, la dignité de cette (science occulte) qui s'est développée, en marge de la science humaniste, par les soins d'astrologues, de médecins, de chercheurs de pierre philosophale. On a montré (et de côtés très opposés) comment l'effort confus de ces hommes, leurs idées troubles, leurs spéculations aventureuses et mêlées de rêveries, avaient peut-être, dans certains domaines, rendu plus de services à la science moderne,= =contribué davantage à sa naissance et à sa constitution, que le savoir classique des docteurs fabriqués par les Universités *». Lucien FEBVRE,* ***Le problème de l'incroyance au XVI(e)siècle : la religion de Rabelais****, Edition albain Michel , paris, 1947- Édition numérique, 2006, Québec, p 451.*

(٢٦) عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص ١٣١.

(٢٧) نفسه، ص ١٣٢.

(٢٨) عبد الرحمان ابن خلدون، **مقدمة ابن خلدون**، ص ١٣٢.

(٢٩) نفسه، **ص** ٦٩.

(٣٠) عبد الله العروي، **مفهوم العقل مقالة في المفارقات**، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، بيروت، ط ٢، ١٩٩٧، صص ٢١٠-٢١١.

(٣١) نفسه، ص ٢١٨-219.

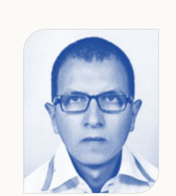
(٣٢) نخص بالتحديد أعمال "إدمون دوطي" [Edmond DOUTTE] وخاصة مؤلفه "**السحر والدين في شمال إفريقيا**"، الذي وصفه "جاك بيرك" [Jacques BERQUE] قائلاً: « **كتاب عظيم...من أهم ما كتب في هذا المجال في المغرب الكبير** »، مضيفا في حق صاحبه: «**إنه ملاحظ نافذ، ورحالة نبيه، وباحث متفطن لتصحيح المعرفة عبر الخيال، وجدت فيه الإثنولوجيا الإنجليزية والسوسيولوجيا الفرنسية نعم المطبّق**».إدمون دوطي، **السحر والدين في شمال إفريقيا**، ترجمة فريد الزاهي، المعهد الجامعي للبحث العلمي، الرباط، الطبعة الثالثة، ٢٠١٩، ص٦.

(٣٣) إعلان المعهد الوطني لعلوم الآثار والتراث التابع لوزارة الثقافة والاتصال، سنة ٢٠١٧ باكتشاف بقايا عظام إنسان ينتمي لفصيلة "**الانسان العاقل البدائي**" بموقع جبل "**إيغود**" إقليم اليوسفية؛ والتي تم تحديد تاريخها بحوالي ثلاثمائة ألف سنة.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

نشأة وانهيار النّظم الحضاريّة
محاولة في الفّهم



د. محمد البشير رازقي

أستاذ مساعد في التاريخ
المعهد العالي للعلوم الإنسانية
جامعة جندوبة – الجمهورية التونسية

مُلَخّص

سعينا في هذا البحث إلى تفهّم الأسس الحيويّة لنشأة وانهيار النظم الحضاريّة مع محاولة تقديم نموذج أصيل وطريف بدون السقوط في تكرار ما قيل سابقًا. وقد راهن المقال على مسألة تأسيس براديغم للفهم يكون قابلاً للتطوير أوّلا ولمناقشته ثانيًا. وقد تبيّن لنا أنّ النظم المعرفيّة تعتمد أساسًا على سيرورة نشأة النظم الحضاريّة بموقع جغرافي متميز ومحاط بمنافسين أقوياء ووجود عوائق تجبر الفاعلين على ابتكار حلول لتوحيد الداخل ودفع أطماع الخارج. تحتاج الحضارة لُمعطى الثقة المتبادلة بين الدولة وأعوانها وبين الدولة والسكان وبين السكان وأعوان الدولة. تتكفّل في هذا السياق الأيدولوجيا بتوحيد الداخل وتشكيل الهوية الجماعية ووصم الخارج لشرعنة حيازة الأرباح الخارجية. يتوحّد الصف الداخلي عبر تحييد المنافسين مع الحفاظ على وجودهم للإبقاء على متغير المنافسة والابتكار. ثم تُشكّل صورة العدو خارجي لتشكيل الهويّة أولاً وبالتالي اكتساب حقّ الوجود. تُحافظ هذه المنظومة على متانتها في ظلّ وجود منافسة وتوازن قوى داخليّ وخارجيّ، إذا فإنّ وجود حضارة أخرى قوية ضروري لبقاء قوة الحضارة الفتيّة ذاتها ومرتكز أساسي وحيويّ لها. بالمقابل، فإنّ توازن القوى (داخليًا وخارجيّا) يحتاج لمتغيّر الأزمة ليحافظ على نضارته، وكلّما ازدادت أهميّة الموقع/ الموضع الجغرافيّ كلّما ازداد التنافس.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٠٢ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

النظم الحضاريّة؛ براديغم؛ منهج البحث التاريخي؛ تاريخ الحضارات؛ التاريخ المقارن

معرِّف الوثيقة الرقمي 10.21608/KAN.2023.252567 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد البشير رازقي، "نشأة وانهيار النظم الحضاريّة: محاولة في الفَهم".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٩١ – ١٠٤.

Corresponding author: rezgui.medd gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدّمَةُ

حرص عدد كبير من الباحثين على دراسة مفهوم "الحضارة" تاريخيًا، ولغة، وراهنا ورهانات. لم تُجمع الدراسات على تقديم سيرورة واحدة لنشأة الحضارات أو انهيارها، حيث قُدّمت أسباب عديدة جغرافيّة وسياسيّة واقتصاديّة ومناخيّة إلخ. سوف نسعى في هذا البحث إلى محاولة تقديم خُطاطة بسيطة وأوليّة لأسباب نشأة ورسوخ أو تقلّص النّظم الحضاريّة. وقد ارتكز هذا البحث على هواجس منهجيّة أساسيّة أهمّها تجنّب الفكر الخطّي والثنائي[١]، مراهنا على "الفكر الشبكي" وتجنّب الفكر الثنائي من أجل فهم التحوّلات والمراهنة على فهم المناطق الرمادية[٢]، وتبيّن أهمية تعدّد الأفكار المتناقضة والمستفزّة[٣]، ودور الفاعلين الاجتماعيين ورهاناتهم.

تتخلّل هذا البحث إشكاليّة أساسيّة وهي: ما هي المرتكزات الأساسيّة المشكّلة للنظم الحضاريّة؟

أولاً: أسس تشكّل النّظم الحضاريّة

تعتمد الحضارات على "التعقيد" ومفهوم "الأنظمة المعقّدة" لما له من أهميّة في نشأتها وتواصلها مثل الاقتصاد المعقّد الذي يعتمد على "تكديس الأرباح وتعزيزها"، و"التخطيط الاقتصادي وإدارة الطلب"، و"التنظيم"، و"التكيّف المستمرّ والتكوين المستمرّ لمنافذ أسواق جديدة"، إلى جانب دور الحروب في صعود "المؤسسات المعقّدة" وانحدارها. ويتضرّر تعقّد الأنظمة من الفساد داخل الدولة أو الحضارة، وأحيانا يستفيد الفساد نفسه من هذا التعقيد ليتغلّل ويتوارى. كما تصبح الحروب والأزمات في ظل تعقّد النظم أمرًا خطيرًا يمكن أن يسبّب انهيار الحضارة. وقد طُرحت ستة أسباب ساهمت في سيطرة الحضارة الغربيّة بالتشابك مع مفهوم التعقّد: أوّلاً المنافسة حيث ساعد انقسام أوروبا إلى دول عديدة على هذا الأمر. ثانيًا الثورة العلميّة. ثالثًا: حكم القانون وخاصةً مفهوم الحكومة التمثيليّة. رابعًا: الطبّ الحديث، خامسًا: المجتمع الاستهلاكي، سادسًا: أخلاقيّات العمل حيث جمع الغرب بين العمل المكثّف ونسبة الادخار العالية مما أسّس لمراكمة مستمرّة لرأس المال[٤].

وقد راهن جاك غودي Jack Goody على فكر "الشبكة" لفهم سيرورة الحضارة، فالتقسيم الثنائي "لا يسمح بالتعددية والتناقض" والتنوّع[٥]. وقد حاول غودي أن يبينّ أن حضارات كثيرة لا تقلّ شأنا عن الحضارة الغربيّة وتحوّل الأمر مع بروز الاقتصاد والثورة الصناعيّة وما نتج عن ذلك من تطوّر تقني وعسكري وحاجة لمؤسسة الاستعمار. كما أكد غودي على أهمية مؤسسة "المدينة" في التطوّر الحضاري فقد كانت دائما "مراكز التجديد" و"مسرحا لحرب اجتماعية بقسوة لا تعرف الرحمة"، وقد كانت المدينة هي رحم التجارة والخالقة لها والمدعّم الأول للممارسات الفنية والإبداعية[٦].

من ناحية أخرى، بيّن نوربرت إلياس Norbert Elias أن سيرورة التحضّر في أوروبا كانت نتيجة الصراع بين الأرستقراطية والبرجوازية، وتشابك ذلك مع تعاظم دور مؤسسة الدولة المركزية ونزوع الإنسان للتهدئة والسلم الاجتماعي الداخلي مع عقلنة الإدارة، مع زيادة كبير في الحروب بين الدول. تفاعلت إذا مؤسسة الدولة مع المجتمع مع الأفراد مما نتج عنه سيرورة التحضر[٧]. فمن المهمّ لنشأة حضارة أن يحصل صراع بين أفكار محلية وأفكار مستوردة، وأن يحصل جدال وتشاحن بين الأفكار المتنوّعة للداخل، ثم نقاش وجدال بين أفكار الداخل والخارج. فمن الحيوي أن تُشكّل "شبكة" من الأفكار ذات المصالح المتدافعة والمتنافسة مع شبكة أو شبكات أفكار أخرى ذات رهانات والغاية وقوع التنافس والتدافع والابتكار والمناورة[٨]، فينبعث إذا الإبداع من التعارض،[٩] خاصّة وأنّ توازن القوى يُعدّ "سياسة، وقانونًا تاريخيًا ومبدأ ونظامًا"[١٠]. كذلك من المهمّ أن يوجد تيّار محافظ في الحضارة ليحصل الإبداع من دون أن يكون ذلك التيّار المحافظ ماسكا تماما وبصفة مطلقة بمقاليد السلطة والسيطرة[١١]. وهذا ما يُسمّى "التنافس الهيكلي"، فلا يظهر كل مبدع على حدة "فالمواقف التنافسيّة تنمو بشكل متزامن مع بعضها البعض"[١٢].

يراهن هذا البحث على أهميّة وإجباريّة تواجد متغيّر توازن القوى الداخلي والخارجيّ في نشأة النظم الحضاريّة. استفادت أوروبا من ثنائيّة الدّولة ورأس المال، وقد نشأت هذه الثنائيّة نتيجة الصراع الاجتماعي بين الحضارات الأوروبية، والفايكنج، والإسلامية، والبيزنطية، والأمريكية الأصلية، والمنغولية. شكل هذا الصراع مؤسسات الدولة والطبقة الرأسمالية في نهاية العصور الوسطى. علاوة على ذلك، أدّت هذه التطورات مباشرة إلى الإصلاح والنهضة. ومع الانفجار البحري الذي حدث خلال عصر الاستكشاف، اصطدمت أوروبا بحضارات الأميركتين مما أدى إلى خلق الموجة الكبرى الثانية من التطور الرأسمالي، مع الاعتماد الأساسي على الآلة الحربيّة لترسيخ صعود الحضارة الغربية[١٣]. استفادت إذا أوروبا من موقعها الجغرافي بين فضاءات حضاريّة عديدة متنافسة، وهذا ما يؤكّد على ترابط الجغرافيا السياسية والاقتصاد والحرب والتطوّر الحضاري. لقد وفّر الانقسام السياسي أو التنافس بين الدول في الغرب بيئة أكثر ملاءمة لإنشاء حقوق ملكية حكومية وخاصة، وحرية اقتصادية ورأسمالية. ولهذا السبب استطاع الغرب أن يتفوق على الحضارات الآسيوية العظيمة ويزدهر. كما أن التكامل الأوروبي أدى إلى تقليص خطر الحرب في أوروبا. بالمقابل فإنّ انخفاض معدلات الخصوبة والهجرة الجماعية قد يؤدي إلى تقويض الأساس المؤسسي للرخاء والاستقرار السياسي على مستوى الأمد البعيد[١٤].

تعتمد النظم الحضاريّة الفتيّة على "ميزة التخلّف" حيث طرح باحثون آخرون فرضيّة أنّ انهيار الإمبراطوريات العريقة يُنتج خمسة نتائج لو اجتمعت تؤسّس لنشأة إمبراطوريات فتيّة، وهي: توليد عدم استقرار إقليمي في الإمبراطورية السابقة، ونخب ثورية محبطة تميل إلى الأجندات الإمبراطورية، وإيديولوجية إمبريالية قوية، وأساس منطقي أيديولوجي لإعادة الإمبريالية، وقدرة الدولة الكافية لجعل إعادة البناء ممكنة أي توفّر مؤسّسات وأعوان دولة قادرين وأكفّاء[١٥]. وتستفيد الحضارات الناشئة من "ميزة التخلّف" والعيش ضمن الأطراف في الأطراف الحضريّة وليس ضمنها[١٦]. ويُعنى بميزة التخلّف هي الاستفادة من كل المنجزات المعرفيّة المُنتجة من طرف حضارات أخرى وفهم الأخطاء والفوائد مع وجود هامش تطوّر كبير، هذا إلى جانب إمكانيّة الاستفادة من المنافسة الدوليّة على مجالات النفوذ سواء ثنائيّة أو متعدّدة الأقطاب. ومن الأدلّة على "مزايا التخلّف"[١٧]، هو الأجر المتدنّي للعامل الصيني الذي جلب مُجمل استثمارات العالم إلى الصّين.

تستفيد النظم الحضاريّة من ثرواتها الداخليّة والخارجيّة، ويساهم متغيّر المنافسة مع بقيّة القوى الخارجيّة في حثّ الإمبراطورية على ابتكار أساليب للتميّز سواء تقنيّة أو عسكريّة أو السعي لكسب الولاء. بالمقابل تسعى الإمبراطورية/ الدولة لتحصين الدّاخل والمحافظة على وحدتها الاجتماعيّة والسلم الأهلي عبر إصلاحات اجتماعيّة وسياسيّة وقانونيّة والاقتصاديّة[١٨]. تتحرّك إذا رهانات الفاعلين المؤثّرين في الداخل بالتفاعل والتشابك والتدافع مع سياقات فاعلين الخارج. تسعى الإمبراطورية أساسًا إلى حيازة المنافع الاقتصاديّة، وتُشرعن ذلك بمدوّنة قانونيّة متينة، وهذا ما يؤسس خطاب الإمبراطورية. يسعى التشريع القانوني لحماية الإمبراطورية في جبهتها الداخليّة وتأمين مصالحها ومصالح أعوانها الاقتصاديّة في الداخل والخارج. وهذا ما يؤسّس لثلاثيّة: الإمبراطورية والقانون والنموّ الاقتصادي[١٩].

وقد بيّن لنا تاريخ الحضارات أهميّة توفّر أسس حيويّة لنشأة النظم السياسيّة الصلبة مثل دور المدينة الحيوي في تشكيل الفضاءات والأطر المعرفيّة[٢٠]، وتوفّر أسس "الاقتصاد العضوي"، وهي الثروة الحيوانيّة والنباتيّة، والاقتصاد غير العضوي، مثل الفحم وبقية أشكال الطاقة المصنّعة[٢١]. وتساهم الإصلاحات الجبائيّة وتوفّر البنية التحتيّة التجاريّة (طرقات، تناقل معلومات، وسائل نقل...) والعدل بين المتنافسين الاقتصاديّين ومحاولة الدولة المحافظة على قيمة العملة وتوفير توازن بين معدّل الأجور والسلع المتوفّرة ومداخيل والمصاريف (التصدير والتوريد...)[٢٢]. ويُوفّر النموّ الاقتصادي وتوسّع التجارة نشأة تحالفات جديدة داخليّة وخارجيّة، ونشأة مؤسسات جديدة. وفي هذا السياق، تسعى الحضارة إلى السيطرة على مرتكزات القوّة

الأساسيّة وهي ملكية الأرض، وملكيّة رأس المال ووسائل الإنتاج، وتأسيس جهاز إيديولوجي متين للتحكّم في مسائل النسب والقرابة والمكانة الاجتماعية والمناصب المؤثّرة مثل الفقهاء والمفتين وأعوان الدولة سياسيّين وعسكريّين. يتخلّل بناء الحضارات تقنيات عديدة مثل سعي الفاعلين إلى صناعة النقيض لما هو سائد أي صناعة هوية مغايرة، ويتكفّل الجهاز الإيديولوجي للحضارة بذلك. تساهم هذه التقنية في تعيين، وابتكار إن لزم الأمر، أعداء مختلفة مصالحهم مع مصالح الحضارة الصاعدة وهذا ما يؤسّس لشرعيّة الوجود، وشرعيّة الحرب مع الآخر، وتوحيد الصفّ الدّاخلي. ولهذا نطرح في هذا المقال فرضيّة أساسيّة وهي أنّ الحضارة لا تترسّخ إلاّ بعد صناعة عدوّ ووصمه وتشكيل صور نمطيّة حوله، وهذا ما يساهم في بناء الهويّة الجماعيّة. ويتشابك مع هذا السّعي تقنية بناء الذّاكرة وابتكار سرديّات للتأسيس. تقع الصدامات الكبرى في المقام الأوّل داخل الحضارات أي بين الفاعلين المؤثّرين والمتنفّذين في الحضارة نفسها، لا بين الحضارات الكبرى. إذا المواجهة الأولى هي محليّة سعيا لاحتكار السلطة ومنابع النفوذ وتحصينا للجبهة الداخليّة. وهذا الذي حصل في الفترة التأسيسية للإسلام(٢٣). بالمقابل تساهم الصراعات مع الخارج في تشكيل حضارة الداخل إما بصقلها وتقويتها، أو إضعافها، أو إبقاءها حيّة رغم ضعفها. العدوّ الخارجي يطيل عمر الإمبراطوريات رغم ضعفها ووهنها. ولهذا تحتاج الحضارات زمن الأزمات إلى صناعة واختلاق عدوّ خارجي(٢٤).

بيّن أنور عبد الملك الأسس الأربعة الضروريّة للوجود الاجتماعي وهي القدرة على إنتاج الاحتياجات المعيشيّة، والثروة الديمغرافيّا، وتوفّر سلطة مركزيّة، ووعي أهل الحضارة بأهمية تموقعهم الزماني والتاريخي وتعاليهم، وتبرز هنا أهمية الأديان(٢٥). بالمقابل حاول توماس كون Thomas kuhn تشريح مسألة إنتاج المعرفة وبيّن أنها تعتمد على تراكم الخبرة والمعرفة، وأهميّة وجود صعوبات وعوائق مما يوفّر الحاجة للابتكار والتجربة وأخيرا يقع التجاوز، أي ابتكار براديغم جديد يُعوَض القديم(٢٦). ولهذا ترتكز الحضارة على أسس عديدة أهمّها الابتكارات العلميّة والتجارة والطرق التجاريّة البحرية والبريّة، والكشوفات الملاحية والجغرافية، واقتصاد راسخ يسمح باعتصار فائض الإنتاج مع مراعاة ثنائيّة جودة/ثمن. كما تسمح الأنهار الكبرى بتوفير شريان اقتصادي حيويّ ووسيلة شحن للمناطق بأسرع زمن وأقلّ تكلفة وأقلّ خطورة، وينتج عن ذلك منافسة بين الفاعلين في الجودة والسعر وابتكار الطرق والتقنيات الجديدة. ومن المهمّ أن تكون السلطة قادرة على التحكّم في شبكات الطرق ووسائل الاتصال.

تسعى الحضارة إلى امتلاك جهاز إنتاجي متين عبر امتلاك الطّاقة وهذا ما يدعّم القدرة التنظيمية وحشد الجيوش. ويسمح ذلك بالمرور لمرحلة التمدّن، وامتلاك التكنولوجيا وبالتالي القدرة على صناعة الحرب. ولهذا فهي تحتاج إلى أسس ماديّة لنشأتها خاصّة قوّة العمل اليدويّة والتقنيّة والمواد الأولية والثروات الطبيعيّة(٢٧). وينتج هذا الأمر بالضرورة نشأة التمييز بين الفاعلين سواء تمييز طبقي أو معرفي، وهنا تضطلع الإيديولوجيا بمهمّة شرعنة الفروق و"تصنيفها لا فقط بوصفها جوانب غائيّة للعلاقات الاجتماعية، بل على اعتبار أنها متجذّرة في جوهر الكون"(٢٨)، ولهذا من الطبيعي أن تتشابك المصالح الاقتصاديّة والاجتماعيّة والأفكار في إنتاج النّظم الاجتماعيّة(٢٩). تعتمد فكرة "المجتمع" على السعي إلى فهم طبيعة التآلف الاجتماعي عكس فكرة نمط الإنتاجي التي تبتغي معرفة القوى الفاعلين ذات الرهانات وشبكات المصالح في المجتمع، والأساليب التي تعتمدها، سواء فكريّة أو ماديّة، للنفاذ إلى المنافع والمصالح. تساهم شبكات العلاقات في إخضاع السكّان إلى أوامرها وتوجيههم إلى العقود الاجتماعيّة التي تراهما مناسبة، و"يقوم كل نمط في نطاق دائرة نفوذه بتوليد أشكال من التزامن بين جماعات وطبقات تخدم أغراضه في ظلّ ظروف تاريخيّة وجغرافية معيّنة"(٣٠). ويحضر القانون في هذا الإطار كوسيلة حيويّة وأساسيّة لتأسيس العلاقة بين الحاكم والمحكوم وبلورة مفهوم الوطن أو السلطة عموما "بالمعنيين الزماني والمكاني"(٣١).

تسعى الحضارات للبحث عن أسهل وأكثر الوسائل ربحا والأسرع والأكثر أمانا لكسب الأرباح ودفع الخسائر، فمُجمل اكتشافات الطرق البحريّة والبريّة

والأساليب المرتبطة بتقنيات التنقّل ونقل المعلومات بأسرع طريقة تنضوي تحت هذه الفكرة(٣٢)، مثل اكتشاف رأس الرجاء الصالح وأمريكا وشقّ قناة السّويس. ولهذا تستفيد الحضارات من موقعها الجغرافي لتناقل سهل للمعارف والبشر والهويّات والثقافات واكتساب القدرة على عبور الحدود الثقافيّة والدينية والماديّة، وتوفير التلاقح الثقافي عبر الجيوب الجغرافية الهجينة (الجزر مثلاً)، والمهارات اللغوية، والتلاقح القومي، والديني، والعرقي. كما يساهم اجتماع قوى عديدة في حيّز جغرافيّ معيّن في ترسيخ متغيّر المنافسة مع تقارب القوى، ويدعّم ذلك التنافس على مستوى الإنتاج وبالتالي البحث عن التفوّق، ويترسّخ ذلك بتواجد مؤسسة الأسواق الداخلية والخارجيّة(٣٣). كما يوفّر الموقع الجغرافي الملائم الاستفادة من الثروات الطبيعيّة ومن الطرقات التجاريّة البريّة والبحريّة(٣٤)، أو بالابتعاد عن بطش المنافسين الأقوياء مثل حالة الولايات المتحدة إلى حدود النصف الأول من القرن ٢٠. وفي هذا الإطار تشابك صعود الولايات المتّحدة مع ذروة الإمبريالية الأوروبيّة لكن في ظلّ بعد جغرافيّ آمن عن القارة الأوروبيّة سمح لها من ناحية بمعارضة كلّ وجود أوروبيّ في القارة الأمريكيّة (كندا، المكسيك، كوبا: بالنسبة لإنجلترا وفرنسا وإسبانيا) مع صعوبة أوروبيّة تقترب من الاستحالة في محاربة الولايات المتّحدة الأمريكيّة. نفس البعد الجغرافي مكّنها من تمثّل واستيعاب مرتكزات الثورة الصناعيّة مع هامش زمنيّ وسياسيّ للقيام بالإصلاحات الاجتماعية والاقتصادية والقانونيّة. وترسّخ ذلك باستثمار مثاليّ لنتائج الحرب الأهلية الأمريكيّة وأهمّها إتمام السيطرة على الجنوب وبالتالي على ثرواته المتوجّهة للقارة الأوروبية وخاصة القطن والشروع في حيازة شاملة للشرق الأمريكي. نشأت القوّة الأمريكية أمام أعين الهيمنة الأوروبيّة وفي الآن ذاته بدون القدرة على منعها(٣٥).

تسعى السلطة للتآلف الاجتماعي والتوافق بينها وبين المجتمع وبينها وبين المنافسين الخارجيين. وتشهد هذه الرهانات بروز عدد من المتغيّرات تطرأ على المجتمع في محاولة التكيّف مع الظروف الخارجيّة المتغيرة، وتكيّف المؤسسات الاجتماعيّة المختلفة داخل الدولة مع بعضها، وتكيّف الأفراد مع هذه المؤسسات. وتعتمد النظم الحضاريّة في زمن البناء على ثلاثة منابع أساسيّة وهي: العرق، العقيدة، والعائلة. وتساهم أنماط الإنتاج المختلفة والمتنوّعة في تحديد طبيعة السلطة، وبالتالي في تشكيل الإيديولوجيّة الملائمة لهذه السلطة(٣٦). كما تسعى إلى توفير شرعيّة لوجودها ولهذا يُستحضر الماضي أو "النهضة renaissance" وإعادة الإحياء. فالوجهة هي الماضي والهدف هو الحاضر والمستقبل(٣٧). وتسعى الحضارة إلى إنتاج المعاني وتسمية الأشياء وتعيينها، وتعريف الأفعال، والأقوال، وتصنيفها. ولهذا تضطلع الإيديولوجيا بمهمّة "تقنين" الفوارق الاجتماعية لا باعتبارها نتيجة صراعات اجتماعية، بل باعتبار "أنها متجذّرة في جوهر الكون، في طبيعة الطبيعة، في طبيعة الطبيعة الإنسانية وفي طبيعة المجتمع"(٣٨). وقد استنتج وولف أنّه ثمة "وجه اقتصادي وسياسي لتشكّل منظومة الأفكار، ومنظومات الأفكار هذه لا تلبث لحظة إنتاجها أن تتحوّل إلى أسلحة في صدام المصالح الاجتماعية"(٣٩).

يحتاج الفرد لمؤسسة الدولة، مثلما تحتاج الدولة لسكّانها. وتسعى الدولة لتوفير عناصر أساسيّة مثل الأمن والغذاء. يرتّب إبراهام ماسلو Abraham Maslow نموذجا هرميّا للحاجات البشريّة وهي الحاجيات الفيزيولوجية (هواء، ماء، نوم...)، والأمن والأمان (منزل، وطن، أسرة...)، والانتماء (الترابط الاجتماعي، القرابة...)(٤٠). ويُعتبر العدل وسيلة أساسيّة لتوفير التهدئة الاجتماعيّة والمحافظة على الوحدة الداخليّة. ولهذا ركّزت كتب المرايا السلطانيّة على هذه المسألة. أقام الطرطوشي مثلاً نظريّته في الدولة على أساس: الملك، الجند، مال، جباية عمارة، عدل(٤١). وقد ذُكر في مصادر أخرى الأركان الأربعة للملك حسب أبي جعفر المنصور وهي: قاض عادل، صاحب شرطة ينصف الضعيف من القويّ، صاحب خراج لا يظلم الناس ويحفظ المال، صاحب بريد أي مشرف على جمع الأخبار والمعلومات ينقل أخبار الأركان الثلاثة الأولى بدقّة(٤٢). وتترسّخ هذه العوامل المؤسساتيّة والإيتيقيّة بمرتكزات بنيويّة سواء على مستوى البنى الاجتماعيّة أو الاقتصاديّة، حيث يشير الماوردي إلى أن الاجتماع

البشري يرتكز على ثلاثة عناصر وهي: الفرد، الروابط الدموية بين الأفراد، العناصر المادية وهي الوسائل الضرورية للعيش (الاقتصاد)[٤٣]. ويؤسّس العدل لمسألة الشرعيّة، حيث تُعاني الأبنية الحضاريّة من هشاشات داخليّة كثيرة تساهم في تراجعها أو تفكّكها مثل غياب العدالة الاجتماعية، أو تفكّك السلطة المركزيّة، وغياب الشرعيّة للوجود وعدم التمكّن الاقتصادي والتكنولوجي وبالتالي العسكري[٤٤]، ويساهم ذلك في تهديد معاش السكّان وفقدان السلطة لأحد مرتكزات الحضارة وهو إيديولوجية السلطة الحاكمة، أي الشرعيّة[٤٥].

بيّن أدم سميث المرتكزات الأساسية لتطور الحضارة الأوروبية وأهمّها اختراع الأسلحة النارية (الثورة العسكرية)، ونظام الإنتاج القائم على تقسيم العمل دون عبودية، وتأسيس السلطة المطلقة، مع الاعتماد على نظام سياسي مرتكز على الحريّة[٤٦]. كما ناقش عدد الباحثين فكرة أن تفوّق نموذج الدولة الأوروبية يرجع إلى القدرة على حفظ السلم الداخلي وضمان حقوق الملكية في الأسواق وتحصيل الضرائب والقدرة على الدفاع وشن الحرب"[٤٧]. ولهذا تسعى النّظم الحضاريّة لتوفير التهدئة الاجتماعية والسلم الأهليّ، حيث تتشكّل الحضارات من مجموعة من الثقافات وهي تتوزّع عموما بين الثقافة السائدة، والثقافات الفرعية، والثقافات المضادّة. وعلى السلطة أن تُحسن التعامل بينهما لتجنّب الصراعات الداخليّة. تتضرّر الحضارات من الانقطاعات التي تتخلّ النسيج الاجتماعي وتُبطل آليّات التضامن مما يُنتج الصراعات الداخليّة بين الفاعلين بسبب عدم توزيع عادل للثروة ومنع جزء من المجتمع للنفاذ إلى المصالح الاجتماعيّة السياسيّة[٤٨]. ولهذا تُعدّ فكرة "الثقة" لحظة أساسيّة في البناء الحضاري[٤٩]. وهذا ما يُثبت أهميّة ممارسات الصّفح في حياة الحضارات بحثا عن التهدئة الاجتماعيّة وكممارسة قيميّة[٥٠]، كما تنقلنا قيمة الصّفح لمسألة الغفران وآثارها الحضاريّة[٥١]، حيث تعتمد الأنظمة لاستمراريّتها على عوامل عديدة منها "التسامح المتبادل" و"المؤسساتيّة"[٥٢]. ولا يمكن لنا الحديث عن سلم أهليّ أو تهدئة اجتماعيّة بدون سلطة قويّة راسخة، ولهذا تحتاج النظم الحضاريّة إلى سلطة قويّة مركزيّة قادرة على التجميع والتهدئة الاجتماعيّة وانفاذ القرارات والمشاريع وإرضاء مُجمل الفاعلين المؤثّرين، فالسلطة أساسا هي "مركز تكوين واستمراريّة"، وهي "الفكرة الأمّ"[٥٣]. ويُستتبع ذلك بتشكيل المدوّنات القانونيّة لترسيخ السلم الأهلي وسرعة التبادلات والبيع والشراء (سلع وأفكار وعقول)، واحتكار وسائل إنتاج الطاقة (الإنسان، مواد أولية، ثروات طبيعيّة...)[٥٤].

نلاحظ علاقة قوة الحضارة ونشأتها بالقدرة على انتشار الأفكار الجديدة والفترة الزمنية المناسبة لانتشار الفكرة والوسائل المعتمدة لانتشارها والتركيب الاجتماعي المتقبل لها[٥٥]. تبتكر الحضارة، أو تتبنّى، فكرة ثم تسعى إلى نشرها في الداخل والخارج. وثمة ثلاثة شروط لانتقال الفكرة: أوّلاً أن تكون قادرة على الانتشار عبر التواصل المباشر أو من خلال قنوات خاصّة، ثانيًا: يجب أن تكون الحضارة راغبة في تقاسم المعارف أو عاجزة عن حجبها. وثالثًا، من المهمّ أن يكون المتلقّي راغبًا في قبول هذه المعرفة أو عاجزًا عن صدّها[٥٦].

تسعى الحضارة إلى تحقيق التراكم الاقتصادي مع إعادة الإنتاج والتوسّع ولا يمكن أن يتحقّق ذلك بدون ثروات بشريّة. ولهذا يتخلّل بناء الحضارات هواجس ديمغرافيّة، فحسب أميّا كومار باغتشي Amiya Kumar Bagchi، مرّت الرأسمالية بعصرين محوريين، الأول عصر الثورة الصناعيّة بداية من سنة ١٧٦٠، والثاني تحسّن طول العمر وصحّتهم بسبب ثلاثة عوامل هي تطور النظرية الجرثومية في الأمراض والتدابير الوقائية، هجرة جزء من سكان أوروبا إلى أمريكا، تطوّر نضالات العمال مع اشتداد وطأة الرأسمالية. أجبرت هذه العوامل الحكومات الأوروبية على تحسين خدماتها الاجتماعية والصحية (الصرف الصحّي مثلا)[٥٧]. برز هنا متغيرين حاسمين. أولا السيطرة على البيئة المرضيّة (النظافة، التلاقيح، الدواء...)، وثانيًا توفّر موارد غذائيّة (سعرات حراريّة مناسبة وبالتالي مناعة أصلب وأشدّ)[٥٨].

ثانيًا: أسباب انهيار النّظم الحضاريّة

ناقش عدد من الباحثين معايير مختلفة لقياس التحضّر مثل العلاقة الرابطة بين استنزاف الموارد واكتشاف الموارد الجديدة، والكوارث الطبيعية والقصور في التعامل مع الظروف المحيطة، ودور الغزاة في ذلك، وسوء الإدارة ومعاناة المجتمع من الصراع (الداخلي والخارجي) وسوء الإدارة والتناقضات والاختلال الاجتماعي والأزمات الاقتصادية (خاصةً الزراعة) وقدرة الدولة على التعامل مع معطى المعلومات، وطبيعة السيطرة السياسيّة ومداها وحدودها[٥٩].

قُدّمت تأويلات عديدة حول أسباب سقوط الإمبراطوريات منها فساد النخب والطبقة الحاكمة[٦٠]. كما نُوقش قانون الدورات التاريخيّة المعتمد على فقدان العصبيّة والتماسك الاجتماعي (ابن خلدون) ودورة الحياة الطبيعيّة (شبلنجر)، والتحدّي والاستجابة (توينبي Arnold toynbee). ويتشابك ذلك مع الدورات الاقتصاديّة (كونراتيف Nikolaï Kondratiev) حيث إنّ الحروب والثروات هي نتيجة للحركات الدوريّة الاقتصاديّة، وقُدّمت نظريّات أخرى لانهيار الحضارات تفيد بأنّ التقدم الصناعي والتكنولوجي يأتي عادة على حساب زيادة التعقيد البنيوي لتكاليف الطاقة والتكاليف الاجتماعية الهائلة؛ وكلما زاد التقدم كلما زاد التعقيد، وزادت بالتالي الموارد اللازمة للحفاظ عليها، مما يؤدي إلى انهيار الحضارة المشرفة على هذا التقدّم[٦١]. وسعت دراسات أخرى إلى التدليل على أنّ فشل النظم الحضاريّة في التوفيق بين القوّة العسكريّة والاقتصادية والسياسيّة والأيديولوجيّة يؤدّي إلى تقهقرها وانهيارها. وقد خصّص هيرفريد مونلكر Herfried Münkler كتابه لمحاولة فهم وتحليل هذا المنطق، حيث إنّ هيمنة حضارة معيّنة ترتبط بسيطرتها واحتكارها لمجموعة من الميزات الاقتصاديّة مثل "دورة الهيمنة" التي عايشتها الولايات المتحدة الأمريكية بين سنة ١٨٥٠ و١٩٧٣ بفضل تفوّقها المطلق عالميا في قطاع الصلب، والحديد، والمنتجات الكيميائية والكهربائية. ثم دخلت الولايات دورة هيمنة جديدة بفضل تميّزها المطلق في تكنولوجيا المعلومات[٦٢]. عيب هذه النظريّة أنها تميل كليّا للجانب الاقتصادي، ولهذا يطرح Herfried Münkler رأيا مفاده أن على الامبراطوريّة أن توافق بين القوة الاقتصادية (المداخيل، فائض الإنتاج، السياسات الجبائيّة...) والسياسية (النخبة الحاكمة، عقلنة الإدارة...) والإيديولوجية (الهويّة الثقافيّة، الخطاب الرسمي والمضاد...) والعسكريّة (البحرية والبريّة...) فصنف "القوة الضرورية لارتقاء الإمبراطوريات واستقرارها يرتبط إذا بعوامل داخليّة أوّلا وظروف خارجيّة ثانيا"[٦٣].

ساهمت التجارة والحروب في نشأة حضارات وانهيار أخرى[٦٤]. ويبرز لنا عبر التاريخ أهمية الموارد الأولية في نشأة الحضارة واستمرارها وخاصة الماء، التربة، التعدين، الغابات، والمناخ. ونفس هذه العناصر تسبّبت في انهيار نُظم أخرى وخاصة بعد الضرر الذي يسبّبه السكّان لبيئتهم مما يُنتج استنزافا للثروات الطبيعيّة، وبالتالي الغذائيّة، ويعقب ذلك حروب، وأزمات، وأوبئة، ومجاعات. أما العامل الثاني فهو تغيّر المناخ مما يسبب أزمات زراعية، ثم غذائية ووبائيّة، وإمكانية وقوع الكوارث الطبيعيّة (جفاف، فيضان...). والعامل الثلث وجود الجيران الأعداء المحاربين المندفعين حاملي الأطماع. والسبب الرابع: انخفاض الدّعم من الجيران الأصدقاء، فلكل مجتمع تاريخيا عادة حلفاء وأصدقاء وداعمين (في الحرب، التجارة، الثقافة...). والعامل الخامس هو طبيعة ردود الفعل التي ينتجها المجتمع تجاه المشكلات التي تعترضه، وتبرز هنا أهمية مؤسسة الدولة المركزية، أو فعل العقلنة، أو التنظيم الإداري[٦٥]. ولهذا تتشابك الحضارة عضويّا مع مجالها، فقد ذكر جاريد ديموند Jared Diamond خمسة عوامل لانهيار النظم الحضاريّة وهي: الضرر البيئي الذي يمكن أن يحدثه السكّان، القوى الطبيعيّة الناجمة عن تغيّر المناخ بما في ذلك إمكانيّة وقوع الكوارث الطبيعيّة والوبائيّة، سلوك الدول المجاورة المعادية، ضعف الشركاء التجاريين والحلفاء القريبين والبعيدين، الاستجابات المتباينة للمجتمعات المختلفة للمشكلات المتشابهة[٦٦]، ويتشابك ذلك مع القدرة على إنتاج الأسلحة المناسبة في الأزمنة المناسبة واحتكارها وحيازة مواد تمكّن نت ابتكار هذه الأسلحة (الحديد،

الفولاذ...)، وتموقع جغرافي مثاليّ سواء بمنأى عن العدوّ أو بتوفّر أراضي خصبة ومشتملة على ثروات معدنيّة، ونفس هذا الموقع الجغرافي يساعد على تجنّب الأوبئة والجراثيم[٦٧].

تمثّل شبلنغر Oswald Spengler الحضارة بكونها نسق عامّ فنيّ وثقافيّ ومعماريّ وعسكري وتقني، وعليها على أن تصل إلى مرحلة إنتاج الرّموز (الأفكار) مع القدرة على تسويقها مع ميله للوجدان على حساب العقلانيّة المفرطة حيث لم يخف توجّسه من المدنيّة الحديثة. ولهذا ركّز على أهميّة الأخلاق والفضيلة في المجتمعات. حاول أيضا أن يبيّن دور الحرب في نشأة الدولة وأهميّة وجود أعداء خارجيين لتشكيل الوعي الجماعي. وقد ركّز شبلنغر على دور "روح" الحضارة في استمرارها أو انهيارها. ومن المهمّ أن يبرز هنا الروح الجمعي، والدّين و"أسطورة ذات طراز عظيم"، هذا هو "الرّبيع"، ثم يدخل الصّيف مع نضوج المجتمعات وبداية بروز الهيجان الشعبي وانتقاده لأصحاب المصالح. ثم يدخل فصل الرّبيع حيث يتمّ عقلنة الحياة وتعويض الطبيعة بالروح. ويعلن فصل الشتاء عن بزوغ "النظرة الماديّة للعالم" و"مذهب العلم، المنفعة والرفاه" ويحدث "استئصال القوّة المبدعة" و"النوازع الأخلاقيّة". وتتزامن هذه الحقبات الأربعة (ذات المنحى الخلدونيّ البيّن) مع إنتاج فنيّ متنوّع معماريّ وتشكيلي وموسيقيّ[٦٨].

بيّنت الأبحاث أسبابًا عديدة لانهيار الحضارات مثل انعدام الأمن، والأزمات البيئية أو الاقتصادية، والمجاعة، وما يستتبع ذلك من انحدار ديموغرافي. وهذا ما يُنتج انقطاع التفاعل بين العوامل البيئية، والسياسية، والاجتماعية، والثقافية. تحاول السلطة الرّاسخة الاستجابة الفعّالة للأزمات البيئية من خلال الابتكار والتكثيف[٦٩]. ويساهم تشتّت الدولة في الحروب واختلاف محاور الصراع لديها في انهيارها وتراجع الحضارة عموما، ويمكن أن يتدعّم ذلك بالأزمات المناخيّة والكوارث الطبيعيّ والوبائيّة والغذائيّة والانهيار الديمغرافي، ويؤسس ذلك لتمزّق الداخلي للدولة وانقسامها لأقاليم مع فقدان السلطة لحكمها وهيمنها المركزيّة، إلى جانب فقدان الدولة لشبكة صلاتها الدبلوماسيّة وعلاقاتها ومواصلاتها مع الخلفاء الخارجيين (المموّلين الأساسيّين بالغذاء والسلع والأفكار)[٧٠]. وقد ركّز عدد آخر من الباحثين على مسألة التغيّرات المناخية التي تؤثّر مباشرة على الإنتاج الفلاحي والغذائي للحضارة ممّا يفقد الحضارة قدرتها على إعالة السكّان وبالتالي حضور المجاعة. فقد تزامن الجفاف مع سقوط عدد كبير من الحضارات. كما برزت نظريّة "التجاوز overshoot" حيث تتوسّع المجتمعات على حساب حجم الموارد المتقلّص وغير المستدامة، كما تؤثّر الصراعات الداخليّة والأزمات السياسيّة في زعزعة استقرار الحضارات ويحرمها من التحرّك في الوقت المناسب لمجابهة الأزمات المناخيّة أو الوبائيّة أو الغذائيّة والعدوان الخارجي. إذا طرح الباحثون ثلاثيّة: تغير المناخ، والإفراط في الاستهلاك، والانقسام السياسي عند الحديث على انهيار الحضارات[٧١].

يمكن أن تتعرّض الإمبراطوريات للانهيار السّريع بسبب كارثة طبيعيّة جارفة أو عجز ماليّ واستنزاف عسكريّ[٧٢]. ومن الأسباب الأخرى لانهيار النظم الحضاريّة نجد النمو السكاني الكثيف، والمنافسة الاجتماعية والسياسية المتزايدة بين أصحاب النفوذ والفاعلين، وتفاقم الانقسامات الطبقية، وميل المجتمعات للنزعة العسكرية، والمنافسة بين الجيّران مما أنتج ضغوطات عسكريّة واقتصاديّة، ويمكن أن ينتج عن ذلك انهيار التجارة والزراعة. وتترسّخ هذه الانهيارات مه بروز مراكز أخرى ذات نفوذ وحائزة على موارد أقوى وأثمن[٧٣]. كما يساهم الانقسام المجتمعي، خاصّة المصنوع من السلطة الحاكمة، سواء كان دينيّا أو عرقيّا أو لغويّا في التمهيد لانهيار الحضارات. يمكن للسلطة أو تشكّل وتنسج خيوط هذا الانقسام، أو يمكن لها أن تستثمر وجوده. يرسّخ هذا الانقسام عدم وجود ممارسات إداريّة عقلانية في الدولة خاصة على المستوى الاقتصادي والسياسي، وهذا ما يُعرقل الاستثمار الأمثل للموارد البشريّة والطبيعيّة مع التحيّز لفاعلين اجتماعيين دون سواهم[٧٤]. ويؤثّر انتشار العنف الداخلي في استنزاف الحضارات مع فقدان الدولة لمصداقيّتها وعجزها عن القيام بواجبها المعاشي والحمائي والاجتماعي تجاه السكّان، وبالتالي إمكانية انهيار مؤسسات الدولة. ينتج فشل الدولة عادة عن التفاعل

طويل المدى بين عدد من العوامل أهمّها الركود الاقتصادي، والانقسامات السياسية والعرقية، والفساد المستشري، وتدهور البنى الأساسيّة والتحتيّة، والتدهور البيئي[٧٥].

من أهم أسباب انهيار النظم الحضاريّة هي بروز طبقة ليس لها ما تخسره أو تخاف عليه، وهي عادة ما تكون طبقة متضرّرة من نمط الإنتاج السائد. طرح عدد من الباحثين أسبابا أخرى لانهيار الحضارات حيث تتركّز الثورة بين أصحاب النّفوذ، مما يستنزف الموارد، ويعيق قدرة السلطات المركزية على الاستجابة بشكل مناسب للتهديدات المتزايدة التي تهدد المجتمع، وتشتدّ الأزمة مع عدم قدرة القادة على التعامل مع المشكلات سواء الداخلية أو الخارجيّة، مع حرص متواتر على التذكير بخطر الكثافات السكانيّة عبر أفكار المالتوسيّة الجديدة المتشابك مع ندرة المواد الأساسيّة والاستهلاك غير المتحكّم فيه والإفراط الشديد في استغلال الطبيعة والتلوّث. مع بروز متغيّرات أخرى مهمّة مثل التفكّك الاجتماعي حيث فقد المجتمع تماسكه التقليدي عبر تقلّص نفوذ مؤسسات كالعائلة والجيرة والصداقة، كما ساهم تراجع الاقتصاديّات المحليّة والتقليديّة في اشتداد الأزمات المعيشيّة لأصحاب الدخل المحدود، وبالتالي عدم قدرة الجميع للوصول إلى ضروريّات الحياة وهي المأكل والملبس والمأوى والأمن والرعاية الصحيّة والتعليم[٧٦]. وتطرّقت بحوث أخرى لدور المناخ والهجرة والأوبئة وانتشار الأسلحة وبالتالي ترسّخ وجود مؤسّسة الحرب في تدهور الحضارة[٧٧]. وناقش آخرون أنّ الحضارات تنتهي بالانهيار لأسباب متنوعة منها البيئي والثقافي، ولكن يكمن وراء كل هذه الأحداث ميل نحو التكثيف الاقتصادي والتوسع السياسي وزيادة السيطرة الاجتماعية، وبالتالي فقدان المرونة الاجتماعية والسياسية، وهذا ما يرسّخ قدرة المجتمعات المحليّة على إدارة مواردها الخاصّة وتقليل نفوذ المركز والسلطة الحاكمة[٧٨]. ولم يغفل عدد من الباحثين دور الدّين والإيمان والتوق إلى "روح" الشعب أو الأمّة في تأسيس الحضارة أو ترسيخها[٧٩].

قدّم عدد من المؤرّخين آراءهم في سبب انهيار الإمبراطورية الرومانيّة، فقد تعرّضت للجفاف مما انجرّ عنه معايشة السكّان حالة الندرة وبالتالي وقوع المجاعة. كما شهدت الدولة انخفاضا في عدد الولادات، كما تناقص وجود النُخب في الرّيف مما تسبّب في تقلّص الممتلكات الكبيرة، وقد نتج عن ذلك الإمبراطورية لأفقر الفلاّحين مع بقاء مساحات واسعة من الأراضي بورا. أنتجت هذه الأسباب أزمة اقتصاديّة عميقة، وقد تعمّق ذلك بغياب الطرق الآمنة سواء البريّة أو البحريّة ممّا أثّر بالتالي على التبادلات التجاريّة. كما عانى المجتمع الروماني من انشقاقات داخليّة حيث اضطرّت الإمبراطورية إلى تجنيد "المرتزقة" والمسيحيّين رغم رفضهم لها، بل لم يخفوا تمرّدهم عليها مما تسبّب في كثرة الثورات وبالتالي القمع، مما ساهم في فقدان الجيش الروماني توازنه. وتفاقمت هذه الأزمات بالحروب الكثيرة التي شنّتها القبائل المحيطة بأراضي الإمبراطورية أو ما أطلقت عليهم الوثائق "البرابرة"[٨٠]. وقد ساهمت نفس هذه الأزمات (الحرب، الأوبئة، التدهور الديمغرافي)، في سياقات أخرى مختلفة، في بروز الهيمنة الأوروبيّة بداية من الطاعون الأسود، والحرب بين المدن والدول التجاريّة، والحروب الداخليّة والأهليّة الدينيّة وأخيرا نشأة الثورة الصناعيّة[٨١].

ارتبط الوعي بسقوط الحضارة بسياق أدبي وفكري كامل متشائم وقاس ولم يخف تنبّأه وتوقّعه لهذا السقوط[٨٢]. وقد تعمّق بول هازار Paul Hazard في هذه المسألة مبرزا علاقة السياقات الحضاريّة بتمثّلات الفاعلين المؤثّرين في المجال العلمي وبيّن دور تصادم الأفكار في وقوع الأزمات الفكريّة وفي الآن ذاته السعي للبحث عن حلول وأنماط معرفيّة وفكريّة جديدة من قبيل التصادم بين القانون الطبيعي والقانون الإلهي، أو التضاد بين الحداثة والتقليد (وما نشأ مثلا عن ذلك من إنكار للسحر وإنكار العجائب والسعي الدؤوب للبحث عن تفسيرات علمية طبيعيّة). عرّف في هذا الإطار بول هازار أوروبا بأنّها "استبسال جيران يتقاتلون. ومنافسة بين فرنسا وإنجلترا، وبين فرنسا والنمسا...إنها حرب عامّة...وستشكّل أوروبا مجتمعا بدل من أن تبقى ساحة معارك"، وقد استفادت أوروبا من "معركة الأفكار

الكبرى" هذه[٨٣]. وقد تناول إدموند هوسرل هذا الأمر من زاويته الخاصّة وبيّن أنّ الحضارة الأوروبيّة عايشت أزمة ابتيمولوجيّة وهي فصل العلوم "الصحيحة" عن كلّ ما هو وجداني وإنساني وعزل كلّ أسئلة المعنى والغاية[٨٤]. وقد قدّم الباحثون أسبابًا أخرى لسقوط الحضارات مثل طبيعة سلوكيّات السكّان (الأخلاق والفضيلة مثلا)، وقصر النّظر وطبيعة البيئة وغياب مفهوم المؤسّسات وترسّخ السلطة المركزيّة وتوفّر الرعاية الاجتماعيّة من عدمه[٨٥].

خَاتِمَةٌ

سعينا في هذا البحث إلى تبيّن أهمّ مرتكزات بناء النّظام الحضاريّة وأبرز أسباب انهيارها. وساعدنا البحث في سياق هذه الإشكاليّة على محاولة بناء نظريّة أوليّة، وتتمثّل أهمّ مفاصلها في فرضيّة أولى أساسيّة وهي إجباريّة توافر متغيّر الأزمة. يحثّ هذا المتغيّر المشرفين على النظم الحضاريّة على ابتكار حلول للعوائق التي تعترضهم والتفكير في أساليب وأنماط سياسيّة واقتصاديّة واجتماعيّة مغايرة للأنماط التي تسبّبت في الأزمة. كما يؤسّس متغيّر المنافسة لانتشار ثقافة الابتكار والخلق في ثنايا الرهانات الحضاريّة، فمن المهمّ أن تنشأ الحضارة في سياق تنافسي سواء بسبب وقوعها بين حضارات عريقة، أو بالتزامن مع نشأة كيانات حضاريّة أخرى جديدة. وقد وفّر لنا أرنولد توينبي نظريّة مهمّة لفهم جوانب عديدة لنشأة الحضارة وهي نظريّة التحدّي والاستجابة[٨٦]. حيث تخضع الحضارات لصعوبات وتحديات عديدة مما يُجبر الفاعلين على ابتكار حلول وأساليب سياسية وتقنيّة لتجاوز هذه الصعوبات. كما تتشابك الحضارات زمن بناءها مع متغيّر "المناسبة"، حيث يسعى المؤسّسون إلى ابتكار أزمنة لحضارتهم سواء زمن سياسيّ (اليوم الوطني، عيد الاستقلال...) أو دينيّ (الأعياد) أو اجتماعي وثقافي. تؤسس هذه التقنيات لتشكيل ذاكرة للحضارة والتالي شرعيّة متجددة للوجود، ولهذا لا يمكن للحضارة أن تتخلّى عن مفهوم المناسبة.

وقد طرح المقال إجباريّة وجود متغيّر توازن القوى، وإجباريّة توفّر المنافسة داخليًا وخارجيًا أوّلا عند مرحلة طفولتها حيث يسمح لها ذلك بالمناورة بين مراكز وأقطاب القوّة، وفي زمن صعودها وسطوتها عبر استغلال تنافس أصحاب النفوذ سواء في الداخل عبر حثّهم للتنافس على إنتاج المعرفة وأساليب القوّة، أو الخارج مما يسمح لها بالمساومة والمقايضة. ساهمت مسألة توازن القوى وتنوّع الفاعلين الاجتماعيّين في بروز الحضارة الغربيّة، بالمقابل نشأت لأسباب عديدة نُظم هجينة في البلاد العربية بداية من القرن ١٩، لم تكن فيها القوّة متوازنة، بل منخرمة، سواء لصالح مؤسّسة الدولة بطريقة كاسحة أو لأحد أذرع مؤسسة الدولة (الجيش مثلا) أو لعائلات داخل الدولة[٨٧]، كما أنّ التنافس بين الدول العربيّة نفسها أو بينها وبين الدول الغربيّة لم يكن موجودا البتّة أو كان تنافسا شكليّا أو فاقدا للبنى الهيكليّة المساعدة في نشأة الحضارات.

ناقش هذا البحث فرضيّة أخرى وهي أنّه لا يمكن أن تبرز حضارة إلا في حالة توفّر مفهوم التعقّد والفكر الشبكيّ مع تجنّب الفكر الخطّي والثنائي، أي تشابك الحضارة الناشئة مع رهانات زمانها وعراقيله، مع حضور فاعلين كثيرين ورهانات عديدة وأزمات متعدّدة جغرافية واقتصاديّة وغيرها. فالتعقّد يمهّد لابتكار الحلول. ومن المهمّ أن تكون الحضارات تعدديّة من الداخل لكي تستمرّ في الحياة. فالتنافس الداخلي الفكري والاقتصادي يساهم في ابتكار تقنيات ومهارات جديدة وحلول لأزمات وعوائق مستجدّة. فالحضارة تحتاج لتوازن قوى متين وراسخ داخلّي ومنافسة خارجيّة شديدة. وعلى النظم الحضاريّة أن تُنتج مدارس فكرية تعرف بها وعبرها وتولد المدارس الفكرية الأفكار عبر "الحوار والجدل والسجال والاختلاف التي تولّد توتّرا فكريّا وفنيّا"[٨٨]، وأن تجد هذه "الشبكات" الفكريّة منافسين لها في الداخل وشبكات صلبة أخرى في الخارج، فالحوار والتنافس الفكري يولّد الفكرة والتنافس ويحفز الإبداع ويزعزع "التماثل في الرأي"[٨٩].

تبيّن لنا أنّه لا يمكن بناء نظام حضاريّ بدون تشكيل شرعيّة سياسيّة واجتماعيّة للنظام السياسي، ولا تتأسّس حضارة إلا بعد ابتكار عدوّ داخليّ أوّلا وخارجيّ ثانيا وصناعة النقيض، والبحث عن شرعيّة في الماضي. تبدأ النظم المعرفيّة في وصم المنافسين المحليّين لتوحيد

الجبهة الداخليّة، ثمّ تشكيل وصم وصور نمطيّة لعدوّ خارجيّ. تسعى الحضارة إلى حماية الجبهة الداخلية وتوفير التهدئة والتآلف الاجتماعي مما يقلّص الانقسامات السياسيّة. وتتكفّل المدوّنة القانونيّة بالتأليف بين كل هذه الرهانات وهي التي تكون مراعية لتوازنات الفاعلين الاجتماعيين الداخليين وغير مستفزّة للمتنفّذين الخارجيّين. مع التركيز على المدوّنة القانونيّة الاقتصاديّة سواء الجبائيّة أو المسهّلة لعمليّات البيع الشّراء، وبالتالي السعي إلى تحقيق ثنائيّة جودة/سعر وهي الأساس المتين للرأسماليّة. وتحتاج النظم الحضاريّة إلى شرعنة لكل رهاناتها، وهذا ما يتكفّل به جهازها الإيديولوجي.

راهن المقال أيضا على فرضيّة "ميزة التخلّف" فمُجمل الحضارات الفتيّة استفادت من تخلّفها ومن تقدّم جيرانها. كما أنّه من المهمّ أن تشتمل النظم الحضاريّة على ممارسات للغفران والقدرة على إنتاج ممارسات الصّلح والتجاوز مع أهميّة الاعتماد على الحريّة كقيمة حيويّة وإجبارية. كما طرحناه فرضيّات أخرى مهمّة كإجباريّة تواجد سلطة مركزيّة راسخة وصلبة، وتمتّع الحضارة بموقع جغرافيّ آمن وغنيّ وثروة ديمغرافيّة. مع حسن توفيق أعوان السلطة بين القوّة العسكريّة، والاقتصادية، والسياسيّة، والأيديولوجيّة.

هل يمكن أن نختصر كل هذا التحليل في جمل قصيرة؟

يمكن أن نقول أنّ نشأة النظم الحضاريّة هو لحظة دقيقة ونقطة التقاء بين مصالح الفاعلين والمتنفّذين داخليّا وخارجيّا. نقطة الالتقاء هذه هي بداية نشأة الحضارة. لا تُولد الحضارة داخليّا فقط أو خارجيّا. وتعتمد السياقات الداخلية والخارجيّة على متغيّرات حيويّة أهمّها: توازن القوى الداخلي والخارجيّ وتوفير معطى التعقّد، الأزمة، المنافسة، الجغرافيا، وخاصّة شرعيّة للوجود. وغياب العناصر المذكورة المشكّلة للنظم الحضاريّة يعني تقلّصها أو انهيارها.

ويمكن أن نقدّم الترتيب التالي: تبدأ سيرورة نشأة النظم الحضاريّة بموقع جغرافي متميز ومحاط بمنافسين أقوياء ووجود عوائق تجبر الفاعلين على ابتكار حلول لتوحيد الداخل ودفع أطماع الخارج. تحتاج الحضارة لمُعطى الثقة المتبادلة بين الدولة وأعوانها وبين الدولة والسكان وبين السكان وأعوان الدولة. تتكفّل في هذا السياق الأيدولوجيا بتوحيد الداخل وتشكيل الهوية الجماعية ووصم الخارج لشرعنة حيازة الأرباح الخارجية. يتوحّد الصف الداخلي عبر تحييد المنافسين مع الحفاظ على وجودهم للإبقاء على متغير المنافسة والابتكار. ثم تُشكّل صورة العدو خارجي لتشكيل الهويّة أولاً وبالتالي اكتساب حقّ الوجود. تُحافظ هذه المنظومة على متانتها في ظلّ وجود منافسة وتوازن قوى داخليّ وخارجيّ، إذا فإنّ وجود حضارة أخرى قوية ضروري لبقاء قوة الحضارة الفتيّة ذاتها ومرتكز أساسي وحيويّ لها. بالمقابل، فإنّ توازن القوى (داخليّا وخارجيّا) يحتاج لمتغيّر الأزمة ليحافظ على نضارته، وكلّما ازدادت أهميّة الموقع/الموضع الجغرافيّ كلّما ازداد التنافس.

تنهار الحضارة عندما تنعكس هذه المصفوفة المذكورة، حيث يقع تصنيف عدو الخارج قبل تحصين الداخل، كما أنّ عدم الإبقاء على المنافسين الداخلين والخارجين يحجّم متغيّر المنافسة، وتصبح الأزمة هنا عنصرا معرقلا لا حاثا على الابتكار. كما يتسبّب غياب توازن القوى الداخليّ أو الخارجيّ في غياب الابتكار ومحولات البحث عن حلول، مما يؤثّر في أهميّة الجغرافيا، بل يمكن أن تتحوّل الجغرافيا نفسها إلى عنصر معرقل. ولهذا تتحوّل الإيديولوجيا إلى ممارسة سياسيّة تحمي الفاعلين لا بانية للحضارة.

الإحالات المرجعية:

(١) جون روبرت مكنيل، روبرت هاردي مكنيل، **الشبكة الإنسانية: نظرة محلّقة على التاريخ العالمي**، ترجمة: مصطفى قاسم، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، عدد ٤٥٨، مارس ٢٠١٨.
(٢) جاك غودي، **سرقة التاريخ**، ترجمة: محمد محمود التوبة، العبيكان للنشر، الرّياض، ٢٠١٠، ص٢٣٤.
(٣) نفس المرجع، ص.٢٣٤- ٢٣٥.
(٤) نيال فرغسون، **الحضارة: كيف هيمنت حضارة الغرب على الشرق والغرب؟**، ترجمة: سعيد محمد الحسنيّة، شركة المطبوعات للتوزيع والنشر، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠١٤، ص.٤٥١ وما بعدها.
(٥) جاك غودي، **سرقة التاريخ**، مرجع مذكور، ص.٢٣٤- ٢٣٥.
(٦) نفس المرجع، ص.٤٣١-٤٥٩.
(٧) **الحضارات في السياسة العالمية: وجهات نظر جمعيّة وتعدديّة**، تحرير: بيترجي كاتزنشتاين، ترجمة: فاضل جتكر، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، فيفري ٢٠١٢، العدد ٣٨٥، ص.٤١- ٤٢.
(٨) راندال كولينز، **علم اجتماع الفلسفات: التأثير الاجتماعي والسياسي في نشأة الفلسفات والأفكار**، ترجمة: فريق جسور للترجمة، جسور للترجمة والنشر، بيروت، ٢٠١٩، الجزء ٢.
(٩) نفس المرجع، جزء ١، ص.٢٢٩
(١٠) كارل بولانيي، **التحوّل الكبير: الأصول السياسيّة والاقتصاديّة لزمننا المعاصر**، ترجمة: محمد فاضل طبّاخ، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩، ص.٤٥٥- ٤٦٠.
(١١) راندال كولينز، **علم اجتماع الفلسفات**، مرجع مذكور، جزء ١، ص.٤٩٧-٥٧٧
(١٢) نفس المرجع، ص.٢٨
(13) Victor Lee Burke, "The rise of Europe", Humboldt Journal of Social Relations, Vol. 20, No. 1 (1994), pp. 1-30
(14) Erich Weede, "Geopolitics, Institutions, and Economics", Geopolitics, History, and International Relations, Vol. 8, No. 1 (2016), pp. 177-220
(15) Alexander J. Motyl, "Why Empires Reemerge: Imperial Collapse and Imperial Revival in Comparative Perspective", Comparative Politics, Vol. 31, No. 2 (Jan., 1999), pp. 127-145
(١٦) جاك غودي، **سرقة التاريخ**، مرجع مذكور، ص.٣٣٩
(١٧) إيان موريس، **لماذا يهيمن الغرب اليوم؟ أنماط التاريخ وما تكشفه لنا عن المستقبل**، ترجمة: روان القصاص، مركز نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠١٨
(18) Gabriel Paquette, The European Seaborne Empires: From the Thirty Years' War to the Age of Revolutions, Yale University Press, 2019
(19) Tirthankar Roy, "Empire, Law and Economic Growth", Economic and Political Weekly, Vol. 47, No. 8 (FEBRUARY 25, 2012), pp. 98-104
(٢٠) جاك غودي، **سرقة التاريخ**، مرجع مذكور، ص.٢٩٢
(٢١) نفس المرجع، ص.٣١٧- ٣١٨.
(22) Jude T. Wanniski, "Economic Policy and the Rise and Fall of Empires", Financial Analysts Journal, Vol. 36, No. 1 (Jan. - Feb., 1980), pp. 20-27
(٢٣) ريتشارد غابرييل، **محمد أول جنرال في الإسلام. السيرة العسكرية الشاملة**، ترجمة: أحمد العبدة، جسور للترجمة والنشر، بيروت، ٢٠٢٣
(24) Yann Le Bohec, « Les guerres pour la vie (v. 509-396 avant J.-C.) », in: Histoire des guerres romaines Milieu du VIIIe siècle avant J.-C. – 410 après J.-C., Tallandier, Collection : L'art de la guerre, Paris, 2017, p.71-79
(٢٥) أنور عبد الملك، **الإبداع والمشروع الحضاري**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ٢٠١٣، ص.٣٣
(٢٦) توماس س. كون، **بنية الثورات العلميّة**، ترجمة: حيدر حاج إسماعيل، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٧
(٢٧) إريك وولف، **أوروبا ومن لا تاريخ لهم**، ترجمة: فاضل جتكر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠٠٤، ص.٤١٨
(٢٨) نفس المرجع، ص.٥٤٤
(٢٩) نفس المرجع، ص.٥٤٦
(٣٠) نفس المرجع، ص.٥٤٠- ٥٤١
(٣١) جوزيف مسعد، **آثار استعماريّة: تشكيل الهويّة الوطنيّة في الأردن**، ترجمة: شكري مُجاهد، مدارات للأبحاث والنشر، مصر، ٢٠١٩، ص.٥٧
(32) Stephen J. Pyne, The Great Ages of Discovery: How Western Civilization Learned About a Wider World, University of Arizona Press, 2021,
(٣٣) توماس س. باترسون، **الحضارة الغربيّة: الفكرة والتاريخ**، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠١، ص.٥- ١٨
(٣٤) روبرت كابلان، **انتقام الجغرافيا: ما الذي تخبرنا به الخرائط عن الصراعات المقبلة وعن الحرب ضد المصير**، ترجمة: إيهاب عبد الرحيم علي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٤٢٠، ٢٠١٥
(35) Andrew Priest, Designs on Empire: America's Rise to Power in the Age of European Imperialism, Columbia University Press, 2021
(36) Philip Pomper, "The History and Theory of Empires", History and Theory, Vol. 44, No. 4, Theme Issue 44: Theorizing Empire (Dec., 2005), pp. 1-27
(37) Wallace K. Ferguson, "The Interpretation of the Renaissance: Suggestions for a Synthesis", Journal of the History of Ideas, Vol. 12, No. 4 (Oct., 1951), pp. 483-495
(٣٨) إريك وولف، **أوروبا ومن لا تاريخ لهم**، مرجع مذكور، ص.٥٤٣- ٥٤٤
(٣٩) نفس المرجع، ص.٥٤٦
(40) Abraham Maslow, "A theory of human motivation", Psychological Review, 50(4), 1943, pp.370–396
(٤١) أبو بكر الطرطوشي، **سراج الملوك**، تحقيق: محمد فتحي أبو بكر، الدار المصرية اللبنانية، ط.١، القاهرة، ١٩٩٤
(٤٢) أبي القاسم رضوان المالقي، **الشهب اللامعة في السياسة النافعة**، تحقيق: علي سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، ١٩٨٤
(٤٣) أبي الحسن علي بن محمد بن حبيب الماوردي، **الأحكام السلطانيّة**، دار ابن قتيبة، الكويت، ١٩٨٩

(٤٤) خلدون حسن النقيب، **الدولة التسلطيّة في المشرق العربي المعاصر: دراسة بنائيّة مقارنة، مركز دراسات الوحدة العربية**، بيروت، ١٩٩١.

(٤٥) غسّان سلامة، المجتمع والدولة في المشرق العربي، **مركز دراسات الوحدة العربية**، بيروت، ١٩٨٧

(46) Shinji Nohara, "Adam Smith on the cyclicity of the rise and fall of civilization", The Kyoto Economic Review, Vol. 79, No. 1 (166) (June 2010), pp. 77-89

(٤٧) **الحضارات في السياسة العالمية**، مرجع مذكور، ص. ٥٠

(48) Lewis A. Coser, "Social Conflict and the Theory of Social Change", The British Journal of Sociology, Vol. 8, No. 3 (Sep., 1957), pp. 197-207

(٤٩) فرانسيس فوكوياما، **الثقة: الفضائل الاجتماعيّة وتحقيق الازدهار**، مركز الإمارات والبحوث لاستراتيجيّة، أبو ظبي، ١٩٩٩

(٥٠) جاك دريدا، **الصّفح، مالا يقبل الصفح وما لا يتقادم**، ترجمة: مصطفى العارف/ عبد الرّحيم نور الدّين، منشورات المتوسّط، ميلانو، ٢٠١٨

(٥١) بول ريكور، **الذاكرة، التاريخ، النسيان**، ترجمة: جورج زيناتي، دار الكتاب الجديد المتّحدة، طرابلس، ٢٠٠٩، ص.٦٦١-٧٢٩

(٥٢) دانيال زيبلات/ستيفين ليفيتسكي، **كيف تموت الديمقراطيات؟ ما يخبرنا به التاريخ عن مستقبلنا**، ترجمة: رعد زامل، سطور، العراق، ٢٠٢٠

(٥٣) ميريام ريفولت دالون، **سلطان البدايات: بحث في السلطة**، ترجمة: سايد مطر، المنظمة العربية للترجمة، بيروت، ٢٠١٢، ص.٤٤

(٥٤) كافين رايلي، **الغرب والعالم: تاريخ الحضارة من خلال موضوعات**، ترجمة: عبد الوهاب محمد المسيري/ هدى عبد السميع حجازي، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، العدد ٩٠+ ٩٧، ١٩٨٥- ١٩٨٦ (٢ أجزاء).

(٥٥) افريت. م. روجرز، **الأفكار المستحدثة وكيف تنتشر**، ترجمة: سامي ناشد، عام الكتب، القاهرة، د.ت، ص.٢٤

(٥٦) أجنر فوج، **الانتخاب الثقافي**، ترجمة: شوقي جلال، المجلس الأعلى للثقافة، مصر، ٢٠٠٥

(٥٧) أميا كومار باغتشي، **العبور الخطر: الجنس البشري والصعود العالمي لرأس المال**، ترجمة: عمر سليم التلّ، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الدوحة، ٢٠١٩، ص.٥٠-٥١

(٥٨) نفس المرجع، ص.٨٣

(٥٩) جوزيف أ. تاينتر، **انهيار المجتمعات المعقّدة**، ترجمة: أمير عثمان، نماء للبحوث والدراسات، بيروت، ٢٠٢٣

(٦٠) ألبان ج. ويدجري، **التاريخ وكيف يفسّرونه: من كنفشيوس إلى توينبي**، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، مصر، الطبعة الثانية، ١٩٩٦، الجزء ١، ص.١١٧

(61) Job Flores-Fernández, Francisco José Martínez-López, «Ukraine War and Historical War Cycles: Was It to Be Expected? Exploring The Futures of The War In Ukraine Through Historical War Cycles», Journal of Futures Studies, Vol. 28 No. 1, September 2023

(٦٢) هيرفريد مونكلر، **الامبراطوريات: منطق الهيمنة العالمية من روما القديمة إلى الولايات المتحدة الأمريكية**، ترجمة: عدنان عباس علي، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، أبو ظبي، ٢٠٠٨، ص.١٣١

(٦٣) نفس المرجع، ص.١٤٩

(٦٤) إريك وولف، **أوروبا ومن لا تاريخ لهم**، مرجع مذكور، ص. ٥١٦

(٦٥) جارد دايموند، **الانهيار: كيف تحقّ المجتمعات الإخفاق والنجاح؟**، ترجمة: مروان سعد الدّين، العبيكان للنشر والتوزيع، الرياض، ٢٠١٩، ص.١٩-٤٥

(٦٦) نفس المرجع

(٦٧) جارد دايموند، **أسلحة، جراثيم، وفولاذ: مصائر المجتمعات البشرية**، ترجمة: مازن حمّاد، الأهليّة للنشر والتوزيع، الأردن، ٢٠٠٧

(٦٨) أسوالد اشبلنغر، **تدهور الحضارة الغربيّة**، ترجمة: أحمد الشيباني، مكتبة الحياة، بيروت، د.ت، ٢ أجزاء، الجزء الثاني، ص.٧٦٦ -٧٧١

(69) Karl W. Butzer, "Collapse, environment, and society", Proceedings of the National Academy of Sciences of the United States of America, Vol. 109, No. 10 (March 6, 2012), pp. 3632-3639

(٧٠) إريك إتش كلاين، **١١٧٧ ق.م: عام انهيار الحضارة**، ترجمة: محمد حامد درويش، مؤسسة هنداوي، مصر، ٢٠٢٠، ص.٢١٢

(71) James MacDonald, "Why Civilizations End", 2018 (https://daily.jstor.org/why-civilizations-end/). (13-10-2023. 1:15 AM)

(72) Niall Ferguson, "Complexity and Collapse: Empires on the Edge of Chaos", Foreign Affairs, Vol. 89, No. 2 (March/April 2010), pp. 18-32

(73) Gordon R. Willey and Demitri B. Shimkin, "The Collapse of Classic Maya Civilization in the Southern Lowlands: A Symposium Summary Statement", Southwestern Journal of Anthropology, Vol. 27, No. 1 (Spring, 1971), pp. 1-18

(74) Daniel Kendie, "The Causes of the Failure of the Present Regime in Ethiopia", International Journal of Ethiopian Studies, Vol. 1, No. 1 (Summer/Fall 2003), pp. 177-213

(75) Robert I. Rotberg (edited),When States Fail: Causes and Consequences, Princeton University Press, 2004

(76) Kenneth B. Taylor, "The passing of western civilization", Futures, 23 May 2020, p.1- 9 (https://www.ncbi.nlm.nih.gov/pmc/articles/PMC7245304/) (11:24 AM)

(77) Malcolm H. Wiener, The Collapse of Civilizations, Harvard Kennedy School: Belfer Center for Science and International Affairs, USA, 2018

(78) Patrick O'Sullivan, "The `collapse' of civilizations: what palaeoenvironmental reconstruction cannot tell us, but anthropology can", Sage journals, Volume 18, Issue 1 (https://doi.org/10.1177/0959683607085595) (11:47 AM)

(79) McMahon, Martin, Preventing the Collapse: A Study of Civilizational Decline, A Thesis Submitted to Fulfill the

Requirements of the Honors Program at Assumption University, Faculty Supervisor: Jeremy Geddert, Ph.D, Spring 2022

(80) Joël Schmidt, Le Déclin de l'Empire romain, Presses Universitaires de France, Collection : Que sais-je ? Paris,, 2018, pp.113- 123

(٨١) بارينجتون مور، **الأصول الاجتماعيّة للدكتاتوريّة والديمقراطيّة**، ترجمة: أحمد محمود، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨، ص.٢٩

(٨٢) كولن ولسون، **سقوط الحضارة**، ترجمة: أنيس زكي حسن، دار الآداب، بيروت، ١٩٨٢، ص.٣٩٥-٣٩٩

(٨٣) بول هازار، **أزمة الوعي الأوروبي: ١٦٨٠- ١٧١٥**، ترجمة: يوسف عاصي، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ٢٠٠٩، ص.٥٣٩-٥٥٤

(٨٤) إدموند هوسرل، **أزمة العلوم الأوروبيّة والفنومينولوجيا الترنسندنتاليّة**، ترجمة: إسماعيل المصدّق، المنظمة العربيّة للترجمة، بيروت، ٢٠٠٨، ص.٣٩- ٦١.

(85) David H. Good and Rafael Reuveny, "On the Collapse of Historical Civilizations", American Journal of Agricultural Economics, Vol. 91, No. 4 (Nov., 2009), pp. 863-879

(86) Arnold J. Toynbee, A Study of History, Oxford University Press, 1934- 1961

(٨٧) نزيه ن. الأيّوبي، **تضخيم الدولة العربيّة: السياسة والمجتمع في الشرق الأوسط**، ترجمة: أمجد حسين، المنظّمة العربيّة للترجمة، بيروت، ٢٠١٠، ص.٨٧٥- ٨٩٧

(٨٨) **الحضارات في السياسة العالمية**، مرجع مذكور، ص.٣٨

(٨٩) نفس المرجع، ص.٣٩


مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

محنة ابن رشد
بين سلطة الدين ومكر التاريخ



د. محمد بالدوان

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

دكتوراه في تاريخ الإسلام

جامعة محمد الأول – المملكة المغربية

مُلَخّصْ

يهدف هذا البحث إلى تجاوز التفسيرات العامة التي حلت محنة ابن رشد من خلال مقاربة جديدة تثير الإشكاليات الإنسانية الكبرى وتتوسع في معرفة بعض الأفكار الدينية لابن رشد ومواقفه من قضايا شائكة، كرفض القياس والإجماع، هو نفسه لم يصدر موقفًا صريحًا تجاهها. كما يرمي إلى تدقيق بعض الأحداث والتواريخ الحاسمة التي غالطت بعض الباحثين وجعلتهم يؤسسون عليها تفسيرات أحادية خاطئة عن سبب المحنة. فضلاً عن ذلك قد يسمح هذا البحث المتجدد بالتدقيق في هوية ومكونات النخبة الاجتماعية التي أثارت يعقوب المنصور الموحدي ضد ابن رشد في زمن الحرب، والتي لا يستبعد أن يكون لجزء منها مصالح مشتركة مع أعداء الدولة الموحدية في الأندلس إبان اندلاع حرب "الأرك" سنة ٥٩١هـ. وتم تقسيم البحث إلى محورين رئيسين: المحور الأول: ملامح الفكر الديني لواقع ابن رشد. المحور الثاني: الظروف التاريخية–السياسية المحيطة بنكبة ابن رشد، وأدرجت فيه معطيات عن الوضع الاجتماعي. وقد توصل الباحث إلى عدة نتائج أهمها: تجاوز المقاربات أحادية النظرة والتحليل. وتفسير نكبة ابن رشد في سياق تفاعل العامل الداخلي والعامل الخارجي. وأهمية التحالف الاستراتيجي للدول مع الفكر الديني المتنور لما له من انعكاس إيجابي على الاستقرار الاجتماعي والإنجاز الحضاري والتفوق العسكري.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٩	أكتوبر	٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر:	٢١	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الفكر الديني؛ المذاهب الفقهية؛ الإجماع والقياس؛ الغزالي؛ الأندلس

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.248834 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

محمد بالدوان. "محنة ابن رشد بين سلطة الدين ومكر التاريخ".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٠٥ – ١١٣.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: bouddiouan76@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةٌ

ليس من غرض هذا البحث تمحيص الكتابات التفسيرية لمحنة ابن رشد ومحاولة ترجيح أيها الأقرب إلى الحقيقة، فالباحث عن هذا الغرض يمكنه الرجوع إلى الدكتور حسن مجيد العبيدي الذي استقصى أسبابها المباشرة في المصادر التاريخية، ثم حلل أهم التفسيرات التي كتبها المستشرق الفرنسي "ارنست رنان" وعبد الرحمان بدوي ومحمد اعمارة ومحمد عابد الجابري.(١) ولئن تخلصت هذه الدراسات من التفسير الأحادي للنكبة بعضا من الوقت سرعان ما عادت إليه باختزال كل الأسباب في معاداة المجتمع للفلسفة، أو في الطموح السياسي لابن رشد. ولم تخْلُ هذه التفسيرات من آفة التعميم إذ افتقرت أحيانا إلى الدقة والتدقيق وأحيانا أخرى إلى الإحاطة بالتفاصيل التي يمنحها النص التاريخي ذو الصلة المباشرة وغير المباشرة بالنكبة. فضلاً عن ذلك غاب عن هذه التفسيرات المنهج الناظم الجامع لما تفرق في بنية تتيح تفسيرا للنكبة أقرب إلى الحقيقة. ولئن اتفقت دراسي مع مختلف القراءات الجزئية لنكبة ابن رشد، فإنها لا تلتقي بأي شكل من الأشكال مع التفسير السياسي القائل بأن ابن رشد كان يحمل مشروعًا سياسيًا ثوريًا ضد الخليفة يعقوب المنصور الموحدي.

يهدف هذا البحث إلى تجاوز التفسيرات العامة التي حللت محنة ابن رشد من خلال مقاربة جديدة تثير الإشكاليات الإنسانية الكبرى وتتوسع في معرفة بعض الأفكار الدينية لابن رشد ومواقفه من قضايا شائكة، كرفض القياس والإجماع، هو نفسه لم يصدر موقفًا صريحًا تجاهها. كما يرمي إلى تدقيق بعض الأحداث والتواريخ الحاسمة التي غالطت بعض الباحثين وجعلتهم يؤسسون عليها تفسيرات أحادية خاطئة عن سبب المحنة. فضلاً عن ذلك قد يسمح هذا البحث المتجدد بالتدقيق في هوية ومكونات النخبة الاجتماعية التي أثارت يعقوب المنصور الموحدي ضد ابن رشد في زمن الحرب، والتي لا يستبعد أن يكون لجزء منها مصالح مشتركة مع أعداء الدولة الموحدية في الأندلس إبان اندلاع حرب "الأرك" سنة ٥٩١ هـ.

شهدت الأندلس في منتصف القرن السادس الهجري أحداثًا سياسية وعسكرية بالغة الأهمية، يمكن اختزالها في مشروع استكمال فتح الأندلس وحماية ثغورها في العهد الموحدي. ستواكب هذا الطموح حركة فكرية دينية تنويرية نشيطة إن لم تكن هي التي بعثته ونمته. عاصر ابن رشد (٥٢٠هـ-٥٩٥) هذه التطورات، بل كان من أبرز المساهمين في البناء الحضاري الشامخ لبلاد المغرب والأندلس بعدما دعاه الخليفة عبد المؤمن بن علي إلى مراكش ليعاونه بإنشاء معاهد العلم، ثم تولى منصب قاضي القضاة،(٢) وعمل بكفاءة عالية ليرص بناء الدولة الموحدية، فـ"العدل أساس الملك"، بل عمل وزيرًا ومستشارًا للخليفة يعقوب المنصور. لكن سرعان ما سيتحول هذا الصديق إلى خصم، ما الذي جرى؟ ما الذي غير صورته فجأة من رجل بناء إلى معول هدم؟ وما الحيثيات التي نقلت ابن رشد من الحظوة إلى النكبة؟

لأجل استيعاب هذه المتناقضات لا مناص من الحفر عميقا لكشف جوهر المشكلة، وللنفاذ إلى نسق العلاقات الدينية والاجتماعية والسياسية التاريخية التي تفاعلت مؤذنة بمحنة ابن رشد. فهل يمكن فهم ما جرى لابن رشد بمباشرة تجميع بعض الجزئيات التاريخية والسياسية وترتيبها ترتيبًا محكمًا؟ أم يتطلب الموضوع قبلاً معرفة ملامح الفكر الديني الذي ساد بالأندلس وطبيعة النقاشات التي كان يثيرها؟ وهل تسعفنا معرفة طبيعة السلوك الاجتماعي لأهل الأندلس من فك لغز محنة ابن رشد؟

إن انتصاب هذه الإشكاليات المتداخلة يفرض على الباحث توظيف منهج محكم يكون باعثا على تدليل مختلف الصعوبات واستيعاب بعض المفارقات، وناظمًا لتشعب القضايا والموضوعات. وعليه اخترت منهجًا عامًا ناظمًا لهذه الدراسة وهو المنهج الاستقرائي(٣) المؤسس على تتبع صارم للمقولات أو "الوقائع التي تمدنا بها الملاحظة"،(٤) بهدف الاقتراب من القراءة الواقعية لنكبة ابن رشد.

وبما أن بحثي يندرج ضمن الحقل التاريخي فمن البديهي أن أتوسل المنهج التاريخي سواء في بعده الكرونولوجي الحريص على ضبط وترتيب الفترات الزمنية التي قد تكون أحيانًا محددًا مهمًا في حسم

بعض القضايا، أو في بعده التفسيري الذي يغني حياة الإنسان المعاصر بعبر "الحياة في القرون والعُصُر الماضية، ومعرفة الماضي تكسبه خبرة السنين الطويلة، والتأمل في الماضي يبعد بالإنسان عن ذاته، فيرى ما لا يراه في نفسه بسهولة من مزايا الغير وأخطائه، ويجعله ذلك أقدر على فهم نفسه، وأقدر على حسن التصرف في الحاضر والمستقبل."[٥]

كما أجدني مسترشداً بالمنهج البنيوي[٦] وأنا أحلل بعض بنيات الواقع التاريخي المدروس (الدين، السياسة، المجتمع)، وعليه سأُحكم هذه الدراسة في تحليل عناصر النسق الذي تتفاعل فيه علاقات الفكر الديني والواقع السياسي والسلوك الاجتماعي لاستخلاص القانون المسؤول عن تنكيب كل عالم أو مفكر مبدع مستقل، لأنتهي إلى دحض المقاربة التي تختزل النكبة في العامل السياسي.

أولاً: ملامح الفكر الديني

لم يتقيد العلامة ابن رشد مذهباً بعينه،[٧] ولم يركن إلى التقليد والمحاكاة، وهذا الصنف من العلماء لا يتوقف عند حدود ما رسمته المذاهب الفقهية بل يتجاوزها إلى انتقاد يمس أسسها المنهجية، علاوة على ذلك كان شارحا لكتب الفلسفة وداعيًا إلى تعلمها. انتقد ابن رشد "الطائفة التي تسمى بالأشعرية، وهم الذين يرى أكثر الناس اليوم أنهم أهل السنة، والتي تسمى بالمعتزلة، والطائفة التي تسمى بالباطنية والطائفة التي تسمى بالحشوية".[٨]

تجرأ على انتقاد من رآهم أهل زمانه أنهم أهل السنة (الأشاعرة) حين رأى منهم ما يناقض منهجيته في النظر والاستنباط، مثلما واجه باقي الطوائف المشهورة (الباطنية والمعتزلة والحشوية) لكونها صرفت كثيرا "من ألفاظ الشرع عن ظاهرها إلى تأويلات نزلوها على تلك الاعتقادات وزعموا أنها الشريعة التي قصد بالحمل عليها جميع الناس، وإن من زاغ عنها فهو إما كافر وإما مبتدع، وإذا تؤملت جميعها وتؤمل مقصد الشرع ظهر أن جلها أقاويل محدثة وتأويلات مبتدعة".[٩]

١/١-الموقف من الإجماع والقياس

انتقد ابن رشد اجتهادات الطوائف الأخرى بناء على صرفها نصوص الشرع عن "ظاهرها"، وهنا يبدو التأثر بابن حزم ومذهب أهل الظاهر الذي انتشر في الأندلس. ومن مقتضيات هذا المذهب إبطال القياس واستبعاد وقوع الإجماع الفقهي بخصوص مسائل سكت المشرع عنها، حيث اعتبر ابن حزم أن كل ما يستنبط منهما محض أقوال بشرية أقحمت في الدين بينما جنح المُشرّع بشأنها إلى السكوت، ليخلص إلى أنه عُرف "بضرورة العقل أن من أدخل في الدين حكما يقر بأنه لم يأت به وحي من عند الله، فقد شرع في الدين ما لم يأذن به الله تعالى".[١٠]

ويبدو أن ابن رشد كان متعاطفًا مع رافضي القياس في "بداية المجتهد ونهاية المقتصد"، إذ لم يرجِّح أي رأي أثناء معرض حديثه عما سكت عنه الشارع، فبدأ بموقف الجمهور قائلاً: "فقال الجمهور: إن طريق الوقوف عليه (على ما سكت عنه الشارع) هو القياس" ثم يورد موقف أهل الظاهر مفصلا: "وقال أهل الظاهر: القياس في الشرع باطل، وما سكت عنه الشرع فلا حكم له ودليل الفعل[١١] يشهد على ذلك، وذلك أن الوقائع بين أشخاص الأناسي غير متناهية، والنصوص والأفعال متناهية، والإقرارات متناهية، ومحال أن يقابل ما لا يتناهى بما يتناهى".[١٢] أي محال أن يقابل الدين الذي نص عليه المشرع بالكمال، بالحوادث التي تطرأ كل حين، ولمعالجة الحوادث اللامتناهية لجأ أهل الظاهر إلى الاستدلال العقلي الخالص.

يورد ابن رشد أمثلة لبعض الأقيسة -لا يتسع المجال لبسطها- مع التعليق عليها قائلا: "فتأمل هذا فإن فيه غموضا"، ثم يعرض نماذج من الأقيسة ليدعم أهل الظاهر في رفض بعض أصنافها قائلاً:" والجنس الأول هو الذي ينبغي للظاهرية أن تنازع فيه"[١٣]. أما بخصوص الإجماع فيقول ابن رشد: "وليس الإجماع أصلاً مستقلاً بذاته من غير إسناد إلى واحد من هذه الطرق (النص+ القياس ويشير إلى الاختلاف حوله) لأنه لو كان كذلك لكان يقضي إثبات شرع زائد بعد النبي (ﷺ)"[١٤]، والشرع الزائد هو ذات ما كان ابن حزم يتفاداه حين رفض القياس والإجماع.

٢/١-في انتقاد الغزالي

كما تميز ابن رشد بانتقاده الغزالي والمتصوفة وطريقتهم في النظر والتدين حيث يقول: "لسنا ننكر أن تكون إماتة الشهوات شرطا في صحة النظر، مثلما تكون الصحة شرطا في ذلك (...) ومن هذه الجهة دعا الشرع إلى هذه الطريقة، وحث عليها في جملتها حثا -أعني على العمل- لا أنها كافية بنفسها كما ظن القوم"[١٥]. ويريد ابن رشد هنا التأكيد على ضرورة استخدام العقل موازاة بترويض النفس.

ونظرًا لما كان يحظى به الغزالي من تأثير في العامة والخاصة، حاول ابن رشد التقاط تصريحات أو تلميحات الغزالي الدالة على عدم تكفير الفلاسفة، حين قال: "الظاهر من قوله (الغزالي) في ذلك أنه ليس تكفيره إياهما (ابن سينا والفارابي) في ذلك قطعًا، إذ قد صرح في كتابه التفرقة[١٦] أن التكفير بخرق الإجماع فيه احتمال"[١٧]. كما أنكر الغزالي في ذات المؤلف "تطويل اللسان في أهل الإسلام[١٨]، وإن اختلفت طرقهم" ودقق فيه مفهوم الكفر بقوله: "الكفر هو تكذيب الرسول (ﷺ) في شيء مما جاء به"[١٩]. ثم فصل ابن رشد الحديث عما يجب التكفير به محاولاً توضيح هذه المسائل الشائكة عساه ينجو من سهام التكفير.

سأجمل ما تقدم في المحاور الآتية:

أولاً: تأثر ابن رشد بالمذهب الظاهري[٢٠]، الذي عرف انتشارًا واسعًا بالأندلس، ومنهجيته الرافضة للإجماع والقياس وكافة المصادر المتاخمة للنص الخالص، بل لم يسلم من هذا التأثر حتى الخليفة المنصور الذي "حمل الناس على الظاهر من القرآن والحديث، وهذا المقصد (القضاء على المذهب المالكي) بعينه كان مقصد أبيه وجده إلا أنهما لم يظهراه فأظهره المنصور"[٢١].

ثانيًا: يرجع انتقاد ابن رشد للغزالي الشافعي المذهب، إلى اختلاف في أصول النظر، فالغزالي يركز على استقاء المعرفة من طريق الوجدان والخلوة، بينما يرى ابن رشد في العقل والبرهان مصدرًا أساس للمعرفة. وقد يكون انتقاد ابن رشد لمنهج المتصوفة، نتيجة فشو التصوف في الأوساط العامة والخاصة، حيث تأثر بطرقه بعض من أبناء البلاط الموحدي[٢٢].

ثالثًا: إن سلوك ابن رشد وجهة تخالف الاتجاه الديني العام، الذي أرسى أركانه الشافعي منذ القرن الثاني الهجري والمتمثل باعتماد القياس والإجماع في المجال التشريعي، وأطره الغزالي بمفاهيم جديدة في مجال التصوف، وبفكر يعادي الفلسفة، قد يدفع بعض الخاصة والعامة إلى منابذة ابن رشد وإيقاعه في أزمة قاسية، بخاصة إذا استجدت ظروف سياسية غاية في التعقيد.

ثانيًا: الظرف التاريخي-السياسي

تَنَكَّبَ ابن رشد في سياق سعي السلطة الموحدية إلى استكمال فتح جميع ثغور الأندلس، ولا شك في أن أعداء الموحدين لن يكتفوا بالحرب المباشرة لصد تلك المساعي، بل سيعملون على إحداث اضطراب داخلي بعد ترصدهم جاهزية الجيش الإسلامي. فبعد الاستعداد الكافي لأبي يوسف يعقوب (المنصور) بقرطبة، وحسمه مشكلة ابن رشد[٢٣] سيتوجه إلى طلبيرة[٢٤] "وقد كان أدفونش[٢٥] اللعين، عند إشراف المنصور على بلاده بعساكر المسلمين، قدم رسله في طلب المهادنة والاستسلام والوقوف عند الأمر والإلزام"[٢٦]. إن تتابع حدثي حل المنصور مشكلة ابن رشد ظرفيا وتأهبه إلى طليبرة، يشيران إلى ترابط ما لا يُستبعد معه أن تكون مشكلة ابن رشد تدبيرًا خارجيًا يهدف إلى عرقلة مشروع توحيد الأندلس، خاصة إذا تعزز ذلك بالمعطيات والاستفهامات الآتية:

أولها ما تمت الإشارة إليه في المتن التاريخي أعلاه، والمتمثل بطلب "ألفونسو" الثامن المهادنة والاستسلام قبل بداية المعركة، وهذا يدعو الى الاستغراب والتساؤل: لِمَ استسلم ألفونسو قبل بداية المعركة؟ هل استجد شيء ما أربك خطته؟ ألا يكون هذا المستجد هو الفشل بإحداث فتنة داخل المجتمع الموحدي؟ سأعود إلى تقديم إجابات بعد استعراض باقي المعطيات.

كيف يصير ابن رشد خصمًا منبوذًا بعد أن كان صديقا مخلصا للمنصور؟ ولماذا تحول موقف أبي يوسف، بعد إنهائه كل مهامه القتالية في الأندلس، إلى التصالح والفلسفة كما يذكر ابن عذاري: "ثم رجع إلى مراكش نزع عن ذلك كله وجنح إلى تعلم الفلسفة"[٢٧]؟ إن

في ذلك، لدليل على أن الموقف الصادر من السلطة الموحدية تجاه ابن رشد كان ظرفيا، أريد منه إرضاء بعض النخب لتجاوز فتنة داخلية قد تحول دون تحقيق انتصارات خارجية، وسيتأكد ذلك حين الوقوف على التطورات التاريخية الآتية أسفله.

تشير المصادر التاريخية إلى الفئة التي كانت تستهدف ابن رشد، وتورد أنها جاءت إلى المنصور تطلب إدانة ابن رشد، قبل الطلب الذي أفضى إلى إدانته، إلا أن المنصور "شغل عن الوقوف عليها والالتفات إليها لما كان الحال بسبيله من الاستعداد والنظر في مهمات الجهاد، فنكص الطالبون على أعقابهم"[٢٨]. أي إبان الاستعداد للمعركة الأولى من حرب "الأرك" سنة ٥٩١هـ. وبعد طول إقامة المنصور بقرطبة استعدادا للمعركة الحاسمة، اتخذ قرار إدانة ابن رشد بعد إلحاح قوي من قبل خصومه، إذ يؤكد ذلك ابن عذاري بقوله:" ولما كان التلوم بقرطبة وامتد بها أمد الإقامة وأنس الناس لمجالس المذاكرة، تجدد للطالبين آمالهم وقوي تألفهم واسترسالهم..."[٢٩].

إن التدقيق في كرونولوجيا الوقائع يشد الباحث إلى الملاحظات التالية:

أولاً: يفند هذا المتن ما ذهب إليه من اختزل محنة ابن رشد في قضية سياسية[٣٠]، ففضلاً عن افتقاره إلى الدقة التاريخية، تسرع إلى الاعتراض على التفسيرات القائلة بجنوح المنصور إلى معاقبة ابن رشد تملقا للعامة وإرضاء للفقهاء ابتغاء دعمهم في الحرب، معززا موقفه بما يبدو تعليلا حاسما، وهو أن سخط المنصور على ابن رشد جاء أصلا بعد نهاية معركة "الأرك" سنة ٥٩١هـ.، متساهلا في تمحيص التفاصيل التاريخية المحيطة بحرب الأرك. بينما تؤكد المصادر التاريخية[٣١] بأن المنصور استجاب لطلب إدانة ابن رشد في ظل تواصل معارك حرب "الأرك"، وقبل شروعه في الغزوة الثالثة والأخيرة سنة ٥٩٣هـ والتي استتب بعدها الأمر للمسلمين في الأندلس.

ثانيًا: إن التلوم والإصرار على النيل من ابن رشد في ظرف حرج (زمن الحرب) يحتاج إلى التغاضي عن أي خلاف داخلي ليدعو إلى استغراب هذا الموقف وإلى التساؤل عن غاياته وأبعاده!

ثالثًا: لم يحدد ابن عذاري هوية المطالبين بإدانة ابن رشد إذ عمم ذكرهم بـ"الطالبين"، وأشار إلى طول الإقامة بقرطبة قبل خوض المعركة الأخيرة الحاسمة.

وتجدر الإشارة إلى أن عبد الواحد المراكشي وابن خلدون لم يدققا أيضا هوية خصوم ابن رشد، كأن يقولا فقهاء أو أعيان أو ما شاكل ذلك، إنما اكتفى الأول بوصفهم "قومًا ممن يناوئه من أهل قرطبة"[٣٢]، والثاني كان أكثر شحا حين عبر عنهم بفعل مبني للمجهول في قوله: "فَرُفِع إليه (المنصور) في القاضي أبي الوليد بن رشد مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه وعقله"[٣٣].

إن ما سبق يدعو إلى التساؤل عن حقيقة مناوئي ابن رشد، وإن كانت تشير بعض المصادر إلى أنهم فقهاء، ويبدو من إجمال هويتهم في مصادر أخرى أنه تأسس موقف بخصوصهم فيما بعد لا يُقَدِّر مكانتهم العلمية والدينية بقدر ما يستحضر شوكتهم الاجتماعية أو المالية ....، ولا يستبعد أن تكون مصالحهم مناقضة لمصلحة المنصور في بلوغ هدفه الاستراتيجي المتمثل بتوحيد بلاد الأندلس وضمان استقرارها.

كما يظهر بأن لخصوم ابن رشد دراية بالدين وقدرة على التعبئة تستطيع من خلالها توظيف متشابهات الدين في إثارة العامة، من خلال تفجير مشكلة دينية-عقائدية داخل المجتمع الأندلسي لتحقيق غايتين متلازمتين: تتمثل الأولى بإثارة العامة ضد المنصور إن لم يعاقب ابن رشد دفاعا عن الدين وحاميا لشرائعه وعقائده من "ضلالات المارقين"، وقد عبر ابن عذاري عن هذا الاضطرار قائلا:" فلم يكن للمنصور عند اتفاق الطلبة إلا المدافعة عن شريعة الإسلام"[٣٤]. أما الثانية فتكمن في تقويض أركان المنهج الديني التنويري المتوازن الذي عرفته الأندلس، والذي قام على ثنائية الالتزام بالنص الديني والانفتاح على الفلسفة.

فهل يمكن تدقيق هوية من حبك هذه المؤامرة؟ هل كان يهود الأندلس من وقف وراء هذه المؤامرة؟ قد يكون ما اجتمع للخليفة المنصور من دهاء ومعلومات عن اليهود عاملين كشفا له مكرهم العظيم الذي لم يترك أمامه سوى خيار معاقبة ابن رشد، إذ قال فيهم: "إنما اليهود عندنا يظهرون الإسلام، ويصلون في المساجد ويقرئون أولادهم القرآن، جارين على ملتنا وسنتنا، والله أعلم بما

تكن صدورهم وتحويه بيوتهم"[٣٥]. كأنه يقول: يخفون حقدا في الصدور ومؤامرات في البيوت. فلأي غرض يتعلم القرآن من ليس على دين الإسلام، إذا لم يكن سلوكه تقية وسبيلاً إلى تفكيك أمة القرآن برصد مواطن الشبهات لإذكاء الفتن بين المسلمين عند الحاجة؟!

وما يرجح الظن بضلوع اليهود في هذه الفتنة ما ذكره ابن عذاري عن جنوح المنصور إلى تمييزهم بلباس خاص أزرق اللون بعد انتهاء مهامه الجهادية سنة ٥٩٥هـ إذ قال: "ومن فضائله المشهورة في الوجود، ما أمر به من شكلة اليهود، وذلك أنهم كانوا قد علوا على زي المسلمين وتشبهوا في ملابسهم بعليتهم وشاركوا الناس في الظاهر من أحوالهم فلا يُمَيَّزون بين عباد الله المؤمنين"[٣٦]. وإذ يؤكد هذا المتن ما أسلفت ذكره عن المكانة الاجتماعية لمناوئي ابن رشد، يثبت بالقدر نفسه تجريدهم منها من قِبل المنصور بعد أن تبين منهم توظيفهم لها ضد المجتمع الأندلسي.

وعلى الرغم من كل المساعي الخفية والمعلنة، فقد عجز "ألفونسو الثامن" في الانتقام من المنصور بعد هزيمته النكراء سنة ٥٩١هـ، إذ تأهب للمواجهة في الجولة الأخيرة سنة ٥٩٣هـ، سنة إدانة ابن رشد[٣٧]، وقبل نهاية هذه الجولة التي حقق فيها المنصور تقدما بينا، خاصة بعد تجاوزه الفتن الداخلية الممكن اشتعالها إثر إهماله إدانة ابن رشد، "أرسل الأدفنش[٣٨] إليه يسأله المهادنة فهادنه إلى عشر سنين فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها، وقصد مدينة مراكش وذلك في سنة ٥٩٤هـ"[٣٩].

٢/١-مزاج شعب الأندلس

كانت طائفة الفتنة على علم بخصائص الشعب الأندلسي النازعة إلى المعارضة والثورة، مثلما كان المنصور على دراية أيضا بمزاج رعيته فأسس على ذلك موقفه العدائي- المرحلي من ابن رشد.

أورد المقري في نفح الطيب مميزات خاصة أهل الأندلس وعامتها حيث ذكر بأن "لأهلها رياسة ووقار، ولا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم ... إلا أن عامتها أكثر الناس فضولا وأشدهم تشغيبا"[٤٠]. ولما كان هذا شأنهم صار يضرب بهم المثل "في القيام على الملوك، والتشنيع على الولاة، وقلة الرضا بأمورهم" بخاصة أهل قرطبة الذين قال فيهم أبو يحي، أخ يعقوب المنصور، كلاما بليغا، بعد عزله عن ولاية قرطبة، حين سُئل: "كيف وجدت أهل قرطبة؟ فقال: مثل الجمل إن أخففت عنه الحمل صاح، وإن أثقلته صاح. ما ندري أين رضاهم فنقصده، ولا أين سخطهم فنتجنبه"[٤١]. فكان حريًا بالمنصور استحضار مثل هذا التشخيص وهو يعالج مشكلة غاية في التعقيد.

ولما خبر المنصور طبيعة أهل قرطبة، لم يتصرف بما يثير شعبًا يصعب إرضاؤه، والحال يقتضي جمع الكلمة استعدادًا للحرب، فبات القرار الأسلم يكمن في إدانة ابن رشد ومعاداة الفلسفة، فتحمل المنصور أخف الضررين وأهون الشرين؛ ضرر يصيب ابن رشد بعضًا من الوقت، أهون من فتنة تدوم تَفتّ في عضد المسلمين، يغدو معها النصر المرتقب هزيمة نكراء.

وقد أوردت أعلاه أثناء حديثي عن المعارك الأخيرة من غزوة "الأرك"، وقبل انطلاق المواجهات، أن العدو بعث "رسله في طلب المهادنة والاستسلام" وكأنه بعد فشل رهان الفتنة الداخلية جنح "ألفونسو" إلى الصلح، غير أن دهاء المنصور، ووعيه الدقيق بقدراته وقراراته ورهانات عدوه، دفعه إلى المضي قدما لإنجاز مشروع توحيد الأندلس[٤٢]، "فنظر المنصور بنور التوفيق والرشاد ألا يحل ما انعقد عليه العزم من طريقة الغزو والجهاد"[٤٣].

وبالفعل كان "الكافر البرشلوني" وجنوده في غاية الارتباك "وهم بحصن "مجريط"[٤٤] يقدمون ويؤخرون... فقصد المنصور إليهم... فعند ذلك انصدعت جموع أدفونش وأسلمه أحلافه"[٤٥]، فوقع ما كان يحذره أعداء الإسلام الظاهرين والمتوارين، "وجعلوا إرسالهم في طلب الصلح على ما عهد من شروط الأحكام فأسعفوا فيه على حكم شريعة الإسلام"[٤٦].

لم يكن هذا الانتصار ليتحقق، ولا لتوحيد الأندلس أن يتم، لولا إحاطة المنصور بأعداء الداخل والخارج، فلما احتوى الأزمة الداخلية بتنكيب ابن رشد، لم يعد أمامه إلا الاستبشار بالنصر، فرفض المهادنة ومضى إلى توحيد الأندلس، ثم رجع إلى مراكش وتراجع عما أوقعه بابن رشد، "وجنح إلى تعلم الفلسفة"[٤٧]، ليتضح بأن

موقفه المناهض لابن رشد والفلسفة حكمته ظروف معقدة.

٢/٢-دحض موقف من قال بأن سبب النكبة سياسي- ثوري

ذهب الأستاذ محمد عابد الجابري رحمه الله إلى أن سبب نكبة ابن رشد سياسي-ثوري، حيث أكد بأن أسباب النكبة، كما وردت برواياتها المختلفة[٤٨]، "لا تعدو أن تكون تخمينات وفي أحسن الأحوال تبريرات" إلى أن قال: "وهكذا وجدنا أنفسنا أمام ضرورة افتراض أن تكون هناك تهم سياسية أو ذات علاقة بالسياسة هي التي دفعت الخليفة المنصور الموحدي إلى محاكمة ابن رشد وجماعة من العلماء والأعيان"[٤٩].

قد لا ينازع أحد في وصف الجابري أسباب النكبة كما أوردتها المصادر بالسطحية، إذ بقدر ما تحاول وضع تفسير لما جرى، تترك أمام الباحث بياضات تحرك فيه انشغالاً بالسعي إلى ملئها، غير أني لا أتفق مع القول بأن محاكمة ابن رشد كانت لسبب سياسي صِرف، إنما يمكن أن تندرج الأسباب السياسية ضمن تضافر العوامل الدينية والتاريخية والعسكرية التي سبق تفصيل البحث فيها.

إن مَنْ يعول على التفسير السياسي وحده يواجه أسئلة محرجة: أي دافع قوي سيقود ابن رشد إلى الكيد بعرش المنصور؟ أليس المنصور هو بطل معركة "الأرك" ومكانته عالية عند المسلمين في المغرب والأندلس، ويستحيل النيل منها من قِبل أي كان؟ ألم يَعِد المنصور بمزيد من الفتوح والانتصارات فوفى بوعده؟

كيف يجنح إلى الانقلاب مسؤول سامي في دولة الموحدين، وقد بايع المنصور منذ زمن بعيد، ثم كيف ينقض ولاءه وبيعته وهو على علم بأن ذلك مخالف للشرع، وقد استقر هذا في الفقه السياسي الإسلامي؟ تستحث هذه الأسئلة المزيد من تعميق النظر، وإلا فإن صانع انتصار "الأرك" اكتسب مشروعية يستحيل التفكير في زعزعتها، بله الترتيب لإبعادها عن القيادة.

فكيف رجح عند الجابري تفسير نكبة ابن رشد بالسبب السياسي؟ استدل على ذلك بمتن ورد في الذيل والتكملة[٥٠] إذ قال: "ويذكر من أسباب نكبته هذه اختصاصه بأبي يحي أخي المنصور والي قرطبة"[٥١]. لا يعني اختصاص ابن رشد بأبي يحي بالضرورة إيثاره على المنصور في الحكم، وإذا أورد مصدر ما هذه الإشارة، فمن الأسلم إدراجها ضمن جملة السيئات التي رفعها خصوم ابن رشد إلى المنصور. كما استند الجابري إلى كتاب جوامع سياسة أفلاطون الذي شرحه ابن رشد وأدرج فيه كلامًا قاسيًا عن أصحاب البيوتات النافذة[٥٢]، فهم حسب ابن رشد: "لا يتبعون من الشرائع إلا الفطري من السنن... وفي حال مثل هذه الحال يتعرض الجمهور للنهب من طرف السادة الذين يبالغون في الاستيلاء على ما بأيدي الناس، فيقودهم ذلك إلى الطغيان كما يجري في زماننا هذا ودولتنا هذه"[٥٣].

إلا أن ابن رشد يختم كلامه بثناء ودعاء، يشوش على مسار تحليل الجابري، قائلا: "وفقكم الله إلى اتباع سبله وأزاح عنكم العراقيل بمشيئته وفضله... فأنتم السبب ليس في بلوغنا هذه الخيرات فحسب، بل أيضا في جميع الخيرات الإنسانية التي حصلناها والتي أسبغها الله تعالى علينا بمرضاتكم، أدام الله عزكم"[٥٤].

يوجه ابن رشد انتقاده من خلال هذا الكتاب للبيوتات، سواء المنتمون إلى العائلة المالكة أو إلى ذوي النفوذ والوظائف السامية، أو ذوي المكانة الاقتصادية، ويمكن أن يفهم من انتقاده لهم دعوة إلى المنصور أو إلى أبي يحي ليحد من جشعهم وطغيانهم، وقد يكون المقصود بـ "إزاحة العراقيل" في الدعاء إزاحة الطغاة والجشعين، فكما لا يخفى أن أمثال هذه الفئات في المجتمعات لا تخدم إلا مصالحها، ومن خلال نفوذها القَبَلي أو الاقتصادي تصنع مركز ضغط يمكن أن يضع العراقيل تلو العراقيل في وجه السياسات العامة حماية لمصالحها الخاصة.

لكن الجابري حاول أن يخص الدعاء[٥٥] بأبي يحي من غير دليل قاطع يذكر، ليوحي بتعاطف ابن رشد معه وتهييئه لخلافة المنصور، غير أنه لا يستقيم أن يدرج عاقل كلاما فيه تآمر على الحاكم في كتاب ليفضح مساعيه. ولو كان ما ادعاه الجابري صحيحًا لكان كافيًا لإيقاع أشد العقوبات بابن رشد وتصفيته إلى الأبد، ولما حار المؤرخون والباحثون في بحث أسباب نكبة ابن رشد.

خَاتِمَةٌ

لقد طغى على معالجة الجابري للنكبة منهج التحكم المفتقر للأدلة، وآفة الإسقاط التي تجعل البحث التاريخي يخضع كرها لأفكار مسبقة تراكمت في الحاضر، وهذا من شأنه إلغاء الكثير من الحقائق والميزات التاريخية والفكرية للحقبة المدروسة، وقراءة كل التطورات من زاوية معرفية محددة، وبمنطق أحادي التحليل؛ منطق السياسة وما يتصل به من طموحات وثورات.

إن النظر إلى محنة ابن رشد من زاوية واحدة، لا ينسجم والبحث في الدراسات التاريخية والعلوم الإنسانية المتسمة بتعدد الفاعلين وتعقد الأحداث، وإن من مهام المؤرخ أن يستدعي الماضي بالدرجة الأولى لإعادة إنتاجه في صورة تضمن للقارئ الدقة وتكامل الوقائع، وبشكل لا يحجب عنه معرفة مختلف القوانين التي تحكم العلاقات الاجتماعية والإنسانية في الماضي، وقد لا تنفك من أن تحكمه في الحاضر.

كما أثارت مضامين هذا البحث مشكلة الفكر الديني، ولم يخف ضلوع الجانب المظلم المتشنج من هذا الفكر في تأزيم المجتمع، وتفويت نقاشاته العقيمة فرصًا كبيرة على الدول في التقدم، خاصة إذا مَكّنت لأركانه السلطة الحاكمة وتغاضت عن غلوائه النخب المثقفة، لذلك بان بأنه كلما كان هذا الفكر مرتبطًا بالنص الثابت الخالص، ومنشغلا بالبرهان العقلي المستقل، كان متماسك البناء قوي الاستدلال، وزاد المجتمع تماسكًا وأمنًا والسياسة حكمة وإنجازًا، مهما كانت الظروف الخارجية صعبة ومؤامرات العدو محبوكة.

الإحالات المرجعية:

(١) أبو الوليد بن رشد، **تلخيص السياسة لأفلاطون**، ترجمة وتقديم حسن مجيد العبيدي، (ط١، دار الطليعة للنشر، لبنان، ١٩٩٨)، ص: من ١٦ إلى ٢٥.

(٢) راجع تقديم دار المشرق لكتاب ابن رشد: **فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من اتصال**، ص: ١١.

(٣) "الاستقراء هو تحليل يفضي إلى التعميم، أي عملية يتم عبرها التمديد إلى صنف من الأشياء ما لاحظناه عن فرد أو عن بعض الحالات المختلفة." انظر:
Madleine GRAWITS, **Méthodes des sciences sociales**, (ed.4, Précis dalloz, Paris, 1979), p :20.

(٤) آلان شارلمرز، **نظريات العلم**، ترجمة الحسين سبحان وفؤاد الصفا، (ط١، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء ١٩٩١)، ص: ١٦.

(٥) حسن عثمان، **منهج البحث التاريخي**، (ط٢، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٤)، ص:١٣.

(٦) **المنهج البنيوي**: "نسق متغيرات تضم قوانين مستوحاة من عناصر النسق ذاته، إذ لا يتجاوز حدوده أو يستدعي عناصر خارجية"، راجع:
Madleine GRAWITS ,ibid, p.435-441

(٧) أقصد هنا بالمذهب أساسًا منهج التفكير والفهم، وليس المذهب الفقهي، وإن كان ابن رشد لا يتبنى مذهبا فقهيا بعينه حسب ما اعتمدته من مراجع، فهو في كتابه "بداية المجتهد ونهاية المقتصد يهدف إلى التوفيق بين المذاهب وتبيين مواضع الاختلاف ومواضع الإجماع.

(٨) يعرف ابن رشد في موضع آخر الحشوية بالذين " قالوا إن طريقة معرفة وجود الله تعالى السمع لا العقل". انظر: أبو الوليد بن رشد، **فلسفة ابن رشد** -يحتوي على كتاب فصل المقال وكتاب كشف الأدلة-، جزء **الكشف عن مناهج الأدلة في عقائد الملة**، (ط٢، المطبعة المحمودية التجارية بالأزهر، مصر، ١٩٣٥)، ص:٤١.

(٩) أبو الوليد بن رشد، م.س، ص:٤١.

(١٠) أبو محمد علي ابن حزم، الإحكام في أصول الأحكام، (دار الكتب العلمية، بيروت، ج٤، بدون سنة)، ص: ٥٣٩.

(١١) فعل النبي ﷺ الذي سكت عن إصدار الحكم الشرعي.

(١٢) أبو الوليد بن رشد، بداية المجتهد ونهاية المقتصد، (تحقيق عبد الله العبادي، دار السلام، ١٩٩٥)، ص: ١٥.

(١٣) المصدر السابق، ص:١٧.

(١٤) نفسه، ص: ١٨.

(١٥) فلسفة ابن رشد، م.س، ص: ٦٣-٦٤.

(١٦) كتاب **"فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة"**.

(١٧) أبو الوليد ابن رشد، **فصل المقال وتقرير ما بين الشريعة والحكمة من الاتصال**، (دار المشرق، بيروت، ١٩٧٣)، ص:٣٧.

(١٨) بالفعل لم يتجاوز الغزالي في وصفهما بالضلال وذلك في قوله:" وأقومهم بالنقل والتحقيق من المتفلسفة في الإسلام، الفارابي أبو النصر، وابن سينا، فنقتصر على أبطال ما اختاره ورأياه الصحيح من مذهب رؤسائهما (أرسطو وأفلاطون) في الضلال" انظر: أبو حامد الغزالي، **تهافت الفلاسفة**، تحقيق سليمان دنيا، (دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٥٧)، ص: ٧٧-٧٨.

(١٩) أبو حامد الغزالي، **فيصل التفرقة بين الإسلام والزندقة**، تخريج وتعليق محمود بيجو، (ط١، بدون دار نشر، دمشق، ١٩٩٣)، ص: ٢٥.

(٢٠) يقول في شرحه حديث الفرقة الناجية:" يعني بالواحدة التي سلكت ظاهر الشرع، ولم تؤوله تأويلا صرحت به للناس". راجع: **فلسفة ابن رشد**، م.س، ص: ٨٨.

(٢١) عبد الواحد بن علي المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، (طبعة ليدن-ط١، لندن، ١٨٤٧)، ص: ٢٠٣.

(٢٢) جنح أحد وزراء يعقوب المنصور (أبو عبد الله الملقب بالفيل) إلى "ترك الوزارة مختارا، وهرب إلى بعض نواحي إشبيلية فخلع ثيابه ولبس عباءة وتزهد". راجع، عبد الواحد المراكشي، م.س، ص: ١٩٠.

(٢٣) سيأتي أسفله توضيح كيف حسم المنصور في الشكاية التي قدمت له بشأن ابن رشد.

(٢٤) مدينة إسبانية تقع في مقاطعة طليطلة من منطقة قشتالة.

(٢٥) ألفونسو الثامن ملك قشتالة منذ سنة ١١٥٨م.

(٢٦) أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي، **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**-قسم الموحدين-، تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، (دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥)، ص: ٢٢٦.

(٢٧) أبو العباس أحمد بن عذاري المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، ومحمد العلمي، (دار الكتاب، الدار البيضاء، بدون سنة)، ص: ٤٣٧.

(٢٨) **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، م.س، ص: ٢٢٦.

(٢٩) **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، م.س، ص:٢٢٦.

(٣٠) الطموح السياسي لابن رشد.

(٣١) يقول عبد الواحد المراكشي: "وفي السنة الثالثة (بعد التسعين) أيضا توغل(المنصور) بلاد الروم ووصل إلى مواضع لم يصلها ملك من ملوك المسلمين قط ورجع إلى مدينة إشبيلية فأرسل الأدفنش إليه يسأله المهادنة فهادنه إلى عشر سنين. فعبر البحر بعد أن أصلح الجزيرة ورتب فيها من يقوم بحمايتها وقصد مدينة مراكش وذلك في سنة ٥٩٤هـ". راجع المعجب، م.س، طبعة ليدن، ص: ٢٠٦.

(٣٢) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، تحقيق محمد سعيد العريان، م.س، ص:٤٣٦.

(٣٣) عبد الرحمان بن خلدون، **تاريخ ابن خلدون**، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، (دار الفكر، بيروت، ١٩٨١)، ص: ٣٠٣.

(٣٤) **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، م.س، ص: ٢٢٦.

(٣٥) عبد الواحد المراكشي، م.س، تحقيق محمد سعيد العريان، ص:٤٣٦.

(٣٦) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، م.س، ص: ٢٢٨

(٣٧) أثبت ذلك ابن عذاري في تدوينه أحداث سنة ٥٩٣هـ "وفي هذه السنة نكب أبو الوليد ابن رشد الحفيد وذلك أنه كان نشأ بينه وبين أهل قرطبة قديما وحشة أحدثتها أسباب المحاسدة"، وقد قصدوا قبل سنة ٥٩٣هـ بطلبهم المنصور، حيث "مشى الرافعون إلى مراكش سنة إحدى وتسعين فشُغل عن الوقوف عليها والالتفات إليها لما كان الحال بسبيله من الاستعداد، والنظر في مهمات الجهاد". راجع: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، م.س، ص:٢٢٦.

(٣٨) ألفونسو الثامن ملك قشتالة منذ سنة ١١٥٨م. وحتى وفاته سنة ١٢١٤م. اشتهر ألفونسو بمشاركاته في حروب الاسترداد، ودوره في إسقاط حكم الموحدين، ورغم معاناته من الهزيمة الكبيرة في معركة الأرك أمام الموحدين سنة ١١٩٥م إلا أنه قاد تحالفًا مسيحيًا شمل أمراء صليبيين وحملات صليبية هزم بها الموحدين في معركة العقاب سنة ١٢١٢م، وهو الحدث الذي مكّن للتفوق المسيحي في شبه الجزيرة الإيبيرية.

(٣٩) **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، طبعة ليدن، م.س، ص:٢٠٦.

(٤٠) أحمد بن محمد المقري، **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**، ج١، تحقيق إحسان عباس، (دار صادر، بيروت، ١٩٦٨)، ص: ١٥٤.

(٤١) نفسه، ص:١٥٥.

(٤٢) المقصود تحرير ما استرجعه سلفه عبد المومن، أي كل المناطق الرئيسة الواقعة بين بلنسية في الشمال الشرقي واشبيلية غربا وقرطبة في الوسط وجنوب قرطبة حتى الساحل المتوسطي.

(٤٣) **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، م.س، ص: ٢٢٦.

(٤٤) مدينة مدريد الاسبانية.

(٤٥) **البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**، م.س، ص: ٢٢٧.

(٤٦) البيان المغرب، م.س، ص: ٢٢٨.

(٤٧) عبد الواحد المراكشي، م.س، تحقيق محمد سعيد العريان، ص: ٤٣٧.

(٤٨) من بين هذه الأسباب اتهام ابن رشد بكتابة "فقد ظهر أن الزهرة أحد الآلهة". راجع المعجب، تحقيق محمد سعيد العريان، م.س، ص: ٤٣٦. أو مخاطبة المنصور "بملك البربر"، م.س، ص:٤٣٥. ولخص ابن خلدون هذه الأسباب قائلاً: "مقالات نسب فيها إلى المرض في دينه وعقله". راجع: **تاريخ ابن خلدون**، م.س، ص: ٣٠٣.

(٤٩) محمد عابد الجابري، **المثقفون في الحضارة العربية: محنة ابن حنبل ونكبة ابن رشد**، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٥) ص: ١٣١.

(٥٠) كتاب **"الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة"**، لمحمد بن محمد بن عبد الملك الانصاري، وهو من كتب التراجم المشهورة، لكنه يصنف ضمن المراجع التاريخية غير المباشرة، والتي يمكن الاستناد إليها في غياب إشارات مباشرة داخل المصادر التاريخية. والا تبقى كتب التراجم أو المناقب وغيرها مكملة ومساعدة من الناحية الأكاديمية.

(٥١) الجابري، م.س، ص: ١٢٣.

(٥٢) ادعى الجابري أن ابن رشد ألف هذا الكتاب قبيل النكبة، لكن حسن مجيد العبيدي كشف الخطأ التاريخي الذي ارتكبه الجابري حين ارتكز على تاريخ تأليف ابن رشد لهذا الكتاب ليربط النكبة بتأليفه، وقال بأن " كل ما ذكره الجابري في تحديده لهذا التاريخ إنما مرجعه بحث للمستشرق الإسباني الأب مانويل الونسو الذي حدد تاريخ تأليف ابن رشد لكتاب **تلخيص السياسة لأفلاطون** بحدود ٥٩٠هـ."، بينما وصل التحقيق بحسن مجيد العبيدي إلى أن زمن تأليف الكتاب، بين سنتي ٥٦٩هـ و٥٧٢هـ، وهو بعيد جدًا عن زمن النكبة وقد أكد هذا المنحى كل من "ارفن روزنتال" و"رينان" و"عبد الرحمان بدوي". انظر: أبو الوليد بن رشد، **تلخيص السياسة لأفلاطون**، ترجمة وتقديم حسن مجيد العبيدي، (ط١، دار الطليعة للنشر، لبنان، ١٩٩٨)، ص: ١٥.

(٥٣) الجابري، م.س، ص:١٤٦.

(٥٤) نفسه، ص: ١٤٩.

(٥٥) ذهب حسن مجيد العبيدي الى استبعاد إهداء ابن رشد كتاب جوامع سياسة أفلاطون لابي يحي مع الدعاء له فيه قائلاً: "لا يمكن أن يكون إلى أبي يحي هذا، رغم علاقته بابن رشد، بل إن الإهداء موجه إلى الخليفة أبي يعقوب المنصور"، راجع: **تلخيص السياسة لأفلاطون**، م.س، ص:٢٤-٢٥.

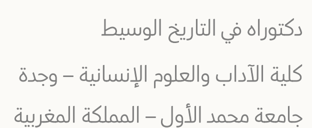
مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].



إسهام مادة كتب المناقب حول المجالات المهمشة
في إنجاز موسوعة "معلمة المغرب"





د. سماعيلي رشيد
دكتوراه في التاريخ الوسيط
كلية الآداب والعلوم الإنسانية – وجدة
جامعة محمد الأول – المملكة المغربية

مُلَخَّصْ

يسعى هذا المقال إلى إبراز أهمية المصادر الدفينة -كتب المناقب أنموذجًا- في الكشف عن المجالات المهمشة (الهوامش)، التي أدارت لها المصادر التاريخية التقليدية ظهرها، بحكم أن منهجها في الكتابة التاريخية هو التركيز على التاريخ السياسي، وتاريخ البلاط التي احتضنت حواضر الملك أحداثه، وهو ما يتضح من خلال عناوين كتبها مثل: "جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس"، و"الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، و"الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية" وغيرها من المؤلفات، في غياب تام لحضور البوادي في عناوينها، وإن ذكرت في متونها فهي غالبًا تأتي في سياق ما هو سياسي (حرْكة، جمع الضرائب، مرور السلطان...) وفي ظل هذا الفراغ الحاصل في المصادر التاريخية على مستوى حضور الهوامش، أسهمت مادة كتب المناقب بشكل كبير في ملء هذا الفراغ من خلال تأليف موسوعة "معلمة المغرب". فالباحث في المجالات المهمشة ملزم بالعودة إلى "المصادر الدفينة" منها كتب المناقب. كما يستنتج أن مادة كتب المناقب الغزيرة حول الجغرافية التاريخية أسهمت بشكل كبير في تأليف أجزاء "معلمة المغرب"، حيث عاد المشاركون بالمعلمة إلى كتب المناقب في كثير من المرات، بعدما لم تسعفهم كتب التاريخ في تحديد بعض المجالات.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٦ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ١١ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

كتب المناقب؛ المجالات المهمشة؛ الهوامش؛ المصادر التاريخية التقليدية؛ موسوعة معلمة المغرب

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.346451



الاستشهاد المرجعي بالمقال:

سماعيلي رشيد. "إسهام مادة كتب المناقب حول المجالات المهمشة في إنجاز موسوعة معلمة المغرب".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١١٤ – ١٢١.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: smmailirachh@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةٌ

إذا كان من أهداف "معلمة المغرب" تسجيل "المواقع القائمة والمندثرة من مدن وقرى وحصون وأسوار وأبواب وجوامع وزوايا في السهول والجبال والصحاري بأسمائها الأصلية ومعظمها باللسان الأمازيغي".[1] فهل استطاع المساهمون في "معلمة المغرب" توطين مجالات المغرب الأقصى دون العودة إلى مادة كتب المناقب الغزيرة في هذا المجال؟

ما دام أن المصادر التاريخية حبذت لنفسها الحديث عن حواضر الملك مثل فاس، ومراكش وغير ذلك، وهو ما يتضح من خلال بعض عناوينها مثل ما ألفّ عليّ ابن أبي زرع "الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس"، وما دونه "علي الجزنائي" من خلال مؤلفه: "جني زهرة الآس في بناء مدينة فاس"، وكتاب ابن الغازي الذي عنونه بـ: "الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون". يبدو أن المؤرخ التقليدي كانت تحكمه منهجية مسبقة في تأليف كتبه، وهو ما أكدّه المؤرخ عبد الواحد المراكشي في قوله: "وقد نجز بحمد الله جميع هذا الإملاء حسب ما رسمه مولانا، وجريت في ذلك كله على عادتي في التلخيص، وتركت أسماء القرى والضِياع والأنهار الصغار وغير ذلك مما لا تدعو له الحاجة ولا يخل التصنيف تركه".[2]

فإلى أي حدّ أسهمت مادة كتب المناقب في ملء البياض الحاصل في كتب التاريخ التي أدارت ظهرها لضواحي المدن والبوادي والضِياع والأنهار الصغار في إنجاز موسوعة "معلمة المغرب"؟

قبل الحديث مباشرة عن حضور مادة كتب المناقب حول الهوامش تجدر الإشارة إلى أنه اقتصرنا في مقالنا على بعض النماذج من كتب المناقب منها: "دعامة اليقين في زعامة المتقين" لأبي العباس العزفي (ت. ٦٣٣هـ)، وكتاب "المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد الصالح" لأحمد بن إبراهيم الماجري توفي ما بين سنتي سبع مائة (٧٠٠) وسبع مائة وعشرة (٧١٠) هجرية، وكتاب "المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف" لعبد الحق بن إسماعيل البادسي (كان حيا ٧٢٢هـ)، وكتاب "السلسل العذب والمنهل الأحلى المرفوع للخلافة العزيزية التي لا تزال مناقبها على مر الدهور تتلى في سلك من تحلى سلكهم الأربعيني في الجيل جيل فاس ومكناسة وسلا" لمحمد بن أبي بكر الحضرمي قدمه هدية للسلطان المريني أبي بن فارس عبد العزيز بن أبي الحسن الأكحل (ت. ٧٤٤هـ).

أولاً: عالم البوادي من خلال كتاب "دعامة اليقين" للعزفي

سنستهل المقال بإشارة واردة في كتاب "المستفاد"، حيث جاء في ترجمة أبي عبد الله محمد بن الخير، أن صديقا له زاره بموضعه في جبل قفص بالقرب من مكناسة.[3] قد ذهب محقق الكتاب إلى أن جبل قفص لم يرد في كتاب غير "المستفاد" الذي اطلع عليه.

أشار صاحب "دعامة اليقين" إلى بعض الزوّار الوافدين على أبي يعزى، ومنهم أبو محمد عبد الله بن يزيد من أَدْفَرْكالْ،[4] وهو البلد الذي كان يحتضن رباط ماسة الذي تحدثت عنه المصادر التاريخية التقليدية في سياق الأحداث السياسية التي عرفتها المنطقة وهي ثورة الدعي الماسي ببلاد سوس وتسمّى بالهادي،[5] في حين غيبت ذكر اسم أدفركال. كما ذكر العزفي عبد الله الركراكي من ركراكة من سكان أرماس.[6] وإذا عدنا إلى كتاب "أخبار البيذق" مثلاً نجد أنه ذكر ركراكة، لكن ذكرها جاء في سياق القتل والحرب والسياسة،[7] في حين لم ترد أي إشارة عند "البيذق" لقرية أرماس. وفي إشارته لخطيب مصمودة ذكر بأنه من سكان وزان،[8] وقد ذهب محقق الكتاب إلى أنها قد تكون أوّل إشارة إلى وزان في المصادر المكتوبة.[9] في المقابل إذا تصفحنا معلمة المغرب،[10] نجد أن صاحب مادة "وزان" ذكر بأن تاريخها ارتبط بالزاوية التي تنسب إليها، والتي أسسها خلال النصف الأول من القرن السابع عشر الشريف العلمي مولاي عبد الله بن إبراهيم (ت. ١٦٧٨).

ثانيًا: عالم البوادي وجغرافية المقدس من خلال كتاب "المنهاج"

احتفظ كتاب "المنهاج" باسم جغرافي وهو موضع كان مشهورا يعرف بكرابن،[11] وقد رجّح أحمد التوفيق إلى أن هذا الموضع كان بجهات إمِي نْتَانُوتْ الحالية.[12] وربما موضع كرابن الذي أشار إليه مؤلف

"المنهاج" بالموضع الشهير في العصر الوسيط، قد اختفى واندثر في الوقت الحالي.

أما دمنات الواردة ضمن ترجمة الشيخ أبي تَاليِثْ الهسكوري،[١٣] أشار أحد الباحثين أن دمنات أول من ذكرها هو "البيدق"، ولم تذكر بعد ذلك إلا في كتب مناقب صلحاء العصر المريني التي كتبت حول أبي محمد صالح أو أبي يعزى.[١٤] إلى جانب دمنات، ما يضيفه صاحب "المنهاج" في هذا السياق هو موضع تُوغْرُودِينْ.[١٥] وفي حديثه عن بعض الزوار المتوجهين من دمنات إلى رباط آسفي أشار إلى أنهم مروا ببلد بني تَاتْمَصَمُشْتْ الواقع ببلاد ماجر.[١٦] فهل ذكرت المصادر التاريخية التقليدية مجال تَاتْمَصَمُشْتْ؟

وفي إحدى الزيارات التي قام بها الشيخ المترجم له ومريده، ذكر صاحب "المنهاج" أنهم قدموا من دكالة من "موضع يعرف بربوة الجودر وتعرف بلسان الرطانة تاوريرت مَازَاطْ".[١٧] وهي إشارات مهمة للباحث في موضوع "الطوبونيمية" أو "اللسان الأمازيغي".

من البوادي المذكورة كذلك في كتاب المنهاج نجد تِنْكَرْمَاطْ التابعة لأعمال سجلماسة.[١٨] فإذا كانت سجلماسة المدينة التاريخية العامرة اندرست، فكيف لقرية تِنْكَرْمَاطْ أن تستمر إلى يومنا هذا؟ ونبقى ضمن مجال سجلماسة حيث ذكر موضعا يعرف ببئر حسن.[١٩] قد يذكر المؤرخ هذا البئر في حالة ما مرت حركة السلطان به، وبالتالي يكون حضوره في سياق ما هو سياسي.

أخبرنا مؤلف "المنهاج" أنه حدثه أحد خدام الفقراء بموضع تادولا،[٢٠] حيث كان معه المؤلف "بموضع تَامْسَنْتْ من وادي ورززات".[٢١] وأثناء ذكره لجنان قد زاره الشيخ أبو العباس حدد مجاله في أرض مسكيسة من وادي نفيس من أحواز مراكش،[٢٢] فيما يخص وادي نفيس فقد تكرر ذكره في العديد من المصادر التاريخية،[٢٣] أما أرض مسكيسة، "ربما" تم تهميشها من طرف المؤرخين التقليديين.

وخلال حديثه عن الشيخ يعقوب بن عيسى الصنهاجي ذكر بأنه يقطن من وادي دادس،[٢٤] وبناء على معطيات الباحث محمد حمام،[٢٥] الذي أشار إلى أن وادي دادس أول من ذكره هو أبو بكر الصنهاجي المعروف بالبيدق في كتابه "المقتبس"[٢٦] خلال النصف الأول من القرن السادس الهجري، واستطرد قائلا: "بأن ثاني إشارة لوادي دادس وردت عند صاحب التشوف إلى رجال التصوف في ترجمته لأبي بكر ابن ملول الصنهاجي الأسود".[٢٧] ليضيف "باستثناء هذه الإشارات القليلة فإن مختلف المصادر التاريخية سكتت عن وادي دادس وتاريخه".

أما جغرافية المقدس الواردة ضمن كتاب "المنهاج" نجد مسجد تَامْرُونْتْ.[٢٨] وفي سياق مشاركة الباحث عبد الرحيم العطاوي بمادة "تَامْرُونْتْ" قال: "كان هذا الموضع الوارد ذكره في المنهاج الواضح موجودا بالقرب من الموقع الحالي لضريح الشيخ أبي محمد صالح وقد اندثر الآن ولم يبق له أثر".[٢٩] كما نجد زاوية بني دغوغ،[٣٠] وعند إسهام صاحب مادة "بني دغوغ" نوه بكتب المناقب خصوصا كتاب "التشوف" حيث قال: "ورد ذكرها (بني دغوغ) عند الكثير من المؤلفين، وعلى الخصوص عند ابن الزيات".[٣١] كما نجد رباط أبي إسحاق إبراهيم بن عبد الكبير ببلاد متيجة،[٣٢] ومسجد الزرقون الواقع بين رجراجة وحاحة على ساحل البحر.[٣٣]

ثالثًا: عالم البوادي من خلال كتاب "المقصد الشريف" للبادسي

لما كان ابن خلدون بصدد الحديث عن نواحي بادس وصف أبو يعقوب البادسي بأنه من أكبر الأولياء، وعندما أراد تحديد مجال مرنيسة قال: "فلا يعلم لهم موطن"،[٣٤] لكن عبد الحق إسماعيل البادسي باعتباره ينتمي إلى كورة الريف، ذكر ضمن ترجمة محمد الشريف أن "رجلا يعرف بابن تافيلالت من سكان أصبات من حوز مرنيسة".[٣٥] وظف صاحب "المقصد" الحوز، أي أنه على دراية بحدود مجال مرنيسة، في حين ابن خلدون باعتباره لا ينتمي إلى جهة الريف، وكان يكتب من قلعة بني سلامة بالمغرب الأوسط، لذلك لم يستطع توطين مرنيسة. قد أشار عبد الوهاب بن منصور إلى مرنيسة بأنها قبيلة شهيرة تحمل الاسم نفسه مستقرة شمال إقليم تازى من المغرب الأقصى.[٣٦]

حينما ترجم صاحب "المقصد" لمركاب ابن عيسى، أشار إلى أن "سكناه بعقبة تَابَلَّخَاشْتَ من بلد بني بلند، وهي العقبة العظمى الحاجزة ما بين بلدي بلند وتمسمان".[٣٧] لكن نجد خليل شحادة لما حقق أجزاء "العبر" لكونه مشرقي، أخطأ في ضبط كثير من الأسماء.

في إشارة لابن خلدون حول ملوك نكور ودولتهم في غمارة، ورد في تحقيق خليل شحادة تكسامان،[٣٨] بدل تمسمان. وفي مساهمة الباحث حسن الفيكيكي بمادة تمسمان ضمن "معلمة المغرب" اعتمد على كتاب "المقصد الشريف" كمصدر أساسي من بين المصادر التي عاد إليها.[٣٩] ولما ترجم صاحب "المقصد" للحاج إبراهيم ذكر أنه دفن بموضع من تمسمان يعرف ببُورُوجَنْ،[٤٠] تمسمان نجد لها حضورا في المصادر التاريخية، لكن بواديها ومقابرها ظلت من المجالات المغيبة، ما عدا ما تجود به بعض "المصادر الدفينة".

في سياق حديث البادسي عن إحدى أسفار الولي سيدي محمد نحو بلاد الغرب، أشار إلى أنه مرّ "بفج العروس"، وحدد مجاله بأنه يوجد في آخر "بلاد بطوية وأول بلاد كزناية".[٤١] هل الأمر يتعلق بأن صاحب "المقصد" أول من ذكر هذا الممر الجبلي في الريف باسم فج العروس؟ علما أنه اليوم يحمل اسم تِيزِي أُوسْلِي.[٤٢]

اعتمد الباحث محمد بن عزوز حكيم على كتب المناقب لمساهمته بمادتي ترغة[٤٣] وبني توزين[٤٤] ضمن "معلمة المغرب"، حيث وضع كتاب "المقصد الشريف" ترتيبيا في بداية قائمة مصادره المعتمدة ليتبعه "بنزهة المشتاق" و"وصف إفريقيا".

ورد ضمن ترجمة الشيخ علي بن ماخوخ التوزيني أن بلده بتسَفْتْ على عشرين ميلا من المزمة.[٤٥] لما عرّف حسن الفيكيكي بتاسفت، اعتمد على مصدرين اثنين من العصر الوسيط هما للبكري والبادسي.[٤٦] ومازالت زاوية الشيخ المترجم له قائمة إلى يومنا هذا بتاسفت، وتعني بالأمازيغية شجرة البلوط.[٤٧]

ذكر البادسي في ترجمة الشيخ زكرياء بن يحيى أنه يسكن بقرية تِيقِيّتْ،[٤٨] وفي هذا السياق يشير أحد الباحثين أنه خلال القرن الماضي كانت قرية تيقيت لا تزال بالموطن الأصلي المعين لها من طرف البادسي.[٤٩] وحينما ترجم صاحب "المقصد" لأحمد ابن سوسان ذكر أنه من "سكان بوسكور بينه وبين المزمة أربعة فراسخ".[٥٠] هذا الموقع أطلق عليه الشريف الإدريسي اسم بوزكور،[٥١] في حين أن الاسم الصحيح هو الوارد في كتاب "المقصد الشريف" أي بوسكور وهو المتداول حاليًا.[٥٢]

من البوادي كذلك المذكورة ضمن كتب المناقب نجد قرية بني يفراسن،[٥٣] وهي قرية من قبيلة بقوية مازالت حاليا معروفة بأفراس،[٥٤] وقد أنجبت هذه القرية متصوفين خلال القرن السادس الهجري وهما يحيى بن مخلوف اليفريسني،[٥٥] ثم عبدون بن يخلفن بن علي اليفراسني.[٥٦]

كما نجد ضمن كتب المناقب قرية ترغة[٥٧]. عاد صاحب مادة "ترغة" إلى معلومات كتاب "المقصد الشريف"،[٥٨] وعدّها صاحب "روض القرطاس" من المدن،[٥٩] وهي حاليا قرية توجد على شاطئ البحر من شرقي تطوان تبعد عنها ب ٦٠ كيلومتر.

جاء في ترجمة إبراهيم البطّال أنه "من قبيلة كبدانة من حوز واد ملوية، كان يتردد على بلاد القلاع (قلعية)، من جهة مليلية، وكدية غصاصة".[٦٠] كانت (كدية غَسَاسة) من أهم المرافئ التجارية خلال العصر الوسيط، وهذه الإشارات حول الجغرافية التاريخية هي نفسها التي اعتمدها صاحب كتاب "قبائل المغرب".[٦١] نبقى ضمن نفس الترجمة حيث يذكر أن الشيخ إبراهيم مرّ في إحدى أسفاره بإِزْغَرانْ أوْرِيغْ، وحدد جغرافيتها بأنها "مفازة عظيمة ما بين مليلية وكبدانة"،[٦٢] وذكر أحد الباحثين بأن صاحب "المقصد الشريف" هو أول من أشار إلى إِزْغَرَانْ أُورِيغْ، وهي التي تحمل في يومنا هذا اسم "سهب بوعرك"[٦٣] (إقليم ناظور).

في حديث البادسي عن رجوع الشيخ أبي داوود من تلمسان إلى الريف، أشار إلى أنه استقر "بداره المعروفة بأفلاس أخر ساحل تغلال"،[٦٤] واعتمد صاحب مادة "تغلال" بشكل كبير على الكتب المنقبية، حيث أنهى فقرته ب "كما ذكره عبد الحق البادسي في المقصد".[٦٥]

جاء في ترجمة أبي داوود مزاحم تحديدًا دقيقًا لموقع بطوية، فهم "من وادي نكور، من حوز المزمة إلى وادي ملوية".(٦٦) اكتفى ابن حوقل بإدراجها ضمن قبائل زناتة،(٦٧) نفس التحديد نجده عند صاحب "روضة النسرين".(٦٨) حدد ابن خلدون مجال بطوية بقوله: "وبطوية منهم ثلاثة بطون: بقوية على تازة، وبني ورياغل على واد المزمة، وأولاد علي بتافرسيت"،(٦٩) لكن يرى أحد الباحثين أن أحسن تعبير عن حدود بلاد بطوية هو الذي قدمه عبد الحق البادسي "إذ جعلها ممتدة من جهة الغرب من حوز المزمة الذي شمل آنذاك كل من بقوية وبني ورياغل إلى مصب واد ملوية عند مشارف شرق جبال كبدانة".(٧٠)

في حديث صاحب "المقصد" عن الشيخ أبي الطّاهر، ذكر أنه وقف يومًا بمقربة من الجبل الكبير الذي ببلاده ببقوية بمقربة من عنصر أولاد علي المعروف بأبي بعل.(٧١) فقد ذكر الحسن الوزان(٧٢) جبل بقوية، لكن ما انفرد به البادسي ربما هو ذكره عنصر أولاد علي المعروف بأبي بعل.(٧٣) ما يزيد من أهميته كتاب "المقصد"، أن أحد الباحثين الذين أسهم بمادة "بقوية" اعتمد على البادسي بشكل كبير، حيث اقتبس من كتاب "المقصد" خمسة اقتباسات، في حين اعتمد على اقتباس واحد من كتاب "وصف إفريقيا".(٧٤)

اعتمدت الباحثة التي عرَّفت بمادة "بادس" بشكل كبير على كتب المناقب، وهو ما نلمسه في قولها: "لدينا وثيقتان يرجع عهدهما إلى القرون الوسطى، وتتعلق ببادس وكلتاهما تتمحور حول المناقب".(٧٥)

عندما زار السيد "دافيد غرين" القائم بأعمال لدى السفارة الأمريكية بالرباط جهة الحسيمة، زار بعض مواقعها، وعنونت جريدة "دليل الريف"(٧٦) مقالا لهذه الزيارة ب"القائم بأعمال السفارة الأمريكية يزور قلعة طوريس"، ولم يأت في المقال ولو مرة واحدة الإشارة إلى اسمها الحقيقي الوارد في "المقصد الشريف" وهو قلعة صنهاجة.(٧٧) هل تستحق هذه الجريدة أن تكون دليلاً للريف؟ وأين يتجلى هذا الدليل الذي يطمس هوية الريف بشكل خاص والمغرب الأقصى بشكل عام؟ كان على الجريدة أن تسهم بأقلامها في إعادة الاعتبار للأسماء التاريخية التي هي من إنتاج ذهنية أجدادنا، بدل الانسياق وراء الأسماء الدخيلة. فاسم قلعة صنهاجة وارد في كتاب "المقصد الشريف" الذي كان صاحبه حيا سنة ٧٢٢ه، في حين أرجعت جريدة "دليل الريف" بنائها إلى البرتغاليين في القرن الخامس عشر ميلادي.

بيان الصواب والخطأ من خلال مقارنة بين كتاب "العبر" الجزء السادس تحقيق خليل شحادة وكتاب "المقصد الشريف للبادسي".

سنوضح من خلال هذا الجدول بعض أخطاء أسماء الأماكن الجغرافية الواردة ضمن الجزء السادس من "العبر" لابن خلدون، الذي حققه خليل شحادة، ومقارنتها مع ما جاء ضمن كتاب "المقصد الشريف" للبادسي:

"العبر"، ج.٦، ابن خلدون	"المقصد" البادسي
بوطة، ج.٦، ص١٥٢	بطوية، ص51
تكسمان، ج.٦، ص٢٨٥, ٢٨٤, ٢٨٣.	تمسمان، ص٥٦
كزنارية، ج.٨، ص٢٨٤	كزناية، ص٨٨
تيكيباس، ج.٦، ص٢٨٩	تجيساس، ص١١١
اعتبر نكور هي المزمة ج.٦، ٢٨٤	نكور ليست هي المزمة ص٥١
وظف الاسم القديم "قلوع جارة" ج.٦، ٢٨٣	وظف الاسم الجديد القلاع (قلعية) ص١٤١
بنو تطوفت، ج.٦، ص ١٥٠	بنو يطفت، ص١٢٥
أخطأ في مصب نهر ملوية حيث ذكر بأنه يصب في غساسة ج.٦، ص١٣٣	ص١٤١
بني سنس، ج.٦، ص١٩٩	بني يستيتن، ص٨٥

يتبين من خلال هذه الإشارات الواردة في الجدول، أن مادة المعجم الجغرافي التي يتضمنها الجزء السادس من "العبر" لابن خلدون، تحقيق خليل شحادة، إذا ما قارنها بالمعجم الجغرافي الواردة بكتاب "المقصد الشريف" للبادسي، أن صاحب "المقصد" تفوق في كثير من الأحيان على المؤرخ ابن خلدون، ومحقق كتابه في تحديد قبائل الريف "تحديدا دقيقا"، فابن خلدون يبدو أنه اعتمد في تأليفه على الرواية الشفوية، في حين البادسي باعتباره ابن المنطقة تمكن من ضبط مجاله.

رابعًا: عالم البوادي والأزقة والدروب من خلال كتاب "السلسل العذب" للحضرمي

أخبرنا صاحب "السلسل العذب" في إحدى تراجمه أن شخصًا كان متعبدًا بجامع الزيتونة من داخل باب الفتوح،[٧٨] فباب الفتوح وارد في مجموعة من المصادر التاريخية، في حين أن جامع الزيتونة المتعارف عليه هو بإفريقية (تونس)، وليس بباب الفتوح بفاس. هل الأمر يتعلق بمسجد اندثر بفاس؟

لما ترجم للشيخ مبارك فاصكاه قال: "بأن أصله من قرية بظاهر سلا يقال لها أقرميم".[٧٩] ذُكرت مدينة سلا أكثر من اثنين وثلاثين مرة في كتاب "البيان المغرب"،[٨٠] وبكتاب أخبار المهدي للبيذق[٨١] أكثر من إحدى عشر مرة، لكن قرية أقرميم لم تتم الإشارة إليها، فذكرها عند المؤرخين التقليديين كان يستدعي بالضرورة حدث سياسي يقع بهذه القرية مثل جمع الضرائب، أو التمرد، أو حركة السلطان بها، غير ذلك فهي تبقى من المجالات المهمشة في نظرهم. أما الشيخ أبو محمد الحسين الأبله فيذكر أن "أصله من ظاهر سلا من موضع يقال له أسمير".[٨٢] ويحدد صاحب "نزهة المشتاق" موضع سلا على ضفة نهر أسمير،[٨٣] أي أنه يطلق أسمير على واد أبي رقراق، في حين صاحب "السلسل" حدد أسمير بموضع بضاحية سلا وليس نهر.

كما حدد سكنى أبي الربيع سليمان بجهة يقال لها عيون الكرازين.[٨٤] وردت عند صاحب "روض القرطاس" بعيون الكوازين،[٨٥] وذكرت عند صاحب كتاب "فوائد من كناش للعارف بالله الشيخ أحمد زروق"[٨٦] باسم عيون الكرازين وليس الكوازين، وهو كتاب من الكتب التي تندرج ضمن خانة كتب المناقب. وحين ترجم لأبي محمد عبد الله بن مخلوف والحجاج يوسف الجابري أشار بأنهما ينحدران من بادية سلا.[٨٧] فالمؤرخ التقليدي مثلاً يذكر فاس ومراكش وسلا، لكن بواديها لا يذكرها إلا إذا تعلق الأمر بحدث سياسي.

من الأزقة والدروب الواردة ضمن كتاب "السلسل" نجد غدير الجوزة،[٨٨] وهي زنقة بفاس لم ترد بكتاب "بيوتات فاس" ولا "روض القرطاس"، إضافة إلى ذكره "لدرب الفرات من الجهة بإزاء باب معلقة من سلا".[٨٩] فهل ستسعفنا المصادر التاريخية التقليدية بذكر الأزقة والدروب لمن أراد التجوال فيها؟

خاتِمَةٌ

من خلال ما سبق، يتبين أن الباحث في المجالات المهمشة ملزم بالعودة إلى "المصادر الدفينة" منها كتب المناقب. كما يستنتج أن مادة كتب المناقب الغزيرة حول الجغرافية التاريخية أسهمت بشكل كبير في تأليف أجزاء "معلمة المغرب"، حيث عاد المشاركون بالمعلمة إلى كتب المناقب في كثير من المرات، بعدما لم تسعفهم كتب التاريخ في تحديد بعض المجالات، لما "توليه" كتب المناقب من "أهمية للمجال"، ولما حرصت لجنة تحرير "معلمة المغرب" على وضع لائحة البيبلوغرافيا عنونت ذلك "بأهم المصادر والمراجع المحال عليها"، أدرجت ضمن هذه اللائحة "المهمة" كتب المناقب المؤلفة خلال القرنين السابع والثامن الهجريين، علمًا أن النصوص المناقبية لم تمدهم بمعطيات حول المجال وفقط، بقدر ما قدمت لهم معلومات حول الأسر وبعض البيوتات المشهورة والأشخاص. فلولا ما قدمته كتب المناقب من معلومات حول مجالات المغرب الأقصى، لا استحال على المشاركين في "معلمة المغرب" الإسهام ببعض موادها.

الإحالات المرجعية:

(١) مجموعة مؤلفين. **معلمة المغرب**. ٢٣.م، ج.١، مطابع سلا، ١٩٨٩، ص٩.
(٢) عبد الواحد بن علي المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**. تح خليل عمران المنصور، ط.٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٥، ص٢٧٣.
(٣) أبو عبد الله محمد بن عبد الكريم التميمي، **المستفاد في مناقب العُبَّاد بمدينة فاس وما يليها من البلاد**. جزآن، تحقيق محمد الشريف، منشورات كلية الآداب، تطوان، ط.١، مطبعة طوب بريس، الرباط، ٢٠٠٢، ج.٢، ص١٢١.
(٤) أبو العباس العزفي، **دعامة اليقين في زعامة المتقين مناقب الشيخ أبي يعزى**. تح أحمد التوفيق، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ١٩٨٩، ص٥٥.
(٥) ابن عذاري المراكشي، **البيان المُغرب في أخبار الأندلس والمغرب - قسم الموحدين**. تحقيق محمد إبراهيم الكتاني، محمد بن تاويت، محمد زنيبر، عبد القادر زمامة، ط.١، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٥، ص٣٠.
(٦) العزفي، **دعامة اليقين. م.س**، ص٥٦.
(٧) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، صص٦٧,٧٠.
(٨) العزفي، **دعامة اليقين**. م.س، ص٥٩.
(٩) **المصدر نفسه**، ص٥٩.
(١٠) محمد المنصور، **"مادة وزان"**. ضمن **معلمة المغرب**. ٢٣.م، ج.٢٢، مطابع سلا، ٢٠٠٠، ص٧٥٨٣.
(١١) أحمد بن إبراهيم الماجري، **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**. جزآن، تح عبد السلام السعيدي، ط.١، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٣، ج.٢، ص٥٥١
(١٢) أبو يعقوب يوسف بن يحي التادلي، **التشوف إلى رجال التصوف وأخبار أبي العباس السبتي**. تح أحمد التوفيق، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط.٢، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ١٩٩٧، ص١١٥.
(١٣) أحمد بن إبراهيم الماجري، **المنهاج الواضح في تحقيق كرامات أبي محمد صالح**. جزآن، تح عبد السلام السعيدي، ط.١، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٣، ج.٢، ص٥٨٤.
(١٤) أحمد التوفيق، مادة **"دمنات"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.٢٣، ج.١٢، مطابع سلا، ٢٠٠٠.ص٤٠٧٩.
(١٥) الماجري، **المنهاج الواضح**. م.س، ج.٢، ص٥٨٤. توغرودين: اسم أمازيغي يعني المكان المرتفع غير الحاد.
(١٦) **المصدر نفسه**، ص٥٩٧.
(١٧) **المصدر نفسه**، ص٦٢٥. تعني تاوريرت بالأمازيغية الكدية، وصاحب النص يتحدث هنا عن "تاوريرت مازاط" كانت تابعة لمجال دكالة.
(١٨) **المصدر نفسه**، ص٤٧٧.
(١٩) الماجري، **المنهاج الواضح**. م.س، ج.١، ص٣١٨.
(٢٠) **المصدر نفسه**، ص٣١٦.
(٢١) **المكان نفسه**.
(٢٢) **المصدر نفسه**، ص٣٢٢.
(٢٣) يُنظر مثلاً: علي ابن أبي زرع الفاسي، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**. دار المنصور، الرباط، ١٩٧٢، ص٦٦.
(٢٤) الماجري، **المنهاج الواضح**. م.س، ج.١، ص٣١٧.
(٢٥) محمد حمام، مادة **"وادي دادس"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، م.١٢، ص٣٩٠١.
(٢٦) أبو بكر الصنهاجي المكنى بالبيدق، **المقتبس من كتاب الأنساب في معرفة الأصحاب**. تح عبد الوهاب بن منصور، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص٥٥.
(٢٧) ابن الزيات التادلي، **التشوف**. م.س، ص٤١٣.
(٢٨) الماجري، **المنهاج الواضح**. م.س، ج.٢، ص٥٧١.
(٢٩) عبد الرحيم العطاوي، مادة **"تامرونت"**. ضمن **معلمة المغرب**. ٢٣.م، ج.٧، مطابع سلا، ١٩٩٥، ص٢١٧٨.
(٣٠) الماجري، **المنهاج الواضح**. م.س، ج.٢، ص٥٧٩.
(٣١) محمد الشياظمي، مادة **"الدغوغيون"**. ضمن معلمة المغرب، م.س، ج.١٢، ص٤٠٤٧. ابن الزيات التادلي، **التشوف**. م.س، ص٤١٣.
(٣٢) الماجري، **المنهاج الواضح**. م.س، ج.٢، ص٥٩٢.
(٣٣) **المصدر نفسه**، ص٥٢٧.
(٣٤) عبد الرحمن بن خلدون، **ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**. ٨ أجزاء، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، ٢٠٠٠، ج.٦، ص١٥٢.
(٣٥) عبد الحق بن إسماعيل البادسي، **المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف**. تحقيق سعيد أعراب، ط.٢، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٣، ص١٤٤.
(٣٦) عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**. المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٨، ص٣٠٦.
(٣٧) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص٥٦.
(٣٨) ابن خلدون، **العبر**. م.س، ج.٦، ص٢٨٣.
(٣٩) حسن الفيكيكي، مادة **"تمسمان"**. ضمن **معلمة المغرب**. ٢٣.م، ج.٨، مطابع سلا، ١٩٩٦، ص٢٥٤٣.
(٤٠) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص٦٢.
(٤١) المصدر **نفسه**، ص٨٨.
(٤٢) عبد القادر بوراس، مادة **"تيزي أوسلي"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ج.٨، ص٢٦٨٥.
(٤٣) محمد ابن عزوز حكيم، مادة **"ترغة"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ج.٧، ص٢٣٢٦.
(٤٤) محمد ابن عزوز حكيم، مادة **"بني توزين"**. ضمن **معلمة المغرب**. ٢٣.م، ج.٥، مطابع سلا، ١٩٩٢، ص١٥١٧.
(٤٥) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص١١٤.
(٤٦) حسن الفيكيكي، مادة **"تاسافت"**. ضمن **معلمة المغرب**. ٢٣.م، ج.٦، مطابع سلا، ١٩٩٢، ص٢٠٥٤.
(٤٧) حسن الفيكيكي، **أطلس الريف الشرقي: مباحث في الجغرافية التاريخي**. ط.١، دار أبي رقراق، الرباط، ٢٠١٤، ص٢٧.
(٤٨) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص١٢٠.
(٤٩) حسن الفيكيكي، مادة **"تيقيت"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ج.٨، ص٢٧٢٨.

(٥٠) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص١٢١.
(٥١) الشريف الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الأفاق**. ٢ مجلدات، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، م.١، ص١١١.
(٥٢) محمد ابن عزوز حكيم، مادة **"بوسكور"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ج.٥، ص١٧١٩. قد تكون هذه الإشارات مهمة للباحث في اللسانيات التاريخية.
(٥٣) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص١٢٨.
(٥٤) حسن الفيكيكي، مادة بني **"يفراسن"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ج.٥، ص١٦٠٢.
(٥٥) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص١٢٢
(٥٦) **المصدر نفسه**، ص١٢٨.
(٥٧) **المصدر نفسه**، صص.١٠٧,٩٨,١٣.
(٥٨) محمد ابن عزوز حكيم، مادة **"ترغة"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ج.٧، ص٢٣٢٦.
(٥٩) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٥١.
(٦٠) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص١٤١.
(٦١) عبد الوهاب بن منصور، **قبائل المغرب**. م.س، ص٣٠٧.
(٦٢) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص١٤١.
(٦٣) حسن الفيكيكي، **أطلس الريف الشرقي**. م.س، ص٣٤٧.
(٦٤) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص٥١.
(٦٥) حسن الفيكيكي، مادة **"تيغلال"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ج.٨، ص٢٧١٥.
(٦٦) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص٥١.
(٦٧) ابن حوقل، **صورة الأرض**. منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٩٢، ص١٠٢.
(٦٨) إسماعيل بن الأحمر، **روضة النسرين في دولة بني مرين**. المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٦٢، ص١٠.
(٦٩) ابن خلدون، **العبر**. م.س، ج.٦، ص٢٧٤.
(٧٠) حسن الفيكيكي، مادة **"بطوية"**. ضمن **معلمة المغرب**. ٢٣.م، ج.٤، مطابع سلا، ص١٢٧١.
(٧١) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص٩١.
(٧٢) حسن الوزان، **وصف إفريقيا**. جزآن، ترجمة محمد حجي، محمد الخضر، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، ط. ١، دار الغرب الإسلامي، بيروت ١٩٨٨، ج.١، ص.٣٣.
(٧٣) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص٩١.
(٧٤) محمد ابن عزوز حكيم، مادة **"بقوية"**. ضمن **معلمة المغرب**. م.س، ج.٤، ص١٣٠٤.
(٧٥) حليمة فرحات، مادة **"بادس"**. ضمن **معلمة المغرب**. ٢٣.م، ج.٣، مطابع سلا، ص٩٦٦.
(76) https://dalil-rif.com/permalink/27148.html
(٧٧) عبد الحق البادسي، **المقصد الشريف**. م.س، ص٩٥.
(٧٨) أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الحضرمي، **السلسل العذب والمنهل الأحلى المرفوع للخلافة العزيزية التي لا تزال مناقبها على مر الدهور تتلى في سلك من تحلى سلكهم الأربعيني في الجيل جيل فاس ومكناسة وسلا**. تحقيق محمد الفاسي، مجلة معهد المخطوطات العربية، جامعة الدول العربية، م.١٠، ج.١، ١٩٦٤، ص٥٦.
(٧٩) **المصدر نفسه**، ص.٧٠.
(٨٠) ابن عذاري المراكشي، **البيان المغرب قسم الموحدين**. م.س، ص١٣٦,٨٣,٧٩,٧٥,٦٢,٥١,٤٩,٤٥,٤٤,٤٣,٣٧,٢٦,٢٥,٢٤.
(٨١) أبو بكر بن علي الصنهاجي المكنى بالبيدق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**. دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١. صص٨٣,٨١,٧٩,٧٨,٧٦,٧٣,٦٨,٦٧,٦٣,٢٦,٢٥.
(٨٢) الحضرمي، **السلسل العذب**. م.س، ص٧١.
(٨٣) الإدريسي، **نزهة المشتاق**. م.س، ص٢٣٩.
(٨٤) الحضرمي، **السلسل العذب**. م.س، ص٨٢.
(٨٥) علي ابن أبي زرع، **روض القرطاس**. م.س، ص٦٦.
(٨٦) أحمد زروق، **فوائد من كناش للعارف بالله تعالى أحمد زروق**. تح محمد إدريس طيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠١١، ص٨٣.
(٨٧) الحضرمي، **السلسل العذب**. م.س، صص٨٩,٩٤. ينظر الماجري، **المنهاج الواضح**. م.س، ج.٢، ص٦١٨. "لو خرجت إلى البادية فإن البادية صحيحة والبلد معفنة". خلال الحجر الصحي "بكورونا" انتقلت مجموعة من الأسر بمدينة العيون سيدي ملوك إقليم تاوريرت (المملكة المغربية) إلى بواديهم حيث سلامة الهواء والبعد عن عدوى الأمراض.
(٨٨) **المصدر نفسه**، ص٨٣.
(٨٩) **المصدر نفسه**، ص٤١.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

البغاء والبغايا
في المغرب الإسلامي الوسيط



د. بلقاسم بن عبد النبي

دكتوراه في التاريخ المعاصر

عضو مخبر البحث والدراسات والبحوث المتقاربة

كلية الآداب بصفاقس – الجمهورية التونسية

مُلَخَّصْ

مثّل البحث محاولة لدراسة تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط من الأسفل بإلقاء نظرة على ظاهرة غيبتها الذاكرة واعتبرتها من المحرمات وفئة رفضت اجتماعيًا وهمّشت تاريخيًا. فلم تغب الدعارة عن مجتمعات المغرب الإسلامي الوسيط، رغم سطوة المرجعية القبلية والدينية واعتبرتها من الطابوهات والمحظورات وكرست كل الأساليب لطمسها. فحاولنا، ولو بإيجاز، إماطة اللثام عن الظاهرة وكشف خباياها وفهم طلاسمها. فالتوسع العمراني والاختلاط السكاني والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والتوترات السياسية والحروب، خلقت مناخا لبروز وتأجج هذه الظاهرة فتكوّنت دور بغاء بتسميات مختلفة، توزعت بين الفنادق والدور الخاصة والاستراحات والملاهي الليلية والمواخير العمومية. فتعددت البغايا بين الطرازات والخرجيرات والمغنيات والراقصات وتنوعت تصرفاتهن واختلفت أساليبهن لإغواء الرجال. ولعب الوسطاء "القوّادون" دورًا كبيرًا في تنظيم وتنشيط هذه الظاهرة خاصة مع تواجد سوق النخاسة وتجهيز النخاسون الإيماء "لسوق الدعارة" باعتماد أدوات الزينة التي يصبغون بها الأمة لتغطية العيوب والتشوهات والأمراض، بل وتغيير لون بشرتها وعيونها بناء على طلب الزبون. وكان شهاب الدين أبو عباس أحمد بن يوسف التيفاشي نموذجًا رائعًا لما تركه في كتابه النادر "نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب" من دراسة شاملة ودقيقة للظواهر الجنسية في المجتمع الإسلامي بشرقه وغربه وأبرز فيه فئات عديدة بأسلوب فكاهي وحوّله من الطابع الجدّي الأكاديمي إلى الطابع الممتع، جمع فيه النوادر والأخبار والأشعار بمزاوجة بين بشاعة اللفظ وحسن المقصد حتى نهاية منتصف القرن السابع هجري. فاتخذ الجرأة في طرح هذه المواضيع دون خوف أو خجل حتى أنه يمكن تصنيفه من أول المؤلفات في الأدب الإيروتيكي المحرم والشاذ الذي منع من التداول في كثير من المكتبات العربية. وتناول التيفاشي في كتابه فئات البغايا والقوادين والزناة واللوطيين والسحاقيات وأفعالهم وأساليب عملهم، واقتبسنا منه الباب الرابع الذي خصصه لطبقة العاهرات المبتذلات ونوادر أخبارهن وأساليبهن للاتصال بالزبائن والحيل للنيل منهم وأخذ غايتهن، والباب الثاني الذي خصصه لطبقة القوادين والقوادات وأبرز تصرفاتهم وأساليبهم في إغواء الرجال.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١٩	أكتوبر	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٧	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

المغرب الإسلامي الوسيط؛ البغاء؛ البغايا؛ الوسطاء؛ دور البغاء؛ التيفاشي

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.251627 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

بلقاسم بن عبد النبي. "البغاء والبغايا في المغرب الإسلامي الوسيط".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص١٢٢ – ١٣٤.

Corresponding author: belgacem.abdenbi@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

يُعَدّ التطرق لتاريخ البغاء والبغايا من الحقول المعرفية الجديدة التي جاءت استجابة للتيار المنادي بضرورة تجديد الكتابات التاريخية وفهم البنى والمتغيرات الاجتماعية من الأسفل وتجاوز الطرح التقليدي وإكرهات الحوليات التاريخية. ولطالما اعتبرت ظاهرة البغاء في المغرب الإسلامي الوسيط من الطابوهات والمحظورات والمسكوت عنها ضمن النصوص الإخبارية، وكرست الذاكرة الجمعية كل أساليبها لطمسها باعتبارها مخالفة لتعاليم الدين الإسلامي والأعراف الاجتماعية، وأيّ ممارسة للجنس خارج إطار الزواج هو جرم في حق النفس والعائلة والقبيلة بما تمثله المرأة من عفة وشرف. وكما ألقينا سابقًا نظرة على ظاهرة الدعارة بالبلاد التونسية في الفترة الحديثة والمعاصرة، نحاول في هذا البحث إماطة اللثام عنها في الفترة الوسيطة ضمن المجال المغربي وفهم خباياها. ورغم حداثة هذا البحث فإننا لا ندعي الأسبقية في تناوله والإشارة إليه، خاصةً كتابات إبراهيم القادري بوتشيش الذي ركز بحوثه على التاريخ الاجتماعي والطبقات المهمشة في المغرب الإسلامي طيلة الفترة الوسيطة. ولم يخلو المجتمع المغربي الوسيط من البغاء رغم سطوة المرجعية القبلية والدينية، فالتوسع العمراني والاختلاط السكاني والأزمات الاقتصادية والاجتماعية والتوترات السياسية والحروب، خلقت مناخًا لبروز هذه الظاهرة وتكوّنت دور بغاء أطلقت عليها تسميات مختلفة مثل الفنادق(١) والقصيفه(٢) ودور الخراج(٣). وتأسيسًا على هذا، ارتأينا أن نساهم بمقاربة تاريخية نتّبع فيها أولاً الكشف عن أصناف البغايا وتصرفاتهن، ثانيًا أصناف دور الدعارة، ثالثًا النظر في الوسطاء، وأخيرًا النظر بإيجاز في مؤلف التيفاشي "نزهة الألباب".

أولاً: البغايا والإغواء

ألمحت عديد النصوص للبغاء في المغرب الإسلامي، وكانت جلية في كتب الحسبة قصد الإصلاح والمواجهة والتخفيف من الظاهرة وتبعاتها. فقد نعت المحتسبون البغايا بأبشع النعوت ودعوا إلى إبعادهن عن الأماكن العامة كالأسواق والمقابر ومراقبة الحمامات وحذروا من مخالطتهن وارتياد منازلهن، فأوصى ابن عبدون بـ"قطع حوانيت الجير والمواضع الخالية واجب، بأن يخلى فيها مع النساء، لا يخالط النساء في البيع والشراء إلا ثقة خيّر، قد عرف الناس خيره وأمانته، ويرقب على ذلك أهل الصنائع. قطع الطرازات عن السوق واجب، فإنما هي قحاب"(٤). وخاصة أنهن يرتدين ملابس مطرزة "لا تكاد تفرق بينها بين أجسامهن"(٥)، فهي شفافة مطرزة سهلة الخلع، لا تغطي إلا أجزاء محدودة من جسمها للإغراء، ويفهم بذلك أنّ لقب الطرازات تأتّى من الملابس المطرزة والمزركشة التي كن يرتدينها. وكانت بيوت الطرازات في أطراف المساكن والأماكن العامة لما يشعرن به من مهانة واحتقار الناس لهن حتى أنّ روادهن كانوا ينسلون إليهن وفي أوقات محددة خوفا من الشبهة.

وأورد ابن قزمان أبياتا من الزجل وصفت تصرفات الطرازات واستنكر بها عادة خروج النساء والرجال إلى المقابر ليلة العيد وتحوّل هذه الأمكنة إلى أوكار لممارسة الدعارة والتعدي على حرمه الأموات بقوله:

كل وجه مزيّن ليلة العيد هو برّه
والبكا بالمقابر على الأحباب ذمرّه
احتفال الفجايع فاحتفال المسرّه
ودموع التّرحّم في ثياب الشطارة(٦).

وذكر ابن عبدون تصرفات الخرجيرات وهن نساء دور الخراج ويقمن في بعض الفنادق ويمارسن البغاء تكسبا للرزق. والفرق بينهن وبين الطرازات، أنّ الخرجيرات لا يبرحن الفندق في حين النوع الآخر يمكن استدعاؤهن بدل الذهاب إلى مقرات سكناهن(٧). حيث كن يبارحن أماكنهن ويتجولن في الطرق لإظهار مفاتنهن وجلب الرجال لأوكارهن، لذلك دعا إلى "أن ينهى نساء دور الخراج عن كشف رؤوسهن خارج الفندق، والتحلي للنساء بزينتهن، وينهين عن السير بينهن، والفرح ولو أذنهن على ذلك..."(٨).

وازدهر فن الغناء والموسيقى في المغرب الإسلامي والأندلس، فانتشرت مجالس الطرب المغلقة والمفتوحة وخاصة باشبيلية وعبّر عن ذلك ابن رشد في قول ذكره المقري "ما أدري ما تقول، غير أنه إذا مات عالم باشبيلية فأريد بيع كتبه، حملت إلى قرطبة حتى تباع فيها وإن

مات مطرب في قرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية"[٩]. واشتهرت مدينة طريانة بملاهيها الليلية التي كانت أمكنة للاستمتاع بالغناء والخمر والبغايا وتفريج كرب داخل النفس البشرية[١٠]. حتى قال فيها ابن سعيد، "طريانة يكون فيها من أصناف الطرب في الليالي القمرية ما هو مشهور في البلاد"[١١].

وفي خضم استخدام الأنهار للتجارة والتنزه لا سيما بالأندلس برز وجه جديد للترفيه، إذ يكتري السكان القوارب ويتخلل ذلك الغناء والرقص والشراب والنكات والضحك حتى أصبح الأمر عادة ومن لا يشاركهم أفراحهم ثقيل ظل[١٢]. فذكر ابن سعيد "اجتزت مرة مع والدي قرية نارجة، وكان ذلك زمان صباغة الحرير عندهم، وقد ضربوا في بطن الوادي بين مقطعاته خيما، وبعضهم يشرب وبعضهم يغني ويطرب، وسألوا: بما يعرف ذلك الموضع؟ فقالوا الطراز، فقال والدي اسم طابق مسماه، ولفظ وافق معناه"[١٣].

وارتبط الغناء والملاهي بالراقصات، فلا يخلو مجلس أو حفل أو زواج من الراقصة حتى أنهن ألهبن أفئدة الحاضرين، وصور لنا الشاعر أبو علي حسن بن الأنصاري وطء راقصة تدعى نزهة على فؤاده بقوله:

تخط الشوق في القلب شخصها ففي
كل ما تأتيه حسن وتحسين
وليث تطيق الشين في حال نطقها
فمن أجل بعد الشين بعدها الشين
إذا رقصت أبصرت كل بديعة
ترى أنفا حبنا وحبا هي النون
فيا نزهة الإبصار سميت نزهة
لكي يوضح المعنى بيان وتبيين[١٤].

وارتبط اسم الراقصة باللهو والمجون والدعارة وأمدنا البيذق ببعض الإشارات عن ذلك في سفره مع المهدي بن تومرت في القرية المعروف باسم قلال (بوقلال حاليًا على الطريق الرابط بين تازه وأكنول) حيث روى أنهم سمعوا صراخ الرجال والنساء، فخرجوا لنهيهم عن ذلك فلم ينتهوا، وكان ردهم أنّ تلك سيرة عندهم، فلما أحلوا عليهم أمروهم بالخروج وإلا نكّل بهم فما كان عليهم إلا الخروج [١٥]. وهو ما لاحظه في حضور عرس في تلمسان بقوله "لما دخل ابن تومرت تلمسان وجد بها عروسا تزف لبعلها، وهي راكبه على سرج واللهو والمنكر أمامها"[١٦].

وحرص رجال الحسبة على أخذ إجراءات احترازية ضد المجون في الأعراس والراقصات "العاهرات" اللاتي تتبع من طرف الفساق والفجار وذلك بضرورة استخلاص أهل العرس على تصريح من القاضي، خاصة العروس التي تزف بالباديه، يحصلون بموجبه على حراس يحمون موكب الزفاف من مظاهر العربدة، فنبه ابن عبدون إلى وجوب "قطع الملهيين: فإن لم يقدر على ذلك، فلا يخرجوا إلى البادية إلا عن إذن القاضي ويخرج معهم من الأعوان من يحرس العرس من العربدة"[١٧].

وساهم تواجد سوق النخاس في تفشي ظاهره البغاء، فقد استغل النخاسون والسادة جواريهم ودفعوا بهم إلى ممارسه البغاء للاستفادة منهن ماديًا وتحقيق إرادات كبيرة بطريقة سهلة، فأورد صاحب الاستبصار عن أغنياء جبل نفوسة: "ما فيهم رجل غني إلا وله وصائف كثيرة يلبسهن فاخر الثياب ويحليهن بالحلي، ويبرزهن على الطريق للفواحش، ولهم ديارا معدة لذلك، وهذا عندهم معروف لا ينكر..."[١٨].

وأشار السقطي في رواية إلى ممارسة النخاسين مهمة القوادة لإمائهم، حيث عاين مناقشة بين نخاس ورجل ثري حول أمة مقابل خمس دراهم، إذ أورد "إني كنت أعمل في برانيّة دار للرجل حتى دخل علينا فلان من مفسدي هذا الصنف المذكور ولم أظنه على ذلك فقال له صاحب الدار: أين الخادم التي ساق لك فلان للبيع؟ فتجاهل وقال له: لا أعرف ما تقول، فقال له: هي الكاملة القد الحالكة البديعة الصورة الحلوة الشكل وكيف تجدها وقد وصفت لي وعرّفت بها، فقال له: وبعد هذا ما تريد؟ قال: أريد أن أراها، ثم قال إليه وسارّه فسمعته يقول له: خمسه دراهم تعطيني والله وحينئذ أسوقها لك، وأعطاه صاحبه الذي طلب ثم خرج عنا وغاب قليلا وجاء بخادم سوداء على النحو الذي وصف له التحفت بكساء أبيض محشي بالأحمر وجود مثلها نادر، فقال له هذه؟ وأشار لها إلى غرفة بالبرانية

المذكورة فطلعها وطلع صاحب الدار وخلّى بينهما ومشى لوجهه..."[١٩].

واستفاض السقطي في ذكر أساليب النخاسين لتجهيز الإيماء "لسوق الدعارة" وأدوات الزينة التي يصبغون بها الأمة حسب لونها والمواد التي يستعملونها للقضاء على الروائح وبعض "التشوهات" مثل النمش والوشم والأمراض كالبرص والقمل... بل إنهم يغيرون ألوان أعينهن بناء على طلب الزبون، ثم يعلمنهن طرق إغواء الباعة والمارة ويلبسهن اللباس الشفاف المزركش.

ونورد ما كتبه السقطي "ومن حيل المذكورين فمنهما أن يتخذوا غمرة صفتها باقلاّ نقع في ماء البطيخ ستة أيام ثم في لبن حليب سبعة أيام، يحرك اللبن في كل يوم يغمرون به وجه الدّرّية اللون فتعود بيضاء. ويدخلون السمراء اللون في ابزن (إبريق) قد وضع فيه ماء الكرويا حتى تلون وتقيم فيه لأربع ساعات في نهار فتخرج عنه وقد صارت ذهبية. ويحمرون الخدود بغسول صفته: دقيق الباقلاّ والكرسنّة خمسة أجزاء، ومن عروق الزعفران وبورق وحناء من كل واحد ربع جزء، ويغمر بذلك ويدهنون أوجه السودان وأطرافهم بدهن البنفسج والطيب فتحسن بذلك، ويسودون الشعر بدهن آلاس ودهن قشر الجوز الرطب ودهن الشقائق ويغسل من ذلك ببطيخ الأملج، ويجعدون الشعور بالسدر وآلاس والزادرخت. وينقون البدن من الشعر بالنورة وبعدها ببيض النمل أو بدهن قد طبخ فيه ضفادع خضراء أو عضاية أو مرارة الأرنب ويغسل بالشبّ والبورق والعفص، ويسمنون الأعضاء الهزلة بالدلك بالمناديل الخشنة والدهان الحارة والطلي بالعاقر قرحًا.

ويطيبون الصنان بأن يأخذوا مرداسنجا مبيّضا ويعجن بماء الورد ويتخذ أقراصا وتدفن في الورد حتى تجف وترفع إلى وقت الاستعمال، ويستعملون لذلك أيضا التوتية المغسولة مدقوقة منخولة بماء وملح ثم بماء ورد وكفور وتتخذ ذرورًا وتستعمل، ويصنعون لذلك أيضًا أقراصًا من ورد أحمر ومسك وسنبل وسعدى وشب وتستعمل عند الحاجة بماء الورد. وينعمون الأطراف الخشنة بالدهن والشمع واللوز المر ولخلخة بماء الورد ودهن البنفسج. ويغمرون النمش والوشم بغسول مصنوع من عروق القصب واللوز المر والكرسنّة والباقلاّ وحب البطيخ متجونا بالعسل. ويغرزون في مواضع البرص بالإبر ويخضبون عليه القلقديس والعفص والزنجار من كل واحد جزءًا معجونًا بماء ولبن التين أربعة أيام في الشمس فيبقى مصبوغًا أربعين يومًا ويغسلون ذلك الخضاب بخل وأشنان مغلّى أو بماء القلي. ويزيلون الكلف من البدن بمعجون من الشونيز وأصل قثّاء الحمار وورق الخبّازى وبزر الجرجير وأصل الكرم والعسل. ويغسلون الأبدان خوف القمل بالبورق وميويزج وماء السلق ودردي الشراب والصابون. ويزيلون رائحة الأنف بسعوط من دهن المرزنجوش والبنفسج والنيلوفر والياسمين. ويزيلون الشعت من أصول الأظفار بغسلها بالخل والعسل والمرتق وبدهن الورد واللوز المر، ويجلون الأسنان بالسواك والأشنان والسكر. ويطيبون الجسد بالصندل والورد والمرتك المربّى بماء الورد وبالبخورات والثياب بالذّرور المطيبة. ويطيبون الفم بمضغ العود الرطب والكزبرة والفول وقشر الأترجّ، ويستعملون في الثيب قلوب الرمان الحامض والعفص معجونين بمرارة البقر ويحتملنه فيصرن كالبكر. ويصيّرون العين الزرقاء كحلاء بأن يقطّر فيها ماء قشر الرمان الحلو ويصبغون البياض الذي على مام العين بان يقطر فيها لبن آتان حار.

ومن وصاياهم لهن أن يتبرجن ويختفين للمشتري تارة وتارة ويسلبن المبتاع والنافرين بطبائعهم عن النساء وتمشّين على الثياب وينكسرن لهم ويتمنّعن عليهم فإنّ في ذلك هلاكًا للقلوب، ويلبسون الجواري البيض الألوان من الثياب الشفافة والمورّدة ويلبسون السود الفلافل الحمر والصفر"[٢٠].

ثانيًا: دور الدعارة (العامة والخاصة)

كتب الوزان أن البؤس الذي يفتق بضعفاء الشعب في تونس يؤدي بكثير من النساء إلى الاتجار بمفاتنهن بأبخس الأثمان ويدفع بالغلمان إلى التعرض للرجال، وهم أشد دناءة ووقاحة ورذالة من العاهرات"[٢١].

أظهرت المقولة وقع البؤس والفقر في نفوس سكان تونس إلى درجة دفع النساء إلى الاتجار بأجسامهن بأثمان بخسة وتركت العاهرات الأماكن المخصصة لهن والخروج علنا للشوارع. وفي هذا الإطار تعددت أماكن

تواجد البغايا مثل الأسواق والمقابر والأعراس وغيرها، إلا أن الجدير بالذكر أنّ أشهر أماكن لتبلور صورتها الدونية هي الفنادق التي كانت غالبا قبله للتجار والغرباء والنصارى[٢٢]. وإن خصصت الفنادق للإقامة والراحة للمسافرين والتجار فإن سمعتها قد شوّهت وربطت في أغلب الفترات بالمحرمات مثل الدعارة وشرب الخمر حتى أن ابن عبدون حذّر من اعتماد امرأة مشرفا على فندق التجار والغرباء لأنّ ذلك يؤدي للزنا[٢٣]. وقبل ذلك بفترة زمنيه طرح على القابسي نازلة رجل سكران كان يقول الكلام الفاحش ويسب الجلالة ويردد "كل صاحب فندق قرنان قواد ولو كان نبيا مرسلا"[٢٤]. وبينت بعض الكتابات التقاء الرجال والنساء في بعض الفنادق، ففي تونس كان فندق الحفصية وكرًا "للغناء وأنواع الفسوق"[٢٥]. وحققت المساكن المخصصة لمبيت القوافل التجارية أموالا هائلة لمالكيها نتيجة الفواحش والبغاء. "يتعرض الغلمان لقوافل التجار... فإن كان الزمان صيفًا وكانت وقت القائلة، أغلق عليهم الأبواب وأرخى الستور وأدخل عليهم غلمانا... فإن كان وقت النوم تقدمت لكل رجل جارية تفرش وتتولى خدمته. فلا يزال هذا على دأبهم ما شاءوا أن يقيموا، وإن أرادوا الانصراف جمعوا له الحمل الكبار من المال فدفعوها له، ومنهم من لا يرجع إلى بلده بدرهم من ماله بل ينفقها في داره... وربما عشق غلاما من أولئك الغلمان أو جارية من تلك الجوار، فكان ذلك أسرار لإتلافي ماله ودماره"[٢٦]. وهذا ما كان يعانونه تجار قسنطينة في تونس، فهم يتضررون أكثر مما يستفيدون بسبب التبذير على العاهرات. وهو ما أورده الوزان في قوله "... لا يؤدي تجار قسنطينة واجبات الدخول إلى تونس، بل يؤدون عند الخروج منها وقدره اثنان ونصف بالمائة، إلا أنهم يتضررون من هذا السفر أكثر مما يستفيدون، إذ تؤدي بهم متعه الفجور إلى تبذير معظم ما حصلوا عليه وإنفاقه على النساء العاهرات"[٢٧].

ولم تكن فنادق فاس أحسن حال، فهي سكنًا كريهًا ومجمع لكل الناس من الغرباء وأهل المدينة ويجول فيها الرجال المتشبهون بالنساء والموميسات وتباع فيها الخمر، حتى أنّ أهالي فاس كانوا ينبذون أرباب هذه الفنادق ولا يخالطونهم ولا يتعاملون معهم ولا يكلمونهم. وذكر ذلك الوزان في وصفه لمدينه فاس بقوله "يوجد بفاس مائتا فندق... لكن على الرغم من حسن هذه الفنادق وسعتها فإنها تمثل سكن كريها... ولا يسكن الغرباء وحدهم في هذه الفنادق، بل جميع الرجال الأرامل من أهل المدينة الذين لا منزل لهم ولا أهل، يسكن الغرفة واحد منهم أو اثنان... وأسوء ما في الأمر مساكنة رهط يقال له "الهيوي" وهم رجال يرتدون ثياب النساء ويتحلون بحليهم. يحلقون لحاهم ويقلدون النساء حتى في طريقه كلامهن. وماذا عساي أقول في أسلوب كلامهم؟ إنهم يتغنجون أيضًا. ولكل واحد من هؤلاء الأنذال صاحب يتسراه ويعاشره كما تعاشر المرأة زوجها. ولهؤلاء الناس أيضا في الفنادق زوجات أخلاقهن كأخلاق الموميسات في مواخير أوروبا، ولهم كذلك ترخيص بشراء الخمر وبيعه دون أن يزعجهم موظفو الحاشية، يختلف إلى هذه الفنادق دائما أولئك الذين يعيشون أشنع عيشة يغشاها بعضهم السكر، وبعضهم لإتيان شهوتهم مع باغيات مرتزقات... ولولا ما يلزم المؤرخ من قول الحق لأغفلت بكل سرور هذا القسم من وصفي وفضلت السكوت عن اللوم الذي تستحقه هو هذه المدينة التي نشأت فيها وترعرعت. والواقع أن مملكه فاس، إذا استثنينا هذا العيب، تضم أناسًا هم اشرف خلق الله بإفريقيا كلها ولا علاقة لهم إطلاقًا مع أمثال أرباب الفنادق الذين سبق ذكرهم، فهؤلاء لا يخالطون إلا الأرذال من أسفل الأسافل، ولا يكلمهم أي فقيه أو تاجر أو صانع محتشم، ويمنعون من الدخول إلى الفنادق القريبة من الجامع، والى الأسواق والحمامات والبيوت الخاصة، ويمنعون بالأحرى من الإشراف على الفنادق المجاورة للجامع التي يسكنها تجار من درجه سامية، ويتمنى لهم الموت جميع الناس، لكن لما كان الأمراء يستخدمونهم لحاجات الجيش كما ذكرت، فإنهم يتركونهم يعيشون تلك العيشة الكريهة"[٢٨].

لم يقتصر البغاء على الفنادق، بل وجدت دور عمومية ومواخير، وكانت هذه الأماكن تحت إشراف السلطة وفي تعامل مباشر معها، فذكر الوزان عن فاس "وفيها أيضًا دور عموميه تمارس فيها البغايا مهنتهن بثمن بخس تحت حماية رئيس الشرطة أو حاكم المدينة. كما يتعاطى بعض الرجال دون أن يثير غيظ البلاط مهنة "البغاء"،

فيتخذون في بيوتهم نساء عاهرات وخمورًا يبيعونها، بحيث يستطيع كل واحد أن يتناول من ذلك ما شاء بكل طمأنينة"[٢٩].

وأعطى حكام فاس في أواخر الفترة الوسيطة لرؤساء الشرطة الحق في امتلاك الحانات وممارسة البغاء والتدييث، وهو ما أشار له الوزان في قوله: "وفي فاس أربعة رؤساء للشرطة لا أكثر... ولا يتقاضون هم أيضًا أي أجر غير حصيلة المغارم المفروضة على من يلقون عليه القبض. وتقدّر قيمتها بحسب مدة السجن ونوع العقوبة التي يعاقب بها المقبوض عليهم. لكن هؤلاء الرؤساء للشرطة يستطيعون أن يتخذوا حانات ويمارسوا مهنه (البغاء) والتدييث. وليس للعامل قاض ولا كاتب، وإنما ينطق بالأحكام بصوت عال كما يشاء"[٣٠].

ومن قبله تحدث المراكشي على العصبية المرابطية وأكد على السطوة الكبيرة للمرأة في الدولة وانتشار الدعارة بين أكابر النساء وتكوينهن شبكات من الإجرام والفساد وذلك في غياب تام للخليفة. "واستولى النساء على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من أكابر لمتونه ومسوفة مشتملة على كل مفسد وشرير وقعه سبيل وصاحب خمر وماخور، وأمير المسلمين في ذلك كله يتزايد تغافله، ويقوى ضعفه، وقنع باسم إمرة المسلمين، وبما يرفع إليه من الخراج، وعكف على العبادة والتبتل..."[٣١].

ولا شك أن ما الح إليه الوزان من مشاهداته والتشدد الذي اتبعه ابن عبدون تجاه العاهرات "ولو أذنهن في ذلك"[٣٢] دليل على انتشار هذه الظاهرة، أو على الأقل لم تعد مخفية على العيان من أهل مدن المغرب الإسلامي أو زوّارها، وإحالة على موقف السلطة الحاكمة الذي قبل بهذا الأمر وتوظيفه واستغلاله. فكان أصحاب الفنادق في فاس الذين لديهم تراخيص بيع الخمور "ملزمون عند الاقتضاء بأن يقدموا إلى جيش الملك أو الأمراء عددًا كثيرًا من مستخدميهم لطبخ الطعام للجنود لقلة المختصين في مثل هذه الخدمة"[٣٣].

وذهبت السلطة إلى اعتبار الدعارة ضمنيًا نشاطًا اقتصاديًا وفرضت جباية على البغايا ودور البغاء، فقد "كان بقرطبة أماكن مصرح بها لقضاء المتعة الجنسية فيها، واعتقد أنّ المستعربين هم الذين كانوا يديرون هذه الأماكن، وكانت الحكومة تجبي منهم الضرائب على ممارسة تجارة الجنس"[٣٤]. "وعرفت المدينة بيوت "الحضوة"...، وتسكن العاملات فيها، ويدفعن ضرائب للدولة، وتسمى الواحدة منهن في لهجة الأندلس "خراجية" ويطلق على بيوت الدعارة نفسها "دار الخراج" ويسميها ابن العذارى "دار البنات"[٣٥] وكان الزبائن من المدينة والريفيين والتجار وعابري السبيل"[٣٦].

اتخذت الدعارة أيضًا طابعًا خاصًا في المغرب الإسلامي الوسيط، وذلك بذهاب الزبون إلى بيوت الدعارة الخاصة أو بجلب فتاة إلى منزله قصد المتعة. فوجد في الأندلس أرباضا خاصة ببيوت الدعارة عرفت آنذاك باسم القصيفة ويزورها الزبائن في أوقات محددة وخفية خوفًا من الشبهة. بل منهن من يقضين ليال في بيوت الأثرياء بما أنه بالإمكان استدعاءهن إلى المنازل[٣٧]. وأطلق على هذا النوع من المومسات بالطرازات، فهن دائمي التجوال في الأزقة والأرباض والأسواق لإغراء الرجال وجلب الزبائن، لذلك حاول رجال الحسبة منعهن الاختلاط بالنساء العفيفات حتى لا يفسدهن[٣٨].

ولو أننا نورد هذه المعلومة بتحفظ، فإن أغلب الظن، تنحدر البغايا من الطبقة العامة من النساء اللاتي لم يستطعن التصدي للهزات الاجتماعية والاقتصادية ومن زوجات الأسرى والمفقودين والجواري[٣٩]. وهن من ذوات الحسن والجمال ويجدن الرقص ومن ذوات الظرف والخفة والفكاهة والمرح ولطافة الحديث، فيجمعن بين المتعة النفسية والحسية والجسدية[٤٠].

وأورد ابن حزم أن للأغنياء في الأندلس منازل خاصة وسط البساتين يمارسون فيها لهوهم[٤١] ونقل لنا التيفاشي بعض الأمثلة عن اللقاءات بين البغايا والزبون ونذكر منها "وحيلهن أن المرأة إذا لقيها رجل في طريق واتفقا، ولم يجدا موضعًا، تسير معه إلى أطراف المدينة وتطلب بيتا للكراء، وهو معها كأنه بعلها وكأنهما يطلبان دارا يكتريانه، فإذا دلاّ على دار خالية دخلا لها بدالّة التقلّب، فيقضيان أربهما ثم يخرجان، إما على أنهما يرجعان فيكتريان، وإما على أنهما لم تصلح لهما"[٤٢]. وأضاف "لقى زان قحبة في مدينه مراكش، فولفها وفي رجل الرجل نعل وقد أنفتق مقدمه وخرج رأس إبهامه

منه، ونساء مراكش خاصة متهافتات على النبيذ شديدات الشغف به، لا يحصلن إلا عليه ومن أجله، فقال لها الرجل: يا سيدتي، ما تشربين عندنا اليوم؟ فقالت له: حتى تسقي الكلب الذي خرج لسانه من العطش، وأشارت إلى رجله"[٤٣]. وأيضًا كان لرجل بالمغرب من المتعيّشين في عصرنا هذا، ولدان أحدهما زان متخلف، وكان أخوه يكايده، فأدخل يوم امرأة لبيته وقطن له أخوه، فجاء فوجد خفّ المرأة على باب البيت فأخذه وخرج... فلما خرجا لم تجد المرأة خفها فطلبته من الذي ادخلها، فتركها ومضى إلى أبيه وهو يبكي، وأبوه جالس في جماعه، فقال له: ابنك يؤذيني، فقال له: ما صنع بك؟ قال: كانت عندي حاجه في البيت، أخي سرق خفها، فظن أنه كنى بحاجة كناية لم يفهمها أحد، فضحك جميع الحاضرين وقام إليه أبوه فأوجعه ضربًا وسبًا"[٤٤].

ثالثًا: القوادة أو الوساطة

تطلبت مهنه البغاء القوادة أو الوساطة وأطلق عليها اسم السفارة لأنها تسفر بين الرجال والنساء أي تجمع بينهم على البغاء[٤٥]. وارتبطت مهنه الوساطة في الغالب بالنساء وتجلّت في صوره سلبيه قبيحة لالتزام المجتمع بالعادات والتقاليد النابعة من الوازع الديني. وذكر الونشريسي أنه أوتي إلى الإمام سحنون "بامرأة (من أهل القيروان) يقال لها حكمة وكانت تجمع بين الرجال والنساء فأمر بضربها وسجنها. وعنه أيضا أنه أتى بالمرأة التي يقال لها تركوا وكانت تجمع بين الرجال والنساء واستفاض خبرها فأمرها فتحوّلت من دارها وطيّن باب الدار بالطوب والطين وضربها سياطا وجلدها في القفة،... وأمر بنقلها وجعلها بين قوم صالحين"[٤٦].

وتتصف القوّادة بحسن الشكل والظرف وسماحة المحيي وخفه الظل ليستلطفها النخاسين، فكانت القوّادة حكمة في القيروان "خذلاء أي غليظة الساقين حسنة طويلة..."[٤٧]. وأورد السقطي "ومن خدعهم المشهورة، وحيلهم المذكورة، أنّ لهم نساء شاطرات ذوات حسن فائق، وجمال الرائق، يحكين اللسان الأعجمي، والزي الرومي، فإذا وقع لهم من غير بلدهم من يطلبوا جاريه حسناء قريبة العهد بالجلب من بلاد الروم يعده بقرب وجودها ويطعمه بتأني قصده فيها ويسوّفه في أمرها ويشوّقه إليها حتى يحضرها له على أنها نضو..."[٤٨].

وكتب ابن الخطيب عن مدينه برشانة: "فأصبح ربعهم ظرفا، قد ملئ ظرفًا، فللمجون به بسوق، وللفسوق ألف سوق، تشمر به الأذيال عن سوق، وهي تبيّن بعض بيان عن أعيان، وعلى وجوه نسوانها طلاقة وفي ألسنتهم ذلاقة، ولهن بالسفارة في الفقراء علاقة..."[٤٩]، وجاء في شعر يصف القوادة والقوّادة الآتي:

قوّادة تفخر بالعار أقود من ليل على سار
ولاّجة في كل دار وما يدري بها من حذقها داري
ظريفة مقبولة الملتقى خفيفة الوطء على الجار
لحافها لا ينطوي دائمًا أقلق من راية بيطار
قد ربيت من عرفت نفعها ما بين فتاك وشطار
جاهلة حيث ثوى مسجد عارفة حانة خمّار
بسّامة مكثرة برّها ذات فكاهات وأخبار
علم الرياضيات حوته وسا ستّه بتقويم وأسحار
مناعة للنعل من كيسها موسرة في حال إعسار
من لطف أحاديثها تجمع بين الماء والنار[٥٠]

وكانت المريدة الأكثر شرًا لصعوبة فهم نواياها، هي عجوز تلتحف بلحاف الصلاح والعبادة والتقوى ودائمة التسبيح وتعلّق في عنقها سبحة[٥١] حتى أنّ الأسر القرطبية حذرت بناتهن من الحديث لذوات العكاكيز والتسابيح.

وذكر فيهن ابن حزم: "وأكثر ما يستعمل المحبون في إرسالهم إلى من يحبونه، إما خاملاً لا يؤبه ولا يهتدى للتحفظ منه، لصباه أو لهيئة رثة أو يذاذة في طلعته، وإما جليلا لا تلحقه الظنن لنسك يظهره أو لسن عالية قد بلغها. وما أكثر هذا في النساء ولا سيما ذوات العكاكيز والتسابيح والثّوبين الأحمرين. وإني لأذكر بقرطبة التحذير للنساء المحدثات من هذه الصفات حيثما رأينا، أو ذوات صناعة يقرب بها من الأشخاص، فمن النساء: كالطبيبة والحجامة والسراقة والدلالة والماشطة والنائحة والمغنية والكاهنة والمعلمة والمستخدمة والصناع في المغزل والنسيج..."[٥٢].

عمومًا، رغم ما عرفته القوّادة من انتشار في المجتمع المغربي الوسيط إلا أنها ذكرت في شكل إشارات داخل النصوص الإخبارية ونعتت بأسوأ النعوت لعلاقتها بالوساطة بين الأحباب أو الوصال بين من يبتغون الممارسات الجنسية، فهي المخادعة والداهية والعاهرة، وتركت الأمثال الشعبية بعض الأقوال فيها:"المرا المدّيد ما تحتاج لقوّيدة"(٥٣)، و"إذا كانت القويد رشيق، تتاك قبل العشيق"(٥٤).

ونورد هذه الرواية التي حكاها النفزاوي عن حيل ومخادعة القوّادة للنساء:حكي... أنّ رجلا يهوى امرأة ذات حسن وجمال فأرسل إليها فأبت فشكى وبكى ثم غفل عنها، ثم أرسل لها مرارا المتعددة فأبت وخسر أموالا كثيرة لكي يتصل بها فلم يرن منها شيئا فبقي على ذلك مده من الزمن ثم رفع أمره إلى عجوز واشتكى لها حاله، فقالت له: أنا أبلغك مرادك منها، ثم إنها مشيت إليها لكي تراودها فلما وصلت إلى المكان، قالوا لها الجيران: إنك لا تطيقين الدخول لدارها لأنّ هناك كلبة لا تترك أحدا يدخل ولا يخرج... ففرحت تلك العجوز وقالت: الحاجة تقضى إن شاء الله، ثم ذهبت إلى منزلها وصنعت قصعة رقاق ولحما ثم أتت إلى تلك الدار فلما رأتها تلك الكلبة قامت لها وقصدتها فأرتها القصعة بما فيها فلما رأت اللحم والرقاق فرحت بذلك ورحّبت بذيلها وخرطومها، فقدّمت لها القصعة وقالت لها: كلي يا أختي فإني توحشتك ولا عرفت أين أتى بك الدهر، أنا لي مدة وأنا أفتش عنك فكلي، ثم قالت لها: من أين تعرفين هذه الكلبة؟ فسكتت عنها وهي تبكي وتمسح على ظهر الكلبة، ثم قالت: كانت صاحبتي وحبيبتي مدة من الزمن فأتت إليها امرأة واستأذنتها لعرس فلبست هذه الكلبة ما زانها ونزعت ما شانها وكانت ذات حسن وجمال، ثم خرجت أنا وهي فتعرض لها رجل وراودها عن نفسها فأبت، فقال لها: إن لم تأتيني أدع الله أن يمسخك كلبة، فقالت له أدع بما شئت، فدعى عليها، ثم جعلت تبكي وتنوح، وقيل أنها عملت لها الفلفل في ذلك الطعام فأعجب الكلبة واشتعلت بأكله، فلما أحرقها في فمها دمعت عينا الكلبة، فلما رأت العجوز الدموع تسيل من عينيها جعلت تبكي وتنوح ثم قالت لها المرأة: وأنا يا أمي أخاف أن يصير لي مثل هذه الكلبة، فقالت لها العجوز: أعلميني ما ذاك، قالت عشقني رجل مدة من الزمن ولا أعطيه سمعا ولا طاعة حتى نشف ريقه وخسر أموالا كثيرة وأنا أقول له لا أفعل هذا، وإني خائفة يا أمي أن يدعو عليّ قالت لها العجوز: أرفقي بروحك يا ابنتي لئلا ترجعي مثل هذه الكلبة، فقالت: أين ألقاه وأين أمشي إليه؟ فقالت لها العجوز: يا بنتي أنا أربح ثوابك وأمشي له، فقال لها: أسرعي يا أماه قبل أن يدعو عليّ، فقالت لها العجوز: اليوم نلتقي به والأجل بيننا في الغد..."(٥٥).

رابعًا: التيفاشي ونزهة الألباب

شهاب الدين أبو عباس أحمد بن يوسف التيفاشي القيسي، ولد بتيفاش من قرى قفصة بإفريقية، تعلم بمصر ووليّ القضاء في بلده، ثم عاد إلى القاهرة وتوفي بها. (٥٦) من مؤلفاته أزهار الأفكار في جواهر الأحجار، فضل الخطاب في مدارك الحواس الخمس لأولي الألباب، متعة الأسماع في علم السماع في الموسيقى... ويعتبر مؤلفه نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب من الكتب النادرة والفريدة في طريقة تأليفه وخصائصه وموضوعاته والجرأة في طرحها دون خوف أو خجل في كشف المستور من الظواهر التي تبدو مخجلة ومعيبة بحق الرجال والنساء في المجتمعات العربية والإسلامية. وهو من الكتب النادرة التي وضع فيه مسحًا شاملاً للظواهر الجنسية المتخفية منها والظاهرة في المجتمع الإسلامي حتى نهاية منتصف القرن السابع هجري، كما يمكن تصنيفه من أول المؤلفات في الأدب الايروتيكي المحرم والشاذ الذي منع من التداول في كثير من المكتبات العربية. واعتقد الشيخ التيفاشي أنّ كتابه قدّم مادة معرفية وأدبية وتاريخية فيها كم هائل من المتعة والنوادر اللطيفة والفن والموسيقى، وفيها كم هائل من النصوص والحكايات الفكاهية والأخبار المسلية والعجيبة والتي في ذكرها مقاصد شريفه الهدف منها فهم المجتمع وإصلاحه. وتناول التيفاشي في كتابه فئات البغايا والقوادين والزناة واللوطيين والسحاقيات وأفعالهم وأساليب عملهم، وحوّل كتابه من الطابع الجدّي الأكاديمي إلى الطابع الممتع، جمع فيه النوادر

والأخبار والأشعار بمزاوجة بين بشاعة اللفظ وحسن المقصد لنقل الواقع الإسلامي بالمغرب والمشرق.

واعتبر في كتابه المرأة أكثر فجورًا وأشد تهالكًا على الجنس والزنا والخيانة الزوجية، وأورد لها حيلاً عجيبة للإيقاع بالرجل في حبائلها وأطلق عليها تسميات متعددة. وذكر عديد العلامات التي يستدل بها الرجل على المرأة الراغبة في الزنا، مثل إطالة النظر في الرجل الأجنبي عند التحدث معه أو التظاهر بالتثاؤب أو العبث بطرف ثوبها وإزارها كأنها تقلّبه أو تنكث بإصبعها في الأرض أو تحرك إبهام رجلها بعد أن ترفعه وتضعه في الأرض أو تنظف جسد ولدها وثيابه وتمشطه وتكحله وتعرضه على العشيق أو تكثر في الحديث عليه مع صاحباتها وجاراتها ويسوء حالها ويتعاظم ضجرها عند غياب المحبوب، وإن كان الرجل المرغوب متزوجًا تصادق زوجته وتكثر الزيارات إليها والولع بأشيائه الخاصة والبحث فيها وإن وجدت فراشه استلقت عليه ولعبت فيه.

وقسم التيفاشي مؤلفه إلى ١٢ بابًا، سنسرد منها باختصار شديد ما أورده بالبابين الرابع والثاني حول البغايا والقوادة. فصنف البغايا إلى ٧ أنواع وهن: الغيرانة والسكرانة والحيرانة والشاطرة، والمسافرة، والمغنية، والمظلومة. "فالغيرانة"، اشتق اسمها من الغيرة وتعمد إلى إغواء الرجل باستعمال أسلوب الاستمالة والتشويق وتأجيج الشهوة في قلبه، بسرد حكاية المرأة الضحية التي خانها زوجها أمام أعينها دون اهتمام لمشاعرها وغيرتها الشديدة، فتقرر رد الصفعة له ثم تتراجع عن ذلك وترحل، فيبعث تصرفها شغفًا كبيرًا في نفس الرجل الذي يتبعها ويحاول استعادتها ويلح في ذلك ولا تعود معه إلا بعد حصولها على ما تريد منه من مال. واشتق اسم "السكرانة" من السكر ولا يختلف أسلوبها عن الغيرانة في الإغواء، فهي تختار الزبون المطلوب وترمي نفسها على صدره وتخاطبه بكنية عشيق مزعوم لها وتتهمه بالخيانة وتحاول تمزيق ثيابه وتؤجج شهوته، ثم تتأسف وترحل بذريعة أنّ الخمر أفقدها صوابها، فيلاحقها الرجل ويكون فريسة سهلة يدفع كل ما تطلبه لاستعادتها. وأخذ اسم "الحيرانة" من الحيرة، وهي تلك التائهة التي تختار منازل الغرباء والعزاب وتدخلها دون إذن وتدعي أنها تبحث عن أم فلان، فتغري الرجل الذي يحاول استغلال خلاء المنزل والخلوة، ولكنها تأبى وتروم الخروج فيجذبها، فتحصل منه أملها وعلى شرطها ومرادها فتدخل. واشتق اسم "الشاطرة" من الشطارة لاعتمادها أسلوب الدهاء والمغالطة والمخادعة واستعطاف الضحية بقصة تلهب الألباب مفادها أنّ عشيقها الذي كانت معه قبل قليل أراد أن يهديها لصديقه دون إحساس بالنخوة والرجولة، فهربت منه حافية شبه عارية، ثم ترحل، فيلاحقها الرجل فتأبى وتتمنّع ويرغّبها حتى يبذل لها فوق ما تستحقه، فتطاوعه. واقتبس اسم "المسافرة" من السفر والتنقل بين القرية والمدينة ولها نفس أسلوب سابقيها من تشويق وإغواء وتأجيج شهوة الضحية ثم تصاحبه إلى منزله وتبقى معه عدة أيام وتحصل منه على ما تريد. و"المغنية" تعتمد الحيلة والمخاتلة وجر الزبون إلى منزلها لتغتصب ماله دون الوصول إليها، ويساعدها في الاحتيال شريك لها يدّعي أنه زوجها يظهر بعد خلع الضحية ثيابه. واشتق اسم "المظلومة" من الظلم، حيث ترصد بيت العزاب أو رجل في دهليز بيته وتطلب منه الغوث بعد أن تعلمه بأنها كانت مع نساء غيرها في دار مع رجال يشربون وأنّ الشرطة داهمتهم، واستطاعت الفرار، فيغيثها وتبدأ تقص عليه التفاصيل بدقة مما يؤجج فؤاده، فيحاول مراودتها وترفض إلى أن يخضع لمطالبها وشروطها(٥٧).

قدم التيفاشي ٧ أصناف من العاهرات، وإن اختلفت التسميات التي ارتبطت بخططهن والحالة التي يظهرن عليها، فإنّ الأسلوب متشابها حتى ظننا أنهن صنف واحد. فإن استثنينا المغنيّة التي اعتمدت حيلة مختلفة ارتكزت على استدراج الضحية إلى منزلها وسلبه ماله وأشياءه بمعيّة معاونها الذي يدّعي أنه زوجها، فإنّ البقية لهن نفس التكتيك وهو الظهور للضحية والتقرّب منه واستدراجه في الكلام ثم الإغواء والتشويق، فتلهب فؤاده ثم تتمنّع وتنسحب، فيتحول إلى مطارد لها ويحصل المراد حين يقبل بكل شروطها وطلباتها.

وصنف التيفاشي القوادون إلى ٢٢ صنف، ٢٠ منهم على الإناث و٢ على الذكور. وكان نصيب الإناث بالتساوي ١٠ من الرجال و١٠ من النساء ونذكر من

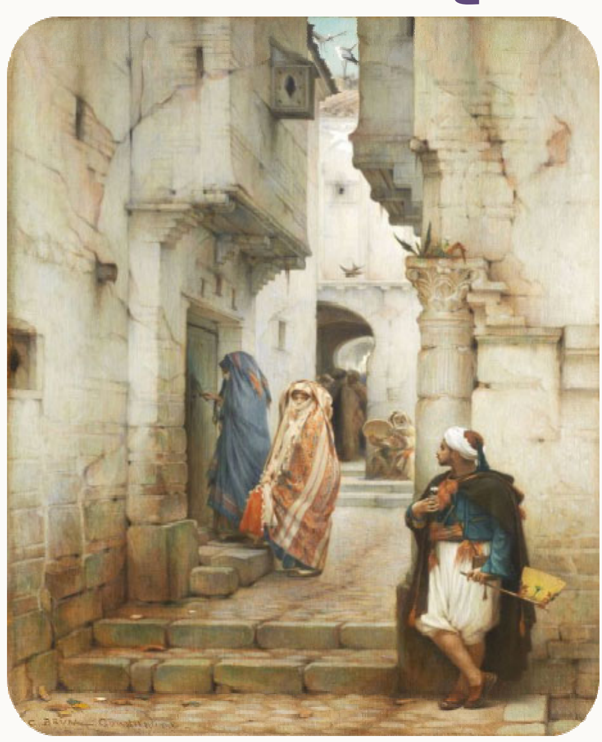
الوسطاء الرجال، "الحوش" ويسمى عند العجم "الزملكاش" ومكلّف بحمل الآلات الموسيقية وأخذ الجارية إلى بيت الحريف وإعادتها لمنزلها، ولا يحصل على مال مقابل ذلك سوى ما وهب له. و"حوش الحوش"، مهمته التثبت من محاصيل الجارية من محصلّها، إن كانت ناقصة أو زائفة، فإن كانت كذلك يخبر العاهرة لتتصرف بسرعة. و"المعرّس"، وهما نوعان "الأقرع" و"الملآن"، ويمتلك الصنفان بيوتا للجمع بين النساء والرجال، والفرق بينهما أنّ الأقرع منزله خال من سوى فرش نظيف ولا يتدخل في التعارف بين الرجل والمرأة. أما الملآن فله منزل عامر مجهز ويأتي بالمرأة للزبون. و"السمسار"، هما "المدلس" و"القطاة"، سمي الأول بالمدلس لأنه يروّج لامرأة ويأتي بأخرى للزبون، أما الثاني فإنّ اسمه متأتّ من صدقه. و"الدوّار"، ويتلخّص دوره في الصّيد باعتماد الجولان، فهو يختار مواضع الشرب ويأتي بامرأة مليحة معه ويدّعي التساؤل عن شخص غير معلوم لديهم، ثم ينقل الحديث من البحث عن الشخص إلى التفاوض عن المرأة التي تصحبه ولما يحصل على ما يريد يتركها ويرحل. و"الدكدف"، وهو رجل يتحلّى بمظهر أنيق يقصد تجمعات الخلائق من العامة ويستغل المشاجرات بينهم التي يغلب عليها السب والشتم بالأم والزوجة. ثم يذهب إلى الفريسة ويقنعه بأنّ زوجة غريمه عنده في المنزل وبإمكانه أن يصله بها وينتقم منه، ويوهمه بصدق كلامه بإعطائه إشارة عبارة عن خاتم بإصبع المرأة ويشير إليه بضرورة أخذه منها والتلويح به لزوجها كل ما اعترضه في الطريق وبهذا يكسر عينه ويضرب عنقه. و"المرحل" وهو قواد ملازم للبغيّ المغنية ويستعمل الحيلة والدهاء للإيقاع بالضحية دون أن ينوّله غايته والتمكن جنسيا من المغنية. وأخيرًا "المسكّن"، واشتق اسمه من السكن، فهو من الأثرياء، قادر على فتح فندق خاص مجهّز بكل ما يلزمه من وسائل الراحة والطعام ويملأه بالجواري والغلمان. ويتعرّض القوافل التجارية ويوهمهم بأنّه دلاّل على أمتعتهم التجارية ويحملهم إلى منزله ويوفر لهم كل سبل الراحة والمتعة، فتتحول الحمولة التجارية أجرا لما قدمه لهم وقد يتلف البعض منهم جميع ماله.

أما القوادات على النساء فنذكر منهن، "المريدة"، وهي عجوز تستغل التقوى والورع للإيقاع بالفتيات في شباك الدعارة. و"الحاجيّة"، واشتق اسمها من الحج، فهي تستغل انتقالها لمكان غير مكانها وصفة الحج لدخول المنازل وفساد المحصنات. و"المتصرفة"، وهي تتصرّف مكان النساء بقضاء حوائجهن في المنزل وخارجه وتجمع بذلك بين الرجال والنساء. و"الدلالة" تدخل منازل النساء بقصد البيع والشراء وبهذا تحصل على ما تريد. و"القابلة" و"الماشطة" و"الحمامية"، و"الحافظة" و"الطرقية" و"الحجامة"، يدخلن على النساء بداعي الجانب الاستيتيقي والجمالي فيجمعن بين الرجال والنساء ويحصل الإغواء.(٥٨)

خاتِمَةٌ

مثّل البحث محاولة لدراسة تاريخ المغرب الإسلامي الوسيط من الأسفل بإلقاء نظرة على ظاهرة غيبتها الذاكرة واعتبرتها من المحرمات وفئة رفضت اجتماعيًا وهمّشت تاريخيًا. فلم يغب البغاء عن مجتمعات المغرب الإسلامي الوسيط لهذا تطرقنا في البداية إلى البغايا وأنواعهن وتصرفاتهن وكيفية إغوائهن للرجال والطريقة التي يجهّز بها النخاسون الإيماء "لسوق الدعارة" وأدوات الزينة التي يصبغون بها الأمة لتغطيه العيوب والتشوهات والأمراض، بل وتغيير لون بشرتها وعيونها بناء على طلب الزبون. ثم المحنا إلى دور الدعارة المنتشرة في المغرب الوسيط والتي توزعت بين الفنادق والدور الخاصة والاستراحات والمواخير العمومية. وكان لزومًا التطرق إلى الوسطاء في تلك الفترة الذين كان لهم دورًا كبيرًا في تنظيم وتنشيط هذه الظاهرة. وكان التيفاشي نموذجًا رائعًا لما تركه في كتابه النادر نزهة الألباب من دراسة شاملة ودقيقة للظواهر الجنسية في المجتمع الإسلامي بشرقه وغربه. وأبرز فيه فئات عديدة بأسلوب فكاهي. واقتبسنا من هذا الكتاب الفريد الباب الرابع الذي خصصه لطبقة العاهرات المبتذلات ونوادر أخبارهن وأساليبهن للاتصال بالزبائن والحيل للنيل منهم وأخذ غايتهن، والباب الثاني الذي خصصه لطبقه القوادين والقوادات الذين صنفهم إلى أصناف عديدة وصلت إلى ٢٢ نوع، وأبرز تصرفاتهم وأساليبهم في إغواء الرجال وتناول ما جاء فيهم من نوادر وحكايات وأوردها في شكل قصص وأشعار.

الملاحق



الصورة رقم (١)

اتفاق سري

المصدر: https://www.pinterest.com/pin/410812797256220771



الصورة رقم (٣) بيع الجواري

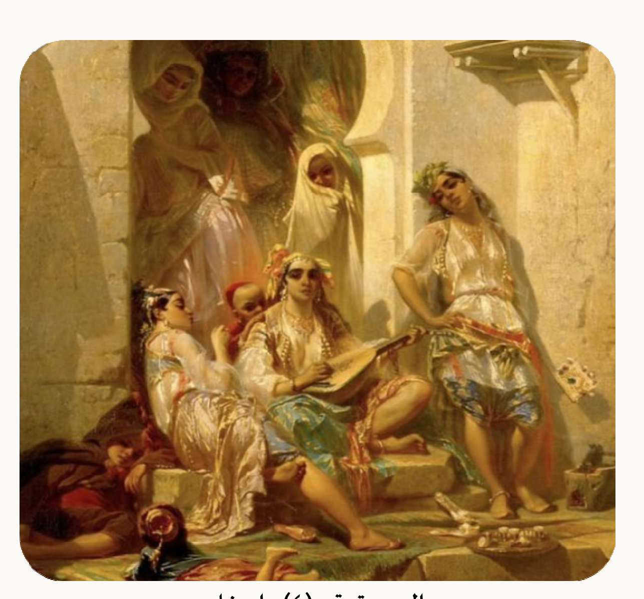
المصدر: https://fr.m.wikipedia.org/wiki



صورة رقم (٢)

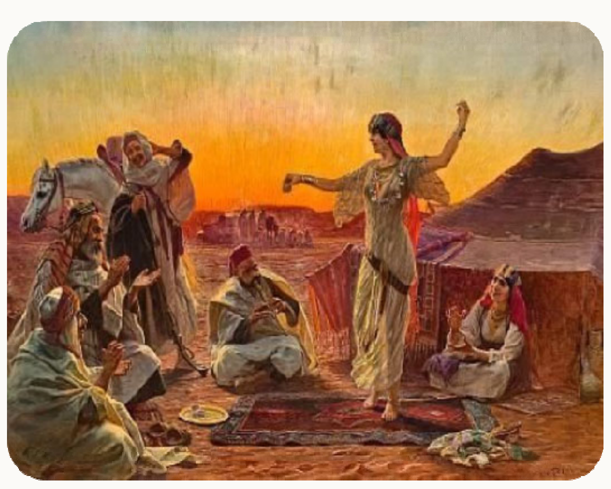
لقاء بين البائع والزبونة داخل الدكان

المصدر: https://www.amazon.fr/Singing-Palette



الصورة رقم (٤) دار بغاء

المصدر: https://www.pinterest.com/pin/202380576996207259



الصورة رقم (٥) الأعراس والرقص بالبادية

المصدر: https://www.alamyimages.fr



صورة رقم (٦) المزوار أو الوسيط

Source: https://www.repro-tableaux.com/a/gimenez-y-martin-juan/the-harem-2.html

الإحالات المرجعية:

(١) ريمي كونستابل (أوليفيا)، **إسكان الغريب في العالم المتوسطي، السكن والتجارة في أواخر العصر القديم**، تعريب محمد الطاهر المنصوري، مراجعة محمد ياسين الصيد، المدار الإسلامي، لبنان، ٢٠١٣، ص ١٦٠- ١٦١.

(٢) بالباس (ليوبولدو طريس)، **التاريخ الحضري للغرب الإسلامي، الحواضر الأندلسية**، تعريب محمد يعلى، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، المغرب، ٢٠٠٧، ج١، ص ٣٠٥.

(٣) ابن عبدون، **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسبة**، تحقيق الأستاذ ليفي بروفنسال، دار الطباعة، القاهر، ١٩٥٥، ص ٥٠.

(٤) **المصدر نفسه**، ص ٤٧.

(٥) المقري، **نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب**، ج٣، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ١٩٦٨، ص ٢٣٣.

(٦) ابن قزمان، **ديوان ابن قزمان**، دراسة وتحقيق فريديريكو كوريني، تقديم د. محمود علي مكي، المعهد الإسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٠.ص ١٦٣.

(٧) بوتشيش (إبراهيم القادري)، **مباحث في التاريخ الاجتماعي للمغرب والأندلس خلال عصر المرابطين**، دار الطليعة، بيروت، ١٩٩٧، ص ١٩٣.

(٨) ابن عبدون، ص ٥١.

(٩) المقري، ج١، ص ١٥٥.

(١٠) ابن الكردبوس التوزري، **الاكتفاء في أخبار الخلفاء**، ج٢، دراسة وتحقيق عبد القادر بودربالة، دار الكتب العلمية، بيروت، ٢٠٠٩، ص ٣٦٩.

(١١) ابن سعيد الأندلسي، **المغرب في حلي المغرب**، ج١، وضع حواشيه خليل منصور، دار الكتب العلمية، بيروت، ص ٢١٤.

(١٢) دندش (عصمت عبد المجيد)، **الأندلس في نهاية المرابطين ومستهل الموحدين عصر الطوائف الثاني**، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٨، ص ٣٣٥.

(١٣) المقري، ج١، ص ١٧٨.

(١٤) ابن الآبار القضاعي البلنسي، **المقتضب في تحفة القادم**، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتب اللبناني، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٤٤.

(١٥) البيذق، **أخبار المهدي بن تومرت وبداية دولة الموحدين**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧١، ص ٢٢.

(١٦) **المصدر نفسه**، ص ٢٠.

(١٧) ابن عبدون، ص ٥٣.

(١٨) مراكشي، **كتاب الاستبصار في عجائب الأمصار**، نشر وتعليق د. سعد زغلول عبد الحميد، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، ١٩٨٥، ص ١٤٥.

(١٩) السقطي المالكي، **آداب الحسبة**، تحقيقي ليفي بروفنسال- كولان، مطبعة إرنست لورو، باريس، ١٩٣١، ص ٤٩.

(٢٠) **المصدر نفسه**، ص ٥٠- ٥١- ٥٢- ٥٣.

(٢١) الوزان، **وصف إفريقيا**، ج٢، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٣، ص ٧٧- ٧٨.

(٢٢) جبار (ناصر)، "الفنادق. فنادق التجار المسيحيين في الدولة الحفصية"، *BIBLID*، عدد١٦، ٢٠١٠، ص ٧٧- ٨٩.

(٢٣) ابن عبدون، ص ٤٩- ٥٠.

(٢٤) الونشريسي، **المعيار**، ج٢، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف الدكتور محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، ١٩٨١، ص ٥١٧- ٥١٨.

(٢٥) خليلي (بختة)، "الآفات الاجتماعية بالمغرب الأوسط خلال العصر الوسيط ما بين القرن ٧-٩ ه/ ١٣-١٥ م من خلال النوازل الفقهية، **مجلة الرواق للدراسات الاجتماعية والإنسانية**، مجلد ٧، عدد ١، ٢٠٢١، ص ٢٣٦.

(٢٦) **المرجع** نفسه.

(٢٧) الوزان، ج٢، ص ٦٠.

(٢٨) **المصدر نفسه**، ج١، ص ٢٣٢-٢٣٣.

(٢٩) **المصدر نفسه**، ص ٢٤٧.

(٣٠) **المصدر نفسه**، ص ٢٥٠.

(٣١) المراكشي، **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، ضبطه وصححه وعلق حواشيه وأنشأ مقدمته محمد سعيد العريان- محمد العربي العلمي، مطبعة الاستقامة، القاهرة، ١٩٤٩، ص ١٧٧. اندرجت رواية المراكشي ضمن الروايات التي قدمتها الاستوغرافيا الموحدية عن نظرة نساء المرابطين للمرأة العاهرة بالتستر عنهن في أغلب الأحيان، ولم تخرج عن الحملات الدعائية التي ركزت على لغة التجريم والتشنيع للإطاحة بالخصوم.

(٣٢) ابن عبدون، ص ٥٠.

(٣٣) الوزان، ج١، ص ٢٣٢.

(٣٤) خلاف (محمد عبد الوهاب)، **قرطبة الإسلامية في القرن الحادي عشر ميلادي- الخامس هجري، الحياة الاقتصادية والاجتماعية**، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤، ٣١٩.

(٣٥) أحمد مكي (الطاهر)، **دراسات عن ابن حزم وكتابه طوق الحمامة**، مكتبة وهبة، القاهرة، ١٩٧٧، ص ٤٩.

(٣٦) **المرجع نفسه**.

(٣٧) السقطي، ص ٤٩.

(٣٨) **المصدر نفسه**. / ابن عبدون، ص ٥٠.

(٣٩) تيتاو (حميد)، **الحرب والمجتمع بالمغرب خلال العهد المريني، ٦٠٩-٨٦٩ ه/ ١٢١٢-١٤٦٥ إسهام في دراسة انعكاسات الحرب على البنيات الاقتصادية والاجتماعية والذهنية**، مؤسسة الملك عبد العزيز للدراسات الإسلامية والعلوم الإنسانية، الدار البيضاء، ٢٠٠٩، ص ٣٩٥.

(٤٠) المقري، ج٣، ص ٢١٧- ج٤، ص ١٨٤.

(٤١) ابن حزم (علي ابن أحمد)، **طوق الحمامة في الألفة والألاف**، تحقيق حسن كامل الصيرفي، مطبعة حجازي، مصر، ١٩٥٠، ص ١٠٩.

(٤٢) التيفاشي، **نزهة الألباب فيما لا يوجد في كتاب**، تحقيق جمال جمعة، رياض الريس للكتاب والنشر، لندن- قبرص، ١٩٩٢، ص١٠٩- ١١٠.

(٤٣) **المصدر نفسه**، ص ١١٥.

(٤٤) **المصدر نفسه**، ص ١٣٦-١٣٧.

(٤٥) البستاني (بطرس)، **محيط المحيط**، مكتبة لبنان، بيروت، ١٩٧٨، ص ٧٦٣.

(٤٦) الونشريسي، ج٢، ص ٤٠٩.

(٤٧) **المصدر نفسه**.

(٤٨) السقطي، ص ٥٤.

(٤٩) ابن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص ١٠٦.

(٥٠) المقري، **نفح**، ج٤، ص ١٨٤.

(٥١) التيفاشي، ص ٧٦.

(٥٢) ابن حزم، **رسائل**، ج١، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات، بيروت، ١٩٨٧، ص ١٤٠-١٤١.

(٥٣) الزجالي القرطبي، **أمثال الأعوام في الأندلس**، ج٢، تحقيق وشرح ومقارنة د. محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، مطبعة محمد الخامس الثقافية الجامعية، فاس، المغرب الأقصى، ١٩٧١، ص٤٧.

(٥٤) **المصدر نفسه**، ص ١٦.

(٥٥) النفزاوي، (محمد بن محمد)، **الروض العاطر في نزهة الخاطر**، إعداد وتحقيق هاني الخيّر، دون سنة أو دار نشر، ص ٢٧-٢٨.

(٥٦) الزركلي (خير الدين)، **الأعلام**، ج١، دار العلم للملايين، بيروت، ٢٠٠٢، ص ٢٧٣.

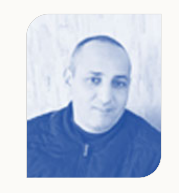
(٥٧) التيفاشي، من ص ١٠١ إلى ص ١٠٧.

(٥٨) **المصدر نفسه**، من ص ٦٥ إلى ص ٧٦.

مقالات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الأوبئة بالغرب الإسلامي
بين المعالجة الفقهية والانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية
الجذام والطاعون أنموذجًا



د. عثمان سال

دكتوراه في التاريخ الوسيط

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

الأكاديمية الجهوية فاس – المملكة المغربية

د. طارق زوكاغ

دكتوراه في الفقه وأصوله

أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي

الأكاديمية الجهوية فاس – المملكة المغربية

مُلَخّص

يُعَدُّ البحث في الأوبئة خلال مرحلة التاريخ الوسيط، من المواضيع التي لم يُسبَر غَورُها في الدراسات التاريخية التي اهتمت بالغرب الإسلامي، نظرًا لهيمنة التاريخ السياسي على التاريخ الاجتماعي المسكوت عنه في المدونات الإخبارية، وهو ما يدفع بالباحث للانفتاح على المصادر التاريخية الموازية؛ خاصةً التراث النوازلي الذي يعتبر ثروة تاريخية لا غنى عنها لأي باحث ومهتم، ذلك أن موضوعاتها تجاوزت الدراسات الفقهية وأصبحت سجلاً يشمل جميع مناحي الحياة الاجتماعية، والفكرية، والاقتصادية، وغيرها. وعلى هذا الأساس، انتقينا من بين الأوبئة التي عرضت لها النوازل الفقهية؛ وبائي الطاعون والجذام نظرًا للحضور القوي لهما في فتاوى الفقهاء النوازليين، وبناء عليه عمدنا لمعالجة هذا الموضوع وفق ثلاثة محاور، حيث عرضنا في الأول لمفهومي الطاعون والجذام، والمحور الثاني بينا فيه آثار العدوى الوبائية في الاجتهاد النوازلي، أما المحور الثالث فخصصناه لمناقشة الآثار الاجتماعية والاقتصادية للأمراض الوبائية، وذيلنا العمل بعرض مُلحق جامع للنوازل الوبائية المتعلقة بالطاعون والجذام التي وقفنا عندها، بيانا منا لأهمية مظان النوازل الفقهية في مجال العلوم الإنسانية خاصةً الدراسات التاريخية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	١١	أكتوبر	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	٢٣	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الوباء؛ الطاعون؛ الجذام؛ النازلة الفقيهة؛ المجتمع؛ الغرب الإسلامي

معرِّف الوثيقة الرقمي:

10.21608/KAN.2023.346582

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

عثمان سال، طارق زوكاغ. "الأوبئة بالغرب الإسلامي بين المعالجة الفقهية والانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية: الجذام والطاعون أنموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٣٥ – ١٤٦.

Corresponding author: salle.outmane@gmail.com

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقَدِّمَةُ

يُعَدُّ البحث في الأوبئة من المواضيع البحثية المُعتمة، التي لم يُسبَر غَورُها بشكل عميق في الدراسات التاريخية، خاصة وأن هذا الجانب من المواضيع التي تدخل في سياق المسكوت عنه في التاريخ الاجتماعي الذي لم ينل حقه الكافي من التشخيص والتوصيف، علما أنَّ الإخباريين الذي عرضوا لتاريخ الغرب الإسلامي توجهت عنايتهم نحو الأحداث السياسية، وكان عرضهم لبعض المواضيع الاجتماعية بما في ذلك الحديث عن الأوبئة المرضية مُحتشما؛ على شكل نُتَف ضئيلة لا تشفي غليل الباحث للغوص في موضوعٍ اجتماعي مُعين.

هذا ما فرض على الباحث ضرورة الانفتاح على الأجناس المصدرية الجديدة؛ باعتبارها وثائق مهمة تعرض لقضايا اجتماعية معيشة بالغرب الإسلامي. في محاولة لدراسة القضايا غير السياسية وعلى رأسها الأوبئة التي عصفت بساكنة المجال المدروس خلال الفترة الوسيطة، والتي كان لها أثر على مُختلف شرائح المُجتمع، خاصة الفئات الضعيفة والمُهمشة. وتقف النوازل الفقهية في مقدمة هذه المصادر؛ نظرًا للخصوصيات التي تُميزها عن غيرها، فبالرغم من كون سياقها فقهيا صرفا، إلا أنها تكتنز معلومات موازية ذات طابع اجتماعي واقتصادي؛ إذ توفر معلومات غاية في الأهمية عن الحياة الصحية، ومنها ما يتعلق بالجوائح المرضية، التي ألحقت ضررًا بليغًا بعامة الناس، حيث رفعت في شأنها العديد من الأسئلة للفقهاء؛ أمَلاً في تقديم الحلول الشرعية الكفيلة بتجاوزها والتعافي منها.

ونحن إذ نحاول النبش في هذا التراث النوازلي؛ تَبَيَّنَ لنا غياب أبواب خاصة بالنوازل الوبائية، ما دفع بنا إلى تَتَبُّعِهَا عبر مُختلف الأبواب بالمصنفات النوازلية، في محاولة لتجميع بعضها، ودراسة انعكاساتها على المجتمع. وعلى هذا الأساس انتقينا من بين الأوبئة التي عرضت لها المظان النوازلية؛ الطاعون والجذام باعتبارهما الأكثر تَرَدُّداً في النوازل المختارة، وبالرغم من أنهما يُقَدِّمَانِ نموذجين مُختلفين من حيث تأثيرهما الصحي والاجتماعي، وسرعة انتقال العدوى، إلا أنه غالبا ما يُقرن بينهما في اجتهادات الفقهاء من حيث قياس أحدهما على الآخر.

وعليه سنعمد لمعالجة هذا الموضوع التقسيم الآتي، حيث خصصنا المحور الأول لتحديد مفهومي الطاعون والجذام، والمحور الثاني عرضنا فيه للعدوى الوبائية وأثارها في الاجتهاد النوازلي، أما المحور الثالث، خصصناه لمناقشة الآثار الاجتماعية والاقتصادية للأمراض الوبائية، وذيلنا العمل بعرض مُلحق جامع للنوازل الوبائية المتعلقة بالطاعون والجذام التي وقفنا عندها.

أولاً: مفاهيم البحث (الجذام، الطاعون)

من الضروري أن يضع الباحث في حسبانه الفروق بين الاصطلاحات المرضية في الفترة الوسيطية، وما كان يعتريها من عموم بسبب تواضع المعرفة الطبية في ذلك الزمان؛ حتى لا يقع الارتباك في بنائه النسقي للموضوع الذي يدرسه، وهذا ما دفع بنا إلى النظر في مدلول وباء الطاعون ووباء الجذام في التراث النوازلي. علمًا أن الوباء لفظ عام، يقصد به المرض الذي يصيب أعدادا كثيرة من الناس في وقت واحد، وينتشر عن طريق العدوى، قال الجوهري: ((...وقد وَبِئَت الأرضُ تَوْبَأُ وَبَأً فهي مَوْبوءَةً، إذا كثُر مرضها...))(١)، وقيل أيضًا: ((...الوباء عموم الأمراض...))(٢)، وإن كان يغلب في الإطلاق على الطاعون خاصة، حيث قال الخليل: ((...الطاعون هو الوباء...))(٣).

١/١-الطاعون

الطاعون لغة من وزن فاعول مبالغة من الطعن، وأصله من الطعن بالرمح، وجمعه طواعين(٤)، وأما اصطلاحا؛ مرض فتاك يصيب عامة الناس(٥)، قال الجوهري(ت.٣٩٤هـ): ((...الطاعون الموت من الوباء...))(٦). ويعتبر من الأمراض المُرعبة في الذاكرة الجماعية للجنس البشري لما أحدثه من فناء لشعوب برمتها، فقد كان يَطلق عليه المؤرخون المُوتان؛ لأنه كلما زار بلدا قضى على ساكنته ووشم في ذاكرتهم تاريخا لا يُنسى. وحكى ابن خاتمة الأندلسي(ت.٧٧٠هـ)، أنَّ الإنسان المصاب بالطاعون كانت تظهر عليه قروح تخرج في المَغَابِنِ وفي غيرها، فلا تُلبث صاحبها وتَعُمُّ غالبا إذا

ظهرت[٧]. أما بلديه ابن الخطيب(ت.٧٧٦هـ) وصف شراسته بقوله: ((...ووجدنا الطاعون في بيوتهم قد نزل، واحتجز الكثير إلى القبور، واعتزل وبقر، واحتجز فلا تبصر إلا ميتا يخرج، وكميتا إلى جنازة يسرج، وصراخا يرفع وعويلا بحيث لا ينفع فعفنا الهجوم وألفنا الوجوم، وتراوغنا عن العمران و سألنا الله السلامة من معرة ذلك القرآن...))[٨].

ووصف ابن خلدون (ت.٨٠٨هـ) ما يُصيب العمران من خراب بسبب الوباء بقوله: ((...هذا إلى ما نزل بالعمران شرقًا وغربًا في منتصف هذه المئة الثامنة من الطاعون الجارف الذي تحيف الأمم وذهب بأهل الجيل وطوى كثيرًا من محاسن العمران ومحاها، وجاء للدول على حين هرمها وبلوغ الغاية من مداها فقلص من ظلالها وفل من حدها وأوهن من سلطانها وتداعت إلى التلاشي والاضمحلال أموالها، وانتقض عمران الأرض بانتقاض البشر، فخربت الأمصار والمصانع ودرست السبل والمعالم وخلت الديار والمنازل وضعفت الدول والقبائل وتبدل الساكن...))[٩]. كما عبر في موضع آخر عن شدة فتكه بالناس بقوله: ((...ثم جاء الطاعون الجارف فطوى البساط بما فيه...))[١٠].

٢/١-الجذام

لفظة الجذام في القواميس اللغوية تأتي بمعنى؛ القطع، حيث ذكر الثعالبي (ت. ٤٢٩هـ) في فقه اللغة أن ((...الجُذَامُ علَّةٌ تُعَفِّنُ الأَعْضاءَ وتُشَنِّجُها وتُعوِّجُها وتُبِحُّ الصَّوت وتَمْرُطُ الشَّعر...))[١١]. وجاء في تاج العروس أنَّ الجَذْمُ هو انْقِطاعُ المِيرَةِ. ويقال: ((...حَبْلٌ جِذْم، أَي: مَجْذُوم مقطوع. ورَجُلٌ أَجْذَم: تهافتت أطْرافُه من الجُذام...))[١٢]، وورد أيضًا أن الجذام علّة تتآكل منها الْأعضاء وتتساقط، حيث قيل: ((...الأَجْذَم المقطوعُ الْيَد، يُقَال مِنْهُ: جَذِمَتْ يَده تَجْذَمُ جَذَماً، إِذا انْقطعت وَذَهَبت وَإِن قَطَعْتَهَا أَنْت، قلت: قد جَذَمْتُها، أَجْذِمُها جَذْماً...))[١٣].

ونظرًا لخطورة الداء فقد أورد ابن القيم الجوزية (ت.٧٥١هـ) في كتابه "الطب النبوي" مجموعة من الأحاديث النبوية تحذر من خطورته وتدعو للاحتراز منه، مثل قوله: ﴿فر من المجذوم كما تفر من الأسد﴾[١٤]، و﴿لا تديموا النظر إلى المجذوم﴾[١٥]، و﴿كلم المجذوم وبينك وبينه قيد رمح أو رمحين﴾[١٦]، فالنبي-صلى الله عليه وسلم-لكمال شفقته على الأمة، ونصحه لهم؛ نهاهم عن الأسباب التي تعرضهم لوصول العيب والفساد إلى أجسامهم وقلوبهم[١٧].

ثانيًا: العدوى الوبائية وآثارها في الاجتهاد النوازلي

من أهم المسائل التي أثارت النقاش في الفقه النوازلي؛ مسألة تَصَوُّر حقيقة العدوى المرضية، وانتقال المرض؛ من المريض وسَرَاينه بين الأصحاء عن طريق المُخالطة في وباء الجذام والطاعون. ويرجع سبب الخلاف إلى التعارض الظاهر في الأحاديث النبوية الواردة في الباب؛ كقول الرسول-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿لَا عَدْوَى، وَلَا هَامَ، وَلَا صَفَرَ، وَلَا يَحُلَّ الْمُمْرِضُ عَلَى الْمُصِحِّ، وَلْيَحْلُلِ الْمُصِحُّ حَيْثُ شَاءَ﴾ [١٨]، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّه، وَمَا ذَاكَ؟ فَقَالَ رَسُولُ اللَّه-صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ-: ﴿إِنَّهُ أَذًى﴾[١٩]. وقوله—عليه الصلاة والسلام-: ﴿فرَّ مِنَ الْمَجْذُومِ فِرَارَكَ مِنَ الْأَسَدِ﴾[٢٠].

قال المهدي الوزاني (ت. ١٢٦٦هـ): ((...ويتمثل وجه التعارض في أنَّ الفرار من الطاعون يُشبه الفرار من المجذوم، وفي كل منهما شَبَه إثبات العدوى المَنْفيَّةِ في الحديث...))[٢١]، فاختلفت على هذا الأساس آراء أصحاب الفتوى في تنزيل هذه الأخبار على النوازل الوبائية المعروضة عليهم، بين مُعتبر لوجود العدوى، وناف لها. حيث ذهب أغلب الفقهاء بالغرب الإسلامي إلى نفي وُجود العدوى رأساً[٢٢] وأنه لا يُعدي شيء شيئا حقيقة[٢٣]، أخذا بعموم قوله-صلى الله عليه وسلم-(لا عدوى)، واعتبروا أنَّ القول بالعدوى يَنتج عنه العديد من المفاسد الاعتقادية والتعبدية والاجتماعية، قال ابن لب(ت.٧٨٢هـ): ((...وكم للشيطان-لعنه الله- في هذه النازلة التي نزلت بالمسلمين مكايد، وهو أحرص شيء عليها، منها اعتقاد من يعتقد أن الواقع بخلاف ما أخبر الشرع، ومنها العيادة والتمريض والقيام بالمؤنة؛ ليذهب الأجر، ويَثبت الوزر، وتتشتت الكلمة، وتنتظم البدعة...))[٢٤]. كما عضدوا قولهم بالمُشاهدة التي تُثبت عدم انتقال العدوى في جميع أهل البلد ممَّن باشر المريض على وجه اللزوم العادي[٢٥]، وأَوَّلُوا الأمر بالفرار

من المجذوم في الحديث الشريف بأنه للتوجيه والإرشاد، بسبب الرائحة التي تَسقم من شَمَّها، ولا يُراد بذلك معنى العدوى[٢٦]، وهو ما يُفسره فعله-صلى الله عليه وسلم-حينما جالس مجذوما وأكل معه وقال-عليه السلام-: ﴿ثقة بالله وتوكلا عليه﴾[٢٧].

أما المُفتون القائلون بصحة ثبوت العدوى، فقد سلكوا مسلك الجمع بين الأحاديث المُختلفة من خلال تأويل ظاهرها[٢٨]، فقالوا: إنَّ النهي عن اعتقاد العدوى في الحديث الشريف لا يدل على نَفيها، وإنما ((...المُراد نَفْيُ ما تعتقده العرب من أنَّ تلك العِلل مُؤثرة بنفسها، فأعلمهم الرسول-صلى الله عليه وسلم-أنَّ الأمر هو بمشيئة الله تعالى وفعله...))[٢٩]. وبنوا رأيهم على ما قَرَّرهُ الأطباء ((...من أنَّ الروائح الفاسدة المُتعفنة، ولا سيما إذا خرجت من أفواه المرضى، فإنها روائح سُمية ينشأ عنها العدوى غالبا عندهم...))[٣٠]، والقاعدة تقول: ((...الدليل السمعي إذا عارضه الحس والمشاهدة، لزم تأويله...))[٣١].

وهكذا تفرع عن القول بثبوت العدوى أو نفيها؛ اجتهاد النوازليين في تخريج أحكام العديد من المسائل التي يكثر السؤال عنها زمن الأوبئة؛ وهي الآتي:

١-السؤال عن السبب العقلي لوباء الطاعون؟! حيث شاع عند الفقهاء والعوام ممن رفضوا الاعتقاد بتأثير العدوى[٣٢]؛ تفسير سبب الطاعون بأنه من وَخْزِ الجان لبني آدم، استنادا إلى الخبر المنقول عن الرسول -صلى الله عليه وسلم-: ﴿فناء أمتي بالطعن والطاعون﴾، فقيل: يا رسول الله، هذا الطعن قد عرفناه، فما الطاعون؟ قال: ﴿وخز أعدائكم من الجن، وفي كل شهداء﴾[٣٣]. أما الفقهاء الذين اشتغلوا بالطب كابن خاتمة وابن الخطيب اعتبروا أنَّ ((...الكلام في القول بالعدوى أو بعدمها شرعا ليس من وظائف هذا الفن، وإنما جرى مجرى الجُمل المُعترضة والمُثُل...))[٣٤]، وخلصوا بأنَّ سبب الطاعون؛ هو ((...فساد المياه والأهوية والأطعمة، فيفسد الدم بذلك، فَيُنتج ذلك أمراضا سُمية في الجسد، وإذا اشتد حالها تعذر طِبها...))[٣٥].

٢-السؤال عن حكم عيادة المريض في أرض الوباء[٣٦]، والسؤال عمن يعتقد أنَّ بعض الأمراض يكتسبها الصحيح إذا نظر في المريض، أو شَمَّ منه، حتى يحمله ذلك على ترك عيادة المرضى، مع علمه أو بعدمه[٣٧]، فهذا ممَّا يتعارض مع واجب عيادة المرضى، وتقديم الرعاية الصحية لهم، ممَّا دفع بالمُفتين للسَّعي للتوفيق بين الأمرين؛ كأبي سعيد بن لب الذي سُئل عن الوباء وفرار الناس بعضهم من بعض فيه؛ لِما عاينوا من سريان الوباء في الأكثر؛ فأجاب بعدما استعرض الأقوال في هذه النازلة: ((...والذى يظهر لي ولا شك في صحته، أن العمل على شاكلة ذلك، إنما هو ما لم يُؤَدٍّ إلى تعطيل الفروض، وتضييع الحقوق، وسدِّ أبواب المرافق والمصالح على المرضى...))[٣٨]، وقال في جواب آخر له عن نازلة مُشابهة: ((...القيام بحقوق المسلمين من التمريض والغسل والدفن؛ فرضٌ لا يجوز إهماله، وكذلك عيادة المرضى، فما رَغَّبَ الشرع فيه وحض عليه؛ فلا ينبغي ترك ذلك...))[٣٩].

٣-السؤال عن حكم عزل المرضى بالجذام، ومنع اختلاطهم بالناس في الأماكن العامة؛ إذ أفتوا بضرورة استنابة من يقوم عنهم بمصالحهم الخاصة وعدم مُخالطة الناس في الأماكن العامة كالسواقي والأسواق، واستحبوا عدم حضورهم المسجد أو إمامتهم الناس في الصلاة، حيث أجاب ابن رشد-الجد-(ت.٥٢٠هـ) من مدينة مرسية عن هذا السؤال بقوله: ((...وإمامة المجذوم جائزة، لا اختلاف في ذلك بين أحد من أهل العلم؛ لأن العيوب التي تقدح في صحة الإمامة، إنما هي في الأديان لا في الأبدان، إلا أنه إذا تفاحش جذامه، وقبحت منظرته، وعلم من جيرانه أنهم يكرهون إمامته لتأذيهم بها في مخالطته لهم بشق صفوفهم، في الدخول إلى المحراب والخروج عنه، فينبغي له أن يتأخر عن الإمامة بهم...))[٤٠]. وهو مُقتضى جواب الإمام سحنون(ت.٢٤٠هـ)[٤١] وابن أبي زيد(ت.٣٨٦هـ)[٤٢]، وابن الحاج(ت. ٥٢٩هـ)[٤٣] وابن سراج(ت. ٨٤٨هت)[٤٤] ويحيى ابن عمر الأندلسي(ت. ٢٨٩هـ)[٤٥]؛ عما سُئلوا عن جواز بيع المجذوم للثوب[٤٦]. وأفتى البُرزلي (ت. ٨٤٤هـ) بتخصيص أماكن للمرضى بأرباض المدن عندما يكثر عددهم في البلد، مع توفير كافة المرافق التي يحتاجونها، من المساكن والبيمارستانات والمواجل والسواقي وغيرها[٤٧]، قال: ((...لو كَثُرَ -المُبتلين

بالجذام- يُجعل لهم موضع يسكنونه، كما قال في الرواية...))[٤٨]، وهو ما كان معمولا به في مُختلف مدن الغرب الإسلامي، كالقيروان، وفاس، ومراكش، وقرطبة، وطليطلة[٤٩].

٤-السؤال عن حكم الخروج من أرض الطاعون، أو الدخول إليها؟ وقد وقع الخلاف في هذه النازلة منذ عهد الصحابة الكرام-رضي الله عنهم-، عندما قدم أمير المؤمنين عمر بن الخطاب-رضي الله عنه-بلاد الشام ووجد بها الوباء، وأراد الرجوع بمن معه من المسلمين إلى المدينة المنورة، بعدما سمع ما أمر به الرسول-صلى الله عليه وسلم- في قوله: ﴿إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارا منه﴾[٥٠]. فاختلف الفقهاء من بعدهم في تأويل صيغة النهي الوارد في الحديث الشريف؛ هل هي للتحريم، أم للكراهة؟

والذي جرت به الفتوى من قبل فقهاء الغرب الإسلامي كابن رشد[٥١] وابن لب[٥٢]، والرصاع(ت. ٨٩٤هـ)، والمواق(ت. ٨٩٧هـ)[٥٣]، أنَّ النهي في الحديث الشريف نهي تنزيه وإرشاد، قالوا: ((...ليس على التحريم، ويجوز القدوم لمن قوي توكله وحسنت عقيدته، وإنه علم أنه لا يُصيبه إلا ما كُتِب له...))[٥٤]. ونقل ابن رشد الإجماع على أنه لا إثم ولا حرج في شيء من ذلك[٥٥]. هذا ما قَلَّدَهُ ابن مرزوق عندما بُعث رسولا إلى فاس، وكان في بعض البلاد مرض الطاعون، فقال: ((...علمت ما للعلماء في النازلة، فقلدت القول وقوي توكلي، ودخلت، فقضينا حاجتنا ليالي وأياما آمنين ولم يمرض منا أحد...))[٥٦]. وقد كتب الشريف المهدي الوزاني في نوازله الكبرى؛ تقييدا مُفصلا في ثمانية مطالب، جمع فيه كلام الأئمة في مسألة الخروج والدخول للبلد الموبوء، وناقش جميع الفروع المُتَّصِلَة بها[٥٧].

٥-السؤال عن حكم حاضر بلد الطاعون؛ هو بمنزلة المريض المَخُوفُ عليه الموت، أم بمنزلة الصحيح حتى يَثبت مرضه؟ وهي من المسائل المتكررة المعروضة على الفقهاء زمن الأوبئة، والتي لها أثر على التصرفات المالية لأهل البلد، خاصة في باب التبرعات التي اختلف النوازليون بين إخراجها من رأسمال التركة وإخراجها من ثلثها فقط؟ فأجاب قاضي الجماعة أبو محمد ابن عيسى الغبريني(ت. ٧٠٤هـ) عن هذه المسألة لما عرضت عليه بقوله: ((....حُكمه مُطلقا حكم الصحة، حتى يصيب أحدا من الناس، فحكمه في التصرف كحكم المرض المخوف....))[٥٨]، وبه أفتى الإمام الرصاع عندما راسله المواق الغرناطي في شأن نفس النازلة[٥٩]. وقال أبو العباس القباب: ((...والأظهر فيه أنه ما دام على حال الصحة قبل نزول المرض به، فهو حكمه كحكم الأصحاء...))[٦٠]. وفَرَّقَ الإمام البرزلي بين حكم الناس بحسب الحالة الوبائية في البلد، فقال: ((...حكم الناس في ذلك حكم حاضر الزحف أو أشد، وإن كان خفيفا فلا؛ حتى يُصيبه...))[٦١]. أما ابن هلال السجلماسي(ت. ٩٠٣هـ) فأجاب بقوله: ((...المُصاب بالطاعون له حكم ذي المرض المَخُوف، وإن كان يتصرف على قدميه...))[٦٢].

ثالثًا: الانعكاسات الاجتماعية والاقتصادية للأوبئة

انتشرت مجموعة من الأمراض المُعدية في الفترة الوسيطة، ومنها الطاعون والجرب والرَّمد، والجذام[٦٣]، كانت كثيرة التردد ومُزعجة لعامة الناس، لأنَّ اجتياح الأوبئة لأماكن معينة لا ينحصر انعكاسه السلبي على الجوانب الاجتماعية فحسب، بل يتعداه لِيُلامس الميدان الاقتصادي، نظرًا للارتباط الحاصل بينهما.

٣/١-الانعكاسات الاقتصادية

أبانت مظان النوازل الفقهية عن أزمات أصابت الاقتصاد إبان فترات انتشار الوباء، ذلك أن هلاك الناس وموتهم زمن الوباء فيه انحصار ضمني للأنشطة الاقتصادية سواء على مستوى تراجع الاستهلاك أو الإنتاج، وعلى رأس المجالات المتأثرة، النشاط التجاري[٦٤] بين المناطق الموبوءة وغيرها، لأنَّ الإنسان هو الممارس لهذا النشاط، في هذا السياق أشار الونشريسي في معياره إلى التحفظ الذي أبداه الفقهاء حول مسألة ممارسة المجذوم للتجارة[٦٥]، ولعل ذلك ناجم عن كون المجذوم ناقلا للعدوى إذا مارس قام بهذا النشاط، حيث يمكن أن ينتقل المرض منه إلى المشتري المعافى والذي

بدوره قد يؤدي أناسا آخرين، بدءا بأسرته الصغيرة، ووُصولا لتفشي المرض في نطاق أوسع.

وفي السياق ذاته أشار ابن الحاج التجيبي القرطبي في نوازله إلى التشدد في المتاجرة بأمتعة المجاذيم، آية ذلك النازلة التي قال فيها ابن سراج: ((...اتفقوا في قميص المجذوم إذا بيع ولم يبين أن له الرد، واختلفوا في حماره...))(٦٦)، مما كان يخلق نوعا من الريبة والشك في التواصل بين العوام، وبالتالي توقف المبادلات التجارية وتعطل الأسواق، خاصة إذا عم وذاع خبر شيوع الوباء بين الناس الذين يفضلون مغادرة البلد الموبوء إما بشكل فردي أو جماعي خوفا من وصول العدوى إليهم، الشيء الذي يؤثر سلبا على مَردودية القطاعات الانتاجية التي تتوقف بالكامل، وعلى التوزيع السكاني بين المجالات (٦٧)، ولأن الإنسان هو مصدر كل الثروات، فهو الذي يروض الأرض ويسقيها ويجمع محصولها ويرعى الأغنام ويبيع ويشتري، فإنه حينما يغيب أو يَنزِح هاربا من الوباء تتوقف الأرض عن عطائها وتتعطل معها كل الخدمات الأخرى.

وبالموازاة مع ذلك، فرضت ظروف الوباء ضرورة استقرار الإنسان في المناطق غير الموبوءة، خاصةً مع النهي الذي حثَّ عليه الفقهاء خوفا من نزوحهم الذي ينقل العدوى، هذه الوضعية بدورها انعكست سلبا على الجانب الاقتصادي، لكون التنقل بين المناطق يعتبر الشريان الذي تعتمد عليه الأنشطة الإنتاجية، والتي لا يمكن تصور نجاحها دون مبادلات تجارية يباشرها التجار بين المناطق.

تأسيسًا على ذلك يعم الشلل الأسواق التجارية، وترتفع تكاليف العيش بارتفاع الأسعار، وتصبح الضروريات الغذائية بعيدة عن متناول الشخص العادي، لدرجة أن الناس لا يجدون ما يتزودن به، بسبب إغلاق المحلات التجارية، مصداق ذلك ما حكاه ابن هلال حينما سئل في مسألة عن ((...رجل مات في الوباء فلم تجد الجماعة كفنا، وكان له ابن غائب بالمشرق وابنة، وكانت البنت عند زوجها، وترك أصلا، فطلبت الجماعة الكفن؛ فلم يجدوه لا بغلاء ولا برخص...))(٦٨). فعبارة ((...لم يجدوه لا بغلاء ولا برخص...)) هي دليل على الشلل الذي كان يصاب الأسواق جراء الوباء؛ ولعل الاستدلال بالكفن لَبُرهان على ذلك، لكونه سلعة لا تستعمل إلا عند الوفاة، وفي الغالب ما تكون متوفرة خاصة وأن المسلمين يعتبرون وجود الكفن من طقوس دفن الميت.

هذا الانحباس الذي شمل المبادلات التجارية انعكس على قطاعات أخرى ذات صلة، منها ما يعرف اليوم بقطاع الخدمات، فقد أشارت كتب النوازل إلى توقف الفنادق عن استقبال النزلاء خلال فترة الجوائح، وتعطل الأرحية عن القيام بالعمل نظرا لتضرر النشاط الزراعي، ولعله هو الشيء الذي صرحت به النازلة التي حكاها ابن رشد الجد حينما سئل عن ((...حكم الفنادق إذا قل واردها لسكناها، والأرحى إذا قل الطعام للطحن هل يعتبر ذلك جائحة يحط بها الكراء أم لا؟...))(٦٩)، ومعلوم أن هذه المرافق كانت تعتبر مصدر رزق للعديد من الأسر، الشيء الذي يجعلها عرضة للعديد من الآفات الاجتماعية كالعطالة والتسول وغيرها.

عُمومًا؛ لقد كان الاقتصاد بمختلف قطاعاته -إنتاج حرفي، إنتاج فلاحي، مبادلات تجارية- متضررا بشكل مباشر من انتشار الجوائح؛ كيفما كان نوعها؛ وخاصة وبائي الطاعون والجذام نظرا لسرعة انتقالهما بين الناس، هذه الوضعية العصيبة تعقبها كوارث أخرى كالجوع والفقر أو الرحيل القسري نحو المجهول؛ مما يشكل نواة لتفشي مشاكل اجتماعية عويصة.

٢/٣-الانعكاسات الاجتماعية

من الأكيد أن أي تحول اقتصادي في مجال معين ترافقه تحولات اجتماعية؛ نظرا للارتباط الحاصل بينهما، فالانهيار الاقتصادي الناتج عن الوباء كانت تصاحبه مشاكل اجتماعية متعددة، منها النزوح الجماعي للسكان من المناطق الموبوءة إلى المناطق الآمنة خوفا من الموت، آية ذلك ما صرح به ابن خلدون حينما قال: ((...وأمّا كثرة الموتان فلها أسباب من كثرة المجاعات كما ذكرناه أو كثرة الفتن لاختلال الدّولة فيكثر الهرج والقتل أو وقوع الوباء...))(٧٠). بالموازاة مع ذلك؛ كان الشلل الاقتصادي واستفحال الوباء يَزُجان بالإنسان في حالة من الهواجس المخيفة التي تهدده من كل جوانبه، وجعلته يُفضل الجوع والتشرد على الهلاك، ليُفْسَحَ المجال أمام سلوكات أخرى غالبا ما تكون

عدوانية كالسلب والنهب والسرقة والغصب والاحتكار؛ بل والارتداد نحو المرحلة البدائية للبشرية، حيث يصبح الإنسان مفترسا وآكلا للنبات والحشائش ومستهلكا لعالم الخرافة والسحر في محاولة لتجاوز مخالفات الوباء الكارثية[٧١].

علاوة على ذلك انعكس استشراء الأمراض المعدية على العلاقات الأسرية، من خلال زعزعة مؤسسة الزواج في مجتمعات الغرب الإسلامي خاصة في ظل انتشار وباء الجذام، فقد أورد صاحب المعيار مجموعة من الفتاوى لامست تأثير الجذام على الزواج، حيث أسهم المرض بشكل كبير في تفشي ظاهرتي الطلاق والخلع، نظرا لصعوبة الحياة والتعايش مع المرض، فقد اضطرت امرأة لمخالعة زوجها بعدما ظهر به الجذام؛ رغم أن حياتهم الزوجية دامت سنين عديدة وخلفوا أولاداً[٧٢]، وهو ما يُبرز كون المرض كان بمثابة مشكل يفضي لإنهاء الحياة الزوجية بالرغم من المتاعب الوخيمة المترتبة عن انفصال الزوجين خاصة على الأبناء الذين يتحولون إلى أيتام ويعيشون حياة مُفككة ومُشتتة. مع الإشارة إلى أن هناك من النساء من فضلن عدم التسرع في طلب الخلع ومغادرة بيت الزوج حيث آثروا الصبر رجاء شفاء الزوج، فإن ((...كان لم يبر فارقته، فلها منفعة في التعجيل...))[٧٣].

كما أكدت نوازل أخرى أن المرض كان عائقا للعلاقة الزوجية، حيث كانت المرأة المصابة بالجذام لا يستطيع زوجها مضاجعتها؛ وهذا ما أقرته فتوى وردت عند القابسي (ت. ٤٠٣هـ) حينما ذكر أن المجذومة لا يستطيع الرجل وطأها[٧٤]، والاستمرار على هذه الوضعية كان يفضي لفض مؤسسة الزواج، لأن غالبية الأزواج يرغبون في أن تكون المرأة سليمة معافاة، تفاديا للمشاكل التي تصاحب المرض كانتقاله للأطفال خلال الرضاعة.

إضافة لمشاكل الطلاق والخلع؛ كان وباء الجذام يزج بالزوجين في خصومات تصل القضاء، حيث كان الرجل يتهم المرأة بكونها كانت مصابة قبل الدخول بها، وعملت على إخفاء المرض حتى لا يقال عنها مجذومة، وهو ما كان ينعكس سلبا على العلاقة الزوجية بظهور صرعات تفرض ضرورة تدخل أولياء الأمور، ففي نازلة حكاها ابن الحاج أنه ((...سئل فيمن زعم أنه تزوج امرأة سليمة ثم ظهر بها جذام؟ فأجاب [...] إن تزوج على أنها صحيحة فمكثت سنة، ثم ظهر بها جذام فادعى الأب أنه عَرض بعد النكاح، وقال الزوج: قبل النكاح، فالبينة على الزوج...))[٧٥].

الأكثر من هذا؛ إنَّ التأكد من العدوى كان يتجاوز تدخل أولياء الأمور، فحينما تتعارض الآراء تحضر شهادة الشهود أو شهادة الأطباء للقطع في كون الجذام كان قبل أو بعد النكاح، وهي المسألة بعينها التي سئل عنها ابن الحاج في أن ((...شهادة الأطباء في قدِم الجذام بامرأة، نافذة...))[٧٦].

وفي سياق ذي صلة، كان الانعكاس السلبي للمرض لا ينحصر على العلاقة بين الزوجين، بل يتعداه ليشمل باقي أفراد الأسرة، حيث ذكرت المسائل الفقهية نماذج تؤكد قدرة المرض على تفكيك الأسر؛ إذْ كان الرجال يمنعون زوجاتهم من زيارة الأقارب الذين يتوسطهم فرد مصاب بالوباء؛ تماشيا مع ظروف المرحلة وهواجس انتقال العدوى، منها أن رجلا منع زوجته من زيارة أمها لرعايتها ((...لتمرضها وتغسلها وتباشرها وتقليها...))[٧٧]، وبَرَّرَ ذلك بقوله: ((...إنك إن فعلت ذلك عافتك نفسي، ولم تقبل عليك...))[٧٨].

وأثارت كتب النوازل الفقهية قضايا أخرى ترتبط بتركة الهالك مثل مصير الزيجات اللواتي توفي أزواجهن زمن الوباء، فذكر اللخمي(ت. ٤٧٨هـ) ((...أنه يحمل أمره على الموت، فتعتد امرأته ويقسم ماله...))[٧٩]. ومنها أيضًا؛ الخلافات التي شملت اقتسام أموال الذين توفوا في الوباء، وكانت على عهدتهم ذمة لأشخاص معينين لم تعرف هويتهم بعد وفاة الموصي نظرا للارتجاج الذي يخلفه الوباء، وهو ما عرضت له النازلة التي تحدثت مظانها عن ((...رجل من أكابر التجار وذوي الأموال الطائلة، كان عهِد في زمن الوباء وهو بحال صحة وجواز [...] بثلث جميع ما يخلفه ميراثا عنه، على أن تخرج منه وصايا معينة، ويكون باقي الثلث في وجه عَينَه أيضًا، واعترف مع ذلك بأن في ذمته لرجل لم يعين اسمه ولا نسبه ولا بلده ولا حياته ولا موته مائة وخمسين ذهبًا...))[٨٠].

وعلى الرغم من هذه المحن التي رافقت ظهور الوباء، ظل التكافل مؤشرًا على طبيعة العلاقة الاجتماعية بين الناس خلال تلك الفترة، حيث تحضر الروح التضامنية مع الفئات المستضعفة من خلال الوقف على المرضى، كما أقر بذلك ابن الحاج[٨١]، حينما سئل عن إمكانية استفادة المريض بالجذام من الحبس، كما سارع الناس في سياق التضامن مع المصابين الذين يعجزهم المرض العمل على توفير الصدقات لهم[٨٢]، وهو الأمر الذي كان يخفف ويقلص من وقع الجوائح ولو بشكل نسبي.

خَاتِمَةٌ

يتضح من خلال ما سبق أن متون النوازل الفقهية استطاعت أن تكشف عن قضايا غامضة تخص الحياة الصحية بالغرب الإسلامي، من خلال إبرازها لأثر الأوبئة المرضية على الناس سواء من الناحية الاقتصادية أو الاجتماعية، ذلك أن الجوائح المرضية خلفت وراءها كسادا اقتصاديا لامس الزراعة والتجارة والحرف؛ الشيء الذي أسهم بشكل مباشر في ارتفاع الأسعار وخراب العمران، مع ما صاحب ذلك من نزوح قسري وفقر واستشراء للمجاعات، دون إغفال الخلافات الأسرية التي كانت ذات صلة بالأوبئة.

من جهة أخرى، استطاعت النوازل أن تفصح عن دور الفقهاء في التصدي للأزمات من خلال فتاويهم والنقاشات التي دارت بينهم بخصوص طرق معالجة المسائل الوبائية المعروضة عليهم، في محاولة منهم لتفادي المرض والتخفيف من تداعياته، خاصةً وأن أجهزة الدولة خلال مرحلة الوباء تصاب بالشلل.

وتجدر الإشارة في نهاية هذا العمل، إلى أننا لا نزعم التقصي والاستيعاب فيما أوردناه من نوازل حول الأوبئة المرضية؛ لأن مادة البحث متفرقة بين كتب كثيرة، ولكن عموما مكنتنا من تسليط الضوء على بعض جوانبها، هذا مع بيان قيمة المصادر الدفينة في كشف النقاب عن قضايا اجتماعية مجهرية داخل مجتمعات الغرب الإسلامي.

الملاحق

ملحق (١)

جامع لنوازل الجذام والطاعون

موضوع النازلة	المصدر
[حكم الناس زمن الوباء]	نوازل ابن هلال (السجلماسي) (ص: ٤١٩-٤٢٠)
[هل يخالط المصاب بوباء]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٢٥٣/١١-٢٥٨)
[رجل مات في الوباء، فلم تجد له الجماعة كفنا له]	نوازل ابن هلال (السجلماسي) (ص: ٢٤٣-٢٤١)
[لا يترك المصابون بالوباء عُرضة للفناء]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٣٥٩/١١)
[استظهار ذمي برسم دين بعيد التاريخ على رجل مات في الوباء]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٢٤٦/٥)
[الاختلاف في الوصية بالمال زمن الوباء]	جامع مسائل الأحكام (البرزلي) (٤٨١/٢-٤٨٢)،
[توزيع إرث المفقود زمن الوباء]	الأجوبة (الونشريسي) (اللوحة: ١٢٩. من المخطوط)
[موتى وباء أوصوا للأسارى وغيرهم، فاقتسم الورثة دون حضور نائب الأسرى]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٢٩٨/١٠-٢٩٧).
[اعتراف تاجر في صحته زمن الوباء بأن في ذمته لرجل لم يعينه مبلغا مهما من المال]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٥/٦-٧)
[إشهاد رجل على نفسه أن لأكبر أبنائه عليه دينًا من نفقته عليه زمن الوباء، ومن ديون أداها عنه للغرماء]	المعيار المعرب (الونشريسي) (١٣/٦-١٥)
[حكم المرض متى كان معديا]	نوازل ابن الحاج (٢٩٣/٢)
[الامتناع عن عيادة المريض بسبب الخوف من العدوى]	نوازل البادية (الناصري) (ص: ٥)
[تقييد فيما يتعلق بالفرار من الطاعون]	النوازل الجديدة الكبرى (المهدي الوزاني) (٥٥٢/١٢-
[حقيقة الطاعون الظاهر بألمرية عام ٧٤٩هـ]	تحصيل غرض القاصد في تفصيل المرض الوافد (ابن
[الواهب الذي أصابه الطاعون]	نوازل ابن هلال السجلماسي (ص: ٤٢٠-٤٢١)
[المصاب بالطاعون له حكم المرض المخوف]	نوازل ابن هلال السجلماسي (ص: ٤٢٢).
[يقين ابن مرزوق في دخول بلدة الطاعون بين فاس وتلمسان]	الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية
[السؤال عن السبب العقلي للطاعون قصد الاحتراز منه وقوعا وتوقعا]	الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية
[هل الاعتقاد بأنَّ الجن يُصيب بني آدم بالطاعون صحيح؟]	الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية

موضوع النازلة	المصدر
[سؤال حول العدوى]	الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية
[حكم الفرار من الطاعون، والقدوم عليه؟]	الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية
[هل يُشرع الدعاء برفع الطاعون؟ والاجتماع له؟]	الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية
[هل حاضر بلد الطاعون بمنزلة المريض المخوف عليه الموت؟]	الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية
[إنشاء أرباض ومر افق خاصة بالمجذومين]	جامع مسائل الأحكام (البرزلي) (٤٨١/٢)
[حسن الرجاء، وذم اليأس من الشفاء من الجذام]	المدخل (ابن الحاج) (٤/٤)
[طرد المجذوم من القرية الصغيرة أو الكبيرة إذا كان له أذى]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٤٢٣/٦)
فيمن اشترى شيئا من مجذوم، هل فيه عيب؟]	نوازل ابن الحاج (٣٩٤/٢)
[حكم المجذوم يبيع الثوب]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٤٢٢/٦)
[شهادة الأطباء في قدم الجذام بالمرأة؛ نافذة]	نوازل ابن الحاج (٤٥١/٣)
[إمام مجذوم تكره جماعته الائتمام به]	نوازل ابن رشد-الجد-(ص: ١٦٨)
[لا يمنع المجذوم من المسجد، ويمنع من مرود الماء]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٤٢٣/٦)
[الحبس على مرضى الجذام]	نوازل ابن الحاج (٥٩٠/٣)
[التحبيس على المجذومين]	المعيار المعرب(الونشريسي) (٣٩/٧)
[التصدق بالدين على الجذمى]	نوازل ابن زرب (ص: ٢١٢)
[من سقى سما فتجذم، أو أسود لونه]	نوازل ابن الحاج (٤١١/٢)
[امرأة أطعمة زوجها فأجذمته]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٣٢٣/٢)
[فيمن تزوج امرأة سليمة ثم ظهربها جذام]	نوازل ابن الحاج (٤٥٣/٢)
[ما يكتبه الموثقون من كون الزوجة صحيحة العقل والبدن]	المعيار المعرب (الونشريسي) (١٥٤/٣)
[من ظهربه جذام فخالعته زوجته فإن الخلع ماض]	المعيار المعرب (الونشريسي) (٩٤/٣)
[رفض الزوج أن تمرض زوجته أمها المجذومة]	نوازل ابن بشتغير (ص:٣٧٧)

الإحالات المرجعية:

(١) أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي، **الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية**، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين – بيروت، الطبعة الرابعة ١٩٨٧، ج/١، ص ٧٩.
(٢) أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، دار المعرفة - بيروت، ١٩٥٩، ج/ ١، ص ١٣٣.
(٣) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية على الأسئلة الغرناطية**، تحقيق ودراسة محمد حسن، دار المدار الإسلامي، بيروت-لبنان، ٢٠٠٧، ص ١٠٤.
(٤) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٠٣-١٠٦.
(٥) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٠٣-١٠٦.
(٦) محمد حسن، **ثلاث رسائل أندلسية في الطاعون الجارف**، المجمع التونسي للعلوم والآداب والفنون-بيت الحكمة، قرطاج ٢٠١٣، ص ١٢٧.
(٧) محمد حسن، ثلاث رسائل...، ص ١٢٧.
(٨) ابن الخطيب لسان الدين، **نفاضة الجراب في علالة الاغتراب**، تقديم وتحقيق فاغية السعدية، مطبعة النجاح - الدار البيضاء، ١٩٨٩، ج/٣، ص ٩٠.
(٩) عبد الرحمن ابن خلدون، **مقدمة تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر**، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر- بيروت، ١٩٩٨، ج/١، ص ٤٢.
(١٠) عبد الرحمن ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر**، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، تحقيق خليل شحادة، دار الفكر- بيروت، ١٩٩٨، ج/٧، ص ٥١٥.
(١١) عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور الثعالبي، **فقه اللغة وسر العربية**، تحقيق عبد الرزاق المهدي، إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى ١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م، ص ١٠١.
(١٢) مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي، المكتبة العلمية - بيروت، ١٩٧٩، ج/١، ص ٢٥١.
(١٣) محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت. ٣٧٠هـ)، **تهذيب اللغة**، تحقيق محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠١، ج/١١، ص ١٤.
(١٤) الإمام أحمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة-بيروت، د، ت، ج/ ١٥، ص ٤٤٩.
(١٥) ابن ماجه، **السنن**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية-القاهرة، د.ت. ج/٢، ص ١١٧٢.
(١٦) أبو النعيم الأصبهاني (ت. ٤٢٠هـ)، **"الطب النبوي"**، تحقيق مصطفى خضر، دار ابن حزم-بيروت، الطبعة: الأولى: (٢٠٠٦ م/١٤٢٧هـ)، ص ٣٥٤
(١٧) ابن قيم محمد بن أبي بكر الجوزية، **الطب النبوي**، دار الهلال- بيروت، ٢٠١٠م، ص ١١.
(١٨) البخاري، **الصحيح**، تحقيق محمد الناصر، دار طوق النجاة-المدينة المنورة، الطبعة الأولى: ٢٠٠١. ج/٧، ص ١٢٦. (١٢٦/٧)، رقم الحديث: ٥٧٠٧.
(١٩) مالك بن أنس، **الموطأ**، تحقيق محمد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي-بيروت، ١٩٨٥، ج/٢، ص ٩٤٦.
(٢٠) أحمد بن حنبل، **المسند**، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة-بيروت، د، ت، ج/ ١٥، ص ٤٤٩.
(٢١) الوزاني أبو عيسى المهدي، **النوازل الجديدة الكبرى**، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المغرب، الطبعة الأولى،١٩٩٧، ج/١٢، ص ٥٧٣.
(٢٢) محمد المواق والرصاع، **الأجوبة التونسية** ...، ص١٤٨.
(٢٣) ابن الحاج التجيبي القرطبي، **نوازل ابن الحاج التجيبي**، دراسة وتحقيق احمد شعيب اليوسفي، منشورات الجمعية المغربية للدراسات الأندلسية، تطوان، ٢٠١٨م، ج/٢، ص٣٤٩.
(٢٤) الونشريسي أبو العباس، **المعيار المعرب والجامع المغرب في فتاوى أهل أفريقيا والأندلس والمغرب**، تحقيق محمد حجي، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية-المغرب، ١٩٨١، ج/ ١١، ص ٣٥٥.
(٢٥) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٤٥.
(٢٦) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية** ...، ص ١٥٠. الونشريسي، المعيار المعرب...، ج/ ١١، ص ٣٥٥.
(٢٧) الترمذي أبو عيسى، **السنن**، تحقيق بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي- بيروت، الطبعة الأولى ١٩٩٦، ج/٣، ص ٣٢٣.
(٢٨) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٣٦.
(٢٩) محمد حسن، **ثلاث رسائل**...، ص ٢٣٤. ومحمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية** ...، ص ١٣٥.
(٣٠) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية** ...، ص ١٢٩.
(٣١) محمد حسن، ثلاث رسائل...، ص ٢٣٨. ومحمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١١٥.
(٣٢) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١١٥.
(٣٣) أحمد بن حنبل، **المسند**...، ج/٣٢، ص ٢٩٣.
(٣٤) محمد حسن، **ثلاث رسائل**...، ص ١١٥.
(٣٥) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٠٨. محمد حسن، **ثلاث رسائل**...، ص ١٣١.
(٣٦) الونشريسي، **المعيار المعرب**...، ج/١١، ص٣٥٩.
(٣٧) أحمد بن ناصر الدرعي، **الأجوبة الناصرية على بعض مسائل البادية**، المكتبة الوطنية للمملكة المغربية-الرباط، مخطوط ضمن مجموع، رمز المخطوط: ق٦١ب- ١٢٩، ص ٥٠.
(٣٨) الونشريسي، **المعيار المعرب**...، ج/١١، ٣٥٦.
(٣٩) الونشريسي، **المعيار المعرب**...، ج/١١، ص٣٥٩.
(٤٠) ابن رشد أبو الوليد محمد، **مسائل أبي الوليد ابن رشد**، تحقيق محمد الحبيب التجكاني، دار الجيل، الطبعة الثانية، ١٩٩٣، ج/٢، ص ٧٩٢.
(٤١) الونشريسي، **المعيار المعرب**...، ج/٦، ص ٤٢٣.
(٤٢) "الونشريسي، **المعيار المعرب**...، ج/١١، ص ٣٠٣.
(٤٣) ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج**...، ج/٢، ص ٣٩٤
(٤٤) أبو إسحاق إبراهيم بن هلال بن علي الصنهاجي الفلالي السجلماسي، **النوازل الهلالية المعروفة ب "نوازل ابن هلال السجلماسي"**، جمعها ورتبها علي بن أحمد الجزولي، تحقيق أحمد بن عبد الكريم نجيب، مركز نجيبويه الطبعة الأولى ٢٠١٣، ص ٤١٩-٤٢٠. ص٣٩١
(٤٥) الونشريسي، **المعيار المعرب**...، ج/٦، ص ٤٢٣.

(٤٦) الونشريسي، **المعيار المعرب**...، ج/١١، ص ٣٠٣.

(٤٧) البرزلي أبو القاسم، **جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، دار الغرب الإسلامي-بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٢، ج/٣، ص٢٢١.

(٤٨) البرزلي، **جامع مسائل الأحكام**...، ج/ ٣، ص٢٢١.

(٤٩) أبي زرع علي بن عبد الله الفاسي، **الأنيس المطرب لروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢م، ص. ٤٠-٤١. المقدسي، **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، الطبعة الثالثة، مكتبة مدبولي- القاهرة، ١٩٩١، ص ٢٤٢.. عياض أبو الفضل عياض بن موسى اليحصبي السبتي، **ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٨، ج/٨، ص. ١٥٢-١٥٣.

(٥٠) الإمام مالك، **الموطأ**...، ج/٢، ص ٨٩٤.

(٥١) ابن رشد أبو الوليد محمد، **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل لمسائل المستخرجة**، دار الغرب الإسلامي-بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ج/١٧، ص ٣٩٣.

(٥٢) الونشريسي، **المعيار المعرب**...، ج/١١، ص ٣٥٩.

(٥٣) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ٩٤.

(٥٤) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٥٢.

(٥٥) ابن رشد، **البيان والتحصيل**...، ج ١٧، ص ٣٩٨.

(٥٦) محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٥٣.

(٥٧) الوزاني، **النوازل الجديدة الكبرى**...، ج/١٢، ص٥٥٢-٥٨٠.

(٥٨) البرزلي، **جامع مسائل الأحكام**...، ج/٢، ص ٤٨١.

(٥٩) البرزلي، **جامع مسائل الأحكام**...، ج/٢، ص ٤٨٤. محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٧٤.

(٦٠) ابن هلال، **نوازل ابن هلال السجلماسي**...، ص ٤١٩-٤٢٠.

(٦١) البرزلي، **جامع مسائل الأحكام**...، ج/٢، ص ٤٨١.

(٦٢) ابن هلال، **نوازل ابن هلال السجلماسي**...، ص ٤١٩-٤٢٢.

(٦٣) ول وايريل ديورانت، **قصة الحضارة**، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - دار الجيل للطبع والنشر والتوزيع، بيروت/تونس، ١٩٨١، ج/١٧، ص ١٩٧. محمد المواق ومحمد الرصاع، **الأجوبة التونسية**...، ص ١٣٥.

(٦٤) تجدر الإشارة هنا إلى أن العلاقات التجارية تشكل أخطر عامل في انتشار الوباء سواء داخل البلد بين مدنه وبواديه، أو على الصعيد العالمي حيث يكون بالإمكان أن تتحول السفن التجارية إلى وسائل لنقل العدوى. للاستزادة يراجع: محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب**، في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات رقم ١٨، ١٩٩٢، ص ١٦٨-١٦٩.

(٦٥) المعيار، **الونشريسي**...، ج/٦، ص ٤٢٢.

(٦٦) ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج**...، ج/٢، ص ٣٩١

(٦٧) الحسين بولقطيب، **جوائح وأوبئة عهد الموحدين**، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة –الدار البيضاء، ٢٠٠٢، ص ٥٢.

(٦٨) ابن هلال، **نوازل ابن هلال السجلماسي**...، ص٢٤٣-٢٤٤.

(٦٩) أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشد، **فتاوى ابن رشد**، تحقيق المختار بن الطاهر التليلي، السفر الأول – دار الغرب الإسلامي –بيروت، ١٩٩٧، ص ١٢٨٢.

(٧٠) ابن خلدون، **تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر**، ضبط المتن ووضع الحواشي خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت، الطبعة ٢٠٠١، ج/١، ٣٧٦.

(٧١) عبد الهادي البياض، **الكوارث الطبيعية وأثرها في سلوك وذهنيات الإنسان في المغرب والأندلس**، (ق٦-٨ ه/ ١٢-١٤م)، دار الطليعة، بيروت، الطبعة الأولى ٢٠٠٨، ص ٨.

(٧٢) الونشريسي، **المعيار**...، ج/٣، ص ٩٤.

(٧٣) الونشريسي، **المعيار**...، ج/٣، ص ٩٣.

(٧٤) أكروم الحسين، **فتاوى أبي الحسن القابسي**، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب، دار أبي رقراق للطبع والنشر، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص٤٩٩.

(٧٥) ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج**...، ج/٣، ص٤٥٣.

(٧٦) ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج**...، ج/٣، ص٤٥١.

(٧٧) الونشريسي، **المعيار**...، ج/٣، ص ١١٨.

(٧٨) الونشريسي، **المعيار**...، ج/٣، ص ١١٨.

(٧٩) الونشريسي، **المعيار**...، ج/١١، ص ٢٤٠-٢٤١.

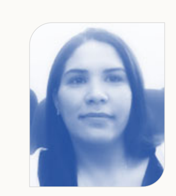
(٨٠) الونشريسي، **المعيار**...، ج/٦، ص ٥-٧.

(٨١) ابن الحاج، **نوازل ابن الحاج**...، ج/٣ ص٦٤٩.

(٨٢) ابن زرب القرطبي، **فتاوى القاضي بن زرب القرطبي**، جمع وتوثيق حميد لحمر، دار اللطائف للنشر والتوزيع- القاهرة، الطبعة الأولى سنة ٢٠١١، ص٢١٢. أحمد بن سعيد بن بشتغيير اللورقي، **نوازل ابن بشتغير**، تحفيف قطب الريسوني، دار ابن حزم- لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨، ص. ١٩٤.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

مساهمة الرقيق في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب المريني



د. فاطمة بوزاد
دكتوراه في التاريخ الوسيط
أستاذة التعليم الثانوي بأكاديمية الرباط سلا القنيطرة - المملكة المغربية

مُلَخّص

كانت أسواق النخاسة وتجارة الرقيق رائجة في المغرب الأقصى خلال العصر الوسيط، وكان الرقيق (السلعة)، من الفئات التي قامت بدور هام في المجتمع المغربي، فعلى غرار جميع الشعوب الوسيطية استكثر المغرب في عصر بني مرين من جلب الرقيق، لتأكيدهم على دورهم اللامتناهي في المجتمع، فالعبيد فضلاً عن كونهم بضاعة تجارية احتلوا موقعًا مهمًا في الدورة الاقتصادية، فقد شكلوا أيضًا ركيزة اجتماعية جوهرية في الدولة التي عملت على إدماجهم في كافة الميادين والاستفادة من خدماتهم ومهاراتهم المتنوعة، سواء تعلق الأمر بمجال التعليم أو الطبخ وتربية الأطفال أو في مختلف الأنشطة الاقتصادية. من خلال هذه النظرة الأولية، تروم هذه المقالة الكشف عن بعض جوانب مساهمة العبيد في الحياة الاقتصادية بالمغرب المريني، سواء كسلعة تباع في أسواق النخاسة وما كانت تدره من أرباح على النخاسين، وموردًا أساسيًا من موارد خزينة الدولة، أو كقوة إنتاجية في الأنشطة الاقتصادية؛ بدءًا من العمل الزراعي ومرورًا بالنشاط الحرفي وانتهاء بالميدان التجاري. إلى جانب مساهمتهم في الحياة الاجتماعية سواء من حيث الأشغال التي كلفوا بها، أو التأثير الذي مارسوه على المجتمع المغربي.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ١٠ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٢ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الرقيق؛ الاقتصاد؛ المجتمع؛ المغرب المريني؛ النخاسة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.346720

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

فاطمة بوزاد. "مساهمة الرقيق في الحياة الاقتصادية والاجتماعية بالمغرب المريني".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٤٧ – ١٥٩.

Corresponding author: fatimabouzad85@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

لم يحظ دور الرقيق الاقتصادي والاجتماعي في العصور الوسطى بالاهتمام من قبل الباحثين والدارسين على كثرة ما كتب عن النشاط الاقتصادي للغرب الإسلامي، ولا يحتاج الأمر إلى كثير العناء لمحاولة التفسير. إذ ثمة مجموعة من الصعوبات تواجه كل من حاول الخوض في هذا الموضوع، وفي طليعتها قلة النصوص المصدرية التي اهتمت بتدوين أخبار الملوك والأحداث السياسية وأهملت كل ما له علاقة بقوى المجتمع الحية. ومن تم لم يسمح شح المعلومات عن دور الرقيق الاقتصادي بالكشف عن الموضوع، مما جعله بعيدا عن متناول الباحثين[١] خاصة في الفترة قيد الدراسة. غير أن التنقيب بدقة عن المادة الدفينة بين طيات مختلف المصنفات وأدبيات التاريخ كحال كتب النوازل والحسبة والأحكام، قمين بإزالة العتمة التي تخيم على الدور المغيب في المصادر الرسمية، ورسم الخطوط الكبرى لهذا الجانب المطموس، الذي ربما يغير معها الكثير من النتائج المطروحة مسبقًا.

لا شك أن سمة التهميش المصدري لنشاط الرقيق الاقتصادي والاجتماعي، ترجع للنظرة الدونية التي أرخت بظلالها عليهم إلى أهل الفكر، الذين دونوا صنوف الشتائم والتقريع على العبيد والأعمال التي تعهد إليهم، فاعتبروا الحرف "تابعة وممتهنة"[٢]، "منتنة"[٣]، "رزيلة دنية"[٤]، لا يمارسها إلا الأرذال البالغين غاية الرذالة[٥]، من الفعلة[٦]، المنحطين في "دركات الخسة"[٧]، والأشبه في احترافها "البهائم التي أظهرت منها الصنائع"[٨]، داعين أهل المروءة والشرف إلى "الأنفة من مشاكلة البهائم"[٩]. ومن تم بات بديهيا أن تترك مثل هذه الأعمال اليدوية للعبيد في إطار النظرة الدونية، وهو ما دفع ببعض الباحثين القول بأنه لم يكن من نصيب الرقيق في العالم الإسلامي خلال العصر الوسيط إلا حرف وضيعة أعرض عنها السادة، وسمحوا لعبيدهم بالقيام بها[١٠].

غير أن هؤلاء المؤلفين، برهنوا بطريقة غير مباشرة عن مهارة العبيد اللامتناهية في العديد من الصنائع، من خلال عقدهم لفصول وأبواب[١١] في كتبهم عن مهارتهم، مما جعل أحد مؤلفي الأدب السياسي يوصي بعدم الجلوس مع الخدام والعبيد، بكونهم قد "يترفعون بك عن مهنتهم فيخل ذلك بخدمتهم"[١٢]. وهو ما يعني أن العبيد لم يكونوا أقل شأنا من الأحرار في تملكهم لمختلف الصنائع الرذيلة منها والحذقة. ولا نعدم من الإشارات عن ذلك، إذ وصفت المصادر الجواري اللائي سباهن موسى بن نصير بالسوس الأقصى أن فيهن " حسن بارع وحذق بصناعات أيديهم"[١٣]. كما كان أول عمل قام به المولى ادريس عند خطه مدينة فاس، أن جلب العبيد من ذوي الصناعات، وصفوا بأنهم "كانوا عمالا مهرة"[١٤]. وبالمثل ذكر الرقيق القيرواني أن إبراهيم بن الأغلب أخذ "في شراء العبيد وأظهر أنه يريد أن يتخذ من كل صناعة صنعة تغنيه عن الرعية في كل شيء من أمورهم"[١٥]. وتفاخر المعز الفاطمي بما أنتجه عبيدة من "بديع الأعمال وغرائب الصنائع التي لا يحكم حذاق أهل المشرق مثلها، وأن ذلك من صنعة عبيده (...) من سبي الروم، وأن مثل ذلك لم يتهيأ مثله لملوك الدنيا مثله"[١٦].

كما لم تغض الطرف بعض المصادر، عن حالة التميز التي ميزت بعض الرقيق خاصة في تملكهم للصنائع، إذ يشير في هذا الصدد ابن الفقيه "بأنهم أهل صناعات وحكم وطب"[١٧]، ونعث الغرناطي رقيق الروم بأن لديهم " صناع كثيرون في جميع الصناعات"[١٨]، وينسحب الأمر كذلك على الجواري الروميات اللاتي "لا يخلو أن يكون بأكفهم صنائع دقيقة"[١٩]. بل خاضت بعض الكتب في صنوف الرقيق، وجعلت لكل صنف خصاله وأوصافه ومهامه، حتى أصبح سهلا على كل من أراد شراء عبدا أو أمة، أن يتجه مباشرة إلى النوع الذي يريده. وبشكل عام أشارت المصادر إلى أن الرقيق نوعان: رجال ونساء، وقد اختص كل جنس بنوع من الصنائع[٢٠].

وبالمثل، تضمنت كتب الأحكام الفقهية حرفة الرقيق وصنائعهم التي تميزهم، إذ نصت على وجوب تضمين عقود البيع والتسليف إلى جانب اسمه ونعثه صنعته إن كانت له صنعة[٢١]. بل أوجب أهل الحسبة على النخاس، أن يكتب "اسمه وصنعته في دفتره"[٢٢]. واعتبروا التدليس في ذلك عيبا موجب للرد[٢٣]، وتفاديا لذلك، كان يتم اختبار الرقيق ذوي الصنعة عند البيع، ومن أجل ذلك وضعت المصنفات "الحدس والفراسة والسياسة في

امتحان من يباع من الرقيق بصناعة"(٢٤). ولعل في إشارة كتب الحسبة للأمينة التي يعهد إليها المشتري، أن " تحمل المرتفعات (...) بإرادة التقليب والاختبار، ولا سيما ذوات الصناعات منهم وتقييم يومها بهم لاختبار صنعتها، فيعطيها على وجه الشكر لها والجزاء على تهممها"(٢٥) ما يؤكد ذلك.

وفي حديثه عن الجواري اللاتي كان يتم تصديرهن من المغرب، ذكر الإصطخري أنهن كن «جواري مثمنات، تأخذ الجارية والخادم من غير صناعة على وجوههما بألف دينار أو أكثر(٢٦)، مما يؤكد على أثر الصنعة في ارتفاع الأسعار. وقد نوقش أمر تعلم العبيد للصنعة من قبل الفقهاء واعتبروها من موجبات البيع، فقد نقل عن مالك قوله " إن الأمة التي لا حرفة لها يكره مكاتبتها لما يؤدي إليها من فسادها"(٢٧). واستنادًا لذلك اشترط الموثقين تضمين صنعة الرقيق المكاتب في عقد المكاتبة، ففي وثيقة مكاتبة مملوك أثبت بها أصله واسمه إلى جانب صفته " الحجام أو الرقام أو الصانع صناعة كذا"(٢٨). وأحيانا كان ينسب الرقيق إلى صنعتهم في عقود عتقهم(٢٩).

كان وعي الفقهاء بأهمية صنعه العبيد وما تدره من أرباح لسادتهم، وراء صدور بعض الأحكام التي ساوت بينهم وبين الأحرار، فقد وردت نازلة عند ابن زيد القيرواني على أنه "من قطع يد عبد نساج أو صانع بيده، ضمن قيمته أجمع ويأخذه، وإن كان على غير ذلك فإنه عليه ما بين القيمتين"(٣٠). كما تم التمييز في أحكام القصاص ما بين العبد الصانع وغير الصانع، حيث نصت الفتوى على أنه مَنْ " قطع يدًا واحدة من عبد فاره صناع فإنه يضمن قيمته لربه ويعتق عليه"(٣١). وهو حكم يتماهى مع رغبة الأسياد في الحفاظ على العبيد المتمكن من حرفة أو صنعة تعود عليهم بالربح الكثير.

وعليه، يبدو جليًا أهمية الرقيق في الحياة الاقتصادية والاجتماعية، جعل الإقبال عليه يتزايد مع توسع البلاد الإسلامية، وفي بناء صرح حضارتها. حيث استطاعت هذه الفئة أن تنصهر داخل المجتمع لتصبح عنصرا فاعلا في الحياة الاجتماعية والاقتصادية. والدولة المرينية لم تكن لتشد عن هذه القاعدة، حيث اعتمدت على العبيد في جميع مناحي الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وحتى السياسية.

أولاً: مساهمة الرقيق في الحياة الاقتصادية

١/١-الرقيق السلعة

كان الرقيق شأنهم شأن الدواب، يعتبرون سلعة يتحدد سعرهم بحسب أصلهم واستعمالهم، لدى بحث التجار عن مناطق التموين بهذه البضاعة الهامة، فاستوردوه من بلاد الترك بأسيا الوسطى ومن بلاد الصقالبة، ومن مناطق قديمة كالنوبة والحبشة وسواحل أفريقيا الشرقية، ومن السودان الغربي الذي شكل على مر تاريخ المغرب المصدر الأول لتجارة الرقيق.

وقد لاحظ عبد العزيز العلوي أن المغرب أصبح يقبل على هذه البضاعة (العبيد السود) أكثر منذ العصر المريني، بسبب ركود ذلك التدفق الهائل من الأسرى المسيحيين من شبه جزيرة إيبيريا منذ هذه الفترة(٣٢). بالإضافة إلى نهجهم لسياسة صحراوية اعتمدت على الإبقاء على الوجود التجاري المغربي قويًا مع إمبراطورية مالي، في وقت أصبح فيه منافسا بشدة من قبل باقي بلدان الشمال الإفريقي(٣٣). فقد مثلت النخاسة وما تدره من أرباح، مصدرا هاما من مصادر الثروة خلال الفترة التي تهمنا وموردًا أساسيًا من موارد بيت المال، فعائداتها الضخمة وظفت في شراء الكماليات وتمويل الحملات العسكرية لرد الهجمات المسيحية على الوجود الإسلامي بالأندلس(٣٤).

فقد ظل السودان الغربي ما بين القرن الثاني الهجري والتاسع الهجري الممون الرئيسي للمغرب فيما يخص مادة الذهب والعبيد، ذلك أن الرقيق (البضاعة) احتل المكانة الثانية بعد الذهب نظرًا لكون العبيد السود أبهظ ثمنا من أولئك الذين كان يحصل عليهم المغربي في حركاته الجهادية في الأندلس(٣٥).

وإذا ما حاولنا الحديث عن الإطار السياسي الذي ينظم وجود الرقيق، فأول ما يجب الإشارة إليه هو مصدر هؤلاء العبيد، فمن الناحية السياسية يبقى المصدر الأول خلال العصر الوسيط بصفة عامة هم أسرى الحروب، الذين يتحولون بموجبها إلى أرقاء إلى جانب الدواب، ذلك أن بيعهم لتجار النخاسة من شأنه أن

يوفر عائدات مالية ضخمة بالنسبة لخزينة الدولة، وهو ما يفهم من إشارة واردة في الأنيس المطرب عن أهمية هذه الغنائم المتمثلة في «البقر والغنم والخيل والدواب والعلوج والروميات والذراري والبغال والحمير،(...) واجتمع السبي على شنيل وفاضت الغنائم فيض النيل"(٣٦)، ولا نعدم من القرائن الدالة على هذا الاستنتاج، فبعد الجواز الثاني لأبي يوسف يعقوب [٦٧٨-٦٧٧هـ] إلى الأندلس، "امتلأت أيديهم بالغنائم والسبي(...) فقسم ما أفاء الله تعالى من الغنائم بين المجاهدين، فبيعت الرومية من هذا السبي بمثقال ونصف لكثرتهن"(٣٧). وترد في هذا المضمار إشارات عديدة في المصادرعن السبي المسلم وغير المسلم، فكل حملة عسكرية أو غارة تذيل في نصوص الفترة المدروسة إلى مقدار ما غنمه المنتصر، مما غرم من المنهزم من أسرى وسبايا(٣٨)، سواء داخل المغرب الأقصى أو مع الواجهة الشرقية ضد الزيانيين وافريقية، أو مع الواجهة الشمالية ضد نصارى اسبانيا، من قبيل؛ "فاجتمع من الخيل والبغال والحمير والبقر والغنم والنساء والذرية (...) ما ملأ السهل والوعر، ولا يحويه عد ولا حصر، حيث بلغ عدد الأسرى حوالي ثلاثين وثمانمائة وسبعة آلاف"(٣٩)، و"تساق أمامه وتقاد الروم بين يديه في الأصفاد مُقَرَّنين"(٤٠)، و"غنموا عددا هائلا من (...) الخيل والعبيد"(٤١)، "يقتل ويأسر ويسبي"(٤٢)، و"اكتسحها سبيا"(٤٣). لقد كان من شأن هذه الصدامات المسلحة أن تخلف وراءها سبيا وأن تؤجج نار الاسترقاق، التي شكلت للنخاسين المرافقين للجيوش مصدرا لسلعهم بأبخس الأثمان، فكثيرًا ما كان يتفق على بيع الأسرى عقب الفوز في المعركة بثمن بخس ليعاد بيعهم مرة أخرى في أسواق النخاسة، بعد تلقينهم وتدريبهم حسب متطلبات السوق بغية تحقيق الربح المؤكد.

إذ جرت العادة بعد كل معركة أن يتم تجميع الأسرى وعدهم لأخذ خمس الدولة(٤٤)، حيث تحتفظ الدولة لنفسها بالأسرى ذووا المكانة الاجتماعية الرفيعة أو يحتلون مرتبة عليا في مراتب الدولة المنهزمة حتى يتم افتداؤهم بمبالغ ضخمة تضخ في خزينة الدولة، ويوزع الباقي على أعضاء الجيش كل حسب مرتبته، لتبدأ فيهم عملية البيع والشراء(٤٥)، وبطبيعة الحال كان يتم تحديد ثمن البيع حسب سن وجنس والحالة البدنية لكل أسير.

وقد كان كثيرًا ما يتم تكليف هؤلاء الأسرى في أعمال السخرة، فكما هو وارد عند ابن أبي زرع أن بناء الجامع الأعظم بفاس الجديدة سنة (٦٧٧هـ/ ١٢٧٨م)، استخدم فيه أسرى الروم بقوله: " لم يخدم في بناء هذا الجامع الكبير من المعلمين إلا أسرى الروم الذين قدم بهم من الأندلس"(٤٦). أما الأسرى والسبايا الذين لحقهم البيع والشراء، فينتهي بهم الأمر إلى بيوت أسيادهم للاشتغال بأعمال البيت، أو الفلاحة، أو الصناعة، أو التجارة، حيث استخدموا على غرار العبيد الأرقاء في تدبير شؤون البيت؛ من طبخ وسقاية الماء، وتنظيف الثياب، وتربية الأطفال وإرضاعهم، وهناك من استخدم في الأعمال الشاقة كما سبق الذكر.

أما من الناحية الاقتصادية، استفادت الدولة من النخاسة عبر الضرائب التي كانت تفرض على تجارها وهو ما أكده الحسن الوزان بقوله: "ويباع في نفس هذا السوق (سوق الخضر)، العبيد السود وتؤدى الضريبة عمن يباع منهم"(٤٧)، ويمكن أن نعمم هذه الضريبة على كافة أسواق العبيد بالمغرب، لأن الدولة كانت تراقب أسواق العبيد وأسعارهم بواسطة المحتسب الذي يسجل كافة المعاملات المالية التي تتم في الأسواق، ورغم ذلك كانت أسعار العبيد والسلع الغذائية تشهد أكبر التقلبات تبعا لفترة الحرب والسلم لسنوات الرخاء والقحط، ولما كان المغرب يحصل على العبيد بواسطة الشراء في الغالب، فإن مراقبة النخاسين ومراجعتهم في أثمان العبيد قد ارتفعت كثيرا في عهد المرينيين(٤٨).

ومن ناحية أخرى، جعلت الدول التي نشأت بالمغرب من النشاط التجاري القائم على أساس مراقبة الطرق التجارية، واحتكار تجارة الذهب والرقيق قاعدة ضرورية ومرتكزًا أساسيًا لبناء التنظيمات السياسية والاجتماعية والعسكرية(٤٩)، ذلك أن العائدات المستخلصة من بيع الذهب والرقيق إلى أوربا وبلدان المشرق العربي، كانت تستفيد منها الدولة عبر الرسوم الجمركية التي كانت تفرضها الدولة على التجار العابرين لأرضها، ومن أنواع الضرائب التي حققت دخلا كبيرا للخزينة المرينية تلك الضريبة التي كان يدفعها التجار بصفة خاصة، والتي

أطلق عليها اسم "اللوازم" المخزنية[٥٠]، بالإضافة إلى المكوس[٥١]، التي كانت تفرض على السلع المارة في أماكن العبور، وباعتبار أن الرقيق- "البضاعة"- كان سلعة يتم نقلها من مكان لأخر فحتما كانت تفرض عليه هذه الضرائب.

ولأجل ذلك، سهر المرينيون على تأمين طرق المواصلات بين مدن الدولة، فاستحدثوا تنظيمات جديدة على طول الطرق التي تربط المدن التجارية، كمراكش وتلمسان وسبتة وسجلماسة وغيرها من المدن، وسميت هذه التنظيمات "بالرتب" وهي عبارة عن خيام تقام على مسافات متساوية تقدر باثني عشر ميلاً، يسكنها أهل المنطقة التي تقام بها ويمنحون اقطاعًا من الأرض على قدر كفايتهم، وتلزمهم الإدارة المرينية ببيع الشعير والطعام وما يحتاج إليه المسافرون[٥٢]، وهو ما أكده لنا ابن مرزوق بقوله: "فلا يزال المسافر كأنه في بيته و بين أهله في ذهابه وإقباله"[٥٣].

ومن المؤكد أن السلاطين المرينيين ساهموا أنفسهم في تقنين تجارة الرقيق التي كان يلعب فيها المغرب دور الوسيط بين الحوض الأبيض المتوسط والمشرق والسودان الغربي[٥٤]، وذيوعها من خلال تنظيم أسواق النخاسة في المدن التي لم تتوفر على أسواق للعبيد، كمدينة تارودانت التي "اتخذوها قاعدة للإتجار برقيق الزنوج"[٥٥]. كما أشار كل من الحسن الوزان[٥٦]، وابن الخطيب[٥٧] إلى بيع العبيد السود في نفس سوق الخضر بمدينة فاس، التي وصفها ابن عباد بأنها متسخة على الدوام[٥٨]. كما امتازت مدينة سلا بأسواقها "الممتازة حتى برقيق الحبشان"[٥٩]. وقد كان الطلب المتزايد على الرقيق وراء انتشار أسواقه بجميع مدن المغرب حسب قول الونشريسي، ب «أن كل سوق من أسواق المغرب كان يحوي مكانا لبيع الرقيق"[٦٠]. إلى جانب القيام بعمليات تجارية تستهدف المتاجرة بالرقيق، حيث تشير المصادر إلى تكليف أبي عنان[٧٤٩-٧٥٩هـ] الرحالة ابن بطوطة للقيام برحلة إلى مالي، والتي كانت تصطحب حوالي ستمائة خادم كما سبق الذكر، وربما كانت عائداتها لفائدة الدولة، بل إن هناك من رأى أن الهدف الحقيقي من وراء الرحلة هو القيام بدراسة عملية للطرق التجارية التي تربط الدولة المرينية بمالي[٦١].

ويبدو أن إجماع الدارسين على أن تجارة الرقيق كانت أساسًا من الأسس التي أنبنى عليها اقتصاد المغرب الوسيط[٦٢]، له ما يؤكده في مضان الأدب النوازلي، المليئة بالفتاوى التي تهم الرقيق البضاعة، وما كان يعتريها من تدليس في البيع، ونظرًا للعائدات الضخمة التي كانت توفرها تجارة الرقيق فإن كثيرا من النخاسين أصبحوا يبيعون الأحرار على أساس أنهم عبيد[٦٣]. واستحلوا المسلمين رغم ما أثير فقهيًا حول تجارتهم، إذ يشير الونشريسي إلى ظاهرة بيع المسلمين بقوله " ويأخذ وحرم الإسلام أبكارًا وثيبًا قهرًا"[٦٤]، أي أن هؤلاء النسوة كن حرائر مكرمات، وأصبحن أسيرات يبعن ويشترون في أسواق النحاسة ببخس الأثمان. وقد عبر الناصري عن سخطه من استرقاق المسلمين بقوله عن أهل السودان "بأنهم من أحسن الأمم إسلاما"[٦٥].

هكذا يبدو أن الدولة المرينية استطاعت تحقيق أرباح وفيرة من خلال الرسوم التي فرضتها على العمليات التجارية، ومنها الرقيق الذي كان ضمن السلع، سواء من المستورد أو المصدر مع السودان أو مع الغرب المسيحي، أو من الأسواق الداخلية.

٢/١-الرقيق والنشاط الاقتصادي

ساهم الرقيق بشكل كبير في تطوير وإنعاش الجانب الاقتصادي في المغرب المريني، فإلى جانب كونه سلعة تباع في أسواق النخاسة، فقد شكل أيضا قوة منتجة، خاصة في المجال الحرفي والفلاحي. وهو ما حدى بأحد الباحثين إلى اعتبار العبيد "القوة المحركة في العمل الجماعي في المزارع الكبرى وفي المناجم"[٦٦].

لا نكاد نعثر على ما من شأنه أن يبين لنا عمل الرقيق في المجال الفلاحي على عهد بني مرين، وربما ذلك مرده إلى تميز هذا العصر بكثرة الحروب والغصب والتعدي لقبائل بني مرين المنتجعة، وهو ما يبدو أنه أفضى إلى "قبض الناس أيديهم عن الفلح في الأكثر"[٦٧]، ونزوح جماعي للفلاحين اتجاه المرتفعات فرارا من النهب والتعدي والغارات التي بفعلها "معظم البادية (...) غير مأهول"[٦٨]. اللهم بعض الإشارات التي تفيد شيوع استعمال الرقيق في بعض الأعمال الفلاحية كحفر الآبار وسقي الماء[٦٩]. في حين تكثر الإشارات حول استعمال الرقيق في العمل الحرفي والتجاري، كاستخراج الملح

وسبك النحاس، فابن بطوطة يتحدث عن عبيد مسوفة الذين يعملون في مناجم الملح(٧٠)، واستخراج معدن النحاس في نواحي تكدا(٧١). ومنها مناجم مدينة تغازي التي تقع جنوب سجلماسة والتي "لا يسكنها إلا عبيد مسوفة الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من السودان"(٧٢)، وفي رواية أخرى أن عبيد مسوفة "شغلهم (...) جمع الملح طول السنة، يأتيهم القفل في كل سنة مرة يبيعون الملح ويأخذون من ثمنه قدر نفقاتهم، والباقي يؤدونه إلى ساداتهم من مسوفة"(٧٣). إن اقتصار عملية استخراج المعادن على العبيد السود هو راجع بالأساس إلى بنيتهم الجسمانية القوية القادر على الأعمال الشاقة، والتي تتناسب وطبيعة هؤلاء على نحو خاص.

وارتباطًا بالتعدين، استخدم الرقيق في بعض الصناعات المرتبطة بسبك الحديد والنحاس، إذ جرت العادة أن يعهد حكام فاس إلى "الأسرى المسيحيين أن يصنعوا (...) أدوات من الحديد وأشياء أخرى(...) كانوا يصنعون الأسلحة والذخيرة"(٧٤). وحسبما أورده ابن الأحمر، فإن الموالي بالمجتمع المريني، احترفوا " سبك الحديد وآلة الحرب، وصنعة نحاس (...) والضرب للدنانير والدراهم وحلي النساء"(٧٥). مما يعني تمكن الرقيق من جميع الصناعات، بل والاستفادة منهم على نحو كثير.

ومن الحرف التي اعتبرها المؤرخون وكتب الحسبة من صنع الأرذلين(٧٦). وامتهنها أهل الذمة والرقيق بفاس المرينية، نجد؛ "الدباغة والحياكة والخرازة (...) والشرب بالطبول والبنود، والحجامة وحمل الموتا وحفر قبورهم (...) وطحن برحا وخرط عود، (...) ومبيت بالأسواق بالليل، وحرس الفنادق، وتسمير البهائم(...)خياطة الملف والثياب وضفر القيطان الذي يخاط مع الثياب، ونسج العقد، وحجامة، وبلاجة، ودلالة بالأسواق، وبيع لبن ممخوض، وبيع وإصلاح نعل مخروز، وطبخ الخبز والسفنج والشواء، وصنعة القدور للطبخ وبيعها، وعصر الزيت وحمله، والصابون (...) وخدمة حمام، وسقي ماء (...) وحفر بير"(٧٧). وهو ما يعني أنه كان للرقيق دور لا متناهي في جميع الحرف والصناعات.

إلى جانب الحرف والصنائع، أثبت الرقيق جدارته في العمليات التجارية، حيث كثيرا ما كان للتجار أعوان من الخدم والعبيد(٧٨)، وهو ما أشار إليه الإدريسي، على "أن تجار أغمات كانوا يتوغلون في البلاد السودانية، ويعهدون بتجارتهم إلى عبيدهم"(٧٩)، وهي نفس الإشارة التي سجلها ابن خلدون في الفترة قيد الدراسة عن بعض التجار الذين كانوا يترفعون عن المتاجرة فيدفعون إلى من يقوم لهم بذلك من ولائهم وحشمهم(٨٠). وهو ما تؤكده إشارة أخرى عن تكليفهم بحمل "السلوع من بلد إلى بلد"(٨١). إلى جانب امتهانهم البيع. إذ احتل الرقيق موقعا مهما في الأسواق المغربية حسب ما هو وارد في المصادر، عن بيعهم "للنعال المخروزة، والحياك والجلاليب (...) واللحم (...)، وبيع أدوية وعشب (...) وخرط مرجان وبيعه"(٨٢). دونما أن نهمل دور الرقيق المؤنث في الاقتصاد المحلي والمشاركة في الحياة العامة، كشهرة إماء أوذغشت بصنع الحلويات، وبيعها في الأسواق المغربية(٨٣). إلى جانب اشتغالهم في الحمامات(٨٤).

ثانيًا: مساهمة الرقيق في الحياة الاجتماعية

رغم كون العبيد بضاعة تجارية احتلوا موقعا مهما في الدورة الاقتصادية، فهم أيضا ركيزة اجتماعية جوهرية في الدولة التي عملت على إدماجهم في كافة الميادين والاستفادة من خدماتهم ومهاراتهم المتنوعة، سواء تعلق الأمر بمجال التعليم أو الطبخ وتربية الأطفال أو في المجالات الاقتصادية.

لهذا تعددت الآراء في المجتمع الإسلامي حول خصال الأجناس المختلفة من الرقيق المعروضة في أسواق النخاسة، فخصصت كل جنس بخصائص محددة تراه أحسن من غيره، وهو ما أدى إلى تأليف مجموعة من الكتب التي تقنن هذه التجارة، حيث تطرقوا إلى أجناس وأوصاف كل أنواع الرقيق، وما يتميز به، وأهم العيوب التي تبطل البيع، كما تطرقوا إلى الأوصاف ودلائل الفراسة، وحيل النخاسين، وتعتبر هذه الكتب حصيلة تجارب وثقافات موروثة في ميدان تجارة العبيد. وقد أشار السقطي، إلى أن التمييز بين أجناس الرقيق وتصنيفها حسب خصائصها واختصاصاتها قد صار فنا

من الفنون يتكلم فيه الناس ويطنبون إذ يقول في ذلك: " وقد تكلم الناس في الممالك وأصنافهم وصورهم وأخلاقهم وما يصلح له كل نوع منهم وخاضوا في ذلك كل الخوض"(٨٥).

٢/١-مجالات استخدام الرقيق

ظلت الحاجة دائمة إلى الرقيق، للقيام بالعديد من المهام الاجتماعية التي تستوجب وجود طاقات بشرية إضافية، كخدمة البيوت وتربية الأبناء والإرضاع والغناء والتسري والطهي وأعمال السخرة وغيرها من الأعمال داخل وخارج البيت، وقد اجتمعت مختلف هذه الخصال في العبيد، نظرًا لما امتازوا به من صفات جسمانية وسلوكية على أداء الخدمة، حتى أضحت قاعدة للتميز بين أنواع الرقيق بناء على خصالهم، نشط التأليف فيها، وجعلت من: "الخادم البربرية للذة، والرومية لحيطة المال والخزانة، والتركية لإنجاب الولد والزنجية للرضاع والمكية للغناء والمدنية للشكل والعراقية للطرب والانكسار، أما الذكور فالهند والنوبة لحفظ النفوس والأموال والزنج والأرمن للكد والخدمة ومعها العطاء والترك والصقالبة للحرب والشجاعة "(٨٦). إلى جانب تعليمهم من طرف النخاسين لمختلف الأعمال والصنائع للاستجابة لمتطلبات السوق. وقد اختلف العبيد الرجال عن الإماء من حيث الاختصاص، إذ حدد لكل منهما نوع محدد من الوظائف، وذلك لأنه: "طبع الرجال على جميع الصنائع، واختص النساء بالغناء والغذاء فهن أطيب طبيخا منهم لثباتهن في العمل وأحسن غناء لأنهم مطبوعات على النغم"(٨٧). وتبعًا لذلك، عمل النخاسون على إعداد العبيد والإيماء بتلقينهم مختلف العلوم والصنائع، حيث اختلفت أثمانهم باختلاف ألوانهم وخصائصهم المهنية وقوتهم الجسمانية ودرجة جمالهن.

ولعل أبرز الرقيق التي لقي إقبالاً في أسواق النخاسة، رقيق خدمة البيوت، إذ فاقت الحاجة إليهم في هذه الخدمة حاجتهم في باقي الميادين، حيث لا تكاد تخلو أي إشارة من استعمالهم في أمور تدبير البيوت والأعمال المرتبطة بها، ويبدو أن هذه المهمة كانت أكثر التصاقا بالرقيق الأسود على مر تاريخ المغرب الوسيط، إذ ساعدت العلاقات التي كانت تربط بين المغرب المريني والسودان الغربي على تنشيط العلاقات التجارية، التي ارتبطت بالذهب والملح والرقيق والعاج(٨٨)، بل إن الدافع الأساسي لاختيار تجار المغرب، لمنطقة السودان الغربي يكمن في اشتهارها بكثرة أسواق النخاسة (٨٩). حيث كان الرقيق الأسود المصدر الأكثر أهمية لبلاد المغرب في العصر المريني، وإن كان دون الرقيق الأبيض في المنزلة، حظي بإقبال كبير من طرف الأسر والبيوتات الكبرى بالنظر إلى صبره على الأعمال الشاقة التي لا يطيقها غيره، وكذلك لوفائه وإخلاصه لمالكه، بالقياس إلى تصرفات الرقيق من عناصر أخرى(٩٠).

فإتقان الجواري السود للطبخ أثار انتباه المغاربة منذ زمن مبكر، فقد أشار البكري إلى وجود "طباخات محسنات تباع الواحدة منهن بمائة مثقال وأكثر، تحسن عمل الأطعمة الطيبة من الجوزينقات والقطائف وأصناف الحلوات وغير ذلك"(٩١)، وقد شجعت مهارتهن على اقتنائهن من قبل المغاربة، وهو ما يبدو واضحا من رحلة ابن بطوطة الذي ذكر أن القافلة التي انتقل معها من تكدا إلى المغرب كانت تضم نحو ستمائة خادم(٩٢). كما كان امتلاكهم من مؤشرات البذخ والترف، ولهذا انحصر الإقبال عليهن من طرف الفئة الثرية من المجتمع المغربي، إذ أن الحصول على المتعلمات من العبيد السود كان نادرا وبالثمن الكثير حسب ما يفهم من حديث ابن بطوطة عن صعوبة شراء خادمة له عند دخوله مدينة تكدا(٩٣).

لم ينحصر عمل العبيد داخل البيوت فقط، بل أوكلت إليه بعض الأعمال خارج البيت كالسقاية والحطب وغيرها، إذ تذكر المصادر أن الموالي، من اليهود، والبربر خاصةً أهل الحاضرة منهم امتهنوا حرفة السقاية(٩٤)، حيث كان "يبعث منازل أعيان فاس من يستقي لهم ماء العين لأنه أكثر عذوبة"(٩٥) في الصيف. إذ كان من شروط الزيجات خاصة بنات الأعيان أن يتضمن مهرهن التزاما بتوفير رقيق الخدمة ليعينهم على أعمال البيت الشاقة. ومن القرائن الدالة على ذلك، ما تضمن عقد زواج الحرة عزونة بنت السلطان أبي يحيى أبي بكر على سلطان المغرب أبي الحسن المريني [٧٣١-٧٥٢هـ] بصداق جملته خمسة عشر ألف دينار ذهبا ومائتا خادم(٩٦). ولما كان الحصول على الخدم السود نادرًا وبالثمن الباهظ، فقد أقبل المغاربة على الوخش منهم –

الزنوج والحبش- بأعداد كبيرة، بالنظر إلى أسواقه العديدة، ولتحمله للأعمال الشاقة وكذا لثمنه البخس، حسب ما يفهم من كلام ابن الخطيب عن" تعدد الخدام"[٩٧] بمدينة فاس.

وحسبنا أن الجانب المهاراتي لم يكن وحده وراء إقبال المغاربة على الجواري السود، بل نجد في ثنايا المصادر اعترافات بجمالهن وشبقهن، فهن " جواري حسان الوجوه، بيض الألوان، منثيات القدود، لا تتكسر لهن نهود، لطاف الخصور، ضخام الأرداف، واسعات الأكتاف، ضيقات الفروج المستمتع بإحداهن كأنه يتمتع ببكر أبدا"[٩٨]. ومدام كان هناك خبراء النخاسة فهم بلا شك نوهوا بنساء أودغشت.

وتُعَدّ مسألة التسري بالإماء من أهم الظواهر البارزة التي ميزت المجتمعات الإسلامية في العصر الوسيط، والمجتمع المريني لم يخرج عن هذا النطاق، فتراجم كثير من الأمراء والسلاطين في الكتب التاريخية، تحدد كيف أن كثيرا من أمهات هؤلاء الملوك والسلاطين هن جواري، ينحدرون من أصول مختلفة خاصة من جنس الصقالبة والروم، حيث كان الإقبال عليهن كبيرا للانتفاع بجمالهن والتمتع بأجسادهن، وكذا تحسين نسلهم بهن، فضلا عن ثقافتهن فعادتهن أن يكن مثقفات ثقافة جيدة، ولهذا نجدهن بكثرة في حريم السلاطين والملوك، فهن إما محظيات أو زوجات لهم، وعندما تصبح أم ولد فهي تحظى بمنزلة بين المنزلتين، أي بين الحرية والعبودية، وإذا ما عدنا إلى النصوص المصدرية نجد أغلب سلاطين بني مرين، هم أبناء إماء ونذكر على سبيل المثال لا الحصر؛ السلطان أبي عنان فأمه مولدة عربية اسمها غزاله، والسلطان أبى سالم [٧٦٠-٧٦٢هـ] أمه رومية اسمها قمر[٩٩].

لم يقتصر الأمر على السلاطين والوجهاء، بل أقبل عامة الناس وحتى الفقراء منهم على اتخاذ السراري والمحظيات واقتنائهن لرشف المزيد من اللذة الجنسية، على الرغم ما كانت تطرحه من مشاكل اجتماعية تتعلق بولد الأمة ووطئها، والارث والعتق وغيرها.

الحاضنات: ويختص بهذه الوظيفة عبيد النوبة، وذلك لخصالهم الحسنة ولمعرفتهم بأحوال الأطفال وبوجوه التعامل معهم، إذ يقول ابن بطلان في هذا الشأن: «يختار لتربية الأطفال النوبة لأنهن من جنس فيه رحمة وحنين على الولد وليس يلقن الطفل لغة بشعة"[١٠٠]، فأخلاقهن ظاهرة، وأجسامهن لينة، وصورهن مقبولة، وفيهن دين وحرية وعفة وتصون، وإذعان للموالي، كأنهن فطرن على العبودية[١٠١].

الخزان: ويؤدي هذه المهمة رقيق الروم وذلك لحفظ الأموال، فهم ذوات طاعة وولاة وموافقة وخدمة ومناصحة ووفاء ومحافظة وأمانة، يصلحن للخزن لضبطهن، وقلة سماحتهن[١٠٢]، وتؤكد هذه الصفة التي امتاز بها الرقيق الرومي إشارة مصدرية أوردها العمري عن السلطان أبي الحسن عندما كان وليا للعهد، حين أزاحه أبوه السلطان أبو سعيد [٧١٠-٧٣١هـ] عثمان من ولاية العهد عقابا على جرحه للخادمة قمر بعدما أبت أن تملكه مفاتيح مخازن بيت المال[١٠٣].

القيان: وهن الجواري المتخصصات في الغناء والرقص والعزف، أي اللواتي كانت لهن قدرة بالغة على الإبداع في صنعة الغناء، حيث تواجدوا داخل القصور وعند الأسر المترفة، فقد ذكر الونشريسي أن بعض الجواري كن يتمتعن بموهبة الغناء، إذ أشار إلى رجل من أهل المغرب كان يقتني جارية تغني في المناسبات الاسرية مقابل أجر معلوم، ويضيف بأنه لم يكن يجوز لمولاها أن ينتفع بأجرها، وكان عليه أن يتصدق بهذا المال إذا ما توفيت[١٠٤].

وقد وجد الرقيق القيان بكثرة في البلاط المريني، حسب ما أورده النميري، عن عادة استقبالهم للسلاطين بعد عودتهم من خرجاتهم الجهادية بما نصه "أن الجواري اندفعن بإفراق السعيد يغنين فرحا بالتلاقي، وطربا بمشاهدة المولى الراقي"[١٠٥]، كما اعتمدت عليهم الدولة في بث العزيمة في نفوس المقاتلين، وبعث روح الكفاح والانتصار على العدو، كما هو وارد لدى نفس المؤلف، أنه «بباب كل هودج جارية عليها الحلل والحلي، رائعة الجمال يحسد محياها البدر وجيدها الظبي. وجميعهن يغنين بذكر أيام الحروب والملاحم التي طال بها عن المضاجع تجافي الجنوب. داعيات إلى ركوب الجياد، والكر إلى مآزق الجلاد وسل السيوف الباترة من الأعماد، والطعن الدارك بالسمر الصعاد، وطلب الثأر بالعزائم المحتدم أوارها، والضرائم المحشوذ غرارها،

والحفائظ المشبوبة نارها، والمدافعة عن الحريم، والذياد عن الحمى المنبت للحميم، والحماية للحقائق والتوائح للمضايق"[١٠٦].

وتجدر الإشارة إلى أن السلاطين المرينيين، استكثروا من عبيد البلاط، حيث اقتضت الأوضاع التي كانت تعرفها الدولة المرينية، مضاعفة أعداد الأرقاء انطلاقًا من الحروب وتكوين جيش من العبيد يتألف بالأساس من" الأعلاج الرومية والممالك الزنجية والأجناد الأندلسية والطوائف التركية والتترية والأفاريق العراقية والشامية اليمنية والمهدية وسائر التركمانية"[١٠٧]، حيث كان من شأن انعدام الثقة في العصبية الحاكمة، اتخاذ الحكام والسلاطين لجيوش نظامية تتألف من شتى أنواع الرقيق. واتخذوا حرسا للبلاط السلطاني، يتألف من الوصفان السود والمماليك، وكانت مهمتهم في الغالب حماية السلطان، كما جاء عند القلقشندي أن "السلطان كان دائما محاطا بعبيده ووصفانه ونقباءه"[١٠٨]. كما اتخذوا الجواري على نطاق واسع، حيث كان لهن دور مهم في الحروب والتغني بأيامها، فقد كان من عادة الجيوش المرينية أن ترافق "الجواري زوجات الأعلاج والوصفان والممالك الحشان الشجعان وجميعهن يغنين بذكر أيام الحروب والملاحم "[١٠٩].

وقد تمكن كثير من هؤلاء الرقيق من نيل مناصب عليا في الدولة، فعلى سبيل المثال لا الحصر استطاع كل من عتق مولى السلطان يعقوب وعنبر الخصي من تولى منصب الحجابة [١١٠]، والسعود بن حرباش الذي ولي على مدينة فاس في عهد الأمير أبي يحيى[١١١]. كما أن كثيرا من الصقالبة الموالي تمكنوا من بلوغ رتبة الوزارة في عهد هذه الدولة، كفرج الخصي الذي تولى الوزارة في عهد السلطان عبد الله بن يعقوب[١١٢]. بل إن كثيرًا من هؤلاء العبيد تطاولوا على السلطة وتمادى بهم الأمر إلى قتل السلاطين كما حدث مع السلطان يوسف الذي قتل على يد عنبر الخصي أثناء حصاره لمدينة تلمسان[١١٣].

البغاء: تعرضت بعض الإماء لاستغلالات اجتماعية، ففضلا عن فقدان الحرية والعيش في بلد غير بلدهن، وانتقالاتهم المكررة من سيد لآخر، عمل النخاسون كذلك على استغلال الرقيق المؤنث وتاجر بأعضائهم وأجبرهم على ممارسة البغاء[١١٤]، وهي عملية مربحة ولا تكلفه جهدا، بدليل غوص كتب الحسبة فيها، حيث يكشف نص للسقطي[١١٥]، عن استغلال النخاسين للإماء والمتاجرة بهن، إذ يسرد حديثا دار بين رجل ونخاس يقول له: "خمسة دراهم تعطيني والله حينئذ أسوقها لك، وأعطاه صاحبه الذي طلب ثم خرج عنا وغاب قليلا وجاء بخادم سوداء (...) وأشار لها إلى غرفة بالبرانية المذكورة فطلعتها وطلع صاحب الدار بعدها وخلى بينهما ومشى لوجهه"[١١٦]. رغم محاربة القضاء لمثل هذه الأعمال وفقا لما تنص عليه الشريعة الإسلامية، إلا أنه في كثير من الأحيان ما كان يتم تقنينها ودفع الجواري للدعارة لكسب الأموال، انتشرت بيوت فساد للعبيد، وهو ما أشار إليه الوزان بمناسبة حديثه عن فنادق فاس المليئة بـ "الباغيات المرتزقات"[١١٧]. وقد كان النخاسون يقومون ببيع أولاد الجواري الذين ينتجون من مثل هذه البيوت[١١٨].

تعكس وظائف العبيد مظهرا من مظاهر التراتبية، إذ هناك من حالفهم الحظ في الوصول إلى أعلى المناصب، والمشاركة في الأحداث السياسية، والاقتصادية والاجتماعية، وهناك من ظل قابعا في أسفل الطبقات المكونة للمجتمع المريني، وشكل شريحة عريضة من طبقة العامة، ارتبط دورهم بالأعمال المنزلية والعسكرية كما هو الشأن في المجتمعات الأخرى[١١٩].

٢/٢-تأثير الرقيق على الحياة الاجتماعية

ولما كانت الغالبية العظمى من الرقيق مرتبطة بالأعمال المنزلية، فالأمر جعلهم أكثر ارتباطا بالعائلات والحياة اليومية، حيث مارسوا على إثرها عدة عادات وطقوس ارتبطت بثقافتهم، جذبت عددًا كبيرًا من الناس، الشيء الذي كان له الأثر الكبير على المجتمع المحلي. وفي هذا المضمار يشير الحسن الوزان إلى وجود كناوة في مدينة فاس[١٢٠]، وهم سودان يعزفون موسيقى إفريقية[١٢١]، وطقوس ورقصات وأهازيج حملوها معهم، ومع مرور الوقت صاروا يمارسون بواسطتها الكهانة والتطبيب، وخاصة فيما يتعلق بالأمراض العصبية [١٢٢]، ويبدو أن وجودهم كان في وقت مبكر، فابن غازي يتحدث عنهم بمكناسة الموحدية حيث يقول "أن رجال السودان يلعبون الثقاف بالحديد ويرقصون ونسائهم

يضربن آلة اللعب ويغنين، والزامر يزمر عليهم بأبي قرون"[١٢٣]، ونفس هذه النظرة وجدت عند الجغرافيين والرحالة المسلمين في العصر الوسيط، الذين لاحظوا بروز الرقص والغناء في حياة الزنوج اليومية[١٢٤].

هكذا يبدو أن الرقيق أسهم بنوع من التأثير في المجتمع المغربي، خاصةً بعد أن أخذوا عادات وطبائع المناطق التي عاشوا فيها معهم، واندمجوا في المجتمعات التي نقلوا إليها، فغرسوا بذلك القيم والعادات التي تربوا عليها.

ومن بين الممارسات الواردة عن طريق الرق كذلك، نجد السحر والشعوذة الذي حمله العبيد السود معهم، فالعالم الذهني للنساء كانت تختلط فيه المعتقدات الجاهلية والخرافات التي جاء بها العبيد[١٢٥]، خاصةً النساء اللواتي يتخبطن في مشاكل اجتماعية ونفسية وعاطفية، مما يجعلهن لقمة سائغة في يد «الكهان» الذين يمارسون مجموعة من الطقوس والممارسات الغريبة التي تجعل الوهم يتحول في لحظات قصيرة إلى حقيقة تصدقها وتؤمن بها المرأة، وعلى هذا الاساس فالسيد يصبح تابعا للعبد، كما كان دورهم بارز في عملية تجميل العرائس(النكافات)[١٢٦]، حيث كان يعهد للإماء عملية تجميل العرائس.

وعلى العكس من ذلك، شكل تغيير اسم العبد حسب رغبة السيد عادة دأب عليها كل من تملكهم، بإطلاقهم أحسن الأسماء؛ كسعادة[١٢٧] وعسيلة[١٢٨]، وياسمين[١٢٩]، وقمر[١٣٠]، وغيرها من الأسماء التي تدل على الفرح والابتهاج واليمن والبركة، وقد علل القلقشندي ذلك بما روي «أنه قيل لأبي الدقيش الكلابي، لما تسمون أبنائكم بشر الأسماء نحو كلب وذئب وعبيدكم بأحسن الأسماء نحو مرزوق ورباح؟ فقال: إنما نسمي أبنائنا لأعدائنا وعبيدنا لأنفسنا"[١٣١]. ورغم أن هذا التغيير كان له من جهة الأثر الكبير على حياة العبد وسلوكه، فتجريده من اسمه القديم وإعطائه اسما جديدا، هو تذكير دائم بتجريده من هويته وكينونته، وفحولته عبر خصائه، فضلاً عن المتاجرة في جسده، فتغيير اسمه داخل الأسرة الجديدة هو ضمنيًا يمثل له انخراطًا كليًا في محيطه الجديد وارتباطه به في إطار عقد التمليك الذي يحمله اسمًا جديدًا الذي ينتقي له، بالإضافة إلى اسم سيده الذي يمثل له بطاقة تعريف.

كل هذه الأشياء وغيرها، أتاحت للعبيد الاطلاع على الحياة الخاصة لكثير من الأسر، حيث صار لهم تدريجيًا تأثير كبير على حياتهم، بترك أثار واضحة في ثقافة المجتمع المغربي بدليل استمرار بعض العادات التي كانت من اختصاص العبيد، كنكافة العروس يوم عرسها، واستمرار فلكلور (كناوة) إلى يومنا هذا. فقد حمل الرقيق الوافد على بلاد المغرب معه أساليب خاصة في العيش واللباس والأكل والتفكير، ولا شك أنه مارس تأثيرات كبرى في الأوساط التي حل بها، خاصةً في البيوت التي عمل بها[١٣٢]، واندمجوا في الحياة اليومية لعديد من الأسر وطبعتهم بطابعها الاجتماعي والثقافي والاقتصادي.

خَاتمِةٌ

نافلة القول، إن إقحام الرقيق في المنظومة الاقتصادية، كان ضرورة ملحة نظرًا لما امتازوا به من طاقات جسمانية وأخرى فنية، بدءا من العمل الزراعي، ومرورًا بحركة التعدين والهيكلة الحرفية وانتهاء بالعمل التجاري. كما شكلوا طبقة اجتماعية شاركت المغاربة في كل جانب من حياتهم، إذ نجدهم في بلاط الملوك وبيوت علية القوم. لكن رغم الدور الفعال الذي لعبه هؤلاء الرقيق، فإن وضعهم ظل متقهقرًا وصعبًا جعلهم في منزلة دونية احتلت المراتب الأخيرة في المجتمع المغربي.

يظل الكشف عن أدوار الرقيق بالمغرب خلال العصر الوسيط في اعتقادنا موضوعًا قائمًا في البحث التاريخي، لأن من شأنه أن يكشف لنا عن أحوال المجتمع المغربي في ذلك الزمن، سواء كقوة حية داخل المجتمع، أو كبضاعة أساسية قام عليها الاقتصاد المغربي.

الإحالات المرجعية:

(١) بنمليح عبد الاله، **الاسترقاق بين الحرب والتجارة**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية وجدة، رقم، ٦٦، سلسلة بحوث ودراسات، ٢٠٠٣. بنمليح عبد الاله، **الرق في بلاد المغرب والاندلس**، الانتشار العربي، بيروت – لبنان ٢٠٠٤. ندوة **الرق في تاريخ المغرب**، ندوة نظمها مختبر تاريخ التراث بجهة الغرب الشراردة بني أحسن، ١٥ دجنبر، ط، ٢٠٠٩، تنسيق، عبد العزيز عينوز، عبد العزيز بلفايدة، محمد الغرايب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، ٢٠١٠. الترمانيني عبد السلام، الرق ماضيه وحاضره، **مجلة عالم المعرفة**، عدد ٢٣، ١٩٧٩.

(٢) ابن خلدون، **المقدمة**، تحقيق عبد السلام الشدادي، خزانة ابن خلدون بين الفنون والعلوم والآداب، الدار البيضاء، ٢٠٠٥، ج ٢، ص. ٢٨٤.

(٣) الوزاني، **النوازل الجديدة**، نشر وزارة الأوقاف والشؤون السلامية، ١٩٩٩، ج ١، ص. ٥٨.

(٤) **أبو القاسم بن أحمد البَلَوي القيرواني الشهير بالبرْزُلي (ت ٨٤١هـ)، جامع مسائل الأحكام لما نزل من القضايا بالمفتين والحكام**، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، دار الغرب الإسلامي، ط ١، ٢٠٠٢، ج ٣، ص. ١٠٦.

(٥) ابن حزم، **الرسائل**، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٨٠، ج ١، ص. ٤٠٣.

(٦) مجهول، رسالة في ذكر من أسس فاس، ص. ١٠.

(٧) ابن الخطيب، **مثلى الطريقة في زهر الوثيقة**، تحقيق عبد المجيد تركي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ١٩٨٣، ص. ٩٥.

(٨) صاعد الأندلسي، **طبقات الأمم**، مطبعة السعادة، مصر، د.ت، ص. ١٣.

(٩) نفسه، ص. ١٥.

(١٠) بنمليح، م س، ص. ٣٢.

(١١) ابن بطلان، **رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد يليها هداية المريد في شراء العبيد**، تحقيق عبد السلام هارون، منشورات الجمل، ط ١، بيروت، ٢٠١٩، ص ص. ٨٧،١٠١.

(١٢) المرادي الحضرمي، **السياسة أو الإشارة في تدبير الامارة**، تحقيق سامي النشار، دار الثقافة، الدار البيضاء، ط ١٩٨١، ص. ٧٨.

(١٣) الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تحقيق إحسان عباس، ط ٢، بيروت، ١٩٨٠، ص. ٣٣٠.

(١٤) مارمول كربخال، **افريقيا**، تحقيق محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربي للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، ١٩٨٨، ج ٢، ص. ١٥٧.

(١٥) تاريخ إفريقية والمغرب، ص. ١٨٧.

(١٦) ابن حيون المغربي، **المجالس والمسايرات**، تحقيق مجموعة بإشراف محمد اليعلاوي، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٩٧، ص. ١٨٠.

(١٧) مختصر **كتاب البلدان**، نشره دي غويه، ط ليدن، ١٨٨٦، ص. ١٣٦.

(١٨) أبو حامد عبد الرحيم الأندلسي الغرناطي، **تحفة الألباب ونخبة الإعجاب**، تحقيق إسماعيل العربي، ط دار الأفاق، المغرب، ١٩٩٣، ص. ٧٠-٧١.

(١٩) ابن بطلان، رسالة في شري الرقيق وتقليب العبيد، ص. ٧٦.

(٢٠) نفسه، ص. ٧٨.

(٢١) ابن فرحون، **تبصرة الحكام في أصول الأقضية ومناهج الأحكام**، المطبعة العامرية الشرفية، مصر، ١٣٠١هـ، ج ١، ص. ١٩٢.

(٢٢) الشيرازي عبد الرحمان بن نصر، **نهاية الرتب في طلب الحسبة**، تحقيق، السيد الباز العريني، الطبعة الثانية، دار الثقافة، بيروت، ١٩٦٩، ص. ٨٤.

(٢٣) ابن رشد، **البيان والتحصيل والشرح والتوجيه والتعليل في المسائل المستخرجة المعروفة بالعتيبة**، تحقيق محمد حجي وآخرون، ط ٢، دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٨، ج ٨، ص. ٣٥٨.

(٢٤) ابن بطلان، مص. س، ص. ٨٧-٩٣.

(٢٥) السقطي ابو عبد الله، **في آداب الحسبة**، نشر كولان وليفي بروفنصال، مكتبة ارنست لورو، باريس، ١٩٣١، ص. ٤٨.

(٢٦) الإصطخري أبو إسحاق ابراهيم، **مسالك الممالك**، دار صادر، بيروت، ١٩٢٧، ص. ٥٦.

(٢٧) ابن رفيع، **معين الأحكام على القضايا والأحكام**، تحقيق محمد بن قاسم بن عياد، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٨٩، ج ٢، ص. ٨٤٨.

(٢٨) ابن العطار، **كتاب الوثائق والسجلات**، تحقيق شالميتا كورينطي، مجمع الموثقين المجريطي، المعهد الاسباني العربي للثقافة، مدريد، ١٩٨٣، ص. ٢٣٨.

(٢٩) نفسه، ص. ٢٤٩

(٣٠) نفسه، ص. ٣٠٤.

(٣١) نفسه.

(٣٢) عبد العزيز العلوي، العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وامبراطورية مالي، **مجلة كلية الآداب بفاس**، عدد ٥، سنة ١٩٨٩، صص. (٥٧-٧١)، ص.٦٣.

(٣٣) نفسه، صص. ٥٧-٧١.

(٣٤) لحسين بولقطيب، **حفريات في تاريخ المغرب**، جذور للنشر، الرباط، ٢٠٠٤، ص. ٥٦

(٣٥) ماجدة كريمي، **العلاقة بين المغرب والسودان على عهد المرينيين (٨٦٦-٩٥٧هـ/١٢٦٩-١٣٥٨م)**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ١٩٨٧-١٩٨٨، ص. ٣١٧

(٣٦) ابن أبي زرع الفاسي (علي)، **الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس**، مراجعة، عبد الوهاب بنمنصور، الطبعة الثانية، المطبعة الملكية، الرباط، ١٩٩٩، ص.٤١٢.

(٣٧) ابن أبي زرع الفاسي (علي)، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، الرباط، ١٩٧٢، ص. ١٥٩

(٣٨) حميد تيتاو، **المجتمع والحرب**، منشورات عكاظ، ٢٠١٠، ص.٣٢٤.

(٣٩) ابن ابي زرع، روض القرطاس، ص.٤١٢.

(٤٠) نفسه، ص. ٤١٢.

(٤١) علي بن ابي زرع، **الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**، الرباط، ١٩٧٢، ص.٢٨. الانيس المطرب، ص.٣٨٦.ابن خلدون، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، تحقيق خليل شحادة وسهيل زكار، دار الفكر، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٨، ج ٧، ص.٢٢٥.

(٤٢) علي ابن ابي زرع، الذخيرة السنية، ص.١١٧. العبر، ج.٧، ص. ٢٤١.

(٤٣) ابن خلدون، ج.٧، ص.٢٤ ٤-٢٤٥

(٤٤) ابن خلدون، ج ٧، ص.٢٥٦.

(٤٥) ابن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص. ١٥٩.

(٤٦) الذخيرة السنية، ص. ١٦٢.

(٤٧) الوزان الحسن بن محمد الفاسي، **وصف افريقيا**، تحقيق محمد حجي ومحمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٣، ج ٢، ص.٢٨١.

(٤٨) محمد الغربي، **بداية الحكم المغربي في السودان الغربي**، مؤسسة الفلج للطباعة والنشر، د.ت، ج ٢، ص.٤٣٥

(٤٩) بولقطيب الحسين، مرجع سابق، ص.٥٤.

(٥٠) شهاب الدين أحمد بن محمد المقري التلمساني، **أزهار الرياض في أخبار عياض**، تحقيق، مصطفى السقا واخرون، القاهرة، ١٩٤٩، ص. ٣٩

(٥١) عزاوي أحمد، **مختصر في تاريخ الغرب الإسلامي**، مطابع رباط – نت، ط ٣، ٢٠١٢، ج ٢، ص. ١٤٥.

(٥٢) محمد عيسى الحريري، **تاريخ المغرب الاسلامي والاندلس في العصر المريني**، دار القلم للنشر، الكويت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧، ص.٢٩٢

(٥٣) محمد بن مرزوق التلمساني، **المسند الصحيح الحسن في مآثر مولانا أبي الحسن**، تحقيق، ماريا خيسوس بييغرا، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ١٩٨١، ص. ٢٨٧.

(٥٤) نفسه، ص.٥٦.

(٥٥) مارمول كربخال، **افريقيا**، ج ٢، ص.٣١.

(٥٦) الحسن الوزان، م.س، ج ١، ٢٤١.

(٥٧) لسان الدين بن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، ص.١٧٢.

(٥٨) ابن عباد الرندي، **الرسائل الكبرى**، طبعة حجرية، د. ت م س، ص.٢٤١.

(٥٩) نفسه، ص. ١٥٢.

(٦٠) كمال السيد أبو مصطفى، **جوانب من الحياة الاجتماعية والاقتصادية والدينية والعلمية في المغرب الإسلامي**، من خلال نوازل وفتاوى المعيار المعرب للونشريسي، جامعة الإسكندرية، ١٩٩٦، ص.٧٢.

(٦١) كريمي ماجدة، **العلاقة بين المغرب والسودان على عهد المرينيين (٨٦٦-٩٥٧هـ/١٢٦٩-١٣٥٨م)**، رسالة لنيل دبلوم الدراسات العليا في التاريخ، جامعة محمد الخامس، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، السنة الجامعية، ١٩٨٧-١٩٨٨. العلوي عبد العزيز، العلاقات التجارية والثقافية بين المغرب المريني وامبراطورية مالي، **مجلة كلية الآداب بفاس**، عدد ١٩٨٩.

(٦٢) بولقطيب لحسين، مرجع سابق، ص.٩٧.

(٦٣) ابن سهل، **ديوان الأحكام الكبرى**، تحقيق، يحيى مراد، دار الحديث القاهرة، ٢٠٠٧، ص.٣٢٣

(٦٤) الونشريسي أبو العباس أحمد يحيى، **المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب**، تحقيق، محمد حجي واخرون، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الرباط، ١٩٨١، ج ٢، ص. ٤٣٦.

(٦٥) الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب الدار البيضاء، ١٩٥٤، ج ١، ص. ١٣١-١٣٢.

(٦٦) لومبار موريس، **الاسلام في مجده الاول**، ترجمة وتعليق، اسماعيل العربي، منشورات دار الأفاق الجديدة، المغرب، طبعة الثالثة، ١٩٩٠، ص. ٢٨٨.

(٦٧) ابن خلدون، المقدمة، ج ١، ص. ١٩١.

(٦٨) الحسن الوزان، مص. س، ج ١، ص. ١٢٥.

(٦٩) ابن الأحمر اسماعيل، **بيوتات فاس**، دار المنصورة للطباعة والوراقة، الرباط، ١٩٧٢، ص. ٢٥.

(٧٠) ابن بطوطة اللواتي محمد بن عبد الله الطنجي، **تحفة النظار في غرائب الامصار وعجائب الاسفار**، تحقيق، علي المنتصر، الطبعة الثانية، ١٩٧٩، ص.٧٧٣.

(٧١) نفسه، ص.٧٩٨.

(72) Raymond Mauny, **Tableau Géographique de l'Ouest Africain au Moyen Age, d'Apres les Sources Écrites,** La Tradition et L'Archéologie, Ifran-Dakar 1961, p. 358.

(٧٣) ابن بطوطة، مص. س، ص ٧٩٨.

(٧٤) مارمول كربخال، **افريقيا**، ج ٢، ص. ١٥٤.

(٧٥) إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص. ٢٤-٢٥.

(٧٦) ابن عبدون، **ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، اعتنى بتحقيقه ليفي بروفينسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية بالقاهرة، ١٩٥٥**، ص. ٤٨.

(٧٧) إسماعيل بن الأحمر، مص. س، ص. ٢٤-٢٥.

(٧٨) عز الدين أحمد موسى، **النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري**، دار المغرب الإسلامي، بيروت، الطبعة الثانية، ٢٠٠٣، ص. ٢٧٩.

(٧٩) الإدريسي، **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ٢٠٠٢، ص. ٢٣٢.

(٨٠) ابن خلدون، المقدمة، ج.١، ص. ٢٧٩

(٨١) إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس، ص. ٢٤.

(٨٢) نفسه، ص. ٢٤-٢٥.

(٨٣) البكري أبو عبيد الله، **المسالك والممالك**، دراسة وتحقيق، زينب الهكاري، الرباط- نيط، ٢٠١٢، ص. ٢٨١.

(٨٤) الحسن الوزان، مص. س، ج ١، ص. ٢٣.

(٨٥) السقطي، مص. س، ص. ٤٩-٥٠.

(٨٦) السقطي ابو عبد الله، مص. س، ص.٤٩. ابن بطلان، مص.، ص. ٣٩.

(٨٧) ابن بطلان المختار بن الحسن، **رسالة جامعة لفنون نافعة في شراء الرقيق وتقليب العبيد**، ص. ٨٧.

(٨٨) ماجدة كريمي، مرجع سابق، ص. ١٩٢.

(٨٩) بولقطيب لحسين، حفريات في تاريخ المغرب الوسيط، ص. ٧٥.

(٩٠) حركات ابراهيم، **المجتمع الإسلامي والسلطة في العصر الوسيط**، افريقيا الشرق، بيروت- لبنان، ١٩٩٨، ص.٩٢.

(٩١) البكري، مص. س، ص. ٢٨١.

(٩٢) ابن بطوطة، مص. س، ص. ٨٠١.

(٩٣) ابن بطوطة، مص.، س، ص.٧٩٨.

(٩٤) إسماعيل بن الأحمر، بيوتات فاس الكبرى، ص. ٢٤-٢٥.

(٩٥) الحسن الوزان، مص. س، ج ١، ص ٢٤٧.

(٩٦) الزركشي ابو عبد الله محمد بن ابراهيم، **تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية**، تحقيق محمد ماضور، المكتبة العتيقة، تونس، د.ت، ص.٧٩

(٩٧) لسان الدين بن الخطيب، **معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار**، تحقيق، محمد كمال شبانة، صندوق إحياء التراث الإسلامي المشترك، المحمدية، ١٩٧٦، ص. ١٧٢.

(٩٨) البكري، مص. س، ص. ٢٨٢. محمد بن عبد المنعم الحميري، **الروض المعطار في خبر الأقطار**، ص. ٦٤.

(٩٩) علي بن أبي زرع، روضة النسرين، ص. ٤٠-٤١. أمير المسلمين المتوكل على الله فارس، أمه أم ولد رومية اسمها شمس الضحى، نفسه، ص. ٢٧. أمير المسلمين أبي بكر السعيد، أمه مولدة اسمها الياسمين. نفسه، ص. ٣٠. أمير المسلمين تاشفين، أمه أم ولد عربية، أسمها ميمونة، نفسه، ص. ٣٠.

(١٠٠) ابن بطلان، مص. س، ص. ٩١.

(١٠١) عبد الحق الإسلامي، **بيع وشراء الرقيق**، تخريج، محمد الغرايب، ندوة الرق في تاريخ المغرب...، ص. ٦٠

(١٠٢) ابن بطلان، مص. س، ص. ٩٠.

(١٠٣) العمري أحمد يحيى بن فضل الله، **مسالك الابصار في ممالك الامصار**، تحقيق وتعليق، مصطفى أبو ضيف أحمد، الطبعة الأولى،١٩٨٨، ص.١٥١

(١٠٤) الونشريسي، المعيار، ج ٥، ص. ١٨٨.

(١٠٥) ابن الحاج النميري، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب**، دراسة وإعداد، محمد بنشقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص.٤٩٤.

(١٠٦) نفسه، ص. ٢٣٤.

(١٠٧) ابن الحاج النميري، **فيض العباب وإفاضة قداح الآداب في الحركة السعيدة إلى قسطنطينة والزاب**، دراسة وإعداد، محمد بنشقرون، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص.٤٤٤.

(١٠٨) القلقشندي أحمد بن علي المصري، **صبح الاعشى في صناعة الإنشا**، تحقيق، نيل خالد الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٧، ج ٥، ص. ٢٠٢

(١٠٩) نفسه، ص. ٢٣٤. علي بن أبي زرع، الذخيرة السنية، ص. ١٢٩.

(١١٠) القلقشندي أحمد بن علي، **صبح الاعشى في صناعة الانشا**، ج ٥، ص. ١٩٠. الذخيرة السنية، ص. ٨٦. ابراهيم حركات، المغرب **عبر التاريخ**، ج ٢، ص. ١٠٤

(١١١) ابن خلدون عبد الرحمان، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر**، ج ٧، ص. ٢٣١.

(١١٢) علي بن أبي زرع، روضة النسرين، ص. ٢٢.

(١١٣) نفسه، ص. ٢١. ابن خلدون، مص. س، ج ٧، ص. ٢٣٣.

(١١٤) روجية لوتورنو، **فاس قبل الحماية**، ترجمة، محمد حجي، محمد الأخضر، دار الغرب الإسلامي، بيروت-لبنان، ط ١٩٩٢ ج ٢، ص.٢٤٧

(١١٥) السقطي، مص. س، ص. ٣٤.

(١١٦) السقطي، مص. س، ص. ٤٩

(١١٧) الحسن الوزان، مص. س، ج ١، ص. ٢٣٢.

(١١٨) بنمليح، الرق في الغرب الإسلامي، ص. ٩١-٩٢.

(١١٩) المحمودي أحمد، **عامة المغرب الأقصى في العصر الموحدي**، دار النشر، رؤية، طبعة اولى، ٢٠٠٩، ص.٧٣.

(١٢٠) الحسن الوزان، مص. س، ج ٢، ص. ٢٣٠

(١٢١) الونشريسي، المعيار، ج ٢، ص. ٥٣٣.

(١٢٢) عبد العزيز العلوي، فاس والتجارة الصحراوية قبل الحملة السعدية على امبراطورية سنغاي (فرضيات ووقائع)، **فاس وافريقيا العلاقات الاقتصادية والثقافية والروحية**، ندوة دولية ٢٨-٣٠- اكتوبر١٩٩٣، منشورات معهد الدراسات الافريقية – الرباط، ص. (٧٢-١٠٧)، ص.٩٤.

(١٢٣) ابن غازي، **الروض الهتون في أخبار مكناسة الزيتون**، الأمنية، الرباط، ١٩٥٢، ص.١٣.

(١٢٤) عبد العزيز العلوي، فاس وافريقيا، ص.٩٥

(١٢٥) روجيه لوتورنو، فاس قبل الحماية، ص.٧٨٢.

(١٢٦) نفسه، ص.٥٢٦ -٥٢٧.

(١٢٧) ابن خلدون، ج ٧، ص.٢٣٣.

(١٢٨) روضة النسرين، ص.٤٨.

(١٢٩) نفسه، ص. ٤٠.

(١٣٠) نفسه، ص. ٤١.

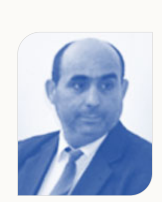
(١٣١) القلقشندي احمد، **صبح الاعشى في صناعة الانشا**، ج ١، ص. ٣٦٤

(١٣٢) بنمليح عبد الإله، م.س، ص. ٤٤٨.

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

مواجهة أزمة السكن في شمال المغرب خلال فترة الاستعمار الإسباني

مشروعات الدور الرخيصة نموذجًا



د. فريد المساوي
دكتوراه في التاريخ المعاصر
جامعة عبد المالك السعدي
تطوان – المملكة المغربية

مُلَخّص

بعد الاحتلال الإسباني لمنطقة شمال المغرب، وهجرة شرائح عديدة من الإسبان إليها، وما ترتب عن ذلك من تحولات اقتصادية واجتماعية في المنطقة، كظهور مجموعة من المدن الجديدة وتوسع المجال الحضري، وتفشي ظاهرة الهجرة القروية إلى المدن بسبب الحرب واحتلال المستوطنين للأراضي، إضافة إلى التأثر بالأزمات الاقتصادية التي عرفها العالم، خاصةً أثناء الحرب الأهلية الإسبانية والحرب العالمية الثانية، في هذه الظروف الدقيقة عرفت مدن المنطقة الكثير من الأزمات الاقتصادية والاجتماعية من فقر وبطالة وارتفاع الأسعار. وعرفت المنطقة على وجه الخصوص أزمة السكن تمثلت في عجز فئات كثيرة من السكان الفقراء بالمدن على الحصول على سكن لائق، وتكونت أحياء من الأكواخ الصفيحية على هوامش تلك المدن. وأمام استفحال هذه المعضلة عملت الحكومة على التخفيف منها عن طريق تجربة السكن الاقتصادي ومشروعات الدور الرخيصة، وهي مشروعات كانت ترمي من خلالها إلى تجهيز إقامات سكنية بأثمنة منخفضة لتتمكن فئات اجتماعية أوسع من الحصول على السكن. ولكن ذلك استهدف فئات اجتماعية محددة كالمجندين العاملين والمتقاعدين أو المعطوبين، إضافة إلى بعض موظفي الدولة والإدارات العمومية. وبقدر ما كانت هذه المبادرة بالغة الأهمية إلا أنها لم تشكل حلاً نهائيًا لمشكلة السكن بالمنطقة.

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال:	٢٠	أكتوبر	٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر:	١٢	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
إسبانيا؛ شمال المغرب؛ أزمة؛ السكن؛ الدور الرخيصة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.346735 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:
فريد المساوي. "مواجهة أزمة السكن في شمال المغرب خلال فترة الاستعمار الإسباني: مشروعات الدور الرخيصة نموذجًا".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٦٠ – ١٧٠.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: faride87@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

كانت للتحولات الديموغرافية المترتبة عن التدخل الاستعماري الإسباني بشمال المغرب، وما تبع ذلك من هجرات الإسبانيين من مختلف الفئات المدنية والعسكرية إلى المنطقة، انعكاسات مست عدة جوانب ومستويات، وترتبت عن ذلك اختلالات في نمط عيش السكان الذين دفعوا ثمن تلك التحولات بالتعرض لأزمات اقتصادية ومجاعات عرفتها المنطقة. وكان من بين المشاكل التي برزت في المجتمع تفاقم أزمة السكن بسبب الاكتظاظ السكاني في المدن المتنامية، إضافة إلى تفشي الفقر والبطالة وقلة فرص الشغل، وهجرة السكان من القرى إلى المدن إثر احتلال أجود الأراضي من طرف المعمرين الإسبان، فضلاً عن توالي سنوات القحط والجفاف، فتكونت في هوامش المدن أحياء عشوائية من أكواخ بسيطة أقامها المهاجرون القرويون والعمال الإسبان الفقراء، وظهر جليا أن الكثير من المنتمين إلى الطبقات الاجتماعية الفقيرة لا تملك القدرة على امتلاك سكن لائق. إثر تفاقم هذه الأزمة كانت إدارة الحماية الإسبانية ملزمة بالبحث عن حلول من شأنها أن تحد منها، فاهتدت إلى تشريع مجموعة من السياسات تتعلق بتسهيل عملية إسكان الطبقات الفقيرة في المدن وبعض القرى، وذلك بدعم وتشجيع مشروعات إنشاء منازل بتكلفات منخفضة على غرار ما كان عليه الأمر في إسبانيا، وذلك لتسهل عملية الإسكان على مجموعة من الفئات الاجتماعية.

فما هو السياق الذي ظهرت فيه مشروعات الدور الرخيصة في منطقة الحماية الإسبانية؟ وما هي الفئات التي استفادت من هذه المشروعات؟ وهل استجاب ذلك لكل الحاجيات الاجتماعية وحل معضلة السكن حلاً نهائيًا؟ سنحاول في هذه القراءة المتواضعة الإجابة عن هذه الإشكاليات بقدر المعطيات التي توفرها المصادر المتوفرة في هذا المجال.

أولاً: وضعية السكن بشمال المغرب قبل الحماية

كان العمران بمنطقة شمال المغرب قبل التدخل الاستعماري الإسباني عموما يتميز بالبساطة والتشابه من حيث البنية والمواد المستعملة في البناء، والتي كانت تقتصر في الغالب على الحجر والطوب والخشب. غير أنه لا بد من التمييز بين نمطي السكن القروي والحضري.

ففي المدن مثل تطوان وشفشاون كانت المنازل مجتمعة ومكتظة وملتصقة بعضها إلى بعض، وإذا كانت تبدو من الخارج بسيطة ومتشابهة، إلا أنها من الداخل كانت تتباين حسب المستوى المعيشي والمكانة الاقتصادية والاجتماعية لصاحب المسكن، فكثيرًا ما كانت منازل الأثرياء أو حتى بعض متوسطي الحال تتوفر على الكثير من مظاهر البذخ ووسائل الراحة والرفاهية من زخارف وزليج وفسيفساء وأثاث فاخر. يقول الأستاذ محمد وهبي في هذا الصدد متحدثا عن تطوان: "الديار إذن ظاهرها المساواة، ولكن إذا تجاوزت الباب الكبير ومشيت في الدهاليز ثم انحنيت يمينًا أو شمالاً تكشف لك الغنى واليسار، فهناك الصحن الفسيح الذي تتوسطه النافورة الجميلة وتحيط بها الورود والرياحين ذات الظلال الوارفة، والقاعات واسعة ومكسوة أسفل حيطانها بالزليج والفسيفساء المختلف الزخارف والألوان، وتعلوها الستور الحريرية ذات الألوان المتألقة، وبدائر الحيطان الأرائك وعليها (المطاريب)[١] والزرابي قد كست الأرض وائتلفت ألوانها، وكل ذلك ينطق بالذوق السليم"[٢].

بينما كانت منازل الفقراء في تلك المدن لا تختلف كثيرا في البساطة عن خصائص السكن القروي، بل كانت مظاهر الفقر في بعض أحياء المدن أكثر من البوادي والقرى بكثير، ومما يدل على ذلك ما جاء في أحد بيانات الجمعية الخيرية الإسلامية بتطوان سنة ١٩٣٦م، أنها حين كانت تبحث عن الفقراء والمحتاجين والمرضى لتقدم لهم يد المساعدة، «اكتشفت ما يبكي ويحزن من عاجزات وعاجزين لا يملكون من قطمير ولا يجدون فتيلاً، تكنهم بيوت أحسن منها ظلمات القبور ذات روائح كريهة وأزبال متراكمة». أناس لا يملكون من الفرش إلا أسمال بالية أو كنبات مصنوعة من التبن متسخة ومبللة بفضلاتهم[٣].

كانت المدن تتكون من الأسواق والمحلات التجارية في الأزقة الرئيسية التي تتصل بأبواب ومداخل المدينة، وكانت هذه الأحياء التجارية والحرفية مقسمة حسب

الحرف ونوع النشاط التجاري، وكل مكان يستمد اسمه من الفئة التي تتواجد به وتزاول نشاطها فيه، فنجد: الطرافين والنيارين والحدادين والدباغين والخرازين وغير ذلك، وراء هذه الأسواق توجد الأحياء السكنية التي تؤدي إليها الدروب الضيقة المتفرعة من الشوارع والأزقة الرئيسية، وفي كل مدينة مغربية تقريبا نجد حيًا خاصًا باليهود يدعى (الملاح). وكانت المدن القديمة محاطة بأسوار عالية تلعب دورًا دفاعيًا وتحمي المدن من الهجمات الخارجية، وكانت للمدينة أبواب كبرى في السور الخارجي يمكن إغلاقها متى دعت الضرورة إلى ذلك.

خلال الفترة الاستعمارية بنيت أحياء إسبانية حديثة خارج المدينة المغربية على طراز جميل وأشكال هندسية متناسقة، كانت تضم بنايات إدارية ومؤسسات مختلفة بالإضافة إلى العمارات والدور السكنية العصرية. ولكن وراء هذه الأحياء تكونت أحياء أخرى عشوائية تتكون من أكواخ من القصدير أو القصب، كان يسكنها الفقراء من العمال المهاجرين الإسبان، فقد كانت نسبة كبيرة من المستوطنين الإسبان بشمال المغرب من العمال الفقراء والشباب العاطل وبعض بسطاء فلاحي الأندلس وبعض الغجر. كتب محرر جريدة الوحدة المغربية أنه وراء معهد "مولاي المهدي" الذي كان في طرف المدينة يطل على المساحات الخضراء، "أمامه تلقى مدينة ليست من الحي الجديد ولا من القديم، مدينة مكونة من بيوت من القصدير المتآكل تسكنها الطبقات العاملة من إخواننا الإسبانيين، ومن أول نظرة تلقيها على هذه المدينة الواقعة في رأس الشارع الرئيسي تشعر باشمئزاز في نفسك وتحس بتغير في مخيلتك، ذلك أنك تنتقل فجأة من مناظر الدور التي تعد من أحدث ما بنته يد المهرة إلى "براريك[٤]" تمثل عصرًا ضرب الرقم القياسي في القدم". ودعت الجريدة إلى تنقيلهم إلى مكان أبعد بمساعدة مصالح البلدية حفاظا على جمالية المدينة ورونقها، مضيفة أن "المسألة يلزم أن تؤلف لها لجنة خاصة لتحل المشكلة مع سكان ذلك الحي، حلا يجعلهم لا يشعرون باضطهاد، بل يفهمون أن المصلحة العامة اقتضت ذلك"[٥].

أما في البوادي فقد كانت المنازل المبنية بالحجر والطوب والمسقفة بأغصان الشجر والقصب أو بعض الأنواع الأخرى من النباتات، هي السمة الرئيسية المميزة والمشتركة بين أغلب بوادي المنطقة، مع التباين في بعض الخصائص في أشكال البنايات التي كانت تفرضها طبيعة كل منطقة على حدة، خاصة المناطق التي تعرف تساقطات ثلجية في فصل الشتاء، فهذه المناطق غالبا ما كان أهلها يستعملون السقوف المائلة بدل المستوية واستعمال القرمود لاتقاء تراكم الثلوج فوق أسطح المنازل مما قد يؤدي إلى انهيارها. فيما يتعلق بهذه المسألة لاحظ الأستاذ محمد وهبي هذا الاختلاف بين مدينتي تطوان وشفشاون أيضا، فهذه الأخيرة توجد في نطاق كثير التساقطات وأحيانا تغمر المدينة الثلوج أيضا، حيث يقول: "ديار شفشاون تختلف عن ديار تطوان، فالسقوف في شفشاون مائلة منحدرة من الجانبين، أي على شكل (جمالون) كما في الاصطلاح المعماري، وهي مغطاة بالقرميد البني كي تنزلق مياه الأمطار وما أكثرها في هذا الإقليم، بل الثلوج تتساقط على هذه السقوف (الجمالونية) فتبدو الدار كقطعة من القطن، كما تتساقط الثلوج في الشوارع وتتعلق بأغصان الأشجار فتختلط الخضرة بالبياض"[٦].

في المنطقة الشرقية أو (الريف) تبنى المنازل بسقف مسطح ومستو، وتكون عبارة عن مجموعة من البيوت مبنية بشكل مربع يتوسطها فناء داخلي غير مسقف في الغالب، بل يكون أعلاه مفتوحا إلى السماء بقصد التهوية وتسرب أشعة الشمس. وغالبا ما تضاف بيوتا أخرى خارج المنزل قد تكون أقل إتقانا وتستعمل لإيواء الماشية والدواجن. وإذا كانت المنازل في المناطق الغربية الجبلية مجتمعة في قرى متزاحمة فيما يشبه مدنا صغيرة، فإنها في الريف غالبا ما تبنى متباعدة بمسافات عن بعضها البعض ومحاطة بالكثير من التين الشوكي حتى تكاد لا ترى أحيانا[٧]، يقول الرحالة أمين الريحاني في هذا الصدد: "البيوت في جبال الريف هي مثل البيوت اللبنانية القديمة مبنية بالحجارة، مربعة منبسطة السطوح. إلا أنها مسيجة بالصبير، وبين البيت والآخر فسحات مديدة يكثر فيها اللوز والتين والزيتون"[٨].

بالنسبة لمنطقة الريف وبوادي المنطقة بشكل عام، فمسألة توفير السكن لم تكن مشكلة صعبة الحل إلا بالنسبة لأولئك الذين هاجروا قراهم إلى المدن، أما في البادية، فإن سكنهم البسيط كان متاحا ومتوفرا للجميع. ذلك أن المكونات المستعملة في البناء بسيطة وموجودة بكثرة في المنطقة، وكذلك عملية البناء كان يقوم بها الجميع، بالنسبة للذين لا يتوفرون على الإمكانيات، فكان يتم اللجوء إلى التضامن والتعاون بين السكان، حتى تتوفر كل أسرة على مسكن من المساكن الريفية المعروفة. ولكن مع التدخل الاستعماري الإسباني سيحدث اختلال في الكثير من المعادلات، حيث برزت تغيرات عميقة في المجتمع تمخضت عنها أزمات على مستويات مختلفة من بينها أزمة السكن.

ثانيًا: أزمة السكن بالمنطقة الخليفية

ظهرت إشكالية الحاجة إلى السكن بالنسبة للفئات الضعيفة بمدن شمال المغرب على إثر مجموعة من المتغيرات في مرحلة ما بعد حرب الريف على وجه الخصوص، حيث عرفت المنطقة نزوح أعداد كبيرة من الإسبان من عسكريين ومعمرين مدنيين، وبداية ظهور مدن جديدة(٩) وتوسع المدن القديمة، واستولى المعمرون الإسبان على الكثير من الأراضي الزراعية الخصبة لإقامة مزارع وضياع يكون إنتاجها موجها بالأساس للتصدير إلى أوربا، أما الريفيين الذين كانوا يحققون نوعا من الاكتفاء عن طريق التبادل والمقايضة بين مناطق الجبال والسهول، وبين الأراضي المسقية والبورية، وبين مناطق إنتاج الحبوب والقطاني وتلك التي تنتج الخضروات والفواكه أوالفواكه الجافة، صار جزء مهم من إنتاج أراضيهم موجها إلى المدن المتنامية باستمرار أو لسد حاجيات الثكنات العسكرية الإسبانية، خاصة مع تزايد احتياجات أولئك الفلاحين المتزايدة إلى التوفر على المال ليتمكنوا من اقتناء المنتجات الأوربية التي صارت تغزو أسواقهم مثل القهوة والمشروبات المحلاة والغازية والسجائر وغير ذلك.

أمام هذه التغيرات المفاجئة بدأت تتفشى ظاهرة الهجرة إلى المدن، وكانت لهذه الهجرة دوافع أخرى تضاف إلى تدهور وضعية الفلاح، منها الرغبة في التنافس على مناصب الشغل في المصانع وفي البناء والأشغال العمومية وحتى في التجارة والحرف التي كانت تبدو مزدهرة في المدن وأسواقها مع هذا التكاثر السكاني، وكذلك الرغبة في الاستفادة من المرافق التي كانت قليلة أو منعدمة في البوادي كالمستشفيات والطرق المعبدة والمدارس معاهد تعليم الأطفال. ولكن يبقى السبب الأكبر للهجرة من الريف إلى تطوان وإلى مناطق جبالة واللكوس هو توالي سنوات القحط والجفاف التي كانت تتسبب في مجاعات وأزمات خانقة. ففي فترة الاستعمار الإسباني حدثت بالريف على الأقل ثلاث مجاعات كبرى سنوات ١٩٣٦م، ١٩٤١م، و١٩٤٥م(١٠)، وإثر هذه المجاعات هاجرت أعداد كبيرة من السكان(١١)، وهذا ما أدى إلى ظهور أحياء للسكن غير اللائق في هوامش المدن، فحسب تصريح المهندس المعماري ألفونصو دي سييرا أوشوا Alfonso De Sierra Ochoa في محاضرة له سنة ١٩٦٢: كان العجز الأولي في ١٩٣٠ يقارب ٣٠٠٠ مسكن. يضاف إليها زيادة سكانية قدرها ٧٠٠٠٠ نسمة في ثلاثين سنة، مما أدى إلى عجز سنوي قدره ٥٨٤ مسكن، قابله بناء ٥٠٠ مسكن في السنة، وهذا خفض العجز إلى ٨٤ مسكن في السنة، يضاف إلى ٣٠٠٠ الأولى. وإلى حدود سنة ١٩٤٣ كان العجز حوالي ٤٠٠٠ مسكن، مقتربا من الناحية النظرية في سنة 1960 إلى حوالي ٦٠٠٠(١٢).

إن الخصاص المهول في السكن كان من شأنه أن يدفع ببعض ذوي المسؤولين إلى التفكير في الحلول التوفيقية والممكنة للظاهرة أو الحد منها على الأقل. وكان الحل المناسب هو تعميم تطبيق قانون الدور الرخيصة الذي كان معمولا به في إسبانيا ليشمل المنطقة الخليفية كذلك، وبناء ما أمكن من مساكن بأثمنة معقولة لمختلف الفئات المعوزة.

ثالثًا: ظهور قانون (الدور الرخيصة) في إسبانيا

ظهرت مسألة الدور الرخيصة في إسبانيا بشكل أكثر إلحاحًا أمام الحاجة المتزايدة إلى حل مشكل نقص السكن فيما يتعلق بالفئات الاجتماعية الضعيفة، وكذلك لمواجهة مشاكل السكن غير اللائق والغير منظم في هوامش المدن، وذلك على الأقل منذ بداية القرن

العشرين. فقبل ظهور التشريع القانوني لمشروعات الدور الرخيصة المتمثل في قانون ١٢ يونيو ١٩١١[١٣]، كان هناك تأثر بمجموعة من التشريعات والتجارب الأوربية في هذا المجال، وخاصة القانون الفرنسي لسنة ١٨٩٤ للسكن الاقتصادي «loi des habitations à bon marché»، والمعبر عنه اختصارا ب HBM[١٤] أو قانون سيغفريد. فمع اكتمال العملية التشريعية لمسألة السكن الرخيص في إسبانيا بصدور القانون المذكور، بل وبعد ذلك بأشهر، في ٢٨ نوفمبر ١٩١٢، كان سيغفريد لا يزال أمام مجلس النواب الفرنسي للدفاع عن مقترح قانون يتعلق بخطط التنسيق الحضري وتوسع المدن، مدعوما في ذلك من طرف المتحف الاجتماعي Musée Social[١٥]، ما يعني أن هذا كان موجة عامة متزامنة تقريبًا.

إن قانون عام ١٩١١، رغم أهميته، إلا أن نتائجه الإجرائية تعرضت في السنوات الأولى للكثير من النقد، ذلك أن القانون في نظر المشتغلين في مجال البناء يحتاج إلى التبسيط والتطوير عن طريق الإضافات، وذلك ما حدث مع القانون الملحق في ١١ أبريل ١٩١٢. ومع الكثير مما كان ممكنا من التأويلات، كان من شأنه أن يعطي نتائج أفضل. ولكن ما أنجز استنادًا إليه خلال تسع سنوات كان قليلاً، والسبب هو قلة التحفيز، إذ «ليس عددا قليلا من المؤسسات والأفراد، أولئك الذين بنوا واستمروا في بناء منازل رخيصة، لكن دون الاستفادة من المزايا[١٦]». ونتيجة لذلك كان إقبال المقاولات وشركات البناء على صفقات الدور الرخيصة ضعيفا، كما كانت هناك صعوبات تتعلق بتوفر جميع الشروط المطلوبة، ففي ٣٠ مارس ١٩٢١ أعلنت الجريدة الرسمية بأوامر ملكية عن إجراء مناقصة، لتوزيع مبلغ ٩٥٠٠٠٠ بسيطة لدعم المؤسسات والأفراد لبناء الدور الرخيصة. وفي أول جولة مناقصة مفتوحة، شاركت فقط تسع مؤسسات، وحصلت فقط ستة منها على الدعم حسب توفر كل الشروط القانونية، وهي: الجمعية الكاسيريسية للإغاثة المتبادلة (كاسيريس) ١٥٠٠ بسيطة، تعاونية الدور الرخيصة لسان لورانثو بالإسكوريال ٤٩٥٠، تعاونية الصحفيين في أوفييدو ٦٦٦٢، تعاونية عمال البناء في سلامانكا ١١٧٩، تعاونية الصحفيين في برشلونة ٣٦٠٨١، التعاونية العسكرية في برشلونة ٩١٧٥. المجموع: ٥٩٥٤٧ بسيطة.

وبما أن المبلغ المتاح لهذه المسابقة الأولى كان ٤٧٥٠٠٠ بسيطة، لم يتم توزيع ٤١٥٤٥٣، والتي أضيفت إلى المبلغ الذي سيتم توزيعه في الجولة الثانية. وفي الجولة الثانية، جاء ٥١ من مقدمي الطلبات، تم قبول اثنان منهم فقط (La Constructora Obrera من برشلونة، و La Iberica من إشبيلية)، حيث أعطي لإحدى هذه الشركات ٢٢٥٠ بسيطة وللأخرى ٢٠٠٠، وبقي مبلغ ٤٢٩,٤٩٠ بسيطة من المبلغ الإجمالي المخصص، دون توزيع أو ليوزع بطرق استثنائية. فإجراءات تنفيذ قانون ١٩١١ للدور الرخيصة كانت تحيطه الكثير من التعقيدات، ولذلك، وبناء على طلب معهد الإصلاح الاجتماعي، قدم وزير العمل مشروع قانون جديد إلى الكورتيس، معدلاً للأول من حيث إضافة إجراءات أكثر تحفيزًا[١٧].

وأمام الحاجة الملحة، أدخلت لاحقًا تعديلات على القوانين، وعرف السكن الاقتصادي بإسبانيا تطورا مهما وأنجزت الكثير من المشروعات السكنية، ففي العهد الفرنكوي مثلا، كتب صحافي إسباني في سياق ذكره لمزايا إسبانيا الوطنية عن المرحلة الجمهورية، فقال إن قطاع البناء من أكثر القطاعات التي تم فيها فقدان العمل خلال الفترة الجمهورية. وفي إطار حكم نظام فرانكو، قامت وزارة العمل، بالتعاون مع المعهد الوطني للإسكان، بعمل جيد لصالح الطبقات المحرومة، وهو بناء «الآلاف والآلاف» من المنازل التي حلت مشكلة السكن المجحفة، وبذلك تم في نفس الوقت علاج مشكلة البطالة بالنسبة للعاملين في هذا القطاع. ولإقامة الدليل على كلامه أتى بمثال حي، حيث أشار إلى أن المؤسسات المذكورة كانت في ذلك الوقت تتدارس مشروع إنجاز ١٣٦٠٠٠ سكن لفائدة العمال الفقراء من ريفيين وحضريين[١٨]. وقد استمر السكن الاقتصادي بإسبانيا إلى فترات متأخرة. وكذلك ظهرت الحاجة إلى الدور الرخيصة في المنطقة الخليفية أيضًا، فكانت هناك مجموعة من الإنجازات.

رابعًا: الدور الرخيصة في المنطقة الخليفية

تمثلت مشروعات الدور الرخيصة أو السكن الاقتصادي لمنطقة الحماية الاسبانية في شمال المغرب، في مجموعة من المنازل التي عملت على بنائها الهيئات العمومية والحكومية لفائدة فئات معينة من المجتمع، منها موظفي الدولة، وبعض الأسر ذات الدخل المحدود، والمحرومة من السكن اللائق. كانت خطة رسمتها الإدارة لتقديم حلول لمشكلة أزمة السكن في مدن شمال المغرب، على غرار ما كان في إسبانيا. وتم اختبار تجربة نماذج معمارية توافرت فيها الشروط الدنيا اللازمة فيما يتعلق بالخصوصية والكلفة[١٩].

مع التحولات الاجتماعية والسياسية التي عرفها منتصف الثلاثينات، ازدادت الحاجة إلى دينامية فيما يتعلق بمسألة السكن، ولذلك قدم مدير المنافع العامة مقترحا للحكومة بإحداث وحدات من الدور الرخيصة بناءً على ما يلي:

- إن حالة الفقير والعامل في البلد جد سيئة من حيث السكن وقلة العمل مع أن له الحق في أن يعيش حياة مستقرة.
- يجب الاعتناء بالفقير حتى يصبح راضيا ولا تتسمم أفكاره.
- لتحقيق الفكرة يجب تأسيس «لجنة الدور الرخيصة» مهمتها إنجاز تصميم لمائتي دار مثلا ويسكن نصفها المسلمون ونصفها الإسبان.
- يمكن أن تصل تكاليف كل دار إلى نحو ست آلاف بسيطات ويجب أن تؤخذ من الأغنياء أصحاب الأملاك، حيث وجب أن يتنازلوا عن جزء من أكريتهم لأنها أكرية جافية وفاحشة[٢٠].

من الواضح أن مشروع كهذا، كان من الطبيعي أن يتفق معه الجميع من الناحية المبدئية، ولكن تبقى المشكلة الأساسية هي المتعلقة بالتمويل، ولذلك شاع أن البلدية قررت سن ضريبة على المباني تتراوح بين خمسة إلى أربعين في المائة لغاية تحقيق المشروع، ولكن كان هناك من لم ترقه الفكرة من حيث التركيز على المباني فقط، «لأنها قد تخلص من المساهمة كثير من الأغنياء الذين اغتنوا من التجارة أو الفلاحة، بينما لن ينجو منها كثير من الفقراء ممن لهم حظ يسير في دار أو دكان»، هذا حسب جريدة الريف، والتي اقترحت بدل ذلك أن تقدر اللجنة الميزانية العامة للمشروع وتقسمها على الشهور حسب مدة إتمام المشروع، وتضع لوائح للأغنياء عامة ثم تفرض على كل منهم قدرا يتناسب مع ثروته، أو تخصص الحكومة صندوقًا خاصًا لذلك وتترك الضرائب والأكرية على حالها[٢١].

مهما كانت الفئة التي فرضت عليها الضرائب، فقد مضت الحكومة في اتجاه تحقيق المشروع، وحتى بالبحث عن مزيد من الشركاء والمساهمين، وخاصة الشركات، فعلى سبيل المثال، تبرعت شركة (لا بالنسيانا) للنقل سنة ١٩٣٧ بمبلغ ١٨٠٠٠ بسيطة إسبانية لصالح مشروع الدور الرخيصة المخصصة للمسلمين، كما تبرع مديرها بنفس القدر[٢٢]، ففي شهر ماي من هذه السنة دشنت البلدية مجموعة من المنازل الرخيصة ووزعتها على مستحقيها[٢٣].

بالنسبة للفئات المستفيدة من السكن الرخيص فقد كانت في البداية تتمثل أساسًا في بعض الفئات كالمجندين والمتقاعدين أو المعطوبين منهم، وموظفي بعض القطاعات المعروفون بالفقر والحاجة، ثم صارت الصحافة أحيانا تتدخل وتقترح الفئات التي تراها أكثر استحقاقًا للاستفادة، ففي شهر مارس ١٩٤١ كتبت جريدة الوحدة المغربية تحت عنوان "اقتراح إنساني" ما يلي: "منذ مدة أتمت بلدية العاصمة بناء عدة دور رخيصة منحتها لمعطوبي الحرب، وهذا عمل لا نرى فيه إلا الإحسان والرفق، غير أننا نقترح اليوم عليها اقتراحا ليس في العمل به إلا الإنسانية الكاملة والإحسان المطلق أيضا، ذلك أن يد العمال تعمل بجد ونشاط في بناء عدة دور رخيصة على نفقة البلدية... قبالة رياض باب الرموز[٢٤] (...) نقترح على المجلس البلدي أن يخصص هذه الدور لموظفي البلدية الضعاف كالحراس والكناسين وقباض ضرائب السوق وغيرهم"[٢٥].

حين شغل المهندس ألفونصو دي سييرا أوشوا Alfonso de Sierra Ochoa منصب المهندس المعماري لمدينة تطوان، وكان ذلك مرتين: (١٩٤٥-١٩٤٩) و(١٩٥٥-١٩٥٩)، كان يدافع عن تحسين الخدمات البلدية لإدارة المناطق الحضرية، وكذلك إنجاز السكن الاقتصادي لصالح الأسر الأكثر فقرا[٢٦]. لقد شغلته

مسألة السكن «كمهني ملتزم مع مدينة تطوان»، كان يهمه أن تأوي المدينة جميع سكانها، بدون تمييز، في سكن لائق حافظ للكرامة، والحد من الأحياء الهامشية التي لا تلجها البنيات التحتية الأساسية[٢٧]. وكذلك إدراكا منه لصعوبة الحصول على السكن اللائق بالنسبة للطبقات الضعيفة وذات الدخل المحدود. ولذلك بدأ البحث في السكن الاقتصادي. دافع عن إرساء سياسة إسكانية ذات أهمية، من خلال سن التشريعات، وتأسيس الوكالات التي ستتولى مسألة الإدارة والحسابات والوفاء بالوعود المالية لاتخاذ إجراءات على المديين المتوسط والطويل[٢٨]. وكان مخطط بناء المنازل الجديدة يسير وفق مجموعة من الاعتبارات كما حددها المهندس بيدرو موغوروثا Pedro Muguruza سنة ١٩٤٣ وهي:

١-الأكثر استعجالاً وفقًا للحاجة السياسة،
٢-الممكن وفقًا للإمكانيات المالية،
٣-الأرخص من بين الصيغ التقنية،
٤-الأفضل شكلاً وفقًا للمعايير الصحية[٢٩].

كانت الملاحظة الأساسية فيما يتعلق بالدور الرخيصة أو السكن الاقتصادي بالمنطقة الخليفية، هي أنه لابد من التمييز بين السكن الفئوي، الذي خصص لفئات محددة (مقاتلي الريكولاريس، موظفي المخزن، موظفي البلدية...)، والسكن الذي خصص للفقراء من عامة الناس والذي كان دافعه الأساسي الحد من السكن العشوائي. كما يلاحظ تكريس فوارق كبرى حتى بين أنواع الوحدات السكنية المنجزة من حيث الموقع والحجم وعدد البيوت والعلو، وكذلك درجة التزيين[٣٠]. وهذا ما أقر به مدير الأشغال العمومية بيسينتي مارطوريل Viciente Martorell في مقال له عن إنجازات الجنرال باريلا، حيث قال إنه فيما يتعلق ببناء المنازل، لم يقيد نفسه بنمط أو نوع معياري محدد، ولكن بينما كان الحي يتكون، كان يكتسب تدريجيا خصوصيات معينة، وبذلك ترك في تطوان عينات معمارية رائعة[٣١]. وإننا نلمس هذه الفوارق البارزة بين أمثلة متعددة، منها مثلا البنايات المخصصة لموظفي المخزن والتي تسمى (ديور الحجر) وراء السجن المدني بتطوان وما تتميز به من تناسق وجمالية وعلو، والدور المخصصة لمقاتلي الريكولاريس في هوامش بعض المدن وهي صغيرة المساحة ومن طابق واحد وبسيطة إلى حد تشابهها مع المساكن الريفية البسيطة.

كان من نماذج السكن الاقتصادي المنجزة في العاصمة تطوان: الحي السكني للجنود المغاربة (١٩١٧-١٩١٩)، المجمعين السكنيين «الجنرال» و«إسبانيا» لقدماء المحاربين المغاربة والإسبان (١٩٣٦-١٩٣٩)، البناية السكنية لموظفي بلدية تطوان (١٩٤٠-١٩٤٢)، أحياء السكن الاقتصادي «غارسيا فالينيو» و«مولاي الحسن» (١٩٥٣-١٩٥٥)[٣٢]، ومجموعة البنايات السكنية لموظفي المخزن سنة ١٩٥٥[٣٣].

في حي (باريو مالقة) الذي كانت فيه خلال الثلاثينات كثير من البنايات التي أنجزت من طرف الأسر الفقيرة (مغربية وإسبانية)، والتي كانت خارج إطار المدينة الرسمية، وكان الفرق بين الاثنين يجسد الفرق بين «تطلعات الحداثة والتمسك بالتقاليد». في هذا الحي، وبجوار المدينة الرسمية أنجزت أولى المشروعات السكنية العمومية لفائدة قدماء المحاربين الإسبان والمغاربة المشاركين في جيش الجنرال فرانكو[٣٤].

بني مشروع المجمع السكني (غارثيا فالينيو) كسكن اقتصادي لفائدة فقراء المغاربة، من طرف البلدية وبدعم مالي من الحكومة والقرض البنكي، من أجل إسكان فقراء الأحياء الناشئة على سفوح جبل درسة في المنطقة العليا للمدينة، وذلك في (١٩٥٣-١٩٥٤)، ويتكون المجمع من ٤٠٠ مسكن و٦٠ محلا تجاريا وسوق ومدرسة[٣٥]. وبنفس الطريقة والخصوصية، وكذلك الحجم وعدد المساكن بني مجمع (مولاي الحسن) (١٩٥٣-١٩٥٥)[٣٦]. أما المجمعات السكنية الفئوية فقد كانت هناك الكثير منها في أغلب مدن المنطقة، وخاصة أحياء الريكولاريس.

بالنسبة لمدينة الحسيمة (بيا سانخورخو) التي بدأت تتأسس تدريجيًا مع الإنزال الاستعماري سنة ١٩٢٦، وفي عام ١٩٣٦، كانت تعيش فيها ٤٨٢٩ نسمة تسكن في ٦٠٠ مبنى، وفي عام ١٩٥١، كانت فيها ١٠٧٢٥ نسمة يعيشون في ١٨٨٤ مبنى، وبجوار المدينة المنظمة، ظهرت أحياء هامشية تسكنها الطبقة العاملة من الإسبان ذوي

الدخل المحدود barrio de obreros، خاصة عمال الميناء، ومع مرور الوقت بدأ يتبلور حيين بارزين للعمال الفقراء: barrio de latas، و barrio chocolate. وللحد من تنامي ظاهرة الأحياء العشوائية، تم تمويل مشروع المساكن الرخيصة من طرف المؤسسات العمومية، حيث بنيت منازل لمسؤولي الأشغال العمومية قبل عام ١٩٣٤، كما بنيت دور رخيصة casas baratas لعمال الميناء في الأربعينات من طرف المجلس البلدي(٣٧).

أما بالنسبة لبنايات العسكر فإن فرقة الريكولاريس بالحسيمة، والتي كانت تحمل الرقم ٥، بعد أن تم نقلها من الثكنات الميدانية، خاصة ثكنة أزغنغان، بني لها معسكر حديث تتوفر فيه كل الضروريات من ماء وكهرباء وحمامات وملاعب للرياضة وقاعات للجلوس ولعب الشطرنج وغيره، إضافة إلى قاعة التمريض والإسعافات الأولية(٣٨)، كما افتتحت فيه قاعة للمسرح والسينما، وتم تثبيت مجموعة من مكبرات الصوت ليستمتع الجنود ببرامج الراديو والموسيقى وتتبع أخبار المباريات الدولية وغيرها من الأنشطة الرياضية أو الثقافية التي تهم الفرقة، كما كانت فيها قاعة لتعلم وممارسة الهوايات والحرف اليدوية، وزينت الشوارع والأزقة بالحدائق والأشجار(٣٩). إضافة إلى كل هذا واهتماما بجنود الريكولاريس المغاربة وأسرهم تم بناء قرية لهم تتكون من مجموعة من المنازل ومسجد قريبًا من المعسكر، بحيث كانت منازلاً مريحة مقابل أسعار متواضعة. وكان الطريف من المنشآت لدى هذه الفرقة هو المزرعة المنتجة، حيث كانت تربية البقر وإنتاج الألبان إضافة إلى تربية الدواجن والأرانب. وإضافة إلى الجنود أقيمت وحدات سكنية للضباط وضباط الصف والقواد لإيواء أسرهم(٤٠).

وفي مدينة أصيلا كانت مجموعة الريكولاريس رقم ٩ تقطن في معسكر وصف بأنه «مدينة عسكرية رائعة»، محاطة بالمناظر الخلابة، الشوارع الطويلة المزينة بالأشجار الخضراء، والساحات الواسعة، والحدائق المعتنى بها، والميدان الرياضي الشاسع، إضافة إلى الموقع المتميز قرب البحر. لقد تم إصلاح هذا المعسكر وتوسيعه بعد تدميره إثر الهجوم والقصف المكثف من قبل قوات الجبهة الشعبية (الروخوس)، وتم تهييئه بكثير من وسائل الرفاهية للجنود(٤١)، وفوق ذلك، واهتماما بأسر الجنود المتزوجين بنى الجنرال غاليرا قرية لهم في محيط المنطقة بمكان يدعى كدية الرايدة، حيث تم بناء مائة وعشرة منازل، وكان المشروع لا يزال في توسع(٤٢).

وكانت هناك تجارب لبناء قرى بأكملها للمدنيين أيضا، كالتي تم بناءها في خميس الساحل، وهي بلدة بنيت لتحسين حياة مجموعة من الفلاحين، ونقلهم من «الأكواخ القديمة وغير الصحية»، للعيش في منازل حديثة شيدت وفق الطراز القروي الإسباني(٤٣).

خَاتِمَةٌ

شكلت مشروعات الدور الرخيصة التي أنشئت في منطقة الحماية الإسبانية بشمال المغرب حلاً جزئيًا لمعضلة السكن التي كانت نتاجًا طبيعيًا للتطورات التي عرفتها المنطقة والمتعلقة بالتدخل الاستعماري وما رافقه من نزوح الإسبان واستيطانهم بشمال المغرب، ذلك أن ما تم إحداثه من بنايات رغم أهميتها لم تكن كافية ولا كفيلة بإحداث حل نهائي لمشكلة السكن بالمنطقة، وكانت تستهدف بالدرجة الأولى فئات معينة من المجتمع دون فئات أخرى، فئات ذات دخل ولكنه دخل محدود، فالكثير من الطبقات الفقيرة الوافدة من القرى لم تكن تشكل فئة قائمة بذاتها ولم يكن لها أي دخل واضح، وهذه الطبقة للأسف لم يكن لها من يمثلها ويتحدث باسمها، وحتى الكتابات لا نجد فيها ما يشير إليها إلا في إشارات قليلة ومتفرقة تشير إلى وجود مشردين وعاطلين ونشالين وغير ذلك، وفي المقابل نجد لاحقًا لهذه الطبقة حضورًا مهمًا في الأعمال الأدبية خاصة عند محمد شكري في روايته "الخبز الحافي" ومحمد أنقار في "باريو مالقا" وغيرهما.

إذا كانت هذه الفئة لم تستفد من السكن الاقتصادي وربما كان ذلك يرجع إلى أنها لم تكن من ذوي الدخل المحدود، بل هي طبقة بدون أي دخل أصلاً، وبالتالي لم تكن قادرة، أو لا تتوفر على ضمانات حتى على أداء تلك الأثمنة الرخيصة التي كانت تحدد لتلك البيوت، فإنها استمرت في إقامة أكواخها في ضواحي المدن، وفي أفضل الأحوال إيجاد بيت بئيس للكراء في الأحياء الهامشية أو في الدروب المظلمة للمدينة القديمة.

الملاحق



صورة رقم (١)

نماذج لمنازل في إحدى قرى جبالة

المصدر: صورة من الفيسبوك، صفحة Tetuán Geo





صورة رقم (٢)

نماذج لمنازل قديمة من منطقة الريف

المصدر: صفحة مراد الحنكاري Mourad El Hankari على الفيسبوك.



Viviendas para los soldados musulmanes de Regulares

صورة رقم (٣)

منازل رخيصة مخصصة لجنود الريكولاريس المسلمين

100 años del protectorado Español en Marruecos 1912-2012, Edicion Centro de Estudios Hispano-Marroquí, Ayuntamiento de Málaga (Servicio de Programas), 2012, p 87.



صورة رقم (٤)

مشروع سكني أنجز لفائدة موظفي المخزن بتطوان (ديور الحجر)، أليخاندرو موتشادا، م س، ص ١٠٩.



صورة رقم (٥)

صور للمجمع السكني «الجنرال فرانكو» بحي باريو مالقة بتطوان وعملية تسليم الشقق.أليخاندرو موتشادا، م.س، ص ٧٠-٧١.

الإحالات المرجعية:

(١) كلمة بالعامية المغربية تعني نوع من الكنبات تستعمل للجلوس في صالونات الضيافة في أغلب البيوت المغربية.

(٢) محمد وهبي، "تطوان منذ سنتين وأثر الرحلة الأولى في نفسي"، **جريدة الوحدة المغربية**، ع.١٥٩، السنة الرابعة، ٢٢ شوال ١٣٥٩ موافق ٢٢ نونبر ١٩٤٠، ص.٣

(٣) «بيان عام عن الجمعية الخيرية الإسلامية»، **جريدة الريف**، ع ٣٥، السنة الأولى، الخميس ١٩ شوال ١٣٥٥، ٣١ دجنبر ١٩٣٦، ص.٣

(٤) جمع براكة وهي الكوخ بالعامية المغربية.

(٥) "مدينة القصدير" (ضمن عمود: همسات)، **جريدة الوحدة المغربية**، ع ١٦٩ السنة الخامسة، ، ١٠ محرم ١٣٦٠هـ موافق ٧ فبراير ١٩٤١م، ص.٤

(٦) محمد وهبي، "شفشاون منذ سنتين"، **جريدة الوحدة المغربية**، ع ١٦١ السنة الرابعة، ٦ ذي القعدة ١٣٥٩هـ موافق ٦ دجنبر ١٩٤٠م، ص.٣

(٧) قد يكون لهذه المسألة علاقة بوضعية المرأة في المجتمع، فبينما نجد سكان جبالة وغمارة معروفون بالانفتاح وغياب الحرج من اختلاط الجنسين في الأسواق والأماكن العامة بما في ذلك البوادي، فإن الريفيون (الجهة الشرقية من المنطقة) كانوا معروفون بالصرامة في هذه المسألة، حيث كان الجنسان ينعزلان عن بعضهما لدرجة أن النساء لا يقترب منهن الرجال الغرباء، والمنازل كانت تسيج حرماتها حتى لا تصلها عيون الفضوليين من خارج العائلة، وعرف الريف بانتشار ظاهرة أسواق النساء، حيث يمارسن البيع والشراء في الأمور التي تخصهن بحرية في مكان لا يلجه الرجال بتاتا.

(٨) أمين الريحاني، **المغرب الأقصى: رحلة في منطقة الحماية الإسبانية**، طبعة دار المعارف مصر، ١٩٣٩، ص.٤٣٤

(٩) كانت منطقة الريف قبل التدخل الإسباني كلها عبارة عن بادية منذ أن اندثرت مدنها الوسيطية (بادس، النكور، غساسة...)، أما مدنها الحالية مثل الحسيمة والناظور وبقية المدن الأصغر حجما فكلها مدنا حديثة تأسست وبدأت في التوسع ابتداء من العشرينات من القرن الماضي.

(١٠) بلقاسم الجطاري، «القيمة الوثائقية للنص الشعري الأمازيغي بالريف حول ظاهرة الهجرة»، **الهجرة في الثقافة الأمازيغية**، أعمال ندوة منظمة من طرف مركز الدراسات الفنية والتعابير الأدبية والإنتاج السمعي البصري بالمعهد الملكي للثقافة الأمازيغية بتعاون مع الكلية المتعددة التخصصات بأسفي يومي ١٢ و١٣ دجنبر ٢٠٠٧، سلسة الندوات والمناظرات رقم ٢٥، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص ٣٩.

(١١) قحط في المغرب: معركة الحنطة في المنطقة (منشور مجهول الكاتب)، مطبعة المخزن بتطوان، ١٩٤٦، ص.١٥

(١٢) أليخاندرو موتشادا، **تطوان التحدي الحديث، ١٣٠-١٤٣٣، ألفونصو دي سييرا أوشووا ومسألة المسكن**، معهد سيربانتيس، تطوان، ٢٠١٢،، ص ٥٤.

(١٣) لمراجعة النص الكامل لقانون الدور الرخيصة، أنظر:

Gaceta de Madrid, Num 164, 13 Junio 1911, pp 755-758.

(14) Maria A. Castrillo Ramon, **«Influencias Europeas sobre "Ley de casas baratas" de 1911 : el referente de "la loi des habitations à bon marché" de 1894»**, Cuadernos de Investigación Urbanística, n° 36, primera Edicion, y impresion, Edita : Instituto Juan Herrera, impr : Faster, San Francisco de Sales, Madrid, 2003, p 23.

(15) Ibid, p 36.

(16) Eduardo Gallego, **«La construcción de casas baratas y el apoyo del Estado»**, Revista (La construccion moderna), Año XVIII, Num 23, Madrid, 15 Diciembre de 1920,p 1.

(17) «Casas baratas, Resultado de los concursos de subvención del Estado en 1920-21», **Revista (La Construccion Moderna)**, Ano XIX, Num 7, Madrid, 15 Abril 1921, pp 65-66.

(18) Luis Valterra, «el problema del paro obrero, lo que fue y que es**»**, **el diario ABC**, (Madrid), 05/10/1945, p.14

(١٩) «السكن الاقتصادي ١٩١٢-١٩٥٦» (دون ذكر الكاتب)، ضمن كتاب:**تطوان التحدي الحديث، ١٣٠-١٤٣٣، ألفونصو دي سييرا أوشووا ومسألة المسكن**، م س، ص ٥٣.

(٢٠) أخبار محلية، **جريدة الريف**،ع ٣٤، السنة الأولى، ١٣ شوال ١٣٥٥، ٢٨ دجنبر ١٩٣٦، ص ٢.

(٢١) نفسه.

(٢٢) **جريدة الريف**، ع ٦٩، الاثنين ٢٢ صفر ١٣٥٦، ٣ ماي ١٩٣٧، ص ٣.

(٢٣) جاء في بيان للسكرتارية العربية لمجلس الأشغال البلدية بتطوان يوم ٢ ماي ١٩٣٧ أنه **«عند منتصف الساعة العاشرة غادر رتل من السيارات باب دائرة البلدية قاصدا الدور الرخيصة التي دشنت في ذلك اليوم وسلم مفاتحها سعادة الباشا الرئيس السيد محمد أشعاش إلى من يستحقها من الضعفاء ورقيقي الحال، وكان في معية سعادته سيادة الخليفة الرئيس بالبلدية والسادات الأعضاء، وبهذه المناسبة فاه العضو السيد الحاج عبد الله الفاسي بكلمة شكر لسيادة المهندس البلدي السنيور (كوادري) لما أبداه من النشاط أثناء وجوده بالبلدية، أما تلك الدور فهي عبارة عن محلات واسعة يتخللها النور الكافي والهواء الطلق وقد شيد بناؤها حسب الطرق الصحية وجمعت من أسباب الراحة والهناء الشيء الكثير».**

«مجلس الأشغال البلدية بتطوان في حفلات ٢ مايو سنة ١٩٣٧»، **جريدة الوحدة المغربية**، السنة الأولى، العدد ٢٥، الاثنين ٢٨ صفر ١٣٥٦، موافق ١٠ ماي ١٩٣٧، ص.٧.

(٢٤) هي المنازل المعروفة باسم (كاسا بلوكي) قرب رياض العشاق بين طريق سبتة والشارع المؤدي إلى باب العقلة.

(٢٥) "اقتراح إنساني" ضمن عمود (همسات)، **جريدة الوحدة المغربية**، ع ١٧٤ السنة الخامسة، ١٥ صفر ١٣٦٠هـ موافق ١٤ مارس ١٩٤١م، ص.٢

(٢٦) أليخاندرو موتشادا، م س، ص ٣٥.

(٢٧) نفسه ص ٤٥.

(٢٨) نفسه.

(٢٩) نفسه ص ٥٣.

(٣٠) جاء في كتاب أليخاندرو موتشادا المحال عليه (ص ٤٧) أن أهم ما يلاحظ في أرشيف مكتبة فيثيتي أليكساندري، هو وجود تنوع كبير في نماذج البنايات بين وثائق المهندس ألفونصو ديسييرا: مساكن

اقتصادية للفئات المغربية الفقيرة، وكذا الفئات الراقية، ومرافق الأحياء أو مساكن منطقة الحماية الإسبانية...

(31) Viciente Martorell Otzet, **«Varela, las obras publicas y las comunicaciones»**, pp 8-10, Revista Marruecos, ano 3, Numero 25, Abril 1951, Tetuan, p 9.

(٣٢) تم تصميم وتنفيذ مشروع حي السكن الاقتصادي للمغاربة الساكنين بحي مولاي الحسن في سنة 1953 باقتراح من المهندس ألفونصو دي سييرا، وقد قدم فيه مجموعة تتكون من عدة مجمعات للسكن مختلفة الأنواع من حيث عدد الشقق ومنخفضة العلو، وبلغت طاقتها الاستيعابية 400 مسكن. أليخاندرو موتشادا، م س،ص ٥١.

(٣٣) أليخاندرو موتشادا، م س، ص ٥٣-٥٥.

(٣٤) نفسه، ص ٧٣.

(٣٥) نفسه، ص ١٠٣.

(٣٦) نفسه، ص ١٠٧.

(37) Antonio Bravo Nieto, «arquitectura y estructura urbana en el Rif Ccentral durante la primera mitad del siglo XX»,(pp 19-76), **Le patrimoine dans les montagnes rifaines: état et perspectives**, Publications de l'Institut Royal de la Culture Amazighe, Série: Etudes et Recherches no 40, Imprimerie El Maarif Al Jadida- Rabat/2013, pp 45-46.

(38) «Grupo de fuerzas regulares indigenas de infanteria de Alhucemas numero 5», (pp 11-13), **Revista Marruecos**, primer año, numeros 8 y 9, Julio y Agosto 1949, p 12.

(39) Ibid, pp 12-13.

(40) Ibid, p 13.

(41) «Una visita al grupo de regulares de Arcila, importancia de su obra social», (pp 30-31), **Revista Marruecos**, primer ano, numero 7, Junio 1949, p 30.

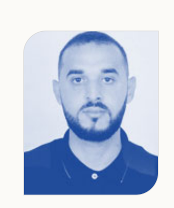
(42) Ibid, p 31.

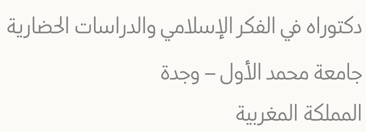
(43) «La callada y admirable labor de la juntaRural del Territorio del Lucus», **El Avisador de Larache**, Numero extra – ordinario, Marzo 1946 , p 35.



ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

تهافت القراءة الأيديولوجية لتجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي وانعكاساها على الحاضر




د. إلياس الهاني
دكتوراه في الفكر الإسلامي والدراسات الحضارية
جامعة محمد الأول – وجدة
المملكة المغربية

مُلَخّصْ

تعتبر تجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي من أغنى التجارب الحيّة التي شهدها القرن العشرين لانتشال الأوضاع الحضارية التي عرفها المغرب حينئذ، وقد تميزت برؤية ناضجة للفكر والسلوك تمكّن الخطابي من خلالها لتجاوز جملة من التحديات والمعيقات السياسية والاجتماعية والفكرية التي أخضعت البلاد للمركزية الأوروبية وصنعت لنفسها تجليات تحديثية شملت مختلف المجالات، إلا أن هذه التجربة لم تسلم من محاولات القراءة الأيديولوجية التي فرغتها من مضمونها الحضاري وتضعها في سياق المواجهة واحتداد الظرف والزمان والمكان والسياق عبر استحضار جملة من المواقف وإلصاقها بهذه التجربة، وهو ما يجعل من الرجوع إلى تلك المواقف والتفصيل فيها على رأس أولويات البحث الحضاري لتجربة الخطابي. ومنه ستحاول هذه المقالة رصد بعض المواقف التي تنازعتها بعض القراءات الفكرية، والتي كان لها الأثر في حاضر المغرب وفي المنطقة التي انطلقت منها تجربة الخطابي عبر التوسل بالمنهج التاريخي ووضع الحدث في سياقه، وذلك قصد تجاوز معضلة الفهم التي تعرضت لها مواقف الخطابي تجاه بعض الحيثيات، والتي كانت سببا مهما لعدم الإفادة من تجربة الخطابي؛ إذ بقيت عالقة تحتاج إلى نفض الغبار عنها، ومن هنا يأتي البحث الاضطراب الحاصل للوصول نحو الوضع الطبيعي لمعرفة السياقات المرتبطة بها .

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ٠٥ أكتوبر ٢٠٢٣
تـاريخ قبــول النشــر: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الكولونيالية الاستعمارية؛ الجمهورية الريفية؛ القانون الدولي؛ المخزن؛ فرنسا

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.346736 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

إلياس الهاني. "تهافت القراءة الأيديولوجية لتجربة محمد بن عبد الكريم الخطابي وانعكاساها على الحاضر".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٧١ – ١٧٨.

Corresponding author: elhani91@hotmail.com
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقدِّمَةُ

لا شك أن للماضي تأثير قوي على حاضر اليوم إن بصورة أو بأخرى؛ فهو الذي يجسد معالم الحضارات القائمة، ويعكس طبيعة ما تفرزه من قضايا في بعدها السياسي والاجتماعي والاقتصادي والثقافي، وإذا أخذنا نموذج المغرب كأحد أهم الدول التي شهدت عبر تاريخها العريق والممتد عبر قرون من الزمن صناعة أحداث خاضت فيها، سنجد أن محطات تاريخية تركت بصمة قوية حاضره على شاكلة التجارب الإسلامية والأندلسية وغيرها من الحضارات التي يعتبرها الدستور المغربي لسنة ٢٠١١ جزءًا من هويته وواقعًا يتجسد في أنماط متعددة من الوظائف الثقافية والفكرية والعمرانية، ويتشكل عبر سيرورة من الوقائع والمحطات، ولم تعد مجرد ذكرى أو مجدًا تليدًا وإنما حاضرًا هوياتيًا، وهو ما نص عليه تصديره الذي جاء فيه أن: «المملكة المغربية دولة إسلامية ذات سيدة كاملة، متشبثة بوحدتها الوطنية والترابية، وبصيانة تلاحم وتنوع مقومات هويتها الوطنية، الموحدة بانصهار كل مكوناتها، العربية الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية، والغنية بروافدها الإفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية»، فحضور هذه الأبعاد الحضارية في أسمى قانون للدولة، سيفرض أنماط مختلفة من السلوك مما يعتبر الخوض فيه من الأهمية بمكان؛ ذلك أن ما تضطلع الأبحاث والدراسات للتنقيب في هذه الأبعاد في شكل تجليات ثقافية يتم الاعتقاد بها وبناء كل ما يشكل هويتها.

وبالنظر إلى مسيرة محمد بن عبد الكريم الخطابي باعتباره أحد أعلام المغرب الحديث الذي حاول أن يخرج بلده من شرنقة المركزية الأوروبية، ويجسد فيها معالم الاستنهاض الحضاري، ويرسي فيها قواعد بناء الإنسان وإخراجه من وهدة التخلف وفق مقومات العصر الحديث، ما جعل الكثير من مناصريه وكذا مناوئيه يفردون مساحات واسعة للحديث عن هذه الشخصية الرائدة وإبراز معالمها، إلا أن ذلك لم يحل دون السقوط في تحويرها لمختلف النزوعات الأيديولوجية الضيقة، وكان لهذا الأثر الكبير على أحداث الحاضر التي شهدها الريف المغربي، مما يحتم إعادة النظر في الكثير من الأطروحات التي تبنتها جهات وشخصيات مختلفة بناءً على ما ارتكز في أذهانهم من مغالطات لا تمت بمشروع الخطابي ورؤاه التجديدية بصلة، وهو الأمر الذي سأحاول إبرازه في هذه المقالة من خلال اختيار بعض المفاهيم واللحظات التاريخية التي برزت في الأحداث الأخيرة التي شهدتها منطقة الريف؛ وهي (الانفصال، الجمهورية، علاقة الريف بالمركز)، وقد ارتبطت هذه المفاهيم بالخطابي، إلا أن دراستها وتحليلها ستوضح أنها لا تكاد تعدو أن تكون من آثار القراءة الضيقة لتجربته.

أولاً: مفهوم الانفصال بين الصناعة الأجنبية والتحرر من الاحتلال

برز مفهوم الانفصال في الآونة الأخيرة بشكل لم يسبق له مثيل، بسبب ما تشكله التهديدات التي تشهدها الكثير من الدول جراء دعوات تجدد بين الفينة والأخرى مطالبتها بكافة السبل والوسائل للانفصال الترابي عن الدولة الأم، وتحويل الجزء المنفصل إلى كيان مستقل، على غرار ما شهدته دولة السودان، ولم يكن المغرب بمنأى هذه الدعوات؛ فما زالت بعض الجهات تترنح لنيل مطلب الاستقلال عن دولة المغرب الأم، وبالرجوع إلى اللحظات التاريخية الحرجة التي سقط فيها تحت نير الاستعمار، وبعد أن حاول محمد بن عبد الكريم الخطابي طرد الاستعمار ومجابهته بكافة الوسائل والسبل القانونية لم يسلم الخطابي من محاولة إلصاق تهمة الانفصال به وبتجربته من طرف الاستعمار، وهي دعوى قديمة استغرب شيوعها وانتشارها أثناء تواجده بالريف عبر جملة من الرسائل والتصريحات سواء كان ذلك بالطريق المباشر الذي يتولاه هو بنفسه أو بالنيابة التي كان بعض الشخصيات يدلون بها في المحافل الدولية والمنتديات العامة باسمه؛ ولذا ما طفق الخطابي يحذّر من مغبّة ما تلقيه الدوائر الاستعمارية وما تروجه من دعاوى زائفة قصد تشويه اليقظة الحضارية التي أبداها الخطابي.

وفي الرسالة التي وجهها للمغاربة سنة ١٩٢٥ ما يجلي بعض الأراجيف التي يتعين دحضها ومقاومتها من المغاربة لأنها محض افتراء؛ وفي هذا يقول: «إن كل ما ترمينا به الأعادي، وتلصقه بجانبنا من أن الريف جماعة ثائرة مشغولة بالنهب والسلب والعمل على ما يخالف الفضيلة، فكل ذلك محض زور وبهتان، وأرانا في غنى عن إقامة الدلائل لكم على تصحيح دعوانا، ورد مفتريات العدو، لأن ذلك متضح لدى العالم ومشهود، وزيادة على ذلك فإنه لا يخفى على العارف، وحتى غير العارف، ما تكنه صدور الأعادي، وما تبديه دائمًا نحو الإسلام والمسلمين الذين خذلتهم ببعضهم، وفرقت جموعهم إلى أن صاروا طرائق قددا، وهم لا يزالون عاملين على ذلك، حيث وجدوا ذلك أسهل طريق للوصول إلى مقاصدهم وأغراضهم، علما منهم بأن الاتحاد شيء عظيم، وأن المسلمين مهما اتحدوا، يصعب إخضاعهم، وخصوصًا في الحالة الراهنة التي أشرف العدو فيها على السقوط[١]».

ولم يكن مفهوم الانفصال الذي تولت نشره الإدارة الفرنسية سوى امتدادًا لسلسلة الاستهداف الذي تولته المركزية الأوروبية التي راحت في إرسال بعثاتها للمغرب تتنصل بين قبائله لجمع المعلومات والقيام بمسح المناطق التي تحتوي على ثروات باطنية مهمة تساعد أوروبا على رفاهية أبنائها؛ فالناظر في تاريخ المنطقة يجد أن هذا المفهوم تسرب بعدما اكتشفت القوى الأجنبية مدى الثروات الباطنية المعدنية التي تختزنها هذه المنطقة، فراحت تروج في كتاباتها التي سهّلت الأمر للاحتلال الأجنبي بكون قبائل الريف منفصلة عن أي دولة ولا ولاء سياسي لها، وهو ما يسمح حسب زعمهم بملأ هذا الفراغ؛ فقد جعل أوجيست موليبراس قبائل الريف منفصلة عن حكم السلطان، فقال: «ولم يكن الريف خاضعًا أبدًا؛ فهو يشكل جزءا من بلاد السيبة الشايعة أي المتخلى عنها من طرف السلطان[٢]»، وهو نعت درج عليه بقية الغزاة الذين أوهموا الأوروبيين بكون الريف منفصلاً عن باقي الأراضي، ولا يشمله حكم المغرب، وقد أغرق موليبراس كتابه بالأوصاف وإطلاق النعوت التي تجرد الريفيين من أي فعل حضاري، بل وأمعن في إلصاق كل تهمة خلِقية أو خُلقية مبررًا للدول الأجنبية تدخلاتها ونشرها لما تحسبه تحضرًا وتقدمًا.

وهو نفس ما قام به أنخيلو كيريلي في مونوغرافياته لقبائل الريف؛ حيث جرّد القبائل من تبعيتها لأرضها؛ فوصف قبيلة بقوية أنها: «مستقلة عن سلطة المخزن المغربي، ولا تخضع القبيلة لأي تدخل سواء بشكل مباشر أو غير مباشر من طرف سلطان المغرب[٣]»، وهي مغالطة تاريخية تكشفها حجم الأحداث التي أظهر من خلالها الريفيون مدى التشبث بأرضهم وولائهم التام للواجبات التي يحتمها عليهم نداء الوطن وتفاعله الحضاري؛ فقد شهدت منطقة الريف ارتقاء حضاريًا حيث نشأت أولى بواكير الحضارة الإسلامية بالغرب الإسلامية بمنطقة النكور التي دامت قرونًا من الزمان أبدع فيها الناس في شتى مناحي الحياة وقامت بأدوار طلائعية في ازدهار العلوم والفنون، ولن تكون أرضًا جرداء كما يصفها الأجانب؛ إذ تكونت إمارات أخرى تستأنف نفس الأدوار على غرار إمارة بادس وغساسة وتازوطة وغيرها، ومع بداية ظهور العلويين وتقلدهم للحكم، استعان بهم ملوكهم لتحرير البلاد من الاحتلال البرتغالي والإسباني، ليصفهم محمد الأول بـ: «ريف الفرسان، وصقور الفيافي والفجاج»، كما ظلّ هذا الانتماء إلى العصر الحديث عند بزوغ نهضة الخطابي بالريف؛ ولم يخطر ببال أحد إلا ما حاولت القوتين المحتلتين فرنسا وإسبانيا الترويج له من كون الخطابي يريد أن ينفصل عن المغرب بعدما استطاع أن يهدد وجودهم الاستعماري وكاد أن يقضي عليهم، فلم يجدوا من بد تزوير التاريخ وتشويه سمعته بأشنع النعوت وأقبحها، وهو ما يتلقفه البعض في العصر الحديث لترويج نفس الأسطورة، وما هي في الحقيقة سوى إعادة تدوير لما رددته الدوائر الكولونيالية الاستعمارية.

أما الخطابي فقد سعى بكل جهد للانفصال على المستعمر الأجنبي وبناء المغرب؛ ففي ندائه الموجه للمغاربة سنة ١٩٢٥م يلخص فيه هدفه من قيامه بالأمر، ويوجزها في كلمات ذات دلالة ومعنى عميق؛ إذ يقول: «أيها المراكشيون، إننا لا نريد من كل هذا أن نتسلط عليكم أو نخرق عليكم عادة كما يموه عليكم العدو أو كما تتوهمون أو غايتنا الملك والاستواء على عرش المغرب،

كلا، وإنما غايتنا الوحيدة ومقصودنا المنشود هو طرد الأعادي من تراب المسلمين والوصول إلى إصلاح شؤوننا ماديا وأدبيا، لنحيي بذلك ما اندرس ونجدد مجد الأسلاف، وما ذلك ببعيد على رجال المغرب ومفكريه إن قاموا قيام رجل واحد، وعملوا ما يحقق هذا الأمل بالقول والفعل[٤]»، وهو تعبير يجسد ما اعتمل الخطابي القيام به من عملية الاستنهاض التي جعلها أس أهدافه، إلا أن القوى الاستعمارية أبت سوى إجهاض هذه الإرادة وإخضاع المغرب بسلطانه وشعبه وإصلاحييه تحت حمايته الاستعمارية التي أراد الخطابي الانفصال عنها، والتعامل مع كل الأمم والشعوب بندية ومساواة بعيداً عن منطق الخضوع والقوة والحرب؛ فيقول في ذلك: «إن قصدنا وغايتنا هي غاية القبائل الريفية، وإننا لسنا بمتسلطين على هاته القبائل، وهو الدفاع عن كياننا وحقوقنا معتمدين على حقانية مسألتنا ومطالبنا التي لا ينكرها أحد، وقد أعلنا هذا لإسبانيا قبل حادثة أنوال وبعدها وجاهرنا بعد الحادثة بطلب الانفصال عنها ورفض حمايتها بالكلية[٥]».

وهو ما لم تستسغه الإرادة الاستعمارية؛ فراحت تؤلب الرأي العام المغربي والأوروبي بأن الخطابي ما قَصَدَ جراء مناهضته للسياسة الاستعمارية الأجنبية سوى الانفصال عن المغرب بعد إدراكها للمرامي الحقيقية للخطابي الذي يعبر الجنرال ليوطي في مذكرة له سنة ١٩٢٥ بقوله: «إن هيمنة عبد الكريم على كل قبائل منطقتنا التي لم تخضع لنا بعد، وذيوع صيت وهيبة هذا الزعيم الريفي، أصبحا مقلقين لنا، ولن نسمح له بأن يكون مركز جذب لكل من يطمح في استقلال الغرب الإفريقي المسلم[٦]»، الأمر الذي عزّز القوى الإمبريالية الفرنسية للاتحاد مع إسبانيا لإسقاط تجربة الخطابي ووصمها بأبشع النعوت والأوصاف مدركين أن إسقاطها لا تتم سوى بتشويه معالمها بعد أن بدت نموذجًا رائدًا لِمَنْ رام استنهاض بلده وإصلاح شؤونه، وما تهمة الانفصال إلا حلقة ضمن سلسلة طويلة من النعت الذي تعرض له الريفيون لاستعباده وإبقائه مرهونا للشركات الرأسمالية ولنهب الدول الإمبريالية.

ثانيًا: فرية الجمهورية الريفية بين ضرورة الإمارة لمناهضة المحتل وإفرازات القانون الدولي الحديث

لم يكن الخطابي بالرجل الذي تغيب عنه التحولات الكبرى التي حصلت في العالم الحديث؛ إذ مكنته إقامته بمليلية من استيعاب النظام الدولي، علاوة على اطلاعه الواسع على تاريخ الدول وكتب القانون، فقد أدرك من خلالها أن العالم يسير نحو إرساء قواعد يحتكم إليها تشكل بمجموعها نظاما تسري عليه التحديات وتحتكم إلى منظومته دول العالم، وقد أفرزت انتهاء الحرب العالمية الأولى تأسيس عصبة الأمم التي توجه إليها الخطابي بالرسائل والخطابات المفعمة بالمفاهيم التي انتهجتها الدول الحديثة من قبيل الاستقلال والجمهورية والسلام والبرلمان والنيابة والحرب والاتفاقيات، وذلك لمطالبة الدول عن كفّ الإسبان عن الاحتلال الذي لا وجه لقانونيته الذي تستند عليه؛ فقد كشفت الوثائق والدلائل التي كان الخطابي يستعملها وطبيعة الأسلوب وقوة الحجج التي كان يوظفها أن مخرجات مؤتمر الجزيرة الخضراء المنعقد بإسبانيا سنة ١٩٠٦ والذي ترجع إليه إسبانيا لشرعنة زحفها على الريف محض غزو واحتلال ونهب للثروات، وبموجب نظام الحماية الذي أبرمته مؤسسة المخزن مع فرنسا وإسبانيا، والذي أبانت السنين عن كونه احتلالاً ولم يأخذ من الحماية سوى الاسم؛ إذ يوجه الخطابي نداءه لعصبة الأمم سنة 1922م قائلاً: «يعتقد الإسبان بأن أوروبا قد عهدت إليهم بمهمة إصلاح الريف وتمدينه، غير أن الريفيين يتساءلون: هل يتمثل الإصلاح في تدمير مساكنهم باستعمال أسلحة محظورة، أم قوام هذا الإصلاح هو التدخل في شؤونهم الدينية، أو اغتصاب حقوقهم؟[٧]».

وهو الأمر الذي بدا في رؤية الخطابي مغايرًا لمفهوم الحماية الذي يتجسد في صيانة الحقوق وحفظ المصالح ومساندة الشعوب المتخلفة لنهضتها، ما جعل أمر الاصطدام مع القوى الأجنبية ضروريًا لحفظ المنطقة من سيطرة الأوروبيين، ولا شك أن مقاومة الاحتلال الأجنبي قد أثبت فعاليته وجدواه في حالة التنظيم الجيّد والمحكم للأرض ومقدراتها وتهذيب الإنسان من

العادات التي تكبل طاقاته وتنوير فكره نحو الارتقاء، مما أثمر معه اعتبار الخطابي زعيمًا وقائدًا لقبائل الريف بعد توحيدها وتنظيمها وتجريدها من كل التطاحنات والنزاعات الداخلية، وتم تنصيب الخطابي أميرًا بما يوجبه هذا النظام من تدبير حياة الناس وحمايتها والرفعة من شأنها، وهو نظام إبداعي في دلالته يتم من خلاله تنصيب أمير تجسدت فيه صفات القيادة وإصلاح شؤون الناس على غرار ما شهدته تجارب احتدمت فيها الصراعات من فترات سابقة كإمارة القلال بفرنسا الحالية التي نشأت لحفظ كيان المسلمين بعد تكتلهم وحسن تنظيمهم، وكذا إمارة الأندلس بإسبانيا الحالية التي ازدهرت في فترة وجيزة من الزمن وكانت مصدرًا أساسيًا لنهضة أوروبا، على نفس المنوال شهدت الضفة الجنوبية نشوء كيانات قامت بأدوار حضارية متعددة وعلى رأسها إمارة النكور في شمال المغرب وهي أول إمارة مستحدثة بعد دخول الإسلام إلى المغرب الأقصى وقد بدت نموذجا للارتقاء بالأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية، ولا يعني بالضرورة وسم الإمارة بكونها نموذجًا قروسطيًا ماضيًا وإنما نجد في العصر الحالي من تسمى بهذا النظام وهو في أعز ازدهاره كإمارة قطر وإمارة موناكو وغيرها.

وتأسيس الإمارة بالريف زمن الخطابي لم يكن يفهم منه ما اصطلح عليه اليوم في القانون الدولي الحديث من اعتبار تأسيس نظام سياسي داخل دولة ما نوعا من الاستقلال الترابي؛ فقد بقي الخطابي ومعه نموذجه النهضوي تابعًا للبيعة السلطانية، إذ فتئ الخطابي يؤكد في جميع مراسلاته ومواقفه وتصريحاته على تبعيته الكاملة للمغرب وسلطانه؛ فالوضعية الحضارية التي آل إليها المغرب واحتلال أراضيه وتكبيل سلطانه هو ما جعل الخطابي يعلن استقلاله عن الاحتلال الأجنبي، ورغبته المتواصلة في فك أسر السلطان من نظام الحماية المتسلط، يقول الخطابي في رسالته للمغاربة الآنفة الذكر: «أما جلالة سلطان مراكش، فإن سعى فيما نكد من أجله وقام بواجبه نحو الأمة الإسلامية ليتخلص من ربقة الحماية والاستعباد، فنحن أول مَنْ يؤيده ويعضده ويؤازره على حكم بلاده، ثم ليكن هذا في علم جميع إخواننا المراكشيين [أي المغاربة] حتى يحققوه، وخصوصًا أساطين المغرب وعماله، كما يجب إن كانوا يؤمنون بالله وباليوم الآخر، أن لا يعيروا التفاتًا لما يلقيه العدو من الخيلات التي تعود أن يسحر بها الفكر العام تشتيتا لكلمة المسلمين، ولتحققوا أيضًا أن ما نحارب من أجله ما فيه إلا سعادتكم وسعادة سلطانكم إن كان يود السعادة الحقيقية والمجد غير الموهوم(٨)».

وقد تحقق نظام الخطابي بالفعل بما أرساه من مؤسسات شملت مجالات متعددة ومتنوعة، كما أبدع في مخاطبة العالم بمفاهيمه بعد طرد الاحتلال عن أراضيه ودفعه إلى أقصى ما يمكن، ومن هنا يكمن إيراد مفهوم الجمهورية في بعض التعبيرات الخَطَّابية لأنها تعكس ظرفًا وواقعًا حاول فيه أن يخرج الريف من شرنقة التخلف ويخاطبه بما يفهمه ويستوعبه، وهو ما يؤكده الخطابي في تصريح منسوب له(٩) بجريدة المنار عندما قال: «كنا أنا وأخي [وهو الأمير امحمد الخطابي شقيقه الأصغر] أطلقنا على بلادنا اسم "جمهورية الريف" منذ سنة ١٩٢٣ وطبعنا في فاس أوراقًا للحكومة عليها هذا الاسم للدلالة على أننا دولة مؤلفة من قبائل مستقلة متحالفة لا دولة نيابية ذات برلمان منتخب، أما اسم الجمهورية فلم يكن ليتخذ معناه الحقيقي في نظرنا إلا بعد مدة من الزمن لأن جميع الشعوب تحتاج حين تأليفها إلى حكومة حازمة وسلطة قوية ونظام قومي متين(١٠)»، وهو ما لم تكن شروطه موجودة زمن الخطابي لعدة اعتبارات منها الوضع الحضاري والاجتماعي المترنح، والخصوصية الثقافية والسياسية للمغرب الذي يمتح مفاهيمه من مجموع الرصيد الشرعي والفكري للحضارة الإسلامية، ويؤكد ذلك لوارد بريس مراسل جريدة ديل ميل البريطانية بقوله: «إن الدين الإسلامي لا يعترف إلا بشكل واحد من الحكم، ألا وهو حكم الأمير، إن الحكم بمجالس تمثيلية يناقض المبادئ المحمدية، ومع ذلك فإن نظامنا ديمقراطي جدًا، لأن الأمير ينتخب بحرية من قبل رؤساء القبائل، ويمكن خلعه إذا لم يرض الناس، وانتخاب أمير آخر يحل مكانه، وكذلك فإن خلفه ينتخب بالاقتراع بعد وفاته(١١)».

وهكذا يجسد الخطابي وعيًا مبكرًا بالتطورات التي يعرفها العالم الحديث؛ فلم يكن ترويج الجمهورية الريفية في المحافل والمؤسسات الدولية سوى لاستدرار

العطف وعقد الاتفاقيات التي يمكن من خلالها امتلاك المقومات الذاتية لبناء الريف واستنهاضه، وقد أكد الخطابي على هذا في الكثير من تصريحاته وعلم أن هذا المفهوم الذي أخذ بعدا آخر مع تطور القانون الدولي واستغلال الأجانب لهذا المفهوم إنما ينم عن اختلاف الدلالة المصطلحية للقاموس السياسي بين الحضارة الأوروبية والحضارة الإسلامية؛ ففي حوار له مع الصحفي الأمريكي فنسنت شيين مراسل جريدة شيكاغو تريبيون الأمريكية يؤكد الخطابي له سنة ١٩٢٥ على هذا المعنى بقوله: «تسمية جمهورية الريف هي نموذج مؤسف للتسميات غير الموفقة، إن الصحف الإنجليزية هي التي أطلقت علينا هذه التسمية في البداية، وكذلك بعض عملائنا الإنجليز ذوي النوايا الحسنة، لكن لم تكن لدينا أبدًا جمهورية بالمعنى الغربي للكلمة، ولم نعتزم قط إقامة شيء من هذا القبيل(١٢)»، فلفظة الجمهورية المتداولة في السياق الأوروبي المتدثرة بمفاهيم التحولات السياسية والفكرية التي عرفتها أوروبا منذ عصر النهضة؛ والتي تتأسس على اختيار رئيس من قبل شعب على أرض سيادية بحدود ذات سيادة مستقلة لم تعرفها تجربة الخطابي الحضارية، ولم يكن هذا المفهوم ليغيب عن الخطابي الذي تداول اسم الجمهورية بمعنى آخر وهي الجماعات الصغيرة المنظمة داخل القبائل والتي كان يطلق عليها لفظ: "فوبليكا"، وهو يوضحه للصحفي شيين بقوله: «في الواقع، نستعمل الكلمة الإسبانية ريبوبليكا في لغتنا لنطلقها على مجموعات محلية صغيرة، بل إنها أصغر من القبيلة، تمامًا مثل المجالس العسكرية للضباط الإسبان juntas.

لدينا مثلاً عدة جمهوريات في كل سرية من المشاة الريفيين، ولا تعني كلمة الجمهورية بالنسبة لشعبنا أي شيء أكثر من ذلك(١٣)»، أما بالنسبة للمفهوم السيادي للجمهورية فلم يكن متداولا بمنطقة الريف المغربي ولم يسعى إليه الريفيون أثناء تشييد معالم نهضتهم وتثبيت شهودهم الحضاري، ما تداوله وشيوعه وووروده في الكثير من الوثائق سوى ترويجًا من الأجانب والشركات الرأسمالية الذين تواردوا على الريف لعقد الصفقات واستغلال الثروات وإبرام الاتفاقيات بما يضمن لهم الربح بموجب ما تمكّنه تداول القضية الريفية من رصيد وامتيازات واحتكار، كما لا ينفي هذا وجود بعض الشخصيات التي وجدت في قيامة الخطابي وجهًا مشرقًا لحضارة في أفول مستمر، وما كان مفهوم الجمهورية سوى إطلاقًا لفظيًا على تلك التجربة ولم تكن بالتداول الأوربي.

ثالثًا: علاقة الريف بمؤسسة المخزن بين التوتر والاستقرار

لم تكد تمر حرب الريف وتنتهي سنة ١٩٢٦م حتى انطلقت أراجيف الاحتلال الأجنبي بكون الخطابي ينازع السلطان في حكمه، وأن ما قام به اتجاه إسبانيا وفرنسا ما هو إلا تمهيدًا لإسقاط المخزن، وهي من القضايا التي لم تنتهي أوارها لحد الساعة؛ إذ ما فتئت الكثير من الجهات ترddه بين الفينة والأخرى، والقصد من ذلك ممالئة السلطة على تجربة الخطابي النهضوية التي شعّ نورها بين الشعوب والأمم المستضعفة، لتعتبر إحدى التجارب الرائدة في القرن العشرين في نيل الحقوق المهضومة من كافة أشكال الاستعمار، وإلا فإن للخطابي صلة وصل منذ شبابه مع مؤسسة المخزن التي بدت ضعيفة ومترهلة حين أدرك وهو شابًا مدى الفساد الذي ينخر أركانها، فعمل جاهدا على الحيلولة دون السقوط المدوي في براثين الأجانب؛ وذلك عندما قام بمعية والده بأخذ البيعة للسلطان عبد الحفيظ في ربوع الريف بعد البيعة المشروطة ظنا منهم أن ذلك عهد سيقود إلى إصلاح ما فسد من أمور المغرب المتهاوي، وهو الأمر الذي يتحقق منه شيء.

ومع فرض الحماية على المغرب سنة ١٩١٢ والسقوط الرمزي لمؤسسة المخزن التي لم يعد لها من دور سوى تبعيتها لما تمليه فرنسا والاقتصار على التواقيع التي يفوضها السلطان لفرنسا بموجب ما تمليه وثيقة الحماية، لذا عمل الخطابي قصارى جهده لتحسيس السلطان وحاشيته بكافة السبل والوسائل من خطورة الأوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية للمغرب وتخليصه من وضع الأسير الذي أضحى عليه، ولم يتوانى الخطابي في بعث الوفود التي تؤكد على الصلة الوثيقة التي تجمع منطقة الريف بالمخزن عبر تاريخه؛

وقد أكّد على هذه الصلة التاريخية محمد أزرقان في مذكراته وهو أحد الرجال المقربين من الخطابي الذين كانت له أدوار قيادية أثناء حرب التحرير بقوله: «كانت الملوك العلويون ينظرون إلى الريف بعيون الإجلال من قديم، لكون الريف في نظرهم السياسي محل رباط المجاهدين المدافعين عن حمى الإيالة الشريفة من ناحيته(١٤)»، ليستمر هذا الحال إلى زمن الخطابي الذي أكد في الكثير من المواقف والرسائل عن تشبثه بالبيعة الشرعية للسلطان وما تقتضيه من التزامات وواجبات، وعلى رأسها رفض الاحتلال وأزلامه.

فقد بادر الخطابي فور انتصارات أنوال سنة ١٩٢١ إلى تبليغ السلطان عن طريق وفد مكون من أبرز القادة الريفيين إلى مدينة الرباط لتبليغ الشيخ أبي شعيب الدكالي بالقول: «أن صنيعنا الجهادي حيال الإسبان المتعصبين، هو مجرد دفاع عن الشرف المهان، المتمثل في التطاول الإسباني على الدولة المغربية الشريفة، وكذلك أن يبلغه مساندتنا له في السراء والضراء، بكل ما أوتينا من قوة، وإلى أن يصبح سلطاننا ينعم بحرية التصرف ومباشرة مهامه، ونرجوه كذلك أن يكون حذرًا مما تشيعه الأبواق الاستعمارية ومن يسير في فلكهم، من أننا ضد بيعته في ربوع المغرب، وليكن واثقا مما نقول كل الثقة(١٥)»، ولعل أفضل ما يجسد وضعية المخزن في حينه هو الرد الذي تلقاه الخطابي من أبي شعيب الدكالي للوفد الذي تم إرساله للتبليغ عن الانتصارات المحققة بقوله: «عودوا إلى إخوانكم، وقولوا لهم، لا تلقوا بالاً لهذه الناحية، فالسلطان في الظرف الحالي لا يقوى على جلب نفع ما، أو دفع ضرر كيفما كان، ولعلكم لا تحتاجون إلى أكثر من هذه الوصية، والله لا يخيب مسعاكم الحميد، والسلام(١٦)»، ولا شك أن هذا التصريحات تجسد الوضع السياسي العام، وتكشف عن العجز التام الذي أضحى عليه وضع السلطان ومدى الخذلان الذي كان يتعرض له بعد أن انصاعت الكثير من النخب للاستعمار الأجنبي.

ولعّل الصورة التي ينقلها السيد محمادي الحاتمي عن أحد جلساء السلطان يوسف وهو عمر التازي عن لحظة الإبعاد التي تعرض لها الخطابي سنة ١٩٢٦ جراء الاستسلام المشروط بسلامة أهل المنطقة من الإبادة الجماعية التي انطلقت بالغازات السامة والأسلحة الكيماوية من طرف فرنسا وإسبانيا تُبين الأسف الذي أبداه السلطان اتجاه الخطابي لمّا قررت فرنسا إبعاده نحو جزيرة لارينيون؛ فيقول: «دخل الترجمان ماركو على المولى يوسف وقال له: "سيدي لقد جئتك ببشرى"، سأله السلطان: "ما هي؟" أجابه: "إن عدوك عبد الكريم تقرر إبعاده إلى جزيرة الريونيون" سأله السلطان: "أين تقع هذه الرونية؟" "إنها بعد مدغشقر بأيام، ومدة السفر من الدار البيضاء لا تقل عن شهر وبضعة أيام"، خرج الترجمان وقد أحس بامتعاض المولى يوسف للنبأ، واغرورقت عيناه بالدموع، إلى أن قال لعبابو: [وهو أحد الفقهاء الذين كانوا يجالسون السلطان] "إنهم بهذا الإجراء أرادوا قتله"، وأضاف قائلاً: "لله درك يا بن عبد الكريم، أنت شرفت الإسلام وأعلنت عن حسن مآل(١٧)».

ويذكر الخطابي أثناء مقامه بالقاهرة بعض المواقف أبنائهحفظها للسلطان أثناء قيادته لحرب التحرير ضد فرنسا؛ فيحكي عبد السلام الهراس عن الخطابي عند زيارته له بمصر ما حكاه له: «قد استغل الاستعمار فصار يروج ويزور ويدس ويشيع أننا طلاب ملك، وأننا سنكون جمهورية إلى غير ذلك من مكر الليل والنهار، وحرضوا علينا بعض الزوايا القواد، والبوادي وكانوا يضغطون على مولاي يوسف الذي كان يكرههم فيخرجونه إلى المحلات والعساكر المغربية التي تحاربنا تحت قيادة فرنسا ويظهرونه للقبائل من بعيد ليوهموها أن السلطان جاء ليؤيد محاربة المجاهدين، وقد أخبرني غير واحد مما يوثق بهم أن مولاي يوسف كانت تدمع عيناه وهو في باب الخيمة، كما كنا نحن نرسل إليه أننا معه وضدا على النصارى(١٨)»، ويضيف الخطابي: «ومما يدل على أن مولاي يوسف كان له عطف علينا أنه عندما استسلمنا للفرنسيين ونقلونا إلى فاس ريثما ينفنونا إلى لارينيون مررنا راجلين ببعض الأزقة الفاسية، وإذا بشخص يقترب مني ويجذبني بلطف من قب جبابتي، ويقول لي: سيدنا يسلم عليك ويقول لك إنه لا ينساك أبدا(١٩)»، إلا أن القوى الاستعمارية أبت سوى أن تمعن في تشويه هذه الصورة، فأضحى الخطابي الذي عمل على طرد المستعمر من البلاد هو المشكل بدل الاستعمار الذي استحوذ على البلاد ومقدراتها وراح هو من ينزع عن

أبناءه انتماءهم الوطني ونعتهم بالفتان كما فعلن فرنسا عندما أطلقت في صحفها ومنتدياتها من كون السلطان طلب من فرنسا أن تتولى محاربة الخطابي والقضاء على تجربته، فليس من الغريب أن تنهج الدوائر الاستعمارية كل الأساليب والسبل لتشويه من يحاربونها ويقضون مضجعها ويقفون صدا ضد تقويض المغرب، بعد احتفى سجلّها بجرائم يندى لها جبين الإنسانية ضد المغاربة وباقي مستعمراتها.

خَاتمِةٌ

لقد استطاعت القراءة الضيقة لمختلف المحطات التاريخية لمحمد بن عبد الكريم الخطابي التي تبنتها بعض الجهات الهوياتية واليسارية والإسلامية أن تلصق مواقف الخطابي لجلبابها الأيديولوجي، وهو مما تم توظيفه من بعض الجهات النافذة، وقد تبين مما سبق تهافت هذه المواقف التي اتخذها هؤلاء، لأن جرد هذه المواقف من سياقها التاريخي وظرفها الزماني والمكاني قد يعطي بعض الإقرار بها، وبقي مشروع الخطابي أمامه مجرد مواقف سياسية لا ترقى لما طمح إليه وعمل طيلة مسيرته، وهو ما يفرض الحاجة إلى إعادة النظر في الكثير من الأطروحات التي يتم تسويقها عن الخطابي التي قد تنعكس سلبًا على الواقع المعيش لما لهذه الشخصية من حمولة رمزية وتاريخية لأهالي منطقة الريف.

وأمام كل هذا لابد من تأكيد أن الإنتاج الفكري للخطابي المثبت في مجموعة من الدروس والمذكرات والحوارات والرسائل والمقالات والتصريحات والمقدمات غنيًا بما يكفي لاستنباط معالم المشروع النهضوي الذي جسده على أرض الريف بمقوماته وأفكاره وتصوراته وآراءه التي أكد عليها بعيدًا عن ظرف الزمان والمكان، بل بقيت معه حتى في منفاه في جزيرة لارينيون ليعاود الكرَّة من جديد في القاهرة بنفس الرؤية مع تطويرها وفق ما تقتضيه الظروف.

الإحالات المرجعية:

(١) "تاريخ تطوان"، محمد داود، مراجعة وإضافات حسناء محمد داود، مطبعة الخليج العربي، تطوان، ط١، ٢٠٠٩، مجلد ١١، ص٢٤٧.

(٢) "المغرب المجهول، اكتشاف الريف"، أوجيست مولييراس، ترجمة عز الدين الخطابي، مطبعة الحمامة، تطوان، ط٢، ٢٠٢١، ص٦٢.

(٣) "إبقوين قبيلة من الريف المغربي"، أنخيلو كيريلي، ترجمة عبد المجيد عزوزي، دار أبي رقراق، الرباط، ط٢، ٢٠١٧، ص١٢٣.

(٤) "تاريخ تطوان"، محمد داود، ج١١، ص٢٤٧.

(٥) "مذكرات لارينيون"، محمد بن عبد الكريم الخطابي، تحقيق وتعليق وتقديم عبد المجيد عزوزي ومحمد أونيا وعبد الحميد الرايس وجمال أمزيان، دار أبي رقراق، الرباط، ط١، ٢٠١٧، ص١٢٨.

(٦) "نصوص ورسائل حول الثورة الريفية ١٩٢٤-١٩٢٥"، ليوطي الإفريقي، عرض وتقديم بيير ليوطي، ترجمة وتقديم عز الدين الخطابي، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ٢٠١٣، ص٦.

(٧) "محمد بن عبد الكريم الخطابي والكفاح من أجل الاستقلال"، ماريا روسا ذي مادارياكا، ترجمة وتقديم محمد أونيا وعبد المجيد عزوزي وعبد الحميد الرايس، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١٣، ص١٣.

(٨) "تاريخ تطوان"، محمد داود، ج١١، ص٢٤٧ -٢٤٨.

(٩) نقلت مجلة المنار هذا التصريح عن جريدة الشورى التونسية التي نشرته يوم ٧ أكتوبر ١٩٢٦ بعنوان: "عبرة وذكرى للشرق والشرقيين، بطل الريف يبسط خطته وآماله، ويصف أسباب فشله واستسلامه"، لتعاود المنار نشره بعنوان آخر يوم 5 نونبر 1926، بينما كان استسلام الخطابي يوم ٢٧ ماي ١٩٢٦؛ فكيف حصلت جريدة الشورى والمنار على هذا التصريح، إذ أنه لم يثبت عن الخطابي مراسلة المنار ولا الشورى ممّا يرجح نقل الشورى لتصريحات الخطابي من مجموع الصحف الأجنبية التي كانت تتولى نشر أخبار الخطابي مع تحوير ذلك.

(١٠) مقال: "جهل زعماء المسلمين ومفاسد أهل الطرق والشرفاء وكونهما سببا لفشل زعيم الريف المغربي"، مجلة المنار، مصر، ٥ نونبر ١٩٢٦، الجزء٨، المجلد ٢٧، ص٦٣١.

(١١) "الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، ملحمة المقاومة الثورية المسلحة في الشمال"، روبرت فورنو، ترجمة فؤاد أيوب، المطبعة والوراقة الوطنية، مراكش، ط2، ص104.

(١٢) "أمريكي بين الريفيين، رحلة مراسل شيكاغو تريبيون في شمال المغرب ١٩٢٥"، فنسنت شيين، ترجمة وتقديم وتعليق محمد الداودي، مطبعة الحمامة، تطوان، ط1، ٢٠٢٢، ص١٩٨.

(١٣) "أمريكي بين الريفيين"، فنسنت شيين، ص١٩٨.

(١٤) "الظل الوريف في محاربة الريف"، أحمد سكيرج، إعداد ومراجعة عبد المجيد عزوزي، سليكي أخوين، طنجة، ط١، ٢٠٢٢، ص٢٠.

(١٥) "شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي"، محمد الرايس، تقديم عبد الحميد الرايس، دار النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط١، ٢٠١١، ص٣٧٣.

(١٦) "شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي"، محمد الرايس، ص٣٧٤.

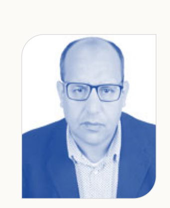
(١٧) "شهادات عن المقاومة في عهد الزعيم محمد بن عبد الكريم الخطابي"، محمد الرايس، ص٣٨٤.

(١٨) مقال: "هل كان المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي يسعى إلى تأسيس جمهورية في الريف"، عبد السلام الهراس، جريدة التجديد، العدد ٦٣، ذو الحجة ١٤٢٠هـ الموافق ٥ أبريل ٢٠٠٠.

(١٩) مقال: "هل كان المجاهد محمد بن عبد الكريم الخطابي يسعى إلى تأسيس جمهورية في الريف"، عبد السلام الهراس.

مقالات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

الذاكرة الوطنية وبناء الهوية المغربية من خلال حدثي المسيرة الخضراء (١٩٧٥م) ووثيقة المطالبة بالاستقلال (١١ يناير ١٩٤٤)
قراءة في المضامين التاريخية بالتعليم المدرسي والجامعي



د. لحسن الصديق
أستاذ بالمركز الجهوي لمهن التربية والتكوين
جهة بني ملال خنيفرة
المملكة المغربية

مُلَخّص

تتشكل الذاكرة من مجموع الأحداث التاريخية المشتركة بين مكونات أي مجتمع باعتبارها تشكل ماضيًا مشتركًا تمت مواجهته كتحدي للجميع. فهي تتضمن مجمل الأحداث التي تحظى باهتمام الرأي العام في أي بلد محدد نظرًا لكونها تخاطب المشاعر المشتركة لمختلف الفئات والإثنيات المكونة لذات المجتمع. تتراكم هذه المشاعر والتوجهات العامة من خلال الشعور الجمعي الذي يتولد عنها نتيجة الفرح المشترك أو المعاناة المشتركة اللذان تقاسمهما الأفراد المكونون للمجتمع، وهي المشاعر التي تنتج تحديًا لدى الجميع لمواجهة الصعاب من خلال مختلف أشكال التضامن والتعاون فيتم تجاوز التحديات والصعاب. سنحاول في هذه الدراسة مقاربة موضوعي ذكرى تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال وذكرى تنظيم المسيرة الخضراء باعتبارهما حدثين وطنيين كان لهما حضورهما القوي في رسم وتحديد معالم الهوية الوطنية المغربية المجسدة لسعي المغاربة وتضحياتهم في سبيل الحرية والكرامة ورفض الخضوع للأجنبي المحتل من جهة، ومن جهة أخرى باعتبارهما حدثين يجسدان الوحدة والتضامن وعدم القابلية للتجزئة بين مكونات الهوية المغربية الواحدة والمتعددة الروافد. فقد رفضت النخبة المثقفة المغربية بمختلف فئاتها الاجتماعية الخضوع للاستعمار الفرنسي الغاشم وعبرت عن هذا الرفض من خلال أشكال مختلفة من خلال المقاومة المسلحة ومن خلال النضال السياسي بتنسيق مع العرش العلوي عبر المرافعة في المنتديات الدولية والصحافة الدولية والمظاهرات الشعبية المناهضة للوجود الأجنبي على الأراضي المغربية. فماهي السياقات التي جاءت ضمنها وثيقة المطالبة بالاستقلال؟ وما دوافع تنظيم المسيرة الخضراء سنة ١٩٧٥م؟ وكيف ساهم الحدثان في تشكيل الذاكرة الوطنية المغربية؟ وكيف عملت مؤسسات بناء الهوية على استحضار الحدثين في نقل مضامينهما للأجيال وتوعيتها بتضحيات المغاربة من أجل الاستقلال ومغادرة القوى الإسبانية للأقاليم المغربية الجنوبية؟

بيانات المقال:

تاريخ استلام المقال: ١٩ سبتمبر ٢٠٢٣
تاريخ قبول النشر: ٠٤ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

الذاكرة: الهوية: المدرسة: الجامعة: تاريخ المغرب المعاصر

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.237584 

الاستشهاد المرجعي بالمقال:

لحسن الصديق. "الذاكرة الوطنية وبناء الهوية المغربية من خلال حدثي المسيرة الخضراء (١٩٧٥م) ووثيقة المطالبة بالاستقلال (١١ يناير ١٩٤٤): قراءة في المضامين التاريخية بالتعليم المدرسي والجامعي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٧٩ – ١٨٨.

Corresponding author: esseddyq@yahoo.fr
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

تتشكل الذاكرة من مجموع الأحداث التاريخية المشتركة بين مكونات أي مجتمع باعتبارها تشكل ماضيًا مشتركًا تمت مواجهته كتحدي للجميع. فهي تتضمن مجمل الأحداث التي تحظى باهتمام الرأي العام في أي بلد محدد نظرًا لكونها تخاطب المشاعر المشتركة لمختلف الفئات والإثنيات المكونة لذات المجتمع. تتراكم هذه المشاعر والتوجهات العامة من خلال الشعور الجمعي الذي يتولد عنها نتيجة الفرح المشترك أو المعاناة المشتركة اللذان يتقاسمهما الأفراد المكونون للمجتمع، وهي المشاعر التي تنتج تحديًا لدى الجميع لمواجهة الصعاب من خلال مختلف أشكال التضامن والتعاون فيتم تجاوز التحديات والصعاب، وقد يقتضي هذا التجاوز تقديم تضحيات كبيرة أو صغيرة، لكنها مهمة في تشكيل الهوية الجماعية للمجتمع.

تأتي الأحداث التاريخية في مقدمة العوامل التي تساهم بشكل كبير في تشكيل الهوية الجماعية للأفراد. وليس كل حدث تاريخي قادرًا على التأثير على الذاكرة الجماعية. فالأحداث التي لها علاقة مباشرة مع الذاكرة الجماعية للشعوب والجماعات هي الأحداث المرتبطة بالمصير الجماعي بما تقتضيه من مواجهة تحديات داخلية أو خارجية تهدد استقرار البلد أو كيانه في وجوده. وبناءً على ما سبق فإن الأحداث من هذا النوع تشكل الهوية الجماعية من خلال مساهمتها في تظافر جهود الجميع لمواجهة عدو مشترك، وهي ضرورية للمحافظة على مستوى من التعبئة والتأهب لكل ما يمكن أن يجدد تهديد الكيان الجماعي.

ونظرًا لأهمية الأحداث المؤسسة للهوية وجب الاعتبار بها من خلال توعية الأجيال الجديدة التي لم تعش الأحداث وتعريفها بتاريخها وذاكرتها المشتركة اعتمادًا على وسائل التنشئة الاجتماعية التي تعمل على نقل معارف وقيم وخبرات الراشدين إلى الأفراد الجدد في المجتمع. وتأتي مؤسسات حفظ الذاكرة (مؤسسات حفظ الأرشيف، المؤسسات التعليمية، المؤسسات الإعلامية، المؤسسات الثقافية...) في مقدمة الوسائل التي يمكن الرهان عليها للقيام بهذه الوظيفة.

سنحاول في هذه الدراسة مقاربة موضوعي ذكرى تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال وذكرى تنظيم المسيرة الخضراء باعتبارهما حدثين وطنيين كان لهما حضورهما القوي في رسم وتحديد معالم الهوية الوطنية المغربية المجسدة لسعي المغاربة وتضحياتهم في سبيل الحرية والكرامة ورفض الخضوع للأجنبي المحتل من جهة، ومن جهة أخرى باعتبارهما حدثين يجسدان الوحدة والتضامن وعدم القابلية للتجزئة بين مكونات الهوية المغربية الواحدة والمتعددة الروافد. فقد رفضت النخبة المثقفة المغربية بمختلف فئاتها الاجتماعية الخضوع للاستعمار الفرنسي الغاشم وعبرت عن هذا الرفض من خلال أشكال مختلفة من خلال المقاومة المسلحة ومن خلال النضال السياسي بتنسيق مع العرش العلوي عبر المرافعة في المنتديات الدولية والصحافة الدولية والمظاهرات الشعبية المناهضة للوجود الأجنبي على الأراضي المغربية. فماهي السياقات التي جاءت ضمنها وثيقة المطالبة بالاستقلال؟ وما دوافع تنظيم المسيرة الخضراء سنة ١٩٧٥م؟ وكيف ساهم الحدثان في تشكيل الذاكرة الوطنية المغربية؟ وكيف عملت مؤسسات بناء الهوية على استحضار الحدثين في نقل مضامينهما للأجيال وتوعيتها بتضحيات المغاربة من أجل الاستقلال ومغادرة القوى الإسبانية للأقاليم المغربية الجنوبية؟

أولاً: السياق العام لحدثي المسيرة الخضراء ووثيقة المطالبة بالاستقلال

لقد تميز الوضع بالمغرب خلال النصف الأخير من القرن العشرين مثل باقي دول العالم الثالث بنوع من الضعف نتيجة الفوارق العلمية والتقنية بينه وبين الدول الإمبريالية المجاورة له بأوروبا والتي استفادت من الثورة العلمية والتقنية فحققت تفوقًا عسكريًا واقتصاديًا جعلها تبحث عن أسواق خارجية لتصريف منتجاتها التجارية والحصول على المواد الخام بأثمنة منخفضة. وقد كانت حرب تطوان التي انهزم فيها الجيش المغربي تلك القشة التي كشفت عن الضعف والتراجع الذي لحقه بعدما كانت الدول الأوروبية تهابه خلال الفترات السابقة. وكانت هذه الهزيمة فرصة للدول الأوروبية

لفرض غرامات عليه عملت على استنزاف قدراته المالية وفرض ضغوط جبائية كبيرة على القبائل أربكت الصف الداخلي للمخزن.

إن ظروفًا مثل هذه ستؤدي حتما إلى فرض الحماية على المغرب من طرف فرنسا بعد عملية اتفاق وتسوية بينها وبين القوى الإمبريالية الأخرى التي فرضت حمايتها على بلدان أخرى بناء على نفس عملية الاتفاق. لذلك يمكن القول إن الاستعمار الفرنسي للمغرب كان حتمية لابد منها في سياق إقليمي تميز بسعي الإمبريالية الى الهيمنة على دول العالم الثالث. وقد كشف أرشيف مديرية الوثائق الملكية عن عملية تدبير هذا الوضع الجديد من طرف المخزن المغربي من خلال تتبع دائم للوضع عبرت عنه المراسلات بين السلطان أو حاجبه مع المكلف بالشؤون البرانية المقيم بالمنطقة الدولية بطنجة. تبين من خلال هذه الوثائق أن المغرب تعامل مع الوضع الجديد من خلال نوع من الدبلوماسية لم تسمح لفرنسا بالاستفراد بالشأن المغربي، بل تم التعامل مع قناصل كل الدول الأوروبية بما يعكس السيادة المغربية على أراضيها رغم محاولات الفرنسيين بالاستفراد بالوضع. وقد مكن هذا التعامل الدبلوماسي للمخزن المغربي مع القوى الأجنبية حول الموضوع من انتزاع اعتراف هذه الدول بالسيادة المغربية والدفاع عنها في المنتديات الدولية في مقابل حفظ مصالحها التجارية على الأراضي المغربية كقوى منافسة لفرنسا.

وقد عبرت النخبة المغربية الموقعة على وثيقة الاستقلال عن وعيها بهذا الوضع من خلال دعوتها الصريحة في وثيقة المطالبة بالاستقلال للدول الموافقة على حلف الأطلسي إلى المشاركة في مؤتمر الصلح. كما عبرت عن وعيها بضرورة التطور ومسايرة التغيرات التي يعرفها العالم من خلال دعوتها إلى ميثاق اجتماعي يحفظ حقوق وواجبات مختلف فئات المجتمع المغربي وهو ما يظهر من دعوة وثيقة المطالبة بالاستقلال إلى إحداث نظام سياسي حديث يضمن حقوق مختلف طبقات المجتمع المغربي ويحدد واجبات الجميع.

كما عملت المقاومة الوطنية والحركة الوطنية على لعب دور مهم في دفع الفرنسيين لقبول المطالبة المغربية بالاستقلال التي تقدم بها الموقعون على الوثيقة من خلال العمليات الفدائية والمقاطعة التي ينظمونها ضد الفرنسيين. ويمكن تفسير هذا الوعي المبكر لدى النخبة المغربية ورفضها للاستعمار الأجنبي إلى الخبرة التي راكمتها الدولة المغربية عبر قرون من الزمن ووجود تنظيم قوي ومنتشر في مختلف المناطق المغربية يعمل على تنسيق الجهود بين الحركة الوطنية ومختلف فئات الشعب المغربي. فلم يدم الاستعمار الفرنسي لمدة طويلة مقارنة بدول المحيط نظرًا لتشكل هوية مغربية متجذرة في التاريخ تمتد إلى فترة الأدارسة. كما كانت وثيقة المطالبة بالاستقلال تعبيرًا عن وعي مبكر لدى النخبة المغربية بتنسيق مع العرش العلوي بضرورة الحفاظ على الهوية المغربية متميزة.

وقد كانت المسيرة الخضراء هي بمثابة استكمال لمسار بدأته النخبة المغربية والعرش العلوي بضرورة استكمال الوحدة المغربية ورفض لأهواء القوى الإمبريالية التي عملت على تقسيم المجال المغربي إلى مجال تابع للإسبان ومجال خاضع للفرنسيين. لم يشعر المغاربة بعد مغادرة الفرنسيين للتراب المغربي بتحقيق الاستقلال التام نظرا للذاكرة الجماعية التي تشكلت من قبل والتي تعتبر أن الذات المغربية واحدة من شمال البلاد إلى جنوبها. وقد كان الوجود الإسباني بالأراضي الجنوبية المغربية بعد سنة 1956م موضوعًا مؤرقًا للذات الجماعية المغربية التي لم يهدأ لها بال حتى انجلى آخر جندي إسباني من هذه الأراضي بعد وصول المغاربة المطالبين بخروجه في مسيرة سلمية شارك فيها كل القبائل المغربية العربية والأمازيغية والريفية.

تتمثل أهمية الذاكرة الجماعية في حفظها لهذا الماضي المشترك بكل ما يتضمنه من أحداث وذكريات الحزن والفرح. فكما حزن المغاربة بدخول الأجانب للبلاد ابتداءً من سنة 1906م بعدما حطت السفن الفرنسية بميناء الدار البيضاء، فقد تقاسموا من جديد شعور الفرح بمشاركتهم الجماعية في طرد الإسبان من الأقاليم المغربية بالجنوب. وبذلك يمكن القول إن الذاكرة تساعد على استقراء واستخلاص الدروس والعبر من أحداث الماضي من أجل الاستفادة منها للمستقبل. كما تبرز أهميتها أيضًا في كونها من دواعي الإحساس بأهمية التعاون وتكاثف الجهود لمواجهات التحديات.

ثانيًا: الذاكرة والتاريخ أية علاقة؟

إن العلاقة بين التاريخ والذاكرة تتميز بنوع من الامتداد والتمفصل لأن "المسار الابستمولوجي للاشتغال على التأريخ يمر من مرحلة الشهادة والمحفوظات إلى مرحلة استعمال التعبير "لأن" في كل صور التفسير والفهم، وينتهي على مستوى الكتابة إلى التمثيل التاريخي للماضي"[١] فكل موضوع للكتابة التاريخية يستند إلى شهادات أشخاص وفاعلين عاشوا الحدث أو عاصروه فكان موضوعا أساسيا اشتغلت عليه ذاكرتهم فحفظته لجيلهم. إن الضمانة الأساسية لاستمرار موضوعات الذاكرة عبر الأجيال هو الانتقال من التداول الشفهي لموضوعاتها إلى الكتابة التاريخية التي تساهم في حفظها ونقلها للأجيال خاصة حينما نعلم أن "تمثيل الماضي معرض لتهديدات النسيان"[٢]. وتجد هذه التهديدات بالنسيان الذي يعتري الذاكرة سنده في ربط العديد من المفكرين لموضوعها بالخيال والحفظ الغيبي للنصوص. فقد صنفها ميشيل مونتاني "مقاطعة تابعة للخيال الذي كان قد عومل ومن زمان بعيد بكثير من الشبهة"[٣] فالخيال الذي تشكل الذاكرة مقاطعة منه بتعبير مونتاني لا يستند للواقع في شيء وهو الأمر الذي يجعله مخالفا للحقيقة وبذلك ألصقت بالذاكرة على المستوى النظرية العديد من النواقص. يضيف الفيلسوف الفرنسي المؤسس للحداثة والفكر الحداثي نعتا آخر للذاكرة قائلاً "وما كانت الذاكرة التي تعد طريقة تربوية باعتبارها مجرد الحفظ غيبًا للنصوص التقليدية، تحظى بسمعة سيئة"[٤]. وقد انتبه بيير نورا إلى التهديد الذي تشكله الحداثة بالنسبة لمفهومي التاريخ والذاكرة أو (التاريخ-الذاكرة) والتي تتجلى في التحديات التي أضحت التقنيات الحديثة تشكلها بالنسبة للذاكرة الجماعية للمجتمعات الزراعية التقليدية منبها إلى "إزالة ما تبقى من المعيش اليومي والذي يحمل نكهة الأعراف والتقاليد في مواجهة ما ينعت بالحديث (الحداثة)"[٥]، فالتقنيات الزراعية الجديدة جعلت الإنسان يتخلى تدريجيًا عن خبراته وتقاليده الزراعية التي تشكل جزءا من تاريخه.

كما تحضر الارتباط بين التاريخ والذاكرة في تعريف كل من أرسطو وأفلاطون للذاكرة. فإذا كان أرسطو يعتبر أن "الذاكرة من الزمان"[٦]، بمعنى أن الزمان أشمل وأوسع من الذاكرة باعتباره يتضمن ما تم تذكره وما تم نسيانه أيضا، فإن أفلاطون يرى أن "الذاكرة هي حضور للغائب"[٧] لأن الفاعل في التاريخ ينتهي وجوده الواقعي بموته فيصبح غائبًا في حين تبقى أفعاله وأقواله ومواقفه خالدة في الذاكرة تأبى النسيان وترتبط الذاكرة بالتاريخ حينما تدون وتكتب.

بناءً على المعطيات السابقة فإن الذاكرة التاريخية تثير مفارقات تخص هذا الموضوع تتمثل فكرته الأساسية في ظل وجود اختلاف جوهري يرتبط بقصديتين: إحداهما وهي قصدية الخيال تتجه نحو الوهمي، القصصي، غير الحقيقي وغير الواقعي والممكن واليوتوبي والأخرى وهي قصدية الذاكرة تتجه نحو الحقيقة السابقة، الواقع السابق. وتشكل السبقية السمة الزمنية بامتياز للشيء المتذكر، وللمتذكر (بكسر الكاف) بوصفه كذلك."[٨]

ثالثًا: في الحاجة إلى ذاكرة منظمة وقوية

اعتبر بول ريكور أن الذاكرة يتم بناؤها من خلال عمليتين أساسيتين تتجليان في عملية التشكيل وعملية إعادة التشكيل. ففي العملية الأولى تتم من خلال الإجراءات السردية التي تتم داخل النص من خلال عملية وحبكة ترتيب الروايات. أو بمعنى آخر، من خلال عملية اشتغال على الروايات المسجلة من طرف الشهود الأساسيين على الحدث التاريخي سواء كانوا مؤرخين أو رواة للذاكرة الشفوية. أما في عملية إعادة التشكيل فيت الاشتغال على الرواية أو الروايات المسجلة من خلال عملية إخراج يجعلها مرتبطة بالحياة اليومية لأفراد المجتمع، أي أنها تجسد أثر الرواية على التجربة المعيشة الحية. إن العمليتين السابقتين يقوم بهما المؤرخ من خلال إعادة اشتغاله على مختلف الوثائق التي تتوفر لديه والمتعلقة بأحداث الماضي موظفًا تقنيات الكتابة السردية التاريخية وفق حبكة مفكر فيها قبليًا لضبط العالم المروي بشكل يسمح بتوجيه المعيش اليومي للناس.

وقد انطلق بيير نورا من نموذج الثورة الفرنسية للحديث عن علاقة الذاكرة والتاريخ في قوله " أن كتابة تاريخ الثورة الفرنسية يقتضي إعادة تكوين أساطيرها وتفسيراتها، وهو ما يعني أننا لم نتعرف بشكل كامل على إرثها... مساءلة عادة أو تقليد مهما بدت لنا غير ذات أهمية لابد من البحث عن قائلها ومعرفته... كما أن تاريخ التاريخ لا يتكون فقط من الأشياء التي نعتبرها مقدسة، بل يجب أن نسائل الوسائل المادية والمفاهيمية والمساطير التي أنتجته والبنيات الاجتماعية التي تتداوله."[٩] إن هذه الإشارة التي نبه إليها بيير نورا في هذا النص تدفعنا إلى الانتباه إلى أهمية الذاكرة الشفهية حول حدثي المطالبة بالاستقلال وذكرى المسيرة الخضراء، وهو الأمر الذي اشتغلت عليه المندوبية السامية للمقاومة من خلال مندوبياتها الجهوية والإقليمية بكل جات المغرب من خلال تسجيل وتدوين شهادات الأشخاص الذين ساهموا في الحدثين. لم نستطع الاطلاع على أرشيفات هذه المندوبيات حول ما تم تسجيله حول الحدثين، لكن العملية الأهم في نظرنا تتمثل في ضرورة اشتغال الباحثين على هذه الذاكرة المسجلة لتوثيقها ودراستها.

لا يمكن القول إن المؤرخ وحده هو من يشتغل على المروي ويسعى إلى بناء وإعادة بناء الذاكرة، بل يشتغل قبله العديد من المتدخلين الذين يمثلون مؤسسات اجتماعية أو ثقافية أو سياسية. ويبرز بيير نورا أثر التحولات التي تعرفها المجتمعات الحديثة والتي تؤثر بشكل مباشر على التاريخ-الذاكرة والتي تتمظهر في التغيرات الجديد على مستوى المؤسسات التي تسهر على نقل القيم بالمجتمع (المدرسة، الكنيسة، الأسرة، الدولة...). كما يؤكد على الدور الذي تلعبه هذه المؤسسات في الانتقال من الماضي للحاضر والتحضير للمستقبل مؤكدا أن الذاكرة بالمعنى الحقيقي توجد لدى المؤسسات البدائية التي تحفظ النموذج الأول للذاكرة الذي يمتلك الآليات الضرورية لاشتغال الذاكرة بشكل طبيعي. وبناء على ضرورة ولوج المجتمعات للحداثة بكل مستوياتها بات من الضروري تنظيم الذاكرة وبناؤها تجنباً للنسيان من خلال الاعتماد على الأدوار المنوطة بمؤسسات نقل القيم التي سبق الحديث عنها، وعملاً بتكييف ما سبق على الخصوصية المغربية نقترح اشتغال المؤسسات الآتية على الذاكرة فيما يخص موضوعي هذه المداخلة (ذكرى المطالبة بالاستقلال وذكرى المسيرة الخضراء).

لقد اعتمدنا في هذه الدراسة على دراسة وتحليل مضامين بعض الوثائق الخاصة بمناهج المدرسة والجامعة المغربية من خلال تتبعنا للوثائق المرجعية للمنهاج التربوي المغربي والكتب المدرسية لمادة الاجتماعيات بمختلف الأسلاك التعليمية المغربية (السلك الابتدائي- السنوات الرابعة والخامسة والسادسة- والسلك الثانوي الإعدادي والتأهيلي). عملنا من خلال عملية التتبع هذه على جرد الدروس التي ترتبط بشكل مباشر أو غير مباشر بعملية التعريف والتحسيس بالحدثين كمساهمة من المنهاج في بناء الهوية المغربية في ارتباطها بهذين الحدثين المؤسسين. اشتغلنا بعد ذلك على وثيقة الأساسية التي تجسد منهاج الجامعة المغربية والتي تتعلق بالملف الوصفي للشعب، وقد انطلقنا من الملف الوصفي لشعبة التاريخ والحضارة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال للوقوف على المحاور التي تتعلق بنفس الحدثين في هذا الملف الوصفي. تطرقنا بعد ذلك إلى بعض المؤسسات التي تشتغل على حفظ وصيانة الذاكرة على المستوى الاستراتيجي من خلال عملها على جمع الوثائق والأرشيفات الوطنية والجهوية لتمكين الباحثين من الاشتغال عليها، وقد اقتصرنا على تجربتنا البحثية بهذه المؤسسات للتعريف بدورها البارز في هذا الصدد.

٣/١-المدرسة

تُعَدّ المدرسة آلية مهمة لصناعة الهوية ونقل قيم ومبادئ المجتمع للأجيال الجديدة داخل أي تجمع بشري كما عبر عن ذلك السوسيولوجي الفرنسي بيير بورديو في كتاباته حول الموضوع[١٠] نظرًا لما تلعبه المدرسة والمدرس في نقل المعارف وتبسيطها للناشئة بشكل تدريجي. وقد انطلق المنهاج التربوي المغربي من الوعي بهذه المسألة ليعتبر مدخل القيم أساسيًا في تصريف مواد المنهاج وكانت الأحداث الوطنية بما فيها حدثي (المطالبة بالاستقلال والمسيرة الخضراء) حاضرة في هندسة وتصور هذا المنهاج.

بناء الهوية الوطنية

من خلال توجهات المنهاج التربوي المغربي

تناول المنهاج التربوي المغربي مسألة بناء الهوية المغربية من خلال تعزيز القيم الوطنية بشكل عام والتي يندرج ضمنها الاعتزاز بالقيم الوطنية بما فيها الاعتزاز بما قدمه الأسلاف من تضحيات من أجل الحصول على الاستقلال من جهة ومن أجل تحرير أقاليمنا الجنوبية من جهة أخرى. وقد تناول المنهاج هذا الموضوع ضمن محور الاختيارات والتوجهات الوطنية في مجال التربية والتكوين وفي إطار الغايات الكبرى لنظام التربية والتكوين.

ففي إطار الاختيارات الاستراتيجية للمنهاج، حددت وثيقة المنهاج هذه الاختيارات في: "الحفاظ على الثوابت الدستورية للبلاد المتمثلة في الدين الإسلامي والوحدة الوطنية متعددة الروافد والملكية الدستورية والاختيار الديمقراطي. الهوية الوطنية الموحدة بانصهار مكوناتها المتعددة العربية-الإسلامية، والأمازيغية، والصحراوية الحسانية والغنية بروافدها الأفريقية والأندلسية والعبرية والمتوسطية والمبنية على تعزيز الانتماء إلى الوطن وعلى قيم الانفتاح والاعتدال والتسامح والحوار والتفاهم المتبادل بين الثقافات والحضارات الإنسانية".(١١)

مادة الاجتماعيات بالسلك الابتدائي: تتضمن مادة الاجتماعيات بالسلك الابتدائي ثلاث مكونات أساسية تتمثل في التربية على المواطنة والتاريخ والجغرافية، وفيما يأتي أهم العناوين التي تضمنت إشارات إلى الحدثين في الكتاب المدرسي للاجتماعيات. وقد اعتمدنا في استخراج الدروس المتضمنة للإشارات حول الحدثين في مقررات السلك الابتدائي على بعض المراجع المشار إليها في هذا الهامش(١٢).

المستوى الرابع

مكون التربية على المواطنة: درس مكونات هويتنا: تضمن حديثا عن تعدد مكونات الهوية المغربية اعتمادا على مقتطفات من الدستور المغربي. وقد تمت الإشارة بوضوح إلى المكون الصحراوي الحساني كجزء من الهوية المغربية.(١٣)

المستوى الخامس

مكون الجغرافيا

درس مميزات وطني: الخريطة، الحدود والمدن(١٤)

درس مميزات وطني: الجبال والهضاب والسهول(١٥)

درس مميزات وطني: رسم خريطة(١٦)

درس مميزات وطني: الأنهار والسدود قدم خلاله وادي الساقية الحمراء كجزء من الوطن.(١٧)

درس السكان في وطني: التوزع والبيئة(١٨)

درس مشاكل بيئية في وطني: التصحر والتلوث ومشكل الماء.(١٩)

المستوى السادس

مكون التاريخ

درس المغرب في القرن التاسع عشر والنصف الأول من القرن العشرين: مبادرات إصلاحية ومواجهة الاستعمار(٢٠)

درس المغرب: تحقيق الاستقلال واستكمال الوحدة الترابية(٢١)

مكون الجغرافيا

درس موقع وطني من النطاقات المناخية العالمية الكبرى.(٢٢)

درس موقع وطني من النطاقات الزمنية.(٢٣)

درس المميزات الطبيعية لوطني: السهول والأحواض المائية(٢٤)

درس مميزات وطني: الموانئ والثروة السمكية.(٢٥)

درس مميزات وطني: تنوع السكان.(٢٦)

حضور الحدثين ببرنامج الاجتماعيات بالسلك الثانوي الإعدادي والتأهيلي

السنة الثانية من التعليم الثانوي الإعدادي

مكون الجغرافيا: تمت هيكلة برنامج الثانوي الإعدادي باعتماد مدخل المحاور على أساس محورين لكل سنة دراسية. وقد اقتصرنا في هذه الدراسة على نموذج السنة الثانية من الثانوي الإعدادي(٢٧). وإذا كان برنامج مادة التاريخ لم يتناول أي من الحدثين فإن محور الجغرافية قد تضمن إشارات حول انتماء الصحراء المغربية للمجال المغربي في الدروس الآتية:

- ماذا توفر لنا الطبيعة: موقع استراتيجي[٢٨]
- ماذا توفر لنا الطبيعة: تضاريس وموارد سطحية متنوعة[٢٩]
- ماذا توفر لنا الطبيعة: موارد باطنية مختلفة[٣٠]
- ماذا توفر لنا الطبيعة: مناخ متنوع الخصائص[٣١]

كما تقدم مادة التربية على المواطنة معطيات إضافية:

درس مقومات الدولة المغربية: المقوم الترابي، المقوم البشري (الأمازيغ، بنو هلال، بنو معقل، الأندلسيون، وفود من أفريقيا الاستوائية...)[٣٢]

حضور الحدثين ببرنامج الثانوي التأهيلي: اعتمدنا في هذا المحور على مجموعة من المراجع المدرسية من أجل الاطلاع على مضامين المقررة بمستويات الثانوي التأهيلي[٣٣]

الجذوع المشتركة للثانوي التأهيلي: يلاحظ الغياب التام للموضوعين في برنامج التاريخ جدع الآداب والعلوم الإنسانية.

السنة الأولى بكالوريا: كما يشار إلى حضور الموضوعين في برنامج السنة الأولى ثانوي تأهيلي في الدروس الآتية:

- الظاهرة الإمبريالية في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.[٣٤]
- الاستغلال الإمبريالي للمستعمرات وانعكاساته الاقتصادية والاجتماعية (جنوب أفريقيا نموذجًا)[٣٥]
- التنافس الاستعماري والسير نحو الحرب العالمية الأولى[٣٦]
- التغلغل الاستعماري في المغرب منذ ١٨٣٠م إلى نهاية القرن ١٩م الآليات ومظاهر التغلغل[٣٧]
- محاولات الإصلاح في المغرب: مجالات الإصلاح ومحدوديتها.[٣٨]
- المغرب في مطلع القرن ٢٠: الأوضاع الداخلية وفرض الحماية.[٣٩]

السنة الثانية بكالوريا: خصص برنامج السنة الثانية بكالوريا عدة دروس تتناول الموضوعين:

- المغرب تحت الحماية.[٤٠]
- المغرب: الاستغلال الاستعماري في عهد الحماية.[٤١]
- تصفية الاستعمار وبروز العالم الثالث.[٤٢]
- المغرب: الكفاح من أجل الاستقلال واستكمال الوحدة الترابية.[٤٣]

إحياء ذكرى الحدثين بالمؤسسات المدرسية: كما تلعب الحملات التحسيسية التي تنظمها المؤسسات التعليمية الابتدائية والإعدادية والثانوية دورًا مهمًا في تثبيت وترسيخ هذه القيام نظرًا لما تقدمه من أنشطة متنوعة من مسرح وأناشيد ولعب للأدوار.

٢/٣-الجامعة

حضور الحدثين ببرنامج الجامعة المغربية

(نموذج شعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية ببني ملال):

إذا كان برنامج مادة الاجتماعيات بكلا السلكين الابتدائي والثانوي قد ركز على التحسيس وتثبيت المعارف حول الحدثين لدى التلاميذ والناشئة على العموم فإن الملف الوصفي لمادة التاريخ بالجامعة المغربية يستهدف تكوين معرفة متخصصة وتعميق الوعي لدى الطالب حول الحدثين التاريخيين. لذلك نجد أن الحدثين يحضران فقط ضمن برنامج وحدتين أساسيتين هما الوحدة ٣٠ بعنوان "الاستعمار وحركات التحرر في أفريقيا" التي لامس مضامينها حالة المغرب بشكل مباشر، لكنها تبرز السياق العام لظهور حركات مجتمعية تحررية بمختلف الدول الأفريقية من أجل مقاومة حالة الاستعمار التي تعرفها هذه المجتمعات. وقد حددت أهداف هذه الوحدة في:

- اكتساب الطالب للمعرفة التاريخية من خلال اطلاعه على الظروف المحلية والدولية التي ساعدت على تصفية الاستعمار وكذا خصوصيات بعض الحركات التحررية وأساليب مقاومتها للمستعمر وبعض النماذج منها.
- المساهمة في خلق وعي ثقافي لدى الطالب بخصوص تاريخ الاستعمار والحركات التحررية بأفريقيا والتطورات التي عرفتها من خلال جعله يقدر التضحيات التي بذلتها هذه الحركات من أجل الاستقلال.

ومن المعلوم أن الحركة الوطنية المغربية تتقاسم مع هذه الحركات مجموعة من المبادئ التي قامت عليها مثل:

- قيام الحركات التحررية بمختلف الدول المستعمرة.
- التضامن بين الشعوب.
- اتباع النضال السياسي قبل الحرب العالمية الثانية والكفاح المسلح بعدها.
- أنها حركات تحررية شاركت فيها جميع الفئات من المجتمع.(٤٤)

كما أن الوحدة رقم ٣١ بعنوان" الاستعمار والمقاومة بالمغرب" تناولت بشكل مباشر موضوع الحدثين وقدمت للطالب المغربي معطيات تاريخية دقيقة تستهدف تكوينه الرصين حول تاريخ المغرب خلال فترة الاستعمار. وقد حددت أهداف هذه الوحدة في:

- إبراز أسباب وظروف استعمار المغرب من قبل الفرنسيين والإسبان وإلى إظهار مدى حجم المقاومة المغربية وتصديها لجيوش الاحتلال.
- القدرة على فهم السياق التاريخي لاستعمار المغرب والظرفية الحرجة التي عانى منها المغاربة خلال هذه المرحلة الدقيقة.
- الوقوف على التضحيات الجسيمة التي قدمها الشعب المغربي دفاعا عن أرضه ومقدساته.

وقد قدمت المحاور المقترحة لهذه الوحدة تغطية شاملة لمختلف حيثيات الحدثين كما يلي:

- التدخل الأجنبي والمقاومة المسلحة المغربية في بداية القرن ٢٠.
- المقاومة المغربية من عقد الحماية ١٩١٢ إلى ١٩٣٦.
- بعض ملامح السياسة الاستعمارية الفرنسية والإسبانية.
- النضال السياسي والمسلح للحركة الوطنية المغربية.
- رجوع الملك محمد الخامس من المنفى وحصول المغرب على الاستقلال.(٤٥)

كما تساهم الجامعة المغربية في عملية التعريف بالحدثين من خلال الأعمال والندوات العلمية المتخصصة في الموضوع والتي يستدعى إليها متخصصون في الموضوع. تعمل الندوات العلمية على مقاربة المواضيع من مختلف الجوانب كما تعمل على طبع ونشر أعمالها ليطلع عليها القارئ المتخصص.

٣/٣-مؤسسات حفظ الذاكرة

تراهن المجتمعات على الحفاظ على ذاكرتها على المدى المتوسط والبعيد نظرا لما تلعبه الذاكرة من حفظ للهوية الجماعة للدولة والمجتمع. وقد عمل المغرب على الاشتغال على هذا الموضوع منذ العصر الوسيط على الأقل من خلال عملية الكتابة التاريخية والمكتبات العامة والخاصة أيضًا. وقد تعززت هذه العناية خلال القرن العشرين بإحداث المغرب لمجموعة من المؤسسات العامة التي تخصصت في هذا الموضوع، نخص بالذكر كل من مديرية الوثائق الملكية والخزانة الملكية بالقصر الملكي ومؤسسة أرشيف المغرب.

مديرية الوثائق الملكية بالرباط

لقد تمكنت مديرية الوثائق الملكية المغربية التي يوجد مقرها بجوار صومعة حسان بالرباط من جمع رصيد وثائقي مهم من الوثائق المخزنية التي تم تبادلها بين مختلف رجال المخزن خلال القرون الثلاثة الماضية على الأقل. كما اشتغلت على تنظيم هذه الوثائق وفق منهج يعتمد الكرونولوجية الزمنية أحيانا ووحدة الموضوع أحيانا أخرى. وقد عملت المديرية على تحقيق هذه الوثائق وتخريجها وطبعها لتصبح قابلة للتداول بين الباحثين. كما تعمل على صيانة الوثائق المهددة من خلال حمايتها في علب محصنة ومراقبة استعمالها حتى لا تضيع فيضيع معها جزء من تاريخ وهوية الذات المغربية.

الخزانة الملكية بالرباط

لقد عملت المؤسسة على جمع تراث هام من الوثائق والمخطوطات من مختلف التخصصات مثل الفقه والتصوف والأصول والفلك والتاريخ ... كما عملت المؤسسة على جمع وتصنيف الوثائق والكنانيش المخزنية. وعملت على فتح أبوابها للباحثين للاطلاع على هذه الوثائق وعلى تمكينهم منها قصد الاشتغال على تحقيقها أو تصنيفها بتنسيق مع الجامعات المغربية حيث تشترط الحصول على موافقة وتزكية أستاذ بإحدى الجامعات لتمكين الطالب الباحث من الاشتغال على إحدى المخطوطات لتحقيقها. كما حصرت عملية

الاطلاع على الطلبة والباحثين المتخصصين حفظا لهذه الوثائق وصيانة لها. كما أنها تعمل على الحفظ الرقمي لهذه الوثائق تحسبا لتلاشيها في المستقبل.

مؤسسة أرشيف المغرب

تعمل مؤسسة أرشيف المغرب منذ إحداثها على جمع وتوثيق وتصنيف مختلف أصناف الوثائق الخاصة بمرحلة الحماية الفرنسية والإسبانية للمغرب. تتوفر المؤسسة على رصيد مهم من الوثائق الخاصة بالمرحلة الاستعمارية من تقارير البعثات العلمية وتقارير ضباط الشؤون الأهلية ومراسلات بين هؤلاء ومختلف الشخصيات والأعيان المحليين. غير أن الوثائق المتضمنة بهذه المؤسسة تحتاج إلى تصنيف يسهل معه الوصول الى المطلوب. كما تحتاج إلى عملية رقمنها لتجنب إتلافها.

إن اشتغال هذه المؤسسات على موضوع الذاكرة هو عمل تاريخي ومساهمة في الكتابة التاريخية باعتبار أن التاريخ هو "إعادة بناء دائمة وغير مكتملة لما لم يعدّ موجوداً من جهة... وباعتبار الذاكرة هي ظاهرة معاصرة دائما ورابط معاش لحاضر خالد."[٤٦] فعملية التأريخ والكتابة التاريخية تبدأ بوجود الوثيقة التاريخية بمختلف أنواعها نظرا لأهميتها كأرضية للكتابة التاريخية.

خَاتِمَةٌ

لقد أبرزنا من خلال هذه المقالة أهمية الذاكرة الوطنية في التعبئة المجتمعية لمواجهة تحديات الماضي والحاضر والمستقبل من خلال إبرازنا لدور حدثي المطالبة بالاستقلال والمسيرة الخضراء في تعبئة وتوحيد جهود مختلف مكونات المجتمع المغربي وروافده الثقافية المتنوعة في مواجهة تحديات الاستعمار الفرنسي والإسباني للأراضي المغربي. وقد لعب وعي النخبة المغربية وتنسيقها مع العرش العلوي دوراً أساسيًا في تأطير الشعب المغربي وتوحيد جهوده لطرد المستعمرين. فإذا كان واقع الاستعمار حتمية تاريخية فرضته السياقات الإقليمية والدولية خلال النصف الأول من القرن العشرين، فإن تجربة وخبرة مختلف مكونات الدولة المغربية قد تعاملت بنوع من الدبلوماسية مع هذا الاستعمار واستطاعت التخلص منه في زمن قصير مقارنة بدول أخرى. ولعل هذا العمق التاريخي الذي تشكل لدى المغاربة قبل الاستعمار هو الذي ساهم بشكل كبير في الرغبة الملحة لدى النخبة المغربية في التخلص من الاستعمار.

أن هذا الرصيد التاريخي للذات المغربي في حاجة إلى تثمين وتقدير لدى الأجيال وهو الأمر الذي يجعل من اشتغال مؤسسات حفظ وبناء الذاكرة الوطنية مثل المدرسة والجامعة ومؤسسات حفظ الأرشيف ضرورة ملحة لضمان نقل قيم الهوية الوطنية لمختلف أجيال المجتمع المغربي على المدى المتوسط والبعيد. وقد أبرزت هذه المقالة حضور الحدثين السالفين الذكر بالمنهاج التربوي المغربي خلال مختلف الأسلاك التعليمية مما يتيح تحقيق الأهداف السابقة.

التوصيات

نقترح في ختام هذه المقالة التوصيات الآتية من أجل تكوين ذاكرة وطنية قوية:

- اعتبار إحياء الذاكرة الوطنية واجبًا تجاه الأجيال المقبلة، ومن ثمة ضرورة المساهمة في التعريف بهذه القضايا الوطنية المؤسسة للهوية المغربية.
- اعتبار الاحتفاء بأحداث الذاكرة واجب النخبة العلمية، فلابد للجامعة المغربية من المساهمة في تعريف الأجيال بأحداث الذاكرة واستخلاص الدروس والعبر منها، سواء على مستوى المنهاج التربوي المدرسي أو الجامعي.
- ضرورة اعتبار الصحراء المغربية قضية المغاربة جميعًا منذ السبعينيات من القرن الماضي، بل منذ العصر الوسيط، فلا مجال لوضعها على طاولة النقاش مع أي طرف.
- أن المسيرة الخضراء هي بداية لمسيرة تنموية ظهرت نتائجها اليوم من خلال ما تعرفه الصحراء المغربية من بنية تحتية ستساهم في نهضة اقتصادية للمغرب مستقبلاً.

الإحالات المرجعية:

(١) بول ريكور، الذاكرة، **التاريخ، النسيان**، ترجمة جورج زيناتي، دار الكتاب الجديدة المتحدة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩، ص٢٨.
(٢) بول ريكور، نفسه ص ٢٩
(٣) بول ريكور، نفسه ص ٢٢
(٤) بول ريكور، نفسه، ص ٣٤
(5) Pierre Nora, entre mémoire et histoire, la problématique des lieux, p 27
(٦) بول ريكور، نفسه ص ٣٤
(٧) بول ريكور، نفسه، ص ٣٥
(٨) بول ريكور، نفسه، ص ٣٤
(9) Pierre Nora, op cit, p21
(١٠) يمكن الرجوع بشكل خاص إلى:
Pierre Bourdieu, les héritiers
Pierre Bourdieu, la reproduction
(١١) وزارة التربية الوطنية، **مديرية المناهج، المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي**، الصيغة النهائية، يوليوز ٢٠٢١، ص ٢٢
(١٢) **المسار الاجتماعيات** تاريخ وجغرافيا وتربية مدنية، مجموعة من المؤلفين، السنة السادسة من التعليم الابتدائي، نادية للنشر، طبعة شتنبر ٢٠٢٠. في **رحاب الاجتماعيات**، مجموعة من المؤلفين، السنة الرابعة من التعليم الابتدائي، مكتبة السلام الجديدة والدار العالمية للكتاب، دون سنة طبع. وزارة التربية الوطنية، مديرية المناهج، المنهاج الدراسي للتعليم الابتدائي، الصيغة النهائية، يوليوز ٢٠٢١. **الجديد في الاجتماعيات**، مجموعة من المؤلفين، السنة الخامسة من التعليم الابتدائي، دار نشر المعرفة، طبعة ٢٠٢١.
(١٣) **في رحاب الاجتماعيات**، مجموعة من المؤلفين، السنة الخامسة من التعليم الابتدائي، دار نشر المعرفة، طبعة ٢٠٢١، ص ٥٦
(١٤) نفسه ص ٥٤
(١٥) نفسه ص ٥٧
(١٦) نفسه ص ٦١
(١٧) نفسه ص ٦٩
(١٨) نفسه ص ٨١
(١٩) نفسه ص ٨١
(٢٠) **الجديد في الاجتماعيات**، مجموعة من المؤلفين، السنة الخامسة من السلك الابتدائي، دار نشر المعرفة، طبعة ٢٠٢١، ص ٥٠.
(٢١) نفسه، ص ٥٣
(٢٢) نفسه ص ٦١
(٢٣) نفسه ص ٧١
(٢٤) نفسه ص ٧٦
(٢٥) نفسه ص ٨٠
(٢٦) نفسه ص ٩٥
(٢٧) **منار الاجتماعيات**، مجموعة من المؤلفين، السنة الثانية من التعليم الثانوي الإعدادي، Top Edition، دون سنة الطبع
(٢٨) نفسه، ص ٧٢
(٢٩) نفسه ص ٧٥
(٣٠) نفسه، ص٧٩
(٣١) نفسه ص ٨٦
(٣٢) نفسه، ص ١٣٦
(٣٣) أهم هذه المراجع: **الجديد في التاريخ**، مجموعة من المؤلفين، السنة الثانية من سلك البكالوريا، شعب الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الشرعية واللغة العربية بالتعليم الأصيل، العلوم الاقتصادية وعلوم التدبير المحاسباتي والعلوم الزراعية، كتاب التلميذ، مطبعة النجاح الجديدة، طبعة ٢٠١٥.-**الجديد في التاريخ**، مجموعة من المؤلفين، السنة الأولى من سلك البكالوريا، مسلك الآداب والعلوم الإنسانية ومسلك اللغة العربية بالتعليم الأصيل، كتاب التلميذ، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦. -**في رحاب التاريخ**، مجموعة من المؤلفين، الجذوع المشتركة للتعليم الثانوي التأهيلي، جدع الآداب والعلوم الإنسانية، كتاب التلميذ، مكتبة السلام الجديدة والدار العالمية للكتاب، طبعة ٢٠١٨.
(٣٤) **الجديد في التاريخ**، مجموعة من المؤلفين، السنة الأولى من سلك الباكلوريا، مسلك الآداب والعلوم الإنسانية ومسلك اللغة العربية بالتعليم الأصيل، كتاب التلميذ، مطبعة النجاح الجديدة، الطبعة الأولى ٢٠٠٦، ص ٦٩
(٣٥) نفسه، ص ٨٠
(٣٦) نفسه، ص ٩١
(٣٧) نفسه، ص ١٧١
(٣٨) نفسه، ص ١٨٤
(٣٩) نفسه، ص ١٩٤
(٤٠) **الجديد في التاريخ**، مجموعة من المؤلفين، السنة الثانية من سلك البكالوريا، شعب الآداب والعلوم الإنسانية والعلوم الشرعية واللغة العربية بالتعليم الأصيل، كتاب التلميذ، مطبعة النجاح الجديدة، طبعة ٢٠١٥، ص ٦٩
(٤١) نفسه ص ٨٢
(٤٢) نفسه، ص ١٣٣
(٤٣) نفسه، ص ١٦٨
(٤٤) الملف الوصفي لشعبة التاريخ بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال الخاص بالوحدة رقم ٣٠.
(٤٥) الملف الوصفي للوحدة رقم ٣١ بشعبة التاريخ كلية الآداب والعلوم الإنسانية بني ملال.
(46) Pierre Nora, op cit, p 29

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

أسباب "سيبة" قبيلة بني مسارة على المخزن المغربي في منطقة وزان أواخر القرن التاسع عشر الميلادي



د. إبراهيم بل العافية
دكتوراه التاريخ الحديث والمعاصر
كلية الآداب والعلوم الإنسانية
جامعة عبد المالك السعدي - المملكة المغربية

مُلَخّص

عرفت قبيلة بني مسارة عبر تاريخها الطويل في المغرب كقوة ذات تأثير كبير في محيطها القبلي بمنطقة وزان وبلاد جبالة شمال المغرب. حيث كانت في حالة "سيبة" وتمرد دائم لسلطة المخزن وطغيان على جيرانها من القبائل مما جعلها تحتل مكانة مرموقة بين قبائل السيبة في منطقة وزان. وحتى الأجانب خاصةً الفرنسيين الذين درسوا أوضاع القبيلة خلال القرن التاسع عشر صنفوها على رأس قبائل "السيبة" بمنطقة وزان، بسبب شيوع حمل السلاح والقوة الحربية الطاغية على الجيران، ونتيجة لتعاقب قواد مستبدين طائشين على المجتمع القبلي ومؤسساته، وهذا ما أدى إلى تفسخ العلاقات الاجتماعية، وضعف سلطة الدولة بالقبيلة وانعدام الأمن بالنسبة للتجار والغرباء داخل ترابها أو في المناطق المجاورة لها، حيث انتشار الفوضى والاضطرابات. يضاف إلى ذلك المرحلة التاريخية الحرجة التي أدت إلى إضعاف الدولة المغربية، بتزايد الضغوط الأوربية عليها وتأثيراتها السلبية بفقدانها لهيبتها واستنزاف ماليتها، وهذا ما أثر سلبًا على أوضاع القبائل والمجتمع وفي علاقتها مع سلطة الدولة، حيث التمرد الدوري على المخزن الذي لم تكن تتجاوز سلطته في بعض الأحيان الجانب الروحي، أما زمنيًا فكانت تمارس ظرفيًا فقط عندما تكون سلطة المخزن قوية عبر الحركات التي كانت تؤدب وتغرم، لكن بمجرد مغادرتها تعود القبيلة إلى ممارساتها السابقة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث:	١٤	أكتوبر	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٣	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

بني مسارة؛ "السيبة"؛ المخزن؛ جبالة؛ وزان

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2024.255513 

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

إبراهيم بل العافية. **"**أسباب "سيبة" قبيلة بني مسارة على المخزن المغربي في منطقة وزان أواخر القرن التاسع عشر الميلادي".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ١٨٩ – ٢٠٣.

Corresponding author: ibrahimbelafia9@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

إن سيبة قبيلة بني مسارة في المغرب خلال أواخر القرن التاسع عشر تمثل فترة زمنية حرجة في تاريخ منطقة وزان، حيث شهدت القبيلة تحولات وتغيرات جوهرية أثرت في العلاقة بينها وبين السلطة المركزية. في هذا السياق، يستحق تحليل العناصر الرئيسة التي أسهمت في تفاقم الفوضى والتمرد داخل قبيلة بني مسارة الدراسة لفهم كيف أثرت هذه الأحداث على علاقة القبلية مع الدولة المغربية؟ ويتطلب فهم هذه الفترة التاريخية الهامة فحص السياق الاجتماعي والاقتصادي والسياسي الذي عاشته منطقة وزان في هذه الحقبة. ويعد التأثير الأوروبي والتحديات التي واجهت الدولة المغربية نتيجة للضغوط الخارجية جزءًا من الخلفية التي ساهمت في إشعال نار الفوضى داخل قبائل المغرب، بما في ذلك قبيلة بني مسارة. وسيكون الفحص الدقيق للأحداث التي أدت إلى سيبة بني مسارة، وكيف تفاعلت معها الدولة المغربية، جوهريًا لفهم الديناميات والعوامل التي أدت إلى هذا الانقلاب في العلاقات الاجتماعية والسياسية. وسيقوم هذا العرض بدور هام في إلقاء الضوء على تأثيرات هذه الفترة على مستقبل منطقة وزان، وتطورات العلاقة بين القبائل والسلطة المركزية في المغرب.

أولًا: تعريف السيبة والسياق التاريخي لاندلاع "سيبة" قبيلة بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر

١/١-تعريف السيبة

لغويًا: تعود كلمة السيبة إلى جذر سَيَّبَ كما جاء في لسان العرب لابن منظور، وسَيَّبَ الشيءَ: تركَه. وسَيَّبَ الدَّابَّةَ، أو الناقةَ، أو الشيءَ: تركَه يَسيبُ حيث شاءَ. وكلُّ دابَّة تركْتَها وسَوْمَهَا، فهي سائبةٌ. والسائبةُ: العَبْدُ يُعتَقُ على أن لا وَلاءَ له[١]، في مقابل ذلك نجد عند جبران مسعود في قاموسه الرائد، كلمة السائب وتعني: المهمل الذي لا حفاظ عليه ولا رعاية" مال أو رزق سائب". السائبة: ج سَيَّب وسَوائب، السَّائب[٢]. أما أحمد مختار عمر في معجم اللغة العربية، فصرف فعل سَيَّبَ إلى يَسيبُ، تَسْيِيبًا، فهو مسيِب، والمفعول مسيَب. سَيَّبَه: تركه، أطلقه، خلاه يذهب حيث شاء" فتح الولد القفص وسَيَّبَ الطائر"[٣]. يتضح من خلال ما سبق بأن كلمة السيبة تعود إلى [مفرد]: تسيب وتعني إهمال وانعدام الضوابط، وضعف الالتزام بالقوانين، فوضى واضطراب. وكلمة السيبة متجذرة في الثقافة المغربية، يقول المثل المغربي" المال السايب يعلم السرقة" أي المال غير المراقب لا يحاسب المسؤول عنه. وفي مثل مغربي آخر: "سايب مع راسو" أي لا يتحكم فيه أحد، وهناك مثل يتعلق بالتسيير الإداري للدولة "التسيب الإداري يؤدي إلى الفوضى"، أي إلى الإهمال والتهاون والاضطراب.

اصطلاحًا: تطلق كلمة السيبة على البلاد أو القبائل التي لا تخضع لسلطة المخزن والخارجة عن نفوذ وطوع السلطان، ولا توجد فيها أجهزة الدولة، لأنها تتمرد على سلطة وطغيان رجال السلطة من قواد وباشوات، وتمتنع قبائل بلاد "السيبة" عن دفع الضرائب والكلف، وكانت تدير شؤونها الداخلية بنفسها دون الرجوع إلى سلطة السلطان، عكس بلاد "المخزن" التي كانت خاضعة لسلطة السلطان ومراقبة موظفيه وأعوانه، والسيبة لا تعني دائما الفوضى والثورة على السلطان كما يدعي الأجانب[٤]، بل هي حسب بعض الباحثين المغاربة من أساليب الاحتجاج ضد التعسف الجبائي أو تعسف ممثلي المخزن، والدليل أن هذه القبائل كانت تعترف بسيادة السلطان ويستعين بها هذا الأخير عند الحاجة[٥].

حظي مفهوم السيبة باهتمام كبير لدى الأجانب، أمثال شارل دوفوكو - روبرت مونطاني - ميشو بلير... وقد اعتمد هؤلاء في دراستهم للمغرب على تقسيمه إلى قسمين: بلاد "المخزن" وبلاد "السيبة". في بلاد "السيبة" كانت القبائل تقاوم سلطة المخزن الذي يريد فرض نفوذه عليها، لكنها كانت تحاول بما أوتيت من قوة الانفلات من سلطته، أما بلاد "المخزن" فهي المناطق التي تمارس فيها سلطة المخزن كاملة، إلا أن ما يعاب على هذا التفسير، هو أن واقع حضور المخزن في قبائل بلاد "السيبة" كما سنرى في حالة بني مسارة نموذجًا، لم تكن بتلك البساطة، فالمخزن لم يكن غائبا على الدوام، بل إن جهازه التحكيمي والعقابي كانا موغلين فيها، إلا أنه كان

خاضعا للظروف التي تعيشها البلاد عموما، إضافة إلى طبيعة الموقع الجغرافي المنيع تضاريسيا، أو البعيد في الأطراف عن مركز الحكم[٦].

ففيما يخص الظروف العامة التي كانت تعيشها بلاد المغرب، فإن "سيبة" بني مسارة كنموذج، كانت تستفحل في الفترات الانتقالية بعد وفاة سلطان وتعيين سلطان آخر بدله، وكانت تزداد ضراوة مع اشتداد ضغوط الأوربيين وتزايد دسائسهم[٧]، فبعد وفاة المولى إسماعيل واندلاع أزمة الثلاثين سنة (١٧٢٧ ـ ١٧٥٧م) تمردت بني مسارة وانشغلت بإثارة الفوضى في منطقة وزان[٨]، وفي عهد المولى عبد الرحمان بن هشام استغلت بني مسارة هزيمة المخزن أمام الفرنسيين في معركة ايسلي ١٨٤٤ وانشغال السلطان بالضغوط الأوربية[٩]، وأعلنت التمرد على المخزن وطرد ممثليه، كما شرعت في مهاجمة جيرانها ونشر الاضطرابات في المنطقة، بعد حرب تطوان ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠م، ساندت قبيلة بني مسارة ثورة الروكي السوفياني سنة ١٨٦٢م في حد كورت بمنطقة الغرب[١٠]، لكن أمر بني مسارة سيستفحل أكثر في النصف الثاني من القرن التاسع عشر وبالضبط بعد سنة ١٨٧٣م، التي تتوافق مع وفاة السلطان محمد الرابع وتولية السلطان الحسن الأول، حيث استغلت القبيلة هذه الفترة الانتقالية وأعلنت تمردا على المخزن دام سبع سنوات، ومن مظاهره طرد ممثلي المخزن من القبيلة والامتناع عن أداء الضرائب.

وبخصوص الموقع الجغرافي، فرغم قرب تراب بني مسارة من مركز الحكم في العاصمة فاس، إلا أن الطابع التضاريسي الجبلي الوعر والمنيع لترابها كان يوفر لها الحماية، حيث كانت تعتصم بالجبال كلما داهمتها القوات المخزنية التي كان يصعب عليها اقتحام هذه المناطق، وهو ما كان يجعلها في مأمن من عقاب الجنود الذين عادة ما كانت تلحق بهم الهزائم، وبذلك كانت القبيلة تنفلت من رقابة المخزن.

وقد تطور مفهوم "السيبة" من معناه المكاني المباشر ليطلق مجازا على أي تمرد ضد السلطة المركزية، أي أن اللفظ أصبح مرادفا للتمرد على السلطة[١١]، وهو ما كانت تفعله بني مسارة عندما كانت تحس بضعف سلطة المخزن فتتمرد عليه، وهذا بالضبط ما وقع عند تولية السلطان الحسن الأول ١٨٧٣م التي توافقت مع طرد القبيلة لقائدها المستبد بن محمد القيسي كما سنبينه لاحقا، حيث أضحت تعيش في ثورة شبه دائمة على المخزن. وللإشارة، فقد صعب علينا تحديد بدايات ونهايات التمردات الذي قامت بها قبيلة بني مسارة خلال النصف الثاني من القرن التاسع ومطلع القرن العشرين، لعدة اعتبارات من أهمها:

ـ لم تتحدث معظم المصادر سواء المغربية أو الأجنبية بدقة عن تواريخ التمردات التي قامت بها بني مسارة، وإنما كانت تتطرق إلى مظاهرها بشكل عام، دون أن تكلف نفسها التطرق لبداية أو نهاية أي تمرد، لأن هجومات القبيلة على جيرانها كانت شبه يومية ولم تكن تنقطع أبدا. يقول موليراس في هذا الشأن:"... ولا تمر سنة دون أن يقوم قسم من بني مسارة بنهب وزان"[١٢]، وجاء في مؤلف البعثة العلمية الفرنسية:" وتعتبر القبيلة (بني مستارة) الأكثر نهبا ونشاطا من كل جبالة، يقومون بسرقة جيرانهم بدون انقطاع"[١٣].

ـ لم تكن بني مسارة تأبه في ممارساتها السائبة بمنطقة وزان لسلطات المخزن سواء كان حضوره موجودا وقويا أو غائبا، لأن القبيلة لم تكن تخشى سلطات المخزن، يقول موليراس أيضًا:"... فإن بني مسارة لا يخشون السلطة المركزية، وغالبا ما كبدوا العساكر الشريفة هزائم مخزية"[١٤]، وهذا بلا شك هو الذي جعل المصادر تتحدث عن هذه الأحداث بشكل عام دون الدخول في التفاصيل، ولولا وجود بعض الرسائل المخزنية التي بحوزتنا وتظهر غضبه ومطالبته القبيلة بالعودة إلى الجادة، وإنهاء طغيانها لاستحال علينا تحديد بداية أي تمرد أو نهايته، ولكي نستجلي هذا الأمر بدقة سنعتمد على عنصرين بارزين للفصل بين تمرد وآخر كعملية منهجية فقط لنبين درجة "سيبة" بني مسارة وطغيانها على المخزن وعلى جيرانها في منطقة وزان والمناطق المجاورة لها:

العنصر الأول: طرد الحضور المخزني من القبيلة في شخص قواده الذين كانت بني مسارة تثور عليهم، فتقتلهم أو تطردهم، وبذلك كانت تحكم نفسها بنفسها.

العنصر الثاني: الحملات المخزنية التي كان يقودها السلطان، أو قادته العسكريون لقمع القبيلة وإعادتها للجادة والطاعة.

اعتمادًا على هذين العنصرين، يمكن القول أن ثورة بني مستارة على المخزن أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين حدثت أربع مرات، وبسبب تشابه ممارسات القبيلة خلال هذه التمردات التي كان يتم خلالها: الهجوم على مدينة وزان، وقطع الطرق على المارة والقوافل، وطرد القواد المخزنيين وقتلهم، الصراع مع القبائل المجاورة، والهجوم على منطقتي الغرب واللوكوس... نعتقد بأن العوامل المسببة لها كانت واحدة، ولكي نستجلي الأمر بدقة لابد أن نتطرق للسياق التاريخي العام الذي اندرجت فيه هذه التمردات.

٢/١–السياق التاريخي لـ"سيبة" قبيلة بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين.

حافظت الدولة المغربية على استقلالها وقوتها لمدة طويلة، إلا أنها لم تستطع الصمود في وجه الضغوط الأوربية خلال القرن التاسع عشر، والتي أدت إلى تداعي أركانها وتقويض دعائمها، وإسقاطها في الهوان والضعف، ومن مظاهر الضغوط الأوربية:

الضغوط العسكرية

تمثلت هذه الضغوط في هزائم عسكرية نكراء، مثل هزيمة إيسلي سنة ١٨٤٤م أمام فرنسا وهزيمة تطوان في عامي ١٨٥٩ـ ١٨٦٠م أمام إسبانيا. وما خلفتهما من عواقب وخيمة على حاضر المغرب آنذاك ومستقبله، باشتداد التنافس الأوربي حوله[١٥]، وفي اقتطاع أجزاء ترابية مهمة من التراب الوطني ومنحها للجزائر الفرنسية. كما استطاعت إسبانيا أن توسع مساحة الثغرين المحتلين سبتة ومليلية، والأدهى من ذلك هو كشف النقاب عن الضعف الكبير للجيش المغربي الذي فتح بضعفه المجال أمام التدخلات العسكرية الأوربية. وقد لخص الناصري هذه العواقب في حديثه عن نتائج حرب تطوان بالقول:" ووقعة تطاوين هذه هي التي أزالت حجاب الهيبة عن بلاد المغرب واستطال النصارى بها، وانكسر المسلمون انكسارا لم يعهد لهم مثله"[١٦].

الضغوط الديبلوماسية والتجارية

تحت ضغوط الأحداث والهزائم العسكرية، اضطر المخزن إلى توقيع معاهدات خطيرة مع الدول الأوروبية، من بين هذه المعاهدات كانت المعاهدة المغربية البريطانية في ٩ ديسمبر ١٢٧٣هـ /١٨٥٦م[١٧]. وبعد حرب تطوان في سنة ١٨٦٠م، قامت إسبانيا بتوقيع اتفاقية تجارية مع المغرب في عام ١٨٦١م، وتمكنت فرنسا أيضًا من توقيع اتفاقية مع المغرب في ١٠ غشت ١٨٦٣م. هذه المعاهدات وضعت الأسس القانونية للحماية القنصلية ونظام التسلط على المغرب[١٨]. نتج عنها فقدانه السيطرة على التجارة الخارجية وتقلصت صلاحيات السلطان الجمركية.

انتشار الحمايات القنصلية

انتشرت في هذه الفترة، انتشرت الحمايات القنصلية بشكل كبير، حيث سمح للتجار الأوربيين بحماية المغاربة الذين كانوا يتعاملون معهم. كانت هذه الحمايات تعفي المحميين من الضرائب ومن القضاء الشرعي المغربي، وقد نجمت عن الحمايات القنصلية عواقب وخيمة على بنيات المجتمع المغربي، خاصة وأن الأوروبيين أصبحوا "مزودين بالآلة الاستعمارية المعقدة من قناصل وبعثات وجواسيس وشركات وحقوق حماية الأشخاص وغيرها"[١٩]، زد على ذلك فرض غرامة مالية باهضة بعد هزيمة تطوان بقيمة ٢٠ مليون دورو، مما أدى إلى إفراغ الخزينة وتأزيم الأوضاع المالية للدولة وسقوطها في براثن القروض الأجنبية.

لقد تسببت الضغوط الأوربية في اضطرابات خطيرة، حيث فقدت الدولة المغربية هيبتها، وبدأت التدخلات الأجنبية في شؤونها وتضعيفها سواء على المستوى المركزي أو الإقليمي. وفرضت على المخزن القيام بمجموعة من الإصلاحات لبناء دولة عصرية قوية قادرة على مواجهة الأطماع الأوربية، شملت مختلف المجالات الاقتصادية والإدارية والعسكرية، وكان أهمها إصلاحات الحسن الأول (١٨٧٣ – ١٨٩٤م) التي كان لها وقع كبير وصدى واسع، من خلالها استطاع تثبيت دعائم حكمه ودولته، كما عرف عن هذا السلطان أيضًا أن عرشه كان على ظهر جواده[٢٠]، لتأديب القبائل وفرض طاعتها لمخزنه، ومما يؤشر بوضوح على الأحوال

التي أصبحت عليها البلاد، من انتشار للفتن وللاضطرابات المحلية[٢١]، بما في ذلك الاضطرابات التي سببتها قبيلة بني مسارة في منطقة وزان، الأمر الذي دفعه إلى التحرك بنفسه للقيام بإخمادها، إضافة إلى استخلاص الجبايات وحل النزاعات...[٢٢]

ثانيًا: أسباب "سيبة" بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين

٢/١–التفوق الحربي لبني مسارة مقارنة مع قبائل الناحية

عرضت الضغوط الأوربية المخزن المغربي لهزات عنيفة، وأضعفت سلطته الداخلية على الناس، كما أسهمت في تقويض الوضع المالي للدولة، حيث أصبحت بحاجة ماسة للأموال لتغطية الغرامات الأجنبية وتمويل الإصلاحات التي دشنها السلاطين. كما ساهم انتشار الحمايات القنصلية في تفكيك لحمة المجتمع ـ بما كانوا يتمتعون به من إعفاءات ـ قضائية ـ وفي انتشار الفوضى واللاقانون بين الناس، وزاد الطين بلة عجز المخزن عن ردعهم[٢٣].

وقد لعب ذلك دورًا في إضعاف سلطة الدولة على القبائل، حيث كانت تتسبب في وقوع اصطدامات وأعمال عنف وفوضى بينها، فظهرت الخطوب وانتشرت الفتن، مما شجع المفسدين من سكانها على إطلاق أيديهم في أموال الناس وأملاكهم، وعلى نشر الفتن والفوضى داخل المجتمع، خاصة في القبائل التي كانت تغتنمها فرصة قصد الهجوم على بعضها البعض، وخلق الفوضى والاضطرابات، ومن بينها منطقة وزان التي انتشرت بها الحمايات القنصلية، خاصة في أوساط الشرفاء والموالين لهم. في رسالة موجهة من السلطان الحسن الأول إلى محمد الطريس، طلب منه دعوة السفير الفرنسي للتدخل لدى محمييهم بوزان للكف عن إذاية الناس والالتزام بالقانون: "وعليه فنأمرك أن تعرف الباشدور بذلك وتحضه على الوفاء به والوقوف عبر الفصال المذكور، والعمل بمقتضاه بإلزام الوزاني تنحية التواتي، وإيقاف أولاده عند حدهم والضرب على أيدي الصعاليك المنحاشين إليهم وتفريق جمعهم. وإن نفذ فذاك، وإلا فكلمه بأن يأمر الموقرين بالخروج من وسط أولئك الصعاليك لنأمر بالنزول على وزان وإجراء الأحكام عليهم لينزجر بهم غيرهم، فإن السكوت عليهم لا يسع لتأديته إلا اتساع خرق الفساد ولكون تلك البلاد مجاورة لقبائل الفساد كبني مستارة وأضرابهم"[٢٤].

كان هذا حال قبائل منطقة وزان، خاصة قبيلة بني مسارة، التي فجأة وجدت معالم البلاد قد تبدلت، وسلطة المخزن قد ضعفت، وهيبة الشرفاء الوزانيين قد تراجعت. لقد لمست تراجعًا كبيرًا في سلطة المخزن وحملاته القمعية، وحتى سمعة الشرفاء الوزانيين وأدوار الوساطة التي كانوا يقومون بها، لأن سلطة الشريف نفسه ضعفت وبدأ يبحث عن الحماية لنفسه، ومنها طلب الحماية القنصلية[٢٥]. لم تعد بني مسارة تجد من يقف في وجهها ويصد عدوانها على الآخرين، فتشجعت وأقدمت على شن الغارات على القبائل والسطو على مدينة وزان. يقول الحسن الأول في رسالة إلى محمد بركاش معقبا ومشخصا بدقة الحالة التي كانت عليها المنطقة وعلى دور المشاكل المشتعلة بين الشرفاء الوزانيين في ذلك ومساهمتهم في اختلال أمن المنطقة وانتشار الفوضى فيها، الأمر الذي كانت تستغله القبائل المجاورة، ومن أهمها قبيلة بني مسارة: " فإن السيد محمد ولد الحاج عبد السلام الوزاني ظهر منه بإشارة والده شق العصا والطيش والخوض والخرق على المخزن بهدم القوانين السياسية والتعادي على العوام والإفتيات بالترك على ذوي المراتب والظلم والجور، ونبذ القواعد ورفض الأحكام وراء ظهره، وكشف الحياء عن وجهه غير مكترث ولا مبال بقائم وقاعد... هذا يؤدي قطعًا إلى انتشاب فتنة عظيمة بينه وبين ابن عمه مقدم الزاوية ينشأ عنها لا محالة ازدياد فساد قبائل جبالة المجاورين لوزان، كبني مستارة وغيرهم ويسري فساد فسادهم ولابد للقبائل المجاورين لهم والمتصلين بهم هكذا وهكذا وهلم جرا إلى ما لا غاية له فيوشك أن يجر ذلك إلى اختلال نظام القبائل وانحلال ترتيب الإيالات فيتسع الخرق"[٢٦].

تميزت بني مسارة في منطقة وزان بقوتها الحربية وببطشها وبطغيانها على مدينة وزان، وعلى جيرانها من القبائل، حيث كانت سيدة المجال الجبلي بامتياز، وتميزت علاقتها بالسلطة المركزية بالعتو والعصيان

والتمرد، كان أخطرها تمرد أواخر القرن التاسع عشر. لقد طبعت حياة القبيلة خلال هذه المرحلة بالفوضى والتوتر والاقتتال، حيث كانت في حالة حرب دائمة سواء على المستوى المركزي أو المحلي. كانت العلاقة بين القبيلة والمخزن متميزة بالتوتر والعصيان من قبل القبيلة، وبالقمع والعقاب من طرف المخزن الذي جرد ضدها حملات متعددة لقمعها، أهمها حملة السلطان الحسن الأول سنة ١٨٨٩م، وحملة عبد السلام الأمراني قائد المولى عبد العزيز سنة ١٩٠٢م.

لقد سابت قبيلة بني مسارة على جيرانها القبليين وشرفاء وزان، حيث مارست النهب والقتل... جاء في مؤلف البعثة العلمية الفرنسية المسيو ميشو بلير: "وتعتبر القبيلة الأكثر نهبا ونشاطا من كل جبالة، يقومون بسرقة جيرانهم بدون انقطاع، وأحيانا يأتون لنهبهم وخطف الأطفال والفتيات ويصلون حتى داخل وزان، ويبيعون كذلك من جهة إلى أخرى الأطفال الذين يخطفونهم... وفي سنة ١٨٨٩م اضطر جيش السلطان للإقامة من ٢ إلى ٢٤ غشت بمخيم مازيرارت (خولان أعلى القبيلة) لجعل قبيلتا بني مستارة وبني أحمد يخضعان له ويدفعان مؤخر ضرائب طويل، ولم يتم ذلك إلا بعد مساومات طويلة، وبعد أن استنفذا مع السلطان نفسه كل وسائل التسويف أو التماطل"[٢٧].

وقد نجح الفرنسيون في وصف حالة القبيلة بدقة متناهية ضاهت في ذلك المصادر المغربية التي أكدت نفس المعطيات، ولكن بشكل عام دون الدخول في التفاصيل. من بين هذه المصادر، عبد الرحمان بن زيدان في كتابه "إتحاف أعلام الناس" حيث قام بالتعليق على رحلة الحسن الأول إلى الشمال قائلاً: "ووجه حركة أخرى ـ الحسن الأول ـ لقبيلة مستارة لتسكين الروعة التي قامت بها والضرب على أيدي الناهبين وقطاع الطريق على المارة لوزان، ولا يعظمون حرم مولاي عبد الله"[٢٨]، وهذا الكلام مطابق تماما لما جاء في رحلة العربي المشرفي الذي رافق الرحلة المخزنية الخامسة عشرة إلى شمال المغرب في صيف ١٨٨٩ حيث قال عنهم: "ينهبون الركبان ويأكلون أموال الناس بالباطل ويسدون السبل على المار لمدينة وزان والخارج منها... يهتكون الحريم ولا يعظمون حرم مولاي عبد الله الشريف" [٢٩].

كما تأرجحت أوصاف القبيلة في المصادر الفرنسية بين المدح أحيانًا والذم في أحايين كثيرة، فقد وصف رئيس البعثة العلمية الفرنسية بالمغرب السوسيولوجي الفرنسي إدوارد ميشو بلير قبيلة بني مسارة في دراسته عن "مدن وقبائل المغرب": بكونها من أكثر القبائل شجاعة وقوة مقارنة مع القبائل الجبلية الأخرى أناسها لا يقهرون"[٣٠]، وفي دراسة أخرى بـ" القبيلة المرعبة الخطيرة، أهلها أكثر الناس عنفًا وشراسة ووحشية وقسوة وعتوا، مشهورون بشجاعتهم القوية، ولهم صيت ذائع في الشدة والبأس، لا يقهرون ولا يغلبون"[٣١]، وبالوصف نفسه ذكرهم موليراس حينما تكلم عن هجمات المساريين على مدينة وزان قائلاً: "إن الشخص المساري هو سيد المدينة، يتجول فيها بسلاحه، ويتكلم بصوت عال، يروع ساكنتها دون تمييز بين الشريف والعامي واليهودي يسبي الفتيان والفتيات، ويذهب بهم إلى قبيلته كي يبيعهم أو يسخرهم لخدمة أغراضه، فلا تمر سنة دون أن تقدم فرقة من بني مستارة لنهب وزان، فكم من مرة نهبت هذه المدينة المقدسة وأحرقت من قبل الجيران المساريين الخطيرين، فلا جدوى من محاولة المدينة مقاومتهم، فدائمًا ما كانت تبوء بالفشل"[٣٢].

بذلك صنفت بني مسارة من لدن الأجانب ضمن قبائل "السيبة" اعتماداً على مجموعة من المظاهر، منها شيوع حمل السلاح، وتفوق القوة الحربية مقارنة مع قبائل المنطقة، التي سابت عليها وسامتها أشد العذاب. وهذا ما دفع السلاطين إلى زيارتها وتجريد حركات عسكرية ضدها. يمكن إجمال عوامل تمرد قبيلة بني مسارة و"سيبتها" على المخزن إلى ثلاث اعتبارات أساسية، إلى جانب العوامل الأخرى التي ذكرناها سابقًا.

٢/٢-الأوضاع الاقتصادية المتأزمة والمحدودة

تشير المصادر المتوفرة والوقائع إلى أن المساريين قد كونوا مجتمعا قرويا جمعوا فيه بين الزراعة التي عانت من ظروف مناخية مضطربة، والمغروسات، بالإضافة إلى النشاط الرعوي. يتطلب هذا النشاط التداخل والصراع مع الجيران حول المراعي ومنابع المياه، والذي شكل إلى

جانب عوامل أخرى، الدافع الرئيسي وراء التطاحن القبلي وانتشار عمليات الغزو بين الجيران والصراع بين قبائل منطقة وزان[٣٣].

نؤكد بداية على أن الظروف الطبيعية الصعبة، لم تكن تمكن السكان من تحقيق الفائض في الإنتاج دائما[٣٤]، ذلك أن سيادة الأراضي الجبلية، وفقر التربة، وقوة الانجراف، والجريان السريع في فصل الشتاء، ونزوات المناخ، كلها عوامل ساهمت في إعاقة الزراعة في مجتمع تقليدي كانت تقنياته بسيطة، مع ما يرافق ذلك من جفاف وقحوط في بعض السنوات، كانت تؤدي إلى توقف الدورة الاقتصادية بسبب انخفاض مستوى المحاصيل، مع ما يوازي ذلك من ارتفاع للأسعار وفتك ونفوق للماشي... وكان يوقع الناس في ضيق شديد، ويؤدي إلى انتشار المجاعات والأوبئة.

وإذا استثنينا الأثرياء الذين كان في مقدورهم الحفاظ على وسائل الإنتاج من حيوانات وبذور، والاستفادة منها عندما تلوح في الأفق بشائر أمطار هامة، تعطي الانطلاقة لعملية الحرث والبذار، فإن الآخرين كانوا يعجزون عن حرث أراضيهم، والاكتفاء على الأقل بحرث جزء منها[٣٥]، ويقع أحيانًا، وحتى إن كانت الوسائل متوفرة، وبسبب طول مدة تهاطل الأمطار، يتأخر موسم الحرث عن موعده، فينتج عنه ضعف في المحاصيل، ويجعل السنة جدباء رغم أنها سنة مطيرة[٣٦]، تزيد من هموم الناس ومعاناتهم مع الجوع والأمراض، وهذا ما لخصه البيت الزجلي التالي:

جَات الشّتا وجَات لَريَاح وجَات هُمُوم كَثِيرَة
أحَيَّانَا علِيك يَا المَسَّارِي وفِين عشَاك اللِّيلَة[٣٧].

لقد ترافقت فترة "سيبة" بني مسارة أواخر القرن التاسع عشر مع سنوات عديدة طبعها الجفاف ونقص الإنتاج، حيث كانت سنوات جفاف متعاقبة وشديدة، نتجت عنها مجاعات مهلكة فتكت بالناس[٣٨]، من أهمها مجاعة ١٨٩٠ ـ ١٨٩٤ التي مست القبيلة بشكل كبير[٣٩]. كل هذه العوامل كانت تدفع بأفراد القبيلة إلى البحث عن حلول لتجاوز هذه الآفات، ومن أهمها الإغارة على المناطق الغنية في الغرب واللوكوس لتعويض قلة الإنتاج الزراعي[٤٠].

٣/٢-الضغط الضريبي الشديد

ترافق تمرد بني مسارة في أواخر القرن التاسع عشر مع الأوضاع الأمنية الخطيرة التي شهدها المغرب آنذاك. من بين تلك الأوضاع كان استفحال النهب والقتل والفوضى بين القبائل، ومنها قبيلة بني مسارة وجيرانها من القبائل ومدينة وزان. لقد عاش المغرب صعوبات كبيرة في شتى الميادين، خاصة في الميدان المالي بسبب انعكاسات المعاهدة المغربية البريطانية سنة ١٨٥٦م، التي حرمت المخزن من حرية التشريع الجمركي، وفرضت إسبانيا على المغرب غرامة مالية باهضة، إثر انهزامه في حرب تطوان ١٨٥٩ ـ ١٨٦٠م والتي أفرغت خزينة الدولة.

لقد اضطر المغرب إلى إفراغ بيت المال، بل أجبر المخزن على الاقتراض من الخارج[٤١]، وكان من بين الإجراءات التي اتخذها السلاطين لإنعاش بيت المال، أن أعاد ترتيب المكوس على الأبواب، كما زاد في الضريبة الفلاحية التي كان يتكفل القواد بجبايتها في القبائل. ومع ذلك، كان قواد القبيلة يشتطون في استخلاصها، ويرهقون الرعية بالمغارم الثقيلة، حيث كان جزء من هذه الأموال ينتهي في جيوبهم بدلا من خزينة الدولة، في الوقت الذي كانت فيه البلاد تعاني من أزمة خانقة ناتجة عن التدخل الأجنبي والجفاف، وهو ما كان يوغر الصدور ويذكي نار التمرد[٤٢]، الشيء الذي كان يدفع القبائل إلى القيام باحتجاجات مسلحة ضد قوادها، وهذا ما يؤكده عبد الرحمان بن زيدان بقوله: "إلى أن الكثير من المستفاد كان يدخل بصناديق الخدام ولم يدخل بيت المال"[٤٣]. في سياق هذا الشطط ظهرت تمردات عديدة بالمغرب، أبرزها تمرد الغرب بقيادة الروكي، وقبيلة الرحامنة بالحوز، وبني مسارة بجبالة ووزان[٤٤].

يتضح إذن أن تمرد قبيلة بني مسارة و"سيبتها" كان يندرج ضمن سياق الاحتجاجات المسلحة كرد فعل ضد تسلط وفساد دواليب السلطة، وتحكم القواد وأبنائهم وأعوانهم في أموال القبيلة وأرزاق الناس. وقد بلغ ضغط القواد مداه واتخذ أحجاما وأشكالا متعددة، فعجز الناس عن أداء الضرائب، حيث كانت المبالغ المترتبة عنها والكلف المرتبطة بها من المبالغة ما يعجز الفلاح على أدائها، ولم يكن السبب في ارتفاع المبالغ الواجب

تسديدها فحسب، وإنما كان يتضمن أيضًا المبالغ الإضافية التي كان يفرضها القواد على الفلاحين. يقول البكاري تعليقا على حكم محمد القيسي ببني مسارة: "وبعد عودته إلى الحكم تحسنت سيرته شيئا ما، إلا أن أبناءه وخاصة محمد الملقب بالركوب، اغتصب الكثير من الأراضي من أربابها بجبالة ولوطة، فاستولى على أراضي زراعية خصبة بكل الطرق، ودعا الرجال للاشتغال فيها بالحراثة المجانية، ودعا النساء يصيفن وينقين، ويظللن شبه جائعات، وكان باقي الأبناء يتعدون على الرجال والنساء بالضرب والاغتصاب"[٤٥]. وهكذا عاش هؤلاء عيشة ممتازة هم وأعوانهم، نتيجة ما كانوا يلزمون به الناس بأداء مبالغ كبيرة ينفقونها في احتياجاتهم الخاصة، وفي بناء القصور والبذخ والترف... ويضيف البكاري في نفس السياق: "وقد جعل في هذا القصر خزائن وبساتين، وجلب له المياه العذبة، فعاش فيه عيشة الملوك المترفين، حياة البذخ، فاتسع له العمران، وأضحى يعيش أحسن مما يعيش أهل المدن في قصورهم"[٤٦]. لقد عاش القواد وأعوانهم حياة مترفة ومنعمة، بالمقابل ترك الناس عرضة للموت وللتعسفات وللظروف الطبيعية القاسية وللمجاعات، وهذا ما يوضحه البيت الزجلي في الطقطوقة الجبلية:

الدُّنيَا يَا الْغَدَّارَة وَلي عليهَا يَفنىَ
القَايدِ يَاكُل بِيبِي وَنَا نَاكُل يَرنِي[٤٧].

كما قال البكاري أيضًا:" وقد عرفت المنطقة أثناء حكمه ـ محمد القيسي ـ كل ألوان الظلم والاستبداد واستغلال النفوذ والأعمال الشاقة التي عمت كل أرجاء القبيلة، ولم ينج منها حتى الأطفال والنساء والعجزة"[٤٨]. ومما زاد الطين بلة أنه لما كان يتم رفع التظلم إلى المخزن المركزي للمطالبة بخفض الضرائب أو إلغائه، وعزل المسؤولين الفاسدين كانت الأبواب توصد في وجوههم، لأن السلطان وأمام حاجته الماسة إلى الأموال لم يكن يسمح بهذا الأمر، خوف أن يصبح ذلك عادة للتهرب من أدائها، ولهذا كان رده المبدئي هو الرفض[٤٩].

لقد كانت القبيلة تقدم في بعض الأحيان طلبات للإعفاء من الضرائب كما سلف الذكر على يد عامل المخزن نفسه، الذي غالبا ما يكون على علم تام بأوضاع القبيلة المعيشية، فيضطر بعضهم إلى التعاطف معها ويأبى جمع ضرائبها، وهذا ما قام به القائد الحمرني كما رأينا سابقا، والذي لقي حتفه قتلاً على يد عامل العرائش بوسلهام بن علي أزطوط أيام السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام، لأنه رفض تسلم ضرائب القبيلة وتسليمها إلى المخزن، فقبيلته في حالة عوز شديد لا تستطيع أداءها.

في عهد السلطان الحسن الأول وبسبب الجفاف ونقص الإنتاج، أرسلت القبيلة مبعوثًا إلى فاس ليلتقي بأمين مالية السلطان الحسن الأول، السيد الحاج عبد السلام البقالي الحسني الإدريسي الريحاني المساري المعروف ببوقطيبة[٥٠]، ليتوسط لهم لدى السلطان حتى يعفيهم من ضرائب تلك السنة، لأن الوقت صعب والإنتاج ضعيف، يقول البكاري في هذا الشأن: "في أوائل القرن ١٣هـ اجتمع زعماء القبيلة ووجهاؤها وتذاكروا حول دفع الزكوات والعشر والضرائب التي كانوا يدفعونها لوكيل المالية ببني مستارة، وأرادوا أن يطلبوا من نقيب الشرفاء أن يمد لهم يد المساعدة لدى السلطان الحسن الأول في أن يخفف عنهم من ذلك أو يعفو نظرا لقلة المطر وقلة الزرع وهلاك الماشية، فاتفقوا أن يرسلوا السيد محمد الحاج الدلحي إلى السيد عبد السلام والي السلطان الحسن الأول ليطلب منه التخفيف وليبلغ له رسالة القبيلة"[٥١]، لكن الخوف منع الوزير من إبلاغ الطلب إلى السلطان، فرجع مبعوث القبيلة السيد محمد الحاج الدالحي خاوي الوفاض، خائبًا ساخطًا مصمما على التمرد والانتقام، فانتفضت القبيلة، وانتقمت من الوزير بإحراق وتهديم داره وقصره بدوار الريحان في السفح الجنوبي لجبل ايسوال بقبيلة بني مسارة[٥٢].

كما أن فرض الضريبة كان يفقد القائد الكثير من سلطته، عندما كان يحاول تحصيلها عن طريق التعسف وعدم المساواة بين الدواوير والفرق، والتعرض للسكان والتضييق عليهم. وقد حاول بعض القواد فرض الضرائب ولو بالقوة إذا استلزم الأمر، لكن بدون نتيجة تذكر، حيث كانت القبيلة بعد استنفاذ الشكاية إلى

المخزن تضطر إلى تنحيته بالقوة، ففي سنة ١٨٧٣، كان القائد محمد بن محمد القيسي يواصل سياسته الاستبدادية ضد الناس، ويرغمهم بالقوة على جمع الزكوات والضرائب، فاحتج سكان القبيلة على ذلك، وكان من المفروض أن يحترموا قراره ويقبلوا بسلطته باعتباره ممثلا للمخزن الشريف، لكنهم كانوا يبخلون عليه بذلك، ويتجرؤون عليه، لأنه كان يستولي على معظم ما أنتجوه، فحاصروه وأحرقوا داره، وأجبروه على الفرار سرًا من القبيلة(٥٣).

تفيد مختلف المصادر، أنه لم يحاول أحد من القواد الذين خلفوا القائد محمد القيسي فرض الضرائب وممارسة التسلط بمثل ما مارسها، ولو أنهم وجدوا أنفسهم في نفس الوضعية من العسر وقلة ذات اليد، وتنفيذ الواجب في جمع الضرائب وتحصيلها للمخزن. كان معظم القواد منشغلين بمسألة تأمين سلامتهم، وإذا كانت لديهم سلطة فرض الضرائب وتحصيل الأعشار، فلم تكن لديهم وسائل للمطالبة بها، ولا حتى الحصول على مدخول يضمن معيشتهم الخاصة، لأنهم لم يكونوا يتوفرون على ما يكفي من المخازنية ورجال السلطة لدعم سلطتهم، ولهذا اتبعوا أساليب أخرى من أهمها توظيف الجواسيس، والاحتماء بعصبيتهم الاجتماعية داخل القبيلة(٥٤).

وهكذا كان للضغط الضريبي والاقتطاع التعسفي لخيرات الناس والتضييق عليهم بدون وجه حق، دور آخر فاقم الأمور ودفع الناس إلى التمرد. وبسبب ذلك بات رفض أداء الضرائب أمرا مألوفا لدى بني مسارة سواء للقواد المحليين أو للسلطة المركزية، وهذا ما سجله المخبرون الفرنسيون الذين فسروا تمرداتها بكون القبائل ساخطة على الطرق الهمجية التي يستعملها السلطان لجمع الضرائب(٥٥)، كما أن حملة السلطان الحسن الأول سنة ١٨٨٩م على بني مسارة كان من أهدافها، إجبارها على أداء مؤخر ضرائب طويل مدته سبع سنوات(٥٦).

٤/٢-ضعف السلطة المحلية وتدني الأوضاع الأمنية

كانت الأوضاع الأمنية بقبيلة بني مسارة ومنطقة وزان عامة خلال الفترة المدروسة سيئة جدا، وكانت مساهمة بني مسارة في ذلك كبيرة، حيث مارست بقوة اللصوصية والسلب والنهب، تشهد عليها التقارير الفرنسية،" بني مستارة هي القبيلة الأكثر نهبًا ونشاطًا من كل جبالة، طرق منطقتهم مقطوعة دائمًا، بني مستارة يسرقون جيرانهم بدون انقطاع وأحيانًا يأتون حتى لنهبهم، وخطف الأطفال والفتيات ويصلون حتى داخل وزان"(٥٧).

يمكن فهم وتفسير تمرد و"سيبة" قبيلة بني مسارة بالإضافة إلى ما وقفنا عليه سابقًا، من شطط وحيف للقواد في الجبايات، ونهبهم لأرزاق الناس والعباد بغير واجب حق في سياق التمردات الاعتيادية التي كانت تقوم بها القبائل بعد إحساسها بضعف واضطراب السلطة، (سواء المحلية أو المركزية) من أجل تصفية حساب قديم مع جار مشاكس أو إنزال قواد مشتطين، ومعاقبة مسؤولين فاسدين لا يقدرون المسؤولية التي كانت على عاتقهم بالاستماع إلى شكاوى الناس، ومحاولة الاستجابة لها أو جبر خواطرهم على الأقل(٥٨).

كانت المدن القريبة من المناطق المتمردة، هي المستهدف الرئيس لعبث الفساد وشغبهم، فبعد وفاة السلطان الحسن الأول هاجم بنو مسارة مدينة وزان "دار الضمانة " وضريح مؤسسها مولاي عبد الله الشريف، والتي لعب شرفاؤها أدوارًا كبيرة داخل المجتمع الجبلي من مراقبة للقبائل، وممارسة وظيفة التحكيم أثناء نزاعها بفعل توفر شيوخها على الشروط المطلوبة، وهي الشرف والصلاح مصدر السلطة الروحية، إلا أن تنكر شرفاء الزاوية منذ النصف الثاني من القرن التاسع عشر وابتعادهم عن النهج الذي سار فيه أسلافهم في توطيد الأمن، وفرض السلام بين القبائل، واحتمائهم بالحماية القنصلية، قد قلص من سلطتهم الرمزية المتوارثة، وطغى على علاقاتهم الاجتماعية الجانب المادي(٥٩)، يقول المولى عبد العزيز في هذا الشأن: "فقد كثر التشكي من آل وزان الذين لهم تعلق بجنس الفرنصيص، إنهم يأمرون فساد القبائل لعزائبهم ويصيرون يشتغلون بالخوض وارتكاب الأمور الشنيعة التي توجب انحلال الأحكام على العمال والتشويش عليهم في أمور الرعية"(٦٠)، وهو ما أدى إلى أفول نجم الزاوية الوزانية، وتقلص إشعاعها في عهد شيخها مولاي عبد السلام بلعربي وخلفائه من بعده، والذين أدت

سياستهم إلى خلق مصاعب ومتاعب كبيرة أمام المخزن[٦١].

كما أدت في نفس الوقت إلى الانقسام بين القبائل وإلى التطاحن الجبلي، فطلبهم للحماية الأجنبية ودورهم الكبير في تسهيل مهام الأجانب في المغرب، كانت لها عواقب وخيمة في توتر العلاقة بين القبيلة والشرفاء، الذين بدل الإصلاح والإعانة في استتباب الأمن وتطبيق الشرع باعتبارهم شرفاء ينتسبون إلى الدوحة النبوية الشريفة، انتقلوا إلى الاحتماء بالنصارى وبالأجانب، واشتغلوا بأمور الفساد ونشر الفتن، الأمر الذي ساهم في انحلال الأمور، وعرقلة عمل ممثلي المخزن في ضبط القبائل واستتباب الأمن بها، يقول السلطان الحسن في رسالة إلى وزيره محمد بركاش في هذا الشأن:" وبعد، فإن السيد محمد ولد الحاج عبد السلام الوزاني ظهر منه بإشارة من والده شق العصا والطيش والخوض والخرق على المخزن... وهو ما حمله على الحماية إلا ليظلم ويتطاول ويخيف ويصول ويفسد الأحكام على ابن عمه كبير الزاوية... والمخزن لا يسكت له على ذلك ولا يقره عليه ولا يمكنه منه بحال، لأن المحميين ليس من شأنهم الطغيان والتجبر والجرأة والتلصص... والتجاهر بالفساد والمجون والإفتيات على المخزن والتعرض لأرباب الولايات... بل إنما شأنهم الاستظلال بحاميهم والعيش تحت أكنافهم، والاشتغال بالجد ولزوم القوانين، وأيضًا السكوت على هذا يؤدي قطعا إلى انتشاب فتنة عظيمة بينه وبين ابن عمه مقدم الزاوية، ينشأ عنها لا محالة ازدياد فساد قبائل جبالة المجاورين لوزان كبني مستارة وغيرهم"[٦٢].

إن فساد قبيلة بني مسارة بتعبير المخزن واعتدائها على جيرانها خاصةً الزاوية الوزانية، لم يكن مجرد زيغ ورغبة في نشر الفوضى فقط، بل هو في أحايين عديدة جاء رد فعل على ما كانت تعيشه المنطقة من فوضى وضعف للأطراف المؤثرة كشرفاء وزان، الذين أصبحوا عامل فوضى واضطراب، وبهذا أضحت القبيلة في حل من العقد السابق مع الشريف المؤسس مولاي عبد الله الشريف والشيوخ اللاحقين، وأصبحت ترد على شرفاء الزاوية بما يستحقونه من عقاب[٦٣]، كل ذلك ساعد قبيلة بني مسارة على اختراق مقدسات الزاوية، وعلى إزالة الحواجز التي كانت تشكلها أمام تحركاتها نحو الغرب واللوكوس، وكسرت طموح القبيلة السياسي في فرض القواد المخزنيين المخلوعين من طرف أعيان القبيلة[٦٤].

كان يتحمل المسؤولية الكاملة من هذا الاضطراب أيضًا، كل من المخزن في شخص قواده وممثليه الذين كانوا يرهقون الناس بالضرائب والكلف، ولم يتركوا لهم شيئا حيث ساسوهم بأحكام عرفية استبدادية لا تستند لا على الشرع ولا على أعراف متداولة بين الناس، ومن هؤلاء القائد محمد القيسي القطاري المساري الذي استبد بالحكم في القبيلة، وأطلق يده في أموال الناس وأمتعتهم، وسمح للمفسدين بممارسة كل الشرور، خاصة أبنائه وعشيرته من بني قيس وبني يمل، حيث ادعى انتسابه إليهم[٦٥]، وكان مما فعله تعليم القبيلة الإغارة على جيرانها، والخروج عن الانضباط والجادة، وزاد الطين بلة اغترار القائد ومتابعة الناس له[٦٦]، فلم يعد الناس يأبهون بالأحكام ولا بالوسطاء خاصة شرفاء وزان، حيث لم تعد تشعر القبيلة بوجودهم ولا تعترف بفضلهم، فتقلصت سلطة الدولة على القبيلة، ولم يبق لها من ينازعها في شيء، لذلك كانت تعزل ولاة المخزن، وتعين حكاما من لدنها يسوسون أمورها، ولهذا السبب كان يتحرك المخزن بسرعة ويرسل قائد الغرب كالقائد بن عودة الجزائري ثم القائد أبو بكر الحباسي...[٦٧] لاسترجاع الأمور وإعادتها إلى ما كانت عليه.

لقد كان القائد في حياة المساريين مصدر إزعاج أكثر منه مصدر اطمئنان، فالغالب أن عداوة السكان له، كانت تصل إلى قتله أو طرده، ولم يكن الناس يرغبون في تأمين سلامته[٦٨]، وحتى الأشراف سواء المحليون أو الجهويون، كشرفاء وزان لم يستطيعوا الحيلولة دون مهاجمته أو إرجاعه إلى قيادته بعد طرده[٦٩]، إن هذه القسوة مع القائد تعبر في الواقع عن طبيعة العلاقة السياسية التي كانت موجودة بين بني مسارة والمخزن المركزي في شخص ممثليه، فقد كان السكان يعترفون بالسلطة الشرعية للسلطان، فهو صاحب الكلمة العليا وحامي الملة والدين.. ولهذه الغاية فهو شخص مقدس توجب له الاحترام والتقدير. أما المخزن المحلي ولو أنه يحكم باسم السلطان الذي عينه، ورغم أن أفعاله غير

عادلة ويقوم بالاستبداد والنهب، والبطش... فمسؤولية كل ذلك، كانت تقع على أعوان السلطان الذين استشطوا في استعمال سلطتهم، ومع ذلك كان السكان يقبلون القائد الجديد ممثلا شرعيا للسلطان، ويسمحون له بجمع ضرائبهم وإدارة شؤونهم المحلية، وعندما يبرز عتوه وظلمه لم يكونوا يبادرون إلى قتله والتخلص منه إلا بعد مناشدة السلطان والشكوى إليه، وكانوا يعبرون في مختلف المناسبات عن عدم رضاهم عنه، ويطالبون السلطان باستبداله دون أن يصل الأمر إلى إعلان العصيان والخروج عن طاعة المخزن[٧٠].

في سنة ١٨٤٨م مثلاً، اشتكى المساريون للسلطان من تسلط القائد القيسي، فأرسلت المطالب إلى السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام يلتمسون منه تخليصهم من بطشه وتعسفه، وفي سنة ١٨٨٥م ذهب وفد من بني مسارة إلى فاس يلتمس من السلطان الحسن الأول العفو تلك السنة عن ضرائب القبيلة، لأنها كانت في مسغبة، فلم يحصلوا على طائل وعادوا أكثر غضبا، وكان من نتائجها إحراق منزل بوقطيبة أمين مال الحسن الأول بدوار الريحان[٧١].

هذه هي العوامل التي ينبغي أن نرجع إليها لتفسير سبب فوضى و"سيبة" بني مسارة، وعلى عكس موقف المخزن والأجانب الذين كانوا ينظرون بعين الخطر وعدم الرضى إلى ما كانت تفعله قبيلة بني مسارة من فوضى واضطراب في البلاد. فإن القبيلة لا تتحمل المسؤولية وحدها، فهذه الأعمال الخارجة عن القانون التي فسرت وأولت بوحشية القبيلة وعدم انضباطها للجادة هو في الواقع مجرد رد فعل[٧٢]، على الواقع المرير الذي كان يعيشه المغرب آنذاك، والأمثلة على ذلك عديدة، فعندما كان يشتط ضغط أعوان المخزن من قواد وشيوخ على أملاك الناس، كانت الأنظار تتجه إلى السلطان باعتباره رمز السلطة العليا للبلاد وحامي حمى الملة والعباد، ليبادر بمعاقبة الأعوان المشتطين وإرجاع الحقوق إلى أصحابها، لكن السلطان وأعوانه الكبار عوض أن يعاقبوا الأعوان الفاسدين، كانوا يعاقبون القبائل أو يستبدلون الأعوان المغضوب عليهم بأعوان أكثر فسادا من الأولين[٧٣].

وقد فسرت إحدى الوثائق المحلية التي بين أيدينا، والتي يعود تاريخها إلى سنة ١٩٠٦م أسباب "السيبة" وانعدام الأمن والتعدي على أملاك الناس بالقبيلة، وبما كان يشعر به الناس آنذاك إلى قلة الأحكام المخزنية: "... فطاف السيد محمد بن عبد الكريم المذكور تطويفا شاملا، فظهر له بدليل معرفته وبرهان عقله وميزه، ما فسدوا له في الغرس المذكور اثنا عشر مدا من الزيتون... على وجه الظلم والتعدي و"السيبة" من قلة الأحكام المخزنية"[٧٤].

أمام الضغوط الأوربية والضعف الكبير الذي آلت إليه وضعية البلاد، كان أكثر ما يخيف المخزن ويؤرقه هو حدوث ثورات شعبية وتمردات للقبائل هنا وهناك، ولهذا تخلى السلطان عن تحقيق رغبات رعاياه، وانحاز إلى جانب أعوانه، حيث كان يعمل ما في وسعه لتلافي وقوع التمردات بقمع أي حركة أو مطلب شعبي. على أن الناس كانوا يعتبرون هذا العمل تخليا للسلطان عن واجبه اتجاه رعاياه، وانحيازه ضدهم إلى جانب أعوانه الشرهين[٧٥]، وهذا ما كان يدفع الأمور من سيئ إلى أسوأ، ويدفع الناس إلى الثورة أو الفوضى، فحاجة المخزن للأموال[٧٦] ومغالاة أعوانه في جمعها ونهبها، وإرهاق الناس وأكل أرزاقهم، إضافة إلى فشل دور بعض الأطراف الدينية في ضبط المجتمع وتسكين الروعات، هي السبب الرئيسي في تهييئ أرضية متينة للتوتر واندلاع العصيان من حين لآخر، يقول جرمان عياش في هذا الشأن: "لم تكن الشكاوي من العامل هي السبب الوحيد طبعا الذي يبرر الثورة على القائد، فإهمال السلاطين للشؤون المحلية للقبائل، كان يفاقم الأمر على المخزن، حيث كان السكان يعترفون بما تقدمه السلطة المعنوية وهيبة السلطان وقوته من سند في حل المشاكل المحلية، فشعور القبائل بهيبة السلطان وسرعة حضوره إليها يجعلها دائما في حالة خوف ورعب"[٧٧]، وهذا ما فطن إليه السلطان الحسن الأول، ففي حالة بني مسارة مثلا؛ أرسل إلى القبيلة ثلاث حملات عسكرية تحت قيادة قادته. لكن بعد كل حملة كانت القبيلة تثور، فلم تترك للسلطان إلا التحرك بنفسه، فتقدم إليها الحسن الأول أولا سنة ١٨٨٩م، ثم لاحقًا ابنه عبد العزيز سنة ١٩٠٢م، لكن الوقت كان قد فات، لأن بني مسارة كانت قد ألفت

الفوضى و"السيبة"، ولم تعد تتحمل الانضباط والخضوع، ولهذا فبمجرد انسحاب القوات المخزنية كانت تعود إلى التمرد والعصيان.

كما أن تبادل الرسائل وطلب الشكاوي التي كانت تأتي من القبيلة إلى السلطان مقابل طلب النصح والوعظ والتحكيم، يجب أن يفهم منها على أنها تعبير على مدى الاعتراف بسلطة السلطان وهيبته فقط، فالمراسلات وطلب تحكيم السلطان من قبيلة اعتبرت على رأس قبائل "السيبة" في المغرب[٧٨]، لدليل على اعترافها بشرعية السلطة، وإذا عزمت على تخليص نفسها من سلطة السلطان ومن بطش نوابه، فإنها مع ذلك كانت تحاول أن تحافظ على بعض الارتباط به ولا تقطع شعرة معاوية معه نهائيًا، باعتباره صاحب السلطة العليا، ومصدر البركة، والضامن لوحدة الأمة والحامي لها[٧٩].

للإشارة، فبني مسارة لم تكن تعيش في الفوضى وبلا نظام أو بدون قانون على مستوى تسيير شؤونها الداخلية، بل كانت خاضعة لأحكام الجماعة في معاملاتها، وكانت تقيم على رأسها زعماء وقادة تحقيقا لاستقلالها الذاتي، بواسطة تنظيم مجامع تتولى النظر في قضايا القبيلة، والفصل بين الظالم والمظلوم. فكان المشتكي يقصد المجامع التي كانت تعقد غالبًا في الأسواق تحت الأشجار وكان لهاته المجامع شبه رؤساء يديرونها، أما كيفية حكمها فكانت تتم بعد الاستماع إلى الشاكي والمشتكى به، وبعد ذلك يرفع الرؤساء الجمع ويتشاورون مع القاضي الشرعي ثم يصدرون الحكم... وكانت أحكامها تشمل في الغالب الشؤون الاجتماعية؛ كالسرقة، والقتل، والضرب، وتقويم الأضرار...[٨٠].

أما المخزن، فكان يقدم بعد استعصاء الأمر كما رأينا على العقاب والمزايدة بالحرب، فلم تأت سياسته بنتيجة غير الشر المستطير، فالذي كان ينبغي عمله آنذاك هو استئصال أسباب الداء بقمع القواد المفسدين، والضرب بقوة على الطغاة، والعمل على نشر العدل بين الرعية، بتعيين الحكام الذين ترضاهم القبيلة، ويتمتعون بسجايا حسنة يصلحون البلاد، ويعيدون إليها الأمن والطمأنينة، وأما القمع والحركات المتتالية، فإنها كانت تسبب من الضرر والشرور ما يصعب إصلاحه وتلافيه، ومن الأحقاد والجراح ما لا يمكن تناسيه، غير أن السلاطين وقواد المخزن والأشراف وثوار القبيلة لم يكونوا يحسبون هذا الحساب، ولا يقيمون لهذا الأمر أي اعتبار، ولذلك لا نعجب من تسابق المخزن إلى التأديب والعقاب، مهما كان فيه من إزهاق لأرواح العباد.

بالنسبة للقبيلة، فقد كانت تسارع إلى السطو ونشر الفوضى و"التسيب"، وبخصوص أشراف وزان فبادلوا القبيلة العنف بالعنف ونزلوا إلى مستوى الحضيض، وبدأوا ينشرون الفوضى، بعد أن كانوا مصدر الأمان وضمانة للأمن والاستقرار بالمنطقة[٨١]. ومهما كانت الأسباب التي أوردناها سابقًا، فإن مشكلة المغرب آنذاك وفي الفترات السابقة تمثلت في عدم إنشاء طريقة للحكم، ومؤسسات تضبط العلاقة بين المسؤولين والمواطنين سواء على المستوى المركزي أو المحلي، فشخصانية المسؤول ثم ضعف أو قوة الحاكم هي التي تلعب الدور الإيجابي أو السلبي في مصير الدولة، مما يخلق عدم استقرار مزمن.

خَاتِمَةٌ

يظهر بوضوح في ختام هذا العرض، أن سيبة قبيلة بني مسارة على الدولة المغربية أواخر القرن التاسع عشر تمثل فصلًا هامًا في تاريخ منطقة وزان، وتعكس تحولات هائلة أثرت في العلاقة بين القبيلة والسلطة المركزية. كانت هذه الفترة مليئة بالتحديات والضغوط الداخلية والخارجية، مما أدى إلى اندلاع الفوضى والتمرد داخل قبيلة بني مسارة. لقد تأثرت المنطقة بشكل كبير بالظروف السياسية والاقتصادية، وكذلك بالتأثيرات الناجمة عن التحولات الاجتماعية والثقافية، وعواقب الضغوط الأوروبية على الدولة المغربية وكيف أثرت هذه الضغوط على تفاعل السلطة المركزية مع تحولات القبائل؟ من خلال فحص تفاصيل السيبة وأسبابها، ندرك أهمية فهم العوامل التي ساهمت في هذا التحول الكبير في العلاقات الاجتماعية والسياسية. ويبرز الدور المشدد للسلاطين والقادة المحليين في التعامل مع تلك الفترة الحرجة، وضرورة اتخاذ إجراءات فعالة للحد من الفوضى والحفاظ على الاستقرار. كما تعطي هذه الحالة درسًا حول أهمية إقامة نظام فعال للحكم وتحسين العلاقات بين السلطة المركزية والقبائل. وتظهر أيضًا أهمية التواصل والتفاهم المتبادل لحل الخلافات وتحقيق التوازن بين الاستقلال القبلي والاستقرار بالبلاد عمومًا.

الإحالات المرجعية:

(١) جمال الدين محمد بن جلال الدين الخزرجي المصري ابن منظور، **لسان العرب**، المجلد السابع، دار بيروت للطباعة والنشر ودار صادر للطباعة والنشر، بيروت، الطبعة الثانية - ١٣٧٤هـ - ١٩٥٥م، ص: ٣١٥-٣١٦.

(٢) مسعود جبران، **الرائد: معجم لغوي عصري رتبت مفرداته وفقا لحروفها الأولى**، طبعة جديدة، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، الطبعة السابعة، آذار/ مارس ١٩٩٢، ص: ٤٢٥.

(٣) أحمد مختار عمر، **معجم اللغة العربية المعاصرة**، المجلد الأول، الطبعة الأولى ١٤٢٩هـ/٢٠٠٨م، عالم الكتب، ص: ١١٤٥.

(4) Robert Montagne. **Les berbères et le Makhzen dans le sud du Maroc**, essai sur la transformation politique des berbères, Paris, 1930, p. 286.

(٥) عبد الأحد السبتي، **التاريخ والذاكرة أوراش في تاريخ المغرب**، الناشر: المركز الثقافي العربي الدار البيضاء، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص: ١٦١.

(٦) المختار الهراس، **القبيلة والسلطة تطورات البنيات الاجتماعية في شمال المغرب**، المركز الوطني لتنسيق وتخطيط البحث العلمي والتقني، ص: ١٤٢.

(٧) محمد ياسين الهبطي، **مساهمة في دراسة تاريخ المقاومة المغربية للاستعمار الإسباني" مقاومة مدينة شفشاون نموذجا"** نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، الطبعة الأولى، ٢٠١٢، ص: ١٦.

(٨) سجل الضعيف الرباطي في كتابه "الدولة السعيدة" حديثا دار بين السلطان سيدي محمد بن عبد الله وشيخ الزاوية الوزانية سيدي علي بن أحمد في مسجد الروى بمكناس سنة ١٧٦٣م حيث قال السلطان له:" حل بيني وبين بني مسارة، فإنهم اشتغلوا بقطع الطريق". انظر - الضعيف الرباطي، **تاريخ الدولة العلوية السعيدة**، دراسة وتحقيق محمد البوزيدي الشيخي، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٨٨م، ص: ٣٥٣.

(٩) عبد السلام البكاري، **الإشارة والبشارة في تاريخ وأعلام بني مسارة**، الطبعة الثانية ٢٠٠٧، ص: ٤٦.

(10) Michaux - Bélaire (E), **villes et tribus du Maroc, rabat et sa région,** tome IV. Le Gharb (les Djebala). Editions Ernest Leroux, paris, 1918, p.34.

(11) Montagne (R), op.cit, p.286.

(١٢) أوجست موليراس، **المغرب المجهول**، الجزء الثاني: اكتشاف جبالة، ترجمة وتقديم د.عز الدين الخطابي، ٢٠٠٣، ص: ٤١٩.

(13) Henrys Poisson de La Martinière et Napoléon La Croix. **Documents pour servir à l'étude du nord**- réunis et rédigé par ordre de Mr Gaules Gambon, gouverneur général de l'Algérie, service des affaires indigènes, pp. 436 – 437. gallica.bnf.fr

(14) Ibid, p.420.

(١٥) جمال عاطف، **إسبانيا وحرب سيدي ورياش ١٨٩٣/ ١٩٩٤م من خلال الوثائق الإسبانية**، منشورات باب الحكمة، الطبعة الأولى، ٢٠١٩، ص: ١٣.

(١٦) أحمد بن خالد الناصري، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب ٧، الجزء التاسع، ١٩٩٧، ص: ١٠٩.

(١٧) عبد الرحمان ابن زيدان، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، المطبعة الوطنية، الجزء الخامس، الطبعة الأولى، الرباط، 1930، ص: ٢٩.

(١٨) محمد العربي معريش، **المغرب الأقصى في عهد السلطان الحسن الأول ١٨٧٣ – ١٨٩٤م / ١٢٩٠ – ١٣١١هـ**، دار الغرب الإسلامي، بيروت – لبنان، ١٩٨٩، ص: ٣٩.

(١٩) محمد المنوني، **مظاهر يقظة المغرب الحديث**، مطبعة الرباط، الجزء الأول، ١٩٧٣، ص: ١٠.

(٢٠) معريش، م، س، ص: ٤٦.

(٢١) إبراهيم حركات، **المغرب عبر التاريخ**، دار الرشاد الحديثة، الجزء الثالث، الطبعة الثانية، ١٩٩٤ ص: ٢٥٨.

(٢٢) محمد بن محمد بن مصطفى المشرفي، **الحلل البهية في ملوك الدولة العلوية وعد بعض مفاخرها غير المتناهية**، دراسة وتحقيق إدريس بوهليلة، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الطبعة الأولى ٢٠٠٥، الجزء الثاني، ص: ١٨٥.

(٢٣) موليراس، م، س، ص: ٤١١.

(٢٤) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد الطريس بتاريخ ٥ رمضان عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م. خ، ع، م، ت، الأرشيف التاريخي، س١٣٣ مح١٠٩/٢.

(٢٥) مصطفى بوشعراء، **الاستيطان والحماية بالمغرب ١٨٨٣-١٨٩٤**، الجزء الثالث، ١٩٨٨، ص: ١١٩٥.

(٢٦) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى النائب محمد بركاش، بتاريخ ٢٠ جمادى الأولى عام ١٣٠١هـ/ ١٨٨٤م.خ، ع، ت، م، الأرشيف التاريخي، س٣٩ مح١٥/٢.

(27) H. P. De La Martinière et N. La Croix, op.cit, pp.436 – 437.

(٢٨) ابن زيدان، م، س، ج ٥، ص: ٤٠٣.

(٢٩) المشرفي، **الحلل البهية**، م، س، ص: ١٨٥.

(30) Bélair (E). **Villes et tribus du Maroc, Rabat et sa région, Le Gharb (les Djebala)**, tome IV Editions Ernest Leroux, paris, 1918, p.284.

(31) Bélair (E). **Ouezzan**, France-Maroc, (A4. N10), octobre 1920, p.202.

(٣٢) موليراس، م، س، صص: ٤٦٩ - ٤٧٠.

(٣٣) أكد لنا العديد من الطاعنين في السن أن سبب التوتر الذي كان سائدا بين بني مسارة وبني مزجلدة خاصة، كان سببه في الغالب، التداخل في المراعي ونقط المياه. انظر - ابراهيم بل العافية، **الشرفاء الكنونيون أهل الزواقين بقبيلة بني مستارة - مساهمة في التاريخ الاجتماعي المغربي - مطبعة المعرف الجديدة**، الرباط، الطبعة الأولى، ٢٠١٧، ص:١٠٣.

(٣٤) خوان باندو، **التاريخ السري لحرب لريف (المغرب المزعج)**، ترجمة سناء الشعيري، منشورات الزمن، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨ ص: ٢٠.

(٣٥) محمد الناجي، **التوسع الأوربي والتغير الاجتماعي في المغرب ق١٦ - ١٩**، ترجمة عبد الرحيم حزل، الطبعة الأولى ٢٠٠٤، ص: ٨٥.

(٣٦) نفسه، م، س، ص: ٨٨.

(٣٧) الشتا: المطر - لرياح: نزلات البرد الشديد كالزكام مثلا. بيت مشهور في العيطة الجبلية.

(٣٨) أبرز الباحث محمد الناجي أن أواخر القرن التاسع عشر شهد المغرب فيه عدة سنوات مجدبة جدا، أهمها ١٨٦٧-١٨٦٩، ١٨٧٨، ١٨٨١، ١٨٨٢، ١٨٨٣، ١٨٩٠، ١٨٩١... الناجي، م، س، صص:٨١-٨٩.

(٣٩) محمد الأمين البزاز، **تاريخ الأوبئة والمجاعات بالمغرب في القرنين الثامن عشر والتاسع عشر**، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة: رسائل وأطروحات رقم ١٨، ١٩٩٢، ص:٣١٨.

(٤٠) محمد عمراني، " الشرفاء الوزانيون والقبائل المجاورة لمدينة وزان أواخر القرن التاسع عشر"، **ندوة علاقة المدن بالأرياف على الطرف الجنوبي لبلاد جبالة**، لمجموعة البحث المتعددة الاختصاص حول جبالة، تأليف مجموعة من الأساتذة بمساعدة مؤسسة كونراد أديناور، ١٩٩٥، ص: ٣٩.

(٤١) خالد بنصغير، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن التاسع عشر (١٨٥٦-١٨٨٦)**، الشركة المغربية للنشر ولادة، الدار البيضاء، ص: ١٨٠.

(٤٢) جرمان عياش، **دراسات في تاريخ المغرب**، الشركة المغربية للناشرين المتحدين، الطبعة الأولى، ١٩٨٦/١٤٠٦، ص: ١٠٠.

(٤٣) ابن زيدان، م، س، ج ٣، ط٢، ص:٣٤٥.

(٤٤) زين العابدين العلوي، **المغرب من عهد الحسن الأول إلى عهد الحسن الثاني الجزء الأول "المغرب في عهد السلاطين مولاي الحسن مولاي عبد العزيز ومولاي عبد الحفيظ**، ٢٠٠٨، المطبعة والوراقة الوطنية، ص:٧١.

(٤٥) البكاري عبد السلام، **الوجيز في تاريخ وأعلام مسارة وعلاقة وزان وما والاها من قبائل جبالة، دراسة وثائقية تحليلية**، الطبعة الأولى، نونبر ١٩٩٧، ص: ٦٤.

(٤٦) نفسه.

(٤٧) يرني: نبات عشبي درني، كان يتغذى عليه الناس أيام المجاعات والمحن حيث ارتبط دائما بهذه الآفات. إن البيت الزجلي يعبر بقوة عن المجاعات التي اجتاحت المنطقة في هذه الفترات. ونلاحظ في البيت الأول كيف قام الشاعر بمواساة نفسه من هذه المحن؟ على أن الدنيا فانية لا تبقى لأحد، إلا أنه في الشطر الثاني يبين سببا من أسباب الأزمة، ألا وهو النظام الطبقي والتمييز الاجتماعي الذي جعل القائد رمز السلطة يأكل أشهى الطعام ويعيش حياة رغيدة، بينما الباقي يأكلون النبات الذي تعافه حتى البهائم وهو يرني.

(٤٨) البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، صص: ٤٥-٤٦.

(٤٩) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(٥٠) يقول البكاري في حق هذا الشخص:" وسرعان ما أصبح مع المولى الحسن الأول مستشارا وخبيرا، له اليد الطولى والكلمة العليا والجاه الحسن، فكان أديبا لبيبا، ومجربا أريبا، وكان يقوم مقام وزير الدولة في المالية، لأنه ينظر في الأموال، والجبايات والمداخل والمخارج.." - البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(٥١) نفسه، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٧٠.

(٥٢) يقول البكاري: "ولكن الخبر وصل بما جرى في القبيلة وما عزم عليه رجاله فأوصى (بوقطيبة) الأعوان أن يمنعوا الرسول من الدخول إلى المشوار حتى لا يبلغ رسالة القبيلة وشكاياتها إلى السلطان، وظل سيدي محمد الحاج بفاس عند بعض أصدقائه مدة، وفي كل يوم يذهب لتبليغ الشكاية فيمنع من الدخول إلى السلطان، وسبب منعه أن السيد عبد السلام ظن به أنه صاحب الفكرة ثم أن ميزانية

الدولة كانت محتاجة إلى الزيادة لا إلى النقصان". - البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(٥٣) نفسه، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٥.

(٥٤) يقول البكاري عن الطريقة التي أدار بها الشيخ بن محمد القيسي بني مسارة. "... واعتمد في تطبيق أحكامه على الجواسيس الذين سهلوا مهنته الجهنمية في تطبيق الأحكام العرفية التي سنها للردع، واجتذب له بالقرابة تارة وبالعطف والعصبية تارة أخرى فرقة بني قيس التي كان الشيخ يدعي انتماءه إليها، وكانت غايته بالدرجة الأولى هو أن تحميه من هجمات السكان وغضبهم، مما ألب باقي السكان ونفرهم من حكمه". البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٥.

(٥٥) رسالة من القائم بأعمال مفوضية فرنسا إلى وزير الخارجية الفرنسي السيد دوفريسيني، مؤرخة في ٣١ يوليوز ١٨٨٠. عبد الوهاب بنمنصور، مجلة الوثائق الملكية، العدد الثالث، سنة ١٩٧٦، ص: ١٥٠.

(56) H . P, de la Martinière et N, la Croix, op.cit, p.464.

(57) Idem.

(٥٨) كرد فعل على عدم استقبال مبعوث القبيلة إلى السلطان الحسن الأول، وعدم الاستماع إلى طلب القبيلة، هاجم الناس دار عبد السلام بوقطيبة ونهبوها وخربوها. يقول البكاري في هذا الصدد: "... ومع ذلك أنه كان من الأحسن استقبال الرسول والسماع لشكوى القبيلة وطمأنته ورده ردا حسنا، ومجاملته هي مجاملة القبيلة بأسرها التي ينتمي إليها، ولكن كان ما كان، وبعد أسبوع رجع السيد محمد الحاج الدالحي غاضبا إلى بني مسارة...هجمت القبيلة على القصر المذكور(قصر بوقطيبة) وهدمته من بعض الجوانب وأخذت ما فيه من الأمتعة، ومنذ ذلك الوقت والقصر خال إلى الآن". - البكاري، الوجيز، م، س، ص: ٧٠.

(٥٩) عمراني، م، س، ص:٣٥.

(٦٠) رسالة من السلطان المولى عبد العزيز إلى النائب الحاج محمد الطريس بتاريخ ٤ صفر الخير عام ١٣١٦هـ/١٨٩٨م، خ. ع. م، ت، الأرشيف التاريخي، س ٢٣٣٠، مح ١٤/١٧.

(٦١) تؤكد العديد من الرسائل المخزنية التي بين أيدينا، كيف ساهم احتماء الوزانيين بالحماية القنصلية في تطاولهم على المخزن وعلى عماله وعلى نشر "السيبة" في المنطقة وباقي مناطق الشمال، ولم يكن المخزن يحد من تسلطهم إلا بمراسلة السفير الفرنسي ومطالبته بالتدخل لإيقاف الوزانيين عند حدهم وحل المشاكل المطروحة. جاء في رسالة من السلطان المولى عبد العزيز إلى محمد العربي الطريس:" وبعد فقد أخبر خديمنا القائد عبد الكريم ولد أب محمد أنه لما امر جماعة بني مرعاز من الزراهنة بتوجيه خاص عسكرهم الذي هو اثنان وثلاثون نفرا امتنعوا بتعرض أولاد الحاج عبد السلام الوزاني عليهم ومنعهم لهم من ذلك وعليه فنأمرك بالكلام مع باشدور الفرنصيص بكفهم عن ذلك." خ. ع. م، ت. الأرشيف التاريخي، س ٢٣٤٠ مح١٧ /٢٤، بتاريخ ٧ ربيع الأول عام ١٣١٣هـ/ ١٨٩٦م.

(٦٢) رسالة من السلطان الحسن الأول إلى وزيره محمد بركاش بتاريخ ١٣٠١هـ / ١٨٨٤م، خ. ع. م، ت. الأرشيف التاريخي، سجل ٣٩، مح. ١٥/٢.

(٦٣) لما هم مؤسس زاوية وزان مولاي عبد الله الشريف الاستقرار بوزان، عارضته بني مسارة وطلبت منه الرحيل، لكنه عقد معهم اتفاق، يضمن فيه ألا تصيبهم دعواه ودعوى أبنائه من بعده، مقابل جمع الحطب للوزانيين من جبل بوهلال، وبقي هذا الاتفاق ساريا والود بينهم جاريا إلى أواخر القرن التاسع عشر، حيث فسدت العلاقة بين الجانبين، وكان المسؤول كما يظهر من الرسائل المخزنية، هم الوزانيون الذين اشتغلوا بالفتن والصراع، الأمر الذي أفقدهم الاحترام، وأدى إلى انتشار الفوضى في المنطقة.

(٦٤) عمراني، م، س، ص:٣٩.

(٦٥) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٦٤.

(٦٦) نفسه.

(٦٧) ابن زيدان، م، س، ج٥، ط٢، ١٩٩٠، ص: ٤٠٣.

(٦٨) نذكر في هذا السياق ما وقع للقائد أبو الشتاء بن الهاشمي الذي عينه المولى عبد الحفيظ ١٩١٢ قائدا على القبيلة، لكن المساريين رفضوه وهموا بقتله واتهموه بالعمالة للاستعمار، ورغم عدم ثبوت التهمة لم تقم الفرقة التي ينتمي إليها حجر بني عيش بحمايته، ولم تتحرك فيها الحمية والعصبية التي كانت تشتعل لأتفه الأسباب كقتل راعي أو ماشية، لكن الأمر هذه المرة مختلف، فالمطالب به قائد مخزني يمارس سلطة المخزن التي لا يمكن الاطمئنان إليها.

(٦٩) عمراني، م، س، ص: ٣٩.

(٧٠) جرمان عياش، **أصول حرب الريف**، ترجمة محمد الأمين البزاز وعبد العزيز التمسماني خلوق، الشركة المغربية المتحدة، الرباط، ص:١٠٧.

(٧١) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(٧٢) نحن هنا لا نبرر للقبيلة أفعالها، ولا يمكن تحميلها لوحدها المسؤولية كما كان يفعل المخزن، وحتى الأجانب في وصفهم لأفعال القبيلة التي كانت من الوجهة الشرعية أو القانونية غير مقبولة وغير مشروعة، سيكون الأمر كذلك لو كان الناس يعيشون في دولة يسودها القانون ومستقرة وعادلة. لكن الأمر كان عكس ذلك، فالفوضى في كل مكان، والفساد مستشري في دواليب الدولة، قادة مخزنيون فاسدون،... فطبيعي والحالة هاته أن تعبث القبيلة بالقانون وأن تنشر الفوضى، خاصة وأنها قبيلة قوية، وهناك من يبادلها العنف بالعنف؛ كشرفاء وزان، والقبائل المجاورة...

(٧٣) بعد طرد القبيلة للقائد محمد القيسي القطاري عام ١٩٧٣، عين السلطان بدله ابنه محمد بن محمد القيسي القطاري، وكان أكثر بطشا وفسادا من أبيه. البكاري، **الإشارة**، م، س، ط٢، ص: ٤٨.

(٧٤) رسم عدلي يتحدث عن تدخل أحد حكام المجاميع لتقويم الأضرار التي خلفها اعتداء على ممتلكات أحد المساريين.

(75) Germain Ayache, **Les Origines de La guerre du Rif**, Smer (Rabat) 1981, publication de la Sorbonne, p.54.

(٧٦) البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٧٠.

(77) Ayache, op.cit, p.54.

(٧٨) عمراني، م، س، ص: ٣٧.

(٧٩) من مظاهر احترام قبيلة بني مسارة لمؤسسة السلطان، أنها كانت تسارع إلى تقديم بيعتها للسلطان الجديد بمجرد جلوسه على العرش كبيعة السلطان الحسن الأول. - البكاري، **الوجيز**، م، س، ص: ٢٢٦-٢٢٧.

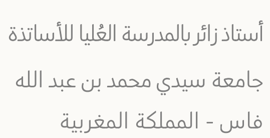
(٨٠) أحمد المسياح، **قبيلة بني مسارة، علاقتها بالمخزن ومقاومتها للاحتلال الفرنسي خلال القرنين ١٩ و ٢٠**، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، إشراف الأستاذ علال الخديمي، جامعة محمد الخامس، الرباط، السنة الجامعية ١٩٩١-١٩٩٢م، ص: ١٨.

(٨١) عمراني، م، س، ص: ٣٩.

دراسات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

تدبير المغاربة للتنوع والاختلاف
بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية
خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين





د. محمد الصديق احمموشي
أستاذ زائر بالمدرسة العُليا للأساتذة
جامعة سيدي محمد بن عبد الله
فاس - المملكة المغربية

مُلَخّص

يُطرح اليوم سؤال مركزي عن مبررات اللجوء إلى العنف، باسم الإسلام، في حق أقليات دينية تعيش في بلدان ذات أغلبية مسلمة. والحال أن هذه الدول، في تنظيمها للعلاقة بين الأغلبية والأقلية فيها، ربما قد أغفلت، ضمن سياساتها، خصوصية هذه الأقليات، مما يهدد كيانها ويحكم عليها بالفناء سواء على المدى القريب أو البعيد. والمغرب، باعتباره بلدًا مسلمًا احتضن أكبر تجمع يهودي في البلاد العربية على مرّ التاريخ، شكّل نموذجًا ملهمًا للتعايش بين المسلمين واليهود ممَنّ اشتركوا معهم في الانتماء إلى الوطن، أو ممَنّ لجأوا إليهم خوفًا من اضطهاد ديني، ملهمه في ذلك مبادئ الإسلام، والسياسة التي اعتمدها حكامه والمؤسَّسة على مجموعة من القيم والآليات التي تهدف إلى تدبير كل تنوع واختلاف في المجتمع. شكّل التنوع والاختلاف السّمة المميزة للمغرب وخصوصًا خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، كما أن الوضعية القانونية للرعايا المغاربة اليهود بصفتهم أهل ذمة، حددت الكثير من ملامحهم الاجتماعية، بما في ذلك السماح لهم بحرية ممارسة شعائرهم الدينية، وتدبير أحوال مؤسساتهم بما تقتضيه قوانينهم الخاصة بهم. وتبعًا لذلك، شكلت إدارة هذا التنوع والاختلاف معطى أساسيًا لصياغة التوازن بين الجماعتين. من هذه الزاوية، تبرز الحاجة إلى دراسة مختلف جوانب علاقات التعايش وتطورها بين المسلمين واليهود، وأيضًا مختلف الآليات التي ساهمت في تقارب هذه العلاقات. ويبقى الهدف من هذه الدراسة هو استجلاء القيم السياسية التي ارتكزت عليها تجربة المغرب في إدارة التنوع والاختلاف، ثم إبراز آليات إدارة التنوع والاختلاف في المغرب. وكخلاصة بيّنا أن التعايش بين المسلمين واليهود حقيقة تاريخية لا يمكن إنكارها، وأن الدين والثقافة الخاصة بكل جماعة لا يشكلان مصدر قلق للجماعات الدينية داخل البلد الواحد.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٠٣ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ١٦ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

اليهود؛ المسلمون؛ المغرب؛ المجتمع المغربي؛ تاريخ المغرب الحديث

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.248862 doi

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

محمد الصديق احمموشي، "تدبير المغاربة للتنوع والاختلاف بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية خلال القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٢٠٤ – ٢١٥.

Corresponding author: hmamouchiseddik@gmail.com
Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مُقدِّمَةُ

احتضن المغرب أكبر ساكنة يهودية في العالم العربي، إذ بلغ عددهم إلى حدود بداية ستينيات القرن العشرين حوالي ٢٤٠٠٠٠ نسمة، أي ما يعادل ٢,٧ في المئة من مجموع السكان. وهي من أقدم الجماعات اليهودية عمومًا، إذ يعود وجودها إلى فترة ما قبل الميلاد.

ظلّ اليهودي حاضرًا في المجتمع المغربي في مختلف مدنه وقراه على مرّ العصور، فأصبح الحديث عن يهوديّ القرية أو المدينة، واليهودي الحِرفي الفقير، ويهودي السلطان أو يهودي البلاط الغنيِ ذي النفوذ والحظوة؛ فالأسرة العلوية الحاكمة في المغرب شهدت وجود أكبر عدد من اليهود في خدمتها بشكل يفوق ما حصل في أية مرحلة سابقة من التاريخ المغربي (شروتر دانييل، ٢٠١١، ص. ٣٢)، فضلاً عن وصول بعضهم إلى أعلى مراتب النفوذ في الهرم السياسي للدولة المغربية، مما يجعل مكانة اليهود ثابتة في تاريخ المغرب.

ومن المؤكد أن المغرب استطاع خلال هذا التاريخ الطويل تبني سياسة فريدة تقوم على مجموعة من القيم والآليات لتدبير الاختلاف بين أغلبيته المسلمة وأقليته اليهودية من حيث الدين، واللغة، والأعراف، والهوية، ووجدت في الامتداد اليهودي في التاريخ المغربي مرجعًا وسندًا لها؛ مما جعله يشكل بالفعل نموذجًا متميزًا من التعايش بين الأعراق والديانات عبر التاريخ. فما هي إذن تجليات هذا التعايش بين المسلمين واليهود في المجتمع المغربي وبالأخص مغرب القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين؟ وكيف استطاع الحكام المغاربة تدبير هذا الاختلاف والتنوع في تركيبته المجتمعية؟

أولاً: القيم السياسية التي ارتكزت عليها تجربة المغرب في إدارة التنوع والاختلاف

١/١–قيم التوقير والاحترام والمعاملة الحسنة

تكتسب قيمة احترام وتوقير الأقلية اليهودية، في بلد غالبيته من المسلمين، أهمية خاصة في تجربة المغرب في تدبير التنوع والاختلاف، بالنظر إلى ما عرفته هذه الأقلية من تمييز على أساس الدين في مناطق وبلدان مختلفة من العالم، فشكل المغرب بذلك ملاذًا تاريخيًا آمنا لليهود؛ إذ عاش اليهود أوضاعًا صعبة في بلدانهم، في فترات حرجة تميزت بتصلب المواقف التاريخية والدينية السائدة، فاضطروا للهجرة نحو بلدان بعيدة طمعًا في حياة آمنة (انظر التعليق رقم ١)، إلى أن استقر ببعضهم المقام في المغرب المسلم، فوجدوا به مساحات واسعة من العيش والاندماج مستفيدين من قيم التوقير والاحترام النابعة من أصول التسامح الإسلامي. لقد عمل النظام الحاكم على إصدار العديد من الظهائر والمراسيم السلطانية، غايتها إدماج العنصر اليهودي في الحياة العامة والقطع مع كل تمييز على أساس العرق أو الدين، كما وجدت هذه القرارات العليا أرضية شعبية ملائمة سمتها الأساسية قبول الآخر والعيش المشترك. وفيما يلي مجموعة من الظهائر والقرارات الصادرة عن السلاطين المغاربة، خلال الفترة المدروسة، التي تترجم قيم الاحترام والتوقير تجاه الأقلية اليهودية.

فمباشرة بعد تقلده عرش الدولة العلوية، أصدر السلطان مولاي عبد الرحمان (انظر التعليق رقم ٢) ظهيرا سنة ١٨٢٥ يوصي عامله في تطوان بمعاملة أهل الذمة طبقا لتعاليم الإسلام السمحة: "خديمنا الأرضي القائد محمد بن عبد الرحمن أشعاش أعانك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبعد، فإن أهل الذمة لهم حرمتها، فقد قال (ﷺ) فمن ظلمهم فأنا محاجه يوم القيامة، والتجار أحرص الناس محافظة على سلعهم وصيانتها من الآفات النجسة وغيرها، وقد تكلم العلماء في ذلك بما تقضي الإباحة، وقد كتبنا لهم ظهيرًا شريفًا إقرأه عليهم وشيع ما فيه حتى يعلم نصه الخاص والعام...فاستوص بهم ونشطهم للخدمة، فقد كانوا أعون شيء لأبيك رحمه الله على الخدمة" (داوود محمد، ١٩٥٩: ٨١-٨٢). وبذلك كان مولاي عبد الرحمان حريصًا على احترام خصوصيات الجماعات اليهودية، حيث ترك لهم الحرية للاحتفال بأعيادهم، وأمر بجعل المناسبات الدينية عطلاً رسمية. وفي مراسلة سلطانية أخرى موجهة إلى الوالي محمد أشعاش (بوشعراء مصطفى، ١٩٨٤: ٦٥١) (انظر التعليق رقم ٣) في ١٧ ماي ١٨٢٨، تم النص صراحة على أن "أهل الذمة لا يكلفون يوم سبتهم ولا في أعيادهم بخدمة". (الحداوي محمد، ٢٠١٦: ٨٠)

لم يحد السلطان الجديد للمغرب سيدي محمد بن عبد الرحمان عن نهج والده في توقير واحترام اليهود، إذ أصدر ظهيرًا تاريخيًا (انظر التعليق رقم ٤) في ٥ فبراير ١٨٦٤ إلى جميع ولاته بإيالته يأمرهم بمعاملة اليهود "بما أوجبه الله تعالى من نصب ميزان الحق والتسوية بينهم وبين غيرهم في الأحكام حتى لا يلحق أحدًا منهم مثقال ذرة من الظلم ولا يضام، ولا ينالهم مكروه ولا اهتضام، وأن لا يعتدوا هم ولا غيرهم على أحد منهم ولا في أنفسهم ولا في أموالهم" (الناصري أحمد بن خالد، ١٩٩٧: ١١٤). وعلى الرغم من ذلك، فقد توالت الشكايات من طرف اليهود بسبب تصرفات بعض الولاة في مدن الصويرة والدار البيضاء ودمنات (بن الصغير خالد، ١٩٩٧: ٣٠٠)، مما جعل السلطان يصدر ظهائر أخرى "يوصي خيرا بضعفاء اليهود ومساكينهم المعروفين بالسكينة" (داوود محمد، ١٩٦٦: ٦٢) (انظر التعليق رقم ٥).

وتكشف الرسالة التي وجهها وزير الشؤون الخارجية محمد بركاش إلى الجمعية اليهودية البريطانية، ردًا على رسالة التهنئة التي بعثتها بمناسبة اعتلاء السلطان مولاي الحسن العرش (انظر التعليق رقم ٦)، عن أهم ملامح السياسة السلطانية تجاه اليهود المتضمنة لقيم الاحترام والتوقير والمعاملة الحسنة: " في ما يتعلق بأوضاع إخوانكم الذين يعيشون في إيالتنا السعيدة، فنؤكد لكم أنهم تحت حماية السلطان... سيدنا... سيحترم كافة الالتزامات التي جاءت في الظهير الشريف السابق لفائدة اليهود... كما أن سيدنا سيعمل على فرض احترام هذا الظهير، لينعموا بالعدل والخير، وسيعمل على منع كل ما من شأنه أن يلحق الظلم بهم سواء في المدن أو في البوادي" (Emily Gottreich, 2016 : 78). وبالفعل، جاءت مضامين الرسالة المطولة التي وجهها هذا السلطان إلى كافة الولاة والقواد بربوع الإيالة، بعد سنة من حكمه، والتي ضمنها توجيهاته وفلسفة حكمه، منسجمة مع المنحى العام الذي سار عليه أجداده السلاطين حيال الرعايا اليهود الموسوم بتكريس قيم التسامح والتعايش الديني، والتأكيد على المعاملة الحسنة (ابن زيدان عبد الرحمان، ٢٠٠٨: ٢٥٩-٢٦٩) (انظر التعليق رقم ٧).

ومع نهاية القرن التاسع عشر، أصدر السلطان الشاب مولاي عبد العزيز (١٨٩٤-١٩٠٨) ظهيرا آخر في ١١ جمادى الثانية ١٣١٤ هـ الموافق لـ ١٦ نونبر ١٨٩٦، يوصي فيه عامله على صفرو الباشا عمر اليوسي خيرًا بالرعايا اليهود القاطنين بالمدينة (Eugène Aubin, 1904 : 396) (انظر التعليق رقم ٨)، وأن يحرص على "أن لا يمسهم أحد بضرر أو أذى... ويتركهم يمارسون عاداتهم بكل حرية..ويمنع جلدهم، ولا يعملون في أيام أعيادهم" (AIU Archives Historiques, 1905) ، وهو بذلك حافظ على نهج وسيرة أجداده الذين دأبوا على إصدار العديد من الظهائر والمراسيم السلطانية لفائدة رعاياهم اليهود.

ومن خلال مختلف هذه الظهائر السلطانية التي أصدرت طيلة ست وثمانين سنة، بدءًا بفترة حكم السلطان مولاي عبد الرحمان وانتهاء بولاية السلطان مولاي عبد العزيز، تتضح جليًا سياسة الدولة العلوية في تدبيرها للتنوع والاختلاف، وإدارتها للعلاقة بين الأغلبية والأقلية فيها، المعتمدة أسًاسًا على مراعاة خصوصية الأقلية اليهودية وصون كرامتها، بناء على ضمانات قانونية صادرة عن أسمى مصدر تشريعي بالبلاد.

٢/١-قيمة التعـايـــش

تقوم تجربة المغرب في إدارة التنوع والاختلاف على قيمة التعايش، وما يعنيه ذلك من ضرورة نبذ التعصب وقبول الآخر في المجتمع باعتبار اليهود المغاربة أعضاء في الجماعة السياسية يتمتعون بنفس الحقوق ويتحملون نفس الواجبات. وترتبط قيمة التعايش في المغرب بمسألة وجود هذه الأقلية اليهودية بشكل منتظم وآمن وسط المسلمين، وما يستدعيه من أشكال متعددة لحماية الأشخاص والممتلكات، مقابل الالتزام بأداء ضرائب ذات طابع خاص.

(٢/١) ١-الحماية وضمان الأمن

عُرف اليهود المغاربة "بالتحركات الكبرى داخل حدود البلد... فكانوا يعبرون المغرب دون عناء من الشمال إلى الجنوب ومن الشرق إلى الغرب، من تطوان إلى تارودانت ومن سجلماسة إلى مكناس وسلا، على الرغم من صعوبات المواصلات خصوصًا، بالنسبة لذمي ويهودي يترقبه الخطر على الطرق التي تصبح مهلكة في فترات

التسيب المهيمنة أثناء تغير السلطة أو الحروب الأهلية". (الزعفراني حاييم، ١٩٨٧: ٢١-٢٢) فاليهودي ميّال بطبعه إلى التنقل والترحال، فاقتضى ذلك توفير حماية له تضمن أمنه واستقراره، وتعكس بالتالي القيمة السامية التي كفلتها الدولة المغربية على امتداد التاريخ والمتمثلة في قيمة التعايش والتساكن مع العنصر اليهودي. ويمكن تصور شكلين من هذه الحماية بالنظر إلى الجهات التي تؤمنها: الحماية السلطانية من جهة، وحماية السيّد داخل القبيلة من جهة أخرى.

على المستوى الأول، تشير المراسلات السلطانية إلى عنصر مهم ساهم بشكل كبير في تكريس مظاهر التعايش والتكافل بين المسلمين واليهود، ويتعلق الأمر بتدخل الحكام، غير ما مرّة، لإنهاء خلاف، أو لإرجاع حق، أو إنصاف مظلوم، عبر العديد من الظهائر والمراسيم الموجهة إلى العمال، والقواد، والباشوات، والأمناء. وفيما يلي نموذج لإحدى هذه المراسلات التي صدرت عن السلطان مولاي عبد الرحمن إلى عامله بتطوان في موضوع تاجر يهودي سافر إلى طنجة مصحوبا بعشرة فرسان قصد حمايته، فكافأهم السلطان على ذلك: "...فالخيل العشرة من أخوالنا الاوداية الواردة صحبة الذمي التاجر "مير" ادفع لكل واحد منهم عشرة ريال من صايرنا وقره الله ولابد وفقك الله... واستوص خيرا بالذمي المذكور ولا تقاشحه فيما هو قانون وعادة. ولا بد صح به. والسلام. في ٢٨ شهر الله صفر الخير عام ١٢٣٩هـ". (داوود محمد، ١٩٥٩: ٦٨-٦٩)

وعلى إثر الشكايات التي رفعها يهود دمنات إلى السلطان مولاي الحسن الأول ضد القائد الجيلالي سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٧م، حيث كانوا يتعرضون منه "لإهانات وتسخيرات لهم ولنسائهم، ولمضايقات في تجارتهم، لم يتحملوها" (التوفيق أحمد، ٢٠١١: ١٥٢)، تم إنصاف هذه الفئة، إذ منحها السلطان ظهيرا ينهي كل أشكال التعسف والجور التي تعرضوا لها على يد عامله بدمنات (التوفيق أحمد، ٢٠١١: ١٥٣) (انظر التعليق رقم ٩). إلا أنه على ما يبدو، استمر القائد المذكور في تصرفاته، فقرّر مولاي الحسن الوقوف بنفسه على حقيقة هذا النزاع، حيث زار دمنات في رجب ١٣٠٤ (أبريل ١٨٨٧)، فأمر بإنشاء ملاح خاص لليهود يعيشون فيه بعيدا عن كل المضايقات وتحت الحماية المباشرة له.

(Flamand Pierre, 1952 : 19)

في الواقع، شكل بناء الملاحات التي تأوي اليهود داخل الأوساط المسلمة إحدى الآليات التي اعتمدها السلاطين المغاربة لتدبير العلاقة بين الأغلبية المسلمة والأقلية اليهودية بعيدًا عن كل تبرير ديني متطرف. فإذا كانت الكتابات الأجنبية قد فسرت تأسيس الملاّحات على أساس عنصري يروم تهميش الجماعة اليهودية، وسجنها داخل أسوار عالية، وبالتالي تكريس مقولة " الذمي السجين" (كنبيب محمد، ١٩٩٨: ٢٠٧)، فإن الوثائق المحلية (التوفيق أحمد، ٢٠١١) (انظر التعليق رقم ١٠) جعلتنا أمام تفسيرات مغايرة، معقولة إلى حد ما، مكنتنا من طرح تساؤلات تقتضي الإجابة عنها الكشف عن أزمنة تعايش فيها اليهود والمسلمين جنبا إلى جنب بشهادة الأجانب أنفسهم.

وارتباطًا بهذا السياق، وحتى خلال فترات الجوائح والأزمات التي شهدها المغرب منذ منتصف القرن التاسع عشر وإلى غاية النصف الأول من القرن العشرين، ظلت علاقات اليهود مع المسلمين تتسم بالتضامن والتآزر داخل المدن المعروفة بملاحاتها "المسوّرة" من جميع الجهات. وحتى إذا ما سلّمنا، فرضا، بصحة هذا المعطى التبريري الاستعماري القائم على عنصر توفير الحماية والأمن لليهود (Katz, 1973, p. 13)، فكيف يمكن تفسير خروج اليهود من ملاحاتهم "الآمنة"، و"القفز على أسوارها"، في محاولة للوصول إلى أمكنة أكثر أمنا بجوار المسلمين؟ كما أنه إذا كان الأمر كذلك داخل المدن، فلا أظن أن هاجس توفير الأمن عند اليهود يطرح بنفس الحدة داخل القبائل والقرى التي ينعدم فيها منطق التسوير والعزل. فالقبائل كانت شديدة الحرص، استنادا إلى قوانينها العرفية، على تأمين الحماية لكل أفرادها اليهود والمسلمين، كمظهر أساسي يؤطر تلك الشبكات الاجتماعية، وتجمع في الوقت نفسه بين مظاهر الصداقة والحماية والتكافل بين الطرفين، ضد كافة أشكال السلب والنهب التي طالت الفئتين معا في ظروف عصيبة كالمجاعات.

إن مثل هذه المبررات، التي حاولت الكتابات الأجنبية ترويجها بغية التقليل من أهمية الحدث، تبدو ضعيفة خصوصًا إذا ما لامسنا بعض مظاهر التضامن والتسامح وقيم قبول الآخر من الجانب المسلم. ففي سنة ١٨٢٢، على إثر وفاة السلطان مولاي سليمان، حينما هوجم ملاّح مكناس من قِبل بعض القبائل المجاورة، شوهد اليهود وهم يحتمون عند أصدقائهم المسلمين، ومكثوا أسابيع عدة في ضيافتهم. وتكررت الواقعة نفسها بمدينة صفرو، حيث لجأ اليهودي إسحاق أفرياط إلى منزل صديقه أحمد المسّار خوفًا من بطش قبائل الاودانية الأمازيغية التي هجمت على ملاح صفرو (Bentov , 1980, p. 73). وفي عام ١٨٩١، الموسوم بالأزمات وأحداث الفوضى والفتن، لجأت عناصر يهودية إلى بيوت المسلمين للإقامة عندهم ريثما تنتهي الأزمة (مديرية الوثائق الملكية، محفظة مراكش رقم ٨، ١٨٩١). كما أنه أثناء هجوم القبائل المجاورة على مراكش سنة ١٨٩٤، تم اقتحام الملاح ونهبه، فاضطر حوالي خمسمائة يهودي تسلق حائط الملاّح وقضاء الليلة بالمدينة. وحسب تقارير محتسب المدينة، فإن العديد من اليهود قضوا ليلتهم في منازل المسلمين بما في ذلك منزل المحتسب نفسه (مديرية الوثائق الملكية، محفظة مراكش رقم ١٠، ١٨٩٤). أيضًا خلال ثورة ١٩٠٤ التي شهدتها مراكش بسبب إصدار عملة نقدية جديدة، اضطر التجار اليهود للاختباء في فنادقهم بالمدينة، بينما وُجد أحدهم في بيت امرأة مسلمة قبلت إيواءه إلى حين استقرار الأوضاع بالمدينة (Gottreich , 2016, p. 182).

على المستوى الثاني، وعلاوة على الحماية السلطانية المباشرة، عاش اليهود في كنف شيوخ القبائل وزعمائها، داخل تجمعات سكنية منتشرة في القرى سواء في الجبل، في السفح، أو في أقصى الجنوب. ففي هذه المناطق، بعيدا عن الحواضر، تتلاشى صورة الملاّح، وتضيق دائرة القانون لفائدة أعراف محلية اكتسبت قوتها الإلزامية مع مرور الزمن. لقد لعب اليهود في هذه المناطق أدوارا كبرى تمثلت في تنشيط الاقتصاد المحلي، والقيام بدور الوساطة بين المدينة وأماكن الاستقرار بالبوادي؛ ففي مدينة وزان مثلا، كانت الدور التجارية العشرة الموجودة في المدينة، سبعة منها في ملكية اليهود، وهم الذين كانوا يقومون بتصدير المنتجات المحلية بالمنطقة، كالجلود التي بيعت بطنجة، والفول والقمح الموجهين إلى العرائش (Eugène Aubin, 1904: 488). وفي مدينة دبدو، كان التجار اليهود يجلبون من تلمسان البضائع المستوردة، ومن العواصم المغربية أو من المدن الشاطئية، فكانوا يختزنون هذه البضائع عندهم ويبيعونها قسطا في عين المكان أو في الأسواق المجاورة (دو فوكو شارل، ١٩٩٩: ٣٧٧).

بالمقابل، كان هؤلاء اليهود يعتمدون في ذلك على حماية المسلمين المحليين. وكأمثلة على ذلك، نرى كيف "سمحت قبائل أيت ويران للتجار والحرفيين اليهود بالاستقرار في أراضيها خلال القرن التاسع عشر، ومكنت الحماية التي كانت توفرها زاوية أقا وقواد أيت مرابط لليهود من الحفاظ على شبكات تجارية مع الصويرة والسودان" (بوم عمر، ٢٠١٥: ٤٦). وأثناء زيارته للمغرب سنة ١٩٠٥، لاحظ الرحالة الفرنسي أوجين أوبان كيف أن الشيخ حمادة، أحد رجالات الكندافي الرجل القوي في المنطقة، يحمي حشدا غفيرا من اليهود الذين يقطنون مباشرة بالقرب من إقامته "القصبة" (Eugène Aubin, 1904: 56)، في حين شكلت قصبة شرفاء القصابي مكانا آمنا لإيواء اليهود العابرين بالمنطقة، على مر العصور والأزمنة (دو فوكو شارل، ١٩٩٩: ٣٢٠).

في هذا السياق، يسوق لنا الباحث الأنثروبولوجي عمر بوم، شهادة لأحد مستجوبيه المتقدمين في السن الذين يعيشون بجنوب المغرب: "كنا بحاجة إلى اليهود بغية ضمان الديمومة لنشاطنا الاقتصادي وتمكينه من البقاء، وقد اعتمدوا علينا لتأمين سلامتهم الشخصية، وتحتّم علينا التعايش حتى نقوى على الصمود معًا أمام قساوة العيش في الصحراء، وبات من الواجب علينا التوافق على خلق أجواء فضاء حميمي ووضع إطار قانوني ينظم هذه العلاقة بيننا" (بوم عمر، ٢٠١٥: ٦٥). فالحماية القبلية لليهود تقوم بالأساس على أداء هؤلاء للأتاوات وغيرها من أشكال التعويض المادي لفائدة الأسياد المسلمين مقابل حصولهم على الحماية. وقد تطورت هذه العلاقات إلى شبكات معقدة ومتناقضة

تجمع في الوقت ذاته بين مظاهر الصداقة والحماية والتكافل، تكون كفيلة، في نهاية المطاف، بخدمة مصالح اليهود الخاصة. (Hess Jean, 1907 :22).

على أن تفسير ذلك، يكمن في كون اليهود يتميزون بوضع خاص "أهل الذمة" الذي تمنحهم إياه مقتضيات الشريعة الإسلامية، مما يجعلهم ينتظمون، سواء داخل الملاحات أو خارجه، ضمن هذه العلاقات الاجتماعية، باعتبارهم محميين في ذمة من يختص بالحماية وضمان الأمن (زعماء قبائل، ممثلو المخزن). وهكذا لا يمكن أن "نشتم" من تلك العلاقات التي كانت تربط اليهود بالزعامات المحلية "رائحة الاستغلال الاقتصادي والاجتماعي" – كما فسرها (هيس)-، وإنما يمكن ربطها بالوضعية القانونية المبنية على أحكام أهل الذمة التي تحتم على الحاكم أن يؤمن سلامة "أهل الكتاب" الذين يعيشون على أرض الإسلام مقابل أداء الجزية.

(٢/١) ٢-أداء الجزيــة

ثمة علاقة مباشرة بين أداء الجزية ومكسب التعايش الذي تنعم به الأقلية اليهودية داخل الجماعة التي توجد بها؛ ذلك أن توفير إمكانية العيش والتنقل داخل مناطق نفوذ معينة بكل أمن وسلام، يجد أساسه في مرجعية دينية فضلا عن مصالح اقتصادية مشتركة. فالمسلم لم يكن بمقدوره أن يمس الذمي بسوء، حرصا منه على الاقتداء بالرسول (ﷺ) الذي هادن يهود المدينة وأبقاهم على دينهم والعيش وسط أغلبية مسلمة بعد أن ألزمهم بأداء الجزية. وبناءً عليه يمكن تصور تلك العلاقة بين هذه المفاهيم الثلاثة: الجزية-الحماية-التعايش، كل مفهوم ملتصق بالآخر وظل أحدهما يحيل على الآخر.

دأب اليهود المغاربة على دفع الجزية بانتظام، وكان ذلك يبدو طبيعيًا، خلال الفترات العادية حيث يعم الأمن والاستقرار، مقابل التزام السلاطين بالحفاظ على النظام، وضمان سلامة الطرق التجارية. وطبعًا يُكلف الأمناء والقواد وغيرهم من أعوان المخزن بجباياتها؛ "كان القائد أحمد الخضر السلاوي يقبض الجزية من يهود تطوان وشفشاون كل سنة، وكانت العادة أولا أن يرسلها إلى السلطان، ثم صدر الأمر بدفعها لأمناء المرسى" (داود محمد، ١٩٦٦: ١٨١). وفور وصول الجزية إلى السلطان، يتم الإشعار بالتوصل عن طريق مراسلة سلطانية؛ ففي ٢٤ محرم ١٢٥٦هـ، راسل المولى عبد الرحمان عامله على سلا أحمد عواد يعلمه بوصول جزية أهل سلا: "خديمنا الأرضى الحاج أحمد عواد، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته. وبعد: فقد وصل لحضرتنا العلية بالله كتابك وصحبته ألف مثقال جزية أهل ذمة سلا، حسبما بينت، وذلك على يد خديمنا الطالب محمد السوسي، وذلك جزية ثلاث سنين مضت عن تاريخه والسلام" (ابن زيدان عبد الرحمان، ٢٠٠٨: ٥٤).

إن حرص السلاطين المغاربة على استخلاص الجزية من الرعايا اليهود لا يمكن تفسيره على أساس نفعي ضيق، أو بمنطق الاستغلال المادي المتوحش؛ فبعض الوثائق المخزنية (ابن زيدان عبد الرحمان، ٢٠٠٨: ٦٨) (انظر التعليق رقم ١١) تفيد عكس ذلك، وتحيلنا على تقليد سلطاني يقضي بتخفيض مقدار الجزية المعتاد وذلك مراعاة لظروف اليهود المادية. لكننا بالمقابل، لا يمكن أن نغفل عن مركزية هذه الأقلية في البنية الاجتماعية المغربية من خلال مساهمتها الفعالة في موارد خزينة الدولة؛ "إذ ظل بيت مال المخزن ينظر دائما إلى اليهود كمورد اقتصادي لا يمكن الاستغناء عنه، لأنه يمكن خزينة الحكام والأمراء والسلاطين والملوك من القدرة على مسايرة حاجياتهم وتسيير دواليب حكمهم، من خلال الجزية وأنواع الرسوم التي كانت تفرض على هذا العنصر، وهو ما كان يجعل اليهود أيضًا محل تقدير واحترام من قبل الأجهزة المخزنية العليا في البلاد" (Khaneboubi Ahmed, 1987 :107).

ثانيًا: آليات إدارة التنوع والاختلاف في المغرب

تبنّى المغرب مجموعة الآليات التي مهدت الطريق لانفراده بخاصية تعايش وتساكن أقليته اليهودية مع باقي مكونات الدولة أو الجماعة ذات الأغلبية المسلمة، على نحوٍ أسهمَ في إدارة جديدة للتنوع والتعدد الديني. ويمكن إبراز بعض هذه الآليات من خلال تدبير الحكام المغاربة للقطاعين التعليمي والقضائي داخل الدولة، طيلة القرن التاسع عشر وقبيل الاستعمار.

١/٢-على المستوى التعليمي

شهد المغرب خلال القرن التاسع عشر نظما تعليمية مختلفة؛ فحتى منتصف القرن العشرين، كانت هناك مدارس تخص كل مجموعة سكانية، فلليهود مدارسهم، وللأوربيين مدارسهم، وللمسلمين مدارسهم. فالصفة الأساسية للتعليم في المغرب، خلال تلك الفترة، كانت مستمدة من فلسفة التعايش مع مختلف المجموعات العرقية. وجدت الأقلية اليهودية في المجتمع المغربي مساحات تسامح مجتمعي مهمة، شكل النظام التعليمي اليهودي أحد أهم سماته؛ فساهم في منح هذه الأقلية هامشًا من الحرية الاستقلالية مكنها من لعب أدوار مهمة، وفرضت حضورها الثقافي المتميز. فماهي أهم سمات النظام التعليمي اليهودي بالمغرب؟

(١/٢) ١-التعليم التقليدي اليهودي

ظل اليهود متشبثين بنظام تعليمي تقليدي -أو ما يعرف بالمدارس التلمودية- الذي يعتبر بحق "صورة من المدارس الأصيلة التي تمتد جذورها إلى بداية استقرار اليهود بالمغرب العربي أو على الأقل منذ الفتح الإسلامي" (الزعفراني حاييم، ١٩٨٧: ٥٩). وإذا كان هذا النوع من التعليم من شأنه "أن يجعل من الفرد عضوا في الجماعة، وشخصا له عقلية جماعية، وشعور عميق بالانتماء إلى جماعته، وأساس قوي بالتماسك وتضامن فعال مع أعضائها" (الزعفراني حاييم، ١٩٨٧: ٥٩)، فإننا نثمن سياسة المغرب في تدبير الاختلاف والتنوع وقبول الآخر والقطع مع كل سلوك إقصائي، على الرغم مما تحويه مثل هذه السياسات من أخطار مستقبلية قد تهدد وحدة المجتمع وتعصف باستقراره السياسي.

كان التعليم التقليدي اليهودي مقسمًا إلى قسمين: تعليم موجه للصغار (أُصلا)، وتعليم خاص بالكبار (اليشفا). فالمدرسة المسماة ب "أُصلا" أو "الحدر" أو " تَلّمود" (انظر التعليق رقم ١٢)، وهي شبيهة بالكتّاب عند المسلمين، حيث يتلقى الطفل اليهودي —منذ السنة الثالثة إلى السنة الثالثة عشرة- الأسسَ الأولى للديانة اليهودية وتعاليمها، فضلا عن تعلّم الكتابة والقراءة، كانت تُعدّ أهم معالم التعليم اليهودي (المسيري عبد الوهاب، ١٩٧٥: ١٧١). وتعد البيَع أو المعابد المكان الطبيعي لهذا النوع من المدارس، أما الأماكن التي تخلو منها، فكانت تلحق المدرسة بأحد المنازل اليهودية (الزعفراني حاييم، ١٩٨٧: ٦١).

أما فيما يخص "اليشفا" أو التعليم العالي الموجه للكبار، ففيه تعمق دراسات التلمود والتوراة، وتقرأ الكتابات الأخرى، مثل المدرشيم والزهر والتفاسير المتعددة (عطا علي محمد شحاتة ريه، ١٩٩٩: ١٩١)، مع التركيز على تعويد الطالب القدرة على ممارسة الجدل، وإظهار القدرة على التأويل وتقديم الجديد. وتتجلى مهمة "اليشفا" في إعداد حاخامات وأحبار مؤهّلين للقيام بمهامّهم. لم يحصر المغرب هذه المدارس في نطاق مكاني ضيق، أو جعلها محدودة في الزمان، بل رخّص إنشاءها في "الملاحات القديمة بالمدن الكبرى، أو في أماكن تجمعات السكان المتواضعة بالقرى، أو في قصور تخوم الصحراء أو في أودية الأطلس" (عطا علي محمد شحاتة ريه، ١٩٩٩: ٦١). وهو ما يدل على أنه راهن على التعليم كآلية من آليات تدبير الاختلاف وخلق فضاءات أكبر لاندماج الأقلية اليهودية في محيطها، ورفض أية محاولة لاغتيال هويتها. لقد ظلت مدارس التعليم التقليدي قائمة بالمغرب حتى منتصف القرن التاسع عشر، إلى أن ظهرت مدارس جديدة منافسة لها تسمى مدارس الرابطة الإسرائيلية.

(١/٢) ٢-مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية

إن الطبيعة المتسامحة للسلاطين المغاربة لم تكن لترفض تأسيس مدارس الرابطة الإسرائيلية على أرض المغرب، فالسلطان سيدي محمد بن عبد الرحمن قبِل طلب الرابطة الإسرائيلية بباريس بتأسيس مدرسة لها بتطوان سنة ١٨٦٢م، "فشكلت أول مدرسة أسستها الجمعية اليهودية الفرنسية بالمغرب وبالعالم الإسلامي" (كنبيب محمد، ١٩٩٨: ٥٠).

توالى إنشاء مدارس الرابطة الإسرائيلية بالمغرب، بالنسبة لمدارس الذكور، في كل من طنجة ١٨٦٥، الصويرة ١٨٦٨، فاس ١٨٨١، إعادة فتح الصويرة ١٨٨٨، العرائش ١٩٠١، مراكش ١٩٠١، الرباط ١٩٠٣، الجديدة ١٩٠٦، أسفي ١٩٠٧، مكناس ١٩١٠، صفرو، وأزمور ١٩١١. أما بالنسبة للإناث، فكانت على التوالي، في تطوان ١٨٦٨، طنجة ١٨٧٤، فاس ١٨٩٩، البيضاء

١٩٠٠، الصويرة، مراكش، العرائش ١٩٠١، الجديدة ١٩٠٦، أسفي ١٩٠٧، مكناس، الرباط ١٩١٠ (شحلان أحمد، ١٩٨٦: ٢١٠).

ويأتي الاعتراف هذه المرة، بتسامح الشعب المغربي وبتجربته الفريدة في قبول الآخر وتدبير اختلافه معه، من خارج المغرب، حيث صرّح "هاردي" مدير التعليم العمومي في النظام الاستعماري الفرنسي للمغرب: "إن المغاربة باعتبارهم أكثر تسامحا من شعوب أخرى قد سمحوا لليهود بالاستقرار بين ظهرانيهم. وقد أقدموا على ذلك خدمة لمصالحهم، وطبقا لطبيعتهم المتسامحة، لكنهم عند استقبالهم لليهود، اتخذوا مع ذلك كل الاحتياطات الضرورية حتى لا يتم ابتلاعهم من طرف هؤلاء الوافدين الجدد...".

(Gaudefroy, Demombynes, 1928: 207-208)

وإذا كان التعليم قد شكّل أحد أهم مداخل إصلاح حال اليهود خلال النصف الثاني من القرن التاسع عشر، وبالتالي الضغط على السلطان المغربي لقبول فتح المزيد من مدارس الرابطة الإسرائيلية العالمية على أرضه (انظر التعليق رقم ١٣)، فإن سيدي محمد بن عبد الرحمن كان أكثر وعيًا بأهمية هذه المدارس من أجل تحسين وضعية اليهود المغاربة، وفي نفس الوقت كان يدرك تمام الإدراك أن هذا النوع من المدارس لن يشكل تهديدًا حقيقيًا عن طريق أية محاولة لإذكاء نعرات طائفية أو زعزعة الثقة بين المسلمين اليهود.

وعلى الرغم من تغطية هذا النوع من المدارس لأهم المراكز الحضرية بالمغرب، إلاّ أنها كانت دومًا معرّضة لانتقادات من طرف عدد كبير من الحاخامات وغيرهم من الأعيان المحافظين، ارتكز أغلبها على الطابع العلماني لبرامجها وغياب الدروس الدينية واللغة العبرية التي كانت تُلقن للتلاميذ، فضلاً عن كون هذه المدارس تعتمد على مدرسين أشكينازيين قادمين من أوروبا الوسطى والشرقية يجهلون أعراف ولغة وثقافة يهود المغرب (Leibovici Sarah, 1984: 108-110). بالإضافة إلى ما سبق، رأى هؤلاء الأحبار أن في تأسيس مثل هذه المدارس "بداية الطريق نحو الانسلاخ عن اليهودية الحقة"، والابتعاد عن التقاليد التي حافظ عليها هؤلاء اليهود، كما رأى فيها الأغنياء منهم خطرًا على مواردهم المادية، فرفضوا المساهمة في التمويل المحلي لهذه المدارس (شحلان أحمد، ١٩٨٦: ٢١٤).

وجد المغرب نفسه إذن، خلال نهاية القرن التاسع عشر، أمام اكتساح لمدارس الرابطة الإسرائيلية حاملة معها روح ومناهج التعليم الفرنسية والعلمانية، وعلى الرغم من ردود الفعل التي أثارها في البداية الأحبار واليهود المتشبثون بتقاليد آبائهم، "غير أن الجميع تلاءم معها في نهاية الأمر" (الزعفراني حاييم، ١٩٨٧: ٧٥). فالحبر إسحاق بن الوليد الذي ذاع صيته بين يهود تطوان، وانتشرت فتاواه في الشرق وأوروبا، "وعلى الرغم من تكوينه التقليدي، فقد ساند مدرسة الاتحاد الإسرائيلي العالمي التي تم إنشاؤها في تطاوين سنة ١٨٦٢، وسجل أبناءه من زوجته الثانية سميحة بيباس، الفاسية الجذور، بالمدرسة المذكورة. ولولا إقدامه على ذلك لما سجل يهود تطاوين أولادهم في مدرسة الاتحاد العالمي الغربية الطابع، الدنيوية المناهج والمقررات. لقد رأى الحبر إسحاق بن الوليد أن المدرسة المذكورة تتكامل مع المدارس التقليدية التي كانت متعددة في تطاوين" (شهبر عبد العزيز، ٢٠٠٠: ٣٣-٣٤).

تبقى الإشارة إلى أن هذه المدارس بلغ عددها سنة ١٩٠٨، عشرين مدرسة تضم ٤٠٠٠ طفل منهم ٢٥٠٠ من الذكور و١٥٠٠ من الإناث (Baina Abdelkader; 1981: 110).

بصفة عامة يمكن القول: إن التعليم كان أداة أساسية سعى من خلالها المخزن المغربي إلى تقديم نموذج إيجابي للتعايش السلمي مع الأقلية اليهودية على مرّ العصور، حيث ظلت المدرسة التقليدية اليهودية قائمة تعمل على تكييف العنصر اليهودي اجتماعيًا، وتقوي شعوره بالانتماء إلى جماعته، فضلا عن تعزيز الثقة بين المسلمين واليهود. وعلى الرغم من ذلك، فقد واجهت محاولات استخدام التعليم كأداة من أدوات تحقيق التسامح الديني تحديات كبيرة خلال العقد الأخير من القرن التاسع عشر. فالرهان الذي راهنت عليه الرابطة الإسرائيلية العالمية من أجل الترويج لمدرسة عصرية تقطع مع التعليم التقليدي، جعل من مساحات التسامح التي أمّنها السلاطين المغاربة مجالاً لتسرب ثقافة ولغة فرنسيتيّن، تمهيدًا للاستعمار حيث تحول اليهود فيها

إلى جماعات وظيفية منفصلة ثقافيًا ووجدانيًا عن محيطها العربي، تعمل لخدمة مصالح الاستعمار الفرنسي في المنطقة.

٢/٢-على المستوى القضائي

قامت إدارة التنوع والاختلاف في المغرب خلال القرن التاسع عشر على عدد من الآليات التنظيمية المتعلقة بالشأن القضائي للدولة، جعلت منه قضاء فريدا موسوما بالتنوع: قضاء شرعيا ومخزنيا وعرفيا وعبريا، وذلك من أجل ترسيخ قيم التسامح داخل مجتمع فسيفسائي امتزجت فيه العديد من الأطياف والأجناس. كل قضاء مستقل عن الآخر له مرجعيته ومحاكمه وقضاته ومساطره الخاصة. فالقضاء الشرعي الذي يستمد مرجعيته من الشريعة الإسلامية، يختص بالقضايا الشرعية والعقارية، ويسهر على تطبيق القانون الشرعي قضاة الشرع أو الجماعة (التاودي بن سودة، ١٩٧٣: ٢٨-٣٠). أما القضاء المخزني، فيختص بالقضايا الجنائية والجنحية (Mediano Fernando; 1996: 156)، ويمارسه مركزيا السلطان، ومحليا قواد وباشوات (عمال المناطق) (Caillé Jacques; 1948: 2). أما القضاء العرفي فمرجعيته أعراف القبائل التي غابت عنها السلطة القضائية التي يمثلها المخزن وتمارسه مؤسسات عرفية محلية. ويختص القضاء العبري بالأحوال الشخصية والنوازل وكل القضايا المتعلقة بالأقلية اليهودية (Rivière Louis; 1927: 66).

احتفظ اليهود إذن، في إطار طابع التسامح الديني الذي تميز به المغرب، بقضائهم الخاص لفض نزاعاتهم التي تحدث داخل الملاحات (المحاكم الربِّية). ولمّا كان وجود الجماعات اليهودية الموجودة في البوادي مقترنا بمجموعة من الضوابط القانونية والاجتماعية التي كانت تخضع لها القبائل برمتها، فقد كانت ملزمة بالتماهي مع النظم الاجتماعية المسيرة بواسطة القوانين العرفية (محكمة الجماعة).

(٢/٢) ١-المحاكم الربِّيـّة

دأب اليهود على اختيار قضاتهم داخل المحاكم الربِية، ضامنهم في ذلك أعلى سلطة في البلاد متمثلة في السلطان الذي كان يصادق على هذا القاضي المقترح بظهير: "يعلم من هذا الكتاب الكريم، الملتقى بالجلال والتعظيم، أننا بحول الله وقوته، وبمنه ومنته، ولينا ماسكه الذمي الحزان سلوم بن الحزان شمويل عماد بن الورزيري الفصل بشرعهم بين يهود مكناس كما كان والده المذكور ولمعرفته ولكونه من أساقفتهم وأحبارهم، وتوفر شروط ذلك فيه حسبما أخبره حزانو فاس حين سؤالهم عنه... وأسدلنا عليه أردية الاعتناء والاعتبار، والملاحظة والوقار، وأسقطنا عليه الكلف المخزنية والعطاء كله إلا الجزية. ونأمر الواقف عليه من العمال والولاة أن يشد عضده في تنفيذ ما حكم به من أهل ملتهم بشرعهم. صدر أمرنا المعتز بالله في ٢٢ شعبان الأبرك من سنة ١٣٠٧هـ" (ابن زيدان عبد الرحمان، ١٩٦٢: ١٣٧).

كانت السلطات المسلمة تحترم استقلالية القضاء العبري، والتزمت، منذ عهود قديمة، باحترام خصوصية الطوائف اليهودية وعدم التدخل في شؤونها بمقتضى قانون الذمة؛ والظهير التالي رقم ١٦٠٣ يؤكد على أن اختيار القاضي (الحزان) شأن داخلي، ويكتسب شرعيته من السلطان نفسه: "بأمر من سيدنا الملك أعز الله قدره، والقاضي (شوفط) أعزه الله، فإنه لا يمكن أن يقضي في أمر اليهود إلا قضاة إسرائيل اليهود" (الزعفراني حاييم، ١٩٨٧: ١٢٨)

يتبين من خلال هذين الظهيرين أن المغرب راهن أيضًا على القضاء في تجربته في إدارة التنوع والاختلاف مع الأقلية اليهودية محترما أهم مكونات هويتها وهي الحفاظ على دينها وممارسة حقها في التقاضي أمام سلطتهم القضائية الخاصة.

تجدر الإشارة إلى أن المحكمة الربيّة تتكون من قاض أو ثلاث قضاة. فالمحكمة التي يشتغل فيها قاض واحد تسمى المحكمة الصغرى أو "بيت دين شل يحيد"، والمحكمة التي تتكون من ثلاث قضاة كانت تسمى المحكمة العليا أو "بيت دين شل شلوش". أما محكمة الاستئناف أو المحكمة الكبرى فتعرف بـ "بيت دين كدول". ويرأس المحكمة قاض أول يسمى "أب بيت دين" أو شيخ المحكمة (الزعفراني حاييم، ١٩٨٧: ١٢٨).

يساعد القضاة كتاب عدل موثقين (سوفريم)، وتتمثل مهمتهم الرئيسية في النيابة عن القضاة في حالة غيابهم وتحرير العقود القضائية. بينما يتكلف الأعوان "رسل دار القضاء بتبليغ الأحكام واستدعاء الشهود واستقدام المترافعين من أبناء الطائفة" (الزعفراني حاييم، ١٩٨٧: ١٢٨-١٢٩). ومن بين أكبر المحاكم الربّية بالمغرب، يمكن أن نذكر محاكم تطوان، صفرو، فاس، مكناس، الرباط، سلا، الصويرة، مراكش، ودبدو. إلا أن هذه المحاكم كانت تختص فقط بالقضايا المتعلقة بالأحوال الشخصية، والمواريث والقضايا المدنية والتجارية لليهود المغاربة، أما القضايا ذات الطابع الجنائي والأمني فكانت من اختصاص المخزن (ابن زيدان عبد الرحمان، ٢٠٠٨: ٢٧٧) (انظر التعليق رقم ١٤).

(٢/٢) ٢-محاكم الجماعة

يكتسي القانون العرفي حضورًا قويًا في المناطق القبلية الريفية والجبلية أكثر مما هو عليه في المراكز الحضرية. وقد حافظت العديد من هذه القبائل على هذا النظام القانوني على الرغم من وجود أنظمة قانونية مكتوبة من إنتاج المخزن المركزي. ذلك أن هذا الأخير، وتبعا لمقولة المركز والهامش (Robert, 1930: 18-20 Montagne)، تبقى العديد من الهوامش المجالية الترابية غير خاضعة للمخزن إلا إسميًا، فتكون القبيلة مضطرة إلى اعتماد تسيير ذاتي استنادًا إلى قوانينها العرفية، محافظة في نفس الوقت على ارتباطها بالمركز (المخزن/السلطان) من خلال الدعاء لهذا الأخير في صلاة الجمعة والأعياد. وكان السلاطين على بينة من هذا الأمر، فحاولوا غض الطرف وذلك بإضفاء الشرعية على مثل هذه القوانين العرفية، كما جاء في ظهير المولى الحسن الأول الذي أصدره في شأن الأعراف السوسية: "إنه أقر السوسيين على عاداتهم وأعرافهم التي عندهم عليها ظهائر أسلافه، واشترط على العلماء والأعيان والحكام منهم، ألا يخرجوا على ما تقرر لديهم من الأعراف" (الجيدي عمر بن عبد الكريم، ١٩٨٢: ٢٣٧). وفيما يلي مجموعة من الأحكام العرفية التي شملت اليهود الموجودين بمنطقة أقا (انظر التعليق رقم ١٥) خصوصًا وبمنطقة سوس على العموم: (بوم عمر، ٢٠١٥: ٨٥-٨٦)

- وأما من أدخل ذميا يعطي عشرين مثقال. أي أن كل من يأتي بذمي إلى القرية يغرم بعشرين مثقال.
- عارُ اليهود والحرفيين ينتمي إلى القبيلة.
- يُعامل اليهودي كعار الجماعة، فهو ضيف يحمى، كالفقير الذي لا قدرة له على السب والمواجهة.
- بإمكان الذمي التمتع بحماية القبيلة عندما يكون ضيفًا عند الشرفاء والمرابطين وباقي أعيان القبيلة.
- وأما شهادة الذمي والحراطين فإنها غير جائزة في داخل البلد.
- عندما يهدي الذمي ذبيحة لشخص في القرية يتمتع بحمايته، ولا يمكن لأي شخص آخر أن يكون حاميه.
- من تلاعب برسم يتضمن أحكام القبيلة نصافه عشرة مثاقيل.
- من رفض صحة عقد يؤدي القسم مع خمسة شهود.

تؤرخ هذه الأحكام العرفية لمظهر راق من التعايش بين اليهود والمسلمين أصحاب الأرض، وقبول الأخر/ اليهودي ضمن مجتمعهم القبلي باعتبارهم أصدقاء أو متعاونين محتَمَلين بحكم أنشطتهم التجارية، فضلا عن كونها تبرز عنصر الحماية القبلية كمظهر أساسي يؤطر تلك الشبكات الاجتماعية المعقدة والمتناقضة بين اليهود "الغرباء" والمسلمين، وتجمع في نفس الوقت ذاته بين مظاهر الصداقة والحماية والتكافل.

خَاتِمَةٌ

وجدت الجماعات اليهودية في المجتمع الإسلامي المغربي ما لم تجده في المجتمع المسيحي الأوروبي؛ فبعد أن استقر بهم المقام بأرض المغرب، عبر هجرات تاريخية سواء من أرض فلسطين أو من الأندلس، عاش اليهود جنبًا إلى جنب مع المسلمين مع المحافظة على خصائصهم المميزة كاللغة والعادات والهوية، وذلك بفضل سياسة حكيمة تقوم على تدبير هذا التنوع والاختلاف على أساس مجموعة من الآليات الدامجة لقيم التوقير، الاحترام، المعاملة الحسنة، والتعايش الإيجابي، مما مكنهم من الانصهار في مجتمع مغربي إسلامي بتقاليده وعاداته.

التعليقات:

١- عاش اليهود مآسي عديدة في مناطق مختلفة من العالم عبر التاريخ: فمن الطرد الجماعي من الأندلس بعد سقوط غرناطة سنة ١٤٩٢، إلى الإبادة والتعذيب على يد بعض الأنظمة الديكتاتورية، خصوصا النظام الألماني في الفترة المعاصرة.

٢- مولاي عبد الرحمن واسمه عبد الرحمن بن هشام (١٢٠٤ — ١٢٧٦هـ/ ١٧٩٠ — ١٨٥٩)؛ حكم المغرب في الفترة ١٨٢٢ — ١٨٥٩.

٣- هو محمد بن الحاج عبد الرحمان أشعّاش، أصبح باشا على مدينة تطوان سنة ١٨٢٥ بعد عزل العربي بن يوسف المسلماني، وظل واليا حتى توفي سنة ١٨٤٥.

٤- يعود سياق إصدار هذا الظهير إلى الزيارة التي قام بها موزس مونتفيوري، رئيس أكبر جمعية يهودية في بريطانيا، إلى المغرب في ١١ دجنبر ١٨٦٣ بطلب من كبار التجار اليهود البريطانيين، فحصل بموجبها على عهد يلتزم فيه السلطان بضمان حقوق رعاياه اليهود، ويأمر كافة ولاته وعماله بالتقيد بمضامين الظهير والعمل على تطبيقه.

٥- رسالة السلطان محمد بن عبد الرحمان إلى عامل تطوان عبد القادر أشعاش في ٢ رمضان ١٢٨٠/ ١٠ فبراير ١٨٦٤.

٦- اعتلى مولاي الحسن العرش سنة ١٨٧٣ بعد وفاة والده محمد بن عبد الرحمان، واستمر في الحكم إلى حين وفاته سنة ١٨٩٤.

٧- ومما جاء في الرسالة: "... ويدخل في الظلم ظلم أهل الذمة، وما سموا أهل الذمة إلا لأنهم في ذمة الإسلام، ويجب حفظهم والدفاع عنهم، وتحرم دماؤهم وأموالهم، وقد أوصى عليه السلام بالوفاء لهم، وحذر من ظلمهم ففي الحديث: من ظلم ذميا كنت له يوم القيامة خصيمًا ومن كنت خصيمه فلجت عليه بالحجة. وفيه: من قتل معاهدا في غير كنهه حرم الله عليه الجنة..."

٨- يعيش بمدينة صفرو، خلال هذه الفترة، حوالي ٣٠٠٠ يهودي، بما يعادل تقريبا نصف مجموع السكان.

٩- ظهير مؤرخ بالخامس والعشرين من ذي القعدة عام ١٣٠٤ (شتنبر ١٨٨٤).

١٠- من قبيل هذه الوثائق مخطوط "القول الجامع في تاريخ دمنات وما وقع فيها من الوقائع" للحاج أحمد بن ابراهيم الدمناتي، ومخطوط آخر ""التسلي عن الآفات بذكر الأحوال وما فات" لمؤلفه الغجدامي.

١١- من بين هذه الوثائق نذكر ظهير سيدي محمد بن عبد الله يوصي عامله بالرفق باليهود في الجزية وذلك سنة ١٢٨٠ هـ: "خديمنا الأنجد الحاج عبد القادر أشعاش، وفقك الله وسلام عليك ورحمة الله وتعالى وبركاته. وبعد وصلنا كتابك مخبرا فيه لما عزمت على قبض الجزية من أهل الذمة عن عاملين عملا بأمرنا الشريف الصادر لك بذلك قبل، أجابوا بالسمع والطاعة، غير أنهم طلبوا الرفق بهم في ذلك بالاقتصار على قبض ألف مثقال واحد في كل سنة لكونهم كانوا يعطون في كل جزية ألفين مثقالا (كذا) وحيث حصل لهم الضعف ولم يبق فيهم تجار كبار يعينوهم على الجزية كعادتهم، طلبوا الرفق بهم لما تيقنوا من إيصائنا بهم خيرًا. فاعلم أنا لا نكلفهم إلا بما يطيقونه وعليه فاقبض منهم الجزية بقدر حالهم الآن والسلام. في ٣ قعدة الحرام عام ١٢٨٠".

١٢- اختلف الباحثون بشأن تسميات المدارس الأولية التي يتلقى فيها الطفل اليهودي أبجديات التعليم الديني.

١٣- أسست الرابطة الإسرائيلية العالمية من طرف جماعة من اليهود الفرنسيين سنة ١٨٦٠ وذلك للنهوض بأحوال اليهود عبر العالم. وكان مقرها بباريس. ويعتبر Piccitto صاحب فكرة إنشاء هذا النوع من المدارس بالمغرب.

١٤- رسالة السلطان مولاي الحسن بشأن يهود ملاح فاس مؤرخة في ٦ ربيع الثاني عام ١٣٠٠هـ.

١٥- إحدى الواحات التاريخية الموجودة في إقليم طاطا جنوب المغرب.

قائمة المراجع:

أولاً: المراجع العربية

- ابن زيدان، عبد الرحمان، (١٩٦٢)، **العز والصولة في معالم نظم الدولة**، الرباط: المطبعة الملكية.
- ابن زيدان، عبد الرحمان، (٢٠٠٨)، **إتحاف أعلام الناس بجمال حاضرة مكناس**، الجزء ٢، ط ١، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية.
- بن الصغير، خالد، (١٩٩٧)، **المغرب وبريطانيا العظمى في القرن ١٩ (١٨٥٦-١٨٨٦)**، ط ٢، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- بوشعراء، مصطفى، (١٩٨٤)، **الاستيطان والحماية بالمغرب**، الجزء ٢، الرباط: المطبعة الملكية.
- بوم، عمر، (٢٠١٥)، **يهود المغرب وحديث الذاكرة**، ترجمة خالد بن الصغير، ط ١، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- التاودي، بن سودة، (١٩٧٣)، **حلى المعاصم لفكر ابن عاصم (شرح أرجوزة تحفة ابن عاصم)**، الجزء الأول، بيروت: دار الكتب العلمية.
- التوفيق، أحمد، (٢٠١١)، **المجتمع المغربي في القرن التاسع عشر (إينولتان ١٨٥٠-١٩١٢)**، ط ٣، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- الجيدي، عمر بن عبد الكريم، (١٩٨٢)، **العرف والعمل في المذهب المالكي ومفهومهما لدى علماء المغرب**، المحمدية: مطبعة فضالة.
- الحداوي، محمد، (٢٠١٥)، **من مظاهر تراث اليهود المغاربة في الحضارة المغربية**، ط ١، الرباط: بروموبا.
- داوود، محمد، (١٩٥٩)، **تاريخ تطوان**، الجزء ٨، تطوان: المطبعة الملكية.
- داوود، محمد، (١٩٩٦)، **تاريخ تطوان**، الجزء ٦، تطوان: المطبعة المهدية.
- دو فوكو، شارل، **التعرف على المغرب (١٨٨٣-١٨٨٤)**، ترجمة المختار بلعربي، ج ١، ط ١، الدار البيضاء: دار الثقافة للنشر والتوزيع.
- الزعفراني، حاييم، (١٩٨٧)، **ألف سنة من حياة اليهود بالمغرب تاريخ، ثقافة، دين**، ترجمة أحمد شحلان وعبد الغني أبو العزم، ط ١، الدار البيضاء.
- شحلان، أحمد، (١٩٨٦)، "محاولة إصلاح التعليم اليهودي في المغرب في القرن ١٩ ودور مدارس الاتحاد الإسرائيلي في أوضاع ما قبيل الحماية"، **الإصلاح والمجتمع المغربي في القرن التاسع عشر**، كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة، ص ٢٠٦-٢٢٧.
- شروتر، دانييل، (٢٠١١)، **يهودي السلطان**، تعريب خالد بن الصغير، ط ١، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر.
- شهبر، عبد العزيز، (٢٠٠٠)، **دراسات حول يهود تطاوين**، ط ١، تطوان: منشورات جمعية تطاون أسمير.
- عطا، علي محمد شحاته ريّه، (١٩٩٩)، **اليهود في بلاد المغرب الأقصى في عهد المرينيين والوطاسيين**، ط ١، دمشق: دار الكلمة ودار الشفيق للطباعة والنشر والتوزيع.
- كنبيب، محمد، (١٩٩٥)، "اليهود والمسلمون في المغرب ١٨٥٩-١٩٤٨: مساهمة في تاريخ العلاقات بين الملل في الديار الإسلامية"، ترجمة محمد المعتصم، **مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية**، الرباط، ص. ص. ٢٠٧-٢١٢.
- كنبيب، محمد، (١٩٩٨)، **يهود المغرب ١٩١٢-١٩٤٨**، ترجمة ادريس بنسعيد، ط ١، الدار البيضاء: مطبعة النجاح الجديدة.
- مديرية الوثائق الملكية. (١٨٩١). محفظة مراكش رقم ٨. الرباط.
- مديرية الوثائق الملكية. (١٨٩٤). محفظة مراكش رقم ١٠. الرباط.
- المسيري، عبد الوهاب؛ سوسن، حسين، (١٩٧٥)، **موسوعة المصطلحات والمفاهيم الصهيونية (رؤية نقدية)**، القاهرة: مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية الأهرام.
- الناصري، أحمد بن خالد، (١٩٩٧)، **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، الجزء ٩، الدار البيضاء: دار الكتاب.

ثانيًا: المراجع الأجنبية

- AIU Archives Historiques, MAROC XIX E 307, (1902). (Archives de l'Alliance Israélite Universelle)
- Baina, Abdelkader, (1981), **le système de l'enseignement au Maroc**, T. 1, Casablanca : les éditions Maghrébines.
- Bentov , H. (1980). **Les relations judéo-musulmanes au Maghreb à la fin du XIXème siècle,** actes du Colloque International de l'Institut d'histoire des pays d'Outre-mer, Paris : Ed. du centre national de la recherche scientifique, octobre 1978.
- Caillé, Jacques, (1948), **Organisation judiciaire et procédure marocaines**, Paris : Librairie générale de droit et de jurisprudence.
- Eugène, Aubin, (1904), **Le Maroc d'aujourd'hui**, Paris : Librairie Armand Colin.
- Flamand, Pierre, (1952), **Un Mellah en pays berbère : Demnate**, Paris : Librairie Générale de Droit et Jurisprudence.
- Gaudefroy, Demombynes, (1928), **L'Œuvre française en matière d'enseignement au Maroc,** Paris : Geuthner.
- Gottreich, Emily, (2016), **Le Mellah de Marrakech : un espace judéo-musulman en partage**, Traduction de Mohamed Hatimi, Rabat : Edition Bouregreg.
- Hess, Jean, (1907), **Israël au Maroc**, Paris : Jean. Bosc.
- Jacob Katz. (1973). **Tradition and Crisis: Jewish Society at the End of the middle Ages**, New York: Schocken Books.
- Khaneboubi, Ahmed, (1987), **Les premiers Sultans Mérinides 1269 – 1331 : histoire politique et sociale**, Paris : L'Harmattan.
- Leibovici, Sarah, (1984), **Chronique des Juifs de Tétouan1860-1896**, Paris : Maisonneuve et Larose.
- Mediano, Fernando, (1996), **« Justice, crime, et châtiment au Maroc 16ème siècle »**, Annales, Histoire, Sciences sociales, 51ème année, N 3, 1996.
- Montagne, Robert, (1930), **Villages et Kasbahs berbères : Tableau de la vie sociale des berbères sédentaires dans le sud du Maroc**, Paris : Librairie Félix Alcan.
- Rivière, Louis, (1927), **Précis de législation marocaine avec références aux législations étrangères et à la jurisprudence marocaine**, Paris : Sirey.

دراسات

ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

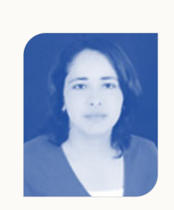
السياسة الجبائية وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التونسية خلال ستينيات القرن التاسع عشر
ضريبة المحصولات نموذجًا

د. أحلام براهمــي

باحثة في التاريخ الحديث

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية

تونس – الجمهورية التونسية



مُلَخّص

شهد القرن التاسع عشر أحداث عالمية استفادت منها البلدان الأوروبية التي سلكت سياسة توسعية استهدفت بلدان الضفة الجنوبية للمتوسط وتحديدًا بعد انعقاد مؤتمر فيانا سنة ١٨١٥، وبدأت مع حملة اللورد إكسموث في ١٨١٦م وانتهت بفرض معاهدة الحماية الفرنسية على البلاد التونسية في ١٨٨١. تخللت هذه الفترة جملة من المعاهدات غير المتكافئة أهمّها الموقّعة في ١٨٢٤م وخاصةً معاهدة ٨ أوت ١٨٣٠ القاضية بتحرير المبادلات التجارية وفتح الإيالة أمام الغزو الرأسمالي والتجاري الأوروبي، وهي فترة خسرت خلالها البلاد التونسية أهم مواردها المالية المتأتية من القرصنة ووقوع البلاد في أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية ومالية ولّدت الرغبة في الإصلاح والتطور. وقد حاولنا في هذا المقال تناول موضوع الإصلاحات التحديثية بالبلاد التونسية وعلاقتها بالإصلاحات الجبائية التي بدأت منذ ثلاثينيات القرن التاسع عشر، ولعلّ الإصلاح الواسع الذي شمل الضرائب الموظفة على التجارة الداخلية (ضريبة المحصولات) سنة ١٨٤٠م أهم مثال لهذه الإصلاحات والتحويرات التي أسست لإرساء نظام جبائي ارتكز على مجموعة من الأداءات القارة والمحددة ومهّد للإصلاحات الجبائية والإدارية والدستورية بداية من سنة ١٨٦٠م التي تطلبت موارد مالية فاقت الإمكانيات الحقيقية للمجابين وأثرت على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية بالإيالة، وهو ما أدى إلى تواتر الحركات الاحتجاجية ضد السياسة المالية للسلطة المركزية وأهمها انتفاضة ١٨٦٤م والتي مثلت شكلاً من أشكال الممانعة والعصيان ضد السياسة الجبائية للدولة.

بيانات الدراسة:

تاريخ استلام البحث: ٢٠ أكتوبر ٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر: ٢٣ نوفمبر ٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:

البلاد التونسية؛ النظام الجبائي؛ محصولات الربع؛ الإصلاحات؛ المبادلات الداخلية

معرّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.250803

الاستشهاد المرجعي بالدراسة:

أحلام براهمــي. "السياسة الجبائية وانعكاساتها على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية في البلاد التونسية خلال ستينيات القرن التاسع عشر: ضريبة المحصولات نموذجا".- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة- العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٢١٦ – ٢٢٩.

Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

Corresponding author: brahmiahlem828@gmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg

مُقَدِّمَةُ

شهد القرن التاسع عشر أحداث عالمية استفادت منها البلدان الأوروبية التي سلكت سياسة توسعية استهدفت بلدان الضفة الجنوبية للمتوسط وتحديدًا بعد انعقاد مؤتمر فيانا سنة ١٨١٥، وبدأت مع حملة اللورد إكسموث في ١٨١٦م وانتهت بفرض معاهدة الحماية الفرنسية على البلاد التونسية في ١٨٨١. تخللت هذه الفترة جملة من المعاهدات غير المتكافئة أهمّها الموقّعة في ١٨٢٤م وخاصةً معاهدة ٨ أوت ١٨٣٠ القاضية بتحرير المبادلات التجارية وفتح الإيالة أمام الغزو الرأسمالي والتجاري الأوروبي، وهي فترة خسرت خلالها البلاد التونسية أهم مواردها المالية المتأتية من القرصنة ووقوع البلاد في أزمة سياسية واقتصادية واجتماعية ومالية ولّدت الرغبة في الإصلاح والتطور[١].

انخرطت البلاد التونسية ضمن مسار إصلاحي منذ ثلاثينات القرن التاسع عشر وشمل كل المجالات الاقتصادية والسياسية وخاصة العسكرية، وارتبطت عملية الإصلاح هذه بما توفره المنظومة الجبائية التي عملت السلطة المركزية على إصلاحها وتدعيمها لمجابهة النفقات الجديدة خاصةً بعد الخوض مجددا في جملة من الإصلاحات الدستورية سنة ١٨٦١م. فقد مثلت الجباية محورًا رئيسًا تنتظم حوله الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية كما لعبت دورا هاما في دعم تطور أشكال التصرف في الدولة بالتوجه نحو إحكام عملية إخضاع المجال وارتباط ذلك بمدى قدرة السلطة المركزية على إحكام التصرف في مواردها المالية، ويظل النظام الجبائي المحدد الرئيس للعلاقة بين السلطة والمجتمع، ومن بين العناصر المكوّنة للمنظومة الجبائية التونسية ضريبة "المحصولات" الموظفة على المبادلات بالأسواق المحلية ودورها في تمويل التجربة التحديثيّة والتي شملت المؤسسات الإدارية والعسكرية والجبائيّة ونجاح السلطة في توحيد المنظومة الجبائية الموظفة على كل الأهالي إلاّ أنّ هذه الإصلاحات كلفت خزينة الدولة الكثير خاصة بعد سنة ١٨٦٠م، حيث واصلت السلطة المركزية نهج الإصلاحات السياسية والدستورية واعتماد دولة البايليك على جباية مفترسة لتمويل مشروعها الإصلاحي، ومنها موارد ضريبة المحصولات. وهو ما يجعلنا نتساءل عن علاقة ضريبة المحصولات بالحركة الإصلاحية التونسية وبحاجيات المرحلة (١٨٦٠ - ١٨٦٩م) ومدى تأثير السياسة الجبائية على الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية خلال هذه العشرية؟

أولاً: دواعي مراجعة النظام الجبائي

١/١-الإصلاحات السياسية والتدخلات الخارجية

عرفت البلاد التونسية خلال النصف الأول من القرن التاسع عشر عدة تحولات أهمها التوسع الرأسمالي والتجاري الأوروبي، وهو ما أثر على الأنشطة الاقتصادية المحلية وتراجع الموارد المالية، هذا إضافة إلى حزمة الإصلاحات التي أقدم عليها أحمد باي (١٨٣٧-١٨٥٥) تأثّرًا بإصلاحات محمد علي في مصر وبالتنظيمات العثمانية من جهة وبالحداثة الأوروبية من جهة ثانية.

ومع استمرار الأزمة المالية عملت السلطة المركزية على تدعيم المنظومة الجبائية لتوفير موارد مالية تتماشى مع التنظيمات الجديدة والإصلاحات التي شملت خاصة الميدان العسكري، فمنذ تولّي أحمد باي الحكم في ١٨٣٧م اهتم بتركيز الجيش النظامي وبناء الثكنات وتجهيز عدة مراكز عسكرية... وهي منشآت تتطلب موارد مالية هامة خاصةً إذا ما أضفنا إلى ذلك ما يتطلّبه العدد الكبير من المجنّدين والذي بلغ ١٠,٠٠٠ دون الاحتياطيين (٢٦,٠٠٠)[٢] من مصاريف لتجهيزه بالبدلات العسكرية والأسلحة وتوفير الرواتب، وأبرز مثال لذلك ترتيب "مكتب حربي" بباردو سنة ١٨٤٠ ابتلع ٢/٣ المداخيل[٣]. وارتبط تحوير المنظومة الجبائية التونسية بداية من ثلاثينيات القرن التاسع عشر بتأسيس الجيش النظامي وذلك لتوفير موارد مالية تتماشى مع الحركة الإصلاحية ومع النفقات الجديدة وبدأ ذلك مع أحمد باي الذي عمل على تقنين الجباية وشرع في وضع الأسس الأولى لإرساء نظام جبائي موحد، ولعلّ الإصلاح الواسع الذي شمل ضريبة المحصولات[٤] أهم مثال لهذه الإصلاحات والتحويرات التي أفرزت صياغة جديدة للنظام الجبائي القديم.

ومع وصول محمد الصادق باي إلى الحكم سنة ١٨٥٩م كانت البلاد التونسية تخضع إلى نظام جبائي يتكوّن من الإعانة (ضريبة شخصية تسلّط على الذكور البالغين) والقانون (أداء على الزياتين والنخيل) والعشر (أداء على الحبوب) والسراحات (الرسوم الجمروكية) إضافة إلى محصولات الربع أو أداء الـ ٢٥% (وهو أداء موظف على كل عمليات البيع والشراء بالأسواق التونسية وعلى تعاطي الأنشطة الحرفية والصناعية كما شمل أيضا الممتلكات العقارية)، وعمل هذا الأخير على مواصلة الإصلاحات التي شرع فيها سلفه محمد باي (١٨٥٥-١٨٥٩) وفي سنة ١٨٦٠ أعاد بعث الجيش والأسطول وشرع في استجلاب ماء زغوان وبناء قصور لقناصل أجانب[٥]. كما تم تأسيس أوّل ميزانية للدولة سنة ١٨٦٠ وفي جانفي ١٨٦١ تم إعلان الدستور وبعث جملة من المجالس ومن أهمّها المجلس الأكبر ومن مهامه "ضبط الدخل والخرج وما يلزم من المصرف وما لا يلزم ومحاسبة الوزراء على ذلك"[٦]، وتم إعداد الدفاتر والأوامر المتعلقة بالشؤون المالية من تنظيم لميزانية الدولة ووزارة المالية والمنظومة الجبائية وإعادة تنظيمها إداريًا وماليًا، إضافة إلى كل ما يتعلق بطرق استخلاص الضرائب والتي مثلت مصادر التمويل الأساسية لميزانية الدولة ومن بينها مداخيل ضريبة محصولات الربع[٧].

وعلى الرغم من أهمية هذه المؤسسات التي بدأت بإعلان عهد الأمان في ١٨٥٧م والدستور في ١٨٦١، فقد مثّلت صورة جديدة لإصلاحات ذات طبيعة سياسية بالأساس في ظل إدارة تقليدية يشرف عليها الوزير مصطفى خزندار (تولى الوزارة من ١٨٣٧ إلى ١٨٧٣) وجملة من المماليك الذين استغلوا سياسة الإصلاح للإثراء الفاحش والذهاب بالبلاد إلى التداين من الخارج. هذا إضافة إلى خدمة هذه الإصلاحات للمصالح الأوربية[٨] ودور كل من قنصل فرنسا "ليون روش" وقنصل بريطانيا "ريتشارد وود" في إصدار هذه التنظيمات ممّا ساهم في فتح البلاد أكثر أمام الهيمنة الأوروبية والإقرار بالغزو التجاري للرأسمالية الأوروبية خاصةً مع التوجه الليبرالي الذي انتهجته فرنسا بداية من ستينات القرن التاسع عشر، فقد مثلت البلاد التونسية سوقًا هامة لترويج بضائعها[٩] وعميلاً للبنوك الفرنسية التي عرفت أوج نشاطها بين ١٨٦٠ و١٨٦٥م[١٠] والتي أمّنت وضمنت الديون التونسية بداية من سنة ١٨٦٣، كما مثلت البلاد التونسية مجال توسع إمبريالي تابع للمستعمَرة الفرنسية بالجزائر، لذلك عملت فرنسا على ضمان تبعيتها وربط مصيرها الاقتصادي والمالي بها.

٢/١-الأزمة المالية وسياسة المديونية

عدد ابن أبي الضياف أسباب الأزمة المالية والتي يمكن العودة بها إلى سنة ١٨١٥ بعد انعقاد مؤتمر فيانا القاضي بمنع القرصنة التي كانت تمثل نشاطًا اقتصاديًا في حد ذاتها[١١]، هذا إضافة إلى "استبداد الدولة بالمتجر ... وجور العمال وإجحاف المكوس والتزامات الظلمة والضرائب المنوعة وسوء السيرة عند اقتضاء الجباية والمغارم"[١٢]. فعلى الرغم من هذا الوضع المتأزم اعتمد أحمد باي سياسة جبائية مجحفة، وقام بالترفيع في الضرائب القديمة وأحدث أخرى لا تقل قيمة عنها للقيام بالإصلاحات التي شملت خاصةً الميدان العسكري وهو ما انعكس على خزينة الدولة والتي سجلت أولى سنوات العجز في (١٨٥٠ – ١٨٥١م).

ومع تولي محمد الصادق باي الحكم في ١٨٥٩م قام بجملة من الإصلاحات الجبائية لتمويل الإصلاحات السياسية وهو ما زاد في تأزم الأوضاع المالية وتزايد قيمة الديون الداخلية، فبعد أن قدرت بـ ١٩ مليون ريال/ ١١ مليون فرنك في ١٨٦٠م بلغت ٢٨ مليون فرنك سنة ١٨٦٢م لصالح تجار وسماسرة من تونس إضافة إلى قابض الدولة نسيم شمامة، وهو ما جعل خير الدين التونسي يعارض هذه السياسة المالية ويستقيل من وزارة البحر ومن رئاسة المجلس الأكبر في نفس السنة[١٣]. ورغم هذا الوضع عمد محمد الصادق باي بإيعاز من الوزير مصطفى خزندار إلى التوجه للتداين من الخارج وتحديدا من دار ارلنجي la maison d'Erlanger سنة ١٨٦٣، وبلغت قيمة الدين ٣٥ مليون فرنك بنسبة فائدة تصل إلى ٧% ومن شروطه أن تدفع الدولة ٢,١١٠,٥٠٠ فرنك كل ستة أشهر لمدة ١٥ سنة[١٤]، وهو ما أوجب ضرورة العمل على تنمية المداخيل الجبائية بالزيادة في الأداءات وإعادة تنظيم طرق الاستخلاص. وشمل ذلك الأداءات المتصلة "بالقانون" و"العشر"

و"المحصولات" وخاصة الإعانة (وقيمتها ٣٦ ريال على كل رجل بالغ) والتي خُصّصت مداخيلها لتسديد الدين بداية من سنة ١٨٦٣م[١٥]، حيث فاقت مداخيلها الـ ١٤ مليون ريال من ١٠ أكتوبر ١٨٦٠ إلى ٣٠ سبتمبر ١٨٦١م أي ما يمثل ٤٥% من جملة المداخيل[١٦].

اتبع محمد الصادق باي سياسة مالية وجبائية مجحفة زادت من حدة الأزمة وأوجبت اللجوء إلى القروض الأجنبية بفوائض مشطّة وغير معقولة وعمد إلى تضعيف ضريبة الإعانة إلى ٧٢ ريال وهو ما تسبب في انتفاضة ١٨٦٤ وتعطيل المجابي والعشر وإهمال اللزم والمحصولات في سنة ١٨٦٤م مما أدى إلى تراجع مداخيل الدولة إلى النصف تقريبًا[١٧]، وتزامن ذلك مع حلول دفع أقساط الدين من جهة وأقساط المعدات الحربية التي تم شراؤها سنة ١٨٦٣ من جهة أخرى هذا إلى جانب المصاريف الاعتيادية. ومع عدم القدرة على تسديد أغلب الأداءات وخاصةً منها موارد ضريبتي العشر والمحصولات خلال سنة الانتفاضة أي ١٨٦٤م وحلول موعد تسديد أقساط الديون السابقة تداينت الدولة من جديد ٢٧,٩٥٥,٨٤٨ فرنك سنة ١٨٦٥م بعد الاتفاق بين "ارلنجي "Erlanger و"مربورقو "Morpurgo وبمساندة الـ"كونتوار دي اسكونت Le Comptoir d'escompte de Paris"[١٨]، وهو ما أجبر الدولة على التخلي عن نصف المداخيل المخصصة للمصاريف تقريبًا. فما هي أهم الإصلاحات التي شملت النظام الجبائي التونسي وتحديدًا ضريبة المحصولات خلال ستينيات القرن التاسع عشر؟

ثانيًا: ضريبة المحصولات بين الاستمرارية والتجديد

٢/١-من الناحية القانونية

أقدمت السلطة المركزية خلال ثلاثينات القرن التاسع عشر على جملة من الإصلاحات التي تتطلب موارد مالية مهمة لتمويلها، لذلك عملت الدولة على إحداث تحويرات مهمة على النظام الجبائي القديم وسعت إلى تركيز نظام جبائي موحد ومتجانس يتكون من جملة من الأداءات القارة والمحددة التي تشمل كل المجموعات السكانية والفئات الاجتماعية خاصة مع تدعيم المركزة السياسية وسعي الدولة إلى التعامل المباشر مع الأفراد[١٩]. وهي الظرفية التي تم خلالها ترتيب ضريبة "محصولات الربع" من قبل حسين باي الثاني (حكم بين ١٨٢٤ و١٨٣٥) وكان ذلك في رمضان ١٢٤٦هـ/ فيفري-مارس ١٨٣١[٢٠].

تطورت السياسة الجبائية للدولة مع تطور النفقات لذلك اعتمدت على "نظام الالتزام" خاصة فيما يتعلق بضريبة المحصولات التي شملها التجديد أساسًا وتحولت إلى لزمة أواخر سنة ١٨٣٨م[٢١] ثم تم تعميمها عل كل أسواق الإيالة التونسية، "...فرتب (الباي) مغارم على ما يباع من الطعام والبقول ونحوها، تعرف بالمحصولات كما تقدّم. وقد كانت قبل ذلك بالحاضرة على إهمال، فرتبها وعمّمها في المملكة وأسواق العربان"[٢٢]، ولعلّ الإصلاح الواسع الذي شمل ضريبة المحصولات يمكن اعتباره مثالاً لأهم الإصلاحات والتحويرات التي أفرزت صياغة جديدة للنظام الجبائي التونسي.

عند تولي محمد الصادق باي الحكم سنة ١٨٥٩م كانت البلاد التونسية تخضع إلى نظام جبائي موحّد ومحدد، إلاّ أنّ الحاجة إلى الموارد المالية دفعت بالسلطة المركزية إلى القيام بإصلاحات جديدة وعملت على تدعيم الضرائب والزيادة في قيمتها، وشمل ذلك كل المصادر الجبائية. ففي سنة ١٨٦٠م تمت إعادة إحصاء الزياتين إضافة إلى إعادة إحصاء المطالبين بدفع الإعانة والزيادة في قيمة العشر، كما صدر أمرا في نفس السنة وقع التنصيص من خلاله على مسك الدفاتر والحسابات وتزامن ذلك مع تأسيس ميزانية الدولة وحُددت قيمة المداخيل من ضريبة المحصولات حينها بـ ٢,٠٠٩,٦٣٩ ريال علما أنّ جملة الأصل منها بلغت ٢,٧٣٧,٨٣٦ ريال[٢٣]، وكان ذلك تحت إشراف وزارة المال والمجلس الأكبر المكلّف بالنظر في المداخيل والمصاريف. كما تمت إعادة تنظيم مكونات القبض حيث أصبح لكل منها كرّاس خاص. وخصّت هذه اللجنة ضريبة المحصولات بالكراس عدد ٥ حيث تم تدوين لزم المحصولات وقيمتها وتاريخها وعدد الأوامر الخاصة بها، وحرّر هذا الأمر في ٤ جوان ١٨٦٠م[٢٤].

ومن أهمّ التشريعات في هذه الفترة الفصل السادس من قانون عهد الأمان ونصّه: "...القوانين السياسيّة المرتبة الآن على المبيعات والرّباع والعقار وشجر النخيل وأعشار النعمة والزيت والإعانة وغير ذلك من سائر ما هو مرتّب الآن وما يمكن أن يرتّب برأي المجلس الأكبر"[٢٥]. بالإضافة إلى بداية العمل رسميا بقانون تونس "المحروسة" وهو عبارة عن أصول دفتر أصدره أحمد باي منذ سنة ١٢٥٥هـ/١٨٣٩-١٨٤٠م[٢٦] وبه مقدار ما يخلّصه المكلّف بفندق الغلّة على المبيعات والمؤرّخ في ١٨ذي الحجة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م. هذا إضافة إلى قانون ٥ ربيع الأوّل ١٢٧٨هـ/١٨٦١م وتطبيق الفصل ١٠٤ من قانون الدولة والقاضي بإستخلاص الأداء نقدا[٢٧]، وإعادة تنظيم الأداء حسب المتطلبات الجديدة للدولة.

٢/٢-ضريبة المحصولات: من الاستخلاص العيني إلى الاستخلاص النقدي

من أهم التحولات التي طرأت على نظام المحصولات تخصيص الكراس عدد ٥ بمقتضى ما قرره المجلس الأكبر الذي أشرف على تحريرها. وصدر الأمر في ٥ ربيع الأول سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١م، محدّدا قيمة لزم محصولات الربع ومكانها وتاريخها وعدد الأمر وقيمة التذاكر، وهو عبارة عن زمام يشتمل على ما حرره المجلس الأكبر حول مقدار الأداء الموظف على ما يباع بفندق الغلة بباب البحر بالحاضرة "[٢٨] وبذلك صار الأداء جاريًا على مقتضى الفصل ١٠٤ المئة والأربعة من قانون الدولة" الذي نص على أنّ "كل [ما] هو مرتب من الأداء الموظف على الأشياء لا يكون من عين الشيء، بل يكون مقداره دراهم عدا أعشار النعمة والزيت فإنّها من عين الصابة. وتم إمضاءه في سنة ١٢٧٩ه/١٨٦١م[٢٩]، وهو نفس التنظيم المتبع في السنوات اللاّحقة[٣٠].

شملت أهم التغييرات التي طرأت على قائمة المحصولات الصنف الأول الذي أطلقت عليه الوثائق الأرشيفية "ما يؤدى على الحافر"(أي الدّابة) وهو الأداء الموظف على الغلال أساسا فعوض الترتيب الأول أصبح البائع يؤدي "المحصول" و"محصول الحافر" و"الدلالة" (المزاد العلني)، أمّا المشتري فأصبح يدفع الأداء نقدا عوض "القطع"، ففي القائمة التي تعود إلى سنة ١٨٣٨-١٨٣٩م[٣١] كانت الدولة تقتطع عددا من الثمار لصالحها وفي سنة ١٢٧٨هـ/١٨٦١م أصبح المشتري يدفع الأداء نقدا عوض القطع. وظلّ تحديد الأداء على "حمل الجمل" وحمل الخيالي" وحمل الحمار" أي حسب ما تحمله كل دابة، وأصبح كل منها يخضع إلى أربعة فصول ثلاثة على البائع وواحد على المشتري. مما يعني تطور عدد الفصول الموظفة على "الحافر" بأنواعه من ١٦٤ إلى ٤٥٠ مادة ترتيبية في الدفتر الجبائي عدد ١٩٢٣ وإلى ٧٣٦ مادة ترتيبية حسب كل الوحدات المعتمد عليها في تحديد أداء ربع المحصولات ضمن القائمة الجديدة[٣٢]، وهو ما يعني تطور قيمة الأداء في هذه الفترة. فمثلا البرتقال المسكي بعد أن كان البائع يؤدي ٥ ريالات إجمالا على كل من "حمل الجمل" (٣ ريالات) و"حمل الخيالي" (٢ ريالات) و"حمل الحمار" (ريال واحد) أصبح يؤدي ٧ ريالات و٤ خرارب، وفق ما يبينه الجدول التالي علما أنّ الريال التونسي هو عملة فضية ويساوي١٦ خروبة ويساوي ٥٢ ناصري ويساوي ١٠٤ فلس ويساوي ٦٢٤ من الفلوس.

جدول عدد (١)

تطور قيمة الأداء الموظّف على البرتقال المسكي بين سنتي ١٨٣٨ و١٨٦١م

		على البائع		على المشتري
التصنيف	١٨٣٨	١٨٦١	١٨٣٨	١٨٦١
حمل الجمل	٣ ريالات محصول	-٣ ريالات: محصول -خروبة: محصول الحافر -١/٢ ناصري على كل ريال: دلالة	١٦ برتقالة	ريال ونصف عوض القطع
حمل الخيّالي	٢ ريالات محصول	-٢ ريالات: محصول -خروبة: محصول الحافر -٢ /١ ناصري على كل ريال: دلالة	١٢ برتقالة	ريال و١/٨ الريال عوض القطع
حمل الحمار	١ ريال محصول	-١ ريال: محصول -خروبة: محصول الحافر -١/٢ ناصري على كل ريال: دلالة	٦ برتقالات	-١/٢ ريال وخروبة عوض القطع

وتجدر الإشارة هنا إلى أنّ كل المواد من غلال وخضر ظلّت تخضع إلى أداء معلوم موحّد على محصول الحافر وقيمته "خروبة" إضافة إلى نصف ناصري على الريال "دلالة" مع الاختلاف في قيمة أداء محصولات الرّبع الموظّف على ذلك والذي يحدد حسب الكميّة والنوع والثمن[٣٣]. هذا إضافة إلى بعض الغلال[٣٤] التي يختص بها البائع فقط فإضافة الى "العادة الجارية" نلاحظ إضافة تنبيه مضمونه أن يدفع المشتري خروبتين على كل ريال والبائع خروبة على الريال، أمّا التنبيه الذي شمل المجموعة الثانية والتي ضمت بعض أنواع الخضروات[٣٥] فيؤدي المشتري ربع الريال والبائع خروبتان على كل ريال[٣٦].

وأهم تحوّل في القائمة شمل المشتري الذي أصبح يؤدي الأداء نقدا عوض القطع وقيمته ٤ ريالات و٣ خرارب ونصف ناصري (على البرتقال المسكي) مقارنة بالفترة السابقة، مع العلم أنّ قيمة الأداء تختلف حسب نوع وكميّة البضاعة. هذا إضافة إلى بعض المواد التي خضعت سابقا للقطع على الحمل[٣٧] وتؤدي نفس الأداء على "محصول الحافر" و"الدلالة" في حين تختلف قيمة الأداء النقدي الموظف على المشتري حسب نوع البضاعة وكميّتها[٣٨]. أمّا القسم الآخر من المواد وهي أساسًا الخضر[٣٩] والتي كانت تؤدي الأداء على "الكمشة" أي الكمية التي تساوي حجم اليد الواحدة فأصبحت تؤدّى ٣ ريالات على كل ١٠٠ ريال ويختص بأدائها المشتري نقدا عوض القطع دون البائع الذي يؤدي الأداء على المحصول والدلالة إضافة إلى الرّبع الموظف عليه. أمّا الأداء الذي شمل البائع وقيمته خروبتان على كل ريال وكان هذا الفصل في قائمة ١٨٣٨م موظف على مادة واحدة وهي "النّيلة"[٤٠] وفي القائمة الجديدة لسنة١٨٦١م شمل المواد التي كانت سابقا تؤدي أداء على "الكيل" وهي نفس المواد ونفس الأداء الذي أصبح يختصّ به المشتري[٤١]. كما خضعت المبيعات من الأملاك بمدينة تونس لأداء الرّبع من قبل البائع وقيمته ٦ ريالات وربع على كل ١٠٠ ريال[٤٢] مقارنة بالفترة الأولى (١٨٣١-١٨٣٨م) حيث كانت قيمة الأداء ثلاث ريالات وربع. وهي جملة من التغييرات التي تبيّن لنا أهم التحولات التي شملت طرق الاستخلاص والزيادة في قيمة الأداءات وذلك بالعمل على إحداث مواد ترتيبيّة إضافية شملت نفس المواد والمحتوى والوزن ونوع البضاعة رغبة في تحصيل موارد مالية أكثر خاصة مع نظام "المراقبة" الذي بدأ مع سنة ١٨٦٠م. وهي جملة من التحولات التي شملت ضريبة محصولات الربع وتزامنت مع احتياجات جديدة مبنية على محاولة تطبيق الإصلاحات التي أملتها ضرورة مواكبة التحولات السياسية بالبلاد خلال ستينات القرن التاسع عشر.

ثالثًا: المسألة الجبائية والصراع بين السلطة والمجتمع

١/٣-الحركات الاحتجاجية خلال القرن التاسع عشر والتمهيد لانتفاضة ١٨٦٤

اجتمعت عدة عوامل زادت من شدة الأزمة التي طالت البلاد التونسية خلال القرن التاسع عشر ومنها ثقل الجباية وسياسة أعوان الدولة التي أدّت إلى قيام جملة من الحركات الاحتجاجية التي تواصلت على امتداد هذا القرن ومن بينها التحركات ضد إرساء نظام المحصولات ومنها انتفاضة أهل القيروان في ١٨٣٣م وجهتي باجة وماطر في ١٨٣٥م[٤٣] وأعنفها بمنطقة الأعراض بالجنوب التونسي سنة ١٨٤٠م وقتل نائب لزام المحصولات محمود بن عياد[٤٤]. كما أعلنت جملة من الأسواق بجهة قفصة (العيايشة والساكت والسند والناصرية) رفض الأداء المرتّب على أسواقها في ١٨٤٤ و١٨٤٥م[٤٥]، وانتفضت عدة قبائل ضد التحويرات الجبائية التي شملت ضريبتي القانون والعشر وضد إرساء ضريبة الإعانة سنة ١٨٥٦م وقدم لنا "توفيق بشروش" معلومات مهمة حول هذا الصراع المتواصل حول المسألة الجبائية بين القبائل المتمركزة أساسًا بالشمال الغربي والجنوب من جهة والسلطة المركزية من جهة أخرى[٤٦].

ومع ارتفاع الضرائب والأداءات وارتفاع الأسعار مع حلول سنة ١٨٦٠م حصلت فورة غضب هي الأولى في مدينة تونس قادها الطاهر الرياحي عاد سببها المباشر إلى "غلاء سعر القمح لكثرة خروج الحبوب من الحاضرة"[٤٧]. ويعود ذلك إلى تزايد الطلب الأوروبي على المنتوجات الفلاحية التونسية وخاصة الحبوب والزيوت إضافة إلى بعض المواد الأوّليّة، وبالتالي ارتفاع الأسعار مع ضعف المقدرة الشرائية، ومع تطور الطلب وقلّة الإنتاج عجز الاقتصاد التونسي عن توفير الطلبات الداخلية والاستجابة للطلب الخارجي وهو ما نتج عنه ارتفاع مشط في الأسعار أدّى إلى ثورة ١٨٦١م ضد مساوئ اقتصاد السوق. وهي جملة من الحركات الاحتجاجية التي سبقت الحركة الإصلاحية بداية من سنة ١٨٦٠م.

ومع تطوّر المصاريف العامة التي قدرت سنة ١٨٦٠م بـ١٧,٣٧٢,٧٥٧ ريال في حين قدرت المداخيل بـ١١,٣٧١,٥١٨ ريال مع العلم أن قيمة الأصول قد بلغت ١٨,٩٩٨,٩٢٧ ريال[٤٨]. وذلك بعد طرح مداخيل الإعانة التي مثلت أكثر من ٤٠% من جملة المداخيل والمخصصة لتسديد القرض أو السلف الذي حصلت عليه مصالح الدولة سنة ١٨٦٣م[٤٩]. وهو ما جعل الباي وأتباعه يتكلّموا "في شأن زيادة الدخل مرارا عديدة"[٥٠]، ففي سنة ١٨٦٠ تمت إعادة إحصاء الزياتين والنخيل والزيادة في قيمة العشر وتعديل جملة من فصول المحصولات في ١٨٦١، وعمل الباي على تضعيف ضريبة الإعانة من ٣٦ إلى ٧٢ريال رغم معارضة البعض مثل خير الدين حيث قال "...أرى ان هذه الزيادة في مال الإعانة تؤدي الى زوالها بالمرة أو تلجئ الى مال أكثر منها لتجهيز الجيوش لغصب الناس"[٥١]. ورئيس المجلس البلدي أبو عبد الله حسين الذي قال "...إن هذه المملكة لا قدرة لها على احتمال شيء زائد وهي من الموجود الآن في خطر، فحالها كحال البقرة إذا حلب ضرعها حتى خرج الدم فهي الآن ينزو ضرعها بالدم وولدها بمضيعة والعطب أقرب إليها من السلامة"[٥٢].

وهذا لم يثني الباي على رأيه بل عمد الى الإقرار بتضعيف ضريبة الإعانة والتي شملت هذه المرة المدن المعفاة سابقا وهي تونس والقيروان وسوسة وصفاقس والمنستير، وهو ما ساهم في تفجير الأوضاع وإعلان الانتفاضة بقيادة علي بن غذاهم سنة ١٨٦٤م، وسرعان ما انتشرت بالمناطق الداخلية وخاصة بالوسط والشمال الغربي وجهة الساحل رفضا لأداء الإعانة من جهة ولسياسة الدولة تجاه الأهالي من جهة ثانية، وإعلانهم لجملة من المطالب اتفق في مضمونها كل من ابن أبي الضياف والطبيب الألماني غوستاف نختغال Gustav Nachtigal، وأهمّها إبعاد بعض رجال الدولة ومنهم الوزير مصطفي خزندار وقابض الدولة نسيم شمامة باعتبارهما أوّل المسؤولين عن مضاعفة الإعانة والسير بالبلاد نحو الإفلاس، إضافة الى المطالبة بالتخفيض في الأداءات وأهمها الإعانة والمحصولات.

٢/٣-ثقل نظام المحصولات

مثّل تضعيف الإعانة السبب المباشر لاندلاع ثورة ١٨٦٤، إلا أنّ هناك جملة من العوامل التي مهدت لذلك، فمنذ ١٨١٥ وتراجع الموارد المالية عملت السلطة المركزية على تعويض النقص الحاصل في المداخيل بالاعتماد على الجباية، وبدأت هذه التحويرات منذ ١٨١٩ بإلزام أهل الساحل أداء العشر على زيت زيوتهم، ثم إرساء أداء المحصولات على المبيعات بالأسواق المحليّة مع الوزير شاكير صاحب الطابع (تولى الوزارة بين سنتي ١٨٢٩ و١٨٣٥م) والتي اعتبرت أهم التحويرات في تلك الفترة، وخضعت إلى نظام الالتزام في ١٨٣٨م ثم تعميمها على الأسواق التونسيّة في ١٨٤٠م، والتحويرات التي شملت القانون على أشجار الزيتون والنخيل في ١٨٤٠ و١٨٥٢م. هذا إضافة إلى الإصلاحات التي شملت كل مصادر الجباية في ١٨٦٠ و١٨٦١ ومنها لزم المحصولات التي عرفت تطورا ملحوظا في قيمتها مقارنة بالفترات السابقة (١٨٣٨-١٨٥٩) وهو ما نتبينه من خلال الجدول التالي:

جدول عدد (٢)

تطور قيمة لزم المحصولات ببعض المناطق بالبلاد التونسيّة (بالريال)

لزم المحصولات	١٨٦٠-١٨٦١م	١٨٦٣-١٨٦٤م	١٨٦٦-١٨٦٧م
فندق الغلة	٥٠٤,٠٠٠	٥٠٣,٨١٥	٧٧٥,٠٠٠
سوسة	٣٧٥,٢٨٦	٤٩٢,٨٥١	-
المنستير	٢٣٣,٢٥٥	-	٢٢٦,٢٩٥
المهدية	"	-	٢٩,٠٠٠
باجة	٤٦,٠٠٠	٦٦,٠٠٠	٨٠,٠٠٠
القيروان	١٢٠,٠٠٠	١٢٠,٠٠٠	١٤٥,٠٠٠
ماطر	١٥٠,٠٠٠	١٧٥,٠٠٠	١٧١,٠٠٠
جندوبة	٣٩,٠٠٠	٥٠,٠٠٠	٦٢,٠٠٠
أولاد عيار	٨,٨٠٠	٩,٣٠٠	١٣,٠٠٠
الجريد	٢٩٨,٤٥٠	-	٣٣٠,٠٠٠
زغوان	٢٢,٠٠٠	٤٥,٠٠٠	٤٤,٠٠٠

عرفت لزمة سوق فندق الغلة بمدينة تونس تطوراً هامًا في قيمتها خاصة بعد خضوعها إلى نظام المحصولات منذ سنة ١٨٣١ وبلغت قيمتها ٥٠٤,٠٠٠ ريال سنة ١٨٦٠مسجّلة زيادة بـ ١٢٩,٠٠٠ ريال مقارنة بسنة ١٨٤٠م علما إنّ هذه اللزمة تحديدا عرفت ارتفاعا ملحوظا في قيمتها ففي ظرف ١٠٠ عام تطورت من ٥,٠٠٠ ريال وذلك سنتي ١٧٤٦ و١٧٤٨م إلى ٣٨٠,٠٠٠ ريال في موسم ١٨٤٦-١٨٤٧م[٥٣] وتضاعفت قيمتها لتصل إلى ٧٧٥,٠٠٠ ريال سنة ١٨٦٧م.

كما شهدت بقية لزم المحصولات ارتفاعًا في قيمتها مثل لزمة محصولات سوسة والتي سجلت ارتفاعًا بـ ١١٧,٨٥١ ريال في ثلاث سنوات وتضاعفت بـ ٢,٣ مرة مقارنة بسنة ١٨٤٠، أمّا محصولات زغوان فقد تضاعفت وبلغت ٤٥,٠٠٠ ريال بين ١٨٦٠ و١٨٦٤م وتضاعفت بأكثر من ٣ مرات مقارنة بسنة ١٢٥٦هـ/١٨٤٠م، أمّا لزمة محصولات سوق الكعوب والقوازين فارتفعت بمرة ونصف مقارنة بسنة ١٨٤٠م، ولزمة محصولات سوق أولاد عيار فسجلت زيادة بـ ٥٠٠ ريال بين ١٨٦٠و١٨٦٤م وبـ ٣,٣٠٠ ريال مقارنة بسنة ١٨٤٠م.

ويعود ارتفاع قيمة لزم المحصولات إلى عدة عوامل أهمها السياسة المالية التي اعتمدتها السلطة المركزية خلال القرن التاسع عشر وارتباط الزيادة في قيمة الأداءات بالحركة الإصلاحية عمومًا وما تحتاجه الدولة من موارد مالية لمجابهة النفقات الجديدة، هذا إضافة إلى المنافسة بين أعوان الدولة وأصحاب الثروة وسعيهم إلى الحصول على أهم اللزم وإشرافهم على أهم المناطق الاقتصادية (تونس وباجة والوطن القبلي ومنطقة الساحل وصفاقس والجريد وجربة)، حيث يشتري هؤلاء لزم الأسواق مقابل مبلغ مالي تحدده الدولة ثم يحل اللزام محلها في استخلاص الأداء الموظف على المبيعات داخل الأسواق. فاللزمة هي وسيلة تضمن موارد مالية قارة ومنتظمة للدولة وتوفر أرباحا وعائدات مالية مهمة لصالح هؤلاء اللزامة خاصة في عهد أحمد باي حيث استغلوا مناصبهم لجمع ثروات طائلة مثل محمود بن عياد الذي استحوذ على لزم محصولات ربع أهم الأسواق خلال العشرية ١٨٤٠-١٨٥٠م[٥٤]. وتواصلت هذه الممارسة خلال ستينات القرن التاسع عشر وهي فترة عاينت قيام الدولة بعدة إصلاحات زادت في استفحال الأزمة المالية وخاصة انتفاضة ١٨٦٤م وتأثيرها على حركة المبادلات داخل الأسواق[٥٥] وهو ما ساهم في إفلاس العديد من اللزامة وتهرّب عدد آخر منهم وابداء عدم رغبتهم في تجديدها[٥٦] إلاّ أنّ السلطة المركزية ربطت تسليم اللزمة بالزيادة في قيمتها وذلك ضمانا لمواردها المالية.

وعلى الرغم من شدة الأزمة المالية التي استفحلت بعد ١٨٦٤م فإنّ ذلك لم يثني أعوان الدولة وخاصة أصحاب رؤوس الأموال من اليهود من التزام المحصولات وسيطرتهم على لزم أهم الأسواق بالمدن التونسية[٥٧]. فأغلب مُتولّي هذه اللزمة هم أعوان الدولة وكانت لهم وظائف سياسيّة وعسكريّة مثل أمير اللواء السيد محمد لزام محصولات سوسة والمنستير سنة ١٨٦٠-١٨٦١م وأمير اللواء مراد لزام محصولات فندق الغلّة[٥٨]. وأمير اللواء ووزير الحرب أحمد زروق الذي التزم محصولات المنستير وسوسة بين سنتي ١٨٦٤ و١٨٦٩م هذا إلى جانب محصولات فندق الغلّة سنة ١٨٦٧-١٨٦٨م[٥٩]. والتزم أمير اللواء علي الساسي عامل الجريد محصولات المكان من ١٨٦١م إلى ١٨٦٩م[٦٠]. أما لزمة محصولات بنزرت بين سنتي ١٨٦٠ و١٨٦٢م فكانت لصالح موشي البراملي[٦١]، كما سيطر باولو طابية على لزمة محصولات صفاقس من سنة ١٨٦٤ إلى سنة ١٨٦٨م[٦٢].

مثلت انتفاضة ١٨٦٤ شكلاً من أشكال الرفض والممانعة وفرصة لتعطيل عملية استخلاص المجابي والعشر وإهمال اللزم والمحصولات والخروج من الأسواق الخاضعة إلى اللّزمة، وافساد الأسواق والعمل على خلق "الهرج" سنة الانتفاضة، مثل ما حصل بسوق الزوارين وما فعلته فرق "الحنادرة" و"الفيال" (الأفيال) و"أولاد عسكر" و"أولاد موسى" من عرش الفراشيش بالسوق[٦٣]، وهو ما تبينه جملة من المراسلات الموجهة إلى الوزير مصطفى خزندار سنة ١٢٨١هـ/١٨٦٤م ومنها مكتوب من أحمد البدوي السبوعي لزام سوق الخميس بالعلا أورد من خلالها "أن السوق الآن غير مرتسم والآن أتانا الإذن من سيادتكم في الأنفار اللذين أفسدوا ذلك..وأن المفسدين الذين باعوا كثيرون..."[٦٤] ، ومراسلة من لزام سوق أولاد بوسالم أوردت "...ان الناس من أهل وطن أولاد بوسالم باعوا طعامًا قمحًا وشعيرًا وحيوانات بأسواق الخميس بالوطن المذكور ... وعليهم حجايج (أي حجج) بالعدالة ولما طلبتهم في قانون محصولات الربع ...امتنعوا من أداء القانون..."[٦٥]. بالإضافة إلى بعض المراسلات التي تبيّن تردي الأوضاع بمناطقهم وتأثيرها على المبيعات داخل الأسواق مثل المراسلة التي بعث بها صالح بن محمد لزام محصولات الكاف الذي تأثرت موارده المالية "...فلم يجد ما يباع بالبلد الاّ جانب [من] بصل وقرع وفقوس لا غير وأن المحصل من هذين لا يفي بأجر صناع الحانوت..."[٦٦].

فمع تضعيف الإعانة كانت البلاد تعاني من تأزم الأوضاع الاقتصاديّة والاجتماعية خاصة مع مواصلة السلطة المركزية لنفس السياسة الجبائيّة المجحفة والزيادة في الضرائب لتدعيم مواردها المالية مع ظهور احتياجات جديدة مبنية على محاولة تطبيق الإصلاحات السياسية بالأساس، وهو ما مثّل صورة جديدة للممارسة السياسية مع المحافظة على التطبيق التقليدي ممّا أدى إلى فقدانها لمصداقيتها وإفراغها من محتواها إضافة

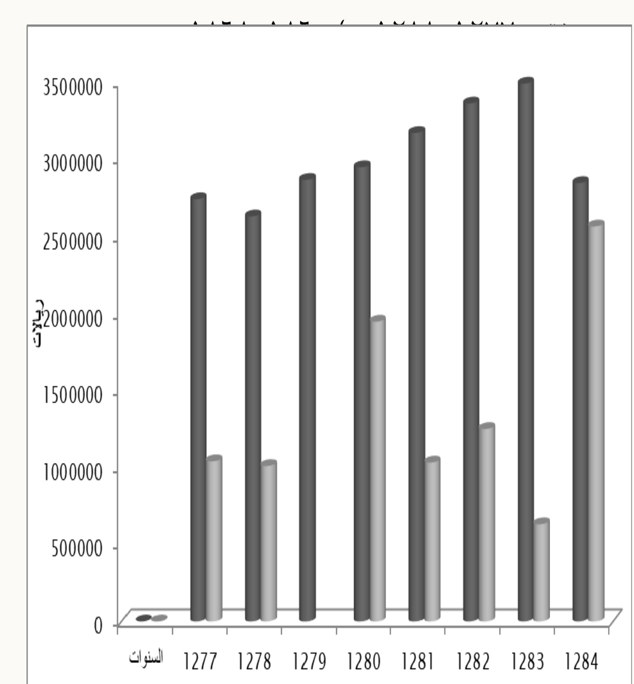
إلى اعتمادها على جهاز إداري -بقيادة اللّزامة- عمل على تطبيق هذه السياسة المالية واستنزاف خيرات البلاد وابتزاز ثروات الأهالي.

٣/٣-موارد المحصولات وتأثيرها على الأحوال العامة بالبلاد

خضعت ضريبة المحصولات منذ سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م إلى مراقبة المجلس الأكبر ووزارة المال التي حاولت إعادة تنظيم الضريبة لضمان مداخيل قارة ومنتظمة، هذا إضافة إلى تحديد ميزانية الدولة حيث قدرت قيمة المداخيل بـ ١٤,٣٣٨,٨٣٧ ريال(٦٧) مع العلم أنّ جملة الأصول من المداخيل قدرت بـ ١٧,٧٦٠,٧٦١ ريال(٦٨). أمّا أصول المحصولات فبلغت ٢,٧٣٦,٢٣٦ ريال وخصّصت منها ٢,٠٠٩,٨٣٧ ريال لميزانيّة سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠-١٨٦١م، إلاّ أنّ خزينة الدولة حصّلت نصف ما تعيّن منها تقريبا وبلغت قيمة المداخيل ١,٠٣٩,٥٢٦ ريال(٦٩) ، والتي مثلت ١٤% من جملة الموارد الجبائية الداخلية بالبلاد التونسيّة بعد الإعانة (٥٣%) والقانون (١٨%) وقبل اللزم (٩%) والعشر (٦%)، مع العلم أنّ جملة الأصول من المحصولات مثلت ١٥% من جملة الأصول الجبائية وذلك سنة ١٢٧٧هـ/١٨٦٠م.

رسم بياني عدد (١)

مقارنة أصول لزمة المحصولات والمقبوض منها بين



فقد تفوّقت مداخيل لزمة المحصولات على بقيّة اللّزم (لزمة الملح ولزمة الصابون ولزمة الجلد...) والتي بلغت قيمة أصولها سنة ١٢٧٧هـ/ ١٨٦٠م ٣,٣٩٣,٥٤٦ ريال(٧٠) لم تتوفّر منها سوى ٩% مقابل ١٤% من المحصولات وهي نفس النسبة التي توفّرت سنة ١٢٧٨هـ/ ١٨٦١-١٨٦٢م(٧١). ويمكن تفسير انتظام المداخيل في هذه الفترة بسياسة الدولة التي عملت على تنظيم الأداءات وطرق الاستخلاص ومحاسبة اللزامة، إضافة إلى توفر عنصر الأمن خاصة بالأسواق الحضرية وخضوعها لمراقبة مجلس الضبطيّة وخاصة سوق فندق الغلة بمدينة تونس وهي سوقا يومية وتوفر أهم الموارد المالية من ضريبة المحصولات(٧٢).

وعرفت مداخيل المحصولات ارتفاعًا هامّا سنة ١٢٨٠هـ/١٨٦٣-١٨٦٤م وبلغت ١,٩٤٦,٦٣٠ ريال وهو ما مثّل ٦٦% من جملة أصولها، وهذا لا يعكس تحسن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية، بل يعود إلى عمل الدولة على استخلاص مخلّفات السنوات الماضية وخاصة سنة ١٢٧٩هـ/ أواخر ١٨٦٣م التي تزامنت مع بداية اندلاع الثورة وتعطل عملية استخلاص أغلب الأداءات.

شهدت الموارد المالية المتأتية من المحصولات انقطاعًا من أواخر ١٢٨٠ إلى أواسط ١٢٨١هـ/ ١٨٦٣-١٨٦٤م نتيجة ثورة ١٨٦٤م، وتأثيرها على حركة المبادلات بالبلاد وارتسام الأسواق، خاصة مع امتداد الثورة من الأعراض إلى ماطر(٧٣) ومشاركة المدن في الانتفاضة، وأهمّها مدن الساحل مثل سوسة والمنستير وصفاقس التي تحتوي على أهم الأسواق بعد الحاضرة تونس، هذا إضافة إلى مدن الشمال والوسط الغربي مثل باجة وماطر والكاف ومنطقة الجريد، التي توفر أهم الموارد المالية من المحصولات، ومع انضمامها للثورة رفضت الاستجابة لمطالب السلطة المركزيّة وهو ما يفسر انقطاع المحصولات وتعطّل مداخيل الإعانة والعشر خلال هذه الفترة.

ولمجابهة هذه الانتفاضة عملت الدولة على تجهيز الأمحال (المحلة هي جهاز إداري وعسكري متجول) وأعنفها محلة زروق التي توجهت نحو منطقة الساحل والقلعة الصغرى ومساكن والمنستير وصفاقس(٧٤)،

ومحلة رستم التي توجهت نحو الشمال الغربي، ومهمتها العمل على إعادة السيطرة على المجال واستخلاص كل المخلفات من الأموال ومنها بقايا المحصولات، إضافة إلى فرض عقوبات وخطايا مالية على المناطق الثائرة "...وحكّم يد النهب في الأموال، وتفنّن في سلبها بما القي اليه من الأسباب والألقاب من مصروف المحلة، ودخل ما تعطّل من المحصولات وسراح ما خرج من العمالة بغير أداء في تلك المدة"[٧٥]. وهو ما ساهم في تطور المداخيل والتي بلغت بين ربيع الأول وشوال من سنة ١٢٨١هـ/ أوت ١٨٦٤- مارس ١٨٦٥م ٢٧,٣٩٣,٨٧٥ ريال و١٠,٩٢٤,٦٨٠ فرنك[٧٦] منها ١,٠٣١,٥٢٧ ريال من المحصولات مع العلم أنّ جملة أصولها كانت قد بلغت ٣,١٦٢,٢٩٨ ريال[٧٧].

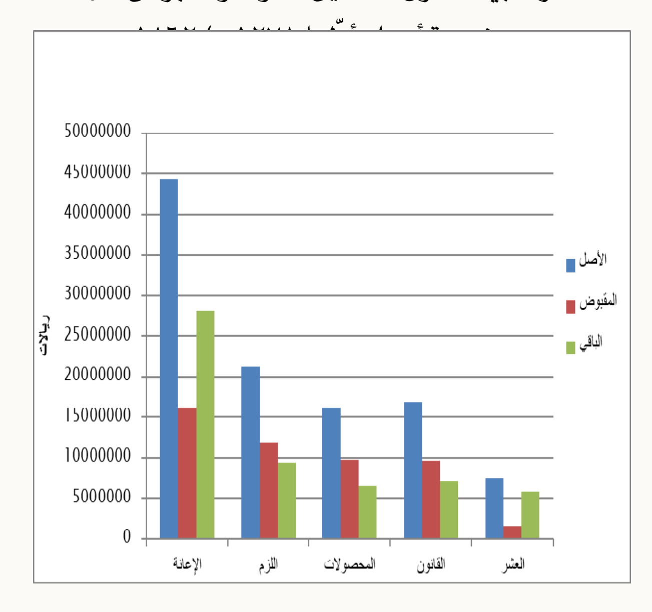
واصلت السلطة المركزية نفس السياسة الجبائيّة رغم ما تعانيه البلاد من تراجع شمل جميع القطاعات، وعملت على الاستحواذ على ما تبقّى من ممتلكات سنة ١٨٦٥م، وأعلنت بعض المناطق الرفض والعصيان "...وأما الهمامة وجلاص فإنهم جاهروا بالامتناع... وحاصل ما تتحدث الناس به أن ما وقع بهذه المحلة من الجور وسلب النعمة، على كيفيات تنبو عنها الأسماع وتقشعر منها الجلود، هو الآن حديث الرفاق في هذه الإيالة، وكاد أن ينسي ما وقع بالساحل"[٧٨]. وهو ما أدّى إلى تطور الأزمة المالية مع تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والتي تواصلت إلى أواخر الستينات حيث عرفت البلاد انتشار الوباء سنة ١٨٦٧م الذي أودى بحياة ربع سكان الإيّالة إضافة إلى تردّي المحاصيل الزراعيّة نتيجة الجفاف وانتشار المجاعة بالبلاد مع ارتفاع أسعار "سائر ما يباع، حتى حيوانها وغلالها، لأن البائع إنما باع لشراء القوت"[٧٩]، بالإضافة إلى رواج العملة النحاسية وتزايد العملات المزيفة في كامل جهات الإيالة[٨٠] وهو ما أدى إلى ارتفاع الأسعار وتأثر عمليات البيع والشراء بالأسواق التونسية مثل ما حصل بسوق الكاف وتضرّر الموارد المالية لصالح بن محمد لزام محصولات المكان من جرّاء التعامل بسكة النحاس عوض الفضّة التي "انقطعت... نصرفوا ١٠٠ ريال فضّة بـ ١٥٠ ريال نحاس وليس وجدناها..."[٨١]، خاصة مع تواصل انخفاض قيمة العملة التونسية وتبعية النقد التونسي تجاه المعادن المتجولة ورواج العملات الأجنبية[٨٢].

زادت الأزمة المالية في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية وتزامنت سنة ١٨٦٧م مع انتشار وباء الكوليرة الذي أودى بربع سكان الإيالة بالإضافة إلى تردي المحاصيل الزراعية نتيجة الجفاف، و"كاد أن ينحصر متجر الإيالة في جلود الميتة وعظامها وخِرَق أموات الفقراء الملتصقين بالأرض"[٨٣]. وهو ما تؤكده مراسلات اللزّامة إلى السلطة المركزية واصفة الوضع العام بالبلاد وعدم القدرة على تسديد أقساط اللّزمة لانعدام الأمن وقلة الإنتاج وتوقف عمليات البيع "فقد طال مكثنا وضاع بسبب ذلك وتعطّل ...وتكدّرت معيشتنا وضاع حقّنا، لأنّا ملتزمين محصولات سوق وطننا وتركنا أهلنا من بعدنا..."[٨٤]. ولمجابهة الضغوطات الجبائية عمد بعض الأهالي إلى الخروج من الإيالة التونسية وخاصة من يهود المملكة ومن أهل الكاف طالبين للحماية الفرنسية وخروج أهل الأعراض إلى طرابلس[٨٥].

هذا بالإضافة إلى ارتباط ارتسام الأسواق بتوفر عنصر الأمن وخاصة بالمناطق الداخليّة وتشكّي عدة لزّامة من ذلك مثل صالح بن محمد الذي تأثرت موارده من جراء التزامه لمحصولات أسواق الكاف "...بحيث منذ ستة أسواق لم ينعقدوا لكونهم لم يحضرهم بايعا ولا شاري ولا زالت الأسواق منحلّة الى الآن... وتعطلت المبيعات ووقع القحط والناس في ضنك شديد..."[٨٦]. وهي وضعية شملت كل الأسواق التونسية الحضريّة وخاصة الريفيّة منها بداية من سنة ١٨٦٦م واشتدت الأزمة مع حلول سنة ١٨٦٧، وهو ما يتبين من خلال موارد المحصولات التي سجلت أدنى مستوياتها سنة ١٢٨٣هـ/ ١٨٦٦-١٨٦٧م بـ ٦٣٣,٦٩٥ ريال وهو ما يمثل ١٨% من أصول المحصولات والتي بلغت ٣,٤٨٧,٩١٦ ريال مع العلم أنّ الخزندار قدّر الموارد الماليّة للدولة سنة ١٨٦٦م بـ ٤٣ مليون ريال وبلغت جملة المداخيل المسجلة بين شعبان ١٢٨٢ وشعبان ١٢٨٣/جانفي- ديسمبر سنة ١٨٦٦م ٤٠,٠٦٥,١٩٢ ريال و١٤,٢٨٥,٤٦٨ فرنك[٨٧]. وبالإضافة إلى ذلك فقد بلغت قيمة أصول اللّزم عامة بما فيها المحصولات بين ١٢٨١-١٢٨٤هـ/ ١٨٦٤-١٨٦٨م ٢٨,٩٥٥,٩٢٤ ريال قبضت منها الدولة

١٥,٢٩٦,٧٤٩ ريال. ومثّلت أصول لزمة المحصولات ١٢,٨٥٠,٢٥٢ ريال قبضت منها الدولة ٥,٤٧٢,٨٩٧ ريال[٨٨].

مقارنة بين أصول مداخيل الدولة والمقبوض منها



ورغم استفحال الأزمة الماليّة واصلت الدولة نفس السياسة الجبائية حيث عملت على جمع بقايا السنوات السابقة، والتي شملت كل المصادر الجبائية ومن بينها المحصولات، رغم تراجع الأنشطة التجارية وحركة المبادلات والاقتصاد التونسي عمومًا ، إضافة إلى ارتفاع الأسعار ورداءة المحاصيل وتتالي سنوات الجفاف والتي أودت بدورها إلى أزمة اقتصادية واجتماعية حادة بين سنتي ١٨٦٧ و١٨٦٨ ومع ذلك تواصل الضغط الجبائي على عامة الأهالي و"أصبحت بذلك المظالم أظهر للعيان فوصفها لنا ابن أبي الضياف وصفًا طويلاً ودقيقًا نستخلص منه أن البوادي التونسية سلط عليها في ذلك العصر نوع من "التمشيط" لم يبق لسكانها إلاّ آخر رمق، فكانوا معرضين الى الهلاك في سنوات الجفاف"[٨٩].

ومن مظاهر هذه الأزمة الشلل التام الذي أصاب الأسواق وخاصةً منها الريفيّة التي ظلّت مواردها محدودة، وأوردت الوثائق الأرشيفيّة جملة من الحجج الصادرة من العدول الذين عاينوا بعضها مثل سوق السبت بالزوارين بجهة الكاف فهو "...فارغًا من الناس لا بيع به ولا شراء خوفًا من النهب..."[٩٠] هذا مع تواصل محنة صالح بن محمد لزام محصولات الكاف المطالب بتسديد ما عليه من اللّزمة والذي وصل به الأمر إلى الإفلاس، وهو ما نتبيّنه من خلال مراسلة وجهها إلى وزير المال محمد العزيز بوعتور واصفا حالته "..وصرت نبيع في فرشي وأثاث بيتي من شدة ما حلّ بنا من العسر..."[٩١] وهي نفس الوضعيّة التي أصبح عليها إبراهيم الحكيري لزام محصولات سوق الاثنين بالرقبة من خلال مراسلة إلى وزير المال حيث أورد "...هاني نبيع في رزقي ونجمع نفسي وما علينا من الدراهم...بعدها تأتي لوزارة المال دون تراخي..."[٩٢]. وهو ما يبيّن وضعية بعض اللّزامة اللّذين تضرروا من جرّاء التزامهم للمحصولات.

حمّل ابن أبي الضياف مسؤولية هذه الأزمة الاقتصادية والاجتماعية إلى النظام السياسي والمالي والإدارة السيئة، هذا النظام الذي ربط التجربة الإصلاحية بالمطالب الجبائية وهي مطالب فاقت الحدود والإمكانيات الحقيقية للمجابين إضافة إلى انتشار الفساد بين بعض ممثلي الدولة ووزرائها. أوجبت هذه الوضعية إلى اللجوء إلى الاقتراض من الخارج الذي أدى في النهاية إلى الخضوع للمراقبة الدولية عبر اللّجنة المالية الدوليّة أو "الكوميسيون المالي" سنة ١٨٦٩م وجدولة ديون البلاد في أواخر جمادى الأولى من سنة ١٢٨٦هـ/١٨٦٩م مع العلم أنّه منذ ربيع الأول سنة ١٢٨٤هـ/١٨٦٧م تم -وللمرة الأولى منذ إحداث قانون المحصولات سنة ١٢٤٦هـ/١٨٣١م- تخصيص مدخول عدد من إتاوات المحصولات لتسديد الديون الخارجية[٩٣].

خَاتِمَةٌ

مثلت ضريبة المحصولات أحد ركائز النظام الجبائي خاصةً في فترة أحمد باي الذي خصص كل المداخيل المتأتية من هذه الإتاوة تقريبًا إلى المصاريف العسكرية، إلاّ أن ذلك لا يخفي تواصل غياب المراقبة الجدية للموارد المالية، وهو ما حدث سنة ١٨٦٠م بتركيز جملة من المؤسسات الجديدة ومحاولة حصر المداخيل المتأتية من الضرائب بصفة عامة، ومثلت المحصولات موردًا هامًا من موارد السلطة وساهمت في تمويل الحركة الإصلاحية التونسية إلاّ أنّ سوء التدبير والإسراف المفرط وفرض ضرائب مشطة واعتماد جهاز إداري فاسد أثقل كاهل الميزانية وساهم في تدهور الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية والمالية خاصةً مع اعتماد السلطة المركزية بصفة كلّية على الموارد الجبائية لتمويل الإصلاحات العسكرية في مرحلة أولى والإصلاحات الدستورية في مرحلة ثانية وهو ما أدى إلى العصيان والممانعة التي وصلت حدّ الانتفاض على السلطة وعلى سياستها المالية والجبائية وهي معطيات تبرهن على أنّ إحكام التصرّف في الموارد المالية مسألة محورية في عملية الإصلاح.

أثقلت الإصلاحات التي أقدم عليها محمد الصادق باي ووزيره مصطفى خزندار كاهل الميزانية وزادت في تدهور الوضع الاقتصادي والاجتماعي والمالي واستفحاله بين سنتي ١٨٦٣ و١٨٦٩ واعتمادهم على سياسة القروض التي أثقلت كاهل الدولة وهو ما ساهم في تمهيد الطريق أمام القوى الأوروبية وخاصةً فرنسا التي عملت على تأمين الديون التونسية مما أدى إلى فقدان الإيالة لاستقلاليتها المالية والاقتصادية في سنة ١٨٦٩ بإرساء اللجنة المالية الدولية ثم فقدان استقلالها السياسي في ١٨٨١.

الإحالات المرجعية:

(١) غربي (محمد الأزهر)، **تونس رغم الاستعمار**، دار نقوش غربية، تونس، ٢٠١٣.

(2) Ganiage (J), *Les origines du protectorat français en Tunisie (1861-1881)*, Maison Tunisienne de l'édition, 1968, p116.

(٣) تونسي (خير الدين)، **أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك**، تحقيق المنصف الشنوفي، بيت الحكمة، الطبعة الثانية، تونس، ٢٠٠٠، م ١، ص ٣١.

(4) Henia (A), *Le Gérid : ses rapports avec le beylik de Tunis (1676-1840)*, ENS, Tunis, 1980, p 104.

(٥) بيرم الخامس (محمد)، **صفوة الاعتبار بمستودع الأمصار والأقطار**، تحقيق علي بن طاهر الشنوفي ورياض المرزوقي وعبد الحفيظ مرزوق، بيت الحكمة، تونس، ١٩٩٩. م ٢، ص ٤٦٦.

(٦) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان بأخبار ملوك تونس وعهد الأمان**، تحقيق لجنة من وزارة الشؤون الثقافيّة، الدار العربية للكتاب، ١٩٩٩، المجلد (م) ٣، الجزء (ج) ٥، ص ٥٢.

(٧) الأرشيف الوطني التونسي (أ. و. ت)، دفتر ٦٣٥.

(٨) ابن أبي الضياف(أحمد)، **إتحاف أهل الزمان... مصدر سابق (م س)**، م ٢، ج ٤، ص ٢٤٣.

(9) *Chaudier(J), Le régime douanier de la Tunisie : la loi française du 19 juillet 1890, le décret beylical du 2 mai 1898, Montpelier, 1898, p 5-6.*

(10) *Ganiage (J), Les origines du protectorat…ouvrage précédemment cité (op cit), p 198.*

(11) *Chater(k), Dépendance et mutations précoloniales : La Régence de Tunis de 1815 à 1857, P.U.T, Tunis, 1984.*

(١٢) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان...م س**، م ٢، ج ٤، ص ١٢٦-١٢٧.

(١٣) تونسي (خير الدين)، **أقوم المسالك...م س**، ص ٣٦.

(١٤) أ. و. ت، دفتر ٥٧٦، ص ٣١.

(١٥) نفس المصدر، السلسلة التاريخية (س ت)، الحافظة (ح) ٩٢، الملف (م) ٨٧، و٣.

(١٦) تيمومي(الهادي)، **الاستعمار الرأسمالي والتشكيلات الاجتماعية ما قبل الرأسمالية: الكادحون "الخمّاسة" في الأرياف التونسية ١٨٦١-١٩٤٣**، دار محمد علي الحامي، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، ١٩٩٩، ج ١، ص ١٤٦.

(١٧) أ. و. ت، دفتر ٥٧٦، ص ٣١.

(١٨) غربي (محمد الأزهر)، **تونس رغم الاستعمار... مرجع سابق (م س)**، ص ٤٩-٥٠.

(١٩) **ماجري** (الأزهر)، **قبائل ماجر والفراشيش خلال القرنين الثامن عشر والتاسع عشر (في جدليّة العلاقة بين المحليّ والمركزي)**، منشورات كلية الآداب والفنون والإنسانيات، منوبة، تونس، ٢٠٠٥، ص ٢٥٧-٢٥٨.

(٢٠) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان...م س**، م ٢، ج ٣، ص

(٢١) نفس المصدر.

(٢٢) نفس المصدر، م ٢، ج ٤، ص ٣٨.

(٢٣) أ. و. ت، س ت، ح ٩٢، م ٨٠، و٣.

(٢٤) نفس المصدر، ح ٩٢، م ٨٣، و٣ – ١٠.

(٢٥) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان...م س**، م ٣، ج ٥، ص ٥١-٥٢.

(٢٦) أ. و. ت، دفتر ١٩٢٣.

(٢٧) أ. و. ت، س ت، ح ٩٣، م ١٠٥، و١١١.

(٢٨) نفس المصدر.

(٢٩) نفس المصدر.

(٣٠) نفس المصدر، دفتر ١٩٢٦.

(٣١) نفس المصدر، دفتر ١٩٢٣.

(٣٢) أ. و. ت، س ت، ح ٩٣، م ١٠٥، و١١١.

(٣٣) نفس المصدر، ص ٣١-٣٢-٣٣-٣٤.

(٣٤) هذه الغلال هي: الأرنج" و"الترنج" و"المقرقب" (وهو التين الشوكي) و"التوت" و"حب الملوك" و"الليمون" و"الليم البلدي" و"المشماش الشاشي".

(٣٥) الخضروات هي: "البراصية" و"القنارية ورق" و"النعناع" و"الكرضون" و"البروكلو" و"الكلافص" و"الخيار" و"الباذنجال" و"الفجل".

(٣٦) أ. و. ت، س ت، ح ٩٣، م ١٠٥، و١١١.

(٣٧) من بين المواد التي خضعت للقطع على الحمل في السابق: البصل والجزر و"الخص" و"البراصية" و"القناوية" و"النعناع" و"الكرضون" و"البروكلو" و"الكلافص" و"اللوز الاخضر".

(٣٨) أ. و. ت، س ت، ح ٩٣، م ١٠٥، و١١١.

(٣٩) هذه المواد هي رسم "البطيخ" و"الدلاع" و"القرع" بأنواعه و"الطماطم" و"الفلفل الأخضر" و"الفقوس" و"الخيار" و"القناوية" و"الفول الأخضر" و"الجلبانة".

(٤٠) نفس المصدر، دفتر ١٩٢٣.

(٤١) نفس المصدر، س ت، ح ٩٣، م ١٠٥، و١١١، ص ٥٠.

(٤٢) نفس المصدر.

(٤٣) بن سلامة (محمد)، **العقد المنضد في أخبار مولانا المشير احمد**، مخطوط بالمكتبة الوطنيّة تحت رقم ١٨٦١٨، ص ١٢١.

(٤٤) ابن أبي الضياف (أحمد)، **اتحاف أهل الزمان...م س**، م ٢، ج ٤، ص ٣٨-٣٩.

(٤٥) أ. و. ت، س ت، ح ٩٣، م١٢٦، و ٢٠.

(٤٦) بشروش (توفيق)، **الولي الصالح والأمير في البلاد التونسية**، المركز الوطني للترجمة، تونس، ٢٠١٣، ج ٢، ص ٥٧٥-٥٨٨.

(٤٧) ابن أبي الضياف (أحمد)، **اتحاف أهل الزمان...م س**، م ٣، ج ٥، ص ٨٩.

(٤٨) أ. و. ت، س ت، ح ٩٢، م ٨٥، و١٢.

(٤٩) نفس المصدر، ح ٩٢، م ٨٧، و٣.

(٥٠) ابن أبي الضياف (أحمد)، **اتحاف أهل الزمان...م س**، م ٣، ج ٥، ص ١١٢.

(٥١) نفس المصدر، ص ١١٤.

(٥٢) نفس المصدر، ص ١١٢-١١٣.

(٥٣) أ. و. ت، دفتر ٢٢٥٠/٣، ص ٩٠.

(٥٤) نفس المصدر.

(٥٥) أ. و. ت، س ت، ح ٩٥، م ١٢٧، و٦٢.

(٥٦) نفس المصدر.

(٥٧) نفس المصدر، ح ٩٣، م ١/١٠٧، و١٧-٢٣-٢٨-٣٤.

(٥٨) نفس المصدر.

(٥٩) نفس المصدر.

(٦٠) نفس المصدر، ح ٩٣، م ١٠٤، و١-٣٤-٣٥-٣٧-٣٨.

(٦١) نفس المصدر، ح ٩٣، م ١/١٠٧، و١٧-٢٣-٢٨-٣٤.

(٦٢) نفس المصدر.

(٦٣) نفس المصدر، ح ٩٥، م ١٣٢، و٧٥.

(٦٤) نفس المصدر، ح ٩٥، م ١٢٧، و٦٢.

(٦٥) نفس المصدر.

(٦٦) نفس المصدر.

(٦٧) نفس المصدر، ح ٩٥، م ١٢٧، و٦٢.

(٦٨) نفس المصدر، س ت، ح ٩٢، م ٨٧، و٣.

(٦٩) نفس المصدر، ص ٢-٥.

(٧٠) نفس المصدر، دفتر ٥٣٦، ص ١٩.

(٧١) نفس المصدر، دفتر ٥٣٨.

(٧٢) نفس المصدر، دفتر ١٩١٨.

(73) *Slama(B), L'insurrection de 1864 en Tunisie, Maison Tunisienne De L'Edition, Tunis, 1967, pp 24-32.*

(74) *Chater(K), Insurrection et répression dans la Tunisie du XIX siècles : La Mehalla de Zarrouk au Sahel (1864), Publication de L'Université de Tunis, Tunis, 1978.*

(٧٥) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان... م س**، م ٣، ج ٥،

(٧٦) أ. و. ت، دفتر ١٥٣، ص ٥٤.

(٧٧) نفس المصدر، دفتر ٥٧٦، ص ٥-٧.

(٧٨) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان... م س**، م ٣، ج ٦، ص ٥٣-٥٤.

(٧٩) نفس المصدر، ص ٧٨-٩٢.

(٨٠) بشروش (توفيق)، **الولي الصالح...م س**، ص ٤١١-٤١٤.

(٨١) أ. و. ت، س ت، ح ٩٥، م ١٢٧، و٦٢.

(٨٢) بشروش (توفيق)، **الولي الصالح...م س**، ص ٤٢٧-٤٢٨.

(٨٣) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان...م س**، م ٣، ج ٦، ص ٨٩.

(٨٤) أ. و. ت، ح ٩٥، م ١٢٧، و٦٢.

(٨٥) ابن أبي الضياف (أحمد)، **إتحاف أهل الزمان...م س**، م ٣، ج ٦، ص ٥٣ - ٧٣.

(٨٦) أ. و. ت، ح ٩٥، م ١٢٧، و٦٢.

(٨٧) نفس المصدر، دفتر ٥٤٦، ص ١٣٨-١٥٢-١٦٨.

(٨٨) نفس المصدر، دفتر ٥٧٦، ص ٥ – ١٠.

(٨٩) عبد السلام (أحمد)، **المؤرخون التونسيون في القرون ١٧ و١٨ و١٩**، ترجمة المؤلف وعبد الرزاق الحليوي، بيت الحكمة، تونس، ص ٤٣٣-٤٣٤.

(٩٠) أ. و. ت، س ت، ح ٩٥، م ١٣٢، و ٨٠.

(٩١) نفس المصدر، ح ٩٥، م ١٢٨، و٨.

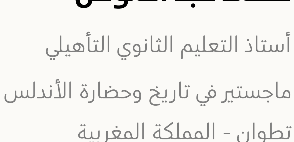
(٩٢) نفس المصدر.

(٩٣) نفس المصدر، ح ٨٩، م٩٢/١، و١٥.

ترجمات
ISSN: 2090 – 0449 Online
ARCIF Arab Citation and Impact Factor, [Q3].
AIF Arab Impact Factor for Arabic Scientific Journals, [1.73].

محضر تسليم فقيهان من مدينة برجة لكتبهما لديوان التفتيش المقدس





محمد عبد المومن
أستاذ التعليم الثانوي التأهيلي
ماجستير في تاريخ وحضارة الأندلس
تطوان - المملكة المغربية

المقال

(AHPB. Prot. de Lope Aoiz, 25.1.1526. Folios 7-8)

Ana LABARTA Y J. Carlos ESCRIBANO (Universidad de Valencia), LAS BIBLIOTECAS DE DOS ALFAQUÍES BORJANOS.- Anaquel de Estudios Árabes 11-2000. Pp. 356 - 358.

عرف البحث في تاريخ وتراث الموريسكيين، انتعاشًا كبيرًا خلال السنوات الماضية، وخصوصًا مع حلول الذكرى الأربعمائة للطرد القسري الذي تعرضوا له سنة ١٦٠٩، ورغم نشر عدد المؤلفات والدراسات التي تعمقت في الكثير من جوانب تاريخهم، إلا أن بعض الجوانب لا تزال غامضة ومنها مسألة الثقافة المكتوبة لقلة المعطيات وتشتتها. يمكن للمخطوطات التي يعثر عليها بين الحين والآخر في تكشف بوضوح عن الكتابات التي كانت شائعة في أوساط الموريسكيين وقد عثر على أغلب هذه المخطوطات مخبئة في مخابئ سرية في عدد من المنازل العتيقة في العديد من المدن الإسبانية وخصوصًا في أوكانيا وبسطة وبلدة المنجد دي لا سييرا التي عثر فيها على أكثر من مائة مخطوط. الوثيقة الراهنة المحفوظة بالأرشيف البلدي لمدينة برجة وهي بلدة قريبة من مدينة سرقسطة عاصمة إقليم أراغون، كُتبت بلغة قشتالية قديمة يسميها المتخصصون لغة العصر الذهبي وهي لغة تتضمن الكثير من الكلمات والجمل والتراكيب المتروكة حاليًا، كما أن كتابة حروفها تختلف عن الكتابة الحالية.

بيانات المقال:

تاريخ استلام الترجمة:	٠٨	أكتوبر	٢٠٢٣
تاريخ قبـول النشـر:	٢٢	نوفمبر	٢٠٢٣

كلمات مفتاحية:
الموريسكيون؛ الأندلس؛ ديوان التفتيش؛ كطالونيا؛ النوازل

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.346808


الاستشهاد المرجعي بالترجمة:
وثيقة."محضر تسليم فقيهان من مدينة برجة لكتبهما لديوان التفتيش المقدس"، ترجمة: محمد عبد المومن.- دورية كان التاريخية.- السنة السادسة عشرة - العدد الثاني والستون؛ ديسمبر ٢٠٢٣. ص ٢٣٠ – ٢٣٣.

Corresponding author dream-way@hotmail.com

Editor In Chief: mr.ashraf.salih@gmail.com
Egyptian Knowledge Bank: https://kan.journals.ekb.eg
Twitter: http://twitter.com/kanhistorique
Facebook Page: https://www.facebook.com/historicalkan
Facebook Group: https://www.facebook.com/groups/kanhistorique

مقدمة

عرف البحث في تاريخ وتراث المورسكيين، انتعاشًا كبيرًا خلال السنوات الماضية، وخصوصًا مع حلول الذكرى الأربعمائة للطرد القسري الذي تعرضوا له سنة ١٦٠٩، ورغم نشر عدد المؤلفات والدراسات التي تعمقت في الكثير من جوانب تاريخهم، إلا أن بعض الجوانب لا تزال غامضة ومنها مسألة الثقافة المكتوبة لقلة المعطيات وتشتتها. فما هي الكتب التي درسها المدجنون والمورسكيون خلال العقود الأخيرة من وجود المسلمين بالأندلس؟ وما هي الكتب التي شكلت ثقافتهم؟ من هي الفئات الاجتماعية التي كانت تحتفظ بمكتبات منزلية؟ ما هي أثمان الكتب؟

للإجابة على هذه الأسئلة يمكن الاعتماد بالأساس على محاضر محكمة التفتيش وخصوصًا المحاضر المتعلقة بالمورسكيين الذي حوكموا بسبب احتفاظهم بكتب عربية، لكن كتاب هذه المحاضر ركزوا على الجانب الشكلي، حيث وصفوا الشكل الخارجي وحجم الكتابة ونوعها، لكنهم فيما يتعلق بالمضمون، لا نجد إلا معلومات عامة من قبيل: "كتاب حول شعائر وعبادات المسلمين". كما يمكن للمخطوطات التي يعثر عليها بين الحين والآخر في تكشف بوضوح عن الكتابات التي كانت شائعة في أوساط المورسكيين وقد عثر على أغلب هذه المخطوطات مخبئة في مخابئ سرية في عدد من المنازل العتيقة في العديد من المدن الإسبانية وخصوصًا في أوكانيا وبسطة وبلدة المنجد دي لا سييرا التي عثر فيها على أكثر من مائة مخطوط، وقد يكون كتاب التفسرة للفتى الأغربالي Mancebo de Arevalo (مورسكي مجهول عاش خلال النصف الأول من القرن السادس عشر)، أشهر وأهم مخطوط مورسكي عثر عليها لكون مؤلفه عاصر مآسي التي تعرض لها المورسكيون، خلال القرن السادس عشر ولتركيزه على الجانب التاريخي والشعائري للجماعات المورسكيين.

لغة الوثيقة

كتبت هذه الوثيقة المحفوظة بالأرشيف البلدي لمدينة برجة وهي بلدة قريبة من مدينة سرقسطة عاصمة إقليم أراغون، بلغة قشتالية قديمة يسميها المتخصصون لغة العصر الذهبي وهي لغة تتضمن الكثير من الكلمات والجمل والتراكيب المتروكة حاليًا، كما أن كتابة حروفها تختلف عن الكتابة الحالية، ف حرف s يكتب f وحرف i يكتب y ... إلا أن ما يميز لغة هذه الوثيقة بالذات تأثرها باللغة الكطلانية لوجود بعض الكلمات والتعابير التي تنتمي إلى هذه اللغة، وسبب ذلك على الأرجح هو الجوار الجغرافي والتشابه الثقافي بين أراغون وكطالونيا، بقي أن نشير إلى أننا حاولنا أن نضيف أسماء الكتب باللغة العربية وأسماء مؤلفيها رغم صعوبة التعرف عليها بدقة.

نص الوثيقة

محضر تسليم فقيهان من مدينة برجة لكتبهما لديوان التفتيش المقدس

برجة، يوم ٢٥ يناير [١٥٢٦]، وفي منزل الفقيه المسلم علي الوكيل الذي يوجد بزقاق لا مخرج له بحارة المسلمين بجوار منزل علي طيرير ومنزل ورثة يوسي الجزار.

وبحضور السادة علي الوكيل وحامد أبراندا وكلاهما فقيهان مسلمان من سكان حارة المسلمين، وبحضوري أنا الموثق وكذلك بحضور الشهود وهم القاضي أنطون دي ألبريت، والمحلفون بمدينة برجة أندريس دي مندوثا وألونسو طولوسا الذين صرحوا بأنهم حضروا بطلب من بيرناط خوردان، عالم العقيدة والممثل الرسولي لديوان التفتيش المقدس وهو كذلك رئيس مفتشي ديوان التفتيش المقدس بهذه البلدة وبالمناطق الواقعة على ضفة النهر، وذلك لحضور مراسيم دخول المسلمين في العقيدة الكاثوليكية المقدسة.

ولتجنب العقوبة القاسية جدًا التي يمكن أن تترتب عن جريمة الاحتفاظ بكتب النحلة المحمدية والتي هي أداء مائتي دوقية ذهبية، طلب منهما (بالإضافة إلى أوامر أخرى) تسليم جميع الكتب والمخطوطات ذات الصلة بالنحلة المحمدية درأ للعقوبة المشار إليها سلفًا.

ومن جانبها أكد الفقيهان علي الوكيل وحامد أبراندا أنهما مطيعان لأوامر الإمبراطور وللرسوليين، ونظرًا لأنهما يعتبران نفسيهما أوفياء، رعايا، وخدامًا، مطيعين لتلك الأوامر فإنهما سيسلمان للقاضي ولمحلفي البلدة كل كتب النحلة المحمدية التي بحوزتهما وأسماء هذه الكتب:

م	اسم الكتاب		اسم الكتاب في الوثيقة
1			libro llamado que ay cinco partes de vii xiles
2	كتاب المناقب		libro llamado caa bul manequia
3	كتاب الحصن الحصين	ابن الجزري	libro llamado aljazir de bulcair
4	قصة ذو القرنين		libro llamado bulcarnain
5	مجموعة من القصص		libro llamado maxmua de recontamientos
6	كتاب في النوازل		libro llamado de los dichos de los maestros
7	كتاب في الطب لا يمكن تحديد اسمه أو اسم مؤلفه		libro llamado de arte de medecina
8	كتاب في النوازل		libro llamado de las opiniones de los doctores
9	جامع البيان عن تأويل آي القرآن	محمد بن جرير الطبري	libro de mahoma de atabarri
10	كليلة ودمنة	نقله الى العربية عبد الله بن المقفع	libro de caligua gualina
11	شرح كتاب التفريع	لكتاب التفريع شروح عديدة لذلك لا يمكن أي شرح بالضبط	libro llamado xaruta fria
12	كتاب في النوازل		libro llamado opinión de doctores
13	المقنع في علم الشروط	محمد بن مغيث الطليطلي	llamado guecei ibo mugueiz
14	كتاب في الفقه	la ley y la cuna don ice de gebir	libro llamado de leyes
15	كتاب في الفقه		libro llamado de leyes
16	الارجوزة التلمسانية في الفرائض	أبو الحسن علي بن يحيى بن محمد المغيلي	libro llamado de tilincenia
17	ربع القران		libro llamado un quarto del alcoram
18			libro llamado nu z mu la ti man
19	الاجرومية	ابن اجروم	libro llamado quitebulageromi
20	الرسالة	ابن ابي زيد القيرواني	libro llamado la ricela
21	فرائض الكلبي		llamado faraiducalbi
22			llamado de las siete opiniones
23			llamado en leyes que no tiene principio
24			llamado el recontamiento de gueceli demaxqui
25	كتاب الاربعين	الإمام النووي	llamado quitebul arbara
26	مختصر كتاب العين	لأبي بكر محمد بن الحسن الزبيدي	llamado moota can[a]lain(a)
27	قد يكون كتاب المختصر أو كتاب منتخب الأحكام	ابن أبي زمنين	llamado quitebu ibinabizamani
28	كتاب المجموعة	ابن بشير	llamado quitebul maxmoati
29	كتاب الإيمان	الكتاب الأول من صحيح مسلم	llamado quitebul ymen
30	المدونة	سحنون	llamado (de ley) quitebul abduvelguen
31	السفر الثالث من كتاب التوقيف		llamado acifru cells min quitebi ltuquife
32	كتاب في الفقه المالكي قد يكون الموطأ وربما كتاب آخر		llamado en leyes de melic
33			llamado quitebul oluxbi
34	كتاب الدعوة والإنكار	ابو محمد علي بن أبي	llamado quitebul deague gue linquer

م	اسم الكتاب		اسم الكتاب في الوثيقة
		الحسين الرعيني القيرواني	
35			llamado quitebul min macein licelez
36			llamado quitebul macein qui miliquite
37	كتاب الاصول		llamado quitebul ocul
38	كتاب معرفة اصول الحديث	النيسابوري	llamado quitebul marifat ocul
39	سفرين من كتاب في الفقه		llamado dos acifres de un libro en leyes
40	كتاب المجادلة		otro libro llamado quitebul mugedala
41	كتاب صحيح البخاري	الإمام البخاري	llamado quitebul buari
42			llamado quitebul mazmú almadin
43			quitebul maxmua، de mim aqua tibi motalife
44	كتاب المواريث		quitebul magueriz
45	كتاب مختلط		llamado maxmua de muchas species
46	كتاب في الفقه		llamado quitebul fique

أما الكتب التالية ففي ملكية حامد أبراندا:

م	اسم الكتاب		اسم الكتاب في الوثيقة
47	كتاب المقصد المحمود في تلخيص العقود	الجزيري	libro llamado quitebul almacati almaamut
48			libro llamado quitebul buari men alazdi
49	ربع القران		llamado quarto del alcoram
50	ربع القران		quarto del alcoram
51	جزء سبح		(qu) llamado izbizabai
52	ربما كتاب الورقات	لأبي المعالي الجويني	llamado unas alguaraguas
53	العقيدة او الجملة المختصرة من واجب أمور الديانة	ابن ابي زيد القيرواني	llamado quitebul diene
54	كتاب في الطب		llamado quitebul tibi
55	كتاب في الفقه		llamado quitebul filfagui
56	كتاب المدونة	سحنون	llamado quitebul mudaguana.

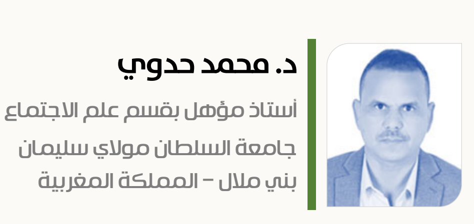
وقد سلم الفقيهان علي الوكيل وحامد أبراندا الكتب التي كانت بحوزتهما للقاضي ولمحلفي البلدة البلدة المذكورة أسمائهم سلفًا والذين أقروا بأنهم تسلموا تلك الكتب وصارت في عهدتهم بعد أن تنازل عنها الفقيهان سالفي الذكر.

وثق بكل أمانة ما أملاه الفقيهان والقاضي والمحلفين الموثقان ميغيل دي فونيس وموسى دي أبراندا.

العقل في مواجهة المال

الحرب بين المثقفين والرأسمالية





د. محمد حدوي
أستاذ مؤهل بقسم علم الاجتماع
جامعة السلطان مولاي سليمان
بني ملال – المملكة المغربية

بيانات الكتاب

المؤلف: ألان سيدني كاهان
الناشر: المركز العربي للأبحاث
عدد الصفحات: ٤٣٠ صفحة

الطبعة: الأولى. سنة النشر: ٢٠٢٣
مكان النشر: الرباط - المغرب.

كلمات مفتاحية:
الرأسمالية؛ المال؛ المثقف؛ الحركات الاجتماعية؛ الاغتراب؛ العولمة

معرِّف الوثيقة الرقمي: 10.21608/KAN.2023.346809

مقدمة

قصة العقل في مواجهة المال، أو بالأحرى قصة مناهضة المثقفين للرأسمالية، قصة طويلة ومثيرة يكثر عنها الكلام. بدأت الحكاية منذ أكثر من قرن ونصف تقريبًا، حين شرعت مجموعة من المثقفين الغربيين ومجموعة متنوعة من الحركات والأفكار والمواقف على رفض ومناهضة الرأسمالية، ومع اندلاع الأزمة المالية لسنة ٢٠٠٨، اكتسبت حكاية المناهضة دعمًا كبيرًا، ولاتزال إلى اليوم مثل هذه الحركات تنشط في الغرب وحتى في الشرق بأشكال جديدة ومتنوعة، مثل الحركات المناهضة للعولمة، وحركات الخضر، والجماعاتية، وحركات العصر الجديد وغيرها...، لقد سعى هؤلاء جميعًا بما أوتوا من بيان إلى استبدال النظام الرأسمالي بنظام آخر أقل عنفًا وأكثر عدالة وإنسانية.

إن مواجهة المثقفين والحركات المتنوعة المناهضة للرأسمالية يمكن أن نلخصها في مواجهة العقل للمال، وهذا ما عبر عنه المفكر والباحث السوسيولوجي (Alan) Sidney Kahan "ألان سيدني كاهان" في كتاب له نشر لأول مرة باللغة الإنجليزية تحت عنوان: "العقل في مواجهة المال: الحرب بين المثقفين والرأسمالية"، هذا الكتاب الذي ترجمه حمد مطيع إلى اللغة العربية سنة ٢٠٢٣، وقام بتدقيقه عدنان هويروى، والكتاب من ٣١

صفحة. ويروم هدف الكتاب الإسهام في تبيان وثيرة تصاعد معاداة الرأسمالية (المال) من طرف المثقفين (العقل) والعواقب الوخيمة على كل الأطراف المعنية بالحرب المميتة وصعوبة إنهاء الصراع وضرورة التخفيف منه، وإلا فإنه سيصبح محتم على الناس أن يعيشوا عيش زمن طويل من الثورات المنكوبة.

وتكمن أهمية الكتاب في محاولته لإيجاد حلول لهذا الصراع. وقد عرض المؤلف أفكاره من خلال **ثلاثة أقسام من الكتاب:** القسم الأول تناول فيه مسألة العقل في مواجهة المال. وفي القسم الثاني تطرق إلى ما وصفه بسخط المثقفين في القرن التاسع عشر وخاصةً في الفترة ما بين ١٨٥٠ و١٩١٤، أما القسم الثالث والأخير من الكتاب، فقد خصصه لعرض انتصارات ومآسي الروح المعادية للرأسمالية في القرن العشرين وخاصةً ما بين سنة ١٩١٤ و٢٠٠٢.

القسم الأول

استهل المؤلف في هذا القسم كلامه بالحديث عما وصفه بالبرج العاجي الذي هو في حالة حرب فظيعة مع الرأسمالية، وتخاض باستعمال أسلحة فتاكة والحصيلة مرشحة للارتفاع إذا لم يتعلم الناس طريقة أفضل للتعامل مع هذا الصراع. ويقصد بـ "البرج العاجي" المثقفين الذين يمثلون العقل، وبين كيف أن العديد من المثقفين الغربيين على مدار ١٥٠ سنة الماضية عبر عن رفضهم للرأسمالية والرأسماليين من خلال الانضمام إلى العديد من الحركات المختلفة، بما في ذلك القومية ومعاداة السامية والاشتراكية والفاشية والشيوعية والثقافة المضادة. معتبراً أن الولايات المتحدة تمثل نموذجًا لرؤية كونية فجة وجشعة تجسدها الرأسمالية التي تضع العديد من المثقفين في وضع المعارضة الدائمة. وإذا كانت الأيديولوجية الماركسية هي المهيمنة في الستينيات من القرن الماضي، فمع تقادمها، أصبحت اليوم بالية، حيث تم استبدالها بخطاب وإيديولوجية مناهضة للعولمة. وهنا يطرح المؤلف سؤالاً يبدو لنا وجيهًا: **لماذا يكره العديد من المثقفين الرأسمالية؟** وأي عيب يعتريها؟ ويجيب المؤلف بإجابات بديهية مستمدة من الدور الذي يلعبه المثقفون في المجتمعات الحديثة ومن التقاليد التاريخية التي تلهمهم رغم أن المثقفين يشكلون فئة قليلة وسط أولائك الذين يحتقرون الرأسمالية. وهنا للتوضيح أكثر، لتدقيق المفاهيم، استبدل المؤلف كلمة "الرأسمالية "بالمصطلح الأقل شحنة سياسيًا وهذا المصطلح هو "المجتمع التجاري"، الذي يعني به المجموع الكلي لطريقة تنظيم الإنتاج الاقتصادي، والأفراد، والتكنولوجيا، والقيم، التي ترتبط بهذه الشكل من الإنتاج.

ويحدد أوصاف المثقفين رغم غموضها بكونهم أشخاص ينحدرون من الأوساط الأكاديمية والأوساط البوهيمية الذين غالبًا ما يتألفون من الأساتذة الجامعيين والكتاب والفنانين (الرسامين والشعراء...) الذي قال عنهم بأن لطالما كان التعليم العالي ضروريًا لتحديد المثقفين غير أنه لم يعدّ كافيًا، وأضاف إلى هؤلاء مثلاً أساتذة اللغة الإنجليزية بسبب طبيعة اللغة التي يمتلكونها. فالتعليم الذي يحظون به يمكنهم من الانفراد بخصوصية معينة وأسلوب حياة مغايرة سواء أكانوا أكاديميين أم بوهيميين، وهذا التعليم يمنحهم مكانة ويجعلهم من أقلية نخبوية صغيرة من طبقة أرستقراطية تحقق وجوديتها في المجتمع رغم أنهم غير معترف بهم بشكل رسمي.

ونظرًا لكون أن المثقفين يكرهون الرأسمالية، يثير المؤلف سؤالاً واضحًا: لماذا تتحملهم هذه الأخيرة بكل تضارباتهم وتعقيداتهم؟ أولاً، لا يمكن التخلص منهم، وثانيًا أن الرأسمالية تجد فيهم منفعة وإفادة ليس لأن المثقفين يساهمون في الابتكارات التقنية والعلمية الجديدة، بل إنهم يقدمون للرأسمالية مساهمات غير مقصودة أخلاقيًا وسياسيًا رغم الانتقادات التي يكيلونها لها. وبما أن المثقفين استفادوا من تعليمهم والتقاليد الفكرية التي أثرت في صراع العقل ضد المال، فإن الرأسمالية التجأت إلى مقاومتهم بمحاربة النظام التعليمي الذي ينتجهم. ولفهم مَنْ هم المثقفون، يرى المؤلف أنه «علينا أن نفهم كيف يرتبطون بالمجتمع الديمقراطي. ويجب علينا أيضًا أن نسرد الحكاية الطويلة للحروب بين العقل والمال. وحينما سنتمكن من فهم حيثيات هذا الصراع وأنماطه المتكررة، سنتمكن حينها من السيطرة عليه».[1]

في البدايات الحديثة للرأسمالية، كان هناك نوع من انجذاب المثقفين البارزين، إلى اعتناق الرأسمالية، ولفهم الخلفية التاريخية التي دفعت هؤلاء إلى اعتناق

الرأسمالية، يتساءل المؤلف: ما الذي دفع غالبية المثقفين الغربيين البارزين إلى اعتبار الرأسمالية مفيدة في الفترة الممتدة من أواخر القرن السابع عشر إلى أوائل القرن التاسع عشر؟ للإجابة على هذا التساؤل، يرى المؤلف أنه وجب علينا فهم الانجذاب غير المسبوق الذي مثله المجتمع التجاري بالنسبة للمثقفين أولاً، وفهم سبب انتهاء هذه العلاقة ثانيًا، لكي نتمكن من معرفة سبب نشوب الصراع الذي أعقب ذلك ثالثًا. في البداية أظهرت الرأسمالية نوعًا من الصداقة مع المثقفين لأنها تخفض التفاوتات الاجتماعية والسياسية وتعمل على تقليص امتيازات الطبقة العليا، والرفع من مستوى الطبقة الوسطى والفقيرة عن طريق التجارة، وفي هذه المرحلة تم إبراز شمولية منافع الرأسمالية لجميع الفئات. وامتلك المثقفون عدة أسباب اجتماعية وفكرية وجيهة دفعتهم لتفضيل الرأسمالية في هذه الفترة، وفي هذا يقول المؤلف: «إن تأييد المثقفين للرأسمالية ناتج نسبيًا عن استيائهم من الرُّتب والامتيازات ومكانة الطبقة الأرستقراطية».[٢]

وبعد هذه الفترة الذهبية، ساهمت العديد من العوامل الاجتماعية والفكرية والتاريخية في نهاية ما سماه المؤلف بـ"شهر العسل" وتلاه مباشرة صدام لاذع مثل صراع ما بعد الطلاق. في إنجلترا، في بدايات سنة ١٧٩٠، قلق الناس من الهجمات المتتالية على رجال الأعمال والتي اعتبروها تساهم في "ازدراء التجارة والصناعة". باختصار، لقد اعتبرت العواقب الأخلاقية للرأسمالية محورية ومركزية الحجج التي استخدمها المثقفون لنزع الغطاء عن أخلاقيات الرأسمالية. التي نزعت الطابع الأخلاقي للتجارة حين يتعلق الأمر بالثراء والترف. وقد مثَّلت مثل هذه التبريرات إشكالية حتى بالنسبة لأشد المثقفين راديكالية.

القسم الثاني

يعالج المؤلف في الجزء الثاني من الكتاب كيف هاجم مثقفو القرن التاسع عشر(١٨٥٠و١٩١٤) الرأسمالية، وكيف مثَّل التأكيد على إخفاقاتها الأخلاقية القاسم المشترك في جميع انتقاداتهم لها تقريبًا. وكيف يتعرض كل من الرأسماليين والرأسمالية للهجوم، وتُصيب سهام نقد المثقفين رجل الأعمال أيضًا، وشخصيته وأسلوب حياته. ولمثل هذه الأسباب، فقدت الرأسمالية سمعتها الطيبة، وأضحت مصطلحًا سلبيًا عند مجموعة من المثقفين، وخاصة الفئة غير المسيسة، فقد كانت غير محبوبة عندهم. يُعبِّر جميع الكتاب الذين عرضهم المؤلف عن عدم فهمهم لماهية الرأسمالية وطريقة عملها. ويقر على أن «منظور المثقفين للعالم أصبح غير متناسب مع طريقة فهم البرجوازية، أو بالأحرى الرأسمالية ككل، بطرقهم المختلفة».[٣]

واضح جدًا أن أدب القرن التاسع عشر أَضَرَّ بشدة بالسمعة الأخلاقية للرأسمالية، لهذا انتقل المؤلف إلى عرض الطرق التي ساهم بها المثقفون بشكل مباشر في صنع أو التأثير على الحركات السياسية المعادية للرأسمالية في القرن العشرين. وهكذا انتقل بتحليله بخصوص الهجمات الممنهجة على الرأسمالية، وقبلها البدائل المقترحة، من عالم البوهيمية إلى الحقل الأكاديمي. فمن بين جميع المثقفين المعاصرين الذين انتقدوا الرأسمالية بشكل منهجي ومبسط واقترحوا بديلاً لها، اعتُبر كارل ماركس الأكثر شهرة بينهم لأنه كتب بقلم مغمور بالغضب. وفي رؤيته للرأسمالية، ينتقد ماركس المال الذي أعده أكثر عامل يجرد البشر من الإنسانية، ويرفض الرأسمالية لأسباب أخلاقية واقتصادية. ويرى أن المال رغم أنه يحقق أي هدف. رغم هذه القدرة التي يمتلكها، يظل وهمًا وسرابًا فقط وقد عبر عن كرهه للمال الذي قال عنه أنه «إله إسرائيل الغيور، الذي يرفض أن يقف إله آخر في وجهه».[٤] وبسبب المال، تخلّى النظام الاقتصادي والأفراد الذين يحركونه عن إنسانيتهم.

بعد ماركس والماركسيين المعادين للرأسمالية في القرن التاسع عشر والذين دافعوا عن المجتمع ضد ويلات التجارة، نجد في المرتبة الثانية، أحد الآباء المؤسسين للسوسيولوجيا الحديثة، ويتعلق الأمر بفرديناند تونيز (١٨٥٥-١٩٣٦) الذي استند على عامل الجذور الأخلاقي في رفضه للرأسمالية. ما يميّزه عن ماركس مرتبط في أن تونيز لا يملك أي شيء إيجابي ليقوله عن الرأسمالية. على الرغم من أن العمل الأكاديمي يستلزم الحياد، وقد اشتهر تونيز بكتابه "الجماعة والمجتمع المدني" الذي نُشر أول مرة في عام ١٨٨٧. ويركز هذا العمل على الصراع المنتشر عالميًا بين الجماعات الصغيرة المبنية على أسس القرابة والجوار ومجتمعات السوق التنافسية

الكبرى، فيبحث هذا الموضوع في جميع جوانب الحياة: في البنى السياسية والاقتصادية والقانونية والعائلية، وفي الفن والدين والثقافة، وفي بنى الذاتية والشخصانية وفي أنماط الإدراك واللغة والفهم البشري.[٥]

ويرى تونيز أن الجماعة المشتركة تمُثل بديلاً للمجتمع. لكنه لا يخبرنا كيف نستطيع الوصول إلى هذا الحل. ويرى أن التجارة لا تتوافق والجماعة المشتركة لأن التجارة تدمر الجماعة المشتركة وتستبدل بالفردانية التنافسية التي يتطلبها المجتمع. ليخلص تونيز إلى أن المجتمع الغربي يتطور بعيدًا عن الجماعة المشتركة نحو المجتمع التجاري. و«المجتمع يحول الناس إلى أفراد منعزلين يدخلون في صراع بعضهم مع بعض».[٦] وهذا التطور يشكل كارثة. إلى جانب تونيز، نجد فيبلين (١٨٥٧-١٩٢٩) عارض بنزعته البروتستانتية الرأسمالية على أسس أخلاقية تختلف عن الأسس الخاصة بتونيز، حيث انتقد فيبلين الرأسمالية لأنها تحدُّ من الإنتاج بدل تشجيعه. ويخلص فيبلين إلى فكرة مفادها أن «كلما زاد عدد وكفاءة رجال الأعمال في الجماعة (شريطة تساوي باقي المتغيرات)، كلما أضحى الأمر سيئًا بالنسبة لبقية الجماعة المشتركة...».[٧]

في إطار البحث عن بدائل للرأسمالية، يسوق المؤلف البدائل التي اقترحها المنظر الاجتماعي ماثيو أرنولد (١٨٢٢-١٨٨٨) وفريدريك نيتشه والتي هي بدائل يرى أنها مبنية على فكرة "تشجيع نوع معين من الشخصية" أكثر من "فكرة إنشاء مجتمع جديد". ويوضح كيف أن عداء أرنولد ونيتشه للرأسمالية يستند على الضرر الذي تلحقه بالفرد من جهة (تعمل على شلّ حركية الأفراد الذين يحاولون التشبه بالمثقفين)، والقيود التي تفرضها على الاستقلالية والإبداع من جهة ثانية. بالنسبة لأرنولد، تُعتبر الثقافة بديلاً للتجارة. يوُصنَّف دفاع أرنولد عن الثقافة ضد الرأسمالية على أنه دفاع أرستقراطي. ونفس الشيء بالنسبة لنتشه الذي عُرف بميوله ودفاعه الشرس عن الأرستقراطيين بشكل أساسي، يفضل "الجمال والعقل مثل أرنولد، ونجده يكن أحاسيس الازدراء لكل فرد كرس حياته لجمع المال، فهو يحتقر التجارة كمهنة. ويرى أن «المشكلة، لا تكمن في أن الرأسمالية تُجرِّد الأفراد من إنسانيتهم، بل في ملاءمتها لتوجهات الأفراد الحمقى الذين يُشكِّلون غالبية المجتمع».[٨]

مثل العديد من المثقفين الآخرين الذين عرضناهم، لا يُعتبر ألكسيس دو توكفيل مختلفًا كثيرًا عن أرنولد ونيتشه اللذان اتخذا موقفًا مناهضًا للرأسمالية، فهو يخشى أن ينغمس الأفراد في دائرة تحقيق ما سماه بـ"الأهداف التافهة" في كنف الثقافة التجارية ما يعجل من سقوطهم. فهو يعترض الرأسمالية لأنها في نظره تشكّل تهديدًا لخصال الشخصية الإنسانية. ولهذا سعى توكفيل إلى إعادة إحياء الأخلاق الإنسانية. باختصار، يمكن عمومًا قراءة الكثير من كتابات القرن التاسع عشر باعتبارها خُطبة واحدة طويلة مناهضة للرأسمالية. وعلى غرار معظم الخُطب، لم تصل لدرجة إقناع جمهورها من الطبقة الوسطى بالتخلي عن خطاياهم، لكن، في نفس الوقت، كانت فعالة جدًا في إقناعهم بفكرة أنهم آثمون.

القسم الثالث

لقد خصص المؤلف هذا القسم لعرض انتصارات ومآسي الروح المعادية للرأسمالية في القرن العشرين وخاصةً في فترة ما بين (٢٠٠١ - ١٩١٤). يستهل هذا القسم بعرض تحليل دوتوكفيل للمجتمع الديمقراطي وركز على كتابه "الديمقراطية في أمريكا"، هذا التحليل الذي اعتبره محوريًا في هذا الكتاب. وذلك لتفسير أسباب ميل العديد من المثقفين إلى القيام بالثورات. والأهم من ذلك كما يقول، "قدرتهم على توفير عدد كاف من المناصرين للنجاح في تدبير هذه الأخيرة".[٩] ورغم ذلك يعترف بأنه في ظلّ كل هذا، وفي ظل رفض الرأسمالية، لا طبيعةُ المجتمع الديمقراطي ولا طبيعةُ الطبقة المثقفة كافيتين لتفسير موجة الثورات التي اندلعت في العالم الغربي بعد الحرب العالمية الأولى (١٩١٤ – ١٩١٨).

وأدت الأزمة الاقتصادية والكساد الكبير في سنة ١٩٢٩ إلى إقناع المزيد من الأفراد والمثقفين برفض الرأسمالية والانضمام إلى حركة أو أكثر، وذلك قصد استبدالها ببديل أفضل. وهكذا بدأ التفكير في إنشاء مجتمع جديد، وظهرت أربع حركات معادية للرأسمالية احتلت مكانة خاصة في الساحة الفكرية، حيث شكلَّت كل من الشيوعية والفاشية والكاثوليكية الاجتماعية مجموعة حركات ثورية معادية للرأسمالية. لكن لم يكن كل المثقفين الذين رفضوا الرأسمالية ثوريين. فحتى في صفوف منتقدي الرأسمالية، لم يرغب الجميع في رفضها

بشكل كلي. وهكذا ظهرت الحركة الإصلاحية المتمثلة في الصفقة الجديدة.

الشيوعية

لقد وجدت بعد الحرب العالمية الأولى أسباب كثيرة جعلت الشيوعية جذابة بشكل خاص للمثقفين. أصبح العديد من المثقفين بعد الحرب العالمية الأولى شيوعيين، وأضحى العديد منهم مناصرين لا منتمين للقضية الشيوعية. ولعبت الثورة الروسية، بالنسبة للمثقفين، دورًا ثنائيًا متمثلاً في "الحقيقة" و"الأسطورة". لقد كان تأثيرها هائلاً. لقد بُشِّروا بالاتحاد السوفيتي على أنه "فردوس اقتصادي" بديل عن الرأسمالية. وتعتبر معاداة الرأسمالية مفتاحًا لفهم سبب استمرار المثقفين في دعم الشيوعية. أراد المثقفون الشيوعيون أن يكوِّنوا كتلة واحدة مع الشعب ودافع العديد من المثقفين عن الثورة ليس بسبب ما حققته، ولكن لما تنوي القيام به، ما يعني أن الحكم عليها سيكون من منظور أخلاقي غير سياسي ولا اقتصادي. وتباينت الأعداد النسبية للشيوعيين الغربيين ومناصريهم حسب تغير الظروف. وصل عدم رضاهم عن الرأسمالية إلى نقطة يرون فيها أن عدم تزايد عدد المثقفين الشيوعيين متعلق بوجود العديد من الحركات الأخرى التي تناشد كرههم للرأسمالية. ومن بين هذه الحركات، كان هنالك منافس واحد رئيس وثوري ونافذ: الفاشية.

الفاشية

اختلف المثقفون حول وصف الفاشية بين من وصفها بحركة ثورية، ومَنْ يعتبرها حركة معادية للرأسمالية. ورغم تردد المثقفين وخاصةً المؤرخين حول تصنيف الفاشية، فقد تم الاتفاق على أنها تتشارك في العديد من سمات النقد الاشتراكي والشيوعي للرأسمالية التي يُبدُون قبولاً لها. ومن جهة ثانية، فهي مجرد واحدة من الحركات المتنافسة التي تشترك في كراهية مشتركة للمال أولاً، وقيم وحياة البرجوازية ثانيًا". لقد جمع الفاشيون بين النزعة القومية والنقابوية، وكانوا يفضلون استخدام فكرة تونيز في التمييز بين الجماعة والمجتمع. ويتشارك المثقفون والفاشية في استنزاف الشرعة الأخلاقية للرأسمالية. لقد كانت الفاشية في وضع جيد كحركة معادية للرأسمالية لجذب العديد من المثقفين (وقد فعلت ذلك) سواء بالتحاقهم كأعضاء في الأحزاب الفاشية أو مناصرين بدون عضوية، وساهمت مواقف المثقفين المعادية للرأسمالية بشكل كبير في صنع تأثير الفاشية. إذا كان قد هاجم الفاشيون المثقف باعتباره أرستقراطيًا منعزلاً، وادعوا في كثير من الأحيان كرههم للمثقف، فقد أثنوا عليه في نفس الوقت باعتباره كاهنًا للقومية. وكان الفاشيون بزعامة هتلر وموسوليني يسعون إلى جعل الاقتصاد خاضعًا للأهداف العُليا للأمة المتجسدة في الدولة.

الكاثوليكية الاجتماعية

في وجود طريقة أخرى أكثر تقليدية لرفض العالم والمتمثلة في الدين، يرى المؤلف أن جميع المثقفين الذين قرروا محاربة الرأسمالية، أو القيام بثورة ضدها، لم يتحولوا جميعا إلى الفاشية أو الشيوعية، بل منهم مَنْ التجأ إلى التقاليد المسيحية، التي قدمت فيها الكاثوليكية مجتمعًا بديلاً معاديًا للرأسمالية. ولما كانت العديد من أفكار الشخصانية أفكارًا نموذجية للكاثوليكية الاجتماعية بشكل عام وكان بالإمكان تسمية هذه الحركة بـ"الكاثوليكية الاجتماعية" التي اعتنقها رجال ابتعدوا عن الانحطاط البورجوازي. فقد اعتمد رواد الحركة الشخصانية بشدة على التمييز بين المجتمع مقابل الجماعة المشتركة التي تحدث عنها تونيز. وقاموا بالحديث عن الجماعة المشتركة عوض الدولة كما تفعل الفاشية، أو عن "الطبقة" كما تفعل الشيوعية، أو "الفرد" كما تفعل البرجوازية (ومن هنا جاء استخدامهم "للشخصية").

وشددت الشخصانية على دعم كل من الجماعة المشتركة والشخص ضد الرأسمالية. ولتمييز نفسها عن الحركات البديلة المحصورة بين الرأسمالية أو الشيوعية، غالبًا ما أشار الشخصانيون إلى حركتهم على أنها "القوة الثالثة" أو "الطريق الثالث"، وعلى هذا الأساس، كافح أفراد الحركة الشخصانية من أجل طريقهم الثالث باستمرار للحفاظ على هويتهم الخاصة. فقد مثَّلت الحركة "الشخصانية" التي أسسها الفرنسي إيمانويل مونييه أكثر الحركات الكاثوليكية المعادية للرأسمالية نفوذًا بين المثقفين. ويُعتبر تطرُّق مونييه للحياة الصالحة مثالاً كلاسيكيًا لظاهرة وُجدت في جميع الحركات الثورية المعادية للرأسمالية التي يدعمها المثقفون. وشددت الشخصانية على انتقاد أسلوب الحياة البرجوازي أكثر من نقدها للنتائج الاقتصادية للرأسمالية.

عرض كتاب

الصفقة الجديدة

لم تكن كل الحركات الاجتماعية ثورية، فإذا كانت الشوعية والفاشية والكاتوليكية الاجتماعية قد تبنت الثورة ضد الرأسمالية، فإن حركة الصفقة الجديدة قد تبنت الإصلاحات التي اعتُبرت أكثر ثورية من الخط الثوري الذي تبنته الحركات الثلاث. فعلى الرغم من أن رواد الصفقة الجديدة لم "يعتنقوا الاشتراكية"، فقد كانوا يتصرفون باسم الجماعة المشتركة ضد الرأسمالية، وكانوا لا يسعون إلى تدمير الرأسمالية، بل كانوا يعملون من أجل الحد منها. وكان "رفضها لسياسة عدم التدخل" كافيًا لجعلها عدوة للرأسمالية في نظر الرأسمالي العادي. أحبّ أنصار الصفقة الجديدة الجمع بين اللغة الأخلاقية ولغة الكفاءة الاقتصادية، وبدلاً من مناشدة الثورة لإنقاذ الحضارة من الرأسمالية، ناشد أنصار الصفقة الجديدة التخطيط والتنظيم.

لعب المثقفون سواء كانوا ثوارًا أو مناصرين لا منتمين دورًا محوريًا في الويلات السياسية في القرن العشرين. ويرى المؤلف بأنه كان بإمكان العديد من المثقفين رفض الرأسمالية دون الحاجة إلى دعم القتل الجماعي أو إلغاء الحكومة الديمقراطية. ويبين المؤلف أن الكراهية الأعمى والعنيفة للرأسمالية دفعت الأفراد الأذكياء إلى ارتكاب أخطاء غير محسوبة، والاستمرار في ارتكابها. وتأتي هذه الكراهية نتيجة شبه ضرورية لهوية المثقف ووضعه الاجتماعي. ويعزي المؤلف سبب هذا الجهل إلى حاجة المثقفين إلى عالم مسحور تغذيه الأوهام المعادية للرأسمالية وحب الانتماء إلى هوية معينة تساعد المثقفين على التغلب بشدة على انعزالهم عن المجتمع تفاديا لواقع الاغتراب. في الحقيقة، كما يقول المؤلف «كان المثقفون في صدد البحث عن دين. ومن هذا المنطلق، تمكّن الإيمان الثوري من توفير ذلك عكس الرأسمالية».[10] وكما العادة، يؤدي الالتزام الديني العميق إلى خلق رؤية ضيقة لعالم تغذيه الأوهام، وانخرط المثقفون في دعم هتلر، ولنين، وستالين، وموسولوني، ولاحقًا ماو، وبول بوت، وكاسترو، وغيرهم لخوض صراعات ممنهجة ضد الرأسمالية. ليخلص إلى أنه، في عالم حُصر فيه الخيار السياسي الوحيد المتاح للمثقفين بين الشيوعية والتجارة، شهدت الحرب بين العقل والمال تراجعًا تكتيكية من طرف العقل بعد الحرب العالمية الثانية، وأبقى العقل نيرانه موجهة في وجه المال. وقد تغيرت الظروف بين الحرب العالمية الأولى التي ضاعفت من الأهمية السياسية للصراع بين العقل والمال مع ظروف ما بعد الحرب العالمية الثانية التي قللت من أهميتها. وهكذا، تقلص دور المثقفين وأصبحوا يعانون جراء ذلك من وهن سياسي. واكتسب النقد الثقافي، الأرستقراطي والديمقراطي، أهمية أكبر مع تلاشي الأهمية الثورية للشيوعية والفاشية وحتى تلك الخاصة بالصفقة الجديدة.

لقد اتّخذ رد الفعل الأرستقراطي للمثقفين ضد الرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية في نظر المؤلف عدة أشكال، لكن كان للبعض منها، الموجود في أعمال هايدغر ومدرسة فرانكفورت وفوكو، تأثير خاص. فبالإضافة إلى أعمل هيدغر وفوكو، طرحت مدرسة فرانكفورت قراءة قوية خاصةً لأسطورة الاغتراب، حيث هيمن الاغتراب الشامل على تحليلهم.

تبقى تعليقات هايدغر على التكنولوجيا الأكثر صلة برد الفعل الأرستقراطي للمثقفين ضد الرأسمالية بعد الحرب العالمية الثانية. هايدغر الذي أعرب لباقي المثقفين عن العديد من الأفكار التي اتخذت شكلاً شائعاً في الثقافة المضادة وحركة البيئة. أما فوكو، فقد أعطى أهمية كبرى للخطاب، لأن اللغة مرتبطة بممارسة السلطة والسيطرة. وأن اللغة أو الخطاب يُمثلان في الأساس انعكاسًا لبنية المجتمع الطبقية. فاللغة عند فوكو غير محايدة. ويمنح فوكو أهمية كبيرة للأخلاقيات أكثر من السياسة.

في النصف الثاني من القرن العشرين، وبعد التعافي من الأثر المادي والحرمان الناتج عن الكساد الكبير، انغمس جيل كامل من العالم الغربي بشراهة في جني الأموال، مما ساهم كرد فعل في بروز حركة الثقافة المضادة لهذا السلوك. وتسعى هذه الثقافة المضادة إلى تغيير الأفراد أولاً، والمؤسسات ثانيًا. مثلت هذه الثقافة ثورة ثقافية ديمقراطية معادية للرأسمالية سمحت للمثقفين بخلق اتصال مع الشعب. كانت هناك روابط قوية بين التركيز الروحي للثقافة المضادة ورغبة المثقفين في فرض بُعد أخلاقي على مجتمع رأسمالي متمرد. حيث عبرت هذه الثقافة المضادة عن التفاؤل، حيث نشرت «أيديولوجية الحب العالمي ووحدة الوجود الصوفي،

وخلقت ثقافة الرُحَّل من الحب والجنس والمخدرات وموسيقى الروك أندرول وتم تسميتها على أنها شكل من أشكال الرومانسية المناهضة للرأسمالية».(١١) وسيطرت على الأحداث السياسية، ورفض الهيبيون "أسلوب الحياة الأمريكي". وإن لم يكن الهيبيون مثقفين بمعنى الكلمة، فقد شكلت ثقافة الهيبز"Hippie" ثقافة مضادة، وانتشرت هذه الثقافة في أرجاء العالم رغم أنها لا تجسد موقف الأغلبية.

لقد أثارت حركة الثقافة المضادة ردة فعل ما يسمى بالمحافظين الجدد الذين تنطبق عليهم صفة المثقفين حسب التعريف الوارد في الكتاب. وهؤلاء المحافظون الذين لهم تأثير كبير من القراء عمومًا وفي السياسة الأمريكية على الرغم من كونهم مجموعة صغيرة. وفي مواجهة الثقافة المضادة، دعا المحافظون الجدد إلى العودة إلى القيم الأخلاقية التقليدية، وفضلوا عدم التعاطف مع الماركسية ومفهوم الاغتراب. لقد ربط العديد من المثقفين بين أمريكا والرأسمالية، ومعاداة أمريكا يعني معاداة للرأسمالية، دون أن يعني ذلك أن أمريكا هي البلد الرأسمالي الوحيد الذي ترمز ناطحات السحاب فيها على القوة والرغبة الشديدة لكسب المزيد من المال، لقد ضم المثقفون فرنسا ودول أوربية أخرى للآراء المعادية لأمريكا، هذا العداء الذي ترسخ بالنسبة لفرنسا في الأدب الفرنسي بحلول القرن التاسع عشر. وتطور هذا العداء بأشكال مختلفة في القرن العشرين حيث كان تصور العديد من المثقفين الفرنسيين تحمل لأمريكا جل خطايا الرأسمالية.

وبالنظر إلى ما أورده المؤلف عن مناهضة الرأسمالية، يرى بأن مناهضة العولمة تكتسي أهمية معينة في تاريخ مناهضة أمريكا، وذلك حين أضيف الطابع المؤسسي على الهجوم المعادي للرأسمالية من خلال إنشاء "المنتدى الاجتماعي العالمي" في بورتو أليغري بالبرازيل في سنة٢٠٠١ وغيره من الكيانات الأخرى التي منها حركة حماية البيئة والحركة النسوية. وتجدر الإشارة للتوضيح أكثر بأنه، يوجد حيّز كبير من التداخل بين الحركة الإيكولوجية والنسوية. هذه الحركة التي لعب فيها المثقفون الرجال والنساء دورًا كبيرًا منطلقين من رؤية مفادها أن الطبيعة على أنها أنثى، وسعت الحركة الايكولوجية والنسوية إلى ربط استغلال الطبيعة باستغلال النساء.

وفي الأخير، يرى المؤلف، بأنه من أجل الحصول على الوفاق بين العقل والمال، على المثقفين والبرجوازيين أن يدركوا أن الحرب بينهما لا تفيد، وأنه لا يمكن لأي من الطرفين تحمل تبعات عدم التفاهم المتبادل بينهما.

ومن أجل هذا، وُجد المجتمع الديمقراطي لتحقيق أكبر قدر من الخير لأكبر عدد ممكن من الأفراد.

واضح جدًا أن الرأسمالية تتقن إنتاج الثروة لكنها فشلت في توزيعها بشكل عادل، وبما أن ثقافة السوق تتجاهل الأخلاق، وعلى اعتبار أن المثقفين أفراد ذوو خبرة في الثقافة الأخلاقية، يتعين عليهم تشجيع الرأسمالية مع فرض مستوى معينًا من السلوك الأخلاقي وتحسين ثقافة الرأسمالية بحيث يمكن أن تتعايش الثقافة الأخلاقية مع المجتمع البورجوازي، وذلك بوضع حدود معينة للرأسمالية. كما ينبغي إصلاح المثقفين بنفس نسبة إصلاح الرأسمالية، ذلك أن إصلاح المثقفين سينتج عنه فوائد إضافية كثيرة، وإصلاح المثقفين يتم عن طريق التعليم العمومي، الذي يمكن الأفراد من أساسيات الثقافة الأخلاقية، فعن طريق التعليم العمومي يتعلم الأفراد أخلاقيات المسؤولية وأخلاقيات الغايات النهائية. وفي هذا السياق، ينتقد المؤلف التعليم الجامعي الذي قال عنه بأنه تعليم يتعلم فيه الطلاب مهارات تساعدهم في الحصول على وظيفة، لكنهم لا يتلقون أساسيات الثقافة الأخلاقية.

خاتمة

لقد خلق الصراع بين العقل والمال قصصًا أكثر إثارة، وهذا الصراع هو الصراع الأكبر الذي لم يتم إنهاؤه في المجتمع الحديث الذي تميزه الاضطرابات والأخطار والأزمات الخطيرة المتزايدة. ومن أجل أن نقوم بذلك، كما يقترح المؤلف، يجب أن نقوم بفهم ماهيته أولاً. وهو أمر ليس من السهولة بمكان بسبب كون الصراع بين العقل والمال مرهونًا بالتغيرات الاجتماعية والاقتصادية والفكرية والسياسية من جهة، وكون الصراع من جهة ثانية، يدور حول العقل الإنساني وفضائله. وهٰذا هو الّذي أشعل الفتن والحروب والصراعات الدمويّة على مرّ التاريخ، وإلى يومنا هٰذا، حيث فقد الناس الأمن الاجتماعي، والتعايش السلمي.

وفي الوقت الراهن، يعتقد المرء أن الصراع بين العقل والمال قد تجاوز أخيرًا المرحلة الحرجة، وأن حُمى معاداة الرأسمالية قد انتهت، وأن هذا الصراع لم يعدّ مهمًا في تاريخ المجتمع الغربي. ولكن هذا التفكير قد جانب الصواب. وقد تبيّن لنا من خلال عرض الكتاب كيف تسعى الرأسمالية (التجارية)، على مرّ التاريخ، وإلى يومنا هٰذا، إلى أضعاف أو القضاء على العقل الإنساني بطرائق شتى وبمسميات مختلفة؛ من أجل أن يتحوّل الناس إلى مجرّد آلات، يسهل السيطرة عليها، وتوجيهها في الاتجاه الّذي يخدم مصالحها الربحية المجردة من الأخلاق والفضائل الإنسانية. كما تبين لنا، أن العقل من جهة أخرى، أبى إلا أن يعلن في كل مرة عن نفسه وبأساليب مضادة لإحباط ولو نسبيًا ما تسعى إليه الرأسمالية. وهكذا يبدو جليًا صعوبة إنهاء الصراع، ولم يتبق للطرفين سوى السعي إلى التخفيف منه تفاديًا للثورات والثورات المضادة التي تودي بحياة البشر بلا فائدة.

الإحالات المرجعية:

(١) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**: الحرب بين المثقفين والرأسمالية، ترجمة مطيع حمد، تدقيق هويوى عدنان، المركز العربي للأبحاث، الرباط،٢٠٢٣. ص٣١.

(٢) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ١٢٤.

(٣) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ١٨٠.

(٤) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ١٩٦.

(٥) هاريس جوزيه في تونيز فرناند، **الجماعة والمجتمع المدني**، ترجمة حريري نائل، المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، الطبعة الأولى، بيروت، ٢٠١٧، ص٧.

(٦) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢١٠ – ٢١١.

(٧) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢١٥.

(٨) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢٢٩.

(٩) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢٤٣.

(١٠) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٢٨٩.

(١١) كاهان ألان سيدني، **العقل في مواجهة المال**، ص ٣٢٥.



2008 - 2023



https://kan.journals.ekb.eg

Historical Kan Periodical
ISSN: 2090 – 0449 (Online).
Peer-reviewed, open-access journal,
indexed and abstracted in several
international databases.

https://portal.issn.org/resource/ISSN/2090-0449
https://www.facebook.com/historicalkan